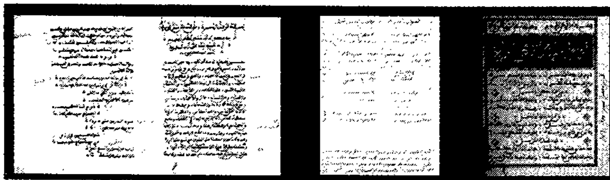
الشيخ محمد الشاذلي النيفر

أدباء سالفون

القرن الثاني عشر للهجرة

محمد الشافعي بن القاضي
أحمد العصفوري
إبراهيم العصفوري
محمد المختار العياضي
عبد القادر السلوي
محمد ماضور الأندلسي
محمد الملا
محمد بن سعيد الحجري
حمودة بن عبد العزيز
أبو الحسن الغراب
محمد سعادة
محمد الدرناوي
القوير القيرواني
سمية القيرواني
محمد الرشيد



إعداد وتقديم
الطاهر النيفر



دار الغرب الإسلامي
تونس

كتابي

إنّي وهبتك آرائي وأفكاري

ومن حُبِّك تسهادي وتِسهاري

أنت الخُلود وإن عزَّ الخُلود لنا

تخليد ذكراكَ لا تخليد أعْمَـارِ

محمَّد الشَّاذلي النَّيفر

المقدّمة

إنّ المتأمّل في سيرة الوالد الشّيخ محمّد الشّاذلي النّيفر رحمه الله ومسيرته يجد فيها صدى بيّنا لمعنى قول العرب في فرائدهم "طبيعة الأصل الكريم أن يتفرّع عنه مثله"، فهو قد جمع بين رسوخ العقيدة واتّقاد القريحة والإحاطة بالعلوم والآداب عامّة، وإنّما كان منه ذلك لما اجتباه به ربّه وهيّأه له من الظروف التي جعلته يشيّد ذلك المجد الذي اصطنعه لنفسه في حياته فخلّد ذكراه بعد مماته.

فانحدار الوالد من البيت النّيفري الذي تقاطعت فيه علوم الشّريعة وفنون الأدب كان الباعث على ولعه منذ الصِّغر، زد على ذلك نشأته في كنف والده الشّيخ محمد الصّادق النّيفر الذي ملأ وطابه بما أخذه عن علماء الزيتونة[1].

ويشير الوالد نفسه إلى فضل والده الشّيخ محمد الصّادق النّيفر الذي هيّأه لما كانه بقوله: "لقد انتفعت بالوالد منذ الصّغر إلى أن انتقل إلى الدّار الآخرة في سنة (1356هـ/1938م)[2] وقد عبّر عن المنفعة التي حصلت له بقوله: "فقد ولعت بالكتب بتربية الوالد وشقيقي المرحوم الشيخ أحمد المهدي النّيفر حيث وضع تحت يدينا خزانة للمطبوعات العصريّة فاختار أخي أريج الزّهر للغلاييني واخترت أنا ديوان أبي الطيّب المتنبّي فأغرم شقيقي بالكتابة النثريّة وأغرمت أنا بالشّعر"[3].

ولئن صرّح الوالد رحمه الله بشغفه بالشّعر وكان ديوانه شاهدا على ذلك، فإنّه لا يخفى على أهل العلم خاصّة وعامّة إلمام الوالد بالمنثور

1 محمد الصادق النّيفر تلقّى العلم عن علماء الزيتونة في موفّى القرن 19 وبداية القرن 20، خوّل له فيما بعد تقلّد مناصب هامّة كان فاتحتها التّدريس بجامع الزيتونة بصفة متطوّع(1318هـ–1900م) وختامها تولّيه القضاء في رجب سنة (1341هـ– 1922م) إضافة إلى اهتمامه بالكتابة والتّأليف فقد "كتب رحمه الله بضعة تعاليق نفيسة على أبواب من صحيح البخاري قام بها دروسا بمدرسة بئر الحجار وجامع باب البحر". بحوث ودراسات ص 36.

2 بحوث ودراسات ص48.

3 بحوث ودراسات ص 153.

والمنظوم، واتّخاذهما معا مطيّة للتأريخ والتّرجمة والحديث في الدين والأدب وتحليل الواقع الاجتماعي والسّياسي والفكري كما يراه وكما يمليه الواقع الذي يتأرجح بين السّكون والحركة آنذاك. وقد آمن الوالد رحمه الله بأن الأدب هو لسان حال العصر لقوله: "والظّفر بالعصر في الأدب أيسر "[1] فجعل من الكتابة نافذة على الظّروف والأحداث وشاهدا على الأشخاص الذين عاصروها. وإن جعل الوالد للتأريخ من كتاباته نصيبا اهتمّ فيه بفترات مختلفة وأحداث متنوّعة حسب العصر والمصر، فإنّه جعل أيضا من التّراجم مناسبة للإحاطة بظروف أعلام عصر ما وأخباره فضلا عن اهتمامه بسير المترجم لهم ونشاطاتهم وإنتاجاتهم الفكريّة ونظرتهم إلى محيطهم وقضاياه، فيكون إذ ذاك الخبر كالعيان وإن بعدت الشُقّة بين المترجِم والمترجَم لهم.

ولئن كان هذا منهج الوالد في تراجمه عامّة فإنّ هذا المنهج كان أظهر عند ترجمته لأعلام تونسيّين سواء وردت الترجمة متلبّسة بموضوعات أخرى أو أفردت لها كتابات خاصّة شأن مؤلَّفه"أدباء سالفون" الذي اهتمّ فيه بالترجمة لكوكبة من أدباء تونس خلال القرن الثاني عشر للهجرة.

فكيف يمكن اعتبار هذا المؤلّف نافذة على المجتمع التّونسي وقضاياه الأدبيّة والفكريّة والسّياسيّة والاجتماعيّة خلال القرن 12هـ؟

عرف "أدباء سالفون" النّور على صفحات الملحق الثّقافي لجريدة العمل في شكل حلقات مسترسلة اهتمّت بالتّرجمة لأدباء تونسيّين مغمورين، وقد استغرق العمل من الزّمن نيف وأربع سنوات من 1968/2/2 إلى 1972/6/23 تمّ خلالها الاهتمام بأربعة عشرة شخصيّة تراوحت درجة الاهتمام بها كمّا وكيفا حسب ما تمليه طبيعة الشّخصيّة ونشاطها الأدبي والفكري من جهة، وحسب ما يثيره الوالد رحمه الله حول هذه الشخصيّة أو تلك من نقاط اهتمام يرى أنّها تثري الأدب التّونسي باعتبار أنّ"الوقوف على أدبنا الماضي يشرح لنا مؤثّرات الماضي بالأخصّ الماضي غير البعيد فإنّه لأشدّ مماسّة بالعصر الحاضر من الماضي البعيد"[2]، أو يرى فيها مرآة عاكسة لذلك الواقع

1 تصوير الأدب للحياة ص 730.
2 أدباء سالفون ص15.

في شتّى جوانبه، ولئن تراوحت درجة الاهتمام بالشّخصيّات بتفاوت ثـراء آثارهم أو تواضعه، فإنّ هذه الشخصيّات جميعا قد خلّفت إنتاجا أدبيّا ثريّا وهذا ما أكّده الوالد رحمه الله بقوله: "وقصدنا التعريف بالذين كانوا أثرياء في إنتاجهم بالنّسبة إلى من سواهم، أمّا غيرهم فمن هضم الأدب أن يكونوا من أعلامه إذ لا تأثير لهم لا من قريب ولا من بعيد أمّا أولائك فلهم الأثـر في العقليّة الأدبيّة إمّا مباشرة وإمّا بواسطة ما أثروا فيه"[1].

انتقى الوالد من أدباء القرن الثاني عشر للهجرة أربعة عشرة شخـصيّة، مشيدا بإسهامها في إثراء الرّصيد الأدبي التّونـسي، والملاحـظ في هـذه التّرجمات تركيز الوالد –رحمه الله– على تثمين إسهامات هؤلاء الأعلام في إثراء العقليّة الأدبيّة وتفاعلهم فيما بينهم باعتبار معاصرتهم لبعضهم البعض. وكأنّنا به بانتهاجه هذا النّهج ينْزاح عمّا ألفه النّاس في التّراجم، ومـا درج عليه أصحابها من الإحاطة بتفاصيل حياة الشّخصيّة من ميلاد ونشأة وجـدّ في الطّلب وما يستلزمه أحيانا كثيرة من التّرحال والاهتمام بمشائخ المترجم له ومعاصريه ثمّ قعوده للتّدريس والإحالة على آثاره ووظائفه التي تقلّب فيها ثمّ الانتهاء من التقديم للشخصيّة بالإحالة على زمن الوفاة ومكانها. والوالد وإن لم يشذّ عن هذا المنهج الكلاسيكي في الترجمة فإنّ فضله على غيره أنّـه زاد على ذلك الانتقال من مجرّد التأريخ للشخصيّة إلى سبر أغـوار فكرهـا ونقد منهجها وأساليبها إمّا إشادة واستحسانا أو تنبيها إلى بعض المآخذ التي تبخس الأدب حقّه في تلك الفترة مثل شيوع انتحـال الـشّعر وتفـشّي المعارضات الشعريّة وإهمال التّدوين والتّأريخ إهمالا من شـأنه أن يطمـس الحقائق ويغيّب إسهام الأدب في التعريف بالواقع فيبخس إذ ذاك الأديـب حقّه. وكم هم أولئك الذين كانوا مغمورين أحياء وأمواتا، رغم إسهامهم في الحياة الأدبيّة بالنّزر اليسير أو الكثير، ومن هنا فإنّ فكرة "أدباء سالفون" هي محاولة نفض الغبار عن سيرة ومسيرة كوكبة من الأدباء التونسيين خلال القرن 12هـ الذين أغفلتهم المصادر أو مرّت عليهم مرور الكرام. والمتأمّل في هذه الشخصيّات يلاحظ تفاوتها في الشهرة في ذلك العصر ومـا والاه، وفي

---

1 ينظر ص16.

كتابات المؤرّخين غير أنّ أقلّها حظّا كان عبد القادر السلوي رغم ما كان يحظى به من مكانة علميّة هامّة. فهو وإن كان من أعلام القرن 12هـ فإنّ عهد النّاس به كان في مقال كتبه الوالد تحت عنوان "مساهمة القرويين في اللّقاح العلمي بين المغرب وتونس" في منشورات "الكتاب الذهبي لجامعة العروس المغربيّة في ذكراها المائة حيث بيّن الوالد أنّه من الشخصيّات العلميّة الهامّة والمغمورة في ذات الوقت، فعمد إلى التعريف به وبكتابه الكوكب الثاقب[1] وأشاد بقيمته الأدبيّة. وقد حاول الوالد في أدباء سالفون مزيد الإحاطة بهذه الشخصيّة فعرّف ببقيّة آثاره مثل "مطالع السعود" و "الصيّب والجهام" كما أشار إلى اهتمامه بأصول الفقه ونوّه الوالد خاصّة بهيامه بالأدب ونهله من معين الأدب الأندلسي والمغربي عامّة كما أشار إلى اهتمامه بالنّسخ في الأدب وغيره وإن كانت قليلة الحظّ.

وفضلا عن الهدف المباشر من الترجمة وهو التعريف بالأدب والأدباء التونسيين المغمور خلال القرن 12هـ فإنّ ما تميّزت به آثار الكثير منهم هو حذق صناعة الأدب والتّلاعب بالألفاظ والتراكيب في غير إسفاف وتفاعل القضايا الأدبيّة والحضاريّة والاجتماعيّة مع بعضها البعض مثّل قادحا دفع الوالد إلى التّوسع في هذه المسألة أو تلك.

وفضلا عن النّقد اتّخذ الوالد رحمه الله من بعض ما يعرض له من ملاحظات أدبيّة أو حضاريّة أو اجتماعيّة مناسبة للتوسّع في هذه المسألة أو تلك، من ذلك أنّه كتب مقالا في جريدة العمل بعنوان "التقريظ والتقريض" والباعث على ذلك هو تجويز كتابة هذا اللّفظ بالضّاد أو الظاء وقد أثار هذه المسألة عند الترجمة "لسميّة القيرواني" الذي يشيد الوالد ببراعته في التّأريخ بالشّعر فهو "لا يعقل المناسبات المارّة سواء كانت من المناسبات العامّة كالأعياد أو الخاصّة كالختان أو ختم البخاري فينشد فيهما حسب ما تأتّى له". وسميّة القيرواني لا تكمن براعته فقط في التّأريخ للأحداث، وإنّما تميّزه يكمن في براعته في استعمال حساب الجمّل وهو المقابلة بين الحروف والأرقام لاستخراج التاريخ. ويضرب الوالد في هذا السّياق مثلا باستخراج

---

1 طبعة وزارة الأوقاف المغربية في 3 أجزاء تقديم وتحقيق الأستاذ عبد الله الياسمي.

التاريخ الذي هنّأ به الأمير علي بن حسين برأس السّنة الهجريّة من قولــه: "أسعد بعام هلّ بالبركات" يقول الوالد: "وتحليل هذا التاريخ أنّ قوله أسعد الهمزة بواحد والسّين بثلاثمائة على طريقة المغاربة والعين بــسبعين والــدّال بأربعة".

ويشير الوالد خلال هذه الترجمات إلى إسهام الأدب في تعريــة الواقــع الحضاري للبلاد التونسيّة خلال القرن 12هــ، وهي مياسم نستــشفّها في عديد التّرجمات إلاّ أنّها أظهر في ترجمة محمد الشافعي بن القاضــي الــذي ترجم له الوالد في ثماني حلقات، والشّافعي وإن استغرق حديثه عن اعتزازه بتونسيّته وبغضه للأندلسيين الذين سكنهم الشّعور بالتّعاظم حيّزا هامّا مــن أدبه، فإنّ بغضه هذا لم يمنعه من تصوير التّلاقح الحضاري الذي عرفه المجتمع التّونسي خلال القرن 12هــ جرّاء دخول الأندلسيّين البلاد، وقــد أشــار الوالد نفسه إلى التّفوّق الحضاري الأندلسي مقارنة ببلدان المغرب بقولــه: "اجتمعت للجالية الأندلسيّة الثروة عند بعضهم مع ما يشعرون به من تفوّق بالنّسبة للأندلس المتمتّعة بحضارة أكثر ممّا هي في بــلاد المغــرب"[1] إلاّ أنّ الشافعي أبى إلاّ أن يفنّد هذه العظاميّة الأندلسيّة بحديث متّزن في البداية فيه ما فيه من الحقائق التّاريخيّة تنبؤ عن تشبّعه بتاريخ الأندلس. وســرعان مــا تحوّل هذا الاتّزان إلى انفعال نفسي يعرب عن "غلّ نفساني ودافع شخصي ولدد في الخصومة" وهو ما يعيبه الوالد على الــشافعي رغــم أنّ بحثــه في الأسباب يولي هذا الأخير بعض الحقّ.

ولمّا آمن الوالد بأنّ العودة إلى السّلفيّة الأدبيّة والبحث في آثار الأدبــاء السّالفين "خيط من خيوط الأصالة التي ناديها وينـاديها رجال الأمّة"[2]، فإنّه ثبّت الخطى سيرا في طريق التّأصيل لتلك السّلفيّة الأدبيّة فكان ثمرتها "أدبــاء سالفون"، ولعلّ أهمّ ما قلّب الوالد النّظر فيه من آثار السّلف تحقيقه لبعض الدّواوين مثل تحقيق ديوان حمّودة بن عبد العزيز ومحمد بن سعيد الحجري.

1 ينظر ص 21.

2 ينظر ص 167.

أمّا هذا الأخير فإنّ صلته بالوالد قد بدأت منذ عهد الدّراسة واستمرّت بعده ويتحدّث رحمه الله عن هذه الصلة بقوله: "تبتدئ صلتي بابن سعيد الحجري منذ عهد الدّراسة و لم تنقطع هذه الصّلة إذ استمرّت بعد عهد الدراسة حيث كنت متعلّقا بالشّعر فأحببته ومن جملة دراساتي ديوان النّجم لابن سعيد الفلك المشحون وكنت شغوفا به لما فيه من اختراعات لطيفة وسهولة نظم وهو ما دعاني إلى دراسة الأدباء التّونسيين تحت عنوان أدباء سالفون"[1]. فالترجمة لمحمد بن سعيد الحجري هي تجديد عهد مع هذه الشخصيّة التي عدّ شغف الوالد أحد قوادح دراسة الأدباء التونسيّين وقد بلغ ولعه رحمه الله بابن سعيد الحجري أن نزّله في عصره أدقّ تتريل وبحث في علاقته بمعاصريه من أصحاب الصّنعة الأدبيّة والمناصب السياسية حتى اختلط الأدب بالسياسة، فكان تعبيرا على الحياة السياسيّة في ذلك العصر. وإذ نترك للقارئ أن يكتشف وحده هذه الشخصيّة فإنّه لا يفوتنا أن ننبّه إلى تحقيق الوالد ديوان ابن سعيد تأكيدا على تواصل العهد بين المترجِم والمترجَم الذي بدأ في وقت مبكّر.

وكما حقّق الوالد لمحمد بن سعيد فإنّه حقّق أيضا لحمودة بن عبد العزيز الذي لا يقلّ احتفاؤه به عن سابقه فقد شغف به أيضا لما تهيّأ له من الفضائل جعلت تناول هذه الشخصيّة ينظر له من زوايا عدّة ولذلك "تعدّدت جوانب البحث فيها، فمنها ما يرجع إلى حياته التعليميّة ومنها ما يرجع إلى حياته السياسيّة ومنها ما يتعلّق به أديبا أو مؤرّخا"[2]. وكان أبرز ما عرف عن حمّودة بن عبد العزيز فضلا عن كونه أديبا شاعرا متانة صلته بالبلاط وإدراكه حظّا من المناصب قصر دونه غيره من نظائره في ذلك العصر فقد تقلّد السّفارة عهد دولة الأمير بن حسين ويشير ابن أبي الضياف إلى سفارته بقوله: "وبعثه سفيرا عنه إلى قسطنطينة والجزائر في بعض الأغراض السياسية"[3] فضلا عمّا عرف عنه من الاستعانة به في تدبير الدولة باشتغاله خطّة وزير مع الأمير سالف الذكر.

---

1 ينظر ص 167.
2 ينظر ص 207.
3 ينظر ص 217

ولئن كان تميّز حمودة بن عبد العزيز عن بقيّة معاصريه بأنّه كان رجل دولة فضلا عن كونه أديب شاعر، فإنّ الجامع بينه وبين بقيّة الشخصيّات أنّه تمكّن لا فقط من نقل صورة عن الأدب التونسي خلال القرن 12هـ وإنّما من جعل القارئ يعايش ذلك الواقع بالإحاطة بجميع جوانب الحياة في ذلك العهد، فإن كان فضل حمودة بن عبد العزيز في تعرية الواقع السياسي أظهر، فإنّ هذا لا ينقص من القيمة الأدبيّة لما خلّفه من منثور القول ومنظومه لاعتباره يشكّل مع آثار غيره من معاصريه صورة للأدب التونسي خلال القرن 12هـ، عمد الوالد رحمه الله إلى إخراجها من رحم الماضي حتى لا تكون "حياة ومرّت لأنّ الأدب لا يموت إلاّ بانقطاع أهله كالأمم البائدة أمّا والأمّة حيّة تتخطّى العقبات وتكافح وتنافح فلا بدّ أن تكون سلسلة أدبها غير منقطعة الحلقات في اتّصال مستمر وإن كان مختلفا"[1].

وتعاضد الأدب بالسّياسة وإن طالعنا في ترجمة حمّودة بن عبد العزيز أو محمّد بن سعيد الحجري، فإنّه لا يكاد يخلو منه أثر في القديم أو الحديث، فكثيرا ما يرتقي الأديب بأدبه إلى مناصب الرّياسة كما ينصهر أرباب السّياسة لسعة اطّلاعهم في بوتقة الأدباء، وقد كان هذا حال الأمير الأديب محمّد الرّشيد الحسيني الذي رغم إسقاطه من قائمة الأدباء التّونسيين المغمورين الذين اهتمّ بهم الوالد، فإنّا عملنا على إلحاقه بهذه الكوكبة باعتباره معاصرا لها أوّلا، وباعتبار شهادة الوالد له بأنّه "من الذين أرسوا قواعد النّهضة الأدبيّة في تونس" ثانيا. وإلحاق هذه الشخصيّة بسابقاها لا يَعدُ أن يكون نقلا لما أورده الوالد من ترجمة في حقّ هذه الشخصيّة على صفحات مجلّة المنهل السعوديّة، وإنّما قصدنا بهذه الإضافة فضلا على التّأكيد على معاصرة محمّد الرّشيد لأدباء القرن 12هـ، الإشادة باحتفائه بالأدب والأدباء وتقييم الإنتاج الأدبي لتلك الحقبة بتقييم إنتاجه، وفي هذا يقول الوالد: "لا يستطيع أن يحكم الواقف على شعره حكما مطلقا كغيره من شعراء عصره، لأنّ القرن الثاني عشر وما قبله ضعفت فيه الملكات الأدبيّة والنّابهون في الشّعر أقلّ من القليل، فلذا يتحتّم أن يكون الحكم منظورا فيه

1 ينظر ص 15.

إلى العصر، والبراعة إنّما هي نسبيّة لا تقاس بما كان عليه الشّعر في عصوره الذّهبيّة"[1].

ويقيّم الوالد شعر الأمير الأديب بأنّه شعر من الدّرجة الوسطى مقارنة بشعر غيره كالورغي والغراب، وفي المقابل ينوّه بتميّزه في معاملة أهل العلم ممّا نزّله المنزلة الرّفيعة في نفوسهم وحفّز غيره لأن يقبلوا على المعارف والآداب تأسّيا به ورغبة في الظّهور.

وبعد النّظر في نبذة آثار الأدباء التّونسيين المغمورين خلال القرن 12هـ والوقوف على القيمة الأدبيّة لما خلّفوه من المنثور والمنظوم وفضله في الإحالة على الظرفيّة العامّة آنذاك، فحريّ بنا أن نشهد شهادة صدق مفادها أنّ الوالد بمحاولته إخراج "أدباء سالفون" من بين طيّات النسيان كان أحد الذين كافحوا ونافحوا للتّعريف بالأدب التونسي ونفض الغبار عن الأدباء المغمورين في ذلك العصر وليس هذا بغريب عنه وهو سليل عائلة تعاقب فيها العلماء وتوارثوا العلم كابرا عن كابر لا محاباة أو مصانعة وإنّما انطباعا في الأنفس تفتّقت عنه القرائح فأثرت الرّصيد الأدبي والفكري التونسي.

والمتتبّع لمسيرة الوالد العلميّة يلاحظ ولعه الكبير بالأدب منذ الصغر رغم ما عرف عنه من طول باع في التأريخ والتضلّع في العلوم الشرعيّة. وكان نتيجة ولعه الذي نمّاه مصاحبته الكتب التي وسعها فكره وضاقت بها مكتبته أنّه كان رئيس تحرير النّهضة الأدبيّة[2] التي أصدرت عدّة تراجم لنخبة من الأدباء، كما أولع هو نفسه بالقريض فأنتج ديوانا في جزءين ويبقى الأثر الذي بين أيدينا خير شاهد على احتفاء الوالد بالأدب، فرغم قلّة المصادر والمراجع تمكّن من رسم صورة واضحة المعالم للأدب التونسي في القرن 12هـ من خلال النّظر وإعادة النّظر في إنتاج كوكبة مغمورة من الأدباء، يرمي من خلال إخراجها إلى النّور إلى سدّ ثغرة في المكتبة الأدبيّة التونسيّة، وربط الصّلة بين الماضي والحاضر وتجاوز فترة الخمول الفكري التي أدّت إلى ضياع أخبار الكثير من الأدباء التونسيّين.

---

1 ينظر ص 664.

2 هي الملحق الأدبي لجريدة النّهضة.

أمّا وقد عرف أدباء سالفون النّور على صفحات الجريدة والوالد بين أظهرنا وحالت المنيّة دون رغبته في إخراجه إلى النّاس في شكل مؤلّف يثري به خزانة الأدب التّونسي، فإنّي رأيت من الولاء لوالدي رحمه الله محاولة التعريف بهذا الأثر كما رام صاحبه إخراجه، وقد عملت لأجل المحافظة على الأثر كما كتبه الوالد على تجميع كلّ ما له علاقة بالأدب من ذلك مسودّات تحت عنوان "تصوير الأدب للحياة" ، كما حافظت على تحقيق المصادر وتوثيقها على الحال التي كتبها الوالد، وعلى ترتيب الشخصيّات كما وردت في الجريدة، غير أنّني استثمرت هوامش الكثير من الصفحات لمزيد توثيق الإحالات ومراجعتها والتعريف ببعض الشخصيّات أو المصادر المذكورة في متن العمل والتي لم يقع تعريفها حتى يستنير غير العارف بها مما يسمح للقرّاء بمزيد الاطّلاع على تراجم ومصادر أخرى. والتزاما بالمنهج الأكاديمي الذي درج عليه الباحثون وتيسيرا على أولي الأمر من العلماء والمتعلّمين الرّجوع إلى ما وقع الاعتماد عليه من مقالات الوالد قد يعزّ العثور عليها ذيّلنا هذا الأثر بمقال "التقريض والتقريظ" الذي ورد في جريدة العمل ومقال "الحساب بالجمّل" الوارد في مجلّة المنهل السعوديّة، كما ضمّنّاه أيضا صور لمخطوطات بعض الشخصيّات كالغراب والدرناوي ومحمد ماضور الأندلسي. ولمزيد التيسير على القارئ عملنا على ضبط فهرست للأشعار والأماكن والأعلام والآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة وأوردنا أيضا ثبت بقائمة المصادر والمراجع، عسى هذا العمل أن يكون فاتحة لبحوث جديدة تهتمّ بالأدب التونسي فيجد الباحث أرضيّة ينطلق منها لمزيد الإثراء والإفادة.

ولا يسعنا في ختام هذا التقديم الذي أردت من خلاله تأطير القارئ معرفيّا إلاّ أن نلفت انتباهه إلى أنّه وإن كان لا يخفى عليه الأسباب الذاتيّة التي دفعتني لإخراج هذا العمل، ومنها الولاء للوالد رحمه الله، فإنّه لا يخفى عليه أيضا الأسباب الموضوعيّة وهي الرغبة الصادقة في محاولة إثراء الرصيد الأدبي التونسي ومدّ جسور التّواصل مجدّدا بين الماضي والحاضر.

شكر

من الحقّ الواجب أن أخصّ بالشكر الأستاذ السيّد عبد الحفيظ منصور والأستاذ السيّد البشير العريبي والأستاذ السيّد البشير البكّوش وأمال بن حمزة على مساهماتهم الجمّة في تحقيق هذا الكتاب ولولاهم لم ير هذا الكتاب النّور جزاهم الله خيرا وأمتعنا بوجودهم.

أدباءٌ سالفون

عاش الأدب التُّونسي عصورًا مختلفة شأن كلِّ أدب حتَّى يتخطَّى العصور و تمرُّ به فترات يقظة وفترات خمود، ولا ندَّعي أنَّها حياة ومرَّت لأنَّ الأدب لا يموت إلاَّ بٱنقطاعٍ أهله كالأمم البائدة، أمَّا والأمَّة حيَّة تتخطَّى العقبات وتكافح وتنافح فلا بدَّ أن تكون سلسلة أدبها غير منقطعة الحلقات، في ٱتِّصال مستمرٍّ وإن كان مختلفا.

والعصر الحاضر الذي يعيشه الأدب التُّونسي اليوم حلقة من حلقات، وفقرةٌ من فقرات متسلسلة مدى العصور، وهذه الحلقات الجارية مع العصور متأثِّرة ببعضها، فالسَّابق يعطي الموالي، وهذا يتلقَّى إمّا تلقائيًّا وإمّا بطلب، ولا يمكن لهذه الحلقات أن تتخلَّى عن تأثيرها رغم العوامل الجديدة المؤثِّرة، فالماضي لا ينقطع تأثيره ولا ينعدم وإنَّما يقوى إذا ٱنفرد ويضعف إذا زوحم بغيره من المؤثِّرات الخارجيَّة فليس هناك موتٌ وحياةٌ وإنَّما هناك ضعف وقوَّة وذبول وٱنتعاش.

والوقوف على أدبنا الماضي يشرح لنا مؤثِّرات الماضي وبالأخصِّ الماضي غير البعيد، فأنَّه لأشدُّ مماسَّة بالعصر الحاضر من الماضي البعيد، فالحاضر يتأثَّر بما قرُب ما لا يتأثَّر من غيره من الأحقاب الماضية، فالتعرُّف على رجالِ العصور القريبة وعلى آثارهم يربط الحلقات الأدبيَّة بين الحاضر والماضي، فيكون أدبنا مركَّزا ثابت الأسس ظاهر المعالم، ومن أقرب العصور الماضية إلينا في الأدب التُّونسي العصر الذي ٱسترجع فيه الأدب قواه بعد ما فقد رجاله، وفقد المصادر في تلك الحملة القاسية التي تبدَّد فيها العلم والأدب أشدَّ تبدُّد، وبقي هذا التبدُّد طيلة زمنٍ ليس بالقصير لعدم وجود ٱستقلال ذاتي للبلاد التونسيَّة ولو بصورة صوريَّة، لأنَّ الاستقلال وإن كان هزيلا كما كان في الأعصر الخالية وبروزه في ظروف غير ملائمة ومتَّفقة مع

متطلّبات الحضارة الكاملة لم يعدم المؤهّلات المنعشة بعض الإنعاش له فيجد مجازا يعبره وطريقا يسلكه وأسبابا لبعثه.

فتدوين أدب هذه الفترة يعرِّفنا بحقبة من الأدب التُّونسي لا يجمل إهمالها ولا يليق إغفالها، وقد ظهر فيها أدباءٌ فاوتت فيهم، فمن أديب له من الآثار القليل الذي لا يستحقُّ به أن يسمَّى أديبا لأنَّه قال بضعة قصائدَ في مناسبات قليلة، ومن أديب كانت قريحته ثريَّة أنتجت إنتاجا محترما في نثره وشعره، وقصدنا التَّعريف بالذين كانوا أثرياء في إنتاجهم بالنسبة إلى من سواهم، أمَّا غيرهم فمن هضم الأدب أن يكونوا من أعلامه إذ لا تأثير لهم لا من قريب ولا من بعيد، أمَّا أولئك فلهم الأثر في العقليَّة الأدبيَّة إمَّا مباشرة وإمّا بواسطة من أثَّروا فيه.

وفي العزم أن نواصل البحث على هذه الصفحة الغرَّاء تعريفا بالأدباء التُّونسيِّين السَّالفين، ونبدأ بأديب من أدباء تونس كان له تأثير بارزٌ في الأدب التُّونسي بسبب مؤلَّف له ضمَّنه نقدا من الأدب التُّونسي كان مستمدًّا لكلٍّ من جاء بعده وهو:

محمّد الشافعي بن القاضي

سمِّي بالشَّافعي وهو ٱسم غير مشتهر بتونس، ولهذا الاسم قصَّة طريفة قصَّها محمَّد الشَّافعي نفسه: وهي أنَّ والده محمَّد بن القاضي لَمَّا حجَّ سنة 1096هـ لمح أربعة صبيان وهو في مكَّة يدخلون الحرم الشَّريف في زيٍّ يلفت إليه الأنظار، وهم من أبناء بعض الأشراف، فسأل عنهم فأخبر أنَّ أحدهم يسمَّى المختار، والآخر يسمَّى المتوكِّل، والثَّالث يسمَّى المكِّي، والرَّابع يسمَّى الشَّافعي، فتاقت نفسه أن يكون له أبناء أربعة كهؤلاء، فتوجَّه بالدُّعاء إلى الله أن يرزق أربعة ذكور يسمِّيهم بأسماء الصِّبيان المتقدِّم ذكرهم، فتحقَّقت رغبته ورُزق أربعة ذكور، وسمَّاهم بالأسماء المذكورة.

وكان نصيب مترجَمنا من هذه الأسماء الشَّافعي فاشتهر بأنَّه محمَّد الشَّافعي، وهذا ما صدَّر به في التَّعريف بنفسه وعائلته حين مسَّت المناسبة في كتابه الآتي التَّعريف به.

عائلته

أصل عائلة ٱبن القاضي هذه من مساكن وٱنتقلت إلى باجة، وقد تولَّى جدُّه محمَّد الشَّريف القاضي قضاء باجة، وكان هذا الجدُّ من أهل العلم والورع، وتوفِّي بالمدينة المنوَّرة سنة 1096هـ.

وأمَّا أبوه محمَّد بن القاضي فكان من الموثِّقين بباجة، وتولَّى الإشهاد بها مدَّة أربعين سنة، وٱضطرَّ إلى الانتقال إلى تونس بسبب نزاع ثار بينه وبين صهرين له من عائلة الصّمادحي بباجة، وكانت وفاته سنة 1168هـ ويتَّصل مترجَمنا بعائلة التّواتي الباجيَّة التي ٱشتهر منها محمَّد التواتي[1] الكبير صاحب المؤلَّف الشَّهير في أصول الدِّين.

---

1 ذيل بشائر أهل الإيمان، ص 148.

نشأته

ولد محمَّد الشَّافعي بباجة سنة 1105هـ ونشأ بتونس حين هاجر أبوه إليها، وتلقَّى تعليمه القرآني على ما هو متعارف في سنَّة التَّعليم في ذلك الوقت.

وتلقَّى عن شيوخ تونس وذكر الكثير منهم في التَّعريف بنفسه، فمنهم عبد القادر الجبالي (-1122هـ) وهو صاحب شرح "شواهد المغني" في أربعة أجزاء، وشرح "شواهد المقدِّمة" لابن هشام، وله غير ذلك، ومحمَّد الغماري (-1119هـ)، وأبو القاسم الجبالي العيسي من جبل عيسى، وحمُّودة الرصَّاع الأنصاري الأندلسي (-1146هـ) وأبو عبد الله محمَّد الخضراوي (- 1144هـ) ومحمَّد الصفَّار (-1127هـ)، ومحمَّد زيتونة (-1138هـ)، هذا هو المعروف في سنة وفاته، وإن كان محمَّد الشَّافعي يذكر أنَّها سنة 1139هـ، وقد حطَّ على شيوخه كلِّهم غير الشَّيخ محمَّد زيتونة، فإنَّه نوَّه بكتابته على تفسير أبي السّعود وذكر أنَّه ترك دروس غيره اغتباطا بدروسه، ولازمه ملازمة كلِّية إلى أن توفِّي، وقال في حقِّه: "وكان المربِّي والمعلِّم والمكمِّل والمتمِّم، وقد كان رحمه الله رحب العطن، خائض في كلِّ فنٍّ."

وقد قرأ عليه التَّفسير وكتبا هي الأصول في الفنون، منها: "موطَّأ مالك" رواية ودراية و"صحيح البخاري"، و"صحيح مسلم"، و"الجامع الصَّغير"للسّيوطي، و"مختصر خليل" وكان يختمه في سنة ونصف، وقرأ عليه "رسالة ٱبن أبي زيد القيرواني" وكان يختمها في تسعة أشهر، كما قرأ عليه "شرح الدماميني على التَّسهيل"، وكان يقارن في تقريره بين كلام الدماميني وبين كلام ٱبن المرابط شارح التَّسهيل ويضعِّف اعتراضات ٱبن المرابط على الدماميني وذكر عنه أنَّه يقول: "لعلِّي أتصدَّى لردِّها".

ووصف محمَّد الشَّافعي شيخه هذا بأنَّه أحفظ أهل زمانه، وقد رثاه بقصيدة مطلعها:

عين الفضائل تستهلُّ هتونه والصَّالحات كئيبة مفتونة

غربته

بعد أن أتمّ محمَّد الشّافعي تعلُّمه تقلَّد قضاء المحلَّة، وكان مختصًّا بالأمير حسين بن عليّ، وكان في المحلَّة التي لحقت فيها الهزيمة بجيش الأمير المذكور من قبل ٱبن أخيه عليّ باشا بسمنجا[1]، وفي هذه الموقعة يقول:

[الطويل]

أيا زمنا بالجور والظُّلم ملآن   يذكِّرنا بؤسا سمنجا ومليان[2]
أذبت نفوسنا وٱنثنيت بسبَّة   تجنيها كبرا لها الإنس والجانّ
تقوِّض ممَّا شيَّد الحمد خطَّة   أقرَّ لها بالنُّبل خان وخاقان

وحين فرَّ أبناء الأمير المذكور إلى الجزائر عندما تغلَّب على ملك تونس علي باشا فرَّ معهم وقاسمهم الشدَّة، وذاق معهم الأهوال وأخلص لأكبر أبناء الأمير المذكور محمَّد الرَّشيد، وأبدى له من الإخلاص ما جعله يستصفيه لنفسه.

وقد وصف غربته، وٱنقطاعه عن أحبابه بتونس، وكيف زهدوا فيه حتَّى ٱنفتح له باب الزُّهد فيهم، وما تحمَّله من مشاقّ مضنية مع الأمير محمَّد الرَّشيد حين وقعت الهزيمة إلى الفرار، وما كابداه من شدائد في الصَّحراء المقفرة مع فقدان الزَّاد وقلَّة العتاد بقوله: "ثمَّ إنَّ هؤلاء الأحباب وهاتيك المنازل والقباب وإن كانوا بهذه المثابة وذوي رحم وقرابة، فلعمري إنَّ باب الزُّهد فيهم ٱنفتح، ولحظ عاشقهم إلى سلوانه طمح، منذ غاب أعيانها عن البقاع وجالت البيادق بعدهم في تلك الرِّقاع، فٱستبدلنا درهمهم بدينار ووهدهم بعلم به ثمار، نفثاته سحريَّة ونسماته نحريَّة، وآنست من جانبه نارا ومن حديقته نوارا، فهاجرت معه إذ هاجر، ووصل الهواجر والهاجر.

---

1 سمنجا وسمنجة، قرية في جهة زغوان بتونس.

2 مليان: واد بجهة رادس من ضواحي تونس العاصمة.

وركبت معه جناحي طائر، عادلا عن الأشباه والنَّظائر، وزففت حيث لا أثر للخطى، ولا يرفُّ فيه جناح القطا، في مهامه فيح، ذات تباريج[1] نشرت فيها ملاء السَّراب، وفشرت عنها الحيَّة السَّحاب كأنّ قيعالها منافع العذاب، بحثت جرها الحثيث، وبعثت النَّفس والنّتيت، إن ظفر فيها بزاد كـــان دون البلاغ، أو بماء كان لا ينجرع ولا يساغ وهو أقلُّ من حسنات الفجَّـــار، وسيئات الأبرار، وأجلب للأوار من النَّار".

وكانت هذه الغربة قد طالت نحوا من آثنين وعشرين سنة، قاسى فيهـــا من الاغتراب ما أنساه المترل المستطاب، ولكنَّه آغتراب قد فتـــق القريحـــة، وبعث على إنشاد الكثير من الشِّعر المتضمِّن آستغاثات، أوأشواقا إلى الوطن تونس مع التشكِّي من الزَّمن الذي أظهر المحن وقرض هذه القـــصائد إمَّـــا بآقتراح من الأمير محمَّد الرَّشيد، وإمّا ببواعث شخصيَّة، فهذا الاغتـــراب لا يبعد أنَّه كما بعث فيه همَّة على الإنتاج بعث فيه حبَّ الاستكمال والبحث للتفرُّغ من مشاكل القضاء، فالتفرُّغ قد مكَّنه من المعرفـــة لتـــوفُّر الوقـــت للبحث والإنتاج، ويدلُّ لهذا أنَّ أكثر آثاره كان حين الاغتراب أو بعـــده، وهو ما ينطبق عليه أنَّه ربَّما صحَّت الأجسام بالعلل.

اعتزازه بنفسه وبغضه للجالية الأندلسيَّة

كان محمَّد الشَّافعي يعتزُّ بنفسه وبأهله آعتزازا ذهب به إلى حدِّ الغلـــوِّ بالنَّفس والأهل علاوة على الشُّغوف العلمـــيِّ، وأدَّاه ذلـــك إلى الاعتـــزاز بالتونسيَّة مناظرا بينها وبين الأندلسيَّة، وأثارت فيه هذه الحميَّـــة الجنـــسيَّة آستطالة بعض الأندلسيِّين عليه في الخصومة، وكانت هذه العـــزَّة الجنـــسيَّة جانبا من حياته لا يجمل إهماله لأنَّه آمتزج بحياته أيَّما آمتزاج، وظهر في أدبه، وأعلنه تاريخا من حياته، ولولا هذا الإعلان منه لكنَّا أهملنا هذه العنصريَّة لما فيها من إساءة له ولغيره.

---

1 تباريج: النبات أزاهيره (اللّسان).

كتب محمَّد الشَّافعي هذا الجانب من حياته بقلمه وعبَّر فيه عن بغـض عميق للجالية الأندلسيَّة التي ٱستوطنت تونس بعد الجلاء الإسـلامي عـن الأندلس، وكان قدومها لتونس سنة 1016هـ أيَّام عثمان داي الذي أباح لها ٱبتناء القرى في البلاد التونسيَّة، وقد كان لهذه الجالية من الأثر البارز في الحياة التونسيَّة ما لا يجهل أثره، فكانت لها في الحضارة التونسيَّة مساهمة في حين خرجت تونس من نكبات تعثَّرت فيها، وقد أفقدتها مالها من حضارة لرزوح البلاد تحت حكَّام غرباء عن البلاد من الطِّراز العسكريِّ البعيد عـن تفهُّم الحياة وأسباب التقدُّم الصَّحيح، فكأنَّها وجدت البلاد شبه خالية من الحضارة، فرأت نفسها في مقام أعلى من مقام أهل البلاد الأصليِّين.

وحين خلا لها الجوُّ في تلك الظروف حرصت كلَّ الحرص أن يكون لها امتياز في البلاد فاستحوذت على دفَّة الحياة، وهي التِّجـارة، وبـالأخصِّ التِّجارة الخارجيَّة، فلمعت في التِّجارة التونسيَّة أسماء عائلات أندلسيَّة مثـل قطلينة، و العروسي، وغريضو، والوزير والحدَّاد، وقد كان بجانبهم تونسيُّون معروفون من العاصمة التونسيَّة وغيرها من البلدان الـتي ٱشـتهر أبناؤهـا بالتِّجارة.

ٱجتمعت للجالية الأندلسيَّة الثَّروة عند بعضهم مع ما يشعرون به مـن تفوُّق بالنِّسبة للأندلس المتمتِّعة بحضارة أكثر ممَّا هي في بلاد المغرب، فتطاول بعضهم على أبناء البلاد التي حلُّوا بها، وأسرفوا في تطاولهم حتَّى نالوا مـن ملوكها، وتلك شنشنة[1] أندلسيَّة تكرَّرت في تاريخ تونس، ولكن كانـت الاستطالة بالعلم والمعرفة كما وقع من ٱبن الأبَّار[2] فإنَّه كمـا ذكـر ٱبـن خلدون في خبر مقتله أنَّه ٱستطال على سلطانه أبي زكريَّاء الحفصي ورمـى بالقلم منشدا:

---

1 الشنشنة: العادة الغالبة. المعجم الوسيط 498/1.

2 محمَّد بن عبد الله القضاعي أبو عبد الله ابن الأبَّار، مؤرِّخ أديب له: "التكملة لكتاب الصلة"، "المعجم"،" الحلّة السيراء"، قتل بأمر السلطان الحفصي سنة 658هـ/1260م. (الأعلام 110/7).

وٱطلُـــب العـــزَّ في لظـــى وذر الذلَّ ولو كـــان في جنـــان الخلـــود[1]

فألزم بسبب ذلك فيه، ثمَّ أقيلت حين ٱعتذر بكتابه "إعتاب الكتَّاب"، ثمَّ إنَّه أعاد الكرَّة، وأسرف في الاستطالة حتَّى أدَّى ذلك إلى مقتله، ثمَّ آلت إلى الاستطالة بالمال والجاه على بعض التونسيِّين ومن هؤلاء مترجَمنا فحمـــل على الأندلسيِّين حملة شعواء أتى فيها بحقائق ولكنَّها ضاعت في تضاعيف ما هو مختلق توصُّلا للنَّيل من الأندلسيين، وهو ما لا يجمل منه وبـــالأخصِّ إذا كان الحامل له سببا خاصًّا.

وقد باح بذات صدره وغلّه على الأندلسيِّين عند شرحه لهذا البيت من قصيدة محمَّد الرَّشيد:

أنت الـــذي ترجـــى لكـــلِّ ملمَّـــة ولكشف ما أوهى قـــواي وأعظمـــي[2]

وتدرَّع لذلك بشرح الأعظم فاستطرد بحثا في العظاميَّة والعصاميَّة مهَّد له أوَّلا بالكلام على بيت عظُّوم[3] القيـــرواني وحكى نـــوادر عن صاحبه نور الدِّين العظُّومي في صاحب الأجوبة الحاضرة.

وتناول في هذه الكلمة الأندلسيِّين حتَّى من تبوَّأ الوظائف السامية منهم، وٱستهلَّ كلمته في النَّعرة العظَّاميَّة في الأندلسيِّين المستوطنين بتـــونس بـــأنَّ الأندلسيِّين يتعاظمون لأنَّهم يظنُّون أنفسهم شعبا فوق الـــشُّعوب العربيَّـــة والأعجميَّة، حتَّى أنَّ أحدهم ٱضطرَّته الخصومة إلى أن يقف بين يدي الأمير محمَّد باي المرادي فأوجبت القضيَّة سؤاله عن نسبه، فسأله الباي المـــذكور أهو عربي أم أعجمي؟ فنفى كلَّ ذلك، فٱستعجب الأمير من جوابه وخاطبه قائلاً: "لا واسطة بين العربيَّة والأعجميَّة".

---

1 المقَّري التلمساني: "أزهار الرياض في أخبار عياض" 205/3.

2 عنوان الأريب 523/1.

3 يظهر من إدماج المترجَم بيت عظوم في شرحه للعظم أنَّ عظُّوما مأخوذ من العظم والأمر ليس كذلك لأنَّ عظُّومًا هو عبد العظيم كما أنَّ عزُّوزًا هو عبد العزيز.

ويرجع الشَّافعي هذا التعاظم في الجالية الأندلسيَّة إلى ٱعتزازهم بأنَّ بلدهم كان حاضرة الحواضر ومقرَّ الخلافة، ونذكر ما أبداه في هذه النَّاحية، وسنعقِّب عليه بالسَّبب الحقيقي في فرصة أخرى.

أراد الشَّافعي أن يفنِّد هذه العظاميَّة التي يراها قدرا مشتركا بين كافَّة الأفراد من الأندلسيِّين، وأراد بجانب ذلك أن يشفي غليل نفسه من أحد أفراد هذه الجالية -وكان في تفنيده أوَّلا رجلا تاريخيًّا يناقش مناقشة هادئة للأسباب التي تذرَّع بها هؤلاء في عظاميَّتهم- وهي تدور حول كون الأندلس مقرَّ خلافة الأمويِّين.

فعارضهم بأنَّ تونس لها من هذا الفخر نصيب، وذكر أعلاما من مفاخرها في تونس والقيروان وكان في نقطة ردِّه هذه هادئا منصفا محقًّا حيث ذكر أنَّ الأندلس مرَّت بها عصور ٱلتجأت فيها إلى المغرب، وكان زعماؤها تحت رحمة ملك المغرب يوسف بن تاشفين الذي أنقذ بلادهم - وصنع معهم المعروف، ولكنَّه ألجأه الأمر إلى إزالتهم- وقلعهم من معاقلهم بسوء صنيعهم، فدخلت الأندلس منذ ذلك الوقت تحت حكم دول المغرب، وكان في خصامه مع الرَّجل الأندلسيِّ مقذعا تدلَّى إلى أن أتى بغير الحقائق وٱرتكب العظائم من القول، ولولا الأدب والتَّاريخ لما ٱلتفت إلى تلك النَّاحية لما فيها من إقذاع في النَّيل من الخصم، والتقوُّل بما لايقبله العقل، ولكن الباحث إذا أراد أن يتعرَّف على النَّاحية الأخلاقيَّة في المترجَمين يضطرُّ إلى أن يقف على صور النِّزاع بين سائر الطبقات الاجتماعيَّة وٱعتزاز البعض منها بالعلم أو المال أو النَّسب، ومع أنه يرى صورة يتمنَّى أن لو لم تكن لا مندوحة له عن التعرُّف عليها ليرى صور النِّزاع وصور الدسِّ، وإدخال ذوي النُّفوذ في الأمور الشخصيَّة.

وحديثه المتَّزن في التعاظم الأندلسي حريٌّ بالوقوف عليه لما فيه من حقائق تاريخيَّة، ولما فيه من الدّلالة على أنَّ الشَّافعي كان متشبِّعا من تاريخ

الأندلس، ولما فيه من تعريف بالروابط الممتدَّة بين الأندلس والمغرب الأقصى، وكذلك بينها وبين تونس، ونسوقه إلى القارئ الكريم:

"فإن كانوا يرون ما رأوه -من زعمهم من أنَّهم هم النَّاس وأنَّ غيرهم إيطاء وهم جناس- من حيث أنَّ الأندلس كانت دار خلافة بني أميَّة بالمغرب ودار علم في القديم فلعمري أنَّ هذا غير مخصوص بالأندلس بل إفريقيَّة كذلك فإنَّ المهديَّة بها كانت دار بني عبيد الفاطميِّين الذين شاركوا بني العبَّاس في الخلافة فاستولوا على المغرب ومصر والشَّام واليمن وبعض العراق، ولعمري أنَّ بني أميَّة بالأندلس لم يستولوا على عُشر ما بأيديهم من الممالك، وأنَّ تونس دار علي بن زياد صاحب الإمام مالك، والقيروان دار أسد بن الفرات وسحنون وأمثالهم من الأئمَّة ولا يعرف بالمغرب قبر صحابيِّين من أصحاب النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم بغير إفريقيَّة، فإنَّ أبا زمعة البلوي وٱسمه عبد الله بن آدم بالقيروان وضريحه يزار وأبا لبابة بقابس مدفون وقبره يزار مشهور.

وأمَّا التَّابعون وتابع التَّابعين فكثير، ومن أراد الاطِّلاع على الصَّحابة الذين نزلوا القيروان وتابع التَّابعين وأئمَّة الدِّين المبرِّزين والصوفيَّة المقرَّبين فعليه بكتاب "معالم الإيمان" لابن ناجي.[1]

وإن كانوا يرون ذلك بملوك الطوائف الثَّائرين بعد على دولة بني أميَّة وأفخرهم المعتمد بن عبَّاد في أيَّامه فلعمري إنَّهم ضعفوا حتَّى لجؤوا إلى يوسف بن تاشفين اللَّمتوني ملك مرَّاكش والمغرب فأنقذهم مرارا، وآل حالهم معه إلى أن أزالهم عن ممالكهم، وأدخل المعتمد المغرب وسجنه إلى أن مات بأغمات مسجونا، ولم تزل الولاية على أمراء الأندلس بملوك المغرب من تلك السَّاعة إلى ٱنقضاء ثلاث دول: دولة لمتونة، ودولة الموحِّدين، ودولة بني مرين.

---

1 قاسم بن عيسى بن ناجي القيرواني، فقيه من القضاة، له كتب منها: "شرح المدوَّنة"، "زيادات على معالم الإيمان"، "مشارق أنوار القلوب". توفي سنة 837هـ/1433م. (الأعلام 13/6).

وقد بايعوا في تلك المدَّة المستنصر الحفصي صاحب تونس الذي بويع بمكَّة شرَّفها الله، وخطب له بها، وقد بايع أيضا زيَّان بن مردنيش صاحب دانية أبا زكريَّاء الحفصي صاحب تونس وأرسل بيعته مع الفقيه الأديب ٱبن الأبَّار القضاعي".

ولو وقف عند هذا الحدِّ في التفاخر على الأندلسيِّين لكانت منه هذه العنصريَّة للاعتزاز بالوطن الدَّالة على وطنيَّة خالصة، وحبٍّ في التَّعريف بالوطن وماضيه، وفي الردِّ على من فضَّل عليه غيره، ولكنَّه تجاوز ذلك إلى أن أبدى أنَّ الدَّافع ليس الغيرة الوطنيَّة، وإنَّما هو غلٌّ نفسانيٌّ ودافع شخصيٌّ، ولدد في الخصومة، وخروج بها عن دائرتها القضائيَّة إلى الدوائر السياسيَّة، وإدخال عناصر فيها لا تمتُّ إليها بسبب، وإنَّما أدمجت في الخصومة لكون الخصم اعتزَّ ببعض من يشاركه في الأندلسيَّة.

والسَّبب في هذه الخصومة الشخصيَّة أنَّه ترأَّس مع أحد أفراد الجالية الأندلسيَّة من ذوي الثَّراء وهو الحاج محمَّد قطلينة — من كبار التجار بتونس وتنسب إليه دريبة كتريتة بتونس في نَهج حوانت عاشور— في مجلس قضاء أبي إسحاق إبراهيم النفَّاتي قاضي الجماعة بتونس، وأبي الحسن علي السَّتَّاري المفتي بها، فخاطب الحاج محمَّد قطلينة بمجلس القضاء بقوله: "أما سمعتم ما يقوله هذا الطَّرف من الأطراف"، فثارت ثائرة الشَّافعي عليه، وظهرت العنصريَّة الشخصيَّة والجنسيَّة فيه، فكانت حربا شعواء على التَّاجر قطلينة وعلى الجالية الأندلسيَّة برمَّتها حتَّى من كان من أقرب المقرَّبين إلى أميره حسين بن علي، و لم يستثن إلاَّ الشَّيخ مصطفى البايلي الأندلسي لصلاحه، وٱبتدأت هذه الحرب في مجلس القضاء المذكور، وٱستمرَّت إلى أن أرَّخها مترجَمنا على علاَّتها، أمَّا في مجلس القضاء فإنَّه أجاب عن قوله طرف من الأطراف، "إن كنت من الأطراف فمن الذي من الأشراف، لكن لا لوم على من فست في وجوه آبائه وأجداده بغالُ الكراريط"، ويقصد الشَّافعي بقوله هذا أنَّ الأندلسيِّين لَمَّا ٱستعملوا الكراريط -العربات المعروفة- في

تنقُّلاتهم وحمل أثقالهم ومتاجرهم كانوا يركبونها وأمامهم البغال، وبالطَّبع إذا فست آستنشقوا رائحة فسائها فعيَّرهم بذلك، وآستغلَّ قطلينة قولته هذه وطار إلى محمود السَّرائري الأندلسي خزندار حسين بن علي ذاكرا له أنَّه شتمه وشتم الأمير كما تطاول على مجلس القضاء.

بعد هذا كيف تجد الشَّافعي؟

بعد هذا لم يملك زمام نفسه وأطلق للسانه وقلمه العنان في خصمه ومحمود السَّرائري والقاضي والمفتي، ورمى خصمه قطلينة بما تندى له الصُّحف ونسب له ما هو منه براء لثرائه ومكانته، وأنشد في هذه القضية قوله:

قال الخسيس لعالمي دار القضا طرف من الأطراف قد آذاني
فلقد أصاب فإنَّني طرف العلى والطَّرف عين جماعة الأعيان

تآليفه

تعاطى مترجَمنا التَّأليف فألَّف في الفنون المشتهرة في عصره، حسب الطريقة المتعارفة من حواش وشروح، ومنظومات علميَّة، وخالف عادة علماء عصره في تونس الذين لا يشتغلون بالتَّأليف لاشتغالهم بالتَّدريس والعناية الفائقة به، إلاَّ القليل النَّادر، ولهذا قلَّت التآليف التونسيَّة، وآقتدى في هذه المخالفة الحميدة بشيخه محمَّد زيتونة صاحب التآليف العديدة نسبيًّا ومنها: "الحاشية الكبيرة على تفسير أبي السُّعود"[1] حتّى صار ينعت بصاحب الحاشية.

وسريان طريقة شيخه عليه لشدَّة ملازمته له كما تقدَّم فأخذ عنه الاشتغال بالتَّأليف، وأخذ عنه طريقة الاستطراد فيها وعدم التَّقيُّد بالموضوع

1 محمَّد بن محمَّد بن مصطفى العمادي، أبو السعود، من علماء التُّرك المستعربين. درَّس وتقلَّد القضاء في بروسة والقسطنطينيَّة. وصاحب تفسير: "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم". توفِّي سنة 982هـ/1574م. (الأعلام 288/7)

والجمود عليه، وهي طريقة تدلُّ على ٱطِّلاع عميق، وربط بين المعلومات المتقاربة، وإن كانت لا ترضي الشَّاحِّين بالألفاظ فهي ترضي غيرهم.

وتآليفه متنوِّعة بين نثريَّة وشعريَّة، وفيها محاكاة لأرباب الشُّروح الذين تخرَّج على طريقتهم في تعلُّمه، وأصحاب المنظومات كٱبن مالك[1] صاحب "الألفيَّة"، فأراد أن يضرب في كلِّ جهة بسهم.

وٱتَّجه في تآليفه أوَّلا إلى ناحية التَّوحيد نشرا للعقيدة، وتحبيبا لكتب الإمام السّنوسي[2]، حيث أنَّها غطَّت على كتب المتقدِّمين لأسباب عدَّة وٱعتنى في تأليفه بجانب التَّوحيد بعلم آخر ٱتَّصل بالتَّوحيد من حيث الأدلَّة وهو علم المنطق.

فله في علم المنطق:

* شرح مختصر ٱبن عرفة التونسي[3]:

والمختصر هذا أحد المختصرات التي ألَّفها ٱبن عرفة، وأيسرها مختصره الفقهي الذي ٱحتفل له غاية الاحتفال، وما كتبه ٱبن عرفة لا يخرج عن هذا النَّمط من جمع المعلومات في الفنِّ المحرَّر فيه مع تدقيق العبارة، غير أنَّه عقَّد اللَّفظ فأصبح ما يكتبه متعسِّرا على الفهم، ولهذا تجنَّب النَّاس تآليفه وٱستعاضوا عنها بغيرها، فإقدام الشَّافعي على مختصره المنطقي دليل على رسوخ القدم في فنِّ المنطق، وإمامة في العلم.

وله في علم التوحيد:

* حواش على كبرى الإمام السّنوسي:

---

1 محمَّد بن عبد الله الجيَّاني ٱبن مالك، المتوفَّى سنة 672هـ، صاحب "الألفيَّة في النَّحو"، جمع فيها مقاصد العربيَّة وسمَّاها "الخلاصة" وٱشتهرت بالألفيَّة لأنَّها ألف بيت، وله ولغيره شروح كثيرة وله تآليف أخرى. (كحالة 234/10).

2 محمَّد بن يوسف بن عمر السنوسي التلمساني، أبو عبد الله، محدِّث متكلِّم مقرئ من تصانيفه: "أمُّ البراهين في العقائد"، توفِّي بتلمسان سنة 895هـ/1490م. (الأعلام 29/8).

3 محمَّد بن محمَّد بن عرفة الورغمِّي، مقرئ فقيه فرضيٌّ تولَّى الإمامة والخطابة بجامع الزيتونة. من مؤلَّفاته: "تفسير القرآن"، "المبسوط في الفقه"، "مختصر الفرائض". توفي سنة 803هـ/1401م. (تراجم المؤلِّفين التونسيِّين 363/3).

وهي إحدى مؤلَّفاته التي تدرَّج بها في علم التَّوحيد، وسمَّاها: "عقيدة التَّوحيد"، وألَّف أخصر منها وهي الوسطى وكانت محلَّ عناية التونسيِّين، فاختصرها مع شرحها إبراهيم السَّرقسطي التُّونسي[1] وحشَّى عليها مع شرحها الشَّيخ زيتونة والشَّيخ محمود مقديش[2]

* حواش على شرح الصّغرى:

وكان الشَّافعي أراد أن يساير الإمام السّنوسي في مؤلَّفاته، وإنَّما لم يكتب على الوسطى حتَّى تكون المسايرة تامَّة اكتفاء بما كتبه شيخه الشَّيخ زيتونة وعزَّز مؤلَّفيه في التَّوحيد بمنظومة في أصول الدين.

وله منظومة أخرى في قراءة البدر الأوَّل الإمام نافع بن عبد الرَّحمان المدني[3].

وخصَّ الشَّافعي قراءة هذا البدر لأنَّها قراءة أهل تونس وكذلك بقيَّة الشَّمال الإفريقي وإفريقيا السَّوداء، والأندلس من قبل، ولعلَّه أراد أن يضاهي بها منظومة الحصري[4] الإمام نافع التي كانت غاية في العذوبة الشعريَّة رغم أنَّها منظومة علميَّة، فالأفارقة تسلسل فيهم نظم قراءة الإمام نافع.

وله تأليفان آخران في غير العلوم الإسلاميَّة:

أحدهما: منظومة في علم العروض

وثانيهما: تأليفه الحافل الذي شرح فيه: منظومة الأمير محمَّد الرَّشيد باي (-1172).

---

1 إبراهيم بن علي السَّرقسطي الأندلسي، فقيه متكلِّم ألَّف كتبا منها: "الهبة والعطاء في شرح العقيدة الوسطى"، توفي نحو سنة 1091هـ/1680م. (تراجم المؤلِّفين التونسيِّين 27/3).

2 محمود بن سعيد مقديش الصَّفاقسي، مؤرِّخ له: "نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار". توفي سنة 1228هـ/1813م. (المرجع السّابق 356/4).

3 أحد المقرئين السَّبعة، أصله من أصبهان، اشتهر في المدينة وانتهت إليه رئاسة الإقراء، وبها توفِّي سنة 169هـ/785م. (الأعلام 317/8).

4 علي بن عبد الغني الحصري الضَّرير، من أهل القيروان، انتقل إلى الأندلس ومات في طنجة. من مؤلَّفاته العديدة: ديوان شعر، "اقتراح القريح واجتراح الجريح"... وهو صاحب القصيدة التي مطلعها: يا ليل الصبِّ متى غده... توفِّي سنة 488هـ/1095م. (الأعلام 114/5).

ونخصِّص هذا الشَّرح بالعناية إذ هو أحفل كتبه، وقد كرَّس لـــه أيَّـــام راحته، وٱشتغل به أيَّما ٱشتغال وشحنه بأكثر ما ٱطَّلع عليه، فكان بـــذلك خزانة أدبيَّة، ثمَّ إنَّه ضمَّنه الكثير من آثاره، وبعض النوادر التونـــسيَّة الـــتي مسَّت إليها المناسبة.

وقد بنـــى كتـــابه هذا على شرح قصيـــدة الأمير المذكور مع خطبتها التي صَّدر بها القصيدة، وسمَّى هذه القصيدة ناظمها "بمحرِّكات السَّواكن إلى أشرف الأماكن". وسمَّاها بذلك لأنَّه بناها على التَّشوُّق الى الحرمين وٱبتدأها بتطلُّعه وتمنِّيه لزيارة مكَّة المكرَّمة، فقال في طالعتها:

هـــل زورة تـــشفي فـــؤاد متـــيَّم يـــا أهـــل مكَّـــة والحطـــيم وزمـــزم

وثنَّى بالتَّشوُّق إلى المدينة المنوَّرة طيبة، فمن أبياتها في المعنى قوله:

ولطالمـــا ٱشـــتاق الفـــؤاد لطيبـــة شـــوق العليـــل إلى الـــدَّواء المحكـــم

وسمَّى شرحه هذا: "بإظهار النِّكات من خبايا المحرِّكات"

وبناه على أقسام تناول فيها شرحها من جهات متعدِّدة، فتعرَّض أوَّلا إلى المعاني اللغويَّة وثنَّى بالتراكيب النحويَّة والإعلالات الصرفيَّة، وأتى بعد ذلك بالفنون البلاغيَّة الثَّلاثة: المعاني والبيان والبديع، وأتى بحاصل المعنى وضـــمَّنه كما قال: "ما يحتاج من أمثال وآيات وأنظام وأنثار وسير وأخبار وأحاديث وآثار ونوادر يقتضيها المقام وتصوُّفات نافية للأسقام وٱصطلاحات علـــوم ومسائل ٱعتاصت عن المفهوم حلَّلت تعقيدها وحلَّيت بالإيضاح جيدها".

وهذا التَّأليف في جزأين في سبعمائة صفحة من القالب الكبير بخطٍّ دقيق، و لم ينهه تأليفا وذلك في البيت الأخير من القصيدة.

وقد كرَّس جزءا من حياته لهذا التَّأليف أيَّام هنائه وإقبال الـــدُّنيا بعـــد إعراضها، وألَّفه وهو معتزل للحياة العامَّة فاكتفى بالنِّعم المغدقة عليه مـــن الأمير صاحب القصيد مقيما بجبل المنار كما ذكر محمَّد (بالفتح) السّنوسي في "مسامرات الظّريف[1]" بحسن التَّعريف من أنَّه: "ترك جميع علائق الدَّولة،

1 المسامرات 110/1.

وكان الأمير يرسل له كلَّ ليلة جمعة فرسه الأشهب ولم يمتطه غير أستاذه المذكور فيحضر عنده بباردو للمبيت ومن الغد يرجع على الفرس المذكور موصولا بجميل الصِّلات، ووافر العطيَّات، وهو في رغد العيش يرصِّع تيجان تلك القصيدة بالجواهر النَّضيدة".

وفي أثناء هذا الشَّرح بعد شرح الخطبة وقبل الشُّروع في شرح القصيدة تبسَّط في وصف أيَّام هنائه نثرًا ونظما مغتبطا بتلك الحياة التي تهيَّأت عليه ظلالها وقد سرَّه إقبالها حيث السَّعادة قد مدَّت عليه رواقها وٱستطاب مذاقها.

مع ٱعتزال النَّاس والابتعاد عنهم لما في طبعه من الحدَّة، وقد ٱستقرَّ بأجمل مكان في تونس وهو جبل المنار، وأسباب العيش متوفِّرة لديه، وبين يديه كتبه التي يقتطف من زهورها يوانع، ويدوِّن منها في شرحه ما تمسُّ إليه الحاجة، وهذه الحياة يودُّها كلُّ أديب وديع ينشد الخلوة.

فلم يغفل هذه العيشة الرغيدة من التَّسجيل فذكر توبة الزَّمان الذي أساء في سمنجا وأحسن بعد ذلك غاية الإحسان، وهذا وصفه لتوبة الزَّمان: "ثمَّ بعد ٱثنتين وعشرين سنة لم تلتذَّ العين فيها بسنة سمح الدَّهر بإقباله ونكص بنصاله ونباله، وندم على ما قدَّم، وسعى بالأماني وتقدَّم، معتذرا عن سيِّئاته مستظهرا ببيِّناته، فدعا الأمل فأجاب، وٱنقشع رينه وٱنجاب، وٱستقام وٱعتدل وحلَّت شمسه الحمل، فزاحم الكواكب بالمناكب، وسابق العواصف النَّواكب، وسرى القمر اللِّياح[1] وساح ذائبه للامتياح[2]، فٱحتشد الفرح من جنباته، وٱنحسر بنسماته وهباته".

وأنشد في هذا المعنى قصيدا نقتطف منه بعضا:

---

1 لوح: يقال أبيض لِياحٌ ولَياح، إذا بولغ في وصفه بالبياض، أنشد الفرَّاء:
أقبُّ البطن خفَّاق الحشايا * يضيء اللَّيل كالقمر اللِّياحِ
(اللِّسان)

2 ماح ميحًا: أعطاه، والمِيح يجري مجرى المنفعة، وكلُّ من أعطى معروفًا فقد ماح، وٱمتاح فلان فلانا إذا أتاه يطلب فضله. (اللِّسان)

تـــاب الزَّمـــان وأقبلـــت أفراحـــه ونـــأى العثـــار وأدبـــرت أتراحـــه
وأتـــاك معتقـــد الإنابـــة تائبـــا وتنكَّـــست راياتـــه ورماحـــه
وانقـــادت الآمـــال دانيـــة الجـــنى وســـقاك راحـــا مـــستطابا مراحـــه
رعيا له من بعـــد يـــأس قـــد أتـــى طـــارت بأشـــباح المـــنى أرواحـــه
كـــالرَّوض لا يـــزدان في أندائـــه حتَّـــى يعـــلَّ مـــساؤه وصباحـــه
فـــابتزَّ جـــوهر زهـــره تـــاج المـــنى فـــافترَّ مـــن ثغـــر الـــسُّرور أفاحـــه
غنَّـــت بلابلـــه علـــى أفنـــانها فتمايلـــت لغنائهـــا أدواحـــه

قد طفحت هذه البسطة التي أتى بها في توبة الزَّمان بإقباله بوجه البـــشر وتولّي زمن الغربة والإعراض بأنَّه رضي تلك العيشة التي هيَّأها لـــه الأمـــير محمَّد الرَّشيد باي، وكيف لا يرضاها وهي بالوصف الذي وصفناها به مع ما وفَّر له الأمير من التَّعظيم بتخصيصه بركوب فرسه، وذلك في عصره من أكبر الغايات وأسمى المنى.

فلا غرو أن نرى قلمه السخيَّ بالمدح الضَّنين بالشُّكر لأنَّه قد عوَّده النَّيل ممَّن يعترض له في الحياة بتبسُّط في هذا الكتاب بتلك البسطة، ومـــا ذاك إلاَّ أنَّ هذا الكتاب كان سببا لإغداق النِّعم عليه، ووسيلة لإكرامه مـــن قبـــل أميره.

ومع هذا الإطناب في المدح للزَّمان ولأميره قد أشار من طرف خفيٍّ في أوَّل الكتاب لما يعلم منه نسبة القصيد حيث ذكر ما يسم منه أنَّ القصيد له لذكره أنَّ الأمير ما كان يقرض الشِّعر، ولكنَّه لمَّا حلَّ بالجزائر مغتربا تفتَّـــق لسانه بالشِّعر الفحل فقال: "وهو -أيَّده الله- كما قال لم يكن عانى قريضا ولا حاك فيه طويلا ولا عريضا، لكن لمَّا طلبه من قريحته الوقَّادة، لبَّته طائعة منقادة".

وتحرير نسبة الشِّعر للأمير محمَّد الرَّشيد لا تتَّسع له هذه الكلمة.

شعره

أثَّر في شعر محمَّد الشَّافعي ما أثَّر في شعر غيره من المحاكاة للغـــير مـــن الشُّعراء البارزين في الشَّرق، أو الأندلس، وهو مع ذلك لم يكن مجرورا بغيره مقودا به كما فعل الكثير الذين ٱلتزموا أن يكونوا وراء غيرهم فأكثروا من التَّشطير والتَّخميس ونحو ذلك، فأصبحوا مثل الشَّارحين للمتون وذلك من أثر عدم الشُّعور بالاستقلال، حتَّى إنَّ الشَّاعر لا يعدُّ شعره مقبـــولا إلاَّ إذا ربطه بشعر غيره.

تحرَّر مترجَمنا من هذا ولكنَّه أثَّرت فيه مؤثِّرات ظهرت في شعر غـــيره ٱبتكارا وظهرت فيه ٱقتفاء، ومن هذه المؤثِّرات ما كان محاكـــاة لقـــصائد مشهورة، ومنها ما كان أثرا للثَّقافة.

وكان في محاكاته يطمح إلى سامي الشِّعر وفحله فشأنه في شعره شأنه في نفسه من الطموح إلى القمَّة، فقد حاكى في بعض قصائده أبا نوَّاس وهـــي قصيدته التي أنشدها متشوِّقًا إلى تونس حين كان لاجئا في الجزائر مع الأمير محمَّد الرَّشيد، وحاكى أبا نوَّاس في قصيدة من غرر قصائده التي يقـــول في مطلعها:

أجـــارة بيتنـــا[1] أبـــوك غيـــور   وميسور ما يرجـــى لـــديك عـــسير

وقصيدة أبي نوَّاس هذه ذكر فيها المنازل من بغـــداد إلى الفـــسطاط – العاصمة الإسلاميَّة الأولى لمصر– وأنشد في مبدإ هذه الرِّحلة:

إليك رمت بـــالقوم هـــوج كأنَّـــما   جماجمهـــا فـــوق الحجـــاج قبـــور
رحلن بنا من عقرقـــوف وقـــد بـــدا   مـــن الـــصُّبح مفتـــوق الأديم شـــهير

بدأ في رحلته بذكر عقرقوف وهي قرية تبعد عن بغداد بستَّة فراســـخ[2]، ويذكر بعدها عين أباغ وهي واد على طريق الفرات ثمَّ تـــدمر ثمَّ غوطـــة دمشق وأبحولان دون دمشق ثمَّ بيسان، ثمَّ نهر أبي فطرس قريب من الرَّملـــة

---

1 الدِّيوان ص480.
2 معجم البلدان (155/4)

بفلسطين ثمَّ ماء النَّقيب وغزَّة هاشم، ثمَّ فرما إلى أن وصل إلى الفسطاط، وفيها يقول:

ولمّا أتت فسطاط مصر أجارها على ركبها أن لا تزول[1] مجير

وسار على غرار هذه القصيدة التي حاكاها الشَّافعي شاعران شهيران أحدهما إفريقيٌّ والآخر مصريٌّ، أمَّا الإفريقي فهو أبو علي ٱبن الفكون القسنطيني ومطلع قصيدته:

ألا قل للسريِّ ٱبن السريِّ أبي البدر الجواد الأريحي[2]

يبدأ رحلته بميلة[3] ذاكرا ما يمرُّ به الذَّاهب من قسنطينة إلى مرَّاكش، وأوَّل أبيات هذه الرِّحلة:

فلمَّا جئت ميلة خير دار أمالتني بكلّ رشا أبي

إلى أن يقول حين يصل إلى مرَّاكش:

وفي مرَّاكش يا ويح قلبي أتى الوادي فطمّ على القرى

وهذه القصيدة خطٌّ عليها العبدري في رحلته، وٱنتقدها نقدا كاد يسلبها حسنها ويبدو فيه بعض التَّحامل.[4]

وأمّا الثَّاني المصري فهو البوصيري (-696هـ) في قصيدته الهمزيَّة[5] الفيحاء التي هي غرَّة في جبين الشِّعر، فإنَّه ممَّا ذكر فيها منازل الحاجِّ من مصر إلى مكَّة، وهي ثمانية وعشرون منزلا، وٱستهلَّ ذكر المنازل بقوله:

وعدتني ٱزدياره العام وجناء[6] ومنَّت بوعدها الوجناء

أفلا أنطوي لها في ٱقتضائه لتطوى ما بيننا الأفلاء

---

1 الديوان وفيه: تزال.

2 رحلة العبدري تحقيق محمَّد الفاسي ص34.

3 ميلة، مدينة صغيرة بأقصى إفريقيَّة بينها وبين بجاية ثلاثة أيَّام. (معجم البلدان 244/5)

4 رحلة العبدري ص35.

5 أم القرى في مدح خير الورى (تحقيق الشيخ محمَّد الشاذلي النَّيفر) ص 43.

6 الوجناء، الشديدة أو العظيمة الوجنتين، وهنا النَّاقة.

ومعنى أفلا أنطوي أفلا أحسن ضمَّ نفسي على تلك الرَّاحلة، وشرع في ذكر المنازل المذكورة بذكر البُركة - بضمِّ الباء - التي هي أوَّل مترل من منازل الحاجِّ يجتمع فيه الحجَّاج تهيُّؤًا للسَّفر.

فأقضَّت على مباركها بر كتها فالبويب[1] فالخضراء

واستمرَّ يعدُّها مترلا مترلا فيما بين مصر ومكَّة إلى أن يقول حين تبلغ به الوجناء مكَّة المكرَّمة:

هذه عدَّة المنازل لا ما عدَّ فيه السِّماك والعوَّاء
فكأنِّي بها أرحِّل من مكَّة شمسا سماؤها البيداء

ومحمَّد الشَّافعي يقترب من البوصيري في قصيدته من حيث البحر وهو الخفيف فيشاركه في بحر قصيدته، ولكنَّه يبتعد عنه بعض البعد حين الوصول إلى المقصود، فالبوصيري يضمِّنها معاهد مكَّة المكرَّمة، وقضاء المناسك، وينتقل بعد ذلك إلى ذكر السَّير إلى طيبة المشرَّفة، وهو في أبياته في طيبة قد حلَّق في أجواء عالية حيث أبدى ما أبدع فيه في تصوير عواطف المسلم المحبِّ حين يقف بين يدي الرَّسول الكريم عليه أفضل الصَّلاة والتَّسليم:

ووجمنا من المهابة حتَّى لا كلام منَّا ولا إيماء

ولكن محمَّد الشَّافعي يقترب من ابن الفكون في التغزُّل حين يصل إلى تونس مقصده كما تغزَّل ابن الفكون حين وصل مرَّاكش:

بدور بل شموس بل صباح بهيّ في بهيّ في بهيّ

ولكن مترجَمنا لا يرحِّل نفسه في المنازل بين الجزائر وتونس وإنَّما يرحِّل الرِّيح، ويكلِّفها حمل حنينه إلى تونس، ويلتفت إلى موطن صباه وشبابه ومرحه، وهو معهد حياته النَّضرة.

ثمَّ يأمر الرِّيح بأن تسير من الجزائر صبحا كما رحل أبو نوَّاس من عقرقوف صبحا إلى -بجاية- وهو قد تصرَّف في هذا الاسم بالتَّصغير

---

1 البويب، تصغير الباب، نقبٌ بين جبلين، البويب مدخل أهل الحجاز إلى مصر. (معجم البلدان 512/1)

والتَّغيير لأنَّه غير عربيّ، وإلى وادي خميس ويأمرها بالتَّعالي حين تبلغ جبال جرجرة من ولاية الجزائر وبالتَّالي حين تصل إلى مجانة، ومقران من بلاد القبائل، وبحطِّ الأثقال لدى سطيف من ولاية قسنطينة، وبترك الحجَّار من جبال الصَّحراء يمينا وبالتَّيامن على تمنقاش المشهور أهلها بالشَّرف وبها آل حنَّاش الأبطال، ومدحهم الشَّافعي بالبطولة لأنَّه لجأ إليهم محمَّد الرَّشيد حين فرَّ إلى الحنانشة بتبسَّه ودخل بيت سلطان بن عمَّار كما جاء في "التَّاريخ الباشي"، ثمَّ أمر الرِّيح بأن تكون رخاءا على الكاف موطن المعارك الفاصلة منذ عهد الأغالبة إلى عهد المترجَم له حيث خرَّبتها المحلَّة العسكريَّة القادمة من الجزائر، وبأن تجرَّ أذيالها على باجة وبتضميخ برودها من النَّهر ويقصد وادي مجردة لتحيَّة قاطني تونس الأكارم وإجلالهم.

وقصيدته المشار إليها التي حنَّ فيها إلى مسقط الرَّأس عدَّتها ثلاثة وأربعون بيتا نقتطف منها محلَّ الحاجة:

[الخفيف]

يالك الله من جفا قد طالا	ومدى ما حباك إلاَّ مطالاَ
وتمور[1] بالحشا يروح ويغدو	أورث القلب منذ عراه خبالاَ
يا شمالا سريت دمت بليلا	كن يمينا لشيِّق وشمالاَ
إنَّما أنت من عتاق	ن كريما فلا تشكو الكلالاَ
سليما لو تواسي فتى	تخذ العين بالنّحول مجالاَ
حليف شجون وتؤدِّي	قد وصلن فقطَّعوا الأوصالاَ
رسالة لأناس كنت وفيت	وتعاليت شيمة وفعالاَ
لو فعلت ذماما سر بدار أمن	لا تواني الغدوَّ والآصالاَ
الجزائر صبحا عج بحيجية ووادي خميس	وتجاوزهما وجز عمَّالاَ
وتعالى إذا تلاقى علا جر	جرة إلى أن تمسَّ الهلالاَ
ثمَّ جل في قرى البرابر حينا	آل جالوت يمَّموا2 الأجبالاَ

1 الجواهر السنيَّة ص36 وفيه: وهوًى.

وبمجانة تأنَّ قليلا كي تلاقي المقارن الأقيالاَ
ولدى أهل مغرس وسطيف حطَّ عنك من العنا أثقالاَ
ولتخل الحجار عنك يمينا غير وان مستقبلا أقدالاَ
ثمَّ هب على اللَّطيم عقيما عاصفا ذاريا له قتالاَ
وتيامن على منازل تيفا ش وهزَّ الفوارس الأبطالاَ
آل حنَّاش الكرام جوارا ساحبين الرِّماح لدنا طوالاَ
لا تبالي بأن تكون على الكا ف رخاء وعارضا هطالاَ
أشعلت حادثات مرجه[1] نارا بالحشاشات والحشا إشعالاَ
وآجرر الذَّيل بالأباطح في الدخل لة إن جزهّا وكن مختالاَ
ثمَّ لا يوسعنَّ نسيمك إلاَّ أن يجرَّ بباجة أذيالاَ
دونك الباطن المضاف لنصر والعريشين والرُّبى والتِّلالاَ
ومن النَّهر فلتضمِّخ برودا كي تنيل الأكارم الإبلالاَ
قاطني تونس لهم فلتحي ولتكبِّر ولازم الإجلالاَ
وتلطَّف وبثَّ بثَّة محزو ن تمنَّى لديهم الإقبالاَ
معهدي للشَّباب وهو قشيب لن يراع وما وعى تضلالاَ
ربَّ ليل قطعته بذراها لن يطول وليله قد طالاَ
بظباء وآنسات غوان لم يدرن شهيَّ اللَّمى جريالاَ

وما يتعلَّق بهذه القصيدة من نقد حتَّى في العربيَّة وتحقيق ربَّما يكون في موضوع غير ترجمته إن آتَّسع المجال.

إذا كان شعر محمَّد الشَّافعي في محاكاته بأبي نوَّاس لم يجد في معارضته لأنَّه قد أدخل نفسه في مضيق صعب سار فيه ثلاثة من الفحول كلُّهم مجيد وبالأخصِّ البوصيري الذي أبدع في إظهار الأحاسيس نحو الغاية تطوى إليها المراحل. ولا غرابة في تفوُّق البوصيري على أبي نوَّاس في هذا المضمار، إذا

1 الجواهر السنيَّة: ص38 وفيه: حادثاته لي

2 المرجع السّابق وفيه: ساكني.

كان الشّافعي متأخّرا في تلك الحلبة فإنّه في حلبة أخرى لم يضلع فيها كما ضلع في تلك فله في محاكاة الشُّعراء -وهم كثير- الذين تبرّزوا في إظهار الاشتياق إلى الأماكن المقدّسة إجادة تدلُّ على شاعريّة وعاطفة مشبوبة وقدرة أدبيّة تجعله يزاحم بعض شعراء تلك الفترة التي كان الأدب فيها يدور في منطقة ضيِّقة لم تخرج عن المديح، ولعلَّ منطقة المترجَم الأديب أوسع من مناطق غيره.

فله في محاكاة المتشوِّقين إلى الحرمين قصيد يعدُّ من غرر قصائده قليل التكلُّف ضمّنه أوّلا التشوُّق إليهما وأخيرا الالتجاء إلى الله في كشف الغمّاء، وإجلاء الجليِّ من تغصِّب علي باشا على الحضرة التونسيّة، وقد أرسل بهذا القصيد إلى الرّوضة المشرّفة، وجعله على لسان محمّد الرّشيد الذي كان يعاني الغربة ويتطلّع إلى استرداد ملكه والانتصار على عدوِّه، ومن عيون القصيد طالعه:

[الطويل]

ألم يأن للمشتاق أن يعلم الرّسما ويعرى عن البيد الرّواسم والرّسما

وقد أراد في هذا الطّالع أن يظهر ما له من براعة صناعيّة في المحسّنات البديعيّة، وهي الصِّناعة الأدبيّة الرّائجة، في عصره، وإن أصبحت اليوم في عداد المنسيّات، فهي بالأمس القريب قد كانت عنوان البراعة، وميدان التفوُّق الذي تتبارى فيه الأذواق الأدبيّة، ويظهر التفوُّق الشِّعري، وقد غطّت هذه التكلُّفات الأدب، وغشت على المعاني حتّى تفهت في بعض الأحيان، وطغيان الكلفة لم يكن في تونس فحسب، بل في العالم العربي بأسره، ولا يمكن أن ندرس شاعرا في هذه الفترة متجاوزين ما طوي اليوم ذكره لأنّه من أركان الأدب السّالف، ومن أصول موازين الشِّعر في تلك الفترة حسب المتعارف جانس في هذا الطّالع جناسا، والحقُّ يقال خفيفا مقبولا بين الرّسم والرّسم صدرا وعجزا، لأنّ الرّسم في صدر البيت معناه ما

كان لاحقا بالأرض من آثار الدِّيار، والرَّسم في العجز معناه الرّكية -البئر- تدفن في الأرض، وهو ما يعبِّر عنه أصحاب البديع بالجناس التَّام، وهو ما تماثل ركناه، واتَّفقا لفظا، واختلفا معنى، وأشار بهذا الطَّالع إلى الغرض في بلوغ مقصوده لزيارة الأماكن المقدَّسة.

وإن تأنَّق في الطَّالع بالجناس فإنَّه قد ارتكب فيه ضرورة شعريَّة، والضَّرورات يتحاشاها من يربأ بشعره لأنَّها مثل التعثُّرات لا يستسيغها الذَّوق المرهف -وهي تسكين الياء في الفعل المنصوب- وهو (يعرى) لعطفه على (أن يعلم) قبله.

وجرى في هذا الطَّالع على المألوف من الاستفهام، واستمر على ذلك الاستفهام المبدوء به القصيد عن المشتاق هل قرب من الوصول إلى الغاية حتَّى يقضي اللُّبانات[1] ويرتاح من عناء السَّفر، والمقصود في الحقيقة التطلُّع إلى إزالة الحائل للوصول إلى أرض الوطن:

وهل آن إلقاء العصا نحو رامة ... ويأنس آراما بأرجائها بغما
فيقضي مرادا من كدا[2] وتهامة ... ويشفي فؤادا من سعاد ومن أسما
ويستنشق الرَّيحان من نحر حاجر ... فناهيك من نحر ومن نشقه شمَّا
أيا بارقا يسطار وهنا بعالج ... أضاء به الأدنى من الكون والأسمى

وعالج في هذه الأبيات ما عالجه في القصيد السَّابق من ذكر الأماكن المطويَّة في الرَّحيل كما اعتاده الشُّعراء في شعرهم التشوُّقي للأماكن المشرّفة، أو في المديح النَّبويِّ لذاته صلَّى الله عليه وسلَّم، والأماكن المذكورة هنا: رامة وكدى وتهامة وحاجر وعالج، كلُّها أماكن إمَّا في الحجاز وإمَّا في طريقه، ولكن بعضها ليس متَّصلا بالحجاز.

---

1 اللبَّانة: الحاجة من غير فاقة ولكن من همة. (المعجم الوسيط 820/2).
2 كُدَيٌّ وكداء، موضعان، وقيل: هما جبلان بمكَّة، وكَدَاءٌ، الثنيَّة العليا بمكَّة بما يلي المقابر وهو المعلَّى. (اللِّسان).

ومن أطرف أبيات هذا القصيد بيتاه في سجع الحمام، والمعنى وإن كان مطروقا في الشِّعر العربي حتَّى صار بابا من أبوابه التي أفاض الشُّعراء القول فيها وأطنبوا، وتفنَّنوا إبداعا وٱختراعا، فإنَّ مشاركة الشَّافعي لهم في ذلك كانت مشاركة منظورة، وإطرافه في جعل الحمائم تسجع سجع الضَّليل وهو ٱمرؤ القيس المشتهر بالملك الضِّلِّيل، وٱبن أبي سلمى وهو زهير ٱبن أبي سلمى، وفي تشبيه ترديدها بنقر عنان لعودها، وعنان هذه تعرف بجارية النَّاطفي وترجمتها شهيرة في كتب الأدب، ومنها ترجمة السُّيوطي في كتابه "المستظرف في أخبار الجواري"،[1] وأكثر ٱشتهار عنان بالشِّعر وسرعة البديهة، لا بالعود والغناء، وهي وإن لم تخل منهما، فإنَّ المتعارف عنها غيرهما:

وما شاقني إلاَّ حمائم تسجع ويسجعن للضّليل وٱبن أبي سلمى
يردِّدن شجوا فوق أفنان أيكة كأنَّ عنانا تنقر الزّير والبمَّا

ثمَّ ضمَّن آخره أشجانه المتَّقدة، وحنينه البالغ إلى الوطن المحروم منه تونس الخضراء، فأكثر شعره الذي قاله حين ٱلتجائه إلى الجزائر، وضمَّنه ذلك في توسُّلاته بالرَّسول الكريم عليه أفضل الصَّلاة وأزكى التَّسليم لفكِّ الغربة المتواصلة، وللعودة إلى الوطن في ظلِّ الظَّفر والسَّعادة، فرغم المدَّة الطويلة المنسيَّة لم ينفكَّ عن حنينه لوطنه الذي ترعرع فيه وٱستظلَّ بظلِّه الوريف.

[الطويل]

فيا خير من والى ومن علا ويا خير من صلَّى ويا خير من أمّا
رفعت إلى مبرور بابك قصَّتي ومسألتي فافرج لنا الحادث الجمّا

وقد أكثر من حنينه إلى بلده تونس وتغنَّى بمعالمها كثيرا، وٱلتمس لذلك مناسبات عدَّة، حتَّى يذكر بلده، ومنها قصائد توسُّليَّة، أو غزليَّة، ممَّا يدلُّ

1 نشر دار صلاح الدِّين المنجِّد عن دار الكتاب الجديد، بيروت 1963.

على أنَّه لم يستطب مقامه، وأفرغ ذلك في قصائد متنوِّعة فمنها ما هــو في قالب التشوُّق إلى بلده، المحاط بالأمن، والبعد عن العدوِّ والكاشح، والسَّبب في ذلك كما يبدو أنَّه كان في غربته غير منظور إليه بالعين التي يطمح إليها، فقد كان في تونس أيَّام دولة الأمير حسين بن علي تركي قاضيا للمحلَّــة، وهي خطَّة من الخطط السَّامية تُوصل صاحبها إلى أكبر خطَّة قضائيَّة قضاء الجماعة، بينما هو في الجزائر من سواد النَّاس طريدا شريدا، وقد شبَّ هــذا الوضع في نفسه كرامة المقام خارج ديار وطنه لما في نفسه من ٱعتزازٍ بالغ، وٱعتداد بنفسه ونسبه، وشرح وضعه في الجزائر في بيتين تضلَّع[1] فيهما مــن قربه في تلك الديار التي أوته، ولكنَّه لم يسئ إلى أهلها بنسبة عــدم الكــرم إليهم، بل تظلَّم من النَّظرة المختلفة بين الوطن، ومحلِّ الاغتراب:

تظلَّم بعدي مــن ديــار تباعــدت   تظلَّم قــربي مــن ديــار الجزائــر
أقمت بها تــسعا وســبعا وواحــدا   وما كنــت إلاَّ مــن ســواد العــشائرِ

ومن شعره في التشوُّق إلى وطنه قصيدته التي أطال فيها الــنَّفس حتَّــى بلغت تسعة وخمسين بيتا، وقد طفحت بذات نفسه، ودار فيها ما يدور في ذهنه من الانتقال في ضواحي تونس للترهة أيَّام كان في ظلِّ الأمير حسين بن علي، فمن أبياتها:

برح الخفــاء فبــاح منــه المنطــق   وسرت بــذاك الــيعملات الأيــــنق
لهوى ثــوى مــا بــين قرطاجنَّــة   وربى الكرائم حيــث يبــدو الفنــدق

يشير في بيته هذا إلى بعض ضواحي تونس الشماليَّة قرطاجنَّة والكــرم وفندقه، وكأنَّه جمع الكرم على كرائم، وسمِّيت هذه الناحية بالكرم لأنَّهــا أرض محاطة بأشجار، وهذا أقرب ما تُعلَّل به هذه التسمية:

---

1 جاء في الأصل: تضلَّع، ولعلَّ الأصوب: تظلَّم.

لله صبّ ما له مـن حيـلة إلاّ المنى ومـدامع تتدفّـق
أطلق غرامـك لالعـا لعثـاره لو أنّ روحك في الـصّبابة تزهـق
وأراك لا تذر التغـزُّل والهـوى ويسبح[2] شـعرك في الغـرام مرفـق[3]
أبجيرة حلُّـوا [1] الحنايـا منـزلا وسقوك كاسات الغرام ومـا سـقوا
أم ظبية جعلـت فـؤادك مرتعـا فعلت به أفعـال مـن لا يـشفـق
فغدوت مـسلوب الحـشا ذا عـبرة تهمي وقلبـك للمعاهـد شيِّـق
بل قد شـجاك هـوى لـدارة رادس والرِّيح تصفر والغـصون تـصفّـق
رشأ يغار الحسن مـن عطفاتـه وبخـدِّه مـاء الحيـاة مرقـرق
كانت خمائلـه ربى منُّوبـة لكنَّه بين الظِّبـاء مقرطـق

ويتغالى في تفضيل بلده على كلِّ البلدان تخصيصا وتعميما، وحقَّ له ذلك لأنَّ حبَّ الوطن ممزوج بروح الإنسان، وبالأخصِّ إذا كان بلده كتـونس التي تؤنس الغريب فضلا عن القريب، ويجعل ذمَّها غمقة وهي داء يأخذ في الصُّلب:

لهفي علـى بلـد تكامـل حـسنه الـذمُّ فيـه تعمـق وتغمـق
خـير الـبلاد مخـصَّص ومقيَّـد وحديثـه منـها الأعـمُّ المطلـق

فتونس بمعاهدها ومغانيها تحتلُّ جانبا كبيرا من شعر المتـرجَم، ولعلَّـه الوحيد من شعراء عصره في هذه الناحية التغنِّي ببلده وقومه، وسبب ذلك غربته التي وإن لقي فيها كرم الوفادة ما ٱنفكَّ مشتاقا توَّاقا، وكـذلك أنفته المتعلِّقة بحياة العزِّ والكرامة.

ومن أثر المحاكاة والثقافة في الشِّعر وإظهار البراعة الضلاعيَّة ٱلتزامـه في شعره من الثقافة البديعة ٱلتزاما غالبا، وقد تجلَّت تجلِّيا كبيرا فلم تقتصر على ما تقدَّم بل هي في الكثير من شعره تظفر بها منتشرة فيه، فعلم البديع ملك عليه أدبه، فأتى بالمتعارف منه حتَّى صار كالمبتذل وهو الجنـاس كمـا في

1 الجواهر، أبجيرة جعلوا.
2 المرجع السَّابق، وفيه: ونسيج.
3 المرجع السَّابق، موفق.

الطَّالع السَّابق، وكذا غيره ممَّا لم يستعمل إلاَّ بقلَّة، وهو التَّفريع بأن يصدِّر الشَّاعر بٱسم منفي موصوف بأحسن صفاته أو أقبحها ثمَّ يخبر عن ذلك بأفعل التفضيل كما في قوله:

وما وجد ضام حلَّ في القيظ عالجا   يقلِّبه ما بين رمضائه اللَّفح
ولا وجد طفل[1] فارق الثَّدي مرضع   فعيناه لا ترقى ودماهما السَّفح[2]
بأعظم من وجدي لظعن تحمَّلوا   لهم في بحار البيد إذ أمعنوا سبح

أتى بهذه الأبيات الثَّلاثة على غرار قول الأعشى:

ما روضة من رياض الحسن[3] معشبة   غناء[6] جاد عليها مسبل هطل
يضاحك[4] الشَّمس منها كوكب شرق   مؤزَّر[7] بعميم النَّبت مكتهل
يوما بأطيب منها[5] رائحة   ولا بأحسن منها إذ دنا الأصل

وشتَّان بين تفريع الأعشى الذي جاء عفوا وٱبتداعا، وبين تفريعه المتكلَّف المنتزع من القريحة قسرا ومحاكاة.

نظرة نقديَّة

تنوَّع شعر الشَّافعي بين القصائد والمقطَّعات والنُّتف وتناول في مقطَّعاته ونتفه أغراضا متنوِّعة، وكان فيهما موفَّقا أكثر من قصائده، وذلك يرجع إلى أنَّ المقطَّعات والنُّتف يأتيان غالبا عفوا، حتَّى وإن كدحت لهما القريحة لم يكن التكلُّف ظاهرا كما في قصائده التي أطال فيها وأطنب، فللقصر دخل في خفَّتهما وقبولهما في النَّفس دون ما حاكه طويل الذَّيل، ولكن مع هذا له نتف منقودة.

---

1 الجواهر، وفيه: ولا وَجدُ طفلٍ.
2 المرجع السَّابق، وفيه: ودمعها السحُّ.
3 ديوان الأعشى 57 وفيه: الحزن.
4 المرجع السَّابق، وفيه: يضاحك.
5 المرجع السَّابق ، فيه: نشر.
6 المرجع السَّابق، وفيه: خضراء.
7 المرجع السَّابق، فيه: مؤزّرٌ.

وتحسُّ بعدم الكلفة والانسجام اللَّفظي بين ألفاظ بعض نتفه ممَّا يشفع في ضعف المعنى، ويكون هذا منه حين ينشد شعره غير مقحم نفسه مع من حلَّقوا في أجواء الشِّعر، وبلغوا فيه الشَّأو البعيد كبيتيه اللَّذين أنشدهما فخرا بنسبه، وتعاليا على من تسبَّب في غضبه:

بيت علا فدحا السِّماك سماكه وغدا له في الخافقين خفوق
علَّقوا بحبل من عليٍّ ذي العلى ونمتهم للأبطحي عروق

ولهذين البيتين اتِّصال بترجمته، فإنَّه حين عرَّف بنفسه ذكر أنَّ أصل آبائه من بلد مساكن -بالسَّاحل التُّونسي- فقال: "أمَّا نسبي ونسب آبائي فإلى الآل المنسوبين للسِّبط الحسيني وهم أهل بلد مساكن، وهم طائفة حازوا وحصَّنوا نسبهم العليِّ و لم يشينوه بمصاهرة أجنبي، فهم فرع شجرة أصلها ثابت وفرعها في السَّماء، شموس آفاق أضاء بها العالم الأسفل والأسمى".

وله في هذا المعنى قطعة أخرى في التَّفاخر بالنَّسب الزَّكي، ولكنَّه لم يوفَّق فيها كالتي قبلها، فبدا الضُّعف ظاهرا فيها، والتَّعقيد المعنويُّ يتعثَّر فيه الفهم فينبو عن الذَّوق المرهف، وينضاف لذلك العدول عن المشهور في العربيَّة ممَّا لا تستسيغه القواعد العربيَّة الفصيحة.

مساكن بيتٌ آله آل أحمد لهم بقلوب المتَّقين مساكن
هم نخبة الزَّهراء زهر فعالهم وليسوا هم السُّود الوجوه الدَّواكن
فجدٌّ لهم موسى وجعفر والرِّضا وآباؤهم الشُّمُّ الجبال السَّواكن
لقد شرّفت في النَّاس إن فاخرت بهم كما شرفت بالسَّاجدين الأماكن
لركن لذي صدع تشرَّف معشر فكيف الذي للهاشميَّات راكن

وأبى في هذه القطعة أن يقتصر على التَّفاخر بالنَّسب النَّبويِّ دون أن يضيف إلى ذلك التَّعريض بالجالية الأندلسيَّة التي تفتخر بصقعها، وهو صقع مصدع، فلم يرحم غربة هذه الجالية فعيَّرها بما نال قطرها من التَّصدُّع والتفرُّق للشَّمل شذر مذر، فجذوة حقده على هذه الجالية متَّقدة دائما، فكلَّما تذكَّر حقده رشقهم بالطَّعن والتَّعيير.

وإذا ما أقحم الشّافعي نفسه مع مصاقع القول و لم يترك نفسه على سجيّتها، بل أحبَّ أن يتسامى إلى تلك الطّبقة في مشاركتها في معانيها الممتازة إذا ما صنع ذلك بدا ضعفه، وكبا به قلمه، وكان كمن يطاول السّماء بغدير الماء كما صنع في معنى تداوله الشُّعراء والأدباء فأكثروا فيه القول، وهو أيُّ الحبَّين أبقى الأوَّل أو الأخير؟

وللأدباء في ذلك مشربان مختلفان، فيذهب المترجَم إلى ما ذهب إليه أبو تمّام من تفضيل الحبِّ الأوَّل على غيره، وبقائه رغم مزاحمة الحبِّ الثّاني وغلبة الأوَّل للثّاني مهما ٱنتقل الفؤاد، من وداد إلى وداد. فقال الشّافعي في هذا المعنى جاريا على ما لأبي تمّام:

ٱشدد على حبٍّ بليت بحبِّه ودع السلوَّ ولو تمنَّع باللِّقا
لو كان في الحبِّ الأخير كرامة ما كان إبليس بآخر من بقى

فالبيتان على هلهل نسجهما، وبالأخصِّ في قوله "من بقى" هما قد تلجلج فيهما شعر الشّافعي مع أنَّ أبا تمّام قد أبدى هذا المعنى في قالبه الشّعري السّاحر الأخّاذ حيث أبدى عدم ٱهتمام مع إطلاق عنان بتنقُّل القلب من هوى إلى غيره، لأنَّ الحبَّ الأوَّل متغلِّب على الدّاخل عليه حتما وطارد له، فهو غير عابئ بتنقُّل القلب لوثوقه من عدم تزحزحه عن حبِّه الأوَّل، فٱستمع إليه في إبداعه وٱختراعه:

نقل فؤادَك حيث شئت من الهوى ما الحبُّ إلاَّ للحبيب الأوَّل
كم منزل في الأرض يألفُه الفتى وحنينه أبدا لأوَّل منزل

فإبداع أبي تمّام هذا كيف يتناوله قول الشّافعي:

ٱشدد على حبّ بليت بحبِّه

فقوله هذا ثقيل بقدر خفّة قول أبي تمّام، ويزيد مع الثِّقل سماجة في قوله: (بليت بحبِّه) لأنَّ البلوى ممَّا تنفر منه النُّفوس وتتقزَّز الطّبائع.

ويجري مجرى هذا التكلُّف نتفة له أخرى أراد أن يورِّي فيها ببعض الألحان، والحقيقة والكناية والمجاز من علم البيان على غرار صنيع أصحاب

التورية التي تعاطاها فحول أجادوا في بعضها إجادة تقبلها النُّفوس رغم تفاهة المعنى، كما جاء في تورية بعضهم بالأبحر الشعريَّة:

(دوائر) وجدي بالغرام تدور   وفي العين من فيض الدُّموع (بور)
حديثي (طويل) والهوى في جوانحي   (بسيط) به دمعي (المديد) تغريد

أراد الشَّافعي أن يورِّي كما ورَّى هذا الشَّاعر فأنشد هذه النُّتفة:

غزال خدُّه غنَّى (حسينا)   وعارضه ينمنم (بالحجازي)
صبا عشَّاقه لحسين (رصد)   فأصبح بالنَّوى فيهم يجازي
أعرِّفه الحقيقة من غرامي   فيعدل للكناية و المجاز

لقد أدَّاه حبُّه للتورية أن ينسب للشَّيء ما لا تصحُّ نسبته إليه، وما لا يلتقي معه في صعيد واحد، فإنَّ الخدَّ لم يعرف بالغناء، وإنَّما إذا وصفوه شبَّهوه بالرَّياحين، للمناسبة البادية بين الخدِّ والورد، أمَّا أن يجعلوه يغنِّي فمن بعيد التّورية، ثمَّ إنَّك إذا أمعنت النَّظر لم يلح لك شيء مستساغ لطيف في كون الخدِّ يغنِّي حسينا، وكذلك الحال في كون العارض ينمنم بالحجازي، وإن كانت له تورية مقبولة في هذه النُّتفة فهي قوله:

فأصبح بالنَّوى فيهم يجازي

فهذه التورية على ما فيها لها مناسبة ملحوظة لأنَّ مجازاة المعشوق بالنَّوى شيء متعارف في شرعة الحبِّ.

ثمَّ إنَّ التورية التي تكلَّف لها الشَّافعي ما تكلَّف وإن كانت من التكلُّفات الدَّاخلة على الأدب العربي ففيها المستظرف المستطرف كما جاء في بيتين أنشدهما الذَّهبي لبلديِّنا الوادي آشي من غير تعيين قائلها:

من أمَّ بيتك لم تبرح جوارحه   تروي أسانيد ما أوليت من متن
فالعين عن قرَّة والكفُّ عن صلة   والقلب عن جابر والأذن عن حسن

فهما في غاية الطرافة للمناسبة بين العين والقرَّة، والكفِّ والصِّلة، والقلب والجابر، والأذن وحسن الصَّوت، وقد ورَّى بذلك عن قرَّة بن أعين وصلة بن الحارث وجابر بن عبد الله الصحابيَّين رضي الله عنهما والحسن البصري.

وبجانب هذه النُّتف المنقودة له قطعة جيِّدة محبوكة قالها حين قصد محمَّد الرَّشيد بن علي تركي تونس لمحاربة علي باشا في المعركة الأخيرة بينهما حتَّى آنتصر على خصمه، فحين قصد هذا الجيش تونس جعل له محمَّد الرَّشيد راية قدَّمها لأمير قسنطينة إذ هو الذي أعدَّ له هذا الجيش:

سمح الزَّمان بغثِّه وسمينه هذا حسين تاجه بجبينه[1]
ناهيك راية عزَّة خفقت كما أهدى الصَّبا ريَّاه من نسرنيه
طابت بك الدُّنيا كما طاب الكرى والمندل الهنديُّ في دارينه
هذا الفتى الأوسيُّ أنَّى راية رفعت لمجد حازها بيمينه

وقدَّم على هذه الأبيات بقوله:

"وبعد أن شمخت الأنوف، وآمتحنت للمحاربة السُّيوف، وآتَّقد الكوكب المضيء بأنوائه، وآلتحف كلُّ كميٍّ بلوائه، عرض على المولى التأهُّب لمراده، والاستعداد لتملُّك بلاده، فصنع حفظه الله راية تحسدها الرِّياض بريَّاها وتودُّ أنَّها إيَّاها. -الصَّواب أن تكون إيَّاها- ليتحف بها باي العصر المؤيَّد بالنَّصر ملك قسنطينة:

منازل أساد وبيض نواعم فناهيك من غيل[2] وناهيك من خدر
فإنَّه المتكفَّل بإنجازه المهيمن على أجناده

التَّسجيل الشِّعري

سجَّل شعر المترجَم كثيرا من الحوادث التي مرَّت به، ولكنَّها حوادث طفيفة لا يعبأ بها مثل سقوط شمعة على غلام، وفنجان قهوة على شاربه، ومع ذلك لا تخلو من فائدة، فهي بجانب ما سجَّله من بعض الحوادث التي مرَّت عليه بسبب تلك الحروب الشَّعواء بين صديقه وأميره محمَّد الرَّشيد، وبين آبن عمِّه علي باشا تتمثَّل فيهما أدوار حياته العامَّة والخاصَّة، ففي

1 الجواهر السنية ص 64، وفيه: بيمينه.
2 الغيل، موضع الأسد. (اللِّسان)

قصائده السَّابقة نشر مختارات منها ليسجِّل تلك الوقائع المؤلمة لنفسه، وفي نتف كثيرة ومقتطعات تتمثَّل حياته الخاصَّة، وما كان يدور فيها من إنشادات تثيرها حوادث مؤثِّرة على نفسه، فهي وإن كانت تتراءى لنا تافهة، فهي عنده مثيرة ومحرِّكة للشَّاعريَّة، فلها قيمتها الأدبيَّة والتَّاريخيَّة.

ومن نتفه في هذا الصَّدد ما أنشده في مجلس كان فيه الفقيه أبو العبَّاس أحمد بن مسعود، وهذا المجلس وصفه بأنَّ ٱبن مسعود تناول قهوة وقد رنَّحته الأفراح وكأنَّه شرب الرَّاح، فسقط الفنجان من يده على ساقه، وٱضطرب من ٱحتراقه فخاطبه بقوله:

[البسيط]

إنَّ قهوة سقطت من غفلة وقعت   وآلمت رجل بيت الفضل والجود

فإنَّها غادة جاءت على شغف   تقبِّل السَّاق من رجل ٱبن مسعود

فالخيال يصوِّر للمرء ذلك المجلس الطريَّ بالطُّرف الأدبيَّة، والحافل بالطَّرب حتَّى أنَّ متناول فنجان القهوة لانسياقه مع ذلك الطَّرب المستخفِّ للأحلام نسي ما بيده فسقط الفنجان على رجله فٱرتاع لهذه المفاجأة متألِّما من لذعة الاحتراق، وهذا المجلس ليس من المجالس الغريبة فإنَّ مثله يحدث ويتكرَّر في بيوتنا ولكنَّه يمرُّ دون أن يبقى له أثر كأثر هذا المجلس بسبب إغفالنا له من عقولنا، بخلاف مجلس الشَّافعي الذي بقي مسجَّلا من جرَّاء نتفته الأدبيَّة فأصبح يجول في المخيَّلة.

وله في مجلس آخر جرى فيه مثل هذا الاحتراق إلاَّ أنَّ الشَّخص المحترق غير الأوَّل في الشَّخصيَّة، إذ الأوَّل من الفقهاء الأماجد، وأمَّا هذا فإنَّه ظبي غرير حنَّ إليه شبيهه في الإضاءة والحسن، وهي الشَّمعة الواقعة عليه حتَّى أحرقت يده:

[مجزوء الرمل]

أحرقت ظبيا غريرا   شمعة كلتا يديه

ما عجيب يا لقومي   شبهه يصبو إليه

فشاعريّته قد تأثّرت بهذا الحادث تعطُّفا على الحسن الملتاع، فأنشدت البيتين المذكورين منتزعة من الحادثة معنى مقبولا، فتخيّلت أنّ الشّمعة لمّا رأت شبيهها الظّبي الغرير حنّت إليه فسقطت عليه، ولا عجب في ذلك فإنّ شبه الشّيء منجذب إليه فالحسن جذّاب، وفي النُّتفة المتقدِّمة تسجيل لتشبيه الجميل بالشّمعة لأنّها المتعارفة في إنارة البيوت وقتئذ.

وتسجيله لما يعرض في مجالس أنسه ضمّنه شعره ونثره، وتأنّق في نثره إبرازا لتأثير تلك المجالس على نفسه حتّى يبدو لهوه وأنسه في ثوبين قشيبين وحياته المرحة في أناقة، فمن ذلك ما كتبه في الغرض:

"ومن هذا المعنى ما قلته في ليلة وفر سرورها وتزاحم ثرياها وعبورها، محاسنها في اتّساق، وسوق لهوها على ساق، وكان في المجلس مغنٍّ له في الغناء باع وفي الحسن معنى وانطباع يسمّى (سكّرا بلا ماء) وينسب جدُّه إلى ماء السّماء، فأشار عليَّ من يجب إسعافه، ولا يسع خلافه، أن أقول فيه ما يفصح عن شمائله ومعانيه، ويعرب عن تثنِّيه وتجنِّيه، فقلت:

[الطويل]

ربَّ ليل نادمت فيه غزالا ... فضح الصُّبح إن بدا إشراقا
لحظه الصّاد والعذار أتى لا ... مين حقًّا قد حاربا العشّاقا
قال ريقي يطابق اسمي معنى ... ولقد كان للجوى درياقا
قلت إن كان ما تقول حقيقا ... فأذقنا من ذا الرّضاب ذواقا

إنّ القطعة مع نثرها تظهر ما كان من حياة تونسيّة في مجالس اللّهو والخلاعة، كما تبدي ما كان يتندّر به من تسميّات ذات مغاز ومعان كتسمية هذا المغنّي (بسكّر بلا ماء) فإنّها تسمية تتجلّى فيها الرُّوح التونسيّة الرّقيقة، وهي وراءها ما وراءها من معنى لا يفهمه إلاّ من يفهم التندُّرات التونسيّة.

وقد تصرّف المترجَم في هذه التّسمية وطابق بين ريق المغنِّي واسمه، فهي تسمية مطابقة في الحسِّ والمعنى.

وممَّا يدخل في تسجيله الشِّعري لمجالس أُنسه ما أنشده في ساقي قهـــوة كان ظريفا لطيفا وضمَّنه مع ذلك وصفا للقهوة البنِّية:

فلــربَّ[1] ســاقي قهــوة تحلــو بــه   فنجانــه إن صــدَّ أوأهــدى بهــا
فبياضــها وســوادها ودخانهــا   حــوراء عــين زيــد في أهــدابها

إنَّ المترجَم قد ولع شغفا بهذه اللَّيالي المسجَّلة في شعره، وهي ليال كــان عصره يزخر بها، فهو عصر السَّهرات البيتيَّة التي كانت تعقد لهــا النَّــوادي المحتفل بها في بيوت بعض ذوي اليسار، وله في هذه المسامرة الليليَّة ما هــو مقصور عليها دون ما يحدث فيها كالنُّتف السَّابقة، فقال في هذه اللَّيالي وما تجلوه من هموم نفسيَّة:

تــسامرك المــسرَّة في ليــال   خلــت عنــها مــسامرة الهمــوم
وترعــاك الأمــاني في مغــان   سمــيره وســطها بــرد النَّعــيم

كما وصف لياليه وما يدور فيها، تناول نفسه في طوريها طور الشَّباب وطور الشَّيخوخة، فافتخر بلحيتــه السَّوداء الحالكة السَّواد، فحبَّذ سوادها الملتفَّ على وجهــه الزَّاهر المقمر، وأنشد في التغنِّي بتلك الشَّبيبة الغضَّة:

يــا حبَّــذا لحيــة ســوداء حالكــة   كأنَّها اللَّيــل ملتــفٌّ علــى القمــر
أنعــم بــصبغتها لــو لم تحــل أبــدا   لكــنَّ إدبارهــا كــاللَّمح بالبــصر

وٱعتزَّ بها بعد أن حالت تلك اللِّحية من السَّواد إلى البياض، وصار يفتخر بها لا ببياضها لأنَّه علامة الهرم، وإنَّما يفتخر بعقله الذي ٱكتمل وينفي عن نفسه الخرف، ويطعن في ٱكتمال عقل حسَّاده، ويراهم في صغر عقلــهم لم يبلغوا الحلم:

أثار شيبي علــى الحــسَّاد حــسرتهم   كما ٱستفدت به التَّجريــب والحكمــا
قالوا وقد آسفونا: إنَّــه خــــرف   والكلُّ عقلهم لم يبلــغ الحــــلما

ويؤيِّد هذا الرَّأي بما جاء تقدمة على البيتين هذين في فقرات: "فقلــت فيمن يقدح في كبر السنِّ وفضله، ويرى للحداثــة فــضلا لجهلــه، رأي الشُّيــوخ أنضجته الأيَّام، ورأي الأحداث مولود لغير تمام".

1 في الأصل: ربَّ ساقي...، وهذا لا يستقيم معه الوزن.

وقد أدَّى الشَّافعي في أدبه في هذه النُّتف وغيرها ما دار في حياته، وحكى جوانب متعدِّدة منها، وأبرزها في صور شعريَّة تعيد ذكريات أيَّامه لا في هذا الجانب الخاصِّ فحسب، بل في غيره وهو الجانب السياسي الذي عاشه، وخصَّ ذلك بقصائده دون نتفه.

ويستطيع الباحث أن يخرج من هذه النُّتف بجانب تاريخيٍّ من حياته الخاصَّة يكاد يكون مفقودا عند غيره، والسَّبب في تسجيله الشعريِّ ٱعتداده بنفسه، فلم تذب شخصيَّته في شخصيَّة غيره كما ذاب الكثير من الشُّعراء.

ومن ٱعتداده بنفسه أنَّه لا يتحاشى أن يسجِّل ما يعدُّ عند غيره غير مرضيٍّ بل مذموما لما فيه من الشُّذوذ عن المتعارف للعدول عن الحسن إلى غيره، فإنَّه كان مولعا بحبِّ سوداء، وهي تتجنَّى عليه، فلامه الأمير محمَّد الرَّشيد على ذلك، فلم يرجع عن رأيه، وتغالى في تمسُّكه فٱستمرَّ على حبها وٱسترضائها، وسجَّل ذلك على نفسه في شعر أنشده في الغرض متضمِّنا معنى بديعا حيث شبَّه السَّوداء باللَّيل وشبَّه نفسه بالنَّهار في حال جريانه وراءها مسترضيا لها وهي غضبى حانقة مكفهرَّة جاهمة:

[الوافر]

أيا مولاي لا تعذل فإنِّي ... وسودائي الفرزدق والنّوار[1]

سأتلوها إذا غضبَت وراحَت ... كمثلِ اللَّيلِ يتلوه النَّهارُ

وأظنُّ أنَّ الشَّافعي قد غالى في هذا التَّسجيل الشعريِّ ٱعتدادا بنفسه وبسودائه حيث جعل مكانته كالفرزدق وهي كالنُّوار ٱمرأته، وشتَّان ما بينه وبين الفرزدق في فحولة الشِّعر، وشتَّان ما بين سودائه والنُّوار، أمَّا هو مع الفرزدق فأمرهما غير مجهول، أمَّا النُّوار فهي المشتهرة بالعقل والأدب والجمال، أمَّا من يجري وراءها فحالها لم تبلغ حدَّ المعرفة بها فضلا عن ٱشتهارها بعقل أو جمال.

---

1 الجواهر السنيَّة ص 70.

حنين الأوبة

تناول الشّافعي في شعره قصائد ونتفًا ومقطّعات، التشوّق إلى الحرمين الشّريفين مكّة والمدينة، وأكثر من ذلك، فتشوّق لهما وشوّق، وأثّر على من حوله حتّى كانت قصيدة الأمير محمّد الرّشيد في هذا المعنى، وهي التي شرحها الشّافعي، وعلى أيٍّ حال كانت صورة التّأثير الأدبي على الأمير المذكور من قبل الشّافعي برّرت هذه القصيدة في الحنين إلى الحرمين وهو المعنى الذي يحبُّه المترجَم، فلهذا عنونت القصيدة المذكورة "بمحرِّكات السّواكن إلى أشرف الأماكن".

فحبُّ الحرمين ٱمتلك عليه مشاعره وأحاسيسه ففاض شعره به، وٱمتلأ بالشّوق إليهما، فكان شبيها بأديب تقدّمه بالوفاة وعاصره وعاش في المغرب الأقصى وهو الشّريف العلمي(-1134هـ)الذي أكثر من ذلك، وله في الحنين إليهما "القصائد العشرة إلى البقاع المطهّرة"، وحفّز الحنين الشّريف العلمي إلى أن شرّق سنة وفاته، فمات في طريقه بمصر، وكذلك صنع المترجَم، فلعلّه كان مقتفيا به ومقتديا، أو ذلك من توارد الاتّجاهات.

وللشّافعي في هذا المعنى قصيدة من غُرر قصائده يتمنّى فيها الوصول إلى البلاد الحجازيّة، ومن أبياتها في تمنّي بلوغ المدينة المنوّرة:

[الطويل]

تبلغني دارا دويْنَ قبابها[1] وجوه تراءت في طلاقتها جهما

ديار الذي أرسى من الدِّين ما رسا له الخطّة العلياء والرُّتبة العظمى

وله نتف متعدِّدة باح فيها بأمانيه في بلوغ الحرمين، فمرّة يحصر هذه الأماني في بلوغ (منى) حتّى يرمي الجمرات ويطفئ اللّعجات:

[الطويل]

مناي (منى) إن كان للنّفس منية أجل بها شعثان في عاشر الشّهر

فأرمي بها سبعًا على كلِّ جمرة لأطفئ جمرا قد تأجّج بالجمر

1 الجواهر ص32، وفيه: فناؤها.

وأخرى يحصر أمانيه وآماله أن يحلّ (بطيبة) ويقيم بها:

[الطويل]

منـــاي وآمـــالي المقـــام (بطيبــــــة) ووصل عرى مـــا أن تحـــل وتـــصرّما
وأنّـــى لنـــا أن لا تكـــون بعيـــدة ويمحو زمـــاني ذنبـــه المتقـــــــــدّما

فقد حصر آماله لا في بلوغ طيبة وهي المدينة المشرّفة، بل حصر آماله في المقام بها، وأنشد هذين البيتين عند شرحه للبيت السّابع من قصيدة تحريــك السّواكن، فكأنّه يحرِّك عزم الأمير صاحب القصيدة ليفسح له المجال حتّـــى يقيم بطيبة المشرّفة.

فهو بعد أن كانت آماله محصورة في بلوغ وطنه والإقامة به، توجّهــت هذه الآمال إلى الهجرة بعد حلوله في وطنه، فلا بدّ أن تكون هناك أســباب باعثة على ذلك، ويمكن أن نرجع حصر آماله في الهجرة إلى سببين ينتزعان من شعره وأخلاقه.

أوّلهما أنّه لمّا علت سنُّه وهو في لهو لا يتناسب مع شيبته لأنّ الدّولة لمّـــا رجعت إلى الأمير محمّد الرّشيد المعروف بحبِّه للفنِّ الغنائي أحيا لياليه في لهو ومرح، والشّافعي من حاشيته يمرح مرحه، ويلهو لهوه وهو في سنِّ الخامسة والستِّين مع أنّ ثقافته دينيَّة لمّا كان كلُّ ذلك، نهته السنُّ والثّقافة عن تمادي الانسياق.

ويبعد كلَّ البعد أن تكون فكرة الهجرة خامرت عقله لمّا كان مغتربـــا بالجزائر لأنّه -كما يوقف عليه من شعره- كان متطلِّعا إلى الرُّجوع لبلده، وحين تمَّ له ما أراد، وشفى غليل الفؤاد، وٱستمع إلى المغنِّين هجست نفسه وشعرت بوخز الضّمير، وأصحته الشَّيبة عن الاسترسال فيما هو فيه، فرأى أنَّ الهجرة هي السَّبيل الوحيد للتَّوبة والإقلاع عن حياة اللَّهو.

وتحت هذه العوامل والحوافز أعلن التَّوبة إلى الله فقال:

[البسيط]

يا ربّ قد تبت فاقبـــل تـــوبتي كرمـــا وقد ندمت على جهلـــي وعـــصياني
وقد أتيتك ذا عزم ولـــيس ســـوى نداك يقصد فٱقبـــل توبـــة الجـــاني

فها هو قد صحَّح العزم بعد أن كان يقلع ويرجع، ويتوب ويحــوب،[1] فكانت توبته توبة المتردِّدين، أمَّا هذه المرَّة فقد قطع أوصال اللَّهو، وأخذ في حياة أخرى غير الحياة الأولى وهي حياة الأوبة إلى الله:

[مجزوء الكامل]

مــــن خالقـــــي لي رغبـــــة فيهـــــا الكرامـــــة والرِّضـــــا
فـــــإذا عفـــــا يـــــا فـــــرحتي كنـــــت المحـــــبّ المرتـــــضـــــى

وثاني سببَي حمله على الهجرة أنَّه كان يتطلَّع إلى حياة غير حياتــه الــتي يحياها في كنف الأمير محمَّد الرَّشيد لأنَّه قصره على تأليف كتابه: "إظهــار النِّكات من خبايا المحرِّكات" الذي شرح فيه قصيدة الأمير المذكور، وهــو -كما تنبئ أخلاقه- كان متطلِّعا إلى أن يضطلع في الدَّولة بقسطه، فــرغم توفُّر أسباب العيش له، والحياة في كنف الرَّاحة والهناء، أحسَّ بالغــضاضة لتقصير زمانه عن آماله.

ولعلَّ الأمير الرَّشيد كان يرى فيه عدم الأهليَّة، ولذلك قــصره علــى التَّأليف مع إعظامه غاية الإعظام ومع ذلك كان متمسِّكا به، فإذا ما خاطبه في شأن الحجِّ لم يسمح له، فلذلك ٱستحثَّه على السَّماح له بالحجِّ والإعانــة عليه:

[البسيط]

من لي بأروع ذي عــزّ أخــي ثقــة يكون عونا على ســعي لــذي ســلم
حتَّى أفــوز بحــجّ غــير ذي رفــث محيِّيا خير من يمــشي علــى قــدم

ومستقرئ حياته يرى همَّته قد حفزته إلى الهجرة لعدم رضاه على ما قصر عليه، وينضاف إلى ذلك علوُّ السنِّ، فإبراد الغلّــة لا يكــون إلاَّ في تلــك الأماكن الطَّاهرة، وإطفاء لهيب النَّفس المحرومة لا يحصل إلاَّ فيها.

1 الحوْبُ والحُوب، الحزن، والتوجُّع والتخشُّع. (اللّسان)

هجرته ووفاته

تقوّت عزيمته على ما هتف به في شعره من المقام خارج الوطن بسبب أنّ الحياة التي لم يستطبها ولكنّها وفّرت له الهناء والرّاحة قد تنكّرت بسبب تبدُّل الدّولة، فما لم يرضه في مدّة محمّد الرّشيد قد فقده عند أخيه علي باي حيث أنّه لم يكن عنده بالمنزلة التي عند أخيه.

وأشار إلى ٱنحطاط منزلته عند علي باي الشّيخ محمّد بيرم الرّابع[1] (-1278هـ) في كتابه "الجواهر السنيّة في شعراء الدِّيار التونسيَّة"[2] الذي جمع فيه أشعار ستَّة من الأدباء المتقدِّمين في عصرهم مع تراجم مقتضبة لهم غاية الاقتضاب، فذكر أنَّه وقع له بعض هضم فطلب الحجَّ، وأجيب، فسار قاصده فوافاه الأجل المحتوم، وٱنتقل إلى رحمة الحيِّ القيُّوم، ولم يتحقّق عام وفاته.

وذكر قبل هذا أنّه كان يتمتّع بعناية خاصَّة من الأمير محمَّد الرَّشيد، وٱنقطعت تلك العناية بموته.

وكانت وفاة محمّد الرَّشيد المذكور أواسط جمادى الثَّانية من سنة (- 1172هـ) فتكون وفاة الشَّافعي بين سنتي ٱثنتين وسبعين وثلاث وسبعين، ولا يمكن أن تزيد المدَّة على السَّنة الأخيرة لأنَّه لم ينقل أنّه ٱستقرَّ بالشَّام، وإنَّما مات في طريقه إلى الحجاز وسنُّه حينئذ تكون إمَّا السَّابعة والستِّين أو الثَّامنة والستِّين.

وليس ببعيد أن يكون هذا الهضم ناله بسبب الوزير الكاتب الحاج حمُّودة بن عبد العزيز حيث ٱشتهر بالنِّكاية في خصومه حتَّى وقعت محاولة ٱغتياله،

---

1 محمَّد بيرم الرَّابع ٱبن محمَّد الثَّالث ٱبن محمَّد الثَّاني ٱبن محمَّد بيرم الأوَّل. فقيه، محدث، أديب، ذو إعتناء بالتَّراجم، تولّى الإفتاء ثمّ هو أوّل من لقّب بشيخ الإسلام في تونس. (تراجم المؤلفين التونسيِّين 184/1).

2 الجواهر ص 29.

وبالأخصِّ لَّما رفعه إلى ما رفعه إليه الأمير علي باي، فالمقـام لا يـستطاب فلذلك طلب الحجَّ ظاهرا، وهو في الحقيقة نوى الهجرة.

يجزم الباحث أنَّ الشَّافعي بلغ من نفرة عصره مبلغا جعله لا يلتئم معـه أدنى ٱلتئام، فوخز الضَّمير وهضم الجانب جعلا حياته متقلقلة فكان متخوِّفًا من أهل عصره، متوجِّسا خيفة ممَّن يعتقد أنَّهم أعداء، وبالطَّبع أن يـرى أنَّ شباك الأعداء منصوبة، فإن لم ينج بنفسه هلك، فٱستعاذ ببيت الله:

[الطويل]

يا بيت ربِّي قـد أتيتـك عائـذا   نصب العـداة لقنـصي الأشـراكا
غـرض الأعـادي أن أرى لـسهامهم   غرضا بحقِّـك حفَّـني بحمـاك

إنَّ حاله النَّفسيَّة في ٱرتباك فترى أنَّها واقعة في الشّرك، فالثِّقة بالمـستقبل أصبحت معدومة والهواجس متراكمة.

ولسنا ندري أنَّ ما يتوقَّعه من أعاديه أمر حقيقيٌّ أم خيالات منبعثة مـن نفس غلبت عليها الأوهام، فصارت تتخيَّل خيالات لا سبب لها، وليس هذا بالأمر المستغرب من شأنه لأنَّه عاش في خصام، ونفار من أهل عصره، حتَّى بلغ من حنقه أنَّه هجا جالية كاملة من أجل خصامه مع أحد أفرادها.

ونجد مثل هذه النفسيَّة معه حين كان في الاغتراب في الجزائر، فرغم كرم الوفادة أنف من المقام هناك، فنفسه نفورة لا يطيب لها مقام، تخاف النَّاس، وتعاف الحياة لأدنى سبب، من أجل هذا كلِّه قصد الحجَّ، ونوى الهجرة فشدَّ الرِّحال، فلم تطل حياته في هذا الاغتراب الجديد، رحمه الله وعفا عنه.

أحمد العصفوري [1]

عرف بالأدب من هذا البيت اثنان أحمد هذا، وٱبنه إبراهيم[2]، أمَّا أحمد الأب فقد أخذ بعض الحظِّ من التَّعريف، إذ ترجم له المرحوم محمَّد النَّيفر[3] في كتابه "عنوان الأريب"[4] حسب الخطَّة المرسومة لكتابه من الاكتفاء ببعض التَّعريف من نقل نموذج من أدبه تاركا مجال التوسُّع للباحث النَّاقد، وأمَّا ٱبنه إبراهيم فقد طوي ذكره بالكليَّة مع أنَّه في النَّاحية الأدبيَّة يفوق أباه، ولولا أن نكون قد خالفنا السُّنن الطبيعي قدَّمنا الابن على أبيه لما له من تفوُّق أدبيٍّ، وللحاجة إلى التَّعريف به، ولكنَّ الأب يحتاج إلى زيادة التَّعريف بأدبه حيث لم يذكر من شعره في العنوان إلاَّ قصيدته التي قالها في مدح علي باي[5] حين أنشأ الأسطول، وهي من ضعيف شعره.

بيتـــه

ٱشتهر هذا البيت بالعصفوري نسبة لابن عصفور كما ذكره الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف[6] في ترجمة حفيده[7] المترجَم حمُّودة المتوفَّى سنة 1282هـ بـأنَّ

---

1 توفي سنة 1199 هـ، عنوان الأريب 558/1.

2 مراجعة الفصل الخاص به لاحقا

3 محمَّد بن محمَّد الطيِّب بن محمَّد النَّيفر. مؤرِّخ، أديب، فقيه. من آثاره: "حسن البيان فيما بلغته إفريقيَّة في الإسلام من السطوة والعمران"، "عنوان الأريب عمَّا نشأ بالمملكة التونسيَّة من عالم أديب". توفِّي سنة 1330هـ/1911م. (معجم المؤلفين228/11).

4 عنوان الأريب 558/1-561.

5 هو الأمير أبو الحسن علي بن حسين بن علي تركي، بويع سنة 1172هـ وقد شاد من المباني والمفاخر ما بقي ذكره، فبنى تربته الشَّهيرة والمدرسة المجاورة لها. وأقام مكتبا لتجويد القرآن العظيم لصق جامع والده، وهدَّم الحانات، وأجرى كثيرًا من السقايات، وأقام الجسور...الخ. توفي سنة 1196هـ (مسامرات الظَّريف 112/1).

6 أحمد بن أبي الضِّياف التونسي (أبو العبّاس)، وزير، مؤرّخ، أديب. من مؤلّفاته: "إتحاف أهل الزَّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان" وله نظم. توفّي سنة 1291هـ/1874م. (معجم المؤلفين 255/1).

7 انظر إتحاف أهل الزَّمان (140/2).

جدَّهم الأعلى قدم من إشبيلية وخدم في دولة بني أبي حفص، وتابعه آل بنيه في الخطط النَّبيهة كالوزارة لبني أبي حفص والكتابة والقضاء والفتوى وإمامة الجامع الأعظم، وغير ذلك من الخطط العلميَّة والقلميَّة.

وٱبن عصفور القادم من إشبيليَّة هو أبو الحسن علي بن مؤمن[1] (669هـ) النَّحوي المشهور صاحب "المقرَّب" وغيره.

وقد خلط الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف[2] حين ترجم لأحد أفراد هذه العائلة، وهو الذي كان إماما بجامع الزَّيتونة، ومات في حجره الشَّيخ منصور بن جردان سنة 904هـ، فظنَّه أبا البركات محمَّد بن محمَّد بن عصفور الذي تولَّى الكتابة لأبي عمرو عثمان[3]، والذي تولَّى التَّدريس بمدرسة ٱبن تافراجين[4] بعد وفاة البرزلي[5]، وكانت وفاة البرزلي سنة 841هـ، وهذا المتولِّي للإمامة كان حيًّا سنة 904هـ، ومن المتعارف أنَّه لا يعمِّر ذلك العمر الطَّويل، وهو مجاوزة المائة، لأنَّه ما تولَّى الخطط الرَّفيعة إلاَّ وهو في سنٍّ تؤهِّله لذلك وهي الأربعون، ولو بلغ تلك السنَّ لنصَّ على ذلك.

وقد أولع بالتَّورية بهذا اللَّقب الغراب الشَّاعر المشهور، وٱبن المترجَم، فمن تورية الغراب بلقبه (الغراب) وهذا اللَّقب:

[كامل]

دمع العيون همى كفيض بحوري   وآلفت أحزاني وبان سروري
يا ليت شعري هل أفوز بقربه   إنِّي لتوَّاق لنيل شعوري

---

1 علي بن مؤمن بن محمَّد بن علي الحضرمي، الإشبيلي، وعرف بٱبن منصور(أبو الحسن) فقيه، نحوي، صرفي، لغوي،مؤرِّخ، شاعر. من تصانيفه: "الممتع في التَّصريف"، "شرح المقدِّمة الجزوليَّة في النَّحو"، "شرح ديوان المتنبي"...الخ. (الأعلام 179/5).

2 إتحاف أهل الزَّمان 65/7.

3 عثمان بن محمَّد بن عزُّوز بن أحمد الهناتي الحفصي، أبو عمرو: من ملوك الدَّولة الحفصيَّة بتونس. من مآثره خزانة كتب في جامع الزَّيتونة، ومدرسة. توفِّي سنة 893هـ/ 1488م. (الأعلام 377/4)

4 مدرسة ٱبن تافرجين، الكائنة بحوانيت عاشور من عاصمة تونس. (الإتحاف 65/7).

5 أحمد بن محمَّد بن المعتل البلوي، القيرواني، المالكي، الشَّهير بالبرزلي. فقيه، مشارك في أنواع من العلوم. من تصانيفه: الدِّيوان الكبير في الفقه والفتاوى. (معجم المؤلفين 158/2).

ومتى شـــدت في الأيـــك ورق حمامـــة   مال (الغراب) إلى لقا (العصفوري)

وأمَّا ٱبنه إبراهيم فقد تناول ذلك غير مرَّة موريا بلقبه. من ذلك قوله: [الطويل]

أيا روضة الآداب والعلـــم والحجـــا   وقد طـــاب فخـــرا في الأنـــام بحـــذفور
أراك تـــودُّ الـــدَّهر أن تتلاقيـــا   ونرتـــع في أزهـــار نظـــم ومنثـــور
لئن كنت مـــشتاقا لطـــائر صـــيتنا   فلا غرو أنَّ الرَّوض يزهو بـــ(عصفوري)

فنتفته هذه في رقَّة أدبيَّة وعربيَّة صحيحة ومتينة، من ذلـــك أنَّـــه عبَّـــر بالحذفور-وهو بوزن العصفور- وجمعه حذافير، وهو الشَّريف أو الأعلـــى، وقلَّما ظفرنا في شعراء هذه الطَّبقة بمثل نتفته هذه.

حياته

كان أحمد العصفوري من العلماء والفقهاء والأدباء، فقد وصفه الـــوزير الحاج حمُّودة بن عبد العزيز في كتابه "التَّاريخ الباشي"[1] بالفقيه الأديب، وقد نوَّه بأدبه ٱبنه إبراهيم في كتابه "تشحيذ الأفهام"[2] وهو مخطوط، فقال في حقِّ أبيه: "ولم أودع فيه من نظم فحول أدباء العصر إلاَّ من نظم مـــن إنـــشاؤه سلسبيل الأرواح، وغذاء القلوب والأشباح، مالك أزمَّة البلاغة ورئيـــسها، وشمس فلك الكتابة وأنيسها الشَّيخ الأستاذ العلاَّمة الملاذ المحقِّـــق الفهَّامـــة مولانا شهاب الدِّين أصل طريفي وتالدي أبي العبَّاس سيِّدي أحمد والدي أقرَّ الله عيني بوجوده بمنِّ كرمه وجوده".

وكان من المشتغلين بالتَّدريس، وتولَّى التَّدريس بالمدرسة العصفوريَّة التي بسوق العطَّارين، وعرفت بالعصفوريَّة نسبة إليهم لا لأنَّهـــم مؤسِّـــسوها، وإنَّما لكثرة من تولاَّها منهم، نسبت إليهم وعرفت بهم، وتنوســـي ٱسمهـــا الأصلي.

---

1 التاريخ الباشي 180/1.
2 تشحيذ الأفهام، (مخطوط) ص 2.

مؤلّفاته

ذكر الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف[1] أنَّ له شـرحا علـى خطبـة المقامـات الحريريَّـة، وذكر الشَّيـخ محمَّد النَّـيفر في عنوانـه أنَّ له شرحـا على عقيـدة الشَّيـخ علي النُّـوري الصَّفاقسي[2] ووصفه بأنَّه نفيس.

منزلة شعره

لم يصل شعره إلى درجة الجودة، فهو شعر فقيه رغم أنَّ ٱبنه في "تشحيذ الأفهام" فضَّله على أهل عصره، وجعله من فحول الشُّعراء، والفحولة بعيدة عنه، إذ الواصل إلينا من شعره سواء في "التَّـاريخ الباشـي" أو "تـشحيذ الأفهام" أو بعض الكنَّاشات التونسيَّة حين نعرضه على الميزان الأدبي نـرى بعضه هلهلا كمثل القصيدة التي جاءت في "التَّاريخ الباشي"، وٱقتصر على نقلها صاحب العنوان مكتفيا بها مع أنَّها تمثِّل الشِّعر الهلهل، وقد قالهـا في المركبين اللَّذين أنشأهما علي باي[3]، وممَّا جاء فيها:

[الطويل]

سفين نجاة أدركت مـا ترومـه   وسالمها بحر به مـات رومـه
وسلَّمها الله العزيـز مـن الأذى   وأيَّدها نصر لـه نـستديـمه
وتحمل سبي الرُّوم من أرض كفرهـم   إلى تونس والسَّبي شـدَّت كلومـه

ومن أبياتها الفجَّة:

بمرسـاة حلـق الـوادي قـد أنـشأت   لها حماء ونفعـا للأمـير عمومـه

ولكنَّه في قصيدته التي هنَّأ فيها الباي عليًّا بالختان لأبنائه وأبناء أخيه كان غير متدلٍّ إلى الحضيض كما في القصيدة السَّالفة، ومن أبياتها:

---

1 إتحاف أهل الزَّمان 140/8.

2 علي بن محمَّد بن سليم النُّوري (أبو الحسن الصفاقسي) مقرئ، محدِّث، متكلِّم. من آثاره: "غيث النَّفع في القراءات السَّبع"، "العقيدة النوريَّة في معتقد السَّادة الأشعريَّة"...الخ. توفي سنة 1117هـ/1705م. (معجم المؤلفين 201/7).

3 التاريخ الباشي إنشاء الأسطول البحري 183/1- 169.

[الطويل]

هناء يعمُّ الخلق طرًّا مـع البـشـرى بختن بني الباشا الذي قد عـلا قـدرا
أمير الهدى المولى الأجـلُّ مليكنـا علي باي المستنهل الـشَّمس والبـدرا
بديهته ذكرى إيـاس وحدسـه ولكنّه في كلِّ أحكامـه أدرى
تَملَّكني حبًّـا ويـتَّم مهجتـي فأبدى لساني من محاسنه شكـرا

وله أخرى ننتقي منها بعضا:

[الكامل]

حـاز المحاسـن يافعـا فـسما بهـا متكهِّلا فكأنَّـه بهـرام
متأيِّـدا بـذكاء عقـل ثاقـب تجـري بحسن حديثـه الأقـلام

فشعره في قصائده لا يتَّصل بحياته، لكن له نتف تتَّصل بها ٱتِّصالا ضئيلا، كما ورد أنَّ بعض أحفاد الشَّيخ علي النُّوري كان من تلامذته فطلب منه أن يخاطب المفتي الشَّيخ سعادة في ٱلتماس كتابته على فتيا في رسم أفتى له بها بعض أهل عصره وكان الشَّيخ سعادة ٱمتنع من الإفتـاء فكتـب أحمـد العصفوري إليه:

[الوافر]

أرى المفتين قـد وضـعوا خطوطـا بفتيـاهم لنـا حـصلت إفـاده
وما برزت يـراع الـشَّيخ حتَّـى نراهـا مثـل واسـطة القـلاده
لقد سـبقت سـعادتنا يقـينا إذا ختمـت بخـطٍّ مـن سـعاده[1]

فأجابه الشَّيخ سعادة بقطعة منها:

[الوافر]

تأمَّلـت الـسُّؤال ومـا عـلاه مـن (العمـري) المـسطَّرة المفـاده
فألفيـت الجميـع أفـاد فيمـا أجاب به وأغـنى عـن زيـاده

---

1 عنوان الأريب 560/1.

وقد عني في شعره خاصَّة بفنٍّ من الفنون البديعيَّة وهو التَّورية التي بـــرز فيها ٱبنه، وقد ذكر له في "التَّشحيذ"[1] نتفا منها في صبيح يلقَّب بثابت موريا بلقبه:

[الطويل]

تحيَّرت الأغصان من قـــدِّك الـــذي هو اليوم في بـــستان فكـــري ثابـــت
حذفت هوى الغزلان من قلبي الـــذي أباد الهوى وأنـــت لا شـــكّ ثابـــت

وقد ٱرتكب في هذه النُّتفة زحافا في عجز البيت الثَّاني، ولو قال

حذفت هوى الغزلان من قلـــبي الـــذي أباد الهـــوى أمَّـــا هـــواكم فثابـــت

لسلم من الزِّحاف ولقرب تعبيره إلى التَّعابير الأدبيَّة.

كما له أخرى في التَّورية بلقب المذكور:

[الكامل]

بـــدر الـــسَّماء يـــسير دأبـــا دائمـــا والبدرُ أنت بأرض قلبـــــــي ثابـــت
ولأجـــل كلفتـــه تقاصـــر حـــسنه عن وجهك الشَّمسي فهـــو الفائـــت

وله موريا فيمن ٱسمه علي حيدر، -والحيدر الأسد-.

[الطويل]

غزال له فـــصل الأســـود وإنَّمـــا بجفنيه يسطو وهـــو أحـــوى وأحـــور
ولا غـــرو أن يـــدعى عليًّـــا وشـــأنه علوٌّ وإقدام كما هـــو حيـــــــدر

ٱعتنى بالتَّورية ٱعتناء فائقا فأكثر من القظم فيها، وله نتف أخرى علاوة على ما تقدَّم له، وقد أكثر في التَّورية بٱسم (ثابت) وأدرَّ قريحته هذا الاسم، فتفنَّن في نتفه بٱبتكارات معنويَّة للتَّورية تطلُّبا للتورية بالاسم المذكور، مـــن ذلك قوله:

[الكامل]

بدر السَّماء إذا تجلَّى مشـــرقا حبيي وبدا بجماله وعلـــى الكواكـــب ثابـــت
حبيـــبي في الـــدَّياجي مزريـــا فذاك محـــذوف وهـــذا ثابـــت

---

1 تشحيذ الأفهام، مخطوط ص19 ظ.

لكنَّه لم يوفَّق في هذه النُّتفة حيث وصف بدر السَّماء أوَّلا بأنَّه ثابت على الكواكب، ثمَّ بعد ذلك نفى عنه الثُّبوت وخصَّه بحبيبه، وهو تناقض وأدَّاه لهذا كلّه تطلُّبه للمحسِّن البديعي هذا، وكذلك تطلُّبه لمحسِّن بديعي آخر وهو الاقتباس من الرَّسم والتَّعبير بالمحذوف والثَّابت.

وله غيرها في الاسم المذكور:

[الكامل]

وافيت زاوية يزاح بها الأسى | سبحان مبدعها الجلي القدرة
سرّ ببردتها وسرّ بعدها | والسرُّ أجمع ثابت في الحضرة

تمثِّل هذه النُّتفة الحياة التي كان يعيشها التونسيُّون في تنفيس الأسى بالاجتماع في الزَّوايا والاستماع إلى الفنِّ الأندلسي الممتزج بالتصوُّف، فأقبل عليه المتفقِّهة وغيرهم ممَّن يتحرَّج ممَّا هو لهو لأنَّ السَّماع المباح عند المتصوِّفة قد خلا ممَّا شاع في الغناء من آستهتار وخلاعة ومجون.

وكان الاجتماع الصُّوفي السَّماعي يتركَّب من تلاوة قصيدة البردة، ثمَّ يكون التَّواجد عند الذِّكر، وهو ما يطلق عليه التونسيُّون الحضرة، والمعروف عند المتصوِّفة أنَّ الحضرات هي الخمس الإلهيَّة كحضرة الغيب المطلق، وحضرة الشَّهادة المطلقة، والحضرة الجامعة.

والشَّأن أنَّ التَّواجد بالذِّكر لا يكون إلاَّ بعد عمل البردة، ولهذا قال:

سرّ ببردتها وسرّ بعدها.

والبردة هي القصيدة المشهورة التي عني بإنشادها بالأصوات المستعذبة في كلِّ مساء جمعة بالزَّوايا المنتشرة في كلِّ الأماكن، وكانت زوايا الحارات تنتقي النُّخبة ذوي الأصوات الشجيَّة آستجلابا للمستمعين، وكانت هذه الزَّوايا بمثابة نواد يجتمع فيها ذوو التعفُّف والصِّيانة.

وحقًّا كانت هذه الزَّوايا متنفَّسا في تلك الآونة، حيث فقدت وسائل الرَّاحة والتَّسلية المتوفِّرة لدى العصر الحاضر، وكانت المقاهي في محلاَّتها وروَّادها تنفر من الجلوس فيها، فلهذا كانت النَّوادي هي الزَّوايا يؤمُّها القاصدون لاستماع الأصوات العذبة وللاجتماع بالإخوان الذين تربطهم

روابط عدّة، فما قاله العصفوري في إحداها ينطبق على أكثرها تمام الانطباق.

ومن أبياته في التَّورية ما أنشده في مدح الشَّيخ رمضان أبي عصيدة الصَّفاقسي:

[الطويل]

ذكرت بخير فضلكم غير ممسك بيانا وخير الذِّكر في رمضان

وهذا البيت من جهة التَّورية قد أجاد فيه المترجَم لأنَّ التَّورية وقعت موقعها حيث ورَّى بأنَّ ذكر الشَّيخ رمضان خير الذِّكر، وكذلك ذكر الله في شهر رمضان هو خير الذِّكر، ولولا قوله غير ممسك بيانا لكانت إجادته فائقة، فرغم ما أشار إليه بالإمساك إلى الإمساك عن الشَّهوتين في نهار رمضان، والتَّعبير بإمساك البيان تأباه العربيَّة السَّليمة، وله في الذي ولع بالتَّورية بٱسمه قوله:

[المديد]

يا حبيب القلب عند سقام من لحاظ جفنك البابلي
ليس يشفيه سوى ريق ثغر منك يا ثابت حسن بهي

وهذه النّتفة تحتاج إلى تحرير من حيث العروض ليس هذا مقامه.

وبجانب هذه النُّتف المخدوج بعضها نتفة حاكى فيها ما قاله صاحب ديوان الجيش مهنِّئا للوزير المغربي (-418 هـ) بولده أبي يحيى، وقد ورَّى فيها المترجَم بٱسم علي، ونتفة العصفوري هي:

[الوافر]

سماع حديثه يروي غرامي بإسناد له خبر جلي
لدولة حسنه في الجفن سيف وسيف الدَّولة الماضي علي

ونتفة صاحب ديوان الجيش هذه:

[المخلع]

قد أطلع الفال فيك معنى يدركه العالم الذَّكي
رأيت جدَّ الفتى عليًّا فقلت جدّ الفتى علي[1]

---

1 تشحيذ الأفهام، (مخطوط) ص 110.

وقد نسبت هذه النُّتفة للوزير المغربي في "تشحيذ الأفهام" وذلك غلط، فعناية العصفوري بالبديع عناية كبيرة، وشغفه به شغف زائد، فلهذا كانت له فيه نتف متعدِّدة، و لم تقف عنايته بالبديع عند التَّورية بل تجاوزها إلى غيرها من ذلك (العقد والتَّضمين) لصدر قصيدة ٱبن سينا[1] (-428هـ) في النَّفس:

[الكامل]

هبطت إليك من المحلِّ الأرفع ... ورقاء ذات تعزُّز وتمنُّع

ونتفته ذات العقد والتَّضمين لصدر قصيدة ٱبن سينا مدح بها أحمد الهويدي كما في كنَّاشة على ملك الأستاذ الجليل الشَّيخ محمَّد البشير النَّيفر[2]:

[الكامل]

يا أحمد الأدباء بالفهم الذي ... بذكائه أبطلت دعوى المدَّعي
أخرجت درَّ البحر من أصدافه ... ونظمته في كلِّ معنٍ أبدع
لو رمت معنى في الكواكب مشرقا ... (هبطت إليك من المحلِّ الأرفع)

وهذه النُّتفة فيها مخالفتان للعربيَّة، أولاهما: في صوغ أفعال التَّفضيل من غير الثُّلاثي وهو أبدع، ويمكن أن يكون من البدع وإن كان المعنى على أنَّه من الإبداع، وثانيتهما: أنَّ المعنى مذكَّر، فلا يصحُّ أن يقال المعنى هبطت ولو جاء البيتان المنفردان بهذه الصُّورة،

أخرجت درَّ البحر من أصدافه ... ونظمته في كلِّ معنًى مبدع
لو رمت معنى في الكواكب مشرقا ... (لهوى إليك من المحلِّ الأرفع)

---

1 الحسن بن عبد الله بن سينا، أبو علي، الفيلسوف الرَّئيس، صاحب التَّصانيف في الطبِّ والمنطق والطبيعيَّات والإلهيَّات. أشهر كتبه: "القانون"، "المعاد"، "الشِّفاء"...إلخ. (الأعلام 261/2).

2 محمَّد البشير بن الشَّيخ أحمد بن الشَّيخ محمَّد بن أحمد النَّيفر، الفقيه، المشارك في العلوم، والعارف بالمخطوطات. من مؤلَّفاته: "تراجم المفتين والقضاة"، "نبراس المرشدين في أمور الدُّنيا والدِّين"...الخ. توفي سنة 1394هـ/ 1974م. (تراجم المؤلفين التونسيِّين 67/5).

لكانت نتفته غير خداج، والاقتباس إذا كان قرآنيًّا يجوز فيه التَّغيير، انظر "خزانة الأدب" ص443، فالتَّضمين الشِّعري أحرى في ذلك، وقد أجابه الممدوح أحمد الهويدي[1] بقطعة هي:

[الكامل]

يا من تنظَّم فضله وعلاؤه ... في جيد دهري من مثالك بلقع
مهلا فقد حزت البشاشة مثل ما ... شنَّفت سمعي بالنِّظام المبدع
نظم وما أدراك ما نظم أرى ... ذي الشَّوق أشهى من وصال مقنع
لو لم يكن درًّا لخلنا أنَّه ... لحن الغواني والظِّباء الرُّتَّع
غصت البحار لعلَّني ألفي له ... مثلا فلم ألف له من نزع
فعلمتُ بعد أنَّ زهرا لفظه ... (هبطت إليك من المحلِّ الأرفع)[2]

وعلى هذه القطعة مؤاخذات.

وقد أدَّى تضمين العصفوري لهذا الصَّدر أنَّ ساجله أدباء عصره في ذلك، وأحسن من ضمَّن هذا الصَّدر الشَّيخ محمَّد السنوسي[3] بن عبد الله السوسي[4] وسنترجم له وهو ممَّن لم يذكر في العنوان مادحا للشَّيخ حسين التُّرجمان:

أحسين السَّامي سماء فضيلة ... من في العلوم له يشار بإصبع
لا تطلب العلياء قبل أوانها ... فلك المعالي لا لغيرك فٱهجع
فٱصبر لها فإذا أتى إبَّانها ... (هبطت إليك من المحلِّ الأرفع)[5]

---

1 أبو العبَّاس أحمد الهويدي، هو الشَّيخ الفاضل الأديب الفقيه الألمعي النَّحرير. (عنوان الأريب 584/1).

2 عنوان الأريب 587/1.

3 أكبر أبناء العالم العامل سيدي عبد الله السُّوسي، قال الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف: كان آية الله في الشعر والأدب وشعره يسع ديوانا، معروف عند أهل الأدب. (عنوان الأريب 571/1).

4 الشَّيخ أبو محمَّد عبد الله السُّوسي، ولد بالمغرب ثمَّ قدم إلى تونس في طلب العلم. ٱلتزم الإقراء بالقيروان، فلمَّا كانت دولة الأمير علي باشا نقله إلى حاضرة تونس ٱغتباطا به. كان أديبا شاعرا. (عنوان الأريب501/1).

5 عنوان الأريب 575/1.

العالم الأديب

أحرز العصفوري بجانب الأدب مكانة مرموقة في العلوم العربيَّة والشرعيَّة، وهذا الجانب الثَّاني هو الأهمُّ من حياته، ويرجع ذلك إلى أنَّ القيمة المنظور إليها والمرموقة بالإكبار حينئذ والتي يتأهَّل صاحبها إلى الخطط الرَّفيعة هي التمكُّن في العلوم الشرعيَّة والعربيَّة حيث إنَّ الوظائف المتوصَّل إليها بالقيمة العلميَّة هي الوظائف الشرعيَّة خاصَّة، أمَّا غيرها فهي بين وراثيَّة وبين متوصَّل إليها بوسائل غير الوسائل الشَّريفة. فلهذا كان الاعتناء من المتحصِّلين على العلوم بهذه النَّاحية رائدا على كلِّ ٱعتناء موصلا للخطط تلك وبلوغا للأهداف السَّامية.

ويعرِّفنا بقيمته العلميَّة وتمكُّنه فيها تراجمه المتناولة له على قلَّتها، وهي مع كونها قليلة غير معروفة، وكذلك تعرِّفنا آثاره الباقية من تآليفه فهي على بترها تفيض المعرفة على جوانب من حياته العلميَّة وتعطي قيمته في المعرفة.

وممَّا تناوله من التَّراجم المخطوطة ما جاء في مجموع من التَّعريف به، وهو وإن كان على الأسلوب المتعارف عند المترجمين سابقا من الإغراق في المدح ٱسترسالا مع السَّجع، غير أنَّه قبس يضيء شيئا من جوانب معرفته بالعلوم الشرعيَّة أصوليَّة وفرعيَّة وكذلك عنايته الأدبيَّة، لأنَّه لو لم يشتهر بذلك لما أقدم الكاتب على إضافة ما لم يضف إليه، فهو كما جاء في هذه التَّرجمة عصاميٌّ عظاميٌّ جامع للمكتسب والموروث وهو:

"الشَّيخ أبو العبَّاس أحمد العصفوري، سليل إمام العربيَّة ٱبن عصفور وصدر الأفاضل المشهور، درَّاكة المعقول والمنقول، العارف بٱستخراج الفروع من الأصول، الجهبذ الذي برع في بدائع الفنون وغاص على درِّ الأدب المكنون، فأجاد في قصائده الرَّائقة، وآدابه الفائقة، حتَّى أدرك الشَّأو البعيد، وأحسن التصرُّف بحسن رأيه السَّديد. فياله من أديب أريب، قد أحرز من المحاسن أوفر نصيب وساد بفخره العصاميِّ سيادة تحلَّى بها مجده العظامي".

أعطتنا ترجمته هذه أنَّه كان عالما أديبا، ففصَّلت ما أجمله صاحب"التَّاريخ الباشي"، فهو عالم منظور إليه بعين الإكبار في عصره، وإن كان لم يتسنَّم الوظائف الشرعيَّة كالفتوى والقضاء وإنَّما كان من المدرِّسين ذوي الآثار القلميَّة وعددهم في تونس قليل بسبب الانكباب على التَّدريس والاكتفاء بالمؤلَّفات السَّابقة.

وأدبه لم يقصره على تلك القصائد التي نظمها في مناسبات أو تلك النُّتف التي جادت بها قريحته لأغراض خاصَّة، بل ظهر أدبه في آثاره العلميَّة حيث يتأنَّق في خُطَبها ويأتي بتلك الخطَب تحفة أدبيَّة متأثِّرا في ذلك بالشِّهاب الخفاجي[1] في كتبه ككتابه "عناية القاضي وكفاية الرَّاضي"، لأنَّ الشِّهاب الخفاجي كان في تلك الفترة قدوة أهل عصره، ومن أثر ذلك التَّأثير أنَّ العلوم الشرعيَّة ٱلتقت في صعيد مع الأدب في رجال ٱستطاعوا أن يكونوا مع ثقافتهم الدينيَّة من الأدباء، والتَّأثير البالغ للشِّهاب الخفاجي في كتابه "ريحانة الألباب وزهرة الحياة الدُّنيا".

فالعصفوري يأتينا بخطبة كتابه في علم التَّوحيد بنبذة نثريَّة أدبيَّة يتأنَّق فيها، وهو "شرح العقائد النُّوريَّة" فيقول: "إنَّ أنور نوري -بضمِّ النُّون الضَّوء- يشرح الصَّدر في العقيدة بعد توحيد الإله، وأنضر نَوري بفتح النُّون الزَّهر الأبيض منه، يمنح النَّشر في الخليقة بلا ٱشتباه، حمد العبد ربَّه تقدَّست أسماؤه، الدَّال على تفرُّده أرضه وسماؤه..."

فطالعة هذه الخطبة أتى فيها بالجناس المحرَّف وهو ما ٱتَّفقت الكلمتان فيه في عدد الحروف وترتيبها مع ٱختلاف الحركات كما هنا بين النُّوري -بالضمِّ- والنَّوري بالفتح.

1 أحمد بن محمَّد بن علي الأنصاري الخزرجي، شهاب الدِّين المعروف الحجازي: من شيوخ الأدب في مصر. نظم الشِّعر، وعني بالموسيقى، وقرأ الحديث والفقه واللُّغة، وتصدَّر للتَّدريس. من كتبه "قلائد النُّحور من جواهر البحور"، "جنَّة الولدان"...الخ. توفي سنة 875هـ/1471م.(الأعلام 219/1).

و لم تفارقه التَّورية نظما ونثرا، فولعه بالتَّورية كما قدَّمنا في نُتفه الكثيرة، كذلك في نثره العلميِّ حيث ورَّى في طالعة هذا الشَّرح بلقب مؤلِّف العقائد، وهو الشَّيخ علي النُّوري الصَّفاقسي (-1118هـ) ولتكون التَّورية تامَّة جاء بالمنسوب إلى النُّور فقال "إنَّ أنور" النُّوري و لم يقل أنور نوري لهذا الغرض.

والمتقصِّي لترجمته يتخلَّص لديه أنَّ الجانب العلميَّ منه هو المتغلِّب على الجانب الأدبيِّ، وإن شاع من أدبه في كتابته العقائديَّة، ويتلخَّص له ذلك من أسباب كثيرة منها الدِّراسة النقديَّة السَّالفة التي أظهرت مترلة شعره، وبالأخصِّ في بعض قصائده التي هي عند النَّقد من الأدب الضَّعيف. ومنها أنَّ بعض معاصريه النقَّاد لم يضعه في رتبة الممتازين، فعصريَّة الحاج حمُّودة بن عبد العزيز (-1202هـ) في تاريخه الباشي في فصله القيِّم الذي أرَّخ فيه الحياة العلميَّة والأدبيَّة بتونس حين تعرَّض للنَّهضة الأدبيَّة في عهد الأمير الذي رسم الكتاب بٱسمه ذكر البارز من نتف ومقطَّعات ٱختارها للسَّابقين في الأدب للتَّعبير عن السموِّ الأدبيِّ في عصر الأمير المذكور فٱنتقى للشَّافعي مثل قوله:

[الطويل]

أودّعهم قهرا وأودعهم هوى ... وتالله لي فيهم شجون وأشجان
أحنُّ إلى تلك القباب على النَّوى ... وكلٌّ مشُوق للمعاهد حنَّان

وللغراب مثل قوله:

[الكامل]

بين الذي في طرفه وقوامه ... للعاشقين مثقَّف ومهنَّد
أصلى الحشا نارا مشهد ريقه ... لا تنكرنَّ مصليًّا يتشهَّد
وكم ٱجتهدت بأن يقلِّدني يدا ... فأبى وربُّ الاجتهاد يقلَّد
ضارعت خصرك في تجرُّد شخصه ... لا تنكرنَّ مضارعًا يتجرَّد

فقطعة الغراب خاصَّة هذه في سموِّها يحقُّ لها أن تكون عنوانا من عناوين النَّهضة الشعريَّة في ذلك العصر، وأين ما يشبِّهها بنتف العصفوري التي أتينا على جملتها سالفا، ذكر مثل هذه النُّتف و لم ينتق للعصفوري شيئا لمــا رأى من البون الشَّاسع بينه وبين من ٱنتقى لهم مثل الشَّافعي والغراب.

ثمَّ إنَّ إنتاجه الأدبيَّ في جملته قليل بالنِّسبة لبعض معاصــريه كــالغراب والورغي[1] وحتَّى ٱبن عبد العزيز فكلٌّ هؤلاء أوفر إنتاجا منه زيــادة علــى سموِّهم الأدبيِّ.

مؤلَّفاته

أعود إلى ذكر مؤلَّفاته للظَّفر بمؤلَّفين له كنت أظنُّ أنَّهما مفقودان حتَّى أعلمني الأستاذ محمَّد محفوظ بأنَّ بمكتبة متحف دار الجلولي بصفاقس أثرين من آثاره، فزفَّنا بالبشرى للمتطلِّعين إلى آثار الأقلام التونسيَّة، أتعرَّض ثانيــا لمؤلَّفاته فله الشُّكر على هذه الإفادة.

تقدَّم أنَّ له شرحا على العقيدة النُّوريَّة، وهذا الشَّرح يسمَّى "بالفوائــد العصفوريَّة على العقائد النوريَّة" ومن هذا الشَّرح قطعتان بالمكتبة المذكورة، إحداهما بخطِّ المؤلِّف نفسه، وفرغ من كتابة هذا الشَّرح في غرَّة رجب سنة 1169هـــ.

وهذا الشَّرح مساهمة من العصفوري في الحركة الإحيائيَّة التي عمل بهــا الشَّيخ النُّوري بعد دراسته بتونس وبالشَّرق، فكما أحيا فنَّ الإقراء بمؤلَّفاته المحرَّرة المدلَّلة للفهم "كغيث النَّفع في القراءات الــسَّبع"، كــذلك ســعى للمحافظة على العقيدة السَّليمة بتدريسه، وبمثل مؤلَّفه في العقائــد الــذي شرحه العصفوري وهو عقيدة ٱشتهرت وٱختفت، وٱشتهارها لم يكــن في

---

1 محمَّد بن أحمد التونسي، المعروف بالورغي(أبو عبد الله). أديب، شاعر، ناثر. من آثاره: ديوان شعر، ومقامات أدبيَّة. توفي سنة 1190هـــ/1776م. (عنوان الأريب 538/1).

المحيط التونسيِّ فحسب، بل في غيره حتَّى شرحها أحد علماء الشَّرق شرحا مفيدا.

وثاني الأثرين المظفور بهما في متحف دار الجلُّولي "تعطير نفحـــة نـــسيم الغياض في تحرير طالعة نسيم الرِّياض"، وهو شرح لخطبة "نسيم الرِّيـــاض"، وطالع التَّعطير: "إنَّ أصفى ما تطهَّر في ورد عذبه اللِّسان، وأشفى ما تذكَّر بورد حزبه الإنسان، حمد من أنقذ بصائرنا مؤيَّدة بالشِّفا".

وله أختام حديثيَّة تلقى حسب العادة المتعارفة في شهر رمضان، ويحتفظ بعض الفضلاء بأثر منها.

صورة 1 : الورقة الأخيرة من المخطوط

إبراهيم العصفوري

المعروف عن هذا الأديب قليل رغم أنَّه من المساهمين بتأليف أدبيّ له قيمة في تاريخنا الأدبي وهو تحفة أدبيَّة، وإن كان في غرض لا يميل إليه الأدباء اليوم لاتِّسامه بطابع عصره، وهو طابع قد أغفله الأدباء تعلُّقا بأغراض أخرى ولكلٍّ وجهة.

وهو إبراهيم بن أحمد بن قاسم بن إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم العصفوري، وهو ابن أحمد المتقدِّمة ترجمته، وقد كنت متردِّدا في كونه ابن المتقدِّم لاحتمال أن يكون هناك أحمد عصفوري آخر حتَّى رأيته ذكر أبياتا ونسبها لوالده، ونصُّ ما جاء عنه: "وللشَّيخ الوالد مستفتيا الشَّيخ سعادة بقوله وأجاد: أرى المفتيِّين قد وضعوا خطوطا (الأبيات)..."

وهذه النُّتفة بعينها رأيتها في كناشة بعض التونسيِّين منسوبة لأحمد العصفوري المذكور، ولي غير ذلك من الأدلَّة على أنَّه ابنه.

شاعريَّته

قد كان متمكِّنا في النَّظم مجيدا فيه إجادة محدودة، فشاعريَّته تفوق شاعريَّة أبيه، فهو أديب رقيق الحاشية، محبوك الشِّعر على خلاف أبيه الذي كان شعره بعيدا عن هذه الدَّرجة فضلا عن درجة أعلام الشِّعر بتونس كالغراب والورغي.

فإبراهيم الابن بنتفه التي أثبتها في كتابه يعدُّ من الشُّعراء الضَّاربين بسهم في الإجادة وإن أغفله الكاتبون. ومن بديع نظمه المخبر عمَّا وراءه من شاعريَّة قوله:

[البسيط]

وربَّ ناء دنا من بعـــد جفوتـــــــه   يسعى بعـــود ونـــاي جـــنح ظلمـــاء
فكدت من فرحي أفـــضي بـــه طربـــا   لمَّا ظفرت بجمـــع العـــود والنـــــاي[1]

وقوله:

[الخفيف]

قال لي عـــاذلون جـــسمك أضنـــــاه   هوى شـــادن كبـــدر يلـــــــوح
قلت كفُّوا عن قولكم يـــا وشـــــاة[2]   لـــيس لي في هـــواه جـــسم وروح

وأدبه المظفور به يدلُّ على أنَّه أديب هاو لا أديب مناسبات فقطعه كلُّها تدور في دائرة خاصَّة والباعث منها شخصيٌّ شأن المنطوين على أنفسهم.

تآليفه

من أهمِّ مصادر ترجمة إبراهيم العصفوري كتابه "التَّشحيذ" فهو الـــذي يستطيع أن يعطينا نموذجا من نثره، كما أنَّه يعطينا نموذجا من شعره، مع ما نستفيده منه علاوة على ذلك من أمور تاريخيَّة عرضيَّة.

ولهذا سنخصُّ هذا التَّأليف بالدراسة حتَّى نعرِّف بأثر من آثارنا التونسيَّة العزيزة، لأنَّ الأقلام التونسيَّة مقلات نزور، ونقف على بعض جوانب مـــن حياته مستقاة من منتقياته لنفسه أو لمعاصريه.

وكتابه هذا في نوع خاصٍّ من الأدب، جرى فيه على عادة الـــصَّفدي[3] (-764هــ) في تخصيص بعض الفنون الأدبيَّة بتأليف خاصٍّ عـــلاوة علـــى مواضيعه التي أفردها بالتَّأليف، من ذلك أنَّه ألَّف في التَّورية كتابا سمَّاه "بفضِّ الختام عن التَّورية والاستخدام"، وهو كتاب لم يوفَّق فيه الصَّفدي لخروجه

---

1 تشحيذ الأفهام، (مخطوط) ورقة 4 و.

2 المرجع السابق، 26و.

3 خليل بن أيبك بن عبد الله الصَّفدي، الشَّافعي(صلاح الدِّين، أبو الصفاء) مؤرِّخ، أديب، ناثر، ناظم، لغوي. من مصنَّفاته الكثيرة "الوافي بالوفيات"، "غيث الأدب" الذي أنسجم في شرح "لاميَّة العجم" للطغرائي.(الأعلام 364/2).

عن موضوعه إلى التَّضمين مع شحنه بالكثير من شعره الذي أسفَّ في بعضه حتَّى أصبح محلَّ نقد ولمز.

وتأليف العصفوري هو "تشحيذ الأفهام بما يحسن من الإيهام" وهو تأليف في التَّورية، وهي أن يأتي المتكلِّم بلفظة مشتركة بين معنيين قريب وبعيد والمتبادر هو القريب إلى أن يأتي بما يدلُّ ويظهر أنَّ مراده المعنى البعيد، وهي عند الأدباء في العصور المتقدِّمة من أسمى ما يرمي إليه الأدب، وحولها تلتقي الأذواق وتتبارى الأقلام.

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه اطَّلع على تأليف الصَّفدي في هذا النَّوع، والظَّاهر أنَّه لم يطَّلع على تأليف آخر فيه لابن حجَّة الحموي (-837هـ) المسمَّى "بكشف اللِّثام عن التَّورية والاستخدام"، لأنَّه اكتفى بالعنوان العامِّ للتَّورية كما صنع الصَّفدي، ولم يقسِّمها كما قسَّمها ابن حجَّة إلى أقسامها الأربعة المجرَّدة والمبنيَّة والمرشَّحة والمهيَّأة والظَّاهر أنَّه كذلك لم يطَّلع على تأليف السَّابق إلى تخصيص هذا النَّوع بتأليف، وهو ابن خاتمة الأندلسي[1] (-770هـ) وكتابه سمَّاه "رائق التَّحلية لفائق التَّورية"، وهو شبه رسالة.

وربَّما يتبادر إلى بعض الأفهام أنَّ موضوع كتاب العصفوري غير موضوع كتابَي الصَّفدي وابن حجَّة، لأنَّ كتاب العصفوري في الإيهام وكتابيهما في التَّورية، فبيَّن أنَّ التَّورية والإيهام شيء واحد، وإنَّما هو اختلاف في التَّسمية، وكما يطلق على هذا النَّوع الاسمان المذكوران كذلك يطلق عليه التَّوجيه والتَّخييل، والأولى في التَّسمية هو التَّورية لأنَّه الأنسب بالمعنى لأنَّها مصدر ورَّيتُ الخبر تورية سترته وأظهرت غيره.

وقد رتَّب العصفوري كتابه على حروف المعجم مع تقسيم كلِّ حرف إلى مضموم ومفتوح ومكسور، ويقول في مقدِّمة الكتاب بعد فاتحته:

1 أحمد بن علي بن محمد بن علي بن خاتمة الأنصاري (أبو جعفر). مؤرِّخ، أديب، شاعر. من آثاره: ديوان شعر. (الأعلام 171/1).

"أمَّا بعد فيقول إبراهيم بن أحمد... العصفوري أصلح الله حاله وأنجح مقاله أنني كنت منذ سرحت سوائمي وطرحت عنِّي تمائمي، ولعل بالاطِّلاع على طرائف المجاميع الأدبيَّة نازعا للاضطلاع في حفظ لطائف المقاطيع الشعريَّة، أقتنص شواردها من كلِّ باب وأغوص على فرائدها في بحور الآداب، حتَّى حصل عندي منها عدَّة وافية، وجمل كافية، فدعاني داعي الولوع في إثباتها في مجموع، ليتنزَّه النَّاظر في رياضها ويكرع الصَّادي من سلسبيل حياضها، وأرتِّبه على حروف المعجم وحركات الإعراب، وآثرت فيه إثبات المقاطيع على القصائد طلبا للاختصار وترك الإطناب، موردا منها ما عري عن التَّعقيد والإبهام ملتزما (بصيغة ٱسم المفعول) في كلِّ مقطوع منها إيهام، يستحسنه الخاطر الوقَّاد والباصر النقَّاد في تأليف قرَّبته ليتناوله النَّاظر الأديب، وهذَّبته ليتداوله الماهر الأريب.

سمَّيته "تشحيذ الأفهام بما يحسن من الإيهام"، ولم أودع فيه من نظم فحول أدباء العصر إلاَّ من نظم مَن أنشأ من إنشائه سلسبيل الأرواح وغذاء القلوب والأشباح، مالك أمة البلاغة ورئيسها، وشمس فلك الكتابة وأنيسها، الشَّيخ الأستاذ العلاَّمة، الملاذ المحقِّق الفهَّامة، مولانا شهاب الدِّين أصل طريفي وتالدي أبي العبَّاس سيدي أحمد والدي أقرَّ الله عيني بوجوده، بمنِّ كرمه وجوده.

ومن نظم الأديب الأريب المتفنِّن النَّجيب الفاتح من بيوت مدينة الآداب كلَّ باب، المانح من خزائن فكرته كلَّ لباب السَّامي بآدابه على الأتراب، مولانا أبي الحسن علي الغراب.

وما ٱقتصرت على هذين الفحلين إلاَّ لاطِّلاعي على نظمهما وقربي منهما وعدم ٱطِّلاعي على نظم غيرهما.

وعزَّزت بثالث هو العبد الفقير فأتيت بما كان مستحسنا عند النَّاظر البصير".

وهو وإن ذكر أنّه ٱقتصر على أبيه والغراب معزِّزا لهما بشعره لكنَّـــه لم يقتصر في المعاصرين على من ذكر بل ذكر غيرهم مثل الوشَّان كما ســيأتي تحقيقه.

وختم كتابه بما أفاد تاريخ تأليفه

"ٱنتهى التَّأليف المبارك بحمد الله وحسن عونه على يد مؤلِّفه لنفسه، ولمن شاء الله بعد من أبناء جنسه ضحوة يوم السبت حادي عشر أشرف الرَّبيعين من عام سبعين ومائة وألف من هجرة المبصر من الأمام والخلف عليه أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام ما راق للسمَّار في السَّحر بدر التَّمام".

وتأليفه هذا عبارة عن مجموعة قيِّمة في أكثر ما قيل في التَّورية وأكثرهـــا للشُّعراء المعروفين بالولوع بها مثل ٱبن نباتة والجزَّار[1].

وقد جاء فيه شيء من التَّضمين مع الإيهام وإن كـــان قلــيلا، فلعلَّــه ٱسترسل مع الصَّفدي الذي أدمج التَّضمين في موضوع كتابـــه وإن كـــان أجنبيًّا عنه.

والمهمُّ فيه ما جاء فيه من أشعاره، وأشعار الغراب حتَّى إنَّ المـــتفحِّص يستطيع أن يخرج للغراب أكثر شعره المتعلِّق بالتَّورية لأنَّه كاد لا يخلو حرف من حروف المعجم إلاَّ له فيه شعر.

وبجانب شعره وشعر الغراب نجد شعر أبيه الذي ٱنتقينـــاه في ترجمتـــه، كذلك لغير هؤلاء من المغمورين ممَّا حفظ لنا بعض أنظام تعرِّف أنَّ الأدباء في تونس في تلك الفترة ليسوا محصورين في عدد نزر، وإنَّما هم كثرة وإنَّما طواهم الإغفال والإهمال.

---

1 علي بن محمَّد الجزَّار(نور الدِّين، أبو الحسن) فاضل. من آثاره: "تحصين المنازل من هول الزلازل"، "قمع الواشين في ذمِّ المبشِّرين"... كان حيًّا سنة 984هـ/1576م. (معجم المؤلفين 188/7).

تشحيذ الأفهام

تخصَّص إبراهيم العصفوري في كتابه "تشحيذ الأفهام" بهذا الاتِّجاه الأدبي الخاصِّ وهو التَّورية مقتفيا في ذلك أثر من تقدَّمه من المشارقة وهو الصَّفدي، وقصد بتأليف هذا الكتاب أن يكون ديوانا شعريًّا لطائفة من الشُّعراء اعتنوا بالتَّورية وبرزوا فيها وتفنَّنوا فيها، وكذلك من جاء بالتَّورية عفوا من غير قصد.

ولم يحرِّر القول في التَّورية حتَّى يكون كتابه تحليلا أدبيًّا كما صنع صاحب "كشف اللِّثام" في تحليله بما أتى به من أبيات في التَّورية فجمع بين النَّقد والاختيار وأظهر من بدائع الاختراع في التَّورية ما أسفر عن إجادة أدبيَّة تطرب المسامع وتشنِّفها مثل قول التقيِّ السَّروجي[1]:

[السريع]

في الجانب الأيمن من خدِّها نقطة مسك أشتهي شمَّها
حسبته لمَّا بدا خالها وجدته من حسنه عمَّها

الذي أبدى محاسنه موازنا بينه وبين ما كان مكسوف المعنى بسبب العقادة حتَّى تظهر الإجادة.

وقد ورَّى الشَّاعر في هذه النُّتفة في قوله: (بدا خالها)، لاحتماله أن يكون معنى حسبته خالها ظننته خالا لها، والخال هو أخو الأمِّ، أو أنَّ المعنى لمَّا بدا خالها أي ظنَّها، وكذلك عمّها يحتمل أن يكون بمعنى شملها، وأن يكون بمعنى عمَّها أخو الأب.

وإن خلا كتاب العصفوري من التَّحليل لأبيات هذا النَّوع فإنَّه بما جمعه من نتف في التَّورية يعدُّ أكبر مجموعة في هذه النَّاحية قد جمعت للكثير للمبرزين في التَّورية مثل القاضي الفاضل[2] (-596هـ)، والقاضي السعيد بن

1 عبد الله بن علي بن منجد السروجي، تقي الدِّين: شاعر، فيه فضل الأدب. توفِّي سنة 693هـ /1294م. (الأعلام 243/4).

2 عبد الرَّحيم بن علي بن محمَّد، العسقلاني، المصري. كاتب، شاعر، مؤرِّخ، وزير. من آثاره: "رسائل"، و"سيرة الملك المنصور قلاوون". (الأعلام 121/4)

سناء الملك[1] (-608هـ)، والسراج الورّاق[2] (-695هـ)، وأبي الحسن الجزّار (-679هـ)، والشّمس بن دانيال[3] (-710هـ)، والقاضي بن عبد الظّاهر[4] (-692هـ) والصّلاح الصّفدي والقيراطي (-781هـ)، وهؤلاء أعلامها في القاهرة وكذلك نظراؤهم بالشّام مثل الأمير مجير الدين بن تميم[5] (-684هـ)، والبدر يوسف بن لؤلؤ الذّهبي[6] (-680هـ)، ومحيي الدِّين بن قُرناص[7] - بضم القاف - (-671هـ)، والشّمس ابن العفيف[8] (-813هـ)، والسّيف المشد[9] (-656هـ)، وابن الوردي[10] (-749هـ).

---

1 هبة الله بن جعفر بن المعتمد سناء الملك السعدي، المصري(أبو القاسم). أديب، شاعر، ناثر. من آثاره: ديوان جميعه موشحات سمّاه "دار الطراز"، "ديوان رسائل". (الأعلام 57/9).

2 عمر بن محمّد بن الحسن، أبو حفص، سراج الدِّين الورّاق، شاعر مصر في عصره وكاتبًا لواليها الأمير يوسف بن سباسلار، له ديوان شعر كبير. توفّي سنة 695هـ/1296م. (الأعلام 224/5).

3 محمّد بن دانيال بن يوسف الموصلي (شمس الدِّين، أبو عبد الله) حكيم، كحّال، أديب، شاعر.من آثاره: "أرجوزة عقود النظام فيمن ولي مصر من الحكّام"، وديوان شعر. (الأعلام 354/6).

4 عبد الله بن عبد الظّاهر بن نشوان السعدي، المصري(محيي الدين، أبو الفضل). أديب، مؤرِّخ، ناظم، ناثر. ولي القضاء. من آثاره "الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر"، "النجوم الدرية في الشعراء العصرية". (الأعلام 232/4).

5 محمّد بن يعقوب بن علي، أبو عبد الله، مجير الدِّين بن تميم: شاعر، من أمراء الجند. دمشقي. (الأعلام 121/4).

6 يوسف بن لؤلؤ بن عبد الله الدمشقي الذهبي (بدر الدين). من شعراء الدّولة الناصريّة بدمشق. من آثاره: ديوان شعر. (معجم المؤلفين 326/13).

7 إبراهيم بن محمّد بن هبة الله بن أحمد بن قرناص الخزاعي، الحموي. شاعر، أديب له ديوان شعر. (الأعلام 60/1).

8 علي بن محمّد بن إبراهيم الجعفري، النابلسي، الحنبلي. أديب، فقيه. من آثاره: "رشف المدام في وصف الحمام"، "كشف القناع في وصف الوداع"، وله شعر. (الأعلام 159/5).

9 علي بن عمر بن قزل بن جلدك التركماني، المعروف بالمشد(سيف الدِّين، أبو الحسن) شاعر، من الامراء. من آثاره: ديوان شعر. (الأعلام 131/5).

10 عمر بن المظفر بن عمر بن محمّد بن أبي الفوارس المعرِّي، الحلبي، الشّافعي. فقيه، أديب، ناثر، ناظم، لغوي، نحوي، مؤرِّخ. من تصانيفه الكثيرة: "خريدة العجايب وفريدة الغرائب"، "منظومة النفحة الورديّة في النّحو"، ديوان شعر. (الأعلام 228/5).

و لم يشأ العصفوري أن يكون هذا اللَّون الأدبي مقصورا على القـاهرة والشَّام، فأراد أن يكون لتونس حظّها فأدمج ضمن المجموعة الشرقيَّة مجموعة تونسيَّة فكأنَّه لَّما وقف على الرِّسالة المسمَّاة "بزاوية شيخ شيوخ حماه لابـن حجَّة" التي يقول فيها: "فقد ٱنتهى ما أوردته منوِّعا في التَّورية من الحلاوات القاهريَّة، وقد تعيَّن أن أفكه المتأمِّل بعد ذلك بالفواكه الـشَّاميَّة"، أراد أن يضمَّ إليها الفانيد التونسي حتَّى تكون هذه المائدة الأدبيَّة جامعة من الأدب أصنافا وألوانا.

و"تشحيذ الأفهام" هذا لو أنَّ العناية لحقته فبرز إلى الطَّبع لدلَّ علـى أنَّ العناية الأدبيَّة التونسيَّة في الأعصر السَّالفة هي عناية أدبيَّة فائقـة، ولكنَّهـا مغمورة لأنَّ التَّعريف بالأدب ٱقتصر على المتناول حتَّى أصبح من المكرَّر وإنَّ المكرَّر مهما كان يسمج إلاَّ ما خصَّه الله بنفي ذلك عنه.

فالعصفوري ٱنزوت أخباره وتنوسي كتابه فلهذا لم يعرف النُّور، فعسى أن تتحرَّك الهمَّة إلى إبراز آثارنا حتَّى يكون للأدب التُّونسي صداه بغـزارة مادَّته.

وهو كما عرَّفنا بمجموعة شرقيَّة كذلك عرَّفنا بمجموعة تونسيَّة، فعلاوة على ما فيه من شعره وشعر والده والغراب فيه غيرهم من الذين لم يسعدهم الحظُّ أيضا أن تلمع أسماؤهم مثل عبد الكبير (الوشَّان) الذي كان من الأدباء المعاصرين للمؤلِّف المذكور ومن أصدقائه وإخوانه، وقد مدحه العصفوري لَّما أنشأ جدولا:

[الرمل]

قد سقاني خمر نظمه ... ها أنا ذا منه نشوان

جدول أجرته أيد ... لكبير القدر وشان

ولعبد الكبير هذا مجموعة من النُّتف تعرف به أتت في "التَّشحيذ" منها:

[الوافر]

قضى دمعي بطول سهاد جفني فقلت ... وأشهد أنَّني أرعى المعاهد لدمعي

للائمي في الحبّ فٱنظر ... في الهوى قاض وشاهد

وعندما ذكر العصفوري هذه النُّتفة وصفه بأخينا الأديب ووصف نتفته بالإجادة ممَّا يدلُّ على أنَّ الوشَّان لم يكن مثل أولئك الذين يرمون ببعض أنظام عفويَّة، بل من الذين ٱستحقُّوا التَّحلية بالأديب عن جدارة.

وإذا أردنا أن نسمو في النَّظر ووضعنا هذه النُّتفة على المحكِّ شهدت لصاحبها بأنَّ شعره محبوك في إجادة مع أنَّه لا تكلُّف فيه نسبيًّا، وٱنظر لعصره الذي ٱلتزم أهله هذه المحسِّنات فٱعتنوا باللَّفظ وأهملوا المعنى.

وقد ساهم الوشَّان في التَّورية بٱسم ثابت فقال:

[الوافر]

غرامي ثابت بقلوع صبري فصرت محتَّت السلوان حتَّا
صبيٌّ الحبّ فتَّه هواه وشيَّبه الغرام وما تفتَّا

وله تورية مع الاكتفاء:

[المتقارب]

إذا لم يجد بالوصال الرَّشا ولم ألف منه بلوغ الرَّجا
فلا أختشي سهم حاجبه ولا جوره أنَّني ذو حجاب

وله:

[البسيط]

وأهيف القدِّ أمَّا ريقه فطلا عذب وأمَّا المحيَّا فهو ناضره
وحين أبدر في أفق الجمال غدا بين الأنام حليف السُّقم ناظره

وقد أجاد في هذه النُّتفة وجانس في رقَّة، وحتَّى وإن كان هناك تكلُّف فهو مقبول.

وله مستعيرا شرح الدماميني الملقَّب بالبدر[1] (-827هـ) على "مغني اللَّبيب" لابن هشام[2] (-761هـ) وكان المستَعار منه وسيما صبيحا:

---

1 محمَّد بن أبي بكر بن عمر بن أبي بكر بن محمَّد بن سليمان بن جعفر القرشي، الاسكندري، المالكي، ويعرف بابن الدماميني(بدر الدِّين). أديب، ناثر، ناظم، نحوي، عروضي، فقيه. من تصانيفه: "شرح مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب" لابن هشام الأنصاري، و"جواهر البحور". (الأعلام 282/6).

2 عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن يوسف، أبو محمَّد، جمال الدِّين ابن هشام.من أئمة العربيَّة، من تصانيفه: "مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب" و"عمدة الطالب في تحقيق تصريف ٱبن الحاجة"، توفي سنة 761هـ/1360م.(الأعلام 291/4).

[السريع]

يـــا زهـــرة الإينـــاس والبـــشر ويـــا رفيـــع المجـــد والقـــدر
أعـــرني البـــدرَ علـــى المغـــني يـــا أيُّهـــا المغـــني عـــن البـــدر

وهذه التَّورية من بدائع التَّورية إذ ورَّى فيها عن المغني الكتاب المذكور، وعن البدر الدماميني.

وله:

[الخفيف]

فزت بالقرب من رشا مثـــل مـــا فـــا ز بحـــسن دون البريَّـــة حـــــازه
وٱمتطيت الهوى وإنِّي علـــى الـــشَّـــو ق لقد سرت حـــين جـــزت مفـــازه

وله:

[البسيط]

قد بات في كسل مضناك فيك أســـى عن السلوِّ وما عـــن ذا بمنتقـــــــــل
فإن شككت فسل أهـــل الغـــرام ولا تبال يا رشا هل مات فيك سل أو في كسل

شاعريَّته

لإبراهيم العصفوري منزلته في زمرة الشُّعراء الذين عاصروه، لا من جهة الاشتهار بين المؤرِّخين والكاتبين وغيرهم وإنَّما من جهة خاصَّة، وهي أنَّـــه كان يعيش في محيط أدبيٍّ وإن كان ضيِّقا، لأنَّه لم يشمل الكثير مـــن أهـــل عصره وإنَّما ٱختصَّ بزمرة منهم، وكان هو السَّبب في التَّعريف بهم، مثـــل الوشَّان وٱبن عاشور،[1] وفقوسة[2] وإن كان في تلك الدَّائرة الضيِّقة لم يمنعه أن يكون أديبا يمثِّل جزءا من الحياة الأدبيَّـــة. إنَّ هـــذا الجـــزء الأدبيَّ ٱرتـــبط

1 الشَّيخ أبو الفضل قاسم بن عاشور، وهو من أئمَّة العلم بجامع الزَّيتونة، كان علاَّمة جيِّد الشِّعر. (عنوان الأريب 583/1).

2 أبو بكر فقوسة الشريف التونسي، الفقيه الصُّوفي. له "كنوز الأسرار وشوارق الأنوار". كان حيًّا سنة 1214هـ/1800م. (تراجم المؤلفين لمحفوظ 31/4).

بالمحسِّنات وٱتَّجهت مهجته لتلك النَّاحية وٱختصَّ بهذه الوجهة التي أفـــرغ فيها كتابه "التَّشحيذ"، فهو جزء أدبيٌّ له وجهته وطرافته.

وفي الحقيقة إنَّ شعراء تلك الفترة وبالأخصِّ الذين تمثَّلت فـــيهم هـــذه الوجهة الخاصَّة لا يمكن أن نعدَّهم من ذوي الأسلوب المختصِّ بهم لغلبـــة التَّقليد وٱقتفاء آثار الغير، ومع تلك الحقيقة فالأديب لا بدَّ له من ميزة وإن كانت ضئيلة، فهي ميزة شخصيَّة، فالعصفوري -على حسب مـــا وقـــع الوقوف عليه من شعره- لم يخرج فيه عن كونه نتفا لا تزيد عن أربعة أبيات في قليل شعره وعن بيتين في كثيره.

وإذا بحثنا علَّة لهذا الاقتصار يمكن أن نعلِّله بأنَّ سبب ذلك لا يعـــدو أن تكون شاعريَّته مقصورة على ذلك لأنَّه ٱتَّخذ الأدب هوايـــة والهوايـــة في عصره في البراعة في المحسِّنات البديعيَّة، وبالأخصِّ التَّورية التي شـــغف بهـــا جدًّا.

وأثَّر عليه في حبِّ التَّورية بالخصوص الشَّاعر المبدع أبو الحسن الغـــراب الذي جمع له العصفوري من التَّوريات العدد العديد، والغراب تأثَّر بـــدوره بالشُّعراء الذين أكثروا من التَّورية وكانوا أعلامها البارزيـــن مثل القيراطي (-781هـــ) والحـــافظ ٱبن حجر[1] (-852هـــــ) والـــشِّهاب الحجـــازي (-875هـــ).

ولم أذهب لهذا تخمينا بل ٱستنادا على ما وقفت عليه بخطِّ الغراب مـــن نسخة "لمنتخب ديوان القيراطي" و "منتخب ديوان الحافظ ٱبـــن حجـــر" و"الكنس الجواري" للشِّهاب الحجازي وغير ذلك، إذ نَسْخه لها ما بعثه عليه إلاَّ غرامه بطريقتهم.

1 أحمد بن علي بن محمَّد الكناني، العسقلاني، المصري، ويعرف بٱبن حجر (شهاب الدِّين، أبو الفضل). محدِّث، مؤرِّخ، أديب، شاعر. له تصانيف منها "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، "الإصابة في تمييز الصَّحابة"، وديوان شعر. (الأعلام 173/1).

وهذه الكتب بالأخصِّ المنتخبات هي نُتف قريبة بما عني به العصفوري، فالتَّأثير جاء من هذه الجهة.

وربَّما يكون للعصفوري غير هذه النُّتف الموقوف عليها وهي المثبتـــة في كتابه من مقطَّعات وقصائد، ولكنِّي لم أقف عليها.

وشعره هذا المحصور في النُّتف المذكورة في بعضه رقَّة تذكِّرك بشعر أبَّان بن عبد الحميد اللاَّحقي[1] (-200هــ) في شعره الرَّقيق مثل قوله:

[الهزج]

إذا قامـــــــــت بواكيـــــــــك وقـــــــد هـــــتكن أســـــتارك

وهذا البعض مثل قوله:

[الهزج]

ويـــــوم هاطـــــل الـــــسُّحب بـــــه قـــــد زارني حبِّـــــي

فهـــاك الكـــأس فـــٱملأ لـــــي فيـــــوم الـــــصبِّ للـــــصبِّ

ولم أشبِّه رقَّته برقَّة أبَّان اللاَّحقي لأنَّهما ٱشتركا في بحر الهزج، وذلك ما لا يخطر بالبال، بل لأنِّي لَّما قرأت قول العصفوري ذهبت توًّا إلى شعر أبَّان حتَّى أنِّي ٱتَّهمته فيه وما يذهب بك إلى مثل ذلك هو من تأثير الشَّبه، ثمَّ إنَّ نتفته هذه إذا عُرضت على التَّحليل الفكري تعطيك أنَّها تقتبس من أنفـــاس أبَّان اللاَّحقي ويا ليته أكثر من ذلك حتَّى يبرز بذلك الأسلوب بروزا بيِّنا.

والنُّتفة المتقدِّمة ضمَّن بها المثل المشهور، ثمَّ هي من رعيل شعره في التَّورية حيث يحتمل قوله: "فيوم الصبِّ للصبِّ" أن يكون معناه فيوم سكب الكأس للسَّكب، ويحتمل أن يكون معناه فيوم سكب الكأس لصاحب الصَّبابة لأنَّ الصبَّ من إطلاقاته أنَّه مصدر صبِّ الماء بمعنى سكبه، وأنَّه صاحب الصَّبابة وهي رقَّة الشَّوق، وإرادة المعنيين بادية لا تكلُّف فيها.

---

1 أبَّان بن عبد الحميد بن لاحق بن عفير الرقاشي. أديب، شاعر عاصر الرَّشيد. ٱختص بنقل الكتب المنثورة إلى الشِّعر المزدوج، منها "كليلة ودمنة"، وله قصيدة سمَّاها "ذات الحلل". (الأعلام 20/1).

وٱتّجه العصفوري في نتفه إلى أغراض مختلفة نوعا ما، وقد بدا كتابه "التّشحيذ" بنُتف ثلاث في المدح النبويِّ، قصدا منه إلى أن يكون البدء في هذا الكتاب خير بدء وهو مدح المصطفى صلّى الله عليه وسلّم.

فأنشد في حرف الهمزيَّة المضمومة:

[الطويل]

بدأت بمدح المصطفى أكمل الورى   لأمَّته منج من النَّار إن باؤوا
فحسب الورى من شافع يرتجونه   ويبدو لهم يوم القيامة إن جاءوا

والتَّورية في قوله (إن جاءوا) فإنَّه يحتمل أن يكون من المجيء كما يحتمل أن يكون من الإنجاء وحينئذ يكتب هكذا (إنجاء) فلذلك الكلمة الأخيرة في البيت الثَّاني تكتب مرَّتين (إن جاؤوا) و (إنجاء) وأنشد:

[الطويل]

مدائح خير الخلق أوَّل مقصده   ورتبته فوق المراتب علياء
به تبلغ الخلق المنى في دناهم   ويرجى به في موقف الحشر إنباء

وكذلك هذه النُّتفة الكلمة الأخيرة إمَّا أن تكتب (إنباء) وإمَّا أن تكتب (إن باءوا) بحسب ٱختلاف المعنى فالأوَّل من أنباء أي أخبر إخبارا، والثَّاني بمعنى إن جاءوا.

وله في المديح النبويِّ الشَّريف:

[الطويل]

صلاتك تترى يا إلهي على الذي   شعر لأوصافه الغرَّاء لم يف إحصاء
وما ينبغ العشار منها مكثر   لو ٱجتمعت معه مدى الدَّهر أحياء

فالأحياء جمع حيٍّ إمَّا ضدُّ ميْت وإمَّا المحلَّة.

وأتى بعد نُتفه الثّلاث بنتفة للغراب، وهي:

[الطويل]

مديح رسول الله أوَّل واجب فمن   على من لهم في رتبة النَّظم إيماء ليأتوا
شاء يحظى بالسَّعادة منهم   بمدح طيِّب فيه إنشاء

وكأنَّه أراد أن يدفع بالفكر ليوازن بين نتفه ونُتفة الغراب، وبالأخصِّ بين نتفته الأولى ونتفة الغراب، ويكل إلى المطَّلع عليهما أن يوازن بينهما، فبينما نتفته الأولى سمت وكانت مقبولة لدى النُّفوس ٱنظر إلى قوله (لأمَّته منج من النَّار إن باءوا)، بينما الغراب يقول (على من لهم في رتبة النَّظم إيماء)، فلفظة إيماء لا موقع لها، فأيُّ معنى متبادر في سبْك هذا البيت الأوَّل من نتفة الغراب وهو أنَّ مديح رسول الله أوَّل واجب على الشُّعراء الذين لهم في رتبة النَّظم إشارة، وهو لا شكَّ يريد أنَّ مدح رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم أوَّل واجب على الذين يشار إليهم في النَّظم، فالتَّعقيد النَّظمي في هذا البيت تعقيد يَقعد به عن بيت العصفوري.

وإن لم يقصد هذه الموازنة فهي عفويَّة، ومع ذلك تبيّن شاعريَّته وقيمتها في الموازنة حتَّى مع بعض الفحول الذي لمع نجمه في عصره وهو الغراب، وفي هذا ما يعرِّفنا أنَّ في الزَّوايا خبايا تحتاج إلى إثارة ما عليها من الغبار، وهو ما بعثنا على فتح هذا الرُّكن.

ٱحتفظ العصفوري بنتف كثيرة في كتابه "تشحيذ الأفهام" حتَّى كاد لا يخلو حرف من حروف الهجاء دون أن يكون له فيه نُتفة أو أكثر، وقد نوَّع هذه النُّتف حسب الأغراض التي أراد النَّظم فيها، وفي طالعة ذلك ما تقدَّم له سالفا من المدح النبويِّ الشَّريف الذي أراد أن يكون ٱستهلالا لكتابه، ثمَّ بعد ذلك نظم في أغراض أخرى، وأكثر أغراضه الشعريَّة الغزل.

ولسنا ندري أنَّ إكثاره من الغزل ٱسترسال مع الدَّواعي الأدبيَّة فنعتذر له بما ٱعتذر به عن نفسه حين ٱستهتر فذكر ما نصُّه " مؤلِّفه عفا الله عنه، وأدَّى إلى ذلك الأدب فقط ولا أصل للواقعة".

والواقعة التي تبرَّأ منها هي قوله:

[الكامل]

ومليحة كالغصن قدًّا ناعما فعلوت والرّدف منها ماج موْج بحور
غصن قوامها فتمايلت وكذا الغصون تميل (بالعصفوري)

فهذا الأدب السَّافر ليس حكاية لأمر واقع، وإنَّما ذلك لدواعي الأدب، وحبٍّ في التَّورية بلقبه (العصفوري) والعصفور والغصن والقوام أم إنَّ هذا الإكثار سببه غير ذلك.

وهذا الاعتذار لم يأت به إلاَّ في المليحة - بالتَّاء- وأمَّا بدونها فإنَّه رغم إكثاره في الغزل المذكَّر لم يعتذر ولو مرَّة واحدة، فكأنَّه ٱقتدى بالشِّهاب الحجازي في أدبه وفي مجونه ولعبه، حيث إنَّه في "جنَّة الولدان"[1] ذكر أنَّه جمع أشعارا، مقيِّدا في ذلك أن تكون من المقاطيع في الحسان حسبما يطلبه أبناء الزَّمان.

أو لعلَّه ٱعتذر في المليحة دون غيرها لأنَّه ٱستهتر فيها ٱستهتارا واضحا، أمَّا في نُتفه الأخرى فإنَّه ٱقتصر على إبداء المحبَّة، وشتَّان بين ذكر المحبَّة وبين ما ذكره في النُّتفة السَّابقة، ويكون له عذر واضح في ترك الاعتذار في نُتفه العديدة التي سنأتي ببعض منها.

وفي بعض هذه النُّتف التي تغزَّل فيها العصفوري جاءنا بما يفيد تاريخيًّا، من ذلك أنَّه عرَّفنا أنَّ هناك نوعا من التُّوت يسمَّى (باللُّعابي) وقد أنشد فيه موريا به وباللُّعاب الذي هو الرِّيق فقال:

[الطويل]

وظبي بدوح الرَّوْض أرشفني لمى ... وناولني توتا كطعم رضاب

فقلت له هذا أشدُّ حلاوة ... فقال لا تعجب فذاك (لعابي)

وعرَّفنا في أخرى بأنَّ هناك نوعا من الشَّاش يسمَّى (بالحياتي) وأنشد في ذلك:

[الطويل]

تضمَّخ طيبا إذ تعمَّم منيَتي ... بشاش (حياتي) بديع صفات

وقد زارني في دوح روض مدبَّج ... فأصبحت مسرورا بطيب (حياتي)

---

1 جنَّة الولدان، ص2.

والشَّاش ما يُلفُّ على الرَّأس وبعد اللفِّ يسمَّى عمامة، وهو منقول من اللُّغة الهنديَّة، وٱستعمل البديع[1] هذا اللَّفظ في رسائله ونصُّه "وٱقتصر من البشاشة على تحريك الشَّاشة ومن الإقبال على تعويج السبال".[2]

والاسم التونسيُّ الخاصُّ بنوع من هذا الشَّاش هو (الحياتي) وأظنُّه ما يسمَّى اليوم (بالكشطة المطروزة) والتَّورية في قوله (بطيبِ حياتي) لتردُّده بين لذَّة الحياة وبين عباقة الشَّاش.

وفي نتفه الغزليَّة قد أكثر من التَّورية بمن يسمَّى بالعربي، فله فيه عدَّة نُتف تفنَّن فيها موريا بذلك الاسم وبالعرب:

[البسيط]

يا من لحاني بحبِّ الأهيف (العربي) وراح يصبو إلى التركيِّ في النَّسب

إن كنت تصبو إلى الأتراك من عجم فإنَّني قد صبوت اليوم (بالعربي)

إنَّ نتفته هذه لو قبلت اليوم لكان لها الصَّدى الواسع، ولبلغت حدًّا لا يوصف حيث أشادت بالتعلُّق بالعرب، وهذا المعنى الذي يشير إليه هو المعنى القريب، والمعنى البعيد هو أنَّه قد صبا بمن تسمَّى بهذا الاسم وكم كانت تعبِّر عن ٱعتزاز بالعرب لوصفت من هذه التَّورية، وله في الاسم المذكور:

[البسيط]

يا عاذلا كن رفيقا في ملامك لي وأنت يا عاذري كن منشئ الطَّرب

وكن إذا شمت محسنا ذا بها وسنا للتُّرك منتسبًا فٱنسبه (للعربي)

وله فيه أيضا:

[البسيط]

يا من إذا ما بدا والبدر مبتدر تستَّر البدر في ثوب من السُّحب

أحيَيْت دين البها من بعد موتته فصرت تدعى (بمحي الدِّين يا عربي)

---

1 طراد بن علي بن عبد العزيز السلمي الدمشقي، المعروف بالبديع. أديب، ناثر، ناظم. له مقامات ورسائل وشعر. توفي سنة 524هـ/1130م. (الأعلام 324/3).

2 الرِّسالة ص69.

وقد ورَّى في هذه النُّتفة بالاسم المذكور بصورة غير ما تقدَّم في النُّتفتين قبلها لأنَّه فيهما ورَّى بالعربيِّ والعرب، أمَّا هذه فإنَّه ورَّى بالاسم المذكور، والشَّيخ محي الدِّين بن عربي[1] الصُّوفي المشهور بالشَّيخ الأكبر (-638هـ).

وله فيه:

[الرمل]

قال لي العاذل لَّما أن رأى | من نحولي شغفي مع وصبي
أنت مشغوف بمن يا مدنفا | قلت دعني بالحبيب (العربي)

وله فيه وهو تال فٱجتمع إعجابان إعجاب بجماله، وإعجاب بعذوبة صوته:

[السريع]

بي عربي يتلو فصاحته | تذهب لي بالأحزان والكرب
يا عاذلي ما سمعت من نغم | أعذب لي من فصاحة (العربِ)ي

وهو في إكثاره من التَّورية بهذا الاسم كان كأبي الحسن الغراب الذي أولع بالتَّورية بٱسم غريب وهو (بُوده) - بضمِّ الباء - فله فيه كالعصفوري نُتف كثيرة، من أرقِّها وألطفها قوله:

[الخفيف]

ومليح أطال عمر سهادي | وعنائي لَّما أطال صدوده
أنا عبد له على كلِّ حال | ليت عبد الهوى غدا معْ (بوده)

(أو معبوده)

وللعصفوري فيمن يدعى بالكميتي:

---

1 محمَّد بن علي بن محمَّد بن أحمد بن عبد الله الطَّائي، الحاتمي، المرسي، المعروف بٱبن عربي(محي الدِّين، الشَّيخ الأكبر). حكيم، صوفي، متكلِّم، فقيه،مفسِّر، أديب، شاعر. من تصانيفه الكثيرة: "الفتوحات المكيَّة في معرفة الأسرار المالكيَّة والملكيَّة"، "جامع الأحكام في معرفة الحلال والحرام". (الأعلام 170/7).

[الوافر]

خلعت عنـان حبّي في (الكميتي) بصبر عنه لا ينفكّ ميت
فقلت ولم أنل منه مرادا جواد مناي ما لحق الكميتي

وله فيه:

[المتقارب]

ولمّا بدا إلجام في كفّ من به أنا في الحبّ حيّ كَميْتْ
نزعت ثيابا اصطباري شوقا وقد صرتُ أصبو لجام الكميتْ

والتّورية في النّتفتين في الكميت فكما هو اسم المورّى به كذلك هو نوع من الخيل بين الأسود والأحمر ونوع من الخمر.

وله في مليح من أهل ماطر:

[السريع]

سألت من أهواه عن ربعه وقلت إذ حسنه يعنو له الخاطر
مع ذا الجدب هل ممطر فقال لي بلدنا (ماطر)

والتّورية في قوله ماطر إمّا اسم البلد المعروف أو ذو مطر.

شخصيّته الشعريّة

توجد ناحية من شعر العصفوري خرج فيها عن التغزّل إلى ناحية أخرى بين تقريظ وإخوانيّات، نظفر في بعضها بناحية من النّواحي الفكريّة في تونس وإن كانت ضيّقة فهي تفيد شيئا ما من جوانب الثّقافة والوجهة في التّأليف في تلك الفترة التي عاشها العصفوري.

ومن ذلك أنّه قرّظ تأليفا في تلك الفترة التي عزّ فيها التّأليف في تونس، وهذا التّأليف لأحد علمائها الذين ألّفوا ودرّسوا وتبوّؤا الحكم، ومع كلّ ذلك ترجمته كانت مطوية، وهو المزاج الذي جاء اسمه محرّفا في ترجمة في بضعة أسطر أتى بها صاحب "ذيل بشائر أهل الإيمان" والذي هو من التونسيّين المؤلّفين القلائل في عصره وما بعده.

وهذا التَّأليف الذي قرَّظه العصفوري هو شرح "متن خليل" في الفقه المالكي، و"متن خليل" ٱستحوذ على الأفكار في ذلك العصر وأصبحت الثَّقافة محصورة فيه، وهذا الشَّرح للشَّيخ أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد المزاج[1] كان من قضاة تونس، وله رحلة إلى الشَّرق للتعلُّم والحجِّ، وكانت وفاته سنة 1175هـ وبقي من مؤلَّفاته شرح "لاميَّة الزقَّاق" في فقه القضاء المالكي، وهو موجود في المكتبة الوطنيَّة بسوق العطَّارين، وله "شرح خليل" الذي لم يعرف إلاَّ من قبيل تقريظ العصفوري له في تشحيذه ولم يذكره من ترجم له، وأوفى تراجمه ما جاء في "مسامرات الظَّريف"[2].

وهذا الشَّرح من قبيل الشُّروح المزجيَّة، وهي التي يمزج فيها الكاتب كلامه بمشروحه، وكان الشَّأن في التَّفرقة بين المتن والشَّرح أنَّه يكتب المتن بالحمرة والشَّرح بالسَّواد، ومن لطيف ما جاء في هذا أنَّ شرح الاقسرائي على الإيضاح في البلاغة كان قليلا بالنسبة للمتن المشروح، فلمَّا رآه السيِّد الشَّريف[3] قال "هذا الشَّرح ذباب على لحم بقر، لأنَّ الكتابة بالسَّواد قليلة بالنِّسبة لما هي بالحمرة".

وتقريظ العصفوري جاء به على طريقته في التَّورية بين ٱسم الشَّارح المذكور وبين صيغة المبالغة في المزج:

[الخفيف]

حين أبصرت متن فقه خليل حسن السَّبكواضح المنهاج

قلت يا قلب ثق بمزج لطيف وتيقن برقَّة (المَزَّاج)

---

1 إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن محمَّد المزاح الأندلسي الأصل، التُّونسي، الفقيه. من تآليفه: "شرح على لاميَّة الزقَّاق" و"شرح على مختصر خليل". توفي سنة 1175هـ/1762م. (شجرة النُّور الزكيَّة 347/1).

2 مسامرات الظَّريف 77/3-78.

3 علي بن محمَّد بن علي الجرجاني، الحسيني، الحنفي، ويعرف بالسيِّد الشَّريف. عالم، حكيم، مشارك في أنواع من العلوم. من تصانيفه الكثيرة: حاشية على شرح التَّنقيح للتفتازاني، حاشية على المطوَّل للتفتازاني في المعاني والبيان... توفي سنة 816هـ/1413م. (الأعلام 159/5).

وصدَّر العصفوري هذه النُّتفة مثل عادته بقوله "مؤلفه إبراهيم العصفوري ما كتب به إلى الشَّيخ الفقيه النَّبيه الحاج إبراهم المزَّاج حين مزج "مختصر الشَّيخ خليل" مزجا لطيفا".

هكذا جاء ٱسمه الحاج إبراهم – بدون ياء – بخطِّ العصفوري، ويؤيِّد ما جاء بخطِّه أنَّه جاء كذلك في مرثيَّة الحاج إبراهم المزَّاج للشَّيخ محمَّد العشِّ قاضي باردو:

[الكامل]

قاضي الورى إبراهم المزَّاج من علاَّمة الدُّنيا لبَّى دعا الدَّارين بالإذعان وإمامهم في
وفخر قضاتها فلطالما أهدى لمذهب مالك العلم والإتقان ولَكَم أفاد عقائد الإيمان

وهذه الصِّيغة ٱنتشرت في تونس وإلى الآن بعض العائلات تتلقَّب بعائلة إبراهم، والظَّاهر أنَّه كان يتسمَّى به إمَّا الأندلسيُّون لأنَّ الحاج إبراهم المزَّاج كان أندلسيًّا كما أفاده صاحب "المسامرات"[1] نذكر أنَّه ولد بغرناطة سنة 1101هـ ثمَّ ٱرتحل إلى مصر فهو من المدجِّنين، وبعد رحلته الشرقيَّة ٱنتقل إلى تونس، وإبراهم كذلك هو لقب عائلة في طبربة، ومن المعلوم أنَّ سكَّانها من الجالية الأندلسيَّة، وأمَّا الأتراك فكما تسمَّى ببراهم الأندلسيُّون كذلك الأتراك.

وجاء في "شجرة النُّور الزكيَّة"[2] إبراهيم تقليدا لما جاء في الرُّزنامة التونسيَّة لسنة 1919م. فلعلَّه ٱشتهر بهما معا.

وللعصفوري يمدح الأديب يحيى التواتي أحد إخوانه الأدباء العلماء كما نوَّهت به هذه النُّتفة:

[الكامل]

(يحيى التَّواتي) فاق أهلَ زمانِه متفنِّنا في العلمِ والآدابِ
لا غرْوَ في أدبٍ أتى من مثلِه في عصره إذ جاء من آدابي

1 مسامرات الظَّريف 77/3.
2 شجرة النُّور الزكيَّة ص347.

ولم يظهر لي وجه التَّورية في هذه النُّتفة لأنَّ عادة العصفوري في تشحيذه أن يكتفي بإيراد النُّتفة سواء كانت له أو لغيره بدون شرح التَّورية، وقد تمكَّنت من بيان ما أورده من تورية سواء أكانت له أم لغيره إلاَّ القليل.

وله مخاطبا بعض أصدقائه لّما قطَعَ مكاتبته:

[الطويل]

عُبيْدك يا مولايَ أنحله النَّوى وطُولُ ٱنقطاع الكُتْب من لفظك الشُّهد

فكاتب عُبيدًا منه كانت من لفظ الشَّهد ويحسن للمولى (مكاتبةُ العبدِ)

والتَّورية في هذه النُّتفة في قوله: "مكاتبة العبد"، حيث يحتمل قوله ذاك أن يكون من كتابة العبد، وهي أن يشتري العبد المملوك نفسه من سيِّده بمأل يحصل عليه وأن يكون من الكتابة وهي الخطُّ.

وله في أمين غابة الزَّيتون البحري:

[الطويل]

أرى أمناءَ الوقتِ شتَّى كثيرة سوى وما فيهمُ يرجى لدى مُشكلِ الأمرِ

(عمر البحري) الشَّهير بأنَّه أمينٌ غدا بحرًا يحدِّث عن بحري

العصفور والعش

ٱستغلَّ العصفوري ٱسمه ٱستغلالا أدبيًّا، فورَّى به مع الأغصان حين يكون عليها العصفور فتميل كما في النُّتفة المتقدِّمة، وكذلك في النُّتفة الآتية حيث كان له صديق يسمَّى بالعشِّ فلاح له وجه في التَّورية قلَّ أن يتوفَّر مع ٱسم سوى ٱسمه لأنَّ العشَّ وكر العصفور:

[الطويل]

لحانيَ قوم في غراميَ بالعشِّ وراموا سلوِّي بالخديعة والغشِّ

فقلت لهم والقلب منِّي خافقٌ فلا غرو في (العصفور) أنْ حنَّ لـ(العشِّ)

وهذه النُّتفة من قبيل الإخوانيَّات لا الغزل لأنَّ العشَّ هذا أديب نجيب، وهو قاضي باردو، فيستحيل أن يتغزَّل فيه.

وهو في ٱستغلال ٱسمه في التَّورية متأثِّر بالسِّراج الورَّاق الذي أعانه ٱسمه على ذلك حتَّى طفح الكثير من شعره الغزير بالتَّورية بٱسمه كقوله:

[الوافر]

وقالت (يا) سراج علاك شيب فقلت فدع لجديده خلع العذار
لها نَهارٌ بعد ليلٍ فما يدعوك أنت إلى النِّفارِ
فقالت قد صدقتَ وما علِمنا بأضيَعَ من سِراجٍ في نَهارِ

وإذا نظرنا إلى عصر الورَّاق وعصر العصفوري نجد أنَّ المدَّة بين عصريهما طويلة، فنتساءل حينئذ لم لم يكن هذا التَّأثير إلاَّ بعد هذه الفترة الطَّويلة التي تبلغ ما يزيد عن أربعة قرون.

وقد كنت علَّلت ذلك في بحث لي بأنَّ التَّلاقح في القرن السَّابع إلى العاشر كان بين تونس والشَّرق محدودا حتَّى إلى القرن الحادي عشر ثمَّ إنَّه لمَّا كان السُّلطان التُّركي تنضوي تحته تونس ومصر والكثير من البلاد العربيَّة أمكن بواسطة الانضواء المذكور أن يفسح المجال للتَّلاقح بين تونس وغيرها من بلاد الشَّرق، وأعان على ذلك أنَّ هناك نخبة تلقَّت تعليمها في الأزهر، فوجد التَّأثير سبيله للعبور ولكن حين ٱنتعشت التَّورية في تونس كانت في الشَّرق في تراجع نوعا ما.

محمّد المختار العياضي
من مؤرّخي الأدب التونسي

يعدُّ العياضي بكتابه "مفاتح النَّصر" من رعيل المؤرِّخين في الأدب التُّونسي، رغم تفاهة تأليفه لجملة من علماء وأدباء عصره وسيأتي التَّعريف بتأليفه هذا.

وقد جاراه في تأليفه الشَّيخ محمَّد بيرم الرَّابع (-1278هـ) فألَّف كتابه المسمَّى "بالجواهر السنيَّة في شعراء الدَّولة التونسيَّة"، وكان في نيَّته أن يقسِّمه طبقات الأولى والثَّانية وهكذا، إلاَّ أنَّه لم يؤلِّف إلاَّ رجال الطَّبقة الأولى حسبما وقفت عليه وعدَّهم عنده ستَّة أدباء ٱبتدأهم بمحمَّد الرَّشيد باي (-1172هـ) وختمهم بعلي الغراب (-1183هـ)

وقد حاول فيه أن يكون حاويا لطائفة لا بأس بها من شعر الشُّعراء الذين عدَّهم في الطَّبقة الأولى، ولم يكن مجمعا للدَّواوين وإنَّما كان من قبيل المختارات مع تراجم مقتضبة غاية الاقتضاب.

ثمَّ أتى بعده صاحب "مسامرات الظَّريف" الشَّيخ محمَّد بن عثمان السَّنوسي(- 1317هـ) وألَّف كتابا أراده أن يكون حاويا لما وصلته يده من شعر التُّونسيِّين الذين عاشوا في مدَّة الدَّولة الحسينيَّة، وهو في الحقيقة أوسع مجموعة في الأدب التُّونسي في تلك الفترة، وسمَّاه: "شفاء النُّفوس السنيَّة في مجمع الدَّواوين التونسيَّة"، وقد ٱستخرج منه ديوان الشَّيخ محمود قبادو[1] (-1288هـ) وطبعه سنة 1295هـ وهو القسم المطبوع من "مجمع الدَّواوين التونسيَّة".

وقد ترجم في هذا الكتاب لنيف وثمانين شاعرا في العصر الذي حدَّده لتأليفه، وهذا التَّأليف يبلغ عشرة أجزاء، وقد بدَّدته يد الأيَّام والباقي منه ثلاثة أجزاء تحتوي على تسعة عشر شاعرا، وبضميمة ديوان الشَّيخ قبادو

---

1 محمود بن علي قبادو الشريف. له ولع بعلوم اللُّغة والبلاغة والشِّعر والإنشاء. هجر وطنه ورجع. درَّس بالزَّيتونة وتولَّى قضاء باردو ثمَّ الفتوى. (عنوان الأريب 908/2).

الذي يظنُّ أنَّه يمثِّل جزأين من "مجمع الدَّواوين التونسيَّة"، وهناك قطعة أخرى لم أقف عليها، وهي تمثل جزءا منه، حينئذ يكون الباقي أكثر من النِّصف، وهذه الأجزاء التي وقفت عليها تختلف أهميَّتها، فالجزء الثَّاني يتضمَّن ديوانين لشاعرين شهيرين هما الورغي[1] (-1190هـ)، والحاج حمُّودة بن عبد العزيز(- 1202هـ)، وشعر كليهما متداول، بخلاف الجزء الذي يشتمل على أحد عشر شاعرا له أهميَّة إذ فيه شعر الطوير وسميَّة والشَّحمي[2] وغيرهم.

وجاء بعده الشَّيخ محمَّد بن الطيِّب النَّيفر[3] (-1330هـ) وألَّف "عنوان الأريب عمَّا نشأ بالمملكة التونسيَّة من عالم أديب"، إلاَّ أنَّه توسَّع في الزَّمن حيث لم يقصره على أدباء عصره بل تناول فيه الكثير من الأدباء الذين كانوا بإفريقيَّة منذ عصورها الأولى، وهو جزءان طبع سنة 1351هـ، وفيه قسم له قيمته في أدباء عصره.

وآخر من ألَّف في أدباء عصره زين العابدين السَّنوسي[4]، فألَّف كتابه الذي سمَّاه: "الأدب التُّونسي في القرن الرَّابع عشر"، وقد ظهر منه جزءان طبعا سنة 1346هـ.

---

1 محمَّد بن أحمد الورغي، أبو عبد الله، الفقيه، الأديب الشَّاعر، درس بالزَّيتونة قلَّده علي باشا الكتابة وأودع السِّجن في عهد أبناء حسين بن علي. من آثاره ديوان شعر وله مقامات ورسائل. (ترجمة المؤلفين التونسيِّين 131/5).

2 أبو عبد الله محمَّد الشَّحمي، من مفاخر وأعلام جامع الزَّيتونة في عصره. وفي كتابه تراجم المفتين عبَّر عنه محمَّد بيرم الثَّاني بقطب دائرة المعقول. توفِّي بعد سنة 1190هـ (شجرة النُّور الزكيَّة 349/1، عنوان الأريب 580/1).

3 أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد الطَّيب بن محمَّد بن أحمد بن قاسم بن محمَّد بن محمَّد بن أبي النُّور بن محمَّد بن أحمد النَّيفر، تقلَّب في عدَّة وظائف. من مؤلفاته "واسطة التَّاج فيما إليه من عيون الحِكم والوصايا يحتاج" و"برهان البقيَّة من أدب أهل إفريقيَّة". (عنوان الأريب 21/1-28).

4 زين العابدين محمَّد بن عثمان السَّنوسي. أديب، كاتب، صحفي ومؤرِّخ الأدب التُّونسي. من مؤلفاته "أبو القاسم الشَّابي حياته وأدبه" "الشَّاذلي خزندار أمير شعراء تونس". توفِّي سنة 1385هـ/1965م. (تراجم المؤلفين التونسيِّين 65/3).

وكان في نيَّته أن يجعله شاملا للأدب التُّونسي في أطواره المختلفة إلاَّ أنَّه بدأ بأدباء عصره ونعم ما صنع، كما كان في نيَّته حسبما حدَّثني بــه أنَّــه ينوي أن يضمَّ إليه جزأين آخرين في الكتاب ضميمة للجزأين السَّابقين حتَّى أنَّه جمع من بعض الكتَّاب آثارهم وصورهم إلاَّ أنَّ الظُّروف لم تساعده على ذلك.

فالعياضي هو فاتح هذه الحلقة المتسلسلة بأدباء تونس في تلــك الفتــرة المعيَّنة، "فمفاتح النَّصر" من هذه النَّاحية يعدُّ مثيرا لمن جاء بعده وهو الشَّيخ بيرم الرَّابع حتَّى ألَّف "الجواهر السنيَّة".

ٱسمه وحياته

جاء في "عنوان الأريب"[1] أنَّ ٱسمه محمَّد والذي في كتابه "مفاتح النَّصر" أنَّه المختار، ومن القريب أنَّه محمَّد المختار لأنَّ والده كذلك يسمَّى بمحمَّد، فلعلَّه للتَّفرقة بين ٱسمه وٱسم والده يضاف إليه المختار كما هو الــشَّائع في إضافة أسماء إلى محمَّد كمحمَّد المختار ومحمَّد الطيِّب.

وٱسم والده محمَّد وكان من أهل العلم حيث ذكر ٱبنه أنَّه قرأ على الفقيه أبي عبد الله محمَّد بن عمران (-1151هــ) "ألفيَّة ٱبن مالــك" و"مختــصر خليل" بباجة، كما أنَّه حدَّث عنه في كتابه "مفاتح النَّصر" فقال: "أخــبرني والدي أنَّ للشَّيخ سعادة نظما في مناسك الحجِّ لم ينظم على منواله".

وكانت شهرته بالعياضي.

وأصل نشأته في باجة كما يدلُّ على ذلك ما ذكره في إحدى ترجمتيــه لشيخيه من أهل باجة، وبها كان تلقِّيه، ثمَّ أخذ بعد ذلك عن شيوخ تونس.

وشيخاه اللَّذان ترجم لهما من أهل باجة أوَّلهما أبو الحسن الطَّويل، فقد ترجم له ترجمة مقتضبة على عادته في الاقتضاب إلاَّ في النَّادر فقال معرِّفا به:

---

1 عنوان الأريب 518/1. "الأديب الشَّيخ محمَّد ٱبن الشَّيخ محمَّد بن محمَّد الشريف الشَّوثري شهر العياضي".

"أبو الحسن علي الشَّريف ويعرف بالطَّويل نشأ بباجة وقرأ بها القـــرآن... وٱنتقل إلى تونس فلقي بها الشَّيخ زيتونة والشَّيخ أحمد التُّونسي فأخذ عنهما العلم والتقى بين الأنام، قرأت عليه أوَّل بداءتي الشَّيخ خالدا على الأجروميَّة والقاضي زكريَّاء على "إيساغوجي".

وثاني الشَّيخين من أهل باجة الفقيه أبو الإقبال مسعود الباجي، والظَّاهر أنَّه تلقَّى عنه بتونس لانتقاله إليها وترجم له "بأنَّه ممَّن له عقل ثابت في حلِّ المشكلات من العلوم، وباع كامل في المفهوم، كان قرأ بباجة على الـــشَّيخ حميدة المفتي، ثمَّ ٱنتقل إلى تونس سنة 1141هـــ فقرأ على الشَّيخ أبي عبد الله محمَّد سعادة، وعلى غيره ثمَّ حجَّ بيت الله الحرام، وأقام بمصر وقـــرأ علـــى مشائخ ذلك العصر، وأجازوه كتابة، كنت قرأت عليه كتبا عديدة في النَّحو والمنطق كالأشموني على الألفيَّة، والماكودي والمرادي، وغير ذلك في النَّحو، وقرأت عليه شرح التَّهذيب مرارا، ومختصر الشَّيخ السَّنوسي، وغير ذلك".

وأمَّا بقيَّة شيوخه فمن أهل العاصمة، وهم:

أبو منصور المترلي قرأ عليه "مختصر المنطق" للشَّيخ السَّنوسي إلى التَّناقض، وقرأ مطوَّل سعد الدِّين في البلاغة إلى الفنِّ الأوَّل، وذكر أنَّه ٱســتفاد منــه كثيرا، ومحمَّد بن عبد العزيز(-1162هـــ) وهو والد الحاج حمُّودة بن عبـــد العزيز ذكر أنَّه قرأ عليه "مختصر الشَّيخ خليل"، ونبذة من المحلَّى من لواحـــق القياس. كما ذكر أنَّه كان يقرأ عليه وقت تأليف الكتاب أي سنة 1153هـــ شرح علي باشا على التَّسهيل.

كما قرأ على أحمد الماكودي(- 1170هـــ) فذكر أنَّه قرأ عليه "مغـــني اللَّبيب" لابن هشام ونبذة من القطب على الشَّمسيَّة، وكان يقرأ عليه شرح علي باشا على التَّسهيل.

ومدحه العياضي بقصيد مطلعه:

خليليَّ هــل صــب بحــق عتابــه   وفي الأعين المرضــى تقـضي شــبابه

مفاتح النَّصر

عددت هذا الكتاب، وهو "مفـــاتح النَّصر" للعياضي في مصادر كتــب تــاريخ الأدب التُّونسي، مع أنّي لو رجعت لما يمليه عليَّ ضميري لما عددته منها، وإنَّما في تلك الفترة بعد جذب أدبيٍّ وبسبب الفتنة الشَّعواء لا يــسع المضطرَّ إلاَّ أن يعدّه منها ويرجع طرحه من قائمـــة كتــب تــاريخ الأدب التونسيِّ لأسباب من أهمِّها أنَّ ما حواه الكتاب لا يمثِّل تلك الفتــرة تمثــيلا صحيحا، رغم أنَّه مسمَّى: "بمفـــاتح النَّصر في التَّعريف بعلماء العصر"، إذ ما فيه لا يجد فيه الباحث ما يشفي غليله من أدب ذلك العصر لا من حيث التَّرجمة، ولا من حيث المنتقيات، فما فيه يدور حول نفسه في نقطة خاصَّة.

ومع هذا للتَّاريخ لا يسع إغفاله لأنَّ ما فيه بالإضافة لما عند غيره يعرِّف بعض التَّعريف بالأدب التُّونسي السَّالف، ثمَّ إنَّه قد كان مصدرا لمن كتــب بعده رغم إغفالهم له من كتبهم، فكأنَّهم تساموا عن ذكــره في المــصادر، وكما أغفلوه من مصادرهم، أغفلوه من تراجمهم، و لم يترجم له إلاَّ القليــل مثل الشَّيخ محمَّد بن الطيِّب النَّيفر (–1330هـــ) في كتابه "عنوان الأريب" مكتفيا في ترجمته بذكر شيوخه وشيء من أدبه.

والسَّائد من أسلوب الكتاب ينبئ أنَّه أراد أن يسير على غــرار "قلائــد العقيان" للفتح بن خاقان (–535هـــ)، حتَّى أنَّ الفتح[1] كما صدَّر كتابــه بالقسم الأوَّل في محاسن الرُّؤساء وأبنائهم، ودرج أنموذجات من مستعذب

1 الفتح بن محمَّد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي، أبو نصر. كاتب، مؤرِّخ. من أهل إشبيليَّة، من تصانيفه "قلائد العقيان" و"رواية المحاسن وغاية المحاسن". توفِّي سنة 528هـــ/1134م. (الأعلام 332/5).

أنبائهم، ابتدأه بالمعتمد على الله أبي القاسم محمَّد بن عبَّاد[1]، وثنَّى بالرّاضي بالله أبي خالد يزيد ابنه، كذلك صنع العياضي مثل صنيعه، فابتدأ كتابه بترجمة علي باشا (-1169هـ) وثنَّى بأبنائه الثّلاثة يونس، ومحمَّد وسليمان.

وإدخال علي باشا ضمن كتاب العياضي المؤلّف في التَّعريف بعلماء عصره له وجهه لأنَّ الباشا عليًّا كان من العلماء حسبما يدلُّ عليه كتابه "شرح التَّسهيل"، أمَّا أبناؤه فلا وجه لذكرهم ضمن العلماء، ولا وجه إلاَّ المحاكاة للفتح بن خاقان فكما أضاف هذا ترجمة الرَّاضي إلى أبيه، أراد هو أن يضيف ترجمتهم إلى أبيهم غير أنَّ الفتح لم يقحم الرَّاضي إقحاما غير مقبول لأنَّه كما قال فيه: "وتصرَّف أثناء شبيبته بين دراسة معارف، وإفاضة عوارف، وكلِف بالعلم حتَّى صار ملهج لسانه، وروضة أجفانه". أمَّا أبناء الباشا فلم يجد ما يقول العياضي فيهم غير قوله: "جنَّبوا الخيول – جنَّب الفرس قاده إلى جنبه – وركبوها، ووشَّحوا السُّروج وذهَّبوها، ما توجَّهوا إلى مغلق إلاَّ انفتح، ولا إلى صعب إلاَّ بان واتَّضح، رفرفت على رؤوسهم الرَّايات، وقادوا العساكر من كلِّ الجهات، فهم يتقلَّبون من صهوات الجياد، إلى القصور والأسرَّة المذهَّبة الأعواد" فهم بعيدون كلَّ البعد عن مقصود كتابه، ومثل الإقحام هذا من العياضي في عصره يبرِّره أنَّه أراد التَّقرُّب إلى الباشا بذكر أبنائه لمناسبة، ولغير مناسبة.

ثمَّ الكتاب في مجموعه يحوم حول الباشا علي، ولم يخرج عمَّا يتعلَّق بشرحه للتَّسهيل في الغالب، فهو تقريظ لكتابه "التَّسهيل"، وتعريف بإيجاز لمن قرَّظ كتابه، أمَّا غيرهم فذكروا تبعا وجمعا لبعض النُّظراء.

وكما حاكى العياضي الفتح بن خاقان في استهلال الكتاب بملك عالم كذلك حاكاه، واقتفى به في السَّجع، والسَّير على ما يقرب من أسلوبه في

1 محمَّد بن عبَّاد بن محمَّد بن إسماعيل اللَّخمي، أبو القاسم، المعتمد على الله. صاحب إشبيليَّة وقرطبة. أسره السُّلطان بن تشفين وهو آخر ملوك الدَّولة العبَّادية. توفِّي سنة 488هـ/1065م. (الأعلام 50/7).

التَّراجم، و لم يوفَّق العياضي في سيره وراء الفتح إذ ما بينهما من البعد في سموِّ الأسلوب، وبلاغة التَّعبير كالبعد بين من ترجم لهم، فالمترجمون في "القلائد" مثل أبي الوليد الباجي[1]، وأبي عبيد البكري[2] وآبن السيِّد البطليوسي،[3] وآبن اللبَّانة[4]، ومترجمو "مفاتح النَّصر" مثل الخضراوي، وسعادة والريكلي، وشتَّان بين هؤلاء وهؤلاء.

وليس هذا من الحطِّ من أدبائنا، بل هو من الإقرار بالحقيقة، ووضع الأشياء في مواضعها، ثمَّ إنَّ هؤلاء المترجمين في "مفاتح النَّصر" لهم وزنهم، ولهم قيمتهم وبالأخصِّ من النَّاحية العلميَّة، فهم من العلماء البارزين، وليسوا في تونس فحسب، بل صدى علمهم تجاوز الحدود الإقليميَّة، ومع هذا لا نستطيع أن ندَّعي أنَّ أحدا منهم بلغ مبلغ آبن السيِّد الذي ما كتب في شيء إلاَّ أتقنه وأجاد فيه، كما شهد له بذلك آبن خلِّكان[5]، ولا نستطيع أن ندَّعي أنَّ أحدا منهم بلغ مبلغ البكري، والله يؤتي فضله من يشاء.

ثمَّ إنَّ العياضي نفسه صرَّح بأنَّه قلَّد في كتابه من تقدَّمه ممَّن ألَّف في علماء عصره، ولكنَّه أجمل كما تفيده عبارته "وكنت رأيت من صنَّف في التَّعريف بعلماء عصره، وأدباء مصره، فأردت أن أحذو حذوه، وأتلو تلوه

---

1 سليمان بن خلف بن سعد التجيبي القرطبي، أبو الوليد الباجي. فقيه مالكي كبير، من رجال الحديث. أندلسي من بطليوس(Badajoz).رحل إلى الشَّرق. من كتبه "السِّراج في علم الحجاج"، "أحكام الأصول"، "التَّسديد إلى معرفة التَّوحيد". توفي بالمرية (Almeria) سنة 474هـ/1081م. (الأعلام 186/3).

2 عبد الله بن عبد العزيز بن محمَّد البكري الأندلسي، أبو عبيد. مؤرخ جغرافي، علاَّمة بالأدب له معرفة بالنبات. له كتب جليلة منها "المسالك والممالك"، "معجم ما استعجم". توفي سنة 487هـ/1094م. (الأعلام 233/4).

3 عبد الله بن محمَّد بن السَّيد الأندلسي من بطليوس (Badajoz). من العلماء في اللُّغة والأدب. من كتبه "الاقتضاب في شرح أدب الكتاب"، لابن قتيبة، "المسائل والأجوبة" و"المثلث" في اللغة. توفي سنة 521هـ/1127م. (الأعلام 268/4).

4 محمَّد بن عيسى بن محمَّد اللَّخمي، أبو بكر، المعروف بآبن اللبَّانة. أديب أندلسي، شاعر، من تصانيفه "مناقل الفتنة" و"نظم السُّلوك في وعظ الملوك" وديوان شعر. توفي سنة 507هـ/1113م. (الأعلام 214/7).

5أحمد بن محمَّد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلِّكان البرمكي الإربلي، أبو العبَّاس. المؤرِّخ الحجَّة والأديب الماهر، صاحب "وفايات الأعيان وأنباء أبناء الزَّمان" من أشهر كتب التَّراجم. الملك الظَّاهر ولاَّه قضاء الشَّام. توفي سنة 681هـ/1282م. (الأعلام 212/1).

ليكون ذلك نزهة للنَّاظرين، وتذكرة لمن أراد أن يتذكَّر من قبله من العلماء المتقدِّمين".

و"مفاتح النَّصر" ألِّف على فترتين كما ذكره في أوَّل تأليفه أولاهما في أوائل دولة الباشا علي كما صرَّح به "أقول كنت شرعت في هذا الكتاب في شهر شوَّال من سنة ثلاث وخمسين ومائة وألف فعاقني عن تكملته عوائق الزَّمان، التي لا يخلو منها كلُّ إنسان، وهو أن أناخ المرض عليَّ بكلكله، وركض عليَّ بخيله ورجله"، وهذه المدَّة الأولى التي ألِّف فيها كتابه هي مدَّة التمكُّن لعلي باشا في الملك حيث قتل عمَّه في صفر سنة 1153هـ.

وثانيتهما هي العودة إلى تأليف كتابه بعد ذلك الانقطاع بسبب المرض، فإنَّه لَّما عوفي، ومنَّ الله عليه بالشِّفاء شرع في تكملته، ولم يذكر متى كانت عودته إلى تأليفه، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه عاد إليه في مدَّة الباشا لأنَّه ٱستمرَّ في تراجمه على الدَّوران حول الباشا، فممَّن ترجم له في آخر كتابه من لم يقرظ شرح الباشا للتَّسهيل، فٱعتاض على ذلك بأنَّه كان يقري هذا الشَّرح كما جاء في ترجمة أبي منصور المترلي، وكذلك صنع في ترجمة أحمد الماكودي، وكذلك كان عوده قبل ثورة يونس على أبيه حيث لم تأت إشارة إلى ذلك، والعياضي أدرك دولة محمَّد الرَّشيد كما سيأتي تحقيقه.

وفوق هذا كلِّه أنَّ العياضي كتب كتابه بدون أن يكون هناك ٱستعداد لتأليفه لأمور عدَّة منها أنَّه لم يذكر لمن عرفوا في عصره بخصوبة الإنتاج إلاَّ القليل مثل الشَّاعر الورغي، والطوير القيرواني مع أنَّ ما ذكره لهما ليس من عيون شعرهما، ومنها أنَّ بعض مترجميه يقول في حقِّه ولا أعرف له نظما ولا نثرا وذلك غير ممكن في حقِّ عالم، وهذا ما ذكر في ترجمة محمَّد بن عبد العزيز وإنَّ بعضا آخر يقول في حقِّه له نظم ونثر، ولا أحفظ له منه شيئا.

كما أنَّ كتابه غير تامٍّ إذ التَّراجم التي أتى بها لم تستوعب حتَّى بعض المشاهير من علماء عصره، وكما تدلُّ عليه النُّسخة الباقية بخطِّه.

ومع هذا فالكتاب حريٌّ بأن يدرس لتمثيله جانبا من عصره، ولو أنّ تمثيله ذلك كان بصورة محدودة.

يحتوي هذا الكتاب على جملة من التّراجم للعلماء الأدباء في ذلك العصر، سواء كانوا من الأحياء زمن التّأليف أو المنتقلين إلى الدّار الآخرة. وجملة ما فيه من التّراجم غير ترجمة علي باشا وأبنائه الثلاثة اثنتان وعشرون ترجمة، منها ترجمة محمّد الخضراوي[1] (-1144هـ) ومحمّد سعادة (-1171هـ) وحمّودة الرصّاع المتوفّى في أيّام علي باشا، ويوسف درغوث (-1156هـ) وحمّودة الريكلي[2](-1161هـ) وعلي سويسي(-1146هـ) وأحمد الماكودي[3] (-1170هـ) وعبد الله السّوسي (-1179هـ).

وطريقته في التّرجمة أن يأتي بتعريف أكثره مدح، ويلتزم فيه السّجع غالبا دون أن يتعرّض للمترجَم من ناحية التّعريف به على ما هو معهود من ذكر ميلاده ووفاته وأكثريّة شيوخه إلى غير ذلك، فتراجمه الاثنتان والعشرون لم يذكر فيها إلاّ وفاتين وفاة الخضراوى ووفاة محمّد بن عمران الباجي.

وأنيق تراجمه ترجمة الشّيخ محمّد سعادة، ونأتي بها نموذجا للكتاب ولنشره وهي:

"الفقيه المفتي أبو عبد الله محمّد سعادة حاز في العلوم المعقولة والمنقولة قصب السّبق، فكأنّه في أفق تلك العلوم لمع برق، وهو في هذا القطر لسان الأدب، ورواية شعر العرب علاّمة الأعلام مبدع النّثر والنظام، واسع الدّائرة في الكلام.

---

1 من مشاهير ناشئة العلم بتونس، علاّمة الأعلام، انتهت إليه الرّئاسة العلميّة في زمانه. توفّي سنة 1144هـ (عنوان الأريب 491/1).

2 أبو محمّد حمّودة الريكلي، ثالث شيوخ المدرسة المراديّة، من موثّقي عدول المدينة. تولّى خطّة القضاء بالحاضرة. (مسامرات الظّريف 230/1).

3 أحمد بن الحسن بن محمّد المعروف بالورشان الملقّب بالمكودي الشّريف الحسني، الشّهير بالعلم. محدّث، فقيه، نزيل تونس. من مؤلّفاته "تحرير وفيات الفقهاء السّبعة". (تراجم المؤلفين التونسيين 368/4).

عالم علاّمة، وحبر فهّامة، على غصن لسانه تصدح بلابل التّحقيق، وعلى هامة بنانه تخفق رايات التّدقيق، له شعر يعبث بالنّسيم، ونثر يزدري بالدرّ النّظيم، لا يخلو شعره من المعاني المبتدعة، وكأنّما شعره جواهر مرصّعة، إن نظم أخجل أحمد بن سليمان، وبديع الزّمان[1]، أو نثر فهو ٱبن الخطيب والفتح بن خاقان، كسا شعره من الانسجام، ما لم يكس به شعر عروة بن حزام، لو رآه لبيد[2] لقال أنا بالنّسبة إليه بليد، أو رآه أبو تمّام، لقال هذا شعر لا يفارقه التّمام، أو رآه أبو الطيّب، لقال هذا في المعاني كالعارض الصيِّب، أو رآه الكميت[3]، لقال هذا يفعل في النُّفوس فعل الكميت، هذا مع ما له من علوم الدِّيانات من الآيات البيِّنات.

قرأ بتونس أوائل صباه ثمّ ٱرتحل إلى المشرق، فقرأ به ورجع إلى تونس ووجهه بالعلوم مشرق، قرأ على الشّيخ محمّد ٱبن الشّيخ عبد الباقي الزُّرقاني شارح مختصر الشّيخ خليل، وعلى النشرتي، وعلى الشّيخ المنوفي، وتصدّر للإقراء بجامع الزّيتونة وأفاد وأجاد، وبنى على منهج التّحقيق وأشاد.

أخبرني والدي أنّ له نظما في مناسك الحجّ لم ينظم على منواله، ولا سمحت قريحة بمثاله، وله حاشية على الأشموني أظهر فيها قوّة ٱطّلاعه، وكمال باعه".

وقد أثبت من نثره ونظمه ما كتب به على شرح التّسهيل لسيِّدنا أبي الحسن علي باشا أبقاه الله.

---

1 أحمد بن الحسن بن يحيى الهمذاني، أبو الفضل. أحد أئمَّة الكتاب. له مقامات، والحريري أخذ أسلوب مقاماته عنها، وله ديوان شعر. توفِّي سنة 398هـ/1008م. (الأعلام 112/1).

2 لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري. أحد الشُّعراء الفرسان في الجاهليَّة، أدرك الإسلام ويعدُّ من الصَّحابة. ترك الشِّعر، هو أحد أصحاب المعلّقات، له ديوان شعر. توفِّي سنة 41هـ/661م. (الأعلام 104/6).

3 الكميت بن زيد بن خنيس الأسدي، أبو المستهل. شاعر الهاشميِّين من أهل الكوفة، عالم بآداب العرب، من أصحاب الملحمات. أشهر شعره "الهاشميات. توفِّي سنة 126هـ/744م. (الأعلام 92/6).

وأتى بتقريظه للكتاب المذكور، وختم التَّرجمة بـذكر مـيلاده سـنة 1088هـ، وذكر الميلاد في تراجم العياضي من النَّوادر، وكما آمتازت ترجمة سعادة بذكر ميلاده كذلك آمتازت بكونها من أحسن تراجمه.

وهذه الطَّريقة التي لا يعتني فيها بشخصيَّة المترجم بذكر ميلاده ووفاته وتلقِّيه وغير ذلك، وإنَّما يعتني فيها بما يعرف بقيمة المترجَم بتصرُّف على حسب ما تتطلَّبه النَّاحية الأدبيَّة والعلميَّة، مع إشارات وتلميحات إلى أهمِّ ما يتعلَّق بحياة المترجَم هي الطَّريقة التي سلكها الفتح بن خاقـان في "قلائـد العقيان"، وأبو منصور الثَّعالبي[1] في "يتيمة الدَّهر"، والثَّعالبي في "الحقيقة" قد كان المجلى فيها فلم يفر فرية من سبقه ولا من تلاه.

وكما سلكها العياضي في العصور القريبة سلكها غيره من الكتَّـاب في تونس وفي غيرها، وكلُّهم لم يبلغوا شأو الثَّعالبي، ولا وصـلوا إلى شـيء مذكور في يتيمته، ولا شأو الفتح في قلائده.

وأغرق في البعد وعدم بلوغ الشَّأو العياضي في "مفاتح النَّصر" ولـيس قصوره بالنِّسبة للكتابين المذكورين، بل بالنِّسبة لغيرهما "كريحانة الخفاجي"[2].

وينبيك عن هذا أنَّ أحسن تراجمه ترجمة سعادة، وهي لو قايستها بأيَّـة ترجمة من تراجم "اليتيمة"، أو "القلائد"، أو "الرَّيحانة" لرأيت أنَّه قصَّر مـن حيث التَّعبير، ومن حيث التَّعريف الأدبيِّ ففي "اليتيمة" بالخصوص بعـض تراجم هي غرَّة في التَّعريف الأدبيِّ والنَّقد، وكم يكون العياضي موفَّقا لـو حاول بعض المحاولة ليأتي بترجمة على غرار ترجمة الثَّعالبي لأبي فـراس[3] في الأدباء الذين لهم إنتاج خصب مثل الشَّاعر الورغي.

---

1 عبد الملك بن محمَّد بن إسماعيل، أبو منصور الثعالبي. من أئمَّة اللُّغة والأدب. من أهل نيسبور، نسب إلى صناعته خيط جلود الثَّعالب. من تصانيفه "يتيمة الدَّهر" "فقه اللُّغة" و"سحر البلاغة". توفي سنة 429هـ/1038م. (الأعلام 311/4).

2 أحمد بن محمَّد بن عمر، شهاب الدِّين الخفاجي المصري. قاضي القضاة وصاحب التَّصانيف في الأدب واللُّغة منها: "ريحانة الألباء" وشفاء الغليل فيما في كلام العرب من الدَّخيل" و"طراز المجالس". توفِّي سنة 1069هـ/1659م. (الأعلام 227/1).

3 الحارث بن سعيد بن حمدان التَّغلبي، أبو فراس الحمداني. أمير، شاعر، فارس، آبن عمِّ سيف الدَّولة. له ديوان شعر. توفِّي سنة 357هـ/968م. (الأعلام 156/2).

إنَّ العياضي لم يبذل جهدا حتَّى في التَّقليد، ليأتي بتراجم تعطي أضـــواء على أدب المترجم، فيخرج المطالع لكتابه برأي في المترجَم، فهو كما قدَّمنا كَتَبه على عجل، و لم يوفِّر له مادَّته.

فالكتاب كأنَّه تعريف بمقرظي "شرح التَّسهيل" لعلي باشا أو مقرئيه هذا في أصل وضعه مع إلحاق تعريف بغيرهم في إيجاز، فلهذا تراه في تراجمه التي صدَّر بها يقول بعد التَّعريف: "ومن نثره ونظمه ما كتب به علـــى "شـــرح التَّسهيل" لمولانا الباشا"، ويأتي بعد ذلك بتقريظ المترجم، كمـــا رأيتـــه في ترجمة الشَّيخ سعادة.

وهذا صنعه في ترجمة الرصَّاع، ودرغوث، والريكلي، وسويـــسي، وفي بعض الأحيان ينصُّ على أنَّه من المقرظين للكتاب المذكور بدون أن يـــذكر التَّقريظ كما في ترجمة أحمد الطرودي[1].

و لم يخرج عن ٱقتضابه في التَّراجم إلاَّ ترجمة سعادة، وكذلك ترجمة أحمد الماكودي الوافد على تونس من المغرب فإنَّه توسَّع في ترجمته بذكر ما كتبه الماكودي لشيخه أحمد بن المبارك السِّجلماسي[2] لما ٱستجازه، وبذكر إجازة ٱبن المبارك المذكور له.

ومن الطَّريف أن نذكر أنَّه ٱلتزم في تراجمه لعلماء الحنفيَّـــة أن يـــصف المترجَم الحنفيّ بأنَّه حنفي، وهو ممَّا يطالب به العدول في تونس إبَّان الحكم التُّركي وما تسلسل منه، فحين ترجم لباكير وصفه بأنَّه حنفيّ، وكـــذلك أرنؤوط، والطرودي وله العذر في ذلك لأنَّه لو لم يوصف مترجمه الحنفـــيّ بذلك، لكان تركه لذلك ذريعة للنَّيل منه عند الباشا.

---

1 أحمد بن مصطفى الطّرودي، ولد ودرس بتونس، وصفه الشَّيخ بيرم الرَّابع في كتابه "التراجم المهمَّة في الخطباء والأئمَّة" بالعالم الفاضل الورع الكامل القاضي الأعدل. توفِّي طعنا في السِّن سنة 1174هـ (عنوان الأريب 502/1).

2 أبو العبَّاس أحمد بن مبارك به عرف ٱبن أحمد بن علي السِّجلماسي البكري الصدِّيقي الفقيه المحدث المفسِّر... خاتمة المحققين. أجازوه كبار علماء عصره (الدَّباغ، الفاسي...) من تأليفه "شرح على جمع الجوامع" توفِّي سنة 1155هـ (شجرة النُّور الزكيَّة 352/1).

وقد دخلت الباشيَّة في تأليفه هذا، فأهمل من له ٱختصاص زائد بـــالأمير حسين بن علي تركي للشنآن بين الأمير المذكور وٱبن أخيه المتغلِّب علـــى الإمارة، فلم يذكر الوزير السرَّاج صاحب "الحلل السندسيَّة" (-1149هـــ) الذي يعدُّ في طالعة أدباء ذلك العصر بتأليفه الحلل وقرضه للشِّعر.

أدبـــه

تعاطى العياضي النَّثر والشِّعر كتعاطي أفراد عصره، لأنَّ العلماء فـــضلا عن الأدباء كانوا يرون أنَّه لا تتمُّ لهم ثقافة إلاَّ إذا كانوا ينظمون الـــشِّعر، ومنهم من كان ذا موهبة فيجيد، ومنهم من حرمها فنظم الشِّعر بتكلُّـــف، ولكن العياضي لم يحرم الموهبة.

أمَّا نثره فهو معروف من التَّراجم التي كتبها في مفاتح النَّصر من ٱلتـــزام السَّجع، بل ٱلتزام سجع على نوع مخصوص، بدون تنوُّع وتفنُّن في الكتابة، كما هو متَّضح من ترجمة الشَّيخ محمَّد سعادة التي ذكرنا أنَّه تـــأنَّق فيهـــا، فكانت كتابتها ممتازة على بقيَّة كتاباته، وهي رغم التأنُّق لم تخـــرج عـــن السَّجع المعهود مثل: "لو رآه لبيد، لقال أنا بالنِّسبة إليه بليـــد"، وكلُّهـــا لا تخرج عن هذا النَّمط.

وبجانب أسلوبه المتقدِّم البادي التكلُّف له نثر، وإن تكلَّف فيه السَّجع إلاَّ أنَّه لم يتكلَّف فيه مثل ما تقدَّم له في ترجمة الشَّيخ سعادة وهو ما ترجم بـــه للشَّيخ عبد الله السُّوسي الذي أغفل ذكر وفاته لأنَّه حين تأليف الكتـــاب كان الشَّيخ السُّوسي حيًّا، وقد أرَّخ الشَّيخ مخلـــوف في "شـــجرة النُّـــور الزكيَّـــة" وفاته بسنة 1169هـــ والصَّواب أنَّ وفـــاته سنة 1179هـــ وهو:

"الشَّيخ عبد الله السُّوسي –رضي الله عنه آمين– هو من العلماء الأعلام، كأنَّما هو ضياء في جبين الإسلام، وبدر علم لا يفارقه التَّمام، جيِّد المعرفـــة بالنَّحو والبيان وبعلم الفقه والكلام، خزانة تحقيق ومعدن تدقيق.

قدم من المغرب إلى تونس وأخذ في القراءة على مشائخ ذلك العصر مثل الشَّيخ الصفَّار ثمَّ ٱرتحل إلى المشرق فعكف على العلم ساهرا، وقطف منه رياحين وأزاهر، ثمَّ رجع إلى إفريقيَّة وٱستوطن القيروان ولازم بها التَّدريس والإقراء، فمكث بها برهة من الزَّمن، فٱنتقل تحت الجناب العليِّ، والفخر الجليِّ مولانا الباشا عليّ، (فأغمره) من بحر إحسانه الزَّاخر، وصار معدودا من العلماء الأكابر.

وقد أثبت من شعره ما يدلُّك على قدره".

وهذه التَّرجمة تبدو خلاصة لحياة الشَّيخ السُّوسي، تحتوي على أمور عامَّة من حياته، وهي ٱنتقاله من المغرب إلى تونس، وقراءته في الشَّرق، ثمَّ رجوعه إلى تونس، وشموله برعاية علي باشا، وهي كما ترى خلاصة غير مدقَّقة بذكر تواريخ ما حكاه عنه من ٱنتقال وقراءة وٱستيطان، وذكر شيوخ، فهي أشبه بما يتحدَّث به المتحدِّثون في أحاديثهم العاديَّة.

وهذا شأنه في تراجمه، وفي بعضها أوجز غاية الإيجاز، وأنت تراه في هذه التَّرجمة كما أخلاها من التَّدقيق أخلاها من إعطاء نظرة نقديَّة تعرِّف بأدبه، وقصارى ما أتى به تعريفا لأدبه أنَّه قال: "وأثبت من شعره ما يدلُّ على قدره"، وبهذا يتحقَّق لدى الباحث ما أسلفناه من أنَّها كالعجالة.

وإذا رجعنا إلى ما ٱقتطفه من شعر السُّوسي نجده لا يتجاوز قطعتين، وبالطَّبع إنَّ قطعتين من الشِّعر لا تعرِّفان بقدر الرَّجل، ولا تمكِّنان الباحث النَّاقد من إبداء رأيه في قيمة الأديب.

فهناك إجحاف فيما يكون به التَّقدير، وشحٌّ بالنَّقل، ولا ندري أنَّ ذلك ناشئ من رغبة الاختصار بأنَّه أرادها أن تكون أوراقا كما جاء في طالعة كتابه: "وأقول كنت شرعت في هذه الأوراق في شهر شوَّال..."، أو ذلك منتهى ما وقف عليه.

وأمَّا شعره فالمحفوظ منه قليل ذكر منه في كتابه المذكور شيئا، من ذلك قصيدته التي مدح بها الباشا عليًّا، وهي من عيون شعره، فإنَّه بعد أن ذكر

ترجمة الباشا علي على طريقته المتقدِّمة ونوَّه غاية التَّنويه بشرحه للتَّسهيل ذلك الكتاب المعدود من أمَّهات كتب النَّحو لابن مالك، ذكر أنَّه مدح الأمير المذكور بقصيدة، وممَّا يقول فيها تغزُّلا وتشبيبا[1]:

زارتك تخطر كالقضيب قواما خود تزيد إلى المحب غراما
حوراء لو أهدت إلى البدر الضيا عند التَّمام لما ٱختشى إلا ظلاما
أهدت لعاشقها السّقام لأنَّها ملأت لواحظها المراض مقاما
(خطرت تجرُّ ذيولها فكأنَّها كالرَّوض أهدى زهره البسَّاما)
كالبدر وجها واللآلي مبسما والظَّبي لحظا والقضيب قواما

ويتخلَّص فيها إلى المدح تخلُّصا لطيفا:

وسهرت ليلى والنُّجوم كأنَّها درر عدمن من النُّحور نظاما
ورأيت وجه الصُّبح لاح فخلته الـ باشا أبا الحسن العلي مقاما

إنَّ هذه القصيدة من الشِّعر الرَّقيق الدَّالِّ على أنَّ في العياضي شاعريَّة رقيقة، قد خلت من تلك الكزازة اللفظيَّة أو المعنويَّة الموجودة عند غيره، فشعره رقيق منسجم في عذوبة ألفاظ محمودة بالنِّسبة لتلك الفترة، ففي شعره كان أمتن من نثره البادي التكلُّف.

ومن بديع هذه القصيدة تخلّصه لمدح الباشا بعد غزله المستغرق لجزء من القصيدة على عادة المتقدِّمين التي انتقدها أبو الطيِّب في قوله:

إذا كان مدح فالنَّسيب المقدّم أكلّ فصيح قال شعرا متيَّم

فقد تخلَّص من هذا الغزل المصدّر به القصيدة إلى مدح الباشا المقصود منها، إذ ذكر سهره وسهده عشقا وصبابة والحال أنَّ النُّجوم كالدُّرر المنثورة، فأعقب ذلك بطلوع الصُّبح بعد ذلك اللَّيل السَّاهر فخاله وجه الباشا، وٱستمرَّ بعد ذلك في مدحه.

---

1 عنوان الأريب 519/1.

وحسن التَّخلُّص معدود من المقامات الثَّلاثة التي ينبغي للمتكلِّم أن يتأنَّق فيها، وهي الابتداء، والتخلُّص، والانتهاء، كما هو مبسوط عند علماء البلاغة.

فأراد في هذا الموطن الذي يتأنَّق فيه البلاغيُّون غاية التأنُّق أن يكون له تأنُّق كما هو مطلوب، وقد كان موفَّقا فيه رغم التَّقليد الذي كان شعارا للأدباء في تلك الفترة.

وهي لا تسلم من النَّقد كما في البيت الرَّابع حيث جمع بين أداتي تشبيه على شيء واحد، فلو قال عوض ذلك البيت:

خطرت تجر ذيولها فكأنَّها   روض يقدم زهره البسَّاما

لسلم من ذلك.

كما أنَّ القصيدة المذكورة التي مدح بها الباشا عليّا منقودة من حيث العربيَّة في بعض أبياتها، هي منقودة من جهة أنَّ فيها بيتا ذكر بعضهم أنَّه أغار فيه على غيره معنى ولفظا، وهو يقول:

لم تدر راحته المخيم فخرها   إلاَّ النَّدى والسَّيف والأقلام

وناقده الكاتب محمود البويوسفي التميمي ذكر أنَّ "قوله إلاَّ النَّدى مأخوذ برمَّته من قول ابن اللبَّانة لَمَّا رأى ابن المعتمد ماكثا في دكَّان صبَّاغ قال في ذلك قصيدة إلى أن بلغ فيها قوله:

وغيرت جلسة الصبَّاغ أنمله   لم تدر إلا النَّدى والسَّيف والقلما"

ويمكن دفع ما ذكره التَّميمي نقدا على العياضي، ونسبة للسَّرقة له بأنَّ العياضي قصد الاقتباس.

ولنا بعد ذلك أن نزيد في الدِّفاع عنه أنَّ السَّرقات الشعريَّة منها ما هو سرقة محضة وانتحال، ومنها ما هو بتصرُّف وتفنُّن وخروج به إلى معنى أسمى من المعنى الأول، وهذا ما صنعه العياضي حيث أبرز البيت في ثوب أحسن من ثوبه الأول، وإن كان تصرُّفه فيه قليلا، وتتبيَّن قيمة البيت إذا نظرنا إليه مع البيت قبله، فإنَّه معه يصيران في غاية القبول، وهما:

جمع النَّدى والحلم والإغضاء عن ذنب الجني والعفو والإكراما
لم تدر راحته المخيم فخرها إلاَّ النَّدى والسَّيف والأقلاما

ثمَّ إنَّ ما وقع فيه العياضي هو سنن لفحول الشُّعراء مسلوك فهذا المتنبِّي على جلالة قدره يقول مغيّرا على أبي تمَّام كما هو معروف مشهور:

أعدى الزَّمان سخاؤه فسخا به ولقد يكون به الزَّمان بخيلا

وقول أبي تمَّام هو:

هيهات لا يأتي الزَّمان بمثله إنَّ الزَّمان بمثله لبخيل

وإن سلم للعياضي بيته الذي نقده التَّميمي لم يسلم له البيت الذي قبله حيث ٱستعمل الجني بمعنى الجاني.

وكما له هذه الغارة على ٱبن اللبَّانة كذلك له إغارة أخرى بلباقة وتخلُّص، وهي ما ذكره أوَّل ترجمة أبناء الباشا علي: "هم كما قيل:

للمجد كالأثافي وما منهم إلا موفور
القوادم والخوافي أنارت لهم نجوم المعالي
وشموسها ودانت لهم أرواحها ونفوسها"

فهذا بعينه مأخوذ من كلام الفتح بن خاقان في "قلائد العقيان"[1] في ترجمة الوزراء بني القبطرنيَّة من أهل بطليوس ونصّه: "هم للمجد كالأثافي، وما منهم إلا موفور القوادم والخوافي، إن ظهروا زهروا، وإن تجمَّعوا تضوَّعوا، وإن نطقوا صدقوا، ماؤهم صفو، وكلٌّ واحد منهم لصاحبه كفو، أنارت بهم نجوم المعالي وشموسها، ودانت لهم أرواحها ونفوسها".

والعياضي تخلُّصا من تهمة السَّرقة قال: "كما قيل"، بهذا كان أمينا ينسب الفضل لذويه وترجمته لأبناء الباشا الثَّلاثة إن ٱنتزعت منها فقر الفتح أصبحت كالخاوية.

---

1 قلائد العقيان ص 355.

والمتتبِّع لكلامه ربَّما يعثر على غير ما ذكرت فإنَّه متشبِّع بالأدب الأندلسيِّ ومفتون به.

صلته بالباشا

ضاع الكثير من أخبار أدبائنا التونسيِّين لأسباب من أهمِّها عدم العناية بتدوين التَّراجم، وهذا داء قديم فينا حتَّى أصبحنا نأخذ تراجم التونسيِّين إمَّا من المشارقة، أو غيرهم، ويدخل هذا في الأسباب العامَّة، وهناك سبب جعله في مطاوي النِّسيان، وهو ٱنتسابه إلى الباشا علي الذي كان يمثِّل نزعته الباشيَّة المناوئة للحسينيَّة، فلمَّا تغلَّب على الباشا أبناء عمِّه، وظهر بسببهما شيعتهما، أصبحت الشِّيعة الباشيَّة تتوارى خشية من أن ينالهم التتبُّع، وليس الأمر مقصورا عليه، فمثله كثير، ومنهم عبد القادر السَّلوي صاحب "الكوكب الثَّاقب"، الذي هو حريٌّ بالتَّعريف.

ومع هذا النِّسيان حاولت أن أجمع له ما يعرِّف بعض التَّعريف في الكلمات السَّالفة ٱعتمادا على ما أفاده كتابه "مفاتح النَّصر".

ولكن المدَّة التي بعد تأليفه الكتاب غير معروفة إلاَّ في صورة نزرة غامضة بسبب تلك الصِّلة.

وأدخل على حياته الغموض زيادة على الصِّلة الباشيَّة علَّته التي أشار إليها في أوَّل كتابه، فقد جعلته قليل الآثار غير معروف الأخبار إلاَّ بقلَّة، وهي العلَّة التي ألَّمت به في شبابه مع فقدان أسباب الإنتاج المتوفِّرة لدى العصر الحاضر، فربَّما كان لها التَّأثير البالغ، إذ لولاها لكانت مساهمته الأدبيَّة مساهمة ملحوظة تدعو إلى عدم الاستغناء عنه كالورغي، فشعره على قلَّته لا يقصيه عن حظيرة الأدباء، وإنَّما تعاطيه للشِّعر –حسبما يبدو– كان تعاطيا في نطاق محدود ومع كون النِّطاق محدودا لم يكن له فيه إلاَّ القليل، فالباشا الذي ينتسب إليه، وألَّف له كتاب "مفاتح النَّصر" لم يذكر من مدائحه إلاَّ

قليل القليل، والمظنون أنَّه لو كان من المكثرين في مدحه لطفح كتابه بمدائحه كما هو شأن غيره.

ومن الحرص أنَّ الكتاب لم يقدِّم للباشا لأنَّه لم يتمَّه بعد رجوعه إلى تأليفه عقب العلَّة التي أصيب بها، والحائلة بينه، وبين إتمام تأليفه، وكيف يمكن أن يقدِّم للباشا المعروف بالعلم والشدَّة كتابا غير تامٍّ، ومن المحقَّق أنَّ صلته بالباشا أفادته إفادة في حياته، إذ نال رتبة الكتابة بالوزارة التونسيَّة، وهي من أسمى الوظائف الحكوميَّة وقتئذ، واستفدت أنَّه تولَّى الكتابة المذكورة من مدح الغراب له بأبيات لمَّا تولَّى الوظيفة بالوزارة وهي[1]:

[الكامل]

يا من لرتبته الثَّوابت في العلا	حارت ومن نظر العجيب يحار
ومن امتطى بعلاه كاهل دهره	وإليه في كلِّ الفنون يشار
من كلِّ معقول الفنون له ومن	منقولها أضحى عليها شعار
أما البلاغة في الكلام فإنَّه	يروي عليه ربيعة ونزار
أنست بك العليا وإن أضحى لها	بعد على من رامها ونفار
بك قد تشرَّفت الكتابة لا بها	متشرِّف ولها بذاك فخار
فاخترت أشرف رتبة منها فهل	يرضى بغير الأشرف (المختار)

وتهنئة الغراب له بوظيفة الكتابة تنبئ على أنَّ مكانة العياضي في دولة الباشا مكينة جعلت مثل الغراب ينوِّه به ذلك التَّنويه، ويجعله من المشار إليهم في كلِّ الفنون، وبالأخصِّ في البلاغة في الكلام حتَّى روى عنه ربيعة ونزار، وبالطَّبع إنَّ من ينال هذه المترلة في أيَّام الباشا يكون خامل الذِّكر مقصيا في دولة المتغلِّب على الباشا وهو محمَّد الرَّشيد.

1 ديوان الغراب ص 145.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وسلم

صورة 2 : الورقة الأولى والثانية من مخطوط الكوكب ال في أخبار الشعراء

وغيرهم من ذوي المناقب لعبد القادر السلوي

عبد القادر السلوي

من رجال القرن الثَّاني عشر أندلسيُّ الأصل، فاسيُّ المنشأ، تونسيُّ الدَّار، أعقب بتونس ذريَّة ٱشتهرت بٱسم عائلة ٱبن غشَّام نسبة لعائلة زوجه، وهي عائلة الحاج أحمد بن غشَّام الطَّرابلسي.

وترجمته مجهولة وقصارى ما وقع الوقوف عليه ما نورده، فقد جاء في الجزء الثَّامن من تاريخ الوزير الشَّيخ أحمد بن أبي الضياف[1] في ترجمة حفيده وسميِّه الشَّيخ عبد القادر المشهور بٱبن غشَّام أنَّ الشَّيخ عبد القادر الجدُّ أصله من سلا، قدم الحاضرة وتنقَّل في الخطط العلميَّة من عدالة، وإمامة، وتولَّى خطَّة القضاء في بترزت.

وخطُّه معروف في الكتب، وله تأليف في الأدب سمَّاه "الكوكب الثَّاقب في الأخبار والمناقب".

هذا هو المعروف عنه، وهو لا يشفي الغليل مع عدم التحرِّي، إذ أنَّه فاسيُّ المنشأ كما نصَّ هو نفسه على ذلك في "الكوكب الثَّاقب" ونصُّه ما جاء في "الكوكب الثاقب"[2]، "وبعد فيقول العبد الفقير إلى عفو مولاه الغنيِّ الحليم الحميد الغفَّار عبد القادر بن عبد الرَّحمان المدعو السلوي، الأندلسي الأصل، الفاسي المنشأ، التُّونسي الدَّار، أوزعه الله شكر ما أولاه".

فهو كما ترى يجعل السلوي نسبة له، فلعلَّ أصل عائلته من سلا، أمَّا نشأته فهي فاس، فٱغتر الشَّيخ ٱبن أبي الضياف بنسبته إلى السلوي فقال "وأصل جدِّه من سلا فقدم الحاضرة" فلو أنَّ الشَّيخ ٱبن أبي الضياف ٱطَّلع على "الكوكب الثَّاقب" لما قال وأصل جدِّه من سلا، بل يقول وأصل جدِّه من فاس.

---

1 الإتحاف 130/8.

2 الكوكب الثَّاقب (مخطوط 2و).

كما أنَّ الشَّيخ آبن أبي الضياف لم يذكر من تأليفه إلاّ كتابا واحدا مع أنّه له تآليف أخرى كما سيأتي ذكره.

وفاته

لم تعرف وفاته بالضَّبط، والمظنون أنَّها أواخر القرن الثَّاني عشر إذ قد آنتهى من تأليفه "الكوكب الثَّاقب" سنة 1176هـ كما في النُّسخة التي بخطِّه.

والظَّاهر أنَّ وفاته لا تعدو القرن الثَّاني عشر الهجري بل عشر الثَّمانين لأنَّه ألَّف كتابه السَّابق وهو في سنِّ الشَّيخوخة إذ يقول فيه "ولَّما أن ولَّى عصر الشباب، ومرَّ من العمر ما احلولى وطاب، وأذنت بالرَّحيل أيَّام اللَّهو والتَّصابي، وجاء النَّذير، وذهب العيش النَّضير.

فصرت الآن محنيا كأنِّي أفتِّش في التُّراب عن شبابي"، إلاَّ أن يكون في المعمِّرين.

حظه وعلمه

رغم مكانة السلوي العلميَّة لم يكن محظوظا حتَّى بعض الحظِّ، فلم يذكره المؤرِّخون التُّونسيُّون إلاَّ ما تقدَّم رغم آنتفاع بعضهم بشيء من آثاره، وهو وإن كان قليلا فهو مصدر من المصادر، فترجمة آبن شرف القيرواني والنَّبذة المنقولة فيها التي طالعها:

يا حاملي الأدب الغر البها ليلا   حيِّيتما حاملي فضل ومحمولا

مأخوذة من كتابه "الكوكب الثَّاقب"، ولعلَّ العذر في إغفاله أنَّ ترجمته غير معروفة، فهو مغمور حيًّا وميِّتا.

فمن الوفاء للأدب إبراز قيمته الأدبيَّة ذات الطَّابع الخاصِّ كما سيأتي إن شاء الله.

ومن الطَّريف أن نذكر أنَّ هذا الرَّجل المغمور وقع في كتابه الذي ليس بخطِّه تحريف في قطعة ٱبن شرف[1] لم يهتد إلى وجه صوابها، وهذا التَّحريف في صدر القطعة فصوب الصدر:

يا حامل الأدب الغضَّ البهيَّ لنا

والتَّحريف الواقع في هذا الصَّدر هو أنَّ الكاتب لبعض النُّسخ كتب (البها ليلا) محرِّفة على هذه الصُّورة (البهي ليلا)، وبالوقوف على خطِّ المؤلِّف أمكن لنا تصويبها على الوجه الصَّحيح ولنا في ذلك عودة.

وقد وقفت على هذه القصيدة التي لابن شرف كاملة مع أبياتها التي عقد معانيها في قصيدته بخطِّ صاحب التَّرجمة، وسننشرها عن قريب مع تحقيق.

وهو من علماء دولة الباشا علي، ومع ذلك لم يذكره العياضي في "مفاتح النَّصر"، ونستنتج من هذا أنَّ السلوي لم يكن بتونس في المدَّة التي ألَّف فيها العياضي كتابه لأنَّه ألَّفه كما قدَّمنا سنة 1153هـ وما قاربها، والسلوي ٱتَّصل بالباشا فيما بعد ذلك ومن القريب أنَّ السلوي لم يتَّصل بالباشا إلاَّ في آخر أيَّامه ٱعتمادا على ما جاء في تلخيصه لحاشية "مطالع السُّعود" للشَّيخ زيتونة[2]، فإنَّه ذكر أنَّ الباشا أشار عليه بتلخيص الحاشية المذكورة وكان فراغه من أحد الأجزاء سنة 1168هـ.

ومن الأسباب التي قضت عليه بالنِّسيان ٱتِّصاله بالباشا كما كان ذلك سببا للقضاء على كلِّ المتَّصلين به من علماء وأدباء حيث ٱنقبعوا في كسر بيوتهم خوفا من ملاحقتهم بالتتبُّع والعقاب وضنًّا بحياتهم، وحتَّى ينساهم الوشاة.

---

1 محمَّد بن سعيد بن أحمد بن شرف القيرواني، الجاذمي (أبو عبد الله). أديب، ناظم، ناثر، من ندماء المعزِّ بن باديس. من آثاره "أبكار الأفكار في الأدب المنظوم والمنثور" وديوان شعر. تنقَّل وتوفِّي بالأندلس سنة 460هـ/1068م. (معجم المؤلفين 25/10).

2 أبو عبد الله محمَّد زيتونة، شاعر وأديب، تصدَّر لبثِّ العلم في تونس، تولَّى مشيخة المدرسة المراديَّة بعد مناظرة علماء عصره. من تآليفه أيضا "حاشية الوسطى" و"شروح على الألفية". توفِّي سنة 1138هـ (عنوان الأريب 485/1-486).

والمظنون أنَّه لم ينتفع من الباشا إلاَّ بولاية قضاء بنزرت، والقضاء وإن كان من الخطط الرَّفيعة إلاَّ أنَّ مكانة السلوي تدعو إلى الانتفاع به في العاصمة التُّونسيَّة في التَّدريس والمذاكرة لأنَّ القضاء يصرف الوجهة عن التَّعليم إلى الأحكام المحصورة في تلك النِّزاعات المتكرِّرة بصورة مألوفة في دائرة ضيِّقة، وهي ناحية يمكن أن يقوم بها غيره، بخلاف النَّاحية الأدبيَّة الممتازة التي لا يمكن أن يسدَّ مسدَّه غيره فلو انصرف إليها لكانت الاستفادة منه عظيمة.

وإن كنَّا نجهل الكثير عن تعلُّمه في المغرب وحياته في تونس فإنَّنا نستطيع أن نقف على جوانب منها، وبالأخصِّ وجهته العلميَّة ومجهوده الذي صرفه من أجلها.

ووجهته هذه كانت فريدة في عصره، حيث انصرف إلى الأدب العالي مع أنَّ غيره كانت لهم وجهة خاصَّة تميل إلى الفقه طلبا لخطَّة القضاء حيث إنَّها المنفذ الوحيد للحياة المترفِّهة، وبجانبها العدالة، وبدون التفقُّه لا يمكن الوصول إليهما، وإن مالت الوجهة إلى الأدب في تلك الفترة، فإنَّه ميلان لغاية خاصَّة، وهي الكتابة في الدَّولة التُّونسيَّة، والطَّريق المسلوكة في ذلك الوقت لتحصيل ملكة الكتابة تدور في محيط خاصٍّ، وهو المخلَّفات الأندلسيَّة في آثار ابن الخطيب، وبالأخصِّ "ريحانة الكتَّاب"، وبجانب ذلك "قلائد العقيان"، فالانصراف كلُّه إلى هذا، أمَّا غيره فهو نسيٌّ منسيٌّ.

والسلوي لم يلتزم هذه الطَّريقة المسلوكة من أبناء عصره في انحصار الدَّائرة الأدبيَّة في ذلك النِّطاق الضيِّق، بل كان أفقه الأدبي أوسع الآفاق الأدبيَّة، فولَّى نظره إلى "الأغاني" وانكبَّ عليها دراسة، وبرزت آثار ذلك في كتاب: "الكوكب الثَّاقب" فانتقى من الأغاني ما دلَّ على اطِّلاع واسع وحسن انتقاء، وعلى غوص وتفهُّم للأدب العربيِّ العالي، مع النَّظر الثَّاقب والعرض المقبول.

ولم تقف همَّته الأدبيَّة على كتاب "الأغاني" الذي يمثِّل في الأدب العربي جانبا خاصًّا يقرب بعض القرب من تاريخ أدب اللُّغة، إذ تجاوزت ذلك إلى غيره من أصول الأدب، فكانت له جولة دراسيَّة في "كامل المبرِّد"[1] و"ٱختصار العمدة"[2] وغير ذلك.

وبجانب ذلك له ٱطِّلاع وتحبير في الأدب الأندلسيِّ ممَّا فاق الكثير من أدباء عصره.

مؤلفاته

الكوكب الثَّاقب

للمترجَم مؤلَّفات توزَّعتها الشَّريعة والأدب ومن مؤلَّفاته في الأدب كتاب مشهور ومغمور، مشهور لوجوده في المكتبات، ورغم قصر المدَّة بين عصر المترجَم وعصرنا فإنَّ منه نسخا متعدِّدة في المكاتب، ومن بينها النُّسخة التي بخطِّ المؤلِّف، فهي الآن موجودة عند بعض حفدته، وقد أوقفني عليها -جازاه الله خيرًا- ومغمور حيث لم يعرَّف به التَّعريف الكافي، فرغم أنِّي أعرف بعض المستفيدين منه، ومع ذلك كأنَّهم يتحاشون أن ينسبوا له ما ٱستفيد منه.

ولإزالة هذا الوصف من المغمر نعرِّف بهذا الكتاب علَّه يأخذ طريقه إلى النُّور بالنَّشر، وإن لم يكتب له النَّشر، ففي التَّعريف به إشادة ما.

وٱسم هذا الكتاب كما جاء في خطبته: "الكوكب الثَّاقب في أخبار الشُّعراء وغيرهم من ذوي المناقب"، وهو ٱسمه الصَّحيح، وكان الشَّيخ ٱبن أبي الضياف لم يطَّلع عليه حيث سمَّاه "الكوكب الثَّاقب في الأخبار والمناقب" كما تقدَّم.

---

1 محمَّد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العبَّاس، المعروف بالمبرِّد. إمام العربية ببغداد في زمنه. من مؤلَّفاته "الكامل" و"شرح لاميَّة العرب". توفِّي سنة 286هـ/899م. (الأعلام 15/8).

2 صاحب "العمدة" في صناعة الشِّعر ونقده هو أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني.

وٱقتدى في عناوين كتابه بصاحب كتاب "غُرر الخصائص الواضحة وغرر النقائص الفاضحة"، وهو محمَّد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي المعروف بالوطواط[1] (-718هـ) وهذا هو الصَّواب في ٱسم صاحب "الغرر" لا كما جاء في طالعة الكتاب فإنَّه غلط حسبما حقَّقته.

فصاحب "الغرر" يذكر من عناوينه مثل "الباب الأوَّل في وصف الأخلاق الحسان، المتخلِّقة بها نفوس الأعيان، ومثل عيون مكارم الأخلاق، الدَّالة على طيب الأعراق، وجوامع ممادح الأخلاق والشِّيم، المتحلِّية بها ذوو الأصالة والكرم"، إذ ترى السلوي يعنون بما هو قريب من هذه العناوين، ويؤيِّد أنَّه متأثِّر بالوطواط أنِّي وقفت على نسخة من "ٱختصار الغرر" وظنِّي القريب أنَّها بخطِّ السلوي وهي نسخة فريدة.

ورتَّب السلوي هذا الكتاب على مقدِّمة وعشرة أبواب وخاتمة، فالمقدِّمة (في شرح ماهيَّة الأدب وٱنقسامه إلى غريزيٍّ ومكتسب).

والباب الأوَّل (في طبقات الشُّعراء، وما جاء في تعلُّم الشِّعر وتعليمه عن السَّادة الكبراء).

والباب الثَّاني (في ذكر نبذة من أشعارهم وما يحسن من أخبارهم).

والباب الثَّالث (في الحرب وتدبيرها، وما ينبغي من الحزم لمن يباشرها من مقدَّمها وأميرها).

والباب الرَّابع (في الشَّجاعة والجبن وآلات القتال، وما للشُّعراء في ذلك من بديع المقال).

والباب الخامس (في الجود والسَّخاء والإيثار، وما يؤثر في ذلك من عجيب الحكايات وغريب الآثار).

والباب السَّادس (في الشحِّ والبخل، وما ينبغي من تجنُّبهما لأهل الفضل).

---

1 محمَّد بن إبراهيم بن يحيى بن علي الأنصاري الكتبي، جمال الدِّين، المعروف بالوطواط. أديب مترسل من العلماء. صناعته الوراقة وبيع الكتب. من مؤلَّفاته "غرر الخصائص الواضحة" ومناهج الفكر ومباهج العبر". (الأعلام 187/6).

والباب السَّابع (في السَّفه والحلم، وما قيل من أنَّ أحقَّ النَّـــاس بـــالحلم الولاة وأولو العلم).

والباب الثَّامن (في ذكر ملوك بني أميَّة وٱبتداء دولتهم).

والباب التَّاسع (في ذكر الخلفاء من بني العبَّاس إلى منتهى دولتهم).

والباب العاشر (في نوادر من الأخبار حفظت عن الجاهليَّـــة وغيرهـــم ونقلها الأئمَّة الأخيار).

والخاتمة (في مواعظ ورقائق من كلام أهل الحقائق).

وأهمُّ أبواب هذا الكتاب هو الباب الثَّاني الذي ضمَّنه من التَّراجم مـــا عدده 129، وبلغت صفحاته مائتين وٱثنتين وأربعين صفحة ومجموع عـــدد صفحات الكتاب 566، فهذا الباب قرابة النِّصف وتراجمه كلُّها مختارة منتقاة تأنَّق فيها، وضمَّنها العديد من شعراء المشرق والمغرب فمنها ترجمة النَّابغة[1] والحطيئة[2] والفرزدق[3] وجرير[4] والأخطل[5] والكميت وبشَّار[6] وأبي العتاهية[7]

---

1 زياد بن معاوية بن ضباب الذُّبياني الغطفاني المضري، أبو أمامة. شاعر جاهلي من الطَّبقة الأولى، من أهل الحجاز. له ديوان. توفِّي سنة 18ق هـ/604م. (الأعلام 92/3).

2 جرول بن أوس بن مالك العبسي، أبو مليكة. شاعر مخضرم أدرك الجاهليَّة والإسلام، كان هجَّاءًا عنيفا. له ديوان شعر. توفِّي نحو سنة 45هـ/665م. (الأعلام 110/2).

3 همَّام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي، أبو فارس، الشَّهير بالفرزدق. شاعر، من النُّبلاء، كان يقال "لولا شعر الفرزدق لذهب ثالث لغة العرب" ويشبَّه بزهير بن أبي سلمى. له ديوان. توفِّي سنة 110هـ/728م. (الأعلام 96/9).

4 جرير بن عطيَّة بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم. أشعر أهل عصره، كان هجَّاءًا مرًّا، له ديوان شعر. توفِّي سنة 110هـ/728م. (الأعلام 111/2).

5 غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة بن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك. شاعر، مصقول الألفاظ، في شعره إبداع. كان شاعر الأمويين وتهاجر مع جرير والفرزدق، له ديوان شعر. توفِّي سنة 90هـ/708م. (الأعلام 318/5).

6 بشَّار بن برد العُقيلي، أبو معاذ. أشعر المولودين على الإطلاق وشعره من الطَّبقة الأولى، له ديوان. توفِّي سنة 167هـ/784م. (الأعلام 24/2).

7 إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي بالولاء (من قبيلة عنزة)أبو إسحاق الشَّهير بأبي العتاهية. شاعر مكثر، من طبقة بشَّار وأبي نواس. له ديوان شعر. توفِّي سنة 211هـ/826م. (الأعلام 319/1).

وأبي نوَّاس وبقيَّة الفحول، وترجمة الزَّبيدي الأندلسي، وآبن رشيق القيرواني وآبن شرف القيرواني وآبن زيدون وآبن باجة، والكلاعي صاحب السِّيرة و المفسِّر البجائي ومالك بن المرحل وآبن رشيق السَّبتي.

ومع تراجمهم أورد محاسن أشعارهم، وما همُّ روايته وألمَّ بذكر وفاة الكثير منهم خلافا لعادة المنتقين للأشعار فإنَّهم يكتفون في الأديب بذكر شعره وتقدمة صغيرة تعرِّف بأدبه.

وقد جعل هذا الباب كالتتمَّة لكتاب "الشُّعراء السِّتَّة" الذي ألَّفه يوسف بن سليمان المعروف بالأعلم الشَّنتمري الأندلسي[1] (-476هـ)، والصَّحيح أنَّ هذا الجمع للأعلم الشَّنتمري وإن كان الأستاذ المرحوم عبد المتعال الصَّعيدي تردَّد في نسبته إليه.

من مميِّزات هذا الكتاب الطَّريفة أنَّه جعله للتَّأديب اللِّساني والنَّفسي معا، وخصَّ التَّأديب اللِّساني بأوَّل الكتاب حيث تكلَّم على طبقات الشُّعراء وعلى تراجمهم ونتف من أشعارهم وثنَّى بالتَّثقيف النَّفسي حيث عقد له بقيَّة أبواب الكتاب.

وإلى هذا المعنى -وإن لم يفصح عنه غاية الإفصاح-

أشار في مقدِّمة الكتاب وهو بذلك يحقِّق ما أشار إليه أبو تمَّام[2] في بيته المشهور:

ولولا خلال سنَّها الشِّعر ما درى   بغاة النَّدى من أين تؤتى المكارم

ولله درَّ السلوي حيث أبدل في هذا العجز : بالنَّدى العلى

---

1 يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي، أبو الحجاج المعروف بالأعلم. عالم بالآداب واللُّغة، من كتبه "شرح الشعراء السِّتة" و"شرح ديوان زهير أبي سلمى" و"شرح ديوان الحماسة" (هناك نسخة في الخزانة الأحمديَّة) توفِّي سنة 513هـ. (الأعلام 308/9).

2 حبيب آبن أوس بن الحارث الطَّائي أبو تمَّام. شاعر، أديب، أحد أمراء البيان، من تصانيفه "فحول الشُّعراء" و"ديوان الحماسة". توفِّي سنة 231هـ/846م. (الأعلام 170/2).

قيمة "الكوكب الثّاقب" لا في كونه من مصادر الأدب التُّونسي الخاصِّ وإنَّما قيمته في كونه أثرًا تونسيًّا جامعا لمختارات في الأدب الإسلامي مـــع تراجم واسعة لأكبر عدد من الشُّعراء والكتَّاب في اللُّغة العربيَّة طيلة ثمانيـــة قرون في العصور الإسلاميَّة، وهو من هذه النَّاحية حريٌّ بأن ينشر.

وأعطاه هذه القيمة أنَّه ٱعتمد على مصادر متعدِّدة بين مشرقيَّة ومغربيَّـــة كانت في عصر المترجَم عزيزة غير معروفة، وإن عرفت فهي غير ملتفـــت إليها لأنَّها قناطر ضخمة تشقُّ مطالعتها مطالعة عابرة فضلا عـــن مطالعـــة فاحص منتق، وبعضها اليوم لا يزال غير معروف.

وهذه المصادر نتبيَّن من خلالها أنَّ كتب الثَّقافة الأندلسيَّة مؤثِّرة عليـــه حيث ٱعتمد المصادر الشرقيَّة التي كانت منتشرة بالأنـــدلس، وبـــالأخصِّ "الكامل" للمبرِّد.

وكذلك ٱعتمد بجانب هذا المصدر الـــشَّرقيِّ في تأليفـــه الأندلـــسي في ٱنتشاره مصادر أندلسيَّة منها ما هو معروف ومنها ما هو غـــير معـــروف، وينضاف لها مصدر تاريخيٌّ مشرقيٌّ لم يعرف في الأندلس، وإنَّما عـــرف في تونس، وبعض المصادر المغربيَّة.

فمن مصادره المشرقيَّة "الكامل" لأبي العبَّاس المبرّد (-285هـــ) وهـــي كما هو معروف أنَّ ٱنتشاره بالأندلس لم يبلغه ٱنتشاره بالمشرق لأنَّ علماء الأندلس ٱعتنوا به أيَّما ٱعتناء، حتَّى أنَّ أصحَّ النُّسخ المطبوعة اليوم مأخوذة على نسخة أندلسيَّة من القرن السَّادس الهجري.

ومن المصادر الشرقيَّة "الأغاني" لأبي الفرج الأصفهاني (-356هـــ) وهو الكتاب الذي قبل طبعه لا توجد منه نسخةٌ كاملةٌ في كثير مـــن الأقطـــار، وبالطَّبع إنَّ ذلك ينبئ عن قلَّة العناية بالكتاب، فدراسة المترجَم لـــه تبـــيِّن ٱتِّساع أفقه الأدبيِّ في عصره وبين أقرانه.

و"خاص الخاص" لأبي منصور الثعالبي (-430هـ) وهو كتاب معروف من المطبوعات التونسيَّة سنة 1293هـ.

و"الوافي بالوفيات" للصَّفدي (-764هـ) وهو ذلك المعجم الذي لا يزال إلى اليوم لم ير النُّور بتمامه إذ طبعت منه أجزاء هي بسبب ندورها كالمخطوطة.

ومصادره المغربيَّة هي ذات القيمة، حيث إنَّ البعض منها لم يعرف إلاَّ متأخِّرا، والبعض الآخر لا يزال غير معروف وهي:

"بهجة المَجالس – بفتح الميم – ونزهة المُجالس بضمِّ الميم"، وهو كتاب نفيس لابن عبد البرِّ يوسف بن عبد الله النِّمري القرطبي[1] (-463هـ)، وقد رأيت في بعض المجلاَّت أنَّه طبع.

و"سراج الملوك" للطرطوشي[2] (-520هـ) وهو كتاب مشهور.

و"الوافي في نظم القوافي" لصالح بن شريف الرَّندي، وقد وقفت على نسخة بخطِّ المترجَم، وٱستنسخت منها نسخة ضاعت منِّي فكانت حسرتي عظيمة خصوصا بعد طلبي من صاحب النُّسخة المنتسَخ منها أن يعيرنيها مرَّة أخرى فذكر أنَّه ضاعت منه كذلك، لكن وقفت في فهرس الخزانة العامَّة بالرِّباط أنَّ منه نسخة برقم 1766، وهو كتاب حريٌّ بالطَّبع ٱختصر فيه مؤلِّفه عمدة ٱبن رشيق[3] مع إضافات، ولم يذكر هذا الكتاب صاحب "كشف الظنون"، ولا مذيِّله.

---

1 يوسف بن عبد الله بن محمَّد بن عبد البرّ النمري القرطبي المالكي، أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ أديب، بحَّاثة، يقال له حافظ المغرب. من كتبه "الدُّرر في اختصار المغازي والسير" "العقل والعقلاء" و"بهجة المجالس وأنس المجالس" (الأعلام 316/9).

2 محمَّد بن الوليد بن محمَّد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي، أبو بكر الطُّرطوشي ويقال له ٱبن أبي زندقة. أديب من فقهاء المالكية. الحفاظ من أهل طرطوشة(tortosa). من كتبه "سراج الملوك" و"التعليقة" (الأعلام 359/7).

3 الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني، أبو علي. أديب ناقد، باحث. من تصانيفه " العمدة في صناعة الشِّعر ونقده" "قراضة الذَّهب" "الشُّذوذ في اللُّغة" و"ديوان شعره". توفِّي بمازر(Mazzara) سنة 463هـ/1071م. (الأعلام 204/2).

"وريُّ الأوام ومرعى السوام في نكت الخواصِّ والعوامِّ"، لأبي يحيى عبيد الله بن يحيى الزجَّالي الأندلسي، ولم أر من ذكر هذا الكتاب غيره حسب ٱطِّلاعي، ولعلَّ الأيَّام توقفنا عليه.

"الصيب والجهام" لابن الخطيب الشَّهير (-776هـ) وٱسمه في أزهار الرِّياض للمقري نقلا عن ٱبن الأحمر: "الصَّيب والجهام والماضي والكهام" في مجموع شعره، ولم أقف على نسخة منه رغم البحث ولكنِّي وقفت على ٱنتقاء منه، وأظنُّه للمترجَم لأنَّه بخطٍّ قريب من خطِّه، ثمَّ إنَّ السلوي من عادته الانتقاء، ونصُّ ما جاء في طالع هذا الانتقاء:

"تقييد رسائل من "الصيب والجهام" للسان الدين بن الخطيب، فمن ذلك مخاطًا لملك عصره، وكتب بها من مالقة، وقد بلغه أنَّه سأل عنه حين سمع به مريضا:

يا نسيم الصِّبا فديتك بلِّغ فرط شوقي إن ٱستطعت ووجدي
وتلطَّف فإنَّما هي نجواي بثَّها الشَّوق بين مولى وعبد"

وهذا الانتقاء في أربع وسبعين صفحة بخطٍّ دقيق جدًّا.

و"المرقبة العليا فيمن يستحقُّ القضاء والفتيا"، وقد طبع الجزء الأوَّل من الكتاب بدار الكاتب المصري ونشره الأستاذ ليفي بروبنسال (-1956)، وجاء أنَّ المؤلِّف للكتاب المذكور النَّباهي - بتقديم النُّون على الباء- وبخطِّ المترجم البُناهي- بتقديم الباء المضمومة على النُّون المفتوحة المخفَّفة - ولي في ذلك بحث مستفيض النشرة في مجلّة المنهل المكيَّة.

و"جذوة الاقتباس فيمن حلَّ من الأعلام مدينة فاس" لابن القاضي[1] (-1025هـ).

1 أحمد بن محمَّد بن محمَّد بن أبي العافية المكناسي الزناتي، أبو العبَّاس ٱبن القاضي. مؤرخ، رياضي، أسر من طرف الإسبان عند حجه وٱفتداه أبو العبَّاس المنصور. له 15كتابا منها "جذوة الإقتباس" ودرَّة الحجال في أسماء الرِّجال" (الأعلام 225/1).

تقديم الكتاب

لم يذكر صاحب الكوكب صراحة من أشار عليه بتأليف كتابه، وكان الدَّافع لعدم الصَّراحة الخوف كما تدلُّ عليه عبارته في آخر الكتاب التي دعا فيها أن يقيه الله مصارع السُّوء وقانا الله منها، ونصُّ عبارته:

"والله سبحانه المسؤول... وأن يحفظنا جلَّ جلاله من الزَّيغ والزَّلل، وأن يقينا مصارع السُّوء في جميع ما نحاوله من قول وعمل"، وهذا الخوف هو الذي دعاه أن يصرِّح بٱسم المقدَّم إليه الكتاب ويكتفي بقوله "وأن يجعلنا ومن كان السَّبب في وضعه، وحملنا على تأليفه وجمعه ممَّن يبتغي بقوله وفعله وجه الله الكريم وثوابه الجسيم".

والظَّاهر أنَّ المتسبِّب في وضع هذا الكتاب هو الباشا علي، ويدلُّ على ذلك أنَّ أبواب الأدب النَّفسي مبدوءة بباب الحرب وتدبيرها وما ينبغي من الحزم لمن يباشرها من مقدمها وأميرها، ومنتهاه باب في الشَّجاعة والجبن وآلات القتال، وما للشُّعراء في ذلك من بديع المقال.

ٱختصار مطالع السُّعود

وله تأليف ثان ليس في الأدب وإنَّما هو في التَّفسير لخَّص فيه الحاشية الشَّهيرة للشَّيخ محمَّد زيتونة التُّونسي (-1138هـ) المسمَّاة "مطالع السُّعود على تفسير الإمام أبي السُّعود"[1](-982هـ).

وتفسير أبي السُّعود الذي وضع عليه الشَّيخ زيتونة حواشيه يسمَّى "بإرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، وقد أهداه مؤلِّفه إلى السُّلطان سليمان بن سليم عاشر سلاطين آل عثمان، وٱشتهر هذا التَّفسير لأسباب عدَّة منها كونه خلاصة التَّفاسير المتقدِّمة التي ٱشتهرت في العالم

1 محمَّد بن محمَّد بن مصطفى العمادي، المولى أبو السُّعود. مفسِّر، شاعر، من علماء الترك المستعربين، وُلي قضاء القسطنطنية. هو صاحب التَّفسير المعروف "إرشاد العقل السَّليم إلى مزايا الكتاب الكريم" وله "تحفة الطلاَّب". (الأعلام 288/7).

الإسلامي مع تأنُّق العبارة والميل بها إلى الأسلوب الخطابي، ومن أكبر الدَّواعي أنَّه مهدى للسُّلطان العثماني، فعلماء ذلك العصر يقرئونه إشاعة له وتنويها بشأنه لأنَّه كتاب عثمانيٌّ، وقد زاحم هذا التَّفسير التَّفسيرين الشَّهيرين "الكشَّاف" للزمخشري[1]، و"أنوار التَّنزيل" للقاضي البيضاوي[2].

وكانت العناية بتفسير أبي السُّعود في تونس أكثر من كلِّ عناية في بلد آخر، فهو وإن اشتهر كما قال صاحب الكشف، لكن لم يكتب عليه أحد كتابة مستوفاة غير علماء تونس، فقد كتب عليه عالمان جليلان هما الشَّيخ زيتونة المتقدِّم، وهي حاشيةٌ مطوَّلة بلغت عشرين جزءا، وقد خصَّ ديباجته بشرح، وهي في الحقيقة مجموعة معارف أفاض فيها الشَّيخ زيتونة ما عنده من تحصيل، ولهذا أشار الباشا علي على السلوي بتلخيصها، فلخَّصها له، والباقي منها جزآن ممَّا احتفظت به مكتبة الزَّيتونة، وهما بخطِّ مؤلِّفهما، والمؤلَّف الثَّاني على حاشية أبي السُّعود هو حاشية الشَّيخ محمود مقديش الصَّفاقسي.

وأحد هذين الجزأين الباقيين من تلخيص السلوي بخطِّ المؤلِّف يبتدئ بتفسير الآية 36 من سورة النِّساء إلى الآية 89 من سورة المائدة، وفي آخر هذا الجزء ما يأتي "كمل السِّفر المبارك على تفسير الإمام أبي السُّعود للشَّيخ محمَّد زيتونة الشَّريف الحسني، وقد فرغ من هذا السِّفر المبارك عام 1168هـ على يد عبد القادر بن عبد الرَّحمان السلوي ثمَّ الفاسي".

---

1 محمود بن عمر بن محمَّد بن أحمد الخوارزمي الزَّمخشري، جار الله، أبو القاسم. من أئمَّة العلم بالدِّين والتَّفسير واللُّغة والأدب من أشهر كتبه "الكشَّاف" في تفسير القرآن، "أساس البلاغة" و"المقامات". توفِّي سنة 538هـ/1144م. (الأعلام 55/8).

2 عبد الله بن عمر بن محمَّد بن علي الشيرازي، أبو سعيد، أو أبو بكر، ناصر الدِّين البيضاوي. قاضي، مفسِّر، علاَّمة. من تصانيفه "أنوار التَّنزيل وأسرار التَّأويل" ويعرف "بتفسير البيضاوي" و"طوائع الأنوار" في التَّوحيد. توفِّي سنة 642هـ/1244م. (الأعلام 248/4).

والذي يليه أوَّله ﴿يَا أَيُّهَا الذينَ آمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ﴾[1] وهي الآية التسعون من السورة المذكورة، وهذا الجزء عدده بالزيتونة (307).
وهناك جزء آخر يبتدئ من سورة الطَّلاق، وينتهي بآخر سورة النَّبأ ورقمه 313، وفرغ من تلخيصه سنة 1166هـ.
وأمَّا بقيَّة الأجزاء فهي مفقودة، ومنها الجزء الأوَّل ولعلَّه أتلف بسبب إطرائه للأمير الذي أشار عليه بتلخيصه، وهو علي باشا للشنئان بين المتربِّع على أريكة الملك من بعده كما هو معروف من الانقسام إلى باشيَّة كان يتزعَّمها علي باشا وحسينيَّة تزعَّمها مؤسِّس هذه الدَّولة ثمَّ حافظ عليها ذريَّته من بعده، وهي التي ٱنحصر فيها الملك بعد ٱنتزاعه من علي باشا، وبالطَّبع يكون هناك تتبُّع لكلِّ ما يشير بالمدح والفخر لعلي باشا، أو أنَّه لم يكتب إلاَّ هذين الجزئين فحسب.

ٱنتقاء من الصيب والجهام

في نسبة هذا الانتقاء إليه توقُّف حيث لم يقع التَّصريح بٱسم المنتقي، لكن الخطّ والرُّوح يدلاَّن على أنَّ هذا الانتقاء للسلوي.
والانتقاء هذا وضعه ملخِّصه إثر شرح يوسف بن محمَّد الفاسي لقصيدة السُّيوطي المسمَّاة "بالتَّثبيت ليلة المبيت" الذي بخطِّ المنتقي نفسه، وتاريخ نسخ الشَّرح المذكور بعد صلاة الجمعة ثاني عشر رمضان سنة اثنتين وأربعين ومائة وألف 1142هـ، والمظنون أنَّه نسخه ولخَّص الانتقاء مع الكنَّاشة لمَّا كان بالمغرب.
ومع هذا الشَّرح والانتقاء فوائد كثيرة منتقاة من كتب شتَّى لا رابطة بينها غالبا ممَّا يعبَّر عنه بالكنَّاشة، وترتفع قيمة الانتقاء هذا بسبب أنَّ أصله غير موقوف عليه، فهو نتف من "الصَّيِّب والجهام" لسنا ندري أهي تمثِّل

1 سورة المائدة، الآية 90.

جانبا مهمًّا من الكتاب أم هي نزر يسير حيث لم يتأتَّ لنا الوقوف على الكتاب والمقايسة بينه وبين تلخيصه.

والغالب في الانتقاء من الكتاب المذكور هو اختيار المراسلات الشعريَّة مثل مخاطبة ابن الخطيب لملك عصره كما تقدَّم، ومثل مخاطبته للوزير ابن عبد الله بن الحكيم، وهو بالمحلَّة بوادي السقائين.

و"الصَّيب والجهام" الأصل الملخَّص منه من تأليف ابن الخطيب السلماني (-776هـ) وهو كتآليف ابن الخطيب في الجودة والسموِّ كما قال فيها ابن الأحمر في نثير "الجمان في نظم فحول الزَّمان"[1]: وله "الأوضاع المصنَّفات"، إذ أنَّ إحسانها هي المقرطات المشنفات منها... مجمع شعره المسمَّى "بالصِّيب والجهام والماضي الكهام".

والمعروف عن مصنَّفات ابن الخطيب القصر عدًّا "الإحاطة في تاريخ غرناطة"، و"ريحانة الكتَّاب" في مكاتبيه، وربَّما الصَّيب يكون على غرارهما لأنَّه مجموع شعره وشعره وافر فيكون حينئذ هذا الانتقاء نتفا من كتاب طافح بشعره.

رسالة في أصول الفقه

وهي مؤلَّفه الرَّابع، لم أقف عليها، وإنَّما أخبرتُ بأنَّها عند بعض حفدته.

وبجانب هذه التَّآليف له تقاييد متعدِّدة مع الكتب التي ينتسخها وهي كثيرة، إذ هو كثير النَّسخ للكتب لسرعة كتابته وجمال خطِّه.وممَّا وقفت عليه بخطِّه مجموع به كتاب "الوافي في نظم القوافي" للشَّريف الرَّندي، ومنتقيات مختلفة منها ما نقله من "الوافي بالوفيات" للصَّفدي في ترجمة ابن شرف القيرواني، وبعض الكتب المنقول عنها مفقود.

---

1 ص242.

أدبه النّقديّ

خلق عبد القادر السلوي ميّالا إلى الأدب، متعلّقا بكتبه المعدودة من أمّهات مصادره في العصور الذهبيّة للعربيّة، غير مقتصر على ما كان عليه الكثير من التعلّق بالكتب التي كتبت في عصور التّقهقر الأدبيّ، وكما هو ميّال إلى أصول الأدب هو ميّال إلى التوسّع فيها في عصر كانت هذه الأصول عزيزة الوجود، إذ العصر الذي عاشه لم تعرف فيه العربيّة الطّباعة، وحتّى النّسخ كان في تونس آخذا في النُّدور. وزاد العالم من الكتب متردّد بين ٱقتناء المخطوطات وبين الانكباب على النّسخ، والسلوي من الصّنف الثّاني فقد ٱنكبّ على النّسخ، فكانت خزانته ممّا أخرجته يمينه من كتب نسخها وعلّق عليها، وأضاف لها فوائد جمّة، وهذا يؤيّد ما ذكره الشّيخ ٱبن أبي الضياف من أنّ خطّه منتشر في الكتب، فقد رأيت الكثير من الكتب بخطّه ممّا هي لغيره علاوة عن مؤلّفاته، وذلك قليل من كثير.

وٱتّجاهه في هذا النّسخ أدبيٌّ أكثر منه في غيره ممّا يدلّ على أنّه خلق ميّالا إلى الأدب، فهو وإن كانت له منتسخات في غير الأدب فهي قليلة بالنّسبة له.

فلهذا كان تقلّده القضاء الشّرعيّ من التّكليف بغير الاتّجاه المحبوب لديه، ولا شكّ أنّ قبوله له لأنّه مرتزق وحيد يدرّ عليه المعيشة له ولعائلته التي كوّنها بتونس، فلو كان هناك سبيل للعيش الشّريف لتعاطاه.

ولميلانه الأدبيّ هذا وٱعتماده على الأصول الصّحيحة فيه كان إنشاؤه من الطّراز المقبول الخفيف على القارئ عكس معاصريه الذين إذا كتبوا تكلّفوا وعقدوا ذاهبين إلى أنّ التفوّق في الكتابة إنّما هو بالتزام المحسّنات البديعيّة سواء جاءت عفوا، أو ٱقتيدت قسرا، كما هو مشاهد في كتابات السّابقين المترجَم لهم مثل الشّافعي والعصفوري والعياضي.

وكما يستفاد ميلانه الأدبيُّ من آثاره نجده في تصريحه في مقدِّمة كتابه "الكوكب الثَّاقب" معلنا به، فقد صرَّح أنَّه كان من المولعين بالأدب في سنِّ الشَّباب، فكان يطالع ويسجِّل، فتجمَّع لديه ما ألَّف به ذلك الكتاب الحافل.

وتعبيره عن رغبته الأدبيَّة وهيامه بكتب الأدب أبرزه في فقر هي نموذج من كتاباته النثريَّة السَّليمة، وهي:

"وكنت قديما ممَّن خاض لجحه، وركب ثبجه، وتلقَّى رايته باليمين وفاوض أهله في الغثِّ والسَّمين ثمَّ لم أزل جادًّا في طلبه، حريصا على التَّحلية بقلائد عقيانه وٱقتناء شذور ذهبه، مولعا بٱلتقاط غرره وعيونه، وٱستخراج خباياه من زواياه وٱستنباط زلاله من ركاياه وعيونه، حتَّى ملأت من محاسنه عدَّة رقاع وأوراق وجمعت من أفانينه ما أعجب حسنه وراق، وحصلت من بدائعه على فوائد، ومن روائعه على فرائد، ومن قلائده على درٍّ ثمين، ومن خرائده على عرب أتراب وحور عين.

وذلك حين غصن القدر أطيب، وبرد الشباب فشيب، وصفو العيش غير مكدَّر بمشيب.

ولَّما أن ولَّى عصر الشَّباب... وخشيت على تلك الأوراق والرِّقاع أن تصيبها قوارع البين أو ترشقها سهام الحين، فتصير أثرا بعد عين وتغتالها أيدي الضَّياع، أردت أن أنظم فرائدها في سلك هذا المجموع، وأجلو خرائدها في منصة هذا الموضوع ليقع الانتفاع بها من بعدي".

فإنشاؤه وإن لم يخرج عن السَّجع لكن بدون كلفة، وكما سما به عن الكلفة سما به عن الإسفاف الأدبيِّ، فكانت كتاباته متَّجهة نحو الأدب الأخلاقيِّ الدَّاعي إلى محاسن الشِّيم فتحدَّث عن الشَّجاعة والحلم والجود وغيرها مع إبانة معائب أضدادها من الأخلاق الذَّميمة.

وله في تأثير الأدب على الأخلاق فصل يأتي في آخر هذا المقال شرح فيه أنَّ الأدب إصلاح ٱجتماعيٌّ، وباعث أخلاقيٌّ، وخالف في نظرته هذه الكثير من أهل عصره حيث يرون أنَّ الأدب مجرَّد تلهية، إمَّا في ٱستطراف لفظيٍّ،

وإمَّا في تعبير ظاهره أنَّه وجدانيٌّ، وهو في الحقيقة لم يصدر عن وجدان وإنَّما صدر عن محاكاة.

فالسلوي نزَّه قلمه عمَّا جرى فيه غيره من أدب يتنافى والأخلاق من تصريح بذكر حالات يندى لها وجه الأدب، فيحتاج إلى الاعتذار عنها بأنَّها ليست حالا واقعيَّة بالفعل، وإنَّما هي مجرَّد خطرات شعريَّة تجري على اللِّسان حسبما يصوِّره الفكر دون أن يكون لها أثر في الخارج.

وكما يتعفَّف فيما يكتب كذلك فيما ينتقي، حتَّى أنَّه لـمَّا ترجم لأبي نوَّاس وٱنتقى له -وأبو نوَّاس كما يعلم من حاله يحمل راية الاستهتار والأدب الخليع- ٱختار الجانب الذي يمثِّله تائبا منيبا، فختم ترجمة أبي نوَّاس بالأبيات التي وجدت تحت وسادته بعد موته وهي التي يقول في مطلعها:

يا ربِّ إن عظمت ذنوبي كثرة ... فلقد علمت بأنَّ عفوك أعظم

وكذا تعرَّض لجانب منه مغفل عنه عند الأدباء، جانب ٱنتقد عليه فيه تعبيره بما لا يقبل -على بعض الاحتمالات- وهو قوله:

كيف لا يدنيك من أمل ... من رسول الله من نفره

فجلب عليه نقد المبرِّد في كامله، وتقريع القاضي عياض في "الشِّفا"، لكنَّه أراد أن يخفِّف من وطأة الانتقاد فذكر مدحه لعليٍّ الرِّضا.

فالسلوي جادٌّ في أدبه، يرمي به إلى تقويم أوْد النُّفوس والسَّير بها إلى القيم العليا، والمثل الكاملة، وتشحيذ الأفهام وتفتُّح القرائح، وإلى مثاليَّته الأدبيَّة تشير الفقر الموعود بها وهي:

"لـمَّا كان – أي الأدب – من أجلِّ العلوم قدرا وأعظمها خطرا لتكلُّفه من مكارم الأخلاق ومحاسن الشِّيم، ومن تقويم أوْدِ النَّفس الذي به تتفاضل الأقدار وتتفاوت القيم بما يضيق عنه نطاق التَّعبير ويعجز عن وصفه من عرف بالبلاغة وجودة التَّحبير، فكم شجَّع من جبان، وكم قوَّى من جنان، وكم أنطق بالحكمة من لسان، وكم بسط من يد كانت مقبوضة عن الإحسان، وكم هذَّب من نفس، وكم جلب من أنس، وكم كشف من

لبس، وكم أغنى عن تخمين وحدس، وكم آستعطف به من كـريم، وكـم آستترل به من لئيم، وكم أرهف من خاطر، وكم أفاد من حكمـة ومثـل سائر، وكم وقع من قلوب الأعادي موقع السِّهام، كما أخبر بذلك نبيُّنـا عليه أفضل الصَّلاة والسَّلام، عن آبن شهاب الزُّهري[1] رحمه الله قال حدَّثني عبد الرَّحمان بن كعب بن مالك الأنصاري عن أبيه رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله قد أنزل الله في الشِّعر ما قد علمت فما ترى فيـه قـال: إنَّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ويده، والذي نفسي بيده لكأنَّمـا تنظمـوهم بالنُّبل... كان أولى بأن يصرف إلى تعلُّمه وتعليمه عنان العناية وأحرى بأن يقدَّم على غيره من العلوم رواية ودراية".

وهو قد قصر نفسه على النَّثر فلم يكن له شعر، إذ لم أقف له على أنظام على شدَّة البحث، وهذا من إنصافه لنفسه حيث قصرها على جهة معيَّنـة محبَّبة له دون تكلُّف للشِّعر بإكداد القريحة فيبرز شعرا دونه في الثِّقل صـمُّ الجنادل.

---

1 محمَّد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، من قريش، أبو بكر، آشتهر بابن شهاب الزهري. أوَّل من دوَّن الحديث وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء. توفِّي سنة 124هـ/742م. (الأعلام 317/7).

نظرا الى الحال الذي الراهنة ورجع الوجهان الى الاعتداد بالعارض وعدمه حذفت
همزة الوصل اي سواء كانت مكسورة كقراءة غير ابي عمرو والاخوين اتخذتم سخريا بل
وقراءة الجميع استغفرت لهم والاصل اتخذتم بهمزة مفتوحة للاستفهام ومكسورة
للوصل فحذفت همزة الوصل للاستغناء عنها بهمزة الاستفهام او مضمومة نحو افكم
جاء والاصل اافكم بهمزة مفتوحة للاستفهام فمضمومة للوصل فلما دخلت
همزة الاستفهام حذفت فبين العلماء عن الوجه فلا الخلاف ولم يذكر ابو علي
وجماعة غير الداني بقي الخلاف ولاجل في كلامهم ولا يجوز ان تحقق لان همزة
الوصل لا تثبت في الدرج الا ضرورة كقوله الا لا ارى اثنين احسن شيمة على حدثان
الدهر مني ومن جمل وفرق بينهما بين الهمزة والالف مع الفتح وهو القياس لان الابدال
شأن المتحركة وفرق في السبع بالمد والتسهيل في نحو الذكرين لئلا يلتبس
الخبر علة لتزم مقتضى القياس مع المفتوحة

ولنكن هذا اخر ما اردنا جمعه من هذه الحواشي المقتطفة
من اصلها للشيخ بسر رحمه الله تعالى وغالبها بلفظها من
غير تغيير لعبارته وبعضها بالمعنى وبعضها بتغيير قليل
للفظه وذلك يوم سابع وعشرين من رجب الاصب
عام كذا ومائتين والف على يد جامعها
لا غيره الفقير محمد بن محمد
الاندلسي غفر الله له ولوالديه ولجميع
المسلمين امين وصلى الله على سيدنا
محمد وعلى اله وصحبه وسلم تسليما
والحمد لله رب العالمين

صورة 3: الورقة الأخيرة من المخطوط

محمد ماضور الأندلسي

نشأته:

نشأ الشَّيخ محمَّد ماضور ببلدة سليمان التي هي من تونس بمسافة قريبة، وكانت فيها حين نشأته حركة علميَّة نشيطة ظهرت في التـآليف الباقيـة والحركة المذكورة وإن كانت ضعيفة محدودة إلا إنَّها بالنِّسبة لتلك الفتـرة وإلى تلك الرُّقعة الصَّغيرة من الأرض تعدُّ ٱزدهارا نسبيًّا، و لم يغفل الـشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف هذه الحركة العلميَّة فأشار إليها بجملة، والمنقِّب يستطيع أن يتحقَّق ما أشار إليه الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف من قوله: وكانت – أي سليمان – تسمَّى بنت تونس[1] إذ لا شكَّ أنَّه يقصد الناحية العلميَّة من جملة الجوانب التي ٱستحقَّت بها هذه البنوَّة.

و لم نذكر أنَّ هناك نشاطا علميًّا حين نشأة المترجَم ذهابا مع ما ذكـره المؤرِّخ التُّونسي فقط، وإنَّما أدَّانا إلى ذلك ما وقفنا عليه من تآليف مصدرها علماء بلد سليمان، وهي وإن لم تتجاوز أصابع اليد فهي بالنِّسبة لذلك البلد الصغير شيء مذكور، فتلك التآليف وما ٱتَّصل بها تخبر عن وجود علمـاء محرِّرين مثل محمَّد بن حسين بن علي منتشالي السُّليماني الذي ألَّف "ٱنتقـاء شرح الأشموني على الألفيَّة"، وكان تأليفه له سنة 1170هـ وألَّف شـرحا حافلا على الأزهريَّة في علم العربيَّة.

وقد ٱعتاد المؤلِّفون قبل عصرنا أن يعرضوا مؤلَّفاتهم للتَّقريظ، وهي عادة وإن تحاشاها المعاصرون لبُعدها عن النَّقد المثير للقرائح لها محاسنها ودواعيها، ومنها التَّعريف بالكتاب، فهي وإن وقع الإعراض عنها لم تخلُ من فوائد إذ تبقى أدب من لم يؤلِّف فتعطي نموذجا من أدبه ومن خطِّه، وهذا ما صـنعه الشَّيخ منتشالي على شرحيه المذكورين، فكتب عليهما تقريظا جماعة منهم

---

1 الاتحاف 59/3.

محمَّد ماضور الوالد، فهذه الكتابات التي زيَّن بها شرحيه تُصوِّر شيئا من الحياة العلميَّة والأدبيَّة، وفي الغالب هذه التقاريظ تكون إجازة وشهادة للمؤلِّف إذا كانت من شيوخه.

والمترجَم له مُحمَّد – بضمِّ الميم- ٱبن مَحمَّد – بفتح الميم- ماضور الأندلسي السليماني المالكي الأشعري.

وفي هذه البلدة الصَّغيرة التي تضمُّ الحركة المنتعشة فيها نشأ المترجَم وهو وإن لم يذكر المترجمون له حياته العلميَّة وشيوخه المأخوذ عنهم حتَّى أنَّ بعضهم ٱقتصر في ترجمته على ثلاثة أسطر منقوصة، فترجمته في مصادرها لا تفي بالغاية، لكن نستطيع أن نتعرَّف عليه إذ بضمِّ ما جاء في المصادر المتفرِّقة على قلَّتهم نستفيد البعض من حياته مع ما جاء في شعره من مدح لمشائخه العلميَّة فقد صدَّر ديوانه بمدح شيوخه وفي طالعة شيوخه والده الذي ختم عليه "تفسيرِ الخازن"[1] فأنشد في ختمه قصيدتين يقول في طالع الأولى:

تفسير ما حلَّ بالأحشاء من وصب   لخازن الحبِّ قد يفضي إلى النَّصب

وفيها يفتخر ببيته:

يا دهر مهلا فلم أسرق علاك   ولم احتج لجدك فاسمع غير ذي كذب
فإنَّ مجدي وعليائي ومكرمتي   فضالة من بقايا مكرمات أبي
هو الهمام الذي جلَّت مفاخره   فزاحمت موكب الجوزا إلى الحجب
محمَّد ٱبن أبي عبد الإله أخو الـ   ـفضائل الغرِّ ماضور أبو الحسب
العالم اللَّوذعي الحبر من جمعت   له المفاخر جمعا غير مقتصب

والقصيدة سار فيها على مهيع إبراز عالميَّة والده فيذكر:

مولاي يهنيك ختم جئت فيه بما   يرضي الإله وكم أبديت من عجب
لقد ختمت كتاب الله مجتهدا   وإنَّه قربة من أعظم القرب

[1] الخازن: هو علي بن محمَّد بن إبراهيم بن عمر بن خليل الشيحي البغدادي، مفسِّر، فقيه، محدِّث، مؤرِّخ، من تصانيفه "لباب التأويل في معاني التتريل". توفِّي سنة 741هـ (معجم المؤلفين 177/4).

وهذه القصيدة لم تكن مدحا ساذجا وتفاخرا بالنَّسب فقط، بل ضمَّنها ناظمها عواطفه نحو أبيه وبعض مواطني سليمان، فذكر أنَّ أباه مكَّنه من الانتقال إلى تونس الحاضرة، للتلقِّي عن شيوخها المنبثِّين في أرجائها، وأفاد أنَّ والده دلَّه على التمكُّن العلميِّ، وهيَّأ له أسباب الحياة التي مكَّنته من الإقبال على الدراسة في رفاهيَّة وهنية من العيش:

لولاه ما طاب لي عيش يلذّ ولا غدا بتونس مثوائي ومنقلبي
ولا دخلت رياض المعلومات ولا جنيت منها ثمار العلم والأدب
ولا علمت الذي قد كنت أجهله ولا غدوت حليف الدَّرس والكتب
فضل من الله لكن عن يديه أتى فكم من الشكر والحمد الجميل حبي

وأفاد ما صوَّر به الذي يحدث في الأماكن التي ينشأ فيها الشَّنئان بين الأفراد، ويبلغ في بعض الأوقات إلى القطيعة الكاملة، وحدوثه في الغالب ناشئ عن أمور غير مادِّيَّة وإنَّما هي معنويَّة فإذا ما اشتهر في محيط خاصٍّ ببعض الأفراد دعا ذلك غيره إلى التَّحامل عليه والاستعانة بالوشايات إلى غير ذلك من أسباب التذرُّع للنَّيل من الشَّخص، وهذا ما نراه متوارثا في كثير من الأماكن بين متساكنين متجاورين وهم في قطيعة وتفكُّك:

به سليمان أضحت في شريف هدى عن الشام غدت تزهو وعن حلب
كم بثَّ فيها من العلم الذي عكفت عن جهله أهلها في سالف الحقب
وكم أنار بها من ظلمة فغدت تزهو كزهر الرُّبى بالنُّور والعشب
لكنَّها قد أصيبت بالهموم كما تصاب ناعمة الأعطاف بالجرب
من فتية أوقدوا فيها بمكرهم نار الشُّرور وهم حمَّالة الحطب

وأنشد في الختم المذكور قصيدا آخر مطلعه:

تفسير أشواقي لديك يجري فعساك تختم بالوصال وتجبر

وضمَّنه إطراء والده وشيخه، ولكنّه لم يكن كالقصيد الأوَّل معبِّرا عن عواطفه.

ووالده هذا كما تخرّج عليه ٱبنه تخرّج عليه الشّيخ منتشالي المتقدِّم، وقد أجازه في تقريظه لكتابيه المذكورين.

وقد نوّه بماضور الوالد المقرئ التُّونسي محمَّد بن محمَّد إدريس، وكما نوَّه بالوالد المذكور نوَّه بالشَّيخ محمَّد الحنفي وسجَّل هذا التَّنويه نثرا وشعرا:

..."إذ قد أجازه الفقيهان العالمان الأجلاَّن شيخه المدرِّس الأستاذ ومـــن إليه المرجع والملاذ الإمام القدوة العلاَّمة اللَّوذعي المتفنِّن الفهَّامـــة، العـــدل الرِّضا الأدبي المشهور، أبو الفتح الشَّيخ محمَّد ماضور الأندلسي، ضاعف الله له الأجور يوم النشور...

أثنى عليه العالمان ذو الحجا بعذيب لفظ طاب منه المنطق الجهبذ العـــدل الفقيه محمَّد يدعى بماضور الذي هو أشفق".

من أساتذته:

لم يعرف من شيوخه بسليمان إلاَّ والده المتقدِّم ٱعتمادا على قصيدتيه فيه المقتطف منهما سابقا، وبتونس من شيوخه الشَّيخ محمَّد بن علي الغريـــاني[1] (-1195هـــ) وهو من مجيزي العلاَّمة الشَّيخ مرتضى الزبيـــدي[2] شـــارح "القاموس" الذي يعاد طبعه الآن. ويكفي دلالة على قيمة الغرياني إجازتـــه للشَّيخ المذكور.

ومن شيوخه الشَّيخ منصور المنزلي الذي كان ينتمي إليه، ويـــذبُّ عنـــه حتَّى أنَّه لَمَّا بارح درسه بعض الطَّلبة دعاه ذلك إلى أن ينالهم بالتَّقريع واللَّوم

---

1 محمَّد بن عليٍّ بن خليفة الغرياني الطرابسلي التُّونسي عالمها وصالحها العارف بالله شيخ التربية والحقيقة وإمام الطريقة وأوحد عصره دينا وعلما وسلوكا. من تأليفه "شرح على مقدِّمة الشيخ السَّنوسي و"فيض الخلاَّق في الصلاة على راكب البراق" و"حاشية على الخبيصي". وهو أوَّل من تولَّى التدريس بالمدرسة السليمانيَّة.(شجرة النُّور الزكيَّة 349/1).

2 محمَّد بن محمَّد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، أبو الفيض الملقَّب بمرتضى، علاَّمة باللُّغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. من كتبه "تاج العروس في شرح القاموس"، و"إتحاف السَّادة المتَّقين. توفِّي بالطاعون بمصر سنة 1205هـــ (الأعلام 297/7).

وعدم الذَّوق والحاسيَّة فوصفهم بأنَّهم لم يتذوَّقوا طعم الشَّهد، وأنـــشد في ذلك:

السَّعد حفَّك بالفخار الأكمل (تلخيصه) (قد طال كلُّ مطوَّل)
وحباك منه محاسنا إيضاحها لا يستقلُّ بها لسان الأخطل
(فدلائل الإعجاز) عن تبيانها بانت لكلِّ مفسِّر ومؤوِّل
وهي المحاسن عزٌّ بها لوليِّها وعذابها يتراح للمأمَّل

أتى في هذه الأبيات ببراعة الاستهلال والتورية، حيث أشار إلى العلاَّمة السَّعد[1] الذي ختم كتابه الشَّيخ منصور المترلي إقراء وتحقيقا، والسَّعد من شارحي "التَّلخيص" للخطيب القزويني[2]، وله عليه شرحان أحدهما يعرف "بالمطوَّل" والآخر يعرف "بالمختصر" وهما الكتابان اللَّذان كان عليهما المعوَّل في دراسة البلاغة دون غيرهما أوري عن المطوّل بقوله: قد طال (كلُّ مطوَّل) كما ورّى عن دلائل الإعجاز بقوله (فدلائل الإعجاز البيت)، ودلائل الإعجاز أحد كتابي الشَّيخ عبد القاهر الجرجاني[3] الشَّهيرين في العلوم البلاغيَّة.

وبعد مدحه للشَّيخ المذكور عرَّض بالطَّلبة المنفصلين عن الشَّيخ العاذلين له على صبابته في شيخه وشدَّة تعلُّقه به.

ورأى العذول تهتُّكي وصبابتي بمحاسن أفنت عليَّ تعلُّلي
فانساب في لومي وقال ألا ارعوي وإذا تصبك خصاصة فتجمَّل
فأجبته دع ذا الملام فإنَّني (بعروس أفراحي) نسيت تجمُّلي

---

1 مسعود بن عمر بن عبد الله التَّفتزاني، سعد الدين. من أئمَّة العربية والبيان والمنطق من كتبه "تهذيب المنطق" "المطوَّل" و"المختصر". ولد بتفتزان، نفاه تيمورلنك إلى سمرقند وتوفي بها سنة 793هـ/1390م. (الأعلام 113/8).

2 محمد بن عبد الرحمان بن عمر، أبو المعالي، جلال الدِّين القزويني الشافعي، قاض، من أدباء الفقهاء. أصله من قزوين. نفاه السُّلطان الملك الناصر إلى دمشق ثمَّ ولاَّه القضاء بها، فاستمرَّ إلى أن توفِّي سنة 739هـ/ 1338م. من كتبه "تلخيص المفتاح" و"الإيضاح". (الأعلام 66/7).

3 عبد القاهر بن عبد الرحمان بن محمَّد الجرجاني، أبو بكر: واضع أصول البلاغة، كان من أئمَّة اللُّغة. من أهل جرجان له شعر رقيق. من كتبه "أسرار البلاغة" و"دلائل الإعجاز" و"العمدة". توفِّي سنة 471هـ/1078م. (الأعلام 174/4).

وورّى في هذه الأبيات (بعروس أفراحي) عن كتاب "عروس الأفــراح" لأحمد بن علي السّبكي 773هــ، وردَّ على هؤلاء المدَّعين أنَّ ملازمته لأجل الخصاصة بأنَّ هذا الشَّيخ عروس أفراحه وبه إزالة أتراحه، وختاما حــرَّض على الإقبال على شيخه مجنّبا طريق هؤلاء:

وٱنهض إلى طلب الكمــال ولا تكــن كفتى يرى في الشَّهد طعــم الحنظــل
قعدت بــه أوهامــه فكأنَّــــــه عرف المحلَّ فبــات دون المنــــزل

وهذا يذكِّر ما كان عليه الطَّلبة من التعصُّب لشيوخهم، فتــراهم زمـًـا زمرا، وكلُّ طائفة تناقش وتحاسب الأخرى وتنسب لشيخها المحامد وتنفيها عن غيره، وهذا ما أتى به المترجَم في أبياته المقتطف منها ما ذكر، وهي حال تدعو إلى التَّنافس، وحمل الشُّيوخ على التعمُّق والتَّحرير، ولكنَّها في بعــض الأحوال تتنزَّل إلى الأحقاد وغرس الإحن والبعد عن السَّبيل.

كما تلقَّى عن الشَّيخ إدريس أستاذ الإقراء بتونس، وأحد المبرِّزين في هذه النَّاحية، فكان من أعلام التَّجويد المتلقِّي عنهم، وبالطَّبع إنَّ ٱستفادته منــه ٱستفادة مرموقة، وأنشد فيه قصيدا من عيون قصائده:

أسفر البــدر عــن ســنى الإشــراق فــانجلى منـــه غيهـــب الأفـــاق
وٱنتــضى الفجــر ســيفه فأشــابت مفـــرق اللَّيـــل روعـــة الإفـــراق

وفي هذا البيت ٱستعمال الإفراق بمعنى الفرق، وهو الفزع، ولم يرد لغــة ويتخلَّص إلى مدح الشَّيخ إدريس المذكور:

يا أهيل الحمى حليــف هواكــــم ما علمتم مــن عهــده فهــو بــاق
لا الإياس يمرُّ منه علــى بــــــا ل ولا الـــدَّمع غــائض بالمــآقي
ربَّ هجر يكون منــه وصــــــال وبعــاد يكــون منــه التَّلاقــــي
كأبي يونس المفــدَّى تــــــوارى بخمــول فبــان للأحــــــداق
ذاك إدريس من به الــدَّرس أضــحى يــتلألأ بنــوره الخفَّــــــاق
نشر العلم في القــراءات حتَّــــــى قد غدا منه ســوقها في نفــــاق
وأبان به العــويص فأضحــــــى ظــاهر القــصد مبــهم الإغـــلاق

تشكيه

يطفح الكثير من شعر المترجَم بالشَّكوى من تأخُّره على أقرانـــه الـــذين تسنَّموا الخطط العلميَّة، بينما هو على مكانته العلميَّة وقيمته الأدبيَّة متـــأخِّر عنهم شأن الدَّهر مع ذوي القيم، وقد توصَّل المترجَم بمدح بعض الـــشُّيوخ وبثِّهم شكواه، ومن هؤلاء الشُّيوخ الشَّيخ حمُّودة باكير (–1220هـ) إمام علي بن حسين باي وآبنه حمُّودة وأنشد في ذلك:

المجد أقصد والمكـــارم أنجـــــــح والفخر أرشد والفـــضائل أربـــــح
أيرام ري من صـــفاة ماهـــــــــا رشح ويترك وابـــل متبطِّـــــــــح
دعها بنيَّات الطَّريق فإنَّمـــــــا وإلى يدنيك للأمل الطَّريـــق الأوضــــح
الرِّضا حمُّــودة بـــن حـــسين الـــــ ـــامي الذرى وجه ركابك تفلــــح

قد رفع الفعل المضارع وهو (تفلح) مع أنَّه مجزوم في جواب الأمر.

ذاك ابن باكير الذي سمحـــت بـــه الأ يَّـــام وهـــي بمثلـــه لا تـــسمح

ويقول في جاهه العريض ونفوذ كلمته عند الباي لأنَّـــه المنظـــور إليـــه بالإكبار والتَّقدير لشدَّة ملازمته للباي، وذلك مدعاة لأن تكـــون كلمتـــه مسموعة وإشارته موقوفا عندها.

فـــيروق مجلـــسه وينفـــع جاهـــه ويفيـــد منطقـــه البليـــغ الأفـــصح
يا أيُّهـــا الحـــبر الـــذي مـــا عـــزَّ لي في غير جاهـــك مطلـــب أومطمـــح

والشَّيخ باكير من أتراب المترجَم وكان مشهورا بالعفَّة والخيريَّة ممدوحا، ولهذا مدحه المترجَم وعلَّق آماله به.

أملـــي أتـــاك مـــع المـــديح مـــشفعا وأنـــا الجـــدير بـــأن أراك فيـــنجح

وفي هذا البيت من النَّقد ما لا يخفى.

وقد كان المادح مقتصدا مشيرا إلى ما فيه حقيقة من صـــيانة العـــرض والمكانة العلميَّة.

والعـــرض أبـــيض لم يـــشنه تـــدنُّس والوجـــهُ أزهـــرُ والفـــؤاد مفـــسّح

وهذا ما وصفه به الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف[1].

من وجدانيَّاته

وله في معنى التشكِّي الذي أفاض في التَّعبير فيه قصيد مطوَّل بثَّ فيه ما يجول في نفسه، ويدور بخاطره في المعنى، ويعتبر هذا القصيد من الشِّعر المعبِّر عن ذات النَّفس، وما يحسُّ به الشَّاعر حين يضعه الدَّهر ويرفع من ليس بأهل، وبعد هذا لا لوم على النَّفس المكلومة من الهضيمة، المحسَّة بالحطيطة إزاء نظرها إلى قيمتها وتغاليها في قيمة النَّفس التي تراها مغبونة في معترك الحياة لا حظَّ لها في دهرها المتبعثر في ٱندفاعها وٱسترسالها.

وإزاء الحال المذكورة تندفع إلى طلب الوسائل الموصلة فتتفرَّج وتتشكَّى وتشرح ما تراه مغبونا بجانب حملتها على أقرانها المحظوظين الممتَّعين بما حرم منه غيرهم.

واللَّون الشِّعري من هذا النَّوع لا تستسيغه بعض الأفكار، لكنَّه ضروريٌّ في حال الاضطرار وٱنسداد الأبواب، فتدعو الضَّرورة إلى الالتجاء إليه والإقبال عليه.

والمترجَم له حين طرقه متشكِّيا طرقة من باب مغتفر، وهو باب شيوخه وأضراب شيوخه من الذين لا غضاضة في التوصُّل بهم إلى التأهُّل للخطط، مع عدم الإسفاف والاستجداء، بل قصارى الأمر شرح الحال وإبداء الظِّلامة ولم يكدِّر هذا القصيد إلاَّ قوله:

سبقت والدي أياديك من قبل وأرجوك مثلها للنَّوال

حيث جعل أيادي شيخه سابقة لأيادي الوالد مع أنَّ أيادي الأبوين لا ترجح عليها أياد.

ونعتذر له على هذا الإسراف بأنَّ الشَّائع أنَّ الأب الرُّوحي مقدَّم على الأب الجسديِّ، ولي فيها تلك قضيَّة جدال.

---

1 الاتحاف 49/7.

وقصيده الوجداني رقّت فيه الشّاعريّة، وسارت على الطبيعة النفسيَّة كما تراه.

جاهك الغمر، والضما بعض حالي | والشفا أنت كيف أشكو ٱعتلالي
ولئن صنت ماء وجهي زمانا | فعلى غير جاهكم والمعالي
ولئن شفّني الخمول فإنّي | بانتمائي لكم أرى في المجالي
وإذا ما الأقران نالت علوًّا | فعلوّي بكم على كلّ عالي
أيُّها ذا الزّمان مالك أغفلت | ٱصطناعي وما أتاك ببالي
وعلى ما ٱخترتني ولقد قدَّ لأيدي | مت من هو في العلى لي تالي
قصرت على نيل مجد | لا ولا مقولي محلّ الهزال
إن تكن رمتني زماني بضيم | وٱبتغيت ظلامتي ونزال
فأبو الطفر عدَّتي لك فارهب | وٱتّئد فهو صارمي ونبالي
ذاك قاضي القضاة من قد تحلَّى | بحلى الفضل والتُّقى والكمال

وقاضي القضاة الذي بثّه ذات نفسه وشرح له حاله في طالع القصيد حين عدل عن التغزُّل والنّسيب إلى الشّكوى من الزّمان المغمض جفنيه عنه هو الشّيخ منصور المنزلي قاضي باردو، وقضاء باردو من الخطط الرّفيعة لأنّ متولّيه قاضي البيت المالك، والشّأن أنّه من قضاء باردو يتسنّم إلى قضاء الحاضرة، وهو من أكبر الخطط في ذلك العصر.

ويمتاز قاضي باردو بالقرب من صاحب النُّفوذ الأمير الحسيني حيث يكون محلّ المشورة وأخذ الرّأي في القضايا، وله ضلع في التّقديم والتّأخير، والرّفع والخفض، ومن هذا شأنه ترمقه الأنظار وتتطلّع إليه النُّفوس، وتسعى إلى ساحته للريّ من باحته، ويشير المترجَم إلى هذه المكانة:

من له همَّة تسامي الثريَّا | وٱعتزام يبيد خطب اللّيالي
من تباهت به الملوك وتاهت | باصطفاء رأيه على كلّ والي
قتل الدَّهر خبرة ثمَّ أحيا | ه بنور من علمه المتلالي
ملأ الخافقين علما ورأيا | وحشا هيبةً قلوب الرِّجال
قل لمن رام شأوه وهو منصو | ر غدا كاسمه على كلّ قالي

نال كلَّ العلـــى بجـــدٍّ ورمتـــــــــم بعضها بادِّعاء قيـــل وقـــــــــــال
يا إماما جمعـــت كـــلَّ المعالـــــــــي بحذافيرها ولـــست أغالـــــــــــي

وبعد هذه الإشادة بشيخه الشَّيخ منصور المترلي ووصفه بالشُّهرة الـــتي طبقت الخافقين، والحطِّ من قيمة المناوئين الذين ليس لهم إلاَّ الدَّعاوي الباطلة في العلم بخلافه فإنَّه الإمام الجامع للمعالي، ولا إسراف في القول إذا قيل هو الجامع للمعاني كلِّها، بعد هذا كلِّه يطلب منه أن ينظمه في سلك الخطـــط العلميَّة شأن أمثاله المتحلِّين بها، فإنَّه محطُّ الرَّجاء ومعقد الآمال وعليه المعوَّل.

فانظمني في سلك قوم قد غـــدا جيــــــ د علاهـــم بخطَّـــة العلـــم حــــالي
فإليك حثت خيـــل رجائـــــــــي وعليـــك بعـــد الإلـــه اتِّكــــالي

ومن حيث العربيَّة فإنَّ المؤاخذة على قوله (غدا جيد علاهم بخطّة العلم الحالي) بادية لأنَّ قوله (حالي) خبر غدا فحقُّه النَّصب، وقد جاء به مرفوعا.
ومن خصائص هذا القصيد أنَّه وجدانيٌّ في قضيَّة هـــضيمة جانـــب في الحياة، فكان قصيدا متَّصلا بحياة صاحبه معبِّرا عمَّا يجول في نفسه نحو نفسه حين انسدَّت عليها حياة الكرامة.
وتشعر فيها بأنَّه ليس من أولئك المسفِّين في القول الباذلين ماء وجوههم توصُّلا لمآربهم، بل من الصَّائنين بعض الصَّون ماء الوجه، ولهذا صانه زمنـــا ما، و لم يبذله إلاَّ لمن رآه حقيقا بذلك وهو شيخه المترَّل مترلة الوالد.
والشِّعر الوجدانيُّ يسلم من التكلُّف لأنَّ النَّفس ترمي به غير ملتفـــة إلى التَّزويق اللَّفظيِّ الذاهب في بعض الأحايين بروعته وبهائه حتّى يصير معنـــاه زيفا وبهرجا ظاهريًّا لا ينمُّ عن عاطفة ولا يعبِّر عن شيء.
و لم تذهب مساعيه فإنَّه تقلَّد الإمامة والخطابة بجامع ســـليمان حيـــث مسقط الرَّأس، ومثوى الأهل والعشيرة، وتسنَّم خطَّة القضاء بها وٱستمرَّت في بيته.
ورغم التحرُّز في القصيد فهو ينبئ عن الإحساس بالغـــضاضة ولـــولا الهضيمة لما ٱندفع إلى القول ويؤكِّد ذلك أنَّه حين ذكره في ديوانه لم يـــذكر

إلاَّ ما نصَّه (وقال مادحا لشيخ علم) بدون ذكر المقول فيه، وإنَّما يستفاد أنَّه في الشَّيخ منصور المترلي بما جاء في البيت السَّابق وهو (منصور غدا كاسمه).

وكذلك أخلى ديوانه عن ذكر الباعث، فهو حين يكتفي بأنَّه في مدح شيخ علم يسدل السِّتار على الغرض الحقيقيِّ منه، إذ المدح لهذا الشَّيخ ليس إلاَّ وسيلة لما قاله في البيتين الأخيرين من الرَّجاء وتعليق الأمل فيه، فهما بيتا القصيد والباعث على النَّشيد.

ديوانه

ٱشتهر المترجَم بديوانه الذي ٱنتشرت نسخه لخفَّة شعره على النُّفوس، وٱرتباطه بحياته، والحياة التونسيَّة في ذلك العصر، وهو ما تراه في ديوانه في كثير من قصائده، وبين يدي نسخة منه تقع في مائة وثمان وستِّين صفحة.

وإذا ما تصفَّحته وجدت القليل منه في المدح، مثل مدح والده بقصيدتين حين ختم عليه تفسير الخازن لباب التَّأويل في معاني التَّتريل"، أو مدح بعض شيوخه وغيرهم كحمُّودة إدريس ومنصور المترلي وحمُّودة باكير، أو مدح بعض الأمراء لمناسبة إبطاله الخمر، وهو الأمير علي باي، ويقول في مطلعها:

طمحت بآمالي إلى المطمح الأسمى ... فأبرز توقيع النَّجاح لها رسما

وشعره فيه دائر بين القصائد الدينيَّة كقصيدة في الختم القرآني بزاوية الشَّيخ أبي الحسن الشَّاذلي، وبين القصائد الغزليَّة المتعدِّدة الأنواع التي كان لها الحظُّ الأوفر، وبجانب ذلك مكاتيب نثريَّة وشعريَّة مثل كتابة لرئيس المفتيِّين.

فأكثر نظمه قد حواه ديوانه في أغراض شتَّى، ويمكن للباحث أن يقف على جانب من حياته من خلال هذا الدِّيوان، كما سبق الذِّكر ممَّا يتعلَّق بناحتين من نواحي حياته النَّاحية الدراسيَّة، والأخرى تشكِّيه حين قعد به الزَّمان وتأخَّر به عمَّا فاز به الأقران، إلى غير ذلك من متنوِّعاته.

ومن طريف شعره ما جاء نتيجة لرحلة أدَّاها إلى القيروان تعلُّقا بذلك المثوى الكريم مثوى الصَّحابة رضوان الله عليهم، ورغبة في لقاء من بها من علماء وأدباء، فإنَّه لَّما قصد القيروان مرَّ في أثناء قصده لها بسوسة سنة 1186هـ فهرع إليه أهل سوسة مستضيفين له وبالغوا في إكرامه، وقصد أعيانها وأظهروا له من صنوف المبرَّة أنواعا، فبسطوا الموائد وأقاموا الحفلات الجمَّة التي أبدعوا فيها بالألحان المطربة والأناشيد المستعذبة، فتحرَّكت القريحة بمدح أهل سوسة على تقدمتهم الإكرامية، وٱهتزازاهم لقدومه:

سكَّان أهل سوسة جادكم صوب الحيا وبقيتم في غبطة وأمان
أتحفتم أضيافكم بلطائف من مبدعات اللَّهو والألحان
في ليلة أمست تفاخر بالذي أسدت إلينا سائر الأزمان
حسنت وقد أحسنتموا فملكتموا لضيافكم بالحسن والإحسان
لا زال في كلِّ البلاد ثناؤكم يتلى ويستجلي بكل لسان

ومن الصُّدف التي دعت إلى إفاضة الإكرام والتفنُّن فيه – وإن كان إكرام أهل سوسة غير متوقَّف على هذه الصدفة- أنَّ شاعر صفاقس وأديبها أبا الحسن الغراب كان زار سوسة قبل زيارة المترجَم فلم يسعوا لقدومه بالضِّيافة ولم يحتفلوا له إذ لم يلقه من معارفه أحد فأحسَّ بأنَّهم لم يقوموا بواجب الإكرام، وما يستحقُّه من الاحترام فضاقت نفسه، وجاشت فتهجَّم على سوسة وأهلها بالهجو لتقصيرهم نحوه، والشُّعراء لا تؤمن غائلتهم إذا ثارت نفوسهم، ووغرت صدورهم، فأنشد فيلك أبياتا منها:

[البسيط]

وكأنَّما سكَّانها خشب تبًّا لها من سوسة الخشب

فمن أجل هذا الهجو المثير للإحساس ٱغتنموا تلك الفرصة وهي زيارة المترجَم لبلدهم، فأظهروا أنَّ ما وقع للشَّاعر الغراب ليس من ديدنهم، وإنَّما لعدم علمهم به، فها أنَّهم لَّما حلَّ بينهم الشَّيخ ماضور أغدقوا إحسانهم له،

وتفنّنوا في إكرامه، فأنشد فيهم قوله السّابق، فتاقت نفوسهم إلى الزيادة في المدح فطلبوا منه أبياتا أخرى تمحو عنهم آثار الهجو فقال:

فاخر بسوسة أهل سوس المغرب والمشرق الأقصى ولا تستغرب
الأرض وجه وهي ثغر باسم والسّاكنوها كاللّمى المستعذب
ورثوا المكارم عن جدود علّموا أبناءهم كسب الثّناء الأطيب
ما منهم إلاّ كريم ماجد متواضع يسمو سموّ الكوكب
في عزّة وحضارة تدع الأولى زعموا الحضارة كالرُّعاة بسبسب
وكأنّما أخلاقهم من رقّة نسمات الصُّبح حول زهر معجب
وكأنّهم عند النِّزال ضراغمٌ تبدي إلى الأعدا وقوع المعطب
لسيوفهم وضيوفهم طول المدى نار وغي وقرى تشبُّ بمرقب
لازال وافدهم ينعم بينهم بالأنس والعيش الحميد المخصَّب
يا أهل سوسة بالسِّياسة نلتموا ما لا يقاوم من على المنصب
أنتم أولوا الإحسان فاصغوا واقبلوا منّي عجالة راكب مستحقب
لازلتموا أهلا لكلِّ فضيلة والعيش مرضيّ نقيُّ المشرب

وتنمُّ قصيدته في مدح سوسة وأهلها عن تأثُّره البالغ بالحفاوة والإكرام، فرقّت هذه القصيدة ولطفت، ونشرت على سوسة وأهلها مدحا مستعذبا غير مقصور على وصفهم بالإكرام لإزاحة ما رموا به، بل وصفهم بأنّهم سيوف وغى، وسيوب قرى، يعطون كلَّ مقام ما يناسبه فليسوا واقفين عند الإكرام مقصِّرين في المواقف الأخرى كذوي الميوعة الذين تنهشهم الأعداء ولا يبدون حراكا، كما أنّهم ليسوا متصلّبين لا يدرون بالإكرام لمن يأتيهم، وأضاف إلى ذلك أنّهم أهل سياسة -من الأقرب أنّه ٱستعمل السِّياسة بالمعنى المتعارف في تونس وهي اللِّين واللُّطف- أهل لنيل المناصب وأهل حضارة في رقّة أخلاق وكرم أعراق.

ومن حنكة الشّاعر أنّه لم يكتف بالردِّ على هجو الغراب فحسب، بل تجاوز ذلك إلى هجو من سبق لسوسة ممّا كان يمازح به بعض شيوخ سوسة

طلبته من أهل تونس كما ذكره التّجاني في رحلته ص (98) وهو الشَّيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار السوسي المتوفى بتونس سنة 662هـ، وهو قول الشَّاعر:

لا تلمني على الدَّناءة أنّي تونسيٌّ مررت يوما بسوسة

ويقول لهم أي البلدين يقتضي الشِّعر أن يكون أعظم دناءة، والردُّ على هذا البيت هو ما أشار إليه في أبياته الثَّلاثة التي أوَّلها:

ورثوا المكارم عن جدود علموا (الأبيات)

وكما أشار إلى ذلك أشار إلى ما مدحت به سوسة من أنَّ أهلها أهل حميَّة وذود عن الحوزة، فحين قصدهم الخوارج ذبُّوا عن حوزتهم، ومنعوا حريمهم أن يداس، فلم تطأه أقدام الأعداء.

إنَّ الخوارج صدَّها عن سوسة مناطعان السُّمر والأقدام
وجلاد أسياف تطاير بينها في النَّفع دون المحصنات الهام

ولنا عودة في الموازنة بين قول المترجَم:

الأرض وجه ثغر باسم

وبين قول ابن مفلح:

مدينة سوسة بالغرب ثغر

فالمترجم أراد أن يدفع عن سوسة وأهلها كلَّ ما ألصقه بها هجو الشُّعراء، وإذا ما قايسنا بين الهجو لها، ومدحها رجحت الكفَّة الثَّانية كفَّة المدح، فسقط من أجل ذلك الهجو والقدح.

من أغراضه الشعريَّة

لم يخرج شعره عن الدَّائرة المتعارفة في عصره من تناول الشِّعر للمدح أو الشَّكوى من الزَّمن، أو التغزُّل أو ما يجري في مجرى هذا المهيع، ولكنَّه خالف الكثير من أهل عصره من الأدباء حيث قصر شعره على التغزُّل وبعض الوقائع الخاصَّة التي دعت الظروف إليها، وما خرج من شعره عن

الدَّائرة التي قصره عليها قليل، وحتَّى إذا مدح كان مقتصدا في مدحه متوصِّلا به إلى بثِّ شكوى أو ٱلتماس حماية من أعدائه، ممَّا يدلُّ على أنَّه كان مترويا ومنطويا على نفسه، مقتصرا بها على ما يتعلَّق بها خاصَّة، ولعلَّ هذا من الأمور التي قصرت به عن أقرانه في نيل مآربه التي لم يتوصَّل إليها إلاَّ بعد ذلك التشكِّي، وطلب أيدي بعض شيوخه ٱستعانة بهم للوصول إلى غرضه.

ولولا أنَّه تكرَّر منه التشكِّي من الزَّمان والأقران من أهل بلده سليمان مع ذلك المدح الطَّفيف لكان شاعرا غزليًّا صرفا وهو أقلُّ من القليل في عصره لانصراف الشُّعراء عن التَّعبير عمَّا تقتضيه الشَّاعريَّة.

وجريا على المتعارف كان تغزُّله متعلِّقا بمن سمَّاهم بطريقة التَّطريز، وهو تطريز غير المعهود عند علماء البديع الذي هو الإخبار بصفة واحدة عن عدَّة أمور مثل قول ٱبن الرُّومي:

كأنَّ الكأس في يدها وفيها عقيق في عقيق في عقيق

وإنَّما هو تطريز بمعنى آخر، وهو أن يذكر الشَّاعر ٱسم الممدوح، والغالب ٱسم المتغزَّل فيه بالإشارة إليه بأوَّل حرف من الصَّدر أو العجز، وقد أكثر منه المتأخِّرون وشغفوا به، وتفنَّنوا فيه، ومنهم المترجَم الذي ولع بالتَّطريز بأسماء مختلفة أخصَّها محمَّد الدنوني الذي لا يطرِّزه باسمه فقط بل مقرونا بسيِّدي.

وهذا التَّطريز لم يقع التَّصريح به في تقدمة القطعة أو النُّتفة المطرَّزة وإنَّما أخذ ٱستنباطا في بعضها، وفي بعضها بالإشارة إلى حروف التَّطريز المكتوبة بالحمرة، ومع عدم التَّصريح قد يكتفي في بعض النُّتف أو القطع بالإشارة إلى الاسم فقط دون اللَّقب وذلك الكثير، فله قطع متعدِّدة طرَّزها بسيِّدي محمَّد، وكأنَّه أراد الإبقاء على شعره مع إرادة طيِّ ذكر المتغزَّل فيه شأن الذين يأنفون ممَّا يصدر عنهم حال الشَّباب، إذا بلغوا سنَّ الاكتهال فضلا

عن الشَّيخوخة، فيتحاشون عن ذكر ما صدر عنهم في أطوارهم المتقدِّمة، وقد يتعرَّضون إليه بصورة محتشمة كما فعل المترجَم.

وبهذا أمكن له الإبقاء على شعره، والاحتفاظ بهذا التُّراث الفكريِّ مع طيٍّ من أراد طيَّه بوجه ما، حيث ذكر شعره في الغرض المذكور دون التَّصريح بالمتغزَّل بهم، ولذلك اكتفى في تقديم أبياته المطرَّزة بقوله: وقال أيضا.

وأفصح عن هذا التَّحاشي بشعوره أنَّ التَّصابي لا يليق بالشُّيوخ لقول العاذلين فيهم (شيوخ تتصابى).

والله لولا العاذلون وقولهم لقطفت شيخ سبته محاسن فتصابى
وردا يانعا من خدِّه وهصرت غصنا وارتشفت رضابا

ومن قطعة فيمن ذكر المكتفى فيها الاسم فقط:

سهد أناخ على الجفون وخيَّما شأن الذي يهوى الملاح متيَّما أمست
يستعذب التَّعذيب في حبِّ الذي لواحظه تريش الأسهما وأقمت قلبي في
داريت فيه حواسدي وعواذلي يا هواه على الظما شبَّت جمارك كلّما
قلب من لك بارتشاف الثَّغر إذ مرّ شبَّ اللَّمى أفنيت دهري في عسى ولعلَّ
الزَّمان وهاجري يحلو وقد حنَّت إليه ما حنَّ الغريب المستهام إلى الحمى
جوانحي طربا كما بالقلب إلاَّ أمطرت عيني دما هنى
ما هبَّ ريح تشوُّقي وتهتُّكي دون بهجر الهجر صبا مغرما
المنى وقع القنا لو أنَّه

والاسم المستخرج من أوَّل حرف من كلِّ كلمة في الصَّدر هو (سيِّدي محمَّد)، وله أخرى مطلعها:

سعدت مقلة رأت منك خدًّا يتهادى مع المحاسن فردا

وله مثلها مطلعها:

سواء محيَّاك الأغرُّ وذا البدر وقدُّك ذا الميَّاس والغصن النَّظر

وقد صرَّح بالاسم واللَّقب في قصيد:

سلام وهل يغني السَّلام وينفع   إذا لم يكن للصبِّ في الوصل مطمع
يهاديه مكلوم الجوانح لم يكن   إلى غير هاتيك الملاحة يخضع
دعته إلى حرِّ التهتُّك والجوى   لحاظ بها أمسى الفؤاد يروع
يكايد أشواقا وفرط صبابة   متى ما تبدي بارق الحسن يلمع
من الكوكب الدرِّي والقمر الذي   له بسويدا ساحة القلب مطلع
حبيب إذا ماست معاطف قدِّه   تظلُّ لها الأغصان في الرَّوض تركع
مليح لو أنَّ البدر قابل حسنه   ونور محيَّاه لما كان يطلع
دعا فأجابته القلوب وأقبلت   مطايا الهوىٍ تصبو إليه وتهرع
إذا ما تبدَّى في النِّفار تخاله   غزالا، وكلُّ الحسن فيه مجمَّع
لقد صاغه الرَّحمان من طينة البها   وأضحت عليه خلعة الحسن تخلع
دلال يحاكيه النَّسيم لطافة   به ظلَّ في روض الملاحة يرتع
نفى حبُّه نومي وأضرم في الحشى   لهيبا به أمسى الفؤاد يلذع
وإنِّي لأرض بالرِّضا منه والذي   ينال رضاه اليوم فهو الممتَّع
نهي سلوتي عن أن تحلَّ بمهجتي   وأوسعها منه التهتُّك أجمع
يودُّ عذولي أن أصدَّ وإنَّما   محاسنه الكبرى إلى الشَّوق مهيع

والمستخرج من هذا القصيد من أوَّل كلِّ حرف من الصَّدر سيِّدي (محمَّد الدنُّوني).

وله نتف وقطع أخرى كذلك مطرَّزة بأسماء أخرى، منها ما هو مطرَّز بشلبي، أو سيِّدي أحمد، أو حسن إلى غير ذلك. وله تطريز آخر في الصَّدر والعجز مطلعه:

سرَّني إذ زارني ذاك الغزال   بين عزٍّ يتهادى ودلال

والمستخرج منه (سيِّدي إسماعيل).

والتَّطريز هذا للشُّعراء فيه تفنُّنات غريبة قد أبدع فيها شاعر مصريٌّ، وهو علي الدَّرويش[1]، ومن بدائعه قصيدة يستخرج من كلِّ تفعيلة منها أبيات مدح بها إبراهيم باشا:

1 علي بن حسن بن إبراهيم الأنكوري المصري، المعروف بالدرويش. شاعر، أديب. شاعر الخديوي عبّاس الأوّل. له ديوان شعر "الإشهار بحميد الأشعار" و"الدرج والدّرك". توّفي سنة 1270هـ/1853م. (الأعلام 85/5).

عمـــر العزيـــز يزدهـــي بالمطـــال   لازال يحيـــا في سمـــاء الجمـــال

ويندرج في أغراضه الشعريَّة وصفه لمجالس أنس، منها ما جمع بـين مـا يروق للنَّظر والشمِّ، فوصف ليلة كان فيها ما هو متعارف في تـونس مـن تزيين مجالس الأنس بالبهار – بهيرة- للعناية الفائقة للتونسيِّين بهذا الزَّهـر، فمنذ ظهوره لا تخلو منه بيوتهم ودكاكينهم فضلا عن مجالس أنسهم:

وليلة أنس قد حلَّـت باجلـــة   بهم يذهب الدَّهر المنكـد نحـســه
وفيهم رشَا أمـسى يعـزُّ دلالـــه   يرى من خلال اللّين واللُّطـف بأسـه
إذا ما البهار الغـضُّ قابـل حـسنـه   غدا خجـلا منـه وأطـرق رأسـه

ومنها المحتوي على ما لذَّ منظرا وطعما بإدارة كؤوس قهوة البنِّ من ساق جميل الصُّورة يسكر ريقه، والقهوة في المجالس الشرقيَّة عنوان من عناوينـها المغرية، فلا تزال إلى اليوم تحفة المجالس ترتشفها الشِّفاه متخيِّلة أنَّها ترتشف اللَّمى، وفي ذلك التخيُّل من المعاني تصوير المتخيَّلات النفسيَّة، ويا حبذا لوأنَّ شاعرنا صوَّر شيئا من ذلك، ولكنَّه ٱكتفى بما هو ماديٌّ منها:

يا ليلة بـين اللَّيـالي الـسُّـود   بـالله في دهـر المتـيَّم سـودي
فيك ٱلتقيت بـذي بـها ومحـاجر   وسنى تبيـد بـسيفها المغمـود
ما أبـصرت عـيني سـناه وقـدّه   إلاَّ رأت قمـرا علـى أملـود
لو شـاء أسـكرنا بخمـرة ريقـه   تشفي الصَّدى مـن ثغـره المنـضود
أفديه مـن رشـا كـان جبينـه   شمس الـضُّحى مقرونـة بـسعـود

شعره الرِّثائي

لَّما توفِّي الشَّيخ محمَّد بيرم الأوَّل صاحب "بغية السَّائل في ٱختصار أنفـع الوسائل في تحرير المسائل" للطرسوسي[1] في الفقه الحنفـي تنـافس بعـض الشُّعراء في تاريخ وفاته على الطريقة الأبجديَّة التي هي من الفنون البديعـة،

1 محمد بن أحمد بن محمد الطرسوسي. فقيه حنفي، مفسِّر. من كتبه "تقريرات على كتاب المرآة" و"حاشية". توفِّي سنة 1117هـ/1705م. (الأعلام 239/6).

وكانت وفاة المذكور سنة 1214هـ فأرَّخ بتواريخ منها (ختام العلماء) أو (خاتم العلماء) و(مهنى جنَّة الخلد)، وقد كلف المترجَم أنَّ ينظم التَّاريخ الأوَّل، وهو ختام العلماء فنظمه في قصيدته، وهي:

مصير العالمين إلى الفناء ... وما الدُّنيا بدار للبقاء
فهذا أكبر المفتين فينا ... وأشهر بالحفيظة والوفاء
دعاه الموت فارتاعت نفوس ... وضاق بذرعها رحب الفضاء
أبيرم بعدك الفتيا تولَّت محمَّد ... وقطع دونها حبل الرَّجاء
كم حمدت بفضل علم ... يحاشى أن يقابل بالسَّواء
ضريحك ذا رياض ضمَّ مجدا ... وأخلاقا كما غرف الكباء
فقف يا زائرا بالقبر واطلب ... له الرَّحمان وأخلص في الدُّعاء
وبالغ في الثَّناء بكلِّ معنى ... وأرِّخه (ختام العلماء)

ومجموع هذه الأحرف 1214 وهو تاريخ لا تكلُّف فيه من حيث المعنى، وأيضا هو سالم ممَّا نقد به التَّاريخ الآتي إلاَّ أنَّ المترجَم لم يرتضه لأنَّه ليس له، بل هو لغيره ثمَّ في التَّاريخ هذا تحكُّم على الله جلَّ وعلا بختم العلماء والله لم يختمهم، وكذلك هو كذب على الواقع لأنَّ المتوفَّى العلم متوفِّر بعده إذ العلم لم يختم به ولا بغيره لأنَّ العلم موجود ما دام الفكر الإنساني قائما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

ولمَّا لم يرتض التَّاريخ المذكور كيف أن ينظمه أرَّخه بتاريخ آخر، وهو (مهنى جنَّة الخلد) مرتضيا له لأنَّه من بنات أفكاره، ثمَّ هذا التَّاريخ سالم من التحكُّم والكذب كالتَّاريخ الأوَّل، ونظمه في قوله:

لتبك أعين المجد ... لفقد جلٍّ من فقد
فهذا السيِّد الأسمى ... وليُّ الحلِّ والعقد
فريد العصر في الفتيا ... كثير العلم والمجد
حميد حينما يدعى ... سمي الحائز المجد
دعاه الحقُّ كي يسمو ... لدار الفضل والرِّفد
فقف واطلب له الرَّحمان ... وطف من جانب اللَّحد
وقل فالا وتاريخا ... (مهنى جنَّة الخلد)

وقد ٱنتقده الشَّيخ بيرم الثَّاني (-1247هـ) في رسالته الـتي ألَّفها في التَّعريف بنفسه وأسرته، فقال: وهذا التَّاريخ وإن كان مبنيّا على ٱعتبار النُّطق بالحروف دون الرَّسم الذي هو المشهور بينهم فإنَّ الخطب فيه سهل.

وبيان هذا أنَّ (مهنى) يكتب بالياء وهي كما هو معلوم عددها عشرة بينما المترجَم ٱعتبرها واحدا لأنَّها عند النُّطق ألف والألف تعتبر واحدا، والمشهور في ٱعتبار الحروف في التَّواريخ هو الرَّسم لا النُّطق.

وبعد أن نقده الشَّيخ بيرم الثَّاني بسط القول في المسألة ذاكرا أنَّ الخير الرَّملي ٱستظهر ٱعتبارا لأمرين الرَّسم والنُّطق، ولكن ٱعتبار الأمرين يوقع في الوهم ما هو المعتبر أهو النُّطق أم الرَّسم، ويمكن دفع الوهم بأنَّ القرائن هي التي تعيِّن المراد من النُّطق أو الرَّسم، وأيَّد أنَّ النُّطق معتبر كالرَّسم بأنَّ هناك تاريخا مشهورا لفتح القسطنطينيَّة على يد محمَّد الفاتح، وكان ذلك سنة 857هـ وهو (بلدة طيِّبة)، فإنَّ مجموع عدد حروفه يعطي التَّاريخ المذكور لكن باعتبار آخر كلمتين تاء لا هاء، وهو ٱعتبار النُّطق، وأمَّا ٱعتبار الرَّسم فالآخر هاء، ولو ٱعتبرنا الرَّسم لكان التَّاريخ سبعا وستِّين سنة لا 857هـ لأنَّ عدد حروف الهاء خمسة ومجموع الهاءين عشرة.

وهذا التَّاريخ لفتح القسطنطينيَّة لا يسلم حتَّى عند ٱعتبار النُّطق لأنَّ طيبة يوقف عليها هاء فاتَّحد النُّطق والرَّسم، وأجاب عن ذلك بأنَّ من ٱعتبر النُّطق لم يعتبر حال الوقف وإنَّما ٱعتبر حال الوصل.

وٱعتذر الشَّيخ عن هذا التكلُّف بأنَّه سوَّغه الاقتباس من القرآن في تاريخ فتح القسطنطينيَّة وعن تاريخ المترجَم بأنَّ المسوَّغ له التفاؤل لقوله: (مهنى جنَّة الخلد)، والأجوبة كما تراها هلهلا كما يفهم من كلام الشَّيخ بيرم الثَّاني وبالأخصِّ الجواب عن تاريخ فتح القسطنطينيَّة فإنَّه في حال الوقف يعتبر الوصل أولا يوقف عليها هاء.

محمّد الملا

ٱتَّجه هذا الأديب إلى ناحية خاصَّة ملكت عليه أدبه، وهي محبَّة الشَّيخ عبد القادر الجيلاني[1]، فله في ذلك مؤلَّف وديوان شعر، وهذه النَّاحية غطَّت غيرها حتَّى أنَّ الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف لمَّا ترجم له تلك التَّرجمة المقتضبة، ٱقتصر على هذه النَّاحية منه[2]، وترجمة ٱبن أبي الضياف هي التَّرجمة الوحيدة.

ومع أنَّه كان معروف بالشِّعر لم يجد حظًّا عند الكاتبين في الأدب التُّونسي وكذلك كان معدودا من الشُّعراء في تلك الفترة التي عاشها، فالتَّعريف الجامع يدعو إلى ذكره وعدم إغفاله، ولو في تلك الجهة الخاصَّة الطَّاغية على حياته.

وبجانب هذه النَّاحية له أدب في غيرها كما ستقف عليه، وأدَّى إلى وقوفي على هذا الجانب الأدبي منه بعض الفرص الطَّيِّبة التي مكَّنتني من ٱقتناء بعض مؤلَّفاته، ومنها ديوانه في النَّاحية المذكورة فٱطَّلعت أنَّه كما نظم في مدح النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم، ونظم أمداحا قادريَّة كذلك له شعر في أغراض أخرى، وكلُّ الجوانب منه لا تدعو إلى إهماله، وهو ما دعاني إلى أن أضمَّه إلى أدبائنا السَّالفين، بالإضافة إلى الضنَّة بأدبنا عن الضَّياع، رغم ضعف الشاعريَّة.

ترجمته و تآليفه

محمَّد بن أحمد بن ملا، وقد ٱختلف النَّاسخون في كتابة لقبه، فمنهم من يكتبه المنلا بالنُّون بين الميم واللاَّم، لكن الثَّابت بخطِّه حذفها هكذا (الملا)، وهو ما نقشه على طابعه "يرجوك بالهادي الزَّكي المعلي، عبيدك محمَّد بن ملا"، وهو الصَّواب.

---

1 عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكى دوست الحسني، أبو محمَّد، محيِّ الدِّين الجيلاني، أو الجيلي: مؤسِّس الطريقة القادريَّة. من كبار الزُّهاد والمتصوِّفين. من كتبه: "الغنية لطالب طريق الحق"، "الفتح الربَّاني". (الأعلام 171/4).

2 الإتحاف 28/7.

ودراسته غير معروفة لأنَّه لم يترجم له من آعتنى بهذه النَّاحية، وهو لم يذكر شيوخه، أو أنَّ أمداحه في شيوخه في القسم الذي ضاع من ديوانه، وقصارى ما أمكن الوقوف عليه أنَّ من شيوخه محمَّد بن حسين البارودي[1] وأمكنت آستفادة ذلك من رثائه لابنه محمَّد إذ يقول:

يا آبن صهر الأمير أستاذنا البا رودي بحر العلوم شمس البلاد

والشَّيخ محمَّد بن حسين البارودي المتوفَّى سنة 1216هـ زوَّجه الباي حمُّودة باشا آبنته، ورزق منها ولده المذكور.

وكان المترجَم خطيبا ومدرّسا كما وقفت عليه بخطٍّ بعضهم ورغم قصر مدَّة حياته كانت له تآليف:

1) "تحفة الكتَّاب في مكاتبة الأحباب" وهي رسالة في إحدى وعشرين صفحة بالخطِّ الدَّقيق منتقاة من "بديع الإنشاء والصِّفات في المكاتبات والمراسلات" لمرعي بن يوسف المقدسي[2] (-1033هـ) مع تغيير وإضافة، وآستفدت ذلك بالمطابقة بين الكتابين لأنَّه لم يذكر شيئا من مصادره فيها لأنَّه بناها على الاختصار، يقول في فاتحتها:

(وبعد فهذه رسالة تشتمل على ذكر شيء من المراسلات، يستعين بها الكاتب في المكاتبات، سمَّيتها "تحفة الكتَّاب في مكاتبة الأحباب")، ولم يبنها على الأبواب كما بناها صاحب الأصل وإنَّما آكتفى بكتابة العناوين بالحمرة.

وتجده في بعض الأوصاف يأتي بما هو متعارف في عصره من التَّحلية مثل تحلية المفتي "بالشَّيخ الإمام، العلم الهمام، مفتي الأنام، وناصر الإسلام"، بينما جاءت أوصافه في "بديع الإنشاء والصِّفات" بغير هذا السَّجع.

---

1 الإتحاف 40/7.

2 مرعي بن يوسف بن أبي بكر بن أحمد الكرْمي، المقدسي، الحنبلي:مؤرِّخ وأديب. من تصانيفه:"نزهة الناظرين في تاريخ من ولِّى مصر من الخلفاء والسلاطين"، "بديع الإنشاء والصفات" (الأعلام 88/8).

وكمل تحريرها يوم الثُّلاثاء عاشر رمضان سنة 1206هـ، وهي غير مطبوعة.

2) "الصِّلات الكبرى في شرح الصَّلاة الصُّغرى"، وأنهى تأليفه هذا بقوله: "ووقع الفراغ من الدرِّ المنثور في عقود هذه السُّطور ليلة الثَّاني والعشرين من جمادى الأولى سنة 1204هـ".

وبنى تأليفه هذا على شرح الصَّلاة الصُّغرى التي ختم بها الشَّيخ عبد القادر الجيلاني حزبه المسمَّى حزب "الرَّجاء والالتجاء"، وقد ضمَّنه فوائد كثيرة تدخل فيما هو بصدد التَّأليف فيه، وقد طبع هذا التَّأليف سنة 1304هـ بالمطبعة الرسميَّة التونسيَّة.

3) "درر الخواص في فضائل سورة الإخلاص"، ضمَّنه تفسيرها، وفضائلها وغير ذلك، كما ضمَّنه أربعين الأرميوني وفرغ من تأليفه في ثالث صفر سنة 1209هـ، وهي سنة وفاته، وهو غير مطبوع.

4) "السُّعود المقبلة"، رسالة يذكر فيها بعد فاتحتها: "وبعد فهذا تعليق مبارك إن شاء الله تعالى سمَّيته "بالسُّعود المقبلة" في فضائل الحوقلة، جمعت فيه ما عندي من المسائل المحصَّلة وجعلت رياض أوراقه بأزهار الفواكه مكلَّلة"، وهي غير مطبوعة.

5) ديوانه المتضمِّن المدائح القادريَّة طبع مع كتابه المتقدِّم سنة 1304هـ.

6) ديوانه الذي ضمَّنه مراثيه وأمداحه وإخوانيَّاته، وهو غير مطبوع يقع في قرابة مائة صفحة، ومن المؤسف أنَّ نصفه مفقود.

وقد وقفت عليه بخطِّه، وميزة هذا الدِّيوان فيما تضمَّنه من التَّواريخ لوفايات كثيرة، وإن كانت بالنِّسبة للباحث قليلة الأهميَّة، لكنَّها لا تخلو من فائدة مثل وفاة صديقه الخطيب المدرِّس محمَّد بن محمَّد بن حسين البارودي المتوفَّى سنة 1207هـ، والشَّاب محمَّد ابن الكاتب محمَّد بوعتور سنة 1201هـ والمعمِّر قاسم بوكراع سنة 1204هـ

وهو في تواريخه من المطبوعين ومن ذلك نموذجا منا ما جاء تاريخا للشَّيخ محمَّد المسعودي:

فلـــه أدع الإلـــه إن زرت قـــبرا ثمَّ قـــل أيُّهـــا المـــؤرِّخ (بـــشرا)

وبشرا بحساب الجمل 1203

وبعض هذه التَّواريخ يصحِّح ما جاء في تاريخ الشَّيخ ٱبن أبي الـضياف من وفيات، فقد جاء فيه[1] أنَّ وفاة الشَّيخ أحمد السُّوسي ٱبن الشَّيخ عبد الله السُّوسي كانت سنة 1208هـ مع أنَّنا نجد في ديوان الملا بخطِّه أنَّ وفاته سنة 1207هـ ويؤيِّد ما جاء بالرَّسم الغباري بيت التَّاريخ وهو:

فبـــــــذاك زاد ســـــــروره وٱزداد في التَّـــاريخ (بـــــشره)

فإنَّ الباء (2) و الشِّين (1000) والرَّاء (200) والهاء (5) ولا يمكـن أن يكون ما جاء بخطِّ الملا غلطا لأنَّه نُقش على قبر المرثي ويقول في طالع هذا الرِّثاء:

هـــذا ضـــريح مـــشرق قـــد فـــاح بالإعطـــار نـــشره

وكذلك نجد الشَّيخ ٱبن أبي الضياف يغلط في وفاة القاضي أبي عبـد الله محمَّد سويسي[2] حيث يؤرِّخها بسنة 1204هـ بينما نجد المترجَم يؤرِّخهـا بسنة 1208هـ

قـــد فـــاز في دار النَّعـــيم بجـــوده فلـــذلك قلـــت مؤرِّخـــا (بـــشراه)

وجارى الشَّيخ ٱبن أبي الضياف صاحب "مسامرات الظَّريف" في الجزء الثَّالث[3]، والأقرب ما ذكره الملا لأنَّه معاصر للمرثي المذكور.

---

1 الإتحاف 27/7.
2 المرجع السَّابق 25/7.
3 ص 80.

الرِّحلة الشعريَّة

أنتج الميلان القادري للمترجَم شعرا ضمَّنه رحلات هي اليوم تعدُّ من العمل اليوميِّ المتكرِّر، ولكنَّها في العصر الذي عاشه المترجَم تعدُّ من الرَّحلات التي تشدُّ لها الرِّحال، فحين رحل المترجَم إلى الوطن القبلي رحلة كانت للقاء الإخوان المتصوِّفين، وزيارة الصَّالحين، والتبرُّك بخلواهم نظم هذه الرِّحلة، وكذلك غيرها قصده فيها أماكن غير الوطن القبلي ومنها رحلته إلى زغوان، ومنظومة رحلة الوطن القبلي في مائة وخمسة وثلاثين بيتا.

ٱبتدأ رحلته من تونس العاصمة وسار إلى أقصى نقطة في الرِّحلة وهي مترل تميم التي تبعد عن تونس مسافة لا تذكر وتعدُّ اليوم من الأمر الاعتيادي ولكنَّها بالنِّسبة لعصره أوَّل القرن الثَّالث عشر الهجري تعدُّ من المسافات الشَّاسعة.

ومن بواعث الرِّحلة علاوة عن اللِّقاءات والزِّيارات تأسيس قبَّة ببني خيار[1] للأذكار القادريَّة.

وهذه الرِّحلة وإن كانت شعرا إلاَّ أنَّه ضمَّنها الكثير من الوصف الذي يظهر جانبا من جوانب الحياة في تونس قديما وهو الجانب الطُّرقي حيث كانت الزَّوايا منتشرة في كلِّ رقعة من البلاد، وكان أهمُّ موطن أينع فيه بناء الزَّوايا هو الوطن القبلي لأسباب منها ما كان يتمتَّع به بعض جهاته من رعاية لانتساب للشَّرف أو غير ذلك، وكذلك الحركة العمرانيَّة التي ٱشتهرت بها هذه الجهة التي لا تزال إلى اليوم لها مميِّزاتها العمرانيَّة ولها ذوق في البناء محلي خاصّ.

ووصف في زياراته لبعض المدن ما يحدث من الإخوان حين يريدون لقاء شخصيَّة مرموقة يهتبلون لها من كونهم يخرجون بصورة مخصوصة تسمَّى (الخرجة) إظهارا للاحتفاء ومبالغة في الإكرام، فيجتمع أرباب الطُّرق من قادريَّة وغيرها يجتمعون في ظاهر البلد حاملين للأعلام والدُّفوف والنَّقارات

---

1 من مدن الوطن القبلي من ولاية نابل.

وغير ذلك رافعين الأصوات بالذِّكر والأناشيد حين يــرون المحتفــى بــه، يتقدَّمهم شيخ الطَّريقة وصف كلّ ذلك في قصيدة له كانت صورة من صور الحياة في عصره أوَّل القرن الثَّالث عشر، وهي صورة معتادة أدركنا أذيالها، وشعره الوصفي لرحلته هو نوع من الشِّعر غير متعارف في عصره في تونس يكاد يكون مختصًّا به، ورحلاته التي دوَّنها في شعره وأطنب فيها كانت ذات طابع خاصٍّ تصوُّفي لهذا عرف من هذه النَّاحية مع ما له من أمداح متعدِّدة وبالأخصِّ ما كان ينشد في المحافل.

ودامت رحلته من تونس إلى بني خيار المقصودة من الرِّحلة ثلاثة أيَّــام، وكانت بلدة بني خيار محلَّ ٱنطلاقه إلى ما حولها وما بعد منها إلى أن وصل إلى منزل تميم ولو وصف المنتقلون بين تونس ومنزل تميم رحلاتهــم شــعرا لتجمَّعت دواوين من ذلك لكثرتها، ولكنَّها اليوم من الأمر الاعتيادي وبهذا يدرك البون بين هذا العصر عصر السُّرعة في الانتقال وبين عــصره عــصر الأحمال، والسَّير على الخيل و البغال.

كانت رحلة المترجَم سنــة 1204هـــ كما أشــار إليه في طالع القصيدة بالحساب الأبجدي، وهو (رشد) في عشرين ذي الحجَّة يوم الجمعــة بعــد صلاة العصر- ويوافق العشرين من شهر أوت-، فرحلته كانت في الصَّيف ولهذا ٱبتداها بعد العصر، ولم يشرع في السَّير من رادس إلاَّ ليلا، وكانــت معه رفقة، وكانت على الخيل.

ٱبتدأ سير الرِّحلة من تونس في الوقت المتقدِّم، وكان المبيت برادس بعــد زيارة ضريح أبي يحيى، وقبل الصُّبح شرعت الرِّفقة في الــسَّير منــه وعنــد الوصول إلى سبَّالة الباي – بئر الباي- توضَّأ أفراد الرِّفقة، وصلُّوا الــصُّبح بصلتان إلى أن بلغوا سليمان وٱستراحوا بها للإبراد، ومنها ساروا إلى بــني خلاَّد ثمَّ إلى التومي ثمَّ إلى عبد السلام وهناك كان المبيت

لدى عام رشد قد أردنــا زيــــارة إلى (الوطن القبلي) والقلــب والــع
فسرنا بعيد العصر في يــوم جمعــــة ومن حجَّة عشرون مــرَّت شواســع

وزرنا (أبا يحيى) وبتنا ببرادس ... وسرنا بجنح اللّيل والجوُّ لامع
توضَّأ من (سبَّالة الباي) كلُّنا ... وكلٌّ لدى (صلتان) للصُّبح راكع
ومن بعد ذا جزنا (سليمان) فاغتدت ... تشير إلينا بالأكفِّ الأصابع
فأعجبنا بنيانها ونظامها ... وأعجبنا سوق لديها وجامع
فسرنا وقرص الشَّمس يزداد حرُّه ... ونحن على خيل بنا تتسارع
جلسنا بظلٍّ تحت أشجار روضة ... وهبَّ نسيم والطُّيور سواجع
وقلنا بروض ماله من مشابه ... وذقنا نعيما ما حوته مواضع
وجئنا (بني خلَّاد) البلدة التي ... بها جامع كالبدر إذ هو طالع
غدا خلوة للشاذلي لأجل ذا ... تلوح به الأنوار والنَّشر ذائع

وبعد يذكر مسيره من بني خلَّاد إلى أن وصل إلى عبد السَّلام ثمَّ يصف ما قطعه صحبة الرِّفقة من شعاب، وما طووه من مسافات شاسعة، ووصوله إلى بني خيار ديار الأحبَّة، وما آستقبله به أهلها وإمامها محمَّد المزوار شيخ القادريَّة الذي أقبل للقائه والرَّايات تخفق فوق رأسه:

وكم من شعاب قد قطعنا مع الربى ... وكم من طريق قددنا وهو شاسع
إلى أن قربنا من ديار أحبَّة ... وزالت علينا في الطَّريق الموانع
وفاحت علينا مسكة الحب من (بني ... خيار) وجاء النُّور منهم يسارع
فجاءت لترحيب بنا خير زمرة ... بأوجههم نور المكارم ساطع
يفوهون بالذِّكر الجميل وقلبهم ... من الوجد والأشواق لله خاشع
وقد جاء شيخ القادريَّة مقبلا ... على رأسه الرَّايات وهي لوامع
وذاك الإمام الفاضل السَّيد الرِّضا ... محمَّد المزوار حبر وبارع

ويصف بعد هذا دخوله لبني خيار، وإقامته بها، وما لاقاه من إكرام، والدَّار الجميلة الفريدة في نوعها التي أنزلوه بها، وآجتماعه بالأحبَّة المتوافدين عليه من سليمان.

ثمَّ يذكر إقبال الوفود عليه من دار شعبان، ونابل:

وقد أقبلت من (دار شعبان) رفقة ... كرام بهم غصن المكارم يانع

ومن (نابل) قد أقبلت خير زمرة بأوجههم نور المهابة طالع

ثمَّ يذكر مسير إلى البحر عشيَّة، وإقامته بجنان هناك لابن داود وزيارته مقام أحمد بن داود المتَّخذ محلاً لخلاعة بني خيار وبه بات:

فبتنا وجاءتنا الجماعة من (بني خيار) لهم في ذا المحل خلائع

وبعد إقامته بالمكان المذكور يرحل إلى نابل:

ومن بعد ذا رمنا المسير (لنابل) وفينا سرور زائد متتابع

ثمَّ يطيل في ذكر رحلته إلى أن وصل إلى مترل تميم والصقالبة، وقد زار في أثناء مسيره (الفهري) و(دار شعبان) و(الصُّمعة) و(بني عيشون) و(أم ذويل) وفي الرُّجوع يذكر مسيره للقرية التي صلَّى بها الجمعة ويختمها بأبيات يقول فيها:

ورمنا مسيرا نحو (تونس) فٱغتدت بنا الخيل في ذاك الطَّريق تسارع

إلى أن يقول:

وعدنا إلى (الخضرا) بعافية ولا نزال بإذن الله في ذا نراجع

أدبه التَّاريخي

ٱعتنى المترجَم بشيوخه في طريق القوم موصلا سندهم إلى نهاية السِّلسلة الصوفيَّة، ممَّا لم يصرف بعضه لشيوخه في العلم، فقد ذكر من شيوخه في التصوُّف أربعة فأفاد بذلك التَّاريخ التُّونسي فائدة تضيء بعض الجوانب من تاريخنا القريب، وحتَّى البعيد بترارة.

وبدأ من شيوخه هؤلاء بالشَّيخ حسن القصري المغربي التُّونسي (-1199هـ) وهو من شيوخ المغرب الوافدين على تونس، وكان مع علمه منكمشا على نفسه، مبتعدا عن الوظائف العلميَّة، مكتفيا بتجارته في سوق الربع السُّوق القريبة من الزَّيتونة، فٱستغنى بذلك عن تلك الوظائف حتَّى أنَّها لَّما عرضت عليه أباها، وترجم له الشَّيخ ٱبن أبي الضياف.[1]

1 الإتحاف 21/7.

ذكر المترجَم في كنّاشته أنّه تلقّى عنه الطّريقة الصوفيّة وهذا ما أثبته فيها: "يقول العبد الفقير إلى ربّه الأعلى محمَّد بن أحمد الملا جعله الله بالطّاعات محلّى. أخذت هذه الإجازة السنيّة المسلسلة وهذه الطّريقة العليّة المعنعنة عن أستاذنا الفقيه النّبيه المتفنّن السّالك، فريد عصره ووحيد مصره أبي عبد الله حسن القصري بتونس المحميّة".

ثمّ أطال في ذكر هذه السّلسلة فذكر أنّ الشّيخ القصري تلقّى عن شيخين هما الأديب الأريب محمَّد بن أبي القاسم بن المقدّم النّفطي والعارف محمَّد بن يعقوب الملقّب بالأزرق الرُّومي كلاهما عن الشّيخ أحمد بن إبراهيم الشّاذلي عن مربّي السّالكين الشّيخ محمَّد بن أحمد المصطاري، وهو صاحب الزّاوية الشّهيرة ببلد بترت التي بناها له مراد باي.

وقد ترجَم الملا في كنّاشته للمصطاري أثناء ترجَمته للشّيخ علي عزُّوز[1]، فذكر أنّ المصطاري من مكناسة الزّيتون أصلا ودارا ومنشأ وهو من أعيان أهلها ووجوههم ووقع الفتح له، وسلك أوّلا على يد محمَّد الزهراوي ثمّ على يد الشّيخ قاسم بن للوشة وهو الذي أشار عليه بالحجِّ والتّشريق ومات في حجّته التّاسعة بمكّة ودفن بالمعلى مقبرتها الشّهيرة سنة 1103هـ.

ويتّصل سند المصطاري كما ذكره المترجَم بالغزواني ثمّ التبّاع الذي ملأ صيته المغرب وقد ألّف فيه محمَّد المهدي الفاسي[2] (-1109هـ) كتابه المسمَّى "بمتع الأسماع في ذكر الجزولي ومن له من الأتباع".

ثمّ واصل سنده إلى أن بلغ به إلى أبي الحسن الشّاذلي (-656هـ) ويترجم لبعض رجال السّند فيما بعد الشّاذلي في الطّبقات الأربع التي ذكرها. والسّند بعد الإمام الشّاذلي مشتهر.

---

1 الوليُّ الصالح، صاحب الكرامات، أصيل فاس استقر بزغوان عند رجوعه من الحجِّ، توفي سنة 1122هـ./1710م. (الإتحاف 102/2، وذيل البشائر،ص287).

2 محمَّد المهدي بن أحمد بن علي بن يوسف الفاسي (أبو عيسى)، محدِّث، مؤرِّخ،نسَّابة، صوفي. من تصانيفه: "تحفة أهل الصدِّيقيةفي أسانيد الطائفة الجزولية"، "ممتع الأسماع في مناقب الجزولي ومن له من الأتباع". توفي سنة1109هـ./1698م. (معجم المؤلفين 56/12).

ويتَّصل بالشَّاذلي من طريق آخر حسبما جاء في تلك الكنَّاشة مثبتا بخطِّ مجيزه إدريس ٱبن أحمد بن محمَّد العمراني الحسني التَّسولي الفاسي ونصُّ طالعة إجازته:

"الحمد لله وحده أجاز كاتبه الواضع شكله أثره الشَّيخ الفاضل العالم العامل السيِّد أبا البركات محمَّد الملا إمام الحنفيَّة بتونس الغرَّاء صانها الله بمنِّه".

وإدريس التَّسولي أخذ عن أبي المحاسن يوسف الدرعي المتوفَّى بعد سنة 1187هـ عن عمِّه أبي العبَّاس أحمد بن محمَّد بن ناصر الدرعي (-1129هـ) صاحب الرِّحلة الشَّهيرة، وأضاف الملا إلى إجازة شيخه المذكور المثبتة بخطِّه سلسلة سنده المتَّصلة بالشَّيخ أحمد زروق[1] (-899هـ) بالغا بها إلى الشَّيخ أبي الحسن الشَّاذلي، وذكر مع ذلك ولادة أبي العبَّاس بن ناصر ووفاته ذاكرا أنَّه بلغ من العمر 72 سنة، وحقَّق يوم وفاته بما يخالف بعض المخالفة ما جاء في فهرس الفهارس للكتاني فعيَّن وفاته ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء ليلة التَّاسع عشر من ربيع الثَّاني من السَّنة المذكورة.

وأخذ المترجَم ثالثا عن الشَّيخ أحمد بن عمَّار الجزائري المتوفَّى بعد سنة 1204هـ، الشَّيخ الذي تدور عليه أسانيد الجزائريِّين وهو صاحب الرِّحلة التي طبع البعض منها المسمَّاة "نحلة اللَّبيب بأخبار الرِّحلة إلى الحبيب".

وأخذ ٱبن عمَّار المذكور عن الطيِّب الشَّرقي "جوَّابة الافاق" المتوفَّى بالمدينة المنوَّرة وهو صاحب الحاشية على القاموس عمدة الشَّيخ مرتضى الزبيدي، عن أبي الحسن اليوسي عن ابن النَّاصر الكبير محمَّد بن ناصر.

ورابع شيوخه أبو الفيض محمَّد مرتضى الزبيدي شهرة الهذري مولدا (-1205هـ) شارح القاموس والإحياء عن عبد الرحمان العيدروس

---

1 أحمد بن أحمد بن محمَّد بن عيسى البرنسي الفاسي، أبو العبَّاس، زروق: فقيه، محدِّث، صوفي. من كتبه: "شرح مختصر خليل"، "النصيحة الكافية لمن حضَّه الله بالعافية".(الأعلام 282/1).

(-1195هـ) وهو الذي ألَّف فيه الشَّيخ مرتضى الفهرس المسمَّى "بالنَّفحة القدوسيَّة"، بواسطة البضعة العيدروسيَّة.

ومن عجيب سلسلة الشَّيخ مرتضى هذه في طريق القوم أنَّه ذكر فيها شيخا من شيوخ تونس غير معروف وهو المعمِّر الشَّيخ أبو سالم إبراهيم بن أحمد الزواري التُّونسي المتوفَّى سنة 961هـ من أصحاب الشَّيخ أحمد زرُّوق.

ويصل بها الشَّيخ الملا إلى أبي الحسن الشَّاذلي، فما انقطع من هذه السِّلسلة أو صلة المترجَم.

وكما له في الأدب التَّاريخي هذا التَّعريف بالسِّلسلة الصوفيَّة علاوة على أدبه الشِّعري المار البعض منه، له شيء من تاريخ التصوُّف في تونس في التَّعريف بشيخ من متصوِّفيها وهو الشَّيخ علي عزُّوز (-1122هـ) فالمترجَم وإن اقتضب في ذكر سلاسله الصوفيَّة فإنَّه في التَّعريف بالشَّيخ علي عزُّوز لم يقتضب، وما أتى به يضيف شيئا جديدا إلى تاريخنا الصُّوفي ممَّا يحتاج إلى بسطة لا تسعها هذه العجالة، فإنَّ تاريخ التصوُّف في تونس لا يزال محتاجا إلى التَّحرير.

وتوخَّى المترجَم في ترجمة الشَّيخ علي عزُّوز ناحية غير التي سلكها صاحب "ذيل بشائر أهل الإيمان" وهي العناية بشعر الشَّيخ علي عزُّوز الملحون بينما اعتنى من جاء بعده وهو صاحب الذَّيل المذكور بكراماته، فكلٌّ من المترجمين للشَّيخ علي عزوز اعتنى بناحية غير ناحية الآخر.

ولم يكتف المترجَم بجمع بعض الشِّعر العزُّوزي الملحون بل أضاف إليه تعليقات تاريخيَّة، منها أنَّ بعد أن ذكر هذه القطعة للشَّيخ المذكور وهي:

إذا عرفتم فاعرفوا الله   واعرفوا حال الطريقة
بالكم تأخذوا رأي مسنوح   ولا تنزلوا في وثيقة
وإذا عرفتم حي قيوم   ينجيكم من كلِّ ضيقه

ذكر ما ملخَّصه، مع الاحتفاظ بالأسماء لأنَّ في ذكر بعضها ما يمسُّ بعض الفروع الموجودة اليوم بتونس، أنَّ المسنوح يقال له سالم... من أهل بني خيار أحدث ضجَّة حول زواج إحدى الكريمات من بني خيار من شابّ من نابل، ونادى بأعلى صوته في بني خيار قائلا يا قلوب النِّساء ما يهمُّكم عار، نابلي حمَّار - بتشديد الميم - بياع أبزار، يأخذ هذه البنت من وسطكم وأكابركم خطبوها لأولادهم فلم يعطها أبوها، فبعث ذلك الحمية في بعضهم حتَّى دلَّسوا وثيقة في أنَّ أباها زوَّجها من قبل بشابٍّ من بني خيار وزكّوها بعدد بلغ حدَّ التَّواتر ورفعوها لقاضي الدَّخلة فأبطل العقد الثَّاني على حسب المدَّعى، فأخذ الوثيقة الشَّاب النابلي لتجريحها فصادف مجيء الشَّيخ الصغير داود المتوفَّى بعد سنة 1117هـ للدَّخلة مع رفقة له فاطَّلعوا على جلية الأمر، والتَّدليس الواقع في وثيقة الزَّواج، فحين رجعوا لتونس اتَّصلوا بالباي حسين بن علي فسألهم عن حال الدخلة فأخبروه أنَّها بخير إلاَّ أنَّ جماعة من بني خيار اتَّفقوا على أمر باطل وهو الوثيقة المذكورة فأمر عامله على نابل بتغريم أهلها ألف ريال.

محمد بن سعيد الحجري

*صلتي بابن سعيد الحجري[1]

تبتدئ صلتي بابن سعيد الحجري منذ عهد الدِّراسة حين شرعنا في قراءة شـــرح الأشموني على الخلالة الألفية لابن مالك فقد كنَّا نتنافس في الـــدّروس النَّحويـــة، وبالأخصّ في درس شيخنا المرحوم محمَّد بن القاضي، ونتنـــاقش في حلقتـــه في مسائل العربيّة لأنَّها كانت محبّبة إلينا وكنَّا نحن الطَّلبة بالزَّيتونة شـــغوفين بهـــا، مؤثرين لها على غيرها.

ولم تنقطع هذه الصِّلة إذ استمرَّت بعد عهد الدِّراسة حيث كنت متعلِّقا بالـــشِّعر فأحببته فكنت ناظما ولا أقول شاعرا ومطَّلعا على دواوينه، ومن جملة دراســـاتي ديوان النَّجم لابن سعيد "الفلك المشحون" وكنت شغوفا به لما فيه من اختراعات لطيفة، وسهولة نظم، وهو ما دعاني إلى دراسة الأدباء التّونسيين تحـــت عنـــوان "أدباء سالفون".

ودعاني إلى اتّخاذ هذا العنوان أنَّ أكثريّة من الشّباب استهواها الأدب المطلق من الوزن وحتَّى من المعاني كالأدب الرَّمزي، فأحببت أن أذكّر هذه الأكثريَّة بأدبها السَّالف الّذي لا يخلو من طرافة وإبداع، فهم لا يعرفون أدباءهم وإنَّما يعرفـــون جيرانا ومن يتجيَّرون مّمن لم يبلغ شأوه فأصبحوا يخبطون خبط عشواء، وأرادوا المحاكات، فكانت بعيدة عنهم.

هذا ولا تسأل عن الَّذين طلَّقوا العربيَّة ورطنوا بلغة غير لغتهم فكـــادت تنقطـــع صلتهم بسلفهم.

فبحوث الأدباء السَّالفين دعوة إلى السَّلفية الأدبية دون غضٍّ الطَّرف عن الحاضر والمستقبل وسواء استساغها قرَّاؤها أو لم يستسغها البعض فإنَّها خيط من خيوط الأصالة الّتي نناديها ويناديها رجال الأمَّة.

وواصلت السَّير في سلفيَّة الأدب، فأخذت أحقّق بعض الدَّواوين مثـــل ديـــوان حمُّودة بن عبد العزيز وابن سعيد، أو خلاصات من الدَّواوين الطَّويلة.

1 اقتطفنا هذه الفقرات من مسوّدة مقدّمة تحقيق ديوان ابن سعيد الحجري الّذي لم يتمّه الشّيخ (60 صفحة مرقونة).

ٱشتهر ٱبن سعيد الحجري بسبب ذكائه الوقّاد، وٱنضاف إلى ذلك أنّه أدركته المنيَّة وهو في سنِّ الشَّباب، وذلك من دواعي العطف كما نشاهده في بعض المعاصرين الذين ماتوا في سنِّ الشَّباب، فلهذا كان حظُّه من بين الأدباء السَّالفين غير حظٍّ من تقدَّمه، فالشَّافعي والعصفوري وغيرهما لم يسعفهم الحظُّ بالشُّهرة كالمترجَم.

وبجانب أنَّه أديب هو عالم متخرِّج على الطريقة المسلوكة في وقته، وقد ٱمتاز عن أعلام ذلك الوقت بأنَّه ترك آثارا رأت النُّور بالطَّبع إمَّا في تونس أو في القاهرة.

فهو عالم يحتاج للموازنة بين علمه وأدبه وبيان أيِّ الكفَّتين أرجح، أهي كفَّة أدبه أم كفَّة علمه، وسنتناول ذلك بعد بسط ترجمته.

ورغم ترجمة الكثير له كانت تراجمه تدور فيما كتبه ٱبن أبي الضياف في تاريخه[1] وأوسع تراجمه ما كتبه صاحب "عنوان الأريب" فهو يتمِّم ما جاء في تاريخ ٱبن أبي الضّياف، ومع هذا لم يذكروا سنة ولادته، والظَّاهر أنَّها في حدود 1160هـ أو ما يقاربها بقرية بوحجر من قرى المنستير، ٱشتهر بٱبن سعيد الحجري والشَّائع على الألسنة إسكان الجيم.

وإنَّما جعلت ولادته في تلك السَّنة وهي حدود السِّتِّين من القرن الثَّاني عشر ٱعتمادا على ما ذكره ابن سعيد في ديوانه من أنَّه أنشد قصيدا لمَّا نفى الباي علي بن حسين الشَّيخ صالحا الكوَّاش، وكان ذلك أوائل مدَّة إمارته وإمارته تبتدئ من سنة 1172هـ بعد وفاة أخيه الرَّشيد، والأقرب أن يكون ذلك سنة 1175هـ، فما ذكره الشَّيخ السنوسي في آخر حاشيته المترجَم من أنَّه لم يبلغ الثَّلاثين لا مستند له، فلعلَّه ٱعتمد على ما ذكره الشَّيخ ٱبن أبي الضياف من أنَّه مات على حال شبيبته وهو لا يفيد ما ذكر.

1 الشَّيخ أبو عبد الله محمَّد بن علي بن سعيد، ويلقب في عصره بنجم الدِّين. (الإتحاف 7/17-19).

تعلّمه

وبعد تلقّيه دراسته الابتدائيَّة ٱنتقل إلى تونس العاصمة، ويذكر الشَّيخ ٱبن أبي الضياف أنَّه سكن المدرسة المراديَّة، وٱتَّصل في دراسته بعائلة المحجوب المتنقِّلة من بلد مساكن، فقرأ على الشَّيخ قاسم المحجوب (-1190هـ) الذي كان أحد المتبرِّزين في المذهب المالكي، والمتخرِّجين على المربِّي السَّالك المنعش للحياة الدينيَّة بمساكن الشَّيخ علي بن خليفة (بالتَّصغير كما هو ثابت بخطِّه في تقريظه شرح الشَّيخ محمَّد ماضور لمناسك النُّوري (-1175هـ) وأطرى الوزير الحاج حمُّودة بن عبد العزيز في تاريخه قاسما المحجوب بقوله:

"سيَّما المفتي أبو الفضل قاسم المحجوب المساكني حافظ المذهب المالكي بالمغرب، وكان فقيها يميل إلى الاجتهاد فيتتبَّع الأدلَّة الأصوليَّة". ولمَّا توفِّي رثاه المترجَم بقصيد منه:

[الطويل]

تنام جفون المرء والخطب يقظان ... وينكر حرب الدَّهر والموت برهان
ويكثر في الدُّنيا الدنيَّة حبّه ... وما وصلها إلاَّ هموم وأحزان
ومن عرف الدُّنيا وشدَّة مكرها ... تساوى له منها وصال وهجران
وسيَّان للإنسان عزٌّ وذلَّة ... إذا لم يساعده من الله رضوان
ومن كان بالأيَّام غرًّا فحسبه ... على غدرها رزء الأئمَّة عنوان
عنيت بهم من كان لو وزنوا به ... لكان له عنهم من الوزن رجحان
أبو الفضل مفتي المالكيَّة قاسم ... وحسبك من ذكر به الدِّين نشوان
سراج بني المحجوب بل وبني التُّقى ... وآل العلا والعلم آية ما كانوا
فتى كانت الدُّنيا بعاطر صيته ... كما فاح في وقت العشيَّة بستان

ويذكر أبناءه ويقصد ٱبنيه محمَّدا وعمر المترئسين في حياته وبعدها

فحقٌّ عليه أن يقول مؤرِّخ ... وأبناؤه في أرؤس الدَّهر تيجان

كما يؤرِّخه في هذا البيت:

محـــــقّ عليـــــه أن يقـــــول مـــــؤرِّخ   بحــــقّ لمفـــــت جـــــلّ روح وريحـــــان

والعجز كلّه تاريخ لسنة وفاته التي هي 1190هـــ.

وأكثر ٱتِّصاله بالمحاجبة بٱبن المتقدِّم وهو مَحمَّد (بفتح الميم) بن قاسم المحجوب(- 1243هـــ) المشهود له بسعة العلم في المذهب المالكي كوالده الحاج قاسم.

وكان في المعتاد أنّ الدُّروس الحافلة حين تختم تنشد فيها قصائد من فحول الطَّلبة وأدبائهم، وكان من بين الكتب التي يحتفل بختمها "المختصر الخليلي"، وكان لبيت المحجوب ٱعتناء خاصّ بهذا المختصر بسبب أخذ الشَّيخ قاسم المحجوب[1] الوالد عن الشَّيخ علي بن خلفية المساكني الذي تلقَّى عن الحلبة المتسابقة في القرن الثَّاني عشر لشرح "المختصر الخليلي"، والكتب الفقهيَّة في القاهرة الخرشي[2]، والشبرخيتي[3]، والنفزاوي، فحمل طريقة خاصَّة في شرحه مع ما تقتضيه شخصيَّة المدرِّس، فحين ختم شيخ المترجَم محمَّد المحجوب "المختصر الخليلي" حضره والده، وكان ختما حافلا رغم أنَّ شيخ المترجَم سعى في كتمانه، ولكنَّه ٱنتشر الخبر وحضره الكثير، وأنشد في هذا الختم النَّجم ٱبن سعيد قصيدا نوَّه فيه بشيخه، وٱستهلَّه بالتغزُّل على طريقة المادحين الذين يفتتحون قصائدهم بالتغزُّل وهو تغزُّل متكلِّف، ومطلع قصيده:

---

1 الشَّيخ أبو الفضل قاسم بن الحاج المحجوب الشريف المساكني، مدرِّس، خطيب، ولي الإفتاء، كبير أهل الشورى، من علماء المالكية. توفِّي سنة 1190هـــ. (مسامرات الظَّريف 179/2).

2 محمَّد بن عبد الله خرشي (الخراشي) أبو عبد الله. فقيه، شيخ الأزهر، من كتبه"الشرح الكبير على متن خليل"، "الفرائد السنيَّة شرح المقدمة السنوسية". توفِّي سنة1101هـــ./1690م. (الأعلام 118/7).

3 إبراهيم بن مرعي بن عطية، برهان الدِّين الشبرخيتي، فقيه مالكي من كتبه "شرح مختصر خليل" و"الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين حديثا النوويَّة". توفِّي سنة 1106هـــ./1694م. (الأعلام69/1).

[الطويل]

ألا مــن لــصبٍّ قــد بــراه جــواه   فيذهب وجــدا حــار فيــه حجــاه

ويتخلَّص فيه لمدح شيخه:

فيا ليته لــو كــان داء جهالــة   لكان جمــال الرَّاســخين شفــاه

هو العلم الهادي إلى ســنن الهــدى   وإن لم يكن هــاد إليــه ســواه

محمَّد الأسمى الذي شــهدت لــه   جميع بني الــدُّنيا بفــرط ذكــاه

طراز بني المحجــوب والمعــشر الــذي   تسنَّم مــن أعلــى الكمــال ذراه

أناسا رأيت المجد وقفــا عليهــم   وأنَّ ســواهم لا يحــوم حمــاه

له قلم إن خــاض بحــر دواتــه   تيقَّنــت أنَّ الــدرَّ دون رضــاه

وإن ماس بــين الــسّطور حــسبتــه   سنا بارق قــد لاح بــين دجــاه

إمــام إذا مــا لاح بــارق حــسنه   رأيت سحاب العلــم كيــف حيــاه

سراج لياليــه ونجــم سمائــه   وبدر لياليــه وشمــس ضحــاه

ويذكر بعد ذلك ختمه الذي أحبَّ كتمانه ولكنَّ علمه نمَّ عنه فــشاع الخبر.

إليك عروسا كالرِّيــاض محاسنــا   يكلِّل منــها الزَّهــر درَّ نــداه

تمنِّيك بالختم الذي رمــت كتمــه   فــنمَّ بــه في النيِّــرات شــذاه

وخضت به بحرا مــن العلــم واســعا   بعيدا عن الحــسَّاد شــأو مــداه

وأخيرا يتبجَّح بأنَّ قصيده هذا لم يفتح به أحد فمه، وأنَّه على تكراره لا يملّ وهو غلوٌّ في الاعتزاز بشعره.

فجئت به كنزا مــن الــدرِّ لم يجــيء   بهــا أحــد قبلــي ليفــتح فــاه

تلذُّ علــى تكرارهــا فكأنَّهــا   ثنــاء حبيــب لا يمــلُّ ثنــاه

دفاعه عن أستاذه

ومن شيوخ ٱبن سعيد الشَّيخ صالح الكوَّاش[1] (-1218هـ) الذي دافع عنه حين جرت له حادثة مع الباي علي بن حسين، وهي أنَّه بلغه عن الشَّيخ المذكور أنَّه تناوله، ومن المتبادر أنَّ من أسباب تناوله للأمير بالقول أنَّه كان متَّصلا بأخيه محمَّد الرَّشيد وكان من زمرة العلماء الذين كان لهم ٱتِّصال به بسبب محبَّته للعلم، ومن المقرَّر أنَّه كان هناك تجاوب بينه وبينهم ولهذا ألفوا مجلسه، وينبئك عن هذا أنَّ الشَّيخ صالحا الكوَّاش كان مشهورا بالصَّلابة الدينيَّة، والاعتزاز بالنَّفس، ومثله في هذا الاعتزاز الوزير محمَّد الشَّافعي، ومع هذا كان كلاهما منسجما مع الرَّشيد باي، فلمَّا آل الملك إلى الأمير السَّابق وهو علي باي أحسَّ العالمان المذكوران بالجفوة منه حتَّى آل الأمر بالشَّافعي لمبارحة التُّراب التُّونسي لوجهة الحجِّ فأدركته المنيَّة في حال الغربة، وأمَّا الشَّيخ صالح الكوَّاش فباح بذات نفسه بما لم يتحمَّله الأمير المذكور فنفاه إلى منزل تميم.

واعتنى بهذه الحادثة محمَّد بن سعيد، وأنشد فيها قصيدة تحاشى أن يعلن أنَّها له فٱنتشرت هذه القصيدة، وقصائد أخرى فيها هجو وتعرُّض بالقول، وقصيدة ٱبن سعيد محاولة لإخراج هذه الحادثة عن المتبادر منها إلى أنَّ سببها وشاية لا غير تحمّل وزرها واش خبيث.

فقد قامت حركة أدبيَّة تدافع عن الشَّيخ الكوَّاش، وبالطَّبع إنَّ ما قيل ٱتَّصل بإذن الأمير فسرَّحه بعد شهر، وقد تعرَّض لهذه الحادثة صاحب "عنوان الأريب"[2] ذاكرا أنَّ سبب هذا النَّفي هو الوشاية من هذا البعض ممَّا هو بريء منه فنفاه إلى منزل تميم، ثمَّ تبيَّن للأمير أنَّ ما بلغه وشاية مغرضة لا أصل لها من الصحَّة فأطلق سبيله، فلمَّا حلَّ بتونس ترضَّاه، فٱمتنع الشَّيخ أوَّلا قائلا له (إنَّ الله حذَّرنا في كتابه الكريم من أقوال الوشاة) ثمَّ سامحه.

---

1 صالح بن حسين الكواش (أبو الفلاح). فقيه أصولي، له "شرح الصلاة المشيشية". (الإتحاف 44/7-46).

2 عنوان الأريب 636/1، دار الغرب الإسلامي، 1996.

ٱقتصر صاحب العنوان على هذا مع ٱحتمال أن يكون من أسباب إطلاق الشَّيخ الكوَّاش الضجَّة الأدبيَّة التي قامت لَّما نفي والقصائد التي قيلت وإن كان بعضها في هجوه، ومن القصائد قصيدة ٱبن سعيد.

وهناك سبب آخر لإطلاقه وهو أنَّ الشَّيخ الكوَّاش لَّما آلت الدَّولة إلى علي باشا وقتل حسين بن علي كان من الصَّامدين مع أبنائه.

فلهذه الأسباب العدَّة لم يطل نفي الشَّيخ الكوَّاش، فالأدب التُّونسي في تلك الفترة على ما هو عليه ساهم مساهمة كان لها ضلع في تقشُّع السُّحب ورجوع المياه إلى مجاريها.

ولم يغفل ٱبن سعيد ذكر هذه القصيدة في ديوانه، ولكنَّه لم يتجرَّأ على نسبتها لنفسه وإنَّما كتب تقدمة لها هذه الفقرة:

" كان عامئذ نفي الشَّيخ الفاضل الصَّالحي الكوَّاشي وجدت قصائد لم يدر قائلها بين هجاء أو تعرُّض للقول فيه، من ذلك قصيدة نونيَّة فائقة فنسبها إلى جماعة محتجِّين بأنَّه لا يقدر على ذلك غيري".

ومن الطَّريف أن نذكر ما كتبه بعض المالكين للنسخة التي عند كاتبه:

"انظر ما هو الدَّاعي إلى أن يعدل عن أن يقول ومن ذلك ما صدر عنِّي فيما يتعلَّق بنفي الشَّيخ صالح الكوَّاش إلى التّعبير بما كتبه قبل القصيدة، والظَّاهر بذلك التوصُّل إلى قوله، فنسبها إلى جماعة محتجِّين بأنَّه لا يقدر على ذلك غيري، فإن كان ذلك هو المقصود فهو عجيب من مثله من جهات:

إحداها أنَّه كان في عصره من الشُّعراء من هو أبرع منه بكثير كالشَّيخ الورغي والشَّيخ حمُّودة بن عبد العزيز.

الثَّانية أنَّ مرتبته في العلوم شاركه فيها عدَّة بل يتجاوزونه".

ثمَّ كتب الكاتب نفسه بعد ذلك ما تدارك به حملته على ٱبن سعيد وبرَّأه من العجب بنفسه، فذكر أنَّه كتب ما كتب عن سوء فهم للغرض الحامل للشَّيخ محمَّد بن سعيد عن العدول عن نسبة القصيدة إلى نفسه، وأنَّ السَّبب الحامل له على ذلك هو ما تضمَّنته من شتم من فعل بالشَّيخ ما فعله ونسبة

الجهل إليه والاستبداد، فخشي الشَّيخ ٱبن سعيد من علي باشا فتستَّر بما سلكه من التباعد عن إظهار نسبة القصيدة إلى تلميذ الشَّيخ.

ورغم رجوع الكاتب عمَّا كتبه أوَّلا فإنَّ الشَّيخ ٱبن سعيد لا يخلو من إعجاب لما كتبه هنا من قوله (محتجِّين بأنَّه لا يقدر على ذلك غيري، وغير ذلك).

وقصيدة ٱبن سعيد في الدِّفاع عن الشَّيخ الكوَّاش التي دار حولها النقاش حمل فيها على الواشي حملة شعواء وأقذع فيها غاية الإقذاع ممَّا يتحاشاه الأديب الذي يحترم نفسه، ولكن يغتفر ذلك لأنَّ الحامل له هو تغاليه في حبِّ شيخه صالح الكوَّاش مع أنَّه في سنِّ الشَّباب الذي لا يقدِّر عواقب القول، ولهذا تحاشى نسبتها لنفسه صراحة وإن لم يغفلها من ديوانه.

ونأتي بمقتطفات من أبيات هذه القصيدة ممَّا هو مدح في الشَّيخ الكوَّاش، أو هجو غير مقذع يخلٌّ بالآداب.

[البسيط]

هَلْ مِنْ سِنَانٍ إلى نَحْرِ ٱبنِ سَنَّان ... مشحوذة أرهفتها كفّ سنَّان[1]

تَجْزِيه من هَجْوِه الطود الذي شهدت ... بفضله الخلق من قاص ودان

أخفى المزايا التي مُدَّتْ سُرادقُها ... بالفخر من فوق بَهرام وكيوان[2]

وذُو المعالي التي ما نالَ أصْغَرَهَا ... من الأنام ولا أبناء ساسان[3]

عَنَيْتَ صالحًا الأقصى الذي نَظَرَتْ ... له العلوم بطرف غير وسنان

ذَاكَ الذي عَقَدَتْ عنه خَنَاصِرَها ... منَ الرِّجال فُحُولٌ غير خصْيان

وأَيْقَنَتْ أنَّه الفَرْدُ الذي ٱدَّخَرَتْ ... أيدي اللَّيالي لَهَا مِن مَتْنِ أرهان

1 السنان بالتَّخفيف نصل الرُّمح، وابن السَّنان بالتَّشديد لقب المهجوّ، والسّنان في القافية صاقل السّكين.

2 بهرام اسم عدَّة من ملوك فارس من الطَّبقة الرَّابعة، وكيوان اسم زحل بالفارسيَّة.

3 بنو ساسان هم الأكاسرة وهي الطَّبقة الرّابعة من ملوك فارس ويقال لهم السَّاسنية نسبة إلى جدّهم ساسان. انظر تاريخ أبو الفدا.

وتِلْـكَ عَادَتُهَـا فـي كـلِّ مُنْفَـرِد ... بالمَكْرمات ولـو مـن آل عُثْمَـان
تُحيـلُ عزَّتَـهُ ذُلًّـا وتُلْبِسُـهُ ... مـنَ الخُطُـوب ثيابًـا ذَاتَ أَلْـوَان
ولاَ تَـرِقُّ ولا تُصْغي لنائحَـة ... ولو أتى طَرْفُهَـا البـاكي بطُوفَـان
هوت بصالح من أَعْلَى مطَالعه ... وحَمَّلَتْـه همومًـا ذَاتَ أَفْنَـان
وكَـدَّرَتْ وِرْدَهُ الصَّافي بوَطْأَتِهَـا ... وكَمْ مَشُوق لذاك الورْد ضَمْآنَ
وأنَّ تُـونُس أَمْسَتْ بَعْـدَ غَيْبَتِه ... كأنَّهَـا مُقْلَـةُ مِـنْ غَيْـرِ إنسَان
فَلَيْتَهَـا يَـوْمَ نـادُوا بالرَّحيـل لَـهُ ... فَدَتْهُ بالشَّرس الوَغْـد ٱبـن سَنَّان
أبـو الخبائث مَـنْ لَـوْلاَ تَوَسُّطُه ... مَا جاز في الذِّكْرِ هَيَّـانُ بـن بَيَّـان

ويختمها ببيت يذكر فيه أنَّ هذا الواشي أثقل عباد الله:

أَرَكُّ مَنْ نَظَرَتْ عيني ومَنْ سَمِعَتْ ... أُذْني وَمَنْ أَدْرَكَتْ نَفْسِي إلى الآن

مؤلفاته

كانت حياة ٱبن سعيد العلميَّة عامرة بالتَّأليف، ولقيت تآليفه عناية بطبع بعضها وبقي البعض الآخر، مع أنَّ مدَّة حياته لم تكن مديدة، فإنَّنا وإن لم نقف على سنة ميلاده بالضَّبط إلاَّ أنَّنا نجزم بأنَّ حياته قصيرة، فقد مات في حياة شيوخه، وقد أطبق كلُّ من أرَّخه على أنَّه مات في سنٍّ مبكِّرة، وإن كنَّا لم نر ما يؤيِّد ما ذكره الشَّيخ السنوسي الحفيد من أنَّه مات دون ٱكتمال الثَّلاثين.

وبإقباله على التَّأليف، فارق عادة التُّونسيِّين الذين ٱنصرفت وجهتهم إلى التَّدريس دون التَّأليف، وتعليل هذه الظاهرة يحتاج إلى بسط ليس هذا محلَّه حتَّى إنِّي كنت عزمت على إلقاء محاضرة يعقبها حوار حول ذلك من نخبة من الأدباء، وحالت دون إلقائها الظروف الحرجة الماضية التي عاشتها تونس أثناء حركة المقاومة للاستعمار، وهي جاهزة وإلى اليوم لم يتيسَّر إلقاؤها.

وتتوزَّع تآليف ٱبن سعيد نواحي متعدِّدة بين عمليَّة عربيَّة وبين منطقيَّة، وليس له إلاَّ أثر أدبيٌّ واحد لم ير النُّور.

1) ومن أشهر تآليفه حاشيته التي كتبها في العربيَّة، وهي "حاشية على شرح محمَّد بن علي الأشموني"[1] (-900هـ) على "ألفيَّة آبن مالك" (-672هـ) التي كانت ولا تزال مصدرا ثريًّا لتحرير المسائل النحويَّة والصرفيَّة، وقد توجَّهت العناية تلقائيا، كتب عليها الكاتبون، ومن أشهر شروحها الشَّرح المذكور الذي اعتنى به الدَّارسون وكتبوا عليه الكتابات العديدة، وأصبحت الكتابات حوله ميدانا تتناحر فيه الأقلام، ومن أشهر من كتب عليه قبل آبن سعيد يوسف الحفني[2] (-1178هـ) وآشتهرت حاشيته هذه حتَّى أنَّ من كتب بعده كالصبَّان[3] (-1206هـ) وآبن سعيد آقتفوا أثره إمَّا متَّبعين أو منتقدين، وحاشية الصبَّان في أربعة أجزاء وحاشية آبن سعيد في جزئين كلاهما مطبوع، أمَّا حاشية الصبَّان فطبعت مرَّات متعدِّدة إحداها في سنة 1305هـ وكلُّها في القاهرة، وأمَّا حاشية آبن سعيد فطبعت في تونس كما سيأتي ذكره.

والحاشيتان كانتا محلَّ أنظار المطالعين والدَّارسين في تونس في مقارنات ومحاكمات، وعند البعض أنَّ ابن سعيد اطَّلع على حاشية الصبَّان لردِّه عليه من غير تصريح بآسمه.

وهما وإن كانا في عصر واحد فبينهما آختلاف، فمن أوجه الاختلاف بين الصبَّان وآبن سعيد نظرتهما للحفني، فالصبَّان يهوِّن من شأنه حيث يقول "أو قلت البعض فمرادي به الفهَّامة الفاضل سيدي يوسف الحفني" بينما آبن

---

1 علي بن محمَّد بن عيسى، أبو الحسن، نورالدين الأشموني، نحوي، من فقهاء الشافعية، ولي قضاء دمياط، وصنَّف "شرح ألفية آبن مالك"، ونظم "المنهاج"، ونظم "جمع الجوامع". (الأعلام 6/5).

2 يوسف بن سالم بن أحمد الحفني، شاعر، من فقهاء الشافعيَّة، له: "مقمتان" و"رسالة في علم الأدب" وله عدَّة شروح منها "حاشية على الأشموني" توفِّي سنة 1176هـ./1763م. (الأعلام 308/9) وجاء في معجم المؤلفين أنَّه توفِّي سنة 1178هـ.

3 محمَّد بن علي الصبَّان، أبو العرفان: عالم بالعربيَّة والأدب، مصري، له "الكافية الشافية في علم العروض والقافية" و"حاشية على شرح الأشموني على الألفية". (الأعلام 189/7).

سعيد يعظِّم من شأنه فيقول "وجعلت قداح النَّظر ومناط السَّهم والوتر حواشي الفاضل الوجيه والكامل الخيِّر النَّزيه أبي البهاء يوسف الحفني قدَّس الله روحه ونوَّر ضريحه فإنَّها خلاصة آراء من قال على ذلك الشَّرح، ولباب أفكار من أشرف على قنة ذلك الصّرح، وغيرهم ممَّن كتب على غيره من متناول التَّصانيف ومتناول التَّآليف".

ومنها أنَّ الصبَّان كانت كتابته علميَّة صرفة بخلاف ٱبن سعيد، فإنَّه تأنَّق في العبارة وتكلَّف فيها لا في خطبة الكتاب فقط بل في غيرها، ومن نماذج ٱختلاف أسلوبيهما خطبتاهما، فالصبَّان بعد الحمدلة والتصلية يقول: "أمَّا بعد فيقول راجي الغفران محمَّد بن علي الصبّان غفر الله ذنوبه وستر في الدَّارين عيوبه هذه حواش شريفة وتقريرات جليلة منيفة خدمت بها شرح العلاَّمة نور الدِّين أبي الحسن علي بن محمَّد الأشموني".

بينما ٱبن سعيد يعبِّر عمَّا عبَّر عنه الصبّان بعبارات تأنَّق فيها غاية التأنُّق وظهرت فيها كذلك روحه الأدبيَّة فيقول: "هذا وإنَّ أفقر العبيد محمَّد بن علي بن سعيد أحسن الله عاقبته وقرن بالسَّعادة دنياه وآخرته يقول راجيا أن يقابل صنيعه بالقبول: هذه حواشي رقيقة الحواشي رسمها بعض أساتذتنا الكرام علم الصُّلحاء وصالح الأعلام في عالم الأنام "بزواهر الكواكب لبواهر المناكب"، تروق مجتليها وتشوق مجتنيها، ٱستقرحت من صحيح الإشارة زندا وريا، وٱستكملت من فصيح العبارة أثاثا وريًّا إلى تحقيق ضرب لديها قبابه وتدقيق خلع عليها ثيابه، وإمعان ألاح عليها لمعانه، وإتقان أفاح لديها روحه وريحانه، فجاءت كما جاء النَّسيم معطَّرا، يبشِّر من بعد القطيعة بالوصل، دعاني إليها حقّ فدعوته فأجاب، وخطى رعته فٱنجاب، في مسائل لبست على فضلاء عظام فلم يعرفوا لها لحوما من عظام، لم ألتفت فيها إلى ما قيل فالحقُّ أولى بذلك، و لم أعوِّل فيها على أقاويل فلكلٍّ نظر مسالك.

[الخفيف]

قد عرفنا الرِّجال بالعلم لمَّا عرف العلم بالرِّجال أناس

يستحسن وصفها العلماء الأخيار ويستجيد رصفها الأذكياء الأحبار وحسبها ذلك ذكرا وكفاها شرفا وفخرا.

[الوافر]

وهَبني قلت هذا الصُّبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء

أمَّا السخَفة الكسدة الجهَّال والسَّفلة الحسدة الأنذال الذين يعارضون النَّكهة العنبريَّة بالبخر، ويصفون اللَّواحظ العميَّة بالحور المالؤون زجاجتهم صدعا وأنوفهم قذعا، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعا فيرون حسنها ليس بالحسن، وينكرون عليها إنكار الخوارج على أبي الحسن".

وٱستمرَّ فيها على هذا المنوال، فكانت قطعة أدبيَّة رائعة، تمثِّل قلمه النَّثري بأحسن ممَّا جاء في "الفلك المشحون"، ولهذا آثرت جلب بعضها تبيانا لروحه المنبثَّة في الكتاب، وتصويرا لأدبه النَّثري في تأليفه العلميِّ المزيج من التَّحقيق والأدب.

ولهذا لم يستطع أن يستمرَّ على ذلك للتكلُّف والتأنُّق والتَّطويل في بعض الأحايين، ومن هنا كانت كتابته على نصف الكتاب الثَّاني غيرها فيما كتبه على نصفه الأوَّل غير أنَّه إن سنحت له الفرصة في النِّصف الثَّاني، وٱنفسح المجال لم يقصِّر كما تراه في تعرّضه لترجمة سيبويه حين مسَّت المناسبة إلى ذلك عند قول ٱبن مالك:

[الرجز]

والعجز أحذف من مركَّب وقل ترخيم جملة وذا عمرو نقل

فترجم له "بأنَّه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر الإمام الرَّئيس المشهور، المكتوب ٱسمه في صفحات الأيَّام ووجنات الدُّهور، الذي رزق في صناعة النَّحو غاية السَّعادة، حتَّى ألقت إليه ملوكه مقاليد السِّيادة، إلى أن صار غاية فضلهم التعلُّق بكتابه ونهاية فخرهم الولوج في مضائق أبوابه، وأين النَّاس من رجل قدَّمه الخليل وشهد له بالفضل الأتمِّ والشَّرف الجزيل".

ومن الصُّدف المماثلة أنَّ هذا الكتاب لمَّا طبع في المطبعة التُّونسيَّة حلِّيت خاتمة الطَّبع بقصائد ثلاث إحداها التي في الجزء الأوَّل للشَّيخ حمزة فتح الله، والاثنتان اللتان في آخر الجزء الثَّاني للشَّيخ محمَّد السنوسي الحفيد، وٱستمرَّ طبع هذا الكتاب مدَّة سبع سنوات من سنة 1291هـ إلى سنة 1298هـ.

2) شارك ٱبن سعيد في التآليف المنطقيَّة، فله فيها مؤلَّفان، أحدهما حاشية على شرح الخبيصي في المنطق سمَّاها "بتشحين التَّذهيب لكتاب التَّهذيب"، وهي على الشَّرح المذكور المسمَّى "بالتَّذهيب على شرح التَّهذيب" وقد ٱعتنى فيه بشرح قسم المنطق من الكتاب المسمَّى "بتهذيب المنطق والكلام" لسعد الدين التفتازاني (-792هـ) الذي ٱشتهرت كتبه وأصبحت المعوَّل عليها في المدارس الإسلاميَّة في المشرق والمغرب، وٱعتنى بها الكاتبون والدَّارسون، وعكف عليها الباحثون سواء في ذلك ما كان منها في أصول الدِّين أو أصول الفقه أو العربيَّة.

ومن بين كتبه المشتهرة كتابه هذا التهذيب الذي ضمَّنه علمين: علم المنطق وعلم الكلام، والمشتهر هو قسم المنطق، أمَّا قسم الكلام فغير معتنى به إلاَّ أنَّه شرحه عبد القادر الكردستاني (-1304هـ).

وقسم المنطق هذا كتب عليه الكاتبون عدَّة كتابات بين شرح وحاشية، وٱشتهر من شروحه شرحان شرح الجلال الدواني[1] (-907هـ) وٱشتهاره عند الأعاجم، والشَّرح الثَّاني شرح الخبيصي عبيد الله بن فضل الله المتوفَّى في حدود سنة 1030هـ وٱشتهاره بمصر وتونس، وهو الذي كتب عليه ٱبن سعيد حاشيته المذكورة وقد سبقه في الكتابة عليه يس بن زين الدِّين الحمصي[2] (-1061هـ).

1 محمَّد بن أسعد الصديقي، الدواني الشافعي (جلال الدِّين)، فقيه، متكلِّم، حكيم، منطقي. من تصانيفه: "شرح هياكل النور للسهروردي في الحكمة الأربعون السلطانية في الأحكام الربَّانية"، "شرح التَّهذيب" للتفتازاني في المنطق. (معجم المؤلفين 47/9).

2 ياسين بن زين الدِّين بن أبي بكر ٱبن عليم الحمصي، الشَّهير بالعُلَيْمي، شيخ عصره في علوم العربيَّة. من تآليفه "حاشية على ألفيَّة ٱبن مالك" (الأعلام 155/9).

وقد ٱتَّخذه ٱبن سعيد هدفا لانتقاداته، وصبَّ عليه حملاته القلميَّة في كثير من المباحث، وحطَّ عليه في خطبة كتابه تنقيصا ونسبة الإغارة على غيره بما نمَّقه فيها: "وقد كنت حين آنسته، إذ دارسته -أي شرح الخبيصي- رأيت عليه حاشية، أنيقة الناشية منسوبة للعلاَّمة يس بن زين الدِّين شكر الله سعيه وأباحه من الجنان رعيه، إلاَّ أنَّه كثيرا ما يقول ما حقُّه أن لا يقال، ويتمسَّك بظلمات يظنُّها بدور كمال مع أنَّه نسخ شرح المولى العصام، ظنًّا منه أنَّه التَّحقيقات العظام، وجلُّ النَّاس على ٱستحسان ذلك متوافرون، وعلى قبول عامَّة ما هنالك متظافرون، فبعث الله إليه منِّي نفسا جامحة، من التَّقليد جانحة، إلى فيضات النَّظر السَّديد، فأملت لذلك هذه الحاشية، وأوجبت عليها أن تكون مع الانصاف ماشية، فحينئذ كشفت عن وجوه الحقِّ اللثام وأزالت عن محيَّا الصِّدق الإبهام".

ومن البواعث لٱبن سعيد على كتابته هذه إظهار الاقتدار على ما أطبق عليه أهل عصره مدحا فقابله قدحا، فأجرى قلمه نقاشا مع عالم ٱعتمد المعاصرون له على كتاباته وهو الشَّيخ يس الحمصي كما هو معروف من الوقوف على ما نسخ من حواشيه.

وكما تحامل ٱبن سعيد على يس الحمصي تحامل عليه حسن العطَّار شيخ الأزهر(- 1250هـ) فقال: "وتلاه -أي يس الحمصي- العلاَّمة ٱبن سعيد المغربي فشغف بالاعتراض عليه، وولع بتعقبه في كلِّ ما عوَّل عليه، وقد ألجأه ذلك إلى الاعتساف وتجاوز الإنصاف، ووقع في أوهام وأغاليط تعكِّر الأفهام، وقد قيل فيما سبق من الأمثال التي تناقلها الرِّجال "قلَّ إن سلم مكثار أو أقيل له عثار"، وكثيرا ما ينقل عبارة غيره موهما أنَّها ممَّا له سنح، عندما أورى زناد فكره وقدح، وربَّما أطال في بعض المواضع ذيل الكلام مع عدم ملائمة الحال وٱقتضاء المقام.

وكأنَّه حملته العصبيَّة المشرقيَّة ضدَّ ٱبن سعيد الذي وصفه بالمغربي حيث تحامل على بلديِّه الشَّيخ يس الحمصي المصري فٱنتصف منه بتعقُّبه في بحوثه معه.

ومن الطَّريف المباحث الدَّائرة بين هؤلاء الثَّلاثة ما كتبه ٱبن سـعيد في مسألة من العربيَّة مسَّت إليها المناسبة في الكلام على خطبة الكتاب، ممَّا يدلُّ على ميل ٱبن سعيد إلى العربيَّة وٱعتنائه بتحرير مسائلها، وبحثه هذا هـو أنَّ الحضري هل يعتمد على كلامه ويستشهد به لغة. فيس الحمصي يذهب إلى أنَّه لا يعتمد على الحضري فضلا عمَّن خالط الأعـاجم، ولهـذا لا يحتجُّ بتراكيب الزَّمخشري لأنَّ مرتبة الاحتجاج لا ينالها العربيُّ الحضريُّ، فكيـف ينالها العجمي وذلك لأنَّ الله خصَّ العرب الذين لم يخالطوا الحضر بعـصمة ألسنتهم عن الخطإ.

ويردُّ عليه ٱبن سعيد بأنَّه إفراط بدليل صحَّة الأخذ عن أهل مكَّة والمدينة زادهم الله شرفا، وبلغتهم جاء التَّتريل وهم أهل حاضرة، وٱستدلَّ على مـا ذهب إليه بأنَّ كلام الشَّافعي حجَّة، وأطنب ٱبن سعيد في ذلـك إطنابـا مشكورا جاء تحريرا عميقا.

والعطَّار كان على خلافه، فأوجز في المسألة ناقدا عليه تحريـره بأنَّـه لم يفهم كلام يس الذي لم يقصد بأهل الحواضر كلِّهم بل من خالط الأعاجم فٱستعجم.

وهذا البحث مبنيٌّ على قول الزَّمخشري في المفصَّل "وقـد نـدبني مـا بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب... لإنشاء كتاب في الإعـراب محيط بكافَّة الأبواب." حيث ٱستعمل كافَّة غير منصوبة على الحال، وأصل الانتقاد على الزَّمخشري لابن هشام في "المغني".

ولو أقحمنا أنفسنا في البحث في خصوص كافَّة متتبِّعين كتب العربيَّـة لاتَّضح أنَّ الحقَّ مع ٱبن سعيد فإنَّ ٱستعمال الزَّمخشري هذا لكافَّة مجرورة له شواهد من النَّقل والقياس كما بسطه مرتضى الزَّبيدي في "تاج العروس في

شرح القاموس"، فقد نقل عن الكثير خروج كافَّة عن الحاليَّة، هذا من جهة النقل، ويذهب ابن يعيش[1] في "شرح المفصّل" إلى أنَّه لجوء إلى القياس.

وتتبُّع بحوث ٱبن سعيد والعطَّار ينتج أنَّ ما ٱدَّعاه العطَّار على ٱبن سعيد تلبس به.

هذه الحاشية طبعت مرَّات منها طبعة بولاق سنة 1296هـ

3) ومؤلَّفه الثَّاني في المنطق رسالة سمَّاها "بلوامع التَّدقيق لقول صاحب التَّهذيب إن كان العلم إذعانا للنسبة فتصديق"، وهي رسالة مخطوطة في قرابة العشرين صفحة أنهاها تأليفا سنة 1192هـ، ومنها نسخة بخزانة كاتبه بها نقص.

وهي رسالة حريَّة بالبحث إذ أنَّها تبيِّن مدى تحريرات ٱبن سعيد التي يحتفل لها شأن الباحثين، إذ هي خاصَّة ببحث خاصٍّ في التَّصديق الذي هو الشقُّ الثَّاني للعلم، لأنَّ المناطقة يقسمونه إلى تصوُّر وتصديق.

وٱستهلَّها بمقدِّمة في تحرير معنى النَّفس والعقل، وكلامه على النَّفس مجرَّد ٱقتصار على حكاية الأقوال فيها، وتحريره في تعريف العقل أوسع.

وبنى هذه الرِّسالة بعد المقدِّمة على لامعات ثلاث، وخصَّ اللاَّمعة الثَّالثة بتحرير ما بنى عليه الرِّسالة وٱنتقد فيها على شارح التَّهذيب الخبيصي ٱنتقادات عشرة، وختم الرِّسالة بخاتمة في أنَّ العلم المنقسم إلى تصوُّر وتصديق هو العلم الإنساني دون غيره.

وعلى عادة ٱبن سعيد في التَّباهي ببحوثه ينمِّق في مقدِّمة هذه الرِّسالة أنَّه أتى فيها بما وقف عنده الفحول من العلماء الباحثين:

"ووراء ذلك أنَّ أفقر العبيد، محمَّد بن علي بن سعيد سدَّد الله بالإصابة سهامه وأيَّد بالعناية نقضه وإبرامه يقول "هذه رسالة لطيفة تروق مجتليها،

---

1 يعيش بن علي بن يعيش بن أبي السرايا محمَّد بن علي، أبو البقاء، موفق الدِّين الأسدي، المعروف بٱبن يعيش وبٱبن الصانع، من كبار علماء العربية. موصلي الأصل، من كتبه: "شرح المفصَّل" و"شرح التَّصريف الملوكي". توفِّي سنة 643هـ/1245م. (الأعلام 272/9).

وعجالة ظريفة تشوق مجتنيها"، وسمَّاها "بلوامع التَّدقيق"، إن كان العلم إذعانا للنِّسبة فتصديق،أفضنا حياض ألفاظها تهذيبا، وأحضنا رياض أغراضها تذهيبا، وفتحنا فيها بعض كنوز وقفت دونها فحول الرِّجال وحلَّلنا فيها شيئا من رموز لم يركض لها أحد في مجال، إلى غير ذلك من أوصاف زانتها تودُّ النُّجوم لو كانتها".

4) "ختم المختصر الخليلي"، ألَّفه جريا على العادة المتعارفة في كتابة الدروس التي تكون عند ختم الكتب الشَّهيرة وبالأخصِّ "المختصر الفقهي" لأبي المودَّة خليل بن إسحاق الجندي (–776هـ) الذي ملأ الاشتغال به المدارس المالكيَّة ووقعت العناية به أكثر من غيره إذ كتب عليه الكثير حتَّى أنَّ بعضهم ألَّف مؤلَّفا خاصًّا فيمن كتب عليه سواء كان شرحا أو حاشية أو تعليقا وبلغت الكتابات عليه عددا ضخما، وهذه الكتابات تتناول المختصر كلَّه إمَّا بإيجاز وإمَّا بإطناب.

وبجانب هذه العناية عناية أخرى تختصُّ بآخره خاصَّة، وآخر مسألة فيه مسألة الخنثى من حيث الميراث لأنَّ "المختصر الخليلي" كان مختوما بالفرائض.

فكلٌّ من كتب ختما للمختصر تناول هذه المسألة، وبالطَّبع أن تتزاحم فيها الأقلام، لأنَّ دروس الختم ينبغي أن تكون ممتازة بأنَّها تحريرات تفوق الدّروس العاديَّة، ففيها إفاضة من شخصيَّة الباحث، وهذا في الدُّروس الحديثيَّة أوسع مجالا لعدم توارد الكاتبين على موضوع واحد حيث جرت العادة فيها أن يكون الختم عند آخر حديث يدرِّسه المدرِّس، أمَّا في ختم المختصر فإنَّهم يتواردون على موضوع واحد، ثمَّ المسألة الأخيرة في المختصر ليست قابلة للبسط، فالقول فيها محدود لأنَّها مسألة من الفرائض تدور في محيط ضيِّق، فليس البحث فيها متَّسعا كالعلوم الحديثيَّة أو التفسيريَّة أو العربيَّة.

ولم يكن ٱبن سعيد الأوَّل من الكاتبين في هذه الدَّائرة الضيِّقة، بل سبقه إلى ذلك الكثير، ومنهم من هو معدود في طالعة الشُّيوخ في تونس وهو الشَّيخ محمَّد بن علي الغرياني (-1195هـ) الذي كان عمدة التُّونسيِّين في قراءتهم أو إجازتهم.

فكان موقف المترجَم في كتابته هذه دقيقا يحتاج إلى مهارة فائقة حتَّى يتبيَّن للنَّاظرين مكانه العلمي وبحثه الشَّخصي وبالأخصِّ أنَّ ختم الدُّروس لا يقتصر الحضور فيه على الطَّلبة، بل يستدعى له شيوخ العصر إظهارا للمقدرة كما حكاه ٱبن سعيد في "فلكه" حين سجَّل مثل ختمه لأحد شيوخه الذي يعدُّه أبرع أهل زمانه في فقه مالك: "ومن ذلك ما قرأته في المقري الشَّيخي الإمامي المفتي المحمَّدي المحجوبي بمحضر والده وغيره من علماء العصر يوم ختمه المختصر الفقهي"، وقد أنشد في ذلك قصيدته التي مطلعها:

[الطويل]

ألا من لصبٍّ قد براه جواه فيذهب وجدا حار فيه حجاه

وكان شيخه محمَّد المحجوبي قد برز في ختمه هذا، وأبدى فيه تحريرا ٱرتضاه المترجَم كما دوَّنه في قصيدته هذه:

وخضت به بحرا من العلم واسعا بعيدا عن الحسَّاد شأو مداه

ٱقتدى ٱبن سعيد بعادة عصره، فحين ختم "المختصر الخليلي" ٱعتنى بدرس الختم وكان ذلك سنة 1198هـ وذلك قبل وفاته بسنة، وحشد له الشُّيوخ والطَّلبة فكان جمهورا عديدا لإظهار فضله على من عداه، ولبيان فصاحته وذلاقته اللسانيَّة ولإبداء تحريره في هذه المسألة الدَّقيقة، وسجَّل ذلك فيما وصف به نفسه في طالعة الرِّسالة على لسان غيره، وهذه الرِّسالة أراد أن يضاهي بها رسالة الغرياني في الخنثى، المشكل مدَّعيا أنَّه لم يكتبها أوَّلا عند إلقاء الختم وإنَّما كان درسه قوليًّا فحسب، وهو وليد الارتجال، إذ هو وليد ليلتين فقط، مع قلَّة المصادر الفقهيَّة، فلم يكن بين يديه حين تحرير

درسه غير شرحي المختصر للخرشي والزَّرقاني مع حاشية الأوَّل للصَّعيدي المصري، وحاشية الثَّاني للبناني المغربي مع ختم الشَّيخ الغرياني التُّونسي المتقدِّم، ثمَّ بعد ذلك ٱنثنى للكتابة فسجَّل ما ألقاه أوَّلا، وهذا ما جاء في طالعة الختم:

"فهذه سوانح غرر، أثرناها يوم ختمنا المختصر، ولم يتَّفق لي إلاَّ ليلتين مطالعة لشرحي الخرشي والزَّرقاني، وحاشيتهما للصَّعيدي والبناني، وكتابة العلاَّمة الغرياني أسعد الله الجميع بنيل الأماني".

أحبَّ ٱبن سعيد بهذه الفقرة أن يظهر أنَّه لم يكتب ما كتب ناقلا فحسب لأنَّ المواد التي اعتمد عليها ليس فيها ما جاء من بحوثه في ختمه، وإن كانت تلك المواد التي ٱعتمدها من أوسع ما كتب على خليل وبالأخصِّ كتابة الزَّرقاني، فإنَّ شرحه من أوسع الشُّروح على "المختصر الخليلي"، وبالإضافة إلى ٱتِّساعه فإنَّ الكاتبين عليه من علماء المغرب الأقصى قد جعلوا هذا الشَّرح عمدة المتفقِّهين في الفقه المالكي، إذ كرَّس البناني المغربي له جزءا من حياته، وبذل جهدا مشكورا لخدمة هذا الشَّرح حتَّى يكون عمدة الفقهاء المالكيَّة، وقد ٱعتنى به التُّونسيُّون عناية خاصَّة حتَّى أنَّ بعض فقهاء تونس وهو الشَّيخ حسن الشريف ٱختصره ٱختصارا مفيدا بما جعله حريًّا بالوقوف عليه.

ومن لباقة ٱبن سعيد أنَّه وإن قلَّل في مصدره، لكنَّه لم يعرها من الفائدة الجليلة حيث ٱقتصر على أهمِّ الشُّروح على المختصر للإشارة إلى أنَّ ختمه عصارة البحث والنَّقل.

ومع قلَّة المصادر فٱبن سعيد في ختمه للمختصر الخليلي قد أشبع القول حيث بلغت صفحاته 32، ولو طبع لبلغت صفحاته الستِّين، فهو من أجلِّ ما كتب ختما للمختصر، فأفاد ٱبن سعيد أنَّ المصادر القليلة لم تمنعه من إشباع القول.

ولكن أثناء المطالعة نجده ٱعتمد على غير الشَّرحين المذكورين مثل شرح الشَّبرخيتي المصري والحطَّاب المكِّي.

ومع هذا لا إنكار أنَّه ٱعتمد على بحوثه الشخصيَّة، فله في هـــذا الخـــتم منافسات مع الشَّيخ الغرياني في غاية اللُّطف، فهو يعبِّر عنه ببعض الـــشُّيوخ الأجلَّة دون التَّصريح بٱسمه.

ومن بحوثه هذه أنَّه ورد عن الإمام مالك رحمه الله تعالى في مسألة الخنثى المشكل -التي لم تتمحَّض لذكورة أو أنوثة- أنَّه رجل زاده الله ما هو مـــن خصائص الأنوثة، وورد عن ٱبن القاسم التِّلميذ المختصّ بالإمام مالك رحمه الله تعالى أنَّ مالكا تكلَّم في الخنثى بشيء.

وأجاب الشَّارح الشَّبرخيتي بأنَّ ما أجاب به مالك لم يثبت عنـــد ٱبـــن القاسم، فهو نفى لما علمه دون الواقع، ومثل ذلك أجاب الغرياني وحمد الله على الموافقة له.

وهنا يتصدَّى ٱبن سعيد لأن يبين أنَّ ما أجاب به مالك يتناول الخنثى من حيث الحكم، وما نفاه ٱبن القاسم عن مالك يتناول ناحية أخـــرى وهـــي ناحية شرح الماهيَّة، فلم يكن هناك تعارض بين ما نقل وبين ما نفـــاه ٱبـــن القاسم قد أطنب في ذلك إظهارا لغوصه الفقهي.

ولم يخل المترجَم هذه الكتابة من مدح نفسه بأسلوبه الأدبيِّ على عادتـــه في ذلك إذا مسَّت المناسبة، حيث يمدح نفسه حاكيا ذلك عن غيره وواصفا لها بأنَّه قد فاق أقرانه، وأتى بما لم يستطع غيره الإتيان به:

"ولمَّا كان فيمن حضر من الجماهير، أذكياء فضلاء نحـــارير، تـــشوفهم الأبحاث الرَّقيقة، وتروقهم النِّكات الأنيقة، قالوا إنَّ هذا لشيء عجاب، مـــا سمعنا بمثله من كاتب أو كتاب، ثمَّ أقسموا لتقيِّدنَّ لنا هذه الأمالي، ولتصوننَّ في أصداف الأوراق هذه اللآلي من غير أن تعدل في التَّرتيب، على ما سمعناه من تقريرك الغريب، فما عهدنا في مثل هذا الزَّمن إلاَّ من جمع النَّاس، فتناول الكرَّاس وكسر الكرَّاس والرَّأس".

5) "المشحون" هو ديوانه الذي جمع فيه نظمه وشيئا من نثره، وآشتهر بآسم "الفلك المشحون" لكن الذي جاء تسمية في خطبته كما في نسختين مخطوطتين "المشحون" ويرمي بهذه التّسمية إلى ما جاء في الآيات الكريمات من وصف الفلك بالمشحون كما في قوله تعالى ﴿ فَأَنْجَيْنَاه وَمَنْ مَعَهُ فِي الفُلْكِ المَشْحُونِ ﴾[1]

وهذا الدِّيوان لم يطبع كما طبع كتاباه العلميّان، وهما "حاشية الأشموني" التي طبعت في تونس، و"حاشية شرح الخبيصي" في المنطق كما سبق.

وهذا الكتاب وهو الكتاب الأدبيُّ لآبن سعيد إذا وازناه بدواوين الشُّعراء لم يكن شيئا مذكورا بالنِّسبة للكميَّة، فضلا عن الجودة الأدبيَّة ممَّا سنوضِّحه حين ندرس أدبه، فصفحات هذا الديوان لا تتجاوز خمسا وستِّين صفحة، وهو إنتاج فكريٌّ قليل بالنِّسبة لدواوين الشُّعراء التُّونسيِّين كالورغي والغراب فضلا عن الشُّعراء الممتازين مثل البحتري وأبي تمّام اللذين هما من المقلِّين بالنِّسبة لابن الرُّومي حتَّى أنَّ هذا الدِّيوان لابن سعيد يعدُّ كجزء قليل من ديوان آبن الرُّومي ذي الأجزاء العديدة.

وكأنَّ آبن سعيد آستشعر هذا فآعتذر بأنَّ ما جمعه هو القليل والذي لا قيمة له بالنِّسبة لما تركه من شعره، وأنا إزاء ما ذكره على نظرتين.

إمَّا أنَّ آبن سعيد كان غير معتن بشعره لأنَّه ربَّما نظمه مدحا أو غزلا، ثمَّ لَّما أراد جمع الدِّيوان تغيَّرت فكرته فلم يجمع منه إلاَّ القليل لأنَّه لم يرتض مواضيعه، فأبقى القليل الذي يتَّصل بشيوخه، أو كان من إخوانيَّاته شأن بعض الأدباء الذين لا يرتضون سابق حياتهم حين تتغيَّر ظروف عيشهم.

وإمَّا أنَّه لَّما آستقلَّ شعره وآستضعفه، وهو الرَّجل النقَّادة أحسَّ بأنَّ النَّقد سيتوجَّه إليه فآعتذر لنفسه إن صدقا وإن كذبا، وهذا هو الأقرب لأنَّ كلَّ جامع لديوانه إذا تولاَّه بنفسه يدعوه الحرص لأن يجمع أكثر ما يمكن مع انتقاء الجيِّد.

---

1 الشُّعراء الآية 119.

والنَّظر، ليتوقَّف أشدَّ توقُّف بالخصوص من حيث عدم الجودة، فإنَّه إن أمكن أن يضيع الكثير، فإنَّه لا يمكن أن يضيع الجيِّد ذو الأجلية -كما يقول- لأنَّ الشِّعر إذا كان جيِّدا يحافظ عليه أكثر من غيره الذي هو دونه، ثمَّ إنَّه كيف يعقل أن يعمد الإنسان إلى رديء شعره فيدوِّنه ويترك الجيِّد، وأمَّا الدُّون فيظهره، والجيِّد متروك للضّياع، وعلى ٱحتمال أنَّه لمَّا جمع ديوانه لم يكن لديه الجيِّد وإنَّما كان بين يديه الرَّديء لا يسوغ أن يجمعه ٱنتظارا وتربُّصا للظَّفر بالجيِّد.

والشكُّ يلازمنا في ضياع أكثر شعره لأنَّ المجتمع التُّونسي حينئذ كان مجتمعا صغيرا لا يصعب الاتِّصال فيه بمن في أيديهم شعره، ثمَّ إنَّ ٱبن سعيد كما يبدو منه معتزٌّ بنفسه وبشعره فلا يتركه للضَّياع، وإنَّما هو ٱعتذار عن ضعف المختار من الأشعار.

والأقرب أنَّ ٱبن سعيد كان يقول الشِّعر في مناسبات كانت تسنح للطَّلبة في عصره، وهي مناسبات قليلة مثل مدح الشُّيوخ عند ولاية وظيفة أو ختم كتاب، أو للتوصُّل لاستعارة كتب منهم أو من الأقران أو الإخوانيَّات، وبعد ذلك المديح عند الظهور للحياة، ويختلف بٱختلاف الاتِّصالات، وكلُّ ذلك -وبالأخصِّ في حال الطَّلب- لا يعنُّ إلاَّ لماما.

والمترجَم له تناولها كغيره، ولكنَّه كان في كلِّ واحدة منها كأمِّ الصَّقر المقلات النزور لأنَّ ٱشتغاله العلمي وتحريراته لا تترك له التفرُّغ للأدب كما تفرَّغ إليه غيره إذ ٱعتباره عنده ثانويٌّ، ولا فرق في ذلك بين سني الدِّراسة وسني التَّدريس لاشتغاله بتدريس كتب تتطلَّب منه جهدا مبذولا لتعاصيها عن الفهم إلاَّ بعد الإقبال عليها، وهو قد كان من المقبلين عليها المكرِّسين جهدهم لها، ويظهر هذا في كتاباته عليها وتحريراته الفائقة، وكلُّ ذلك يستوعب الوقت ويستفرغ الجهد.

ولمَّا برز للحياة العامَّة ٱبتدأ ٱتِّصاله بالوزير الكاتب الحاج حمُّودة بن عبد العزيز، فمدحه بقصيدتين أنشده إحداهما، وأراد أن يختصَّ به بتعليق آماله به وترك غيره:

[الطويل]

فلا زلــت للآمـــال كهفــا وملجــأ حليف هناء خاتمــا في يــد الدَّهـــر
إليك ٱنتهى قصدي وحسن قــصائدي وإن كنت لم أعبأ بزيــد ولا عمــرو

ولم ينشده الأخرى، ولربَّما كان ذلك مسبِّبا عن الكزازة الخلقيَّة الــتي كانت في الوزير المذكور، ولاحتقاره لغيره من الكتبة غيرة منهم وخوفا من المزاحمة لاختصاصه بالأمير علي بن حسين ثمَّ بٱبنه حمُّــودة إلى أن وقعــت القطيعة مع الأخير.

ولا نغفل السنَّ في نزارة شعره فإنَّه عامل مؤثِّر، إذ حياة المترجَم لم تطل، فإنَّه لمَّا برز نجمه وذاع صيته وظهرت مقدرته العلميَّة والأدبيَّة ٱختطفته المنون وهو في أشدِّ ما يكون من الظُّهور العلميِّ والأدبيِّ.

وفي مقدِّمة الدِّيوان يبرز المترجَم ٱعتذاره مع ٱعتــزازه بــشعره غايــة الاعتزاز، فكأنَّه يقول إذ كان غير جيِّدي يعتزُّ به فما بالك بغيره، وعند نقد أدبه تتجلَّى الحقيقة:

"حمدا لا يعتري الأفول كواكبه ولا تغيِّر السُّيول مواكبه، يــسفر عــن طويل غفران، ويكثر عن جزيل منٍّ وإحسان، لمن العفو عن العصاة سِمته، والصَّفح عن عظيم الزلاَّت منَّته، والصَّلاة الرَّائقة العظمى والسَّلام الأطيــب الأنمى، على الخلاصة من الخاصَّة والمختار من الخيار وعلــى الــسَّادة الآل والأصحاب وسائر من تفرَّع من تلك الأودية والشِّعاب.

وبعد فإنَّ الأدب أجمل لباس، وأضوأ مقباس، وأعظم ما ٱفتخــرت بــه عظماء النَّاس، إذ به يعرف كيف أعجز الكتاب، وقطع من فصحاء يعــرب وقحطان الرِّقاب، وقد كنت زمن الصِّبا صارف الهمَّة في وصــال خــوده، وطامع الرَّغبة في شمِّ قرنفله وعوده، إلى أن نسجت على المنوال الذي نسج

عليه كبراؤه، وجلست على الأسرَّة التي جلس عليها أمراؤه، إلاَّ أن جلَّ بل أجل ما زبرته ذهب، ولم يبق منه فضَّة ولا ذهب، اللَّهم إلاَّ نزر قليل أبى أن يرضى بغيري بخليل، فأبى بعض إخواني وخواصُّ خلاَّني، أن أدعه وألزمني أن أضمَّه إليه وأجمعه، ولمَّا لم تسعني المخالفة ولا أمكنني غير المساعفة، جمعت لهم جوهره المكنون وأودعته هذا (المشحون).

وعلى الله التَّعويل في مغفرة اللَّغو والعفو عن لعبه واللَّهو لا إله إلاَّ هو".

طابعه الأدبي

ساد الطَّابع الأدبي لابن سعيد حبّ المحاكة إظهارا منه لمقدرته الأدبيَّة وكذلك في آثاره العلميَّة، وتعريفا منه لأهل زمانه بأنَّه لا يقلُّ عن الفحول الذين أولع النَّاس بآثارهم، وأعجبوا بها إعجابا كليًّا ولا يستفيده النَّاقد من طابعه الأدبي خاصَّة، ولا من مطالعة آثاره العلميَّة، بل يستفيده من تصريحه نفسه إذ يقول في مقدِّمة ديوانه "المشحون" "ونسجت على المنوال الذي نسج عليه كبراؤه وجلست على الأسرَّة التي جلس عليها أمراؤه".

ولم يكن ابن سعيد مختصًّا بهذا الطَّابع وحده إذ هو من طبيعة زمنه، فكنت لا ترى فيه من يعدُّ الأديب أديبا إلاَّ إذا حاكى أديبا بارزا من أدباء الأدب العربي في المشرق أو الأندلس من المشتهرين والمعروفي الآثار مثل أبي الطيِّب بالخصوص، فهو جار على طبيعة عصره، وداخل في بوتقة دهره.

ونَّمى هذا فيه بوجه خاصٍّ وأبرزه إبرازا أنَّه متطلِّع للتفوُّق على معاصريه فألَّف ودرَّس ونظم ونثر، وهو في كلِّ ذلك متطلِّع إلى التفوُّق وإلى ما يملأ الأعين إعجابا والنُّفوس إكبارا.

وما فقرته المتقدِّمة إلاَّ صورة ناطقة تنمُّ عمَّا في نفسه من نفسيَّة كامنة تنبئ بأنَّ هؤلاء الفحول ليسوا محلّقين في أجواء لا يستطيعها المعاصرون، بل فيهم من منح مقدرتهم وأعطى مكانتهم حتَّى نسج على منوالهم وحلَّق في أجوائهم.

فلا بدع أن نرى في بارز آثاره نفسيَّة خاصَّة غير مـــا في الكـــثير مـــن معاصريه العلماء والأدباء، وهي نفسيَّة تقليديَّة للشَّرقيِّين متقمِّصة ممَّا لهم شيئا واضحا.

وهذا التَّقليد أفاد في بعض ما أنتجه من آثار، فحاشيته التي كتبها علـــى شرح الأشموني إنَّما هي تقليد لعناية المشارقة به، إذ علماء المغرب وفي ضمن ذلك تونس كان ٱنصرافهم إلى "شرح المكودي" (-807هـــــ) و ٱبـــن أم قاسم (-749هـــ) أو "توضيح" ٱبن هشام (- 762هـــــ) ولهـــذا ٱعـــتنى المشارقة بالكتابة على شرح الأشموني المذكور، فكتب عليه جماعـــة منـــهم الاسفاطي والمدابغي والحفني فساير ٱبن سعيد الرَّكب.

وفي ديوانه "المشحون" الكثير من محبَّة الظُّهور بمظهرهم، ويبدو ذلك في مقدِّمة بعض قصائده، فيكتب مثلا (ومن ذلك ما بعثـــت بـــه إلى المقـــري الشَّيخي الوزيري المحمودي العزيزي حرس الله مجده)، فعـــوض أن يحلِّيـــه بالمقري الشَّيخ الوزيري حمُّودة بن عبد العزيز يأتي بتلك الصورة التقليديَّة.

وكذلك صنع في مقدِّمة قصيدة محمَّد المحجوب (ومن ذلك ما قرأتـــه في المقري الشَّيخي الإمامي المفتي المحمَّدي المحجوبي بمحضر والـــده وغـــيره)، وتكرَّر ذلك منه.

فهو يحتذي في تحليته سواء بالوصف ذاته أو بصورته بما أولع به المشارقة، إذ التَّحلية ببعض الأوصاف كالمقر مع إضافته ياء النِّسبة إليه ممَّا ٱنتـــشر في الشَّرق من القرن السَّادس، فالتحلية بالمقر من ٱستعمالاتهم فيما يختصُّ بكبار الأمراء وأعيان الوزراء، كما أنَّه من أجلِّ ألقاب السُّلطان، وٱستعمل لأكابر أرباب السّيوف من القضاة والعلماء والكتَّاب.

وإضافة ياء النِّسبة في الأوصاف ممَّا يراد به المبالغة، فالمقـــامي أبلـــغ في التَّحلية من المقام، والشَّيخي أبلغ من الشَّيخ لأنَّ العرب حـــين يبـــالغون في وصف شيء يأتون بياء النَّسب في آخره، فيقولون في الأحمر إذا قصدوا بـــه المبالغة في وصفه بالحمرة أحمري ولا يكتفون بقولهم أحمر.

و لم يبالغ ٱبن سعيد في التَّحلية إلاَّ مع شيوخه، أمَّا غيرهم من الأقران فإنَّه يذكرهم حسب المعتاد بدون ياء النِّسبة كقوله في مقدِّمة بعض قصائده "ومن ذلك لصاحبنا أبي العبَّاسي أحمد بن الخوجة معتذرا عن الإتيان إليه".

وكما قلَّد المشارقة كذلك قلَّد بعض علماء المغرب فإنَّه لَّما عارض ٱبن المرابط المغربي[1](- 1089هـ) في "شرح التَّسهيل" قصيدة القاضي عياض التي تشوَّق فيها إلى زيارة المدينة المنوَّرة عارضها كذلك وصدَّر بها ديوانه "المشحون" وذكرها في حاشيته "زواهر الكواكب وبواهر المواكب" ملتمسا لذلك مناسبة ما، فإنَّه لَّما تكلَّم الأشموني على المنقوص وتقدير الحركة فيه في حالتي الرَّفع والجرِّ وبيَّن أنَّ ذلك التَّقدير للاستنقال لا للتعذُّر لإمكان ذلك في الضرورة كما في قول جرير[2]:

[الطويل]

فيوما يوافينا الهوى غير ماضي

ذكر ٱبن سعيد أنَّ القاضي عياضا وقع له في آخر قصيدته وهو قوله:

وتخصُّه بزواكي الصَّلوات ونوامي التَّسليم والبركات

فذكر القصيدة المذكورة مع معارضتها لابن المرابط وله[3].

وقصيدة القاضي عياض المعارضة جاءت في "الشِّفاء"حين تكلَّم القاضي على أنَّ من إعظامه صلَّى الله عليه وسلَّم وإكباره إعظام جميع أسبابه، ومن ذلك مثواه الكريم من القسم الثَّاني فيما يجب على الأنام من حقوقه صلَّى الله عليه وسلَّم[4] ، ويقول فيها:

---

1 هو محمَّد بن أبي بكر الدلائي الفشتالي، المغربي، الشَّهير بالمرابط الصَّغير (أبو عبد الله)، أديب، شاعر، من تصانيفه: "الدُّرة الدرية في محاسن الشِّعر وغرائب العربيَّة" وله ديوان شعر.(معجم المؤلفين 199/11).

2 جرير بن عطية بن حذيفة الخطفي بن بدر الكلبي اليربوعي، من تميم. أشهر أهل عصره، جمعت نقائضه مع الفرزدق وديوان شعره. توفِّي سنة 110هـ/728م. (الأعلام 111/2).

3 الشِّفاء 104/1.

4 المرجع السَّابق 59/2.

[الكامل]

يـا دار خير المرسـلين ومـن بـه هدي الأنـام وخـص بالآيـات
عندي لأجلك لوعـة وصبابـة وتشوّق متوقّـد الجمـرات
وعليّ عهـد إن مـلأت محـاجري مـن تلكـم الجـدرات والعرصـات
لأعفّـرنّ مـصـون شـيبي بينـها مـن كثـرة التّقبيـل والرّشـفات

وقصيدة ٱبن المرابط يقول فيها:

[الكامل]

يا دار خير الخلق يا مثـوى المُنـى قلبي لأجلك ثـائر اللّوعـات
يهنيك أنك مهـبط الـوحي الـذي يعتـاده جبريـل بالآيـات

ومعارضة ٱبن سعيد يقول فيها:

[الكامل]

يا دار قطب دوائـر الـشّرف الـذي لم تحـوه الأقمـار في الهـالات
يا مربع النّبإ الجليـل ومنبـع الـ ـعلم الجزيـل ومطلـع الآيـات
شوقي إليك رمـى بقلـبي جـذوة مـن دونهـا متوقّـد الجمـرات

يقف من يوازن بين القصيدتين لابن المرابط وٱبن سعيد اللتين عارضا بهما قصيدة القاضي عياض على الطّابع الخاصّ الملازم لابن سعيد في علمه وأدبه وهو التّعاظم والتّعالي حتّى في هذا الموضوع الـذي هـو مـن أدقّ المواضيع لاستدعائه أن يكون المعارض متواضعا متناسيا -ولو في لحظات- ما طبع عليه من تعاظم وحظوظ نفسيّة مبالغ فيها، وإن كان المرء لا يتجرّد من حظوظه النفسيّة مهما تكلّف ذلك إلاّ أنّ هناك مواقـف تـدعوه إلى التجرُّد وإن كان التعالي متوغّلا في النّفس لأنّ مترلة القاضي عياض وطيـدة في الحبّ والإكبار.

ويتّضح من هذا أنّ القاضي بنى قصيدته التي ختم بها الفصل الذي أقامه على إعظام جميع أسباب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بناها على التشوّق

إلى المدينة المشرَّفة وتعفير الشَّيب في ترابها إن وصل إليها وإن به لوعة وشوقا متوقِّد الجمرات:

[الكامل]

عنـــدي لأجلك لوعـــة وصبـــابة   وتشـــوُّق متـــوقِّد الجمـــرات

وعلى الاعتذار عن عدم قصد تلك الدِّيار التي هي متعلَّق قلبـــه وشـــغل نفسه بسبب الاشتغال بالأسباب الإنسانيَّة المستحوذة على اللبِّ والعوائـــق المنصوبة من المعادين، فهذا ٱعتراف منه بأنَّه لم يؤدِّ واجب المحبَّـــة الـــصَّادقة الداعية إلى المبادرة بتلك الزيارة وتقديمها على الحظوظ النفسيَّة ولوكان ذلك سحبا على الوجنات ٱستصغارا للنَّفس أمام تلك الزيارة المحبَّبة، فٱعتاض عن ذلك بإهداء أزكى تحيَّة:

[الكامل]

لولا العـــوادي والأعـــادي زرتهـــا   أبدا ولو ســـحبا عـــلى الوجنـــات
لكن سأهـــدي مـــن جميـــل تحـــيَّتي   لقطين تلك الـــدَّار والحجـــرات
أزكـــى من المسك المفتَّـــق نفـــحة   تغشاه بالآصـــال والبكـــرات

فالبارز من قصيدة القاضي هما ذانك الأمران الشَّوق المتوقِّد الجمـــرات والاعتذار عن التَّقصير في الزيارة بسبب الشَّواغل وإعاقة الأعادي.

وإذا أخذنا قصيدة ابن المرابط نجده أخذ فيها مهيع القاضي وتأدَّب معه، فذكر أنَّ قلبه ثائر اللَّوعات ولوعته الثَّائرة عذريَّة ولواعجه لافحة لفؤاده.

[الكامل]

أسمـــى الخليـــقة منـــصبا وشـــفيعهم   يوم المعـــاد بمجمـــع الحـــسرات
عندي لبعـــدك لوعـــة عذريَّـــة   وحشـــا البلابل مـــضمر الجنبـــات

وكذلك يعتذر مثل ٱعتذار القاضي عن التَّقـــصير في الزيـــارة النبويَّـــة، ويتمنَّى لو ساعده المقدور وأقصى العناء لتحقُّق المنى.

[الكامل]

لو ساعد المقدور أو يقصى العنا لسعيت قبل الرأس بالوجنات
وشممت من ترب عبير قد زرى بالمسك مذ فورا لدى النّشقات

فابن المرابط لم يتظاهر إلاّ بالشّوق الذي باح به القاضي، وكذلك ٱعتذر بمثل ٱعتذاره فقصده لتلك الربوع متوقِّف على إزالة العوائق وٱبتعاد العناء.

وأمَّا ٱبن سعيد فإنَّه في المظهرين البارزين من القصيدة أراد المغالاة، فشوقه أراده أن يكون فوق شوق القاضي، فإن كان شوق القاضي متوقِّد الجمرات فشوقه دونه الشوق المتوقِّد الجمرات:

[الكامل]

يا مربع النبإ الجليل ومنبع الـ ـعلم الجزيلِ ومطلعِ الآيات
شوقي إليك رمى بقلبي جذوة من دونها متوقد الجمرات

وهو مبالغة بعيدة عن التَّصديق وخارجة عن التَّحقيق لأنَّ مكانة القاضي عياض في المحبَّة النبويَّة والتعلُّق بآثارها العليَّة مكانة لا تسامق، فشواهدها شواهد قاطعة نبعت إخلاصا وكثرت عددا في إخلاصه في خدمة الجانب النَّبوي صلَّى الله عليه وسلَّم بتأليف كتاب "الشِّفا بتعريف حقوق المصطفى"، وتأليف في شرح السنَّة النبويَّة وضبط لغاتها "كإكمال المعلّم في شرح مسلم"، و"مشارق الأنوار" ولو لم يكن له إلاَّ الشِّفا لكفى في أنَّ محبَّته وتفانيه في ذلك الجانب الكريم لا يبلغهما ابن سعيد ولا غيره.

فٱدِّعاء ٱبن سعيد بوفرة شوقه على شوق القاضي ٱدِّعاء في غير محلِّه وتسلُّق على منزلة شهد لها العيان وأقرَّ لها بالإخلاص كل لسان، وأراد ٱبن سعيد كذلك أن يتظاهر في ٱعتذاره بأنَّه لايرتضي ٱعتذار القاضي، فإن كان القاضي في توقه لم يجرؤ على مجابهة الأعداء فٱبن سعيد له نفس توَّاقة إلى تلك البقاع توقا يجعله يضحِّي في سبيله بالنَّفس حتَّى أنَّه لا يخشى العوادي

ولا الأعادي التي عاقت القاضي فهي لا تقف حجر عثـــرة في طريقـــه ولا يصدُّه صاد:

[الكامل]

إن ساعد المقـــدور واتَّـــسع المـــدى آتي إليك ولـــو علـــى لحظـــــات
لا أختشي فيـــك العـــوادي والعـــدا موتي لأجلك هـــي عـــين حياتـــــي
لم لا وأنت ديـــار طـــه المـــصطفـــى والآل والأصـــــحاب والزَّوجـــــات

وفي كلتا مبالغتيه لم يصادف شاكلة الصَّواب في فائق الشّوق والجـــرأة لاقتحام الصِّعاب التي خلَّفها القاضي.

أمَّا المبالغة الأولى فكما سلف أنَّ القاضي لا يجارى ولا يمارى في شوقه، وأمَّا الثَّانية فإنَّ القاضي لم يذكر إنَّه خاف العوادي والأعادي وإنَّما ذكـــر أنَّها وقفت في سبيله وعاقته.

ومسألة الخوف لم يعرِّج عليها فالعدوُّ لا تخاف منه ومع ذلك يـــستطيع بقوَّته أن يحول بينك وبين ما تريده، فلا تشمَّ في بيته أدنى رائحة للخوف إذ لم يذكر أنَّه خاف العوادي والأعادي وإنَّما قال لولاها لحقَّقت الأمنية.

ثمَّ إنَّ ما ذكره ٱبن سعيد من أنَّه لم يخش العوادي والأعادي أين شاهده القولي فضلا عن العملي.

ولا نكران أنَّ قصيدة ٱبن سعيد وإن كانت فيها مؤاخذات لغويَّة، وحتَّى عروضيَّة علاوة على ما تقدَّم هي قصيدة ممتازة على قصيدة ٱبن المرابط، إذ تحرَّر في مطلعها و لم يتقيَّد تقيُّده حتَّى يدور في معاني القصيدة المعارضة فكأنَّه ناسخ لها، بل في معانيه في المطلع بالأخصِّ إبداع وٱختراع معنويٌّ تستسيغه القريحة الأدبيَّة.

[الكامل]

عنـــدي لبعدك لوعـــــة عذريَّـــــة وحشـــا البلابل مـــضمر الجنبـــــات

ومؤاخذاته دون مؤاخذات ٱبن المرابط كما في قوله:

عنـــــدي لبعـــدك لوعـــة عذريَّـــة وحشا البلابـــل مـــضمر الجنبـــــات

فوصف ٱبن المرابط للوعته بأنَّها عذريَّة لا يتمُّ إلاَّ على تكلُّف لأنَّ اللَّوعة لا توصف بكونها عذريَّة إنَّما توصف بالاتِّقاد وشدَّة التَّأثير، وإنَّما الـــذي يوصف بكونه عذريًّا هو الحبُّ، والعجز في البيت ناب عن البلاغة لا تتقبَّله الأذواق السليمة.

وتوجَّه ٱبن سعيد في آخر قصيده توجُّه من أراد أن يعفى عن زلاَّتـــه في أبيات تدلُّ على رسوخه الأدبي:

[الكامل]

وأقول يا خير الورى يا مـــن بــــــه أرجـــو جميـــل الـــصَّفح عـــن زلاَّت

كن لي شفيعا يوم يمتـــدُّ الـــــــرَّدى ومؤمِّنا من روعـــة العرصـــــــــات

فلقد كرعت من المئـــاثم كلِّهـــــــا ووقفت دون مـــشارب الحـــسنـــات

وركضت في مضمار كـــلِّ كريهـــة ورميت أغراضا مـــن الـــشَّهـــــوات

شعره ونثره

لو أرسل ٱبن سعيد سجيَّته تنظم على فطرتها لكان شعره أخفَّ وقعـــا وأشدّ قبولا لدى النُّفوس، أمَّا وقد أراد شعره أن يكون محاكـــاة لفحـــول الأدباء تبجُّحا وإبداء لقيمته التي لا تقلُّ عنهم وإدماجا للصِّناعات البديعيَّة، وحتَّى غيرها، فلا بدَّ وأن يدخل شعره التكلُّف، ولكنَّه مع ذلك لم يفقـــد بعض الرُّوح الشِّعريَّة التي يتطلَّبها الإبداع.

ولقصر عمره دخل كبير في ضعف الملكة الشِّعريَّة، فإنَّه لو ٱمتدَّ به العمر لكان من فحول الأدباء ومن نبغاء الشُّعراء من التونسيِّين، وكما لقصر المدَّة العمريَّة دخل في ذلك كان لاشتغاله بالدراسة العميقة والتَّدريس والتفنُّن فيه دخل كذلك في الانصراف عن الناحية الأدبيَّة وضعف الملكة الشِّعريَّة إذ أنَّ كتب الدِّراسة حين عصره هي الكتب التي ترمي إلى جمع المعنى الكـــثير في

اللَّفظ القليل، وبالطبع أن ينجرَّ عن ذلك تعقيد في اللَّفظ كما هو مشاهد في بعض الكتب التي بلغت حدَّ الألغاز.

فلو أنَّه أقبل بكلِّيته على الأدب وٱنصرفت مهجته إليه لفاق الكثيرين من الشُّعراء كما يدلُّ عليه طابعه الشِّعري.

فإذا ما ٱستعرضنا قصيده الذي صاغه في الوزير الحاج حمُّودة بن عبد العزيز صاحب التَّاريخ الباشي وجدناه من حر القصيد وهو من شعره الذي يعتزُّ به إذ أنَّه صدر في ديوانه "المشحون" بعد المديح النبويِّ، ويحقُّ له أن يعتزَّ به، فإنَّه رغم ما ٱرتكبه فيه من إشارات تاريخيَّة ومحسِّنات بديعيَّة يعدُّ من الشِّعر الرَّائق و لم يرده ٱبن سعيد إلاَّ شعرا على غرار شعر أهل عصره المتقيِّد فيه بالقيود التي يتقيَّد بها أهل عصره، فلم يخرج عن عادة الشُّعراء في المدح من تقديم النَّسيب ثمَّ بعد ذلك يقع التطرُّق إلى المدح كما قال أبو الطيِّب المتنبِّي:

[الطويل]

إذا كان مدح فالنَّسيب المقدَّم — أكلُّ فصيح قال شعرا متيَّم

ومع أنَّ مترجمنا ليس بالمتيَّم فإنَّه أجاد في نسيبه، وكان فيه أشعر من مدحه لموافقة الغزل لهوى النُّفوس، وإن لم تكن متيَّمة فالمحاكاة في النَّسيب تتماشى والشَّاعريَّة بخلاف غيره فإنَّه يتطلَّب حذقا خاصًّا.

ونسيب قصيده ٱسترسل فيه بضعة أبيات كما ترى:

[الطويل]

تثنَّى كما ٱهتزَّت مثقَّفة السَّمر — ولاح كما ٱنجاب الغمام عن البدر
وجال بمضمار الملاحة واحدا — فأضحت جياد الفكر في حسنه تسري
وسلَّ حساما من جفون بديعة — فعلَّم جفني صنعة النَّظم والنَّثر
غزال غزَا الألباب كاسر طرفه — فما ظفروا إلاَّ بمرتبة الأسر
فما الشَّمس إلاَّ هو والأنجم السُّها — إذا ما سرى لم يبق منهنَّ ما يسري
أبيت وأجفاني هوام دموعها — على جسد بالسُّقم يحكي أبا ذر

جاء هذا العجز في نسخة كما أثبته، وفي أخرى عوض يحكـــي أبـــا ذر (تحكي أبادر) وكلاهما صحيح، ولكن النَّسخة التي أثبتت روايتـــها أرشـــق لأنَّها تفيد أنَّ جسمه صار نحيلا حتَّى حكى الذر، وفي ذلك تورية بديعـــة بآسم الصَّحابي الجليل سيِّدنا أبي ذر[1]، والأخرى وإن كانت كـــذلك ذات معنى وهي أنَّ دموعه في غزارتها مدرارة، ولذلك يقرأ أبا ذَر بفتح الذَّال، إلاَّ أنَّها لا تخلو من تلك التورية التي أشرت إليها، والمترجَم حريص كالشُّعراء في عصره بالتورية إذ هي تعدُّ من أوائل وسائل البلاغة ومن أقوى الأسباب في التفوُّق الشِّعري ثمَّ يقول:

[الطويل]

كان مطور الدَّمع في طـــرس وجـــنتي　　غمائم درٍّ في رياض مـــن التِّـــــبر
كأنِّي لأفنان الـــصَّبابة جامــــــــــع　　ودمعي وقـــف في مـــصالحها يجـــري

وفي هذا البيت تورية أخرى في الوقف وما يراعى فيه من المصلحة، فهي تورية فقهيَّة:

[الطويل]

يطول عليَّ اللَّيل حتَّـــى كأنَّهــــــــا　　ليالِيّ من فرط الجوى ليلـــةُ الحـــشـــر
ويزعجني الإصباح حتَّى كأنَّنـــــــي　　نهاري سيف سلَّ من حيـــث لا أدري
وأمَّا إذا ما أومض الـــبرق في الـــدُّجى　　فقل في الذي أمسى عليَّ مـــن الـــذُّعر
خليليَّ إنَّ الدَّهر أبـــدى إســــــاءتي　　وأظهر ما قد كان أضمر مـــن مكـــر
وما ضرَّ مثلي أن تلظَّـــى بنــــــــاره　　وهل ضرَّ إبريـــزا تلظِّيـــه بالجمـــــر

وحتَّى في النَّسب المفتعل لم ينس آبن سعيد كبرياءه وتعاظمـــه، فهـــو يتطرَّق إلى إساءة الدَّهر له من طرف خفيٍّ، وأنَّ تلك الإساءة لم تؤثِّر فيـــه، فهو كالذَّهب الإبريز الذي لا تضرُّه النَّار.

---

1 هو جندب بن جنادة بن سفيان بن عبيد من بني غفار، من كبار الصَّحابة، يقال أسلم بعد أربعة وكان خامسا، يضرب له المثل في الصِّدق، توفِّي سنة 32هـ/652م. (الأعلام 136/2).

وهذا من لطائف ٱبن سعيد المتبرِّم من دهره لأنَّ نفسه الأبيَّة وتطلُّعه إلى فوق ما هو فيه يطيِّعان نفسه على التبرُّم من الدَّهر مهما سنحت المناسبة، ومهما تأتَّت الفرصة حتَّى يقف الممدوح على المرامي البعيدة التي يرمي إليها المادح، وهو مع ذلك لم يخرج عمَّا هو بصدده من النَّسب.

ولا نشكُّ طرفة عين أنَّه يرمي من رواء بيتيه المذكورين إلى ما وقَر في نفسه من نظرة لدهره الذي لم يبلغ به مبلغ أمثاله من المتطلِّعين المتأهِّلين إلى الوظائف التي تليق بهم، وفي ذلك العصر كانت الكتابة بالوزارة أسمى وظيفة يتطلَّع إليها مثقَّفو ذلك العصر.

ونحدس أنَّ ٱبن عبد العزيز ٱشتمَّ رائحة التطلُّع من ٱبن سعيد فغضَّ منه لأنَّه يغار على وظيفه وهو رئاسة الكتابة بالوزارة، ومن هذا تفهم السرَّ لم لم ينشده ٱبن سعيد قصيده الثَّاني في مدحه ولم تكن له فيه مدائح أخرى.

ويسترسل في نسبه ولكنَّه بصورة تدلُّ على أنَّه لا يقبل في ممدوحه طعن الطَّاعنين ولا مقالة المغرضين لأنَّ ٱبن عبد العزيز كان محسدا.

[الطويل]

ومالي من ذنب لديه جنيته سوى أنَّني لم أسمع الغدر في بدري
وأن أخبر الواشي فسلوتي ٱختبر فليس يد الإخبار مثل يد الخبر

ويتخلَّص إلى مدح ٱبن عبد العزيز:

[الطويل]

على أنَّ أخبار الزَّمان تخالفت سوى خبر العلياء عن واحد العصر
(عزيز) الورى (حمُّودة) العلم الذي بيوتُ المعالي من معاليه كالقصر
فخار (بني عبد العزيز) وذكرهم فحسبك من فخر وحسبك من ذكر
(وزير) ولكن ما أتى الوزر دهره وعزَّ ولكن ما تطلَّع في كبر
إمام له في العلم أرفع رتبة بها سارت الرُّكبان في السَّهل والوعر
له قلم إن ماس في روض طرسه فما هو إلاَّ الغصن يثمر بالدرِّ
وإن ذرَّ تربا فوق جيش سطوره فما هو إلاَّ النَّقع في العسكر المجر

وهذا البيت قد أبدع فيه ٱبن سعيد في وصفه لترتيب الكتاب، فإنَّ العادة المتعارفة قديما أنَّ تجفيف الكتابة لم يكن بالجفاف كما متعارف اليوم لأنَّه لم يعرف إذ ذاك، وإنَّما كانت العادة أنَّ الكاتب يذرُّ نوعا خاصًّا كالتُّراب لتجفيف الكتابة، فٱبن سعيد يجعل ذلك التُّراب نفعا وسطور الكتابة كصفوف الجيش يعلوها النَّفع، فإن لم يسبقه غيره إلى هذا المعنى يكون قد حلَّق في وصفه هذا.

إذا نظرت في شعر ٱبن سعيد تظفر فيه برقَّة المحدِّثين ونفس الأندلسيِّين، وإن كان طموحه على ما يبدو في الكثير من آثاره أن يقتفي آثار الشُّعراء الذين حازوا متانة الشِّعر، وكان شعرهم دسما أمثال أبي تمَّام وأبي الطيِّب، فواقع شعره وطموحه النَّفسي مختلفان، ولعلَّه لو ٱمتدَّ به العمر كان يهتدي إلى الغاية التي هي محلٌّ إجادته وهى نفسه الكامن، وبذلك يكون لشعره قبول وخفَّة لدى الأذواق.

وٱكتسب هذه الرقَّة الشعريَّة بسبب ما كان عليه الأدباء التونسيُّون من الولع بالأدب الأندلسي، فالأديب الشَّادي في السَّالف كان لا يجد من الأدب ما يشفي نهمه ويبرد غُلَّته غير الأدب الأندلسي، فكان هذا الأدب غذاء الشَّادين لأنَّه يتقارب والذَّوق التونسي، فأثناء التَّقويم الأدبي الذي يمرُّ به كلُّ شاد ومحبٍّ للأدب كان المرور بذلك الأدب لزوميًّا، وٱبن سعيد كان على غرار أدباء عصره الذين تتكوَّن ثقافتهم الشعريَّة من تلك المدرسة الأندلسيَّة.

وٱجتذب الشِّعر الأندلسي الأدباء التونسيِّين لتأثُّر تونس بالجالية الأندلسيَّة النَّازحة لا في الجلاء الأخير الذي نزح فيه المسلمون من الأندلس حيث لم تبق لهم بقيَّة، بل منذ أن وطَّدت الدَّولة الحفصيَّة أقدامها في عهد أوَّل ملوكها أبي زكريَّاء الأول[1] الذي ركَّز الصِّلة بين الأندلس وتونس بٱجتذاب

1 أبو زكريًّا يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني، مؤسِّس الدَّولة الحفصيَّة سنة 625هـ.، وكانت وفاته ببونة سنة 598هـ./1249م.(الأعلام 193/9).

ٱبن الأبَّار، أبي المطرِّف عميرة[1] وغيرهما من فحول الأندلس، وذلك التـــأثُّر بقي متسلسلا في الأدب التُّونسي، فٱبن خلوف[2] شاعر الدَّولة الحفصيَّة رغم ٱنصرافه في شعره إلى ناحية دينيَّة ترى في شعره مرآة من الشِّعر الأندلسي.

وزاد هذا التأثُّر في تونس بالخصوص في العصور المتأخِّرة للولع الـــشَّديد بكتاب "نفح الطِّيب" للمقَّري[3] الذي كان مجموعة أندلسيَّة بصفة عامَّـــة، وتعريفا شاملا لابن الخطيب ومصدرا هامًّا لآثاره التي ٱستهوت العقـــول، حتَّى أنَّ بعضهم كان لا ينفكُّ عن مطالعة النَّفح كلَّ ليلة، فلا ينام إلاَّ بعـــد ٱطِّلاعه على جزء منه، فالنَّفح كان مصدرا من مصادر الثقافة الأدبيَّة.

وسبب الميل إلى النَّفح في تونس هو أنَّ ٱبن الخطيب كان مدرسة الكتَّاب التُّونسيِّين فكلُّ من يريد الكتابة في الدَّولة التونسيَّة مصدر ثقافتـــه الأدبيَّـــة ريحانة الكتَّاب لابن الخطيب، ويدلُّك لهذا نسخ الرَّيحانة، فإنَّها ٱنتـــشرت في تونس وحاذاها كتَّابها ممَّا يحتاج إلى بحث خاصٍّ، وشفوا همهم مـــن ٱبـــن الخطيب في النَّفح.

وٱبن سعيد مطمح أنظاره الكتابة وقد رأى أنَّ المبرِّزين فيها في الدَّولـــة التونسيَّة في عصره من المتخرِّجين من المدرسة الأندلسيَّة فلهذا شقَّ طريقـــه كما شقَّه غيره.

---

1 أحمد بن عبد الله بن محمد بن الحسين بن عميرة المخزومي، أبو المطرِّف، أديب من أجلاء المغرب ومن فحول كتَّابه. من مؤلَّفاته "فاجعة المرية" وله ديوان شعر "بغية المستطرف وغنية المتطرف من كلام إمام الكتابة ٱبن عميرة أبي المطرف". توفِّي سنة 658هـــ./1260م. (الأعلام 152/1).

2 أحمد بن محمَّد بن عبد الرحمن، شهاب الدِّين، الخلوف، شاعر تونسي، أصله من فاس. له ديوان شعر و"مواهب البديع" و"جامع الأقوال في صِيغ الأفعال" توفِّي سنة 899هـــ./1493م. (الأعلام 221/1).

3 أحمد بن محمَّد بن أحمد بن يحي، أبو العبَّاس المَقَّرِي التلمساني. مؤرِّخ، أديب ، حافظ، صاحب "نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرَّطيب" وله "أزهار الرِّياض في أخبار القاضي عياض" توفي سنة 1041هـــ/1631م. (الأعلام 226/1).

فالتَّمازج بين الذَّوق الأدبي الأندلسي، والذَّوق الأدبي التُّونسي تمازج ملموس في الأدب الأخير، ولا نكران لسيادة الرُّوح الأندلسيَّة فيه.

ويوقفنا شعر ٱبن سعيد على طرف من ذلك، فالرُّوح الأندلسيَّة سائدة في بعض قصائده، وإن كان مترجمنا يتقيَّد بالرُّوح الشرقيَّة، ويميل إليها ويحب التَّظاهر بها كما أسلفنا إلاَّ أنَّه وإن كان يحبُّ التَّظاهر بالشرقيَّة، فالأندلسيَّة أخذت بطبيعته وعلا طابعها في أدبه على الطَّابع الشَّرقي الذي يحبُّه، فإذا ما أخذت قصيدته الثَّانية التي مدح بها الوزير حمُّودة بن عبد العزيز (-1202هـ) تشمُّ منها الأندلسيَّة ساطعة الرِّيح، ولولا ما مازجها من أبيات تأثَّرت بثقافته العلميَّة لكانت هذه القصيدة أندلسيَّة صرفة لا تشوبها شائبة تقصيها عن ذلك.

ولا غرابة إن كانت هذه القصيدة متأثِّرة بالرُّوح الأندلسيَّة لأنَّها أعدَّت لتنشد مدحا لرئيس كتبة الدَّولة التونسيَّة الوزير المذكور، وهو من طراز الأدباء الذين كان من وسائل تنشئتهم الأدب الأندلسي وإن كان الوزير المذكور متشبِّها بكبار شعراء المشرق غير أنَّه لم يخرج عن تلك التنشئة كما يدلُّ على ذلك ديوانه.

وقصيدة ٱبن سعيد هذه ألقيها بين يدي النَّاظر في مختارات منها وسيشاطرني الرَّأي في التأثُّر بالرُّوح الأندلسيَّة:

[الرمل]

أي هنديّ أصابه ... ويماني أذابه
من قدود وجفون ... ملكاه للصَّبابه
تركاني بعد عزٍّ ... رهن ذلٍّ وكآبه
سلبا منِّيَ صبري ... وأعاراني ذهابه
من غزال يفضح البد ... ر إذا حطَّ نقابه
ويعيد الصُّبح ليلا ... عندما يرخي الذؤابه

وٱنــــبرى بالحـــــسن يـــــسطو حـــــائزا حـــــدَّ الغرابـــــــه
يــــا خليلـــــيَّ أسعدانـــــــي مــــن رضـــاه بــــصُبابَـــــه
وٱرحمــــا منِّـــــيَ دمعًـــــــا لا يـــــرى إلاَّ ٱنـــــصبابـــه
وٱذكـــــرا ليلتـــــا والـــــــ أنـــس قـــد ألقـــى حجابـــه
ونـــــسيم المـــــسكِ يُذكـــــي مــــن لظَـــى الكـــأس ٱلتهابـــه
وســـــنَا الـــــصَّهباء فيـــــــه مثـــل بـــرق في سحابـــــه

وتخلَّص إلى المدح :

فكــــأنَّ الـــصُّبح كــــــفٌّ سلتوا عنه خــضابــــــــه
أو يمــــانيٌّ صقيــــــــــل خلعـــوا عنـــه قرابـــــــه
أو يـــــراع مـــــــــن دواة ســـلَّه فخـــرا لكتابـــــــه
لا ٱبــــن عبَّـــاد ولا الـــصَّـــا بي وإن كانـــا اللُّبابـــــــه
لا ولا جعفـــر.والفـــضـــــل وهـــــاتيك العـــصابـــــه
بـــل أخـــذ القـــدر الـــذي فـــو ق الـــسُّهـــا ســـوَّوا قبابـــــه

وهذه القصيدة وإن كانت مصاغة للمدح غير أنَّها من القصائد الغزليَّة فبالنَّظر إلى عدد أبياتها فحسب دون النَّظر إلى الموازنة بين غزلها ومدحها تحكم بأنَّها مصاغة للغزل دون المدح، إذ عدد أبياتها سبعة وثلاثون بيتا منها واحد وعشرون في الغزل والبقيَّة في مدح ٱبن عبد العزيز، وإذا طرح من المدح بيتان في مدح القصيد وتقبُّلها لم يبق للمدح إلاَّ القليل.

وله أخرى في الشَّيخ عمر المحجوب (-1222هـ) من بحر القصيدة المذكورة على غرارها إلاَّ أنَّها مطبوعة بطابع خاصٍّ وهو الطَّابع العلمي، مع التورية ببعض أعلام الحنفيَّة، والجناس.

يـــــا أبــــا حفـــــص المعـــــالي عمــــر البـــــدر التَّمـــــام
يــــا همــــام بـــــن كمــــــال يــــا كمـــــال بـــــن همــــام

ورَّى في هذا البيت بأسم الكمال بن الهمام محمَّد بـــن عبـــد الواحـــد (-861هـــ) صاحب "المسايرة".

قـــــصِّر الخطــــــو قليــــــــلا فلقـــــــد جـــــزت الكـــــــرام
أو مــــا يكفيـــــك إن كنـــــــــــت الإمـــــام ابــــن الإمــــام

وختمها ببيتين لولا أنَّه بيَّن الأخير منهما لما فهم، وهما:

ردَّ ذا وٱبعـــــــــث إلينــــــــــا قبــــــل أن يغــــشى الظَّــــــلام
بالحواشــــــــــي والحواشـــــــي والـــــــسَّـــلام

فذكر أنَّ المراد بالحواشي الأولى حواشي حفيد السَّعد على مختصر جدِّه في البلاغة، وحواشي يس عليها، وحواشي الخطائي على المختصر المذكور، والمراد بالحواشي الثَّانية الخدم، والمراد من الحواشي الثَّالثة خطابه المترَّل مترلة الحاشية لرقَّته.

وفاته[1]

اقتطفته يد المنون وهو في زهرة الشَّبيبة بسبب ذلك الطَّاعون الجـــارف الَّذي حلَّ بالبلاد في سنة 1199هـــ، وذهب ضحيَّته الكثير مـــن العلمـــاء والأدباء وغيرهم مثل عبد اللَّطيف الطوير رئيس المجلس الشَّرعي بـــالقيروان ومحمَّد الدرناوي العالم المؤلف صاحب الخطّ الجميل والمفتي بتونس.

وصلَّى عليه شيخه محمَّد المحجوب الذي تربطه به وشائح علميَّة، وقـــد أخنقته العبرة في أثناء الصَّلاة ممَّا أبكى بقيَّة المصلِّين حتَّى كادت الـــصَّلاة لا تتمُّ بسبب أنَّ الإمام والمصلِّين اشتدَّ بهم البكاء.

1 اقتطفنا هذه الفقرات من مسوَّدة مقدِّمة تحقيق ديوان ابن سعيد الحجري الَّذي لم يتمَّه الشَّيخ (60 صفحة مرقونة).

ودفن بمقبرة سيدي أحمد السقّا خارج باب حومة العلوج، وقد زرت قبره وهو لا يزال قائما إذ ذاك ونرجو أن تقع العناية به إحياء لذكراه وحفاظا على قبور النّابغين من التُّونسيِّين رحمه الله رحمة واسعة وجعله في بحبوحة الجنان.

حمودة بن عبد العزيز

حياته التعليميَّة

توفَّر للمترجَم ما لم يتوفَّر لغيره، فكانت ترجمته من أوسع التَّراجم بسبب أنَّ حياته في أغلبها يمكن الوقوف عليها، ويرجع ذلك إلى أنَّه سجَّل الكثير من حياته فيما نثره أو نظمه، وإلى أنَّه كان من رجال دولة الأمير علي باي وٱبنه حمُّودة باشا (-1229هـ).

وبسبب توفُّر الأمرين المذكورين كانت ترجمته من أحفل التَّراجم وتعدَّدت جوانب البحث فيها، فمنها ما يرجع إلى حياته التعليميَّة، ومنها ما يرجع إلى حياته السياسيَّة، ومنها ما يتعلَّق به أديبا أو مؤرِّخا.

فجوانب البحث في حياته متعدِّدة ممكنة وكلٌّ منها ذو جوانب متَّسعة.

ورغم أنَّ المصادر المتقدِّمة كان حظُّه فيها موفورا، فإنَّه لم تتوفَّر الهمَّة لدراسة حياته دراسة جامعة تلمُّ شتات ما تناثر في كتبه أو ديوانه، أو ما كتب عنه في ترجمته الخاصَّة أو ترجمة الأمير الذي كان متَّصلا به غاية الاتِّصال وألَّف له التَّاريخ الباشي وهو علي باي وكذلك ٱبنه حمُّودة.

وسنلمّ بٱختصار بدراسة حياته من تلك الجوانب المختلفة عسى أن يأخذ حظَّه، ويُشَقّ مجال البحث في حياته بتوسُّع، فيعرف بأنَّه رجل علم وأدب، كما يعرف بأنَّه رجل سياسة وتدبير، فهو ليس مجرَّد رئيس كتبة لا أثر له في الحياة السياسيَّة، بل هو من ذوي الرَّأي فيها، وإن كانت طريقته التي سنَّها في الدَّولة من سنن السُّوء، ترتَّبت عنها آثار أضرَّت بالنَّاس أيَّما إضرار.

والكثير من حياته وإن كان معلوما إلاَّ أنَّ ميلاده لم أقف عليه، وبحسب التَّخمين أنَّه في حدود الأربعين لأنَّه أخذ عن والده محمَّد الذي توفِّي سنة 1162هـ[1] وسامره، فعلى أقلِّ تقدير يكون قد أدرك حياة أبيه وهو في سنٍّ تؤهِّله للمسامرة وهي العشرون أو ما تجاوزها.

---

1 عن الشَّيخ محمَّد البشير النَّيفر.

ونستهلُّ هذه الدِّراسة بإجمال حياته التَّعليميَّة التي دوَّن الكثير منها بقلمه، ونقتصر على ما جاء في ديوانه حيث مدح بعض شيوخه، وفي طليعة أساتذته أبوه محمَّد، ومن الغريب أنَّه لم يسجِّله في قائمة ممدوحيه، وأبوه نوَّه بشأنه العياضي في: "مفاتح النَّصر" فذكر "أنَّه إمام في الفقه والحديث الشَّريف، وله غيرهما من العلوم القدر المنيف، في كلِّ علم بدر تمامه لائح، وفي كلِّ فنٍّ من الفنون بلبله صادح، نحويُّ الزَّمان وفقيه العصر والأوان". إلاَّ أنَّه ليس له نظم ولا نثر.[1]

وقد ربَّى ٱبنه على محبَّة التَّاريخ، فكان يسامره ليلا بعلم التَّاريخ والسِّير.[2]

ومن أبرز شيوخه الذي أكثر من مدحه وقرأ عليه الكثير من الكتب المدروسة أبو عبد الله محمَّد بن علي الغرياني(-1195هـ) حتَّى أنَّه صدَّر ديوانه بمدحه فقال بعد التَّقدمة: "فمن ذلك قولي أمدح شيخنا القدوة البركة الصَّالح أبا عبد الله محمَّد الغرياني أبقاه الله آمين في سنة 1167هـ وقد ختمت عليه كبرى[3] الشَّيخ السَّنوسي رحمه الله ورضي عنه، وهي هذه:[4]

[البسيط]

لولا عيون الظِّبا ترنُو فتفتك بي ما كان بيني وبين الحُبِّ من سبب

ويقول متخلِّصا لمدحه:

أَوْ نُورُ علمِ إمامِ العصر قُدْوتنا يجلو غياهب أهل الزَّيغ والرِّيَبِ

العالمِ العامِل المولى محمَّد الـ ـغَرْيَانِيِّ الطَّاهر الأَخْلاق والنَّسبِ

1 مفاتح النَّصر في التَّعريف بعلماء العصر، فصلة من النَّشرة العلميَّة للكلِّيَّة الزيتونيَّة، تحقيق محمَّد الحبيب الهيلة، ص 188، عدد4، سنة 1976-1977.

2 إتحاف أهل الزَّمان 22/7.

3 كبرى الشَّيخ السَّنوسي محمَّد بن يوسف (-895هـ) وهي عقيدة أهل التَّوحيد.

4 ديوانه ص2 مخطوط جمع كاتبه، والشَّيخ الغرياني هو أبو عبد الله محمَّد بن علي الغرياني الطرابلسي التُّونسي، درس بجربة وتونس ومصر، له فهرست شيوخه، وأجاز الحافظ مرتضى الزَّبيدي شارح القاموس (-1195هـ).

وله في أمداح أخرى، ومنها حين ختم مختصر[1] الشَّيخ خليل وكان ذلك سنة 1171هـ:

[الطويل]

جرى مستهلُّ الدَّمع من مقلتي سحا غداة وَهَى عقْد الهوى بعدمَا صحَّا

ويتخلَّص إلى مدحه بعد التغزُّل:

بوجنته ماءٌ أرقُّ من النَّدى وظل عذار ريحه نَفَحت نَفْحَا
إن فات ذاكَ الماء والظِّلُّ جزتَه إلى البَحر لا تظمأْ لديه ولا تضْحَى إمام
إلى شَيخنا الأَسنى الإمَامِ مُحمَّدٍ له العلياء والرُّتبة الرّجحى

ويذكر بعد ذلك انتصار مذهب مالك على يديه، ويُطنب في مدح المختصر الخليلي:

[الكامل]

ويُهنيك ذا الخَتْم الذي قد هَمَتْ به سحائب علم سَحّ وابلُها سَحَّا
تلوتَ به آيات فتح وقبله أَتيت بما لم يأل نُصحا ولا نُجْحا فللَّه
فتحت عيونا وانتصرت لمذهب ختم قد تلا النَّصْرَ والفَتْحَا
يقولون ما في الأرض خلّ مناصح وهذا خليل عمَّ كلَّ الورى نُصْحا
أتى بنفيس الدرِّ من بحر مالك لمن كان يبغي في تجارته الرِّبْحا
بمتن متين يشرح الصَّدر واضحًا فأحْسِنْ به متنًا وأحسن به شَرْحَا

ويشير بهذه الأبيات إلى مدرسة الشَّيخ الجُمني التي أحيت دراسة المذهب المالكي بعد أن اعتراه الضعف بسبب الاحتلال الإسباني وغير ذلك، فإنَّ الشَّيخ إبراهيم الجمني (-1134هـ) درس بالقاهرة "المختصر الخليلي" على أعلام شرَّاحه مثل عبد الباقي الزرقاني والخِرشي، وهما من أشهر شرَّاح خليل.

---

1 مختصر الشَّيخ خليل بن إسحاق الجندي هو مختصر الفتوى في المذهب المالكي، ووفاته على الأرجح سنة 776هـ.

وبالجمني ٱنتعش الفقه المالكي وٱنتشر المختصر الخليلي، وقد وقفت على إجازة فقهيَّة له أجاز بها الشَّيخ عبد الله السُّوسي (-1179هـ) أحد الوافدين من المغرب إلى تونس.

فقصيدته هذه تشير إلى تلك المدرسة التي كان من رجالها أبو محمَّد الغرياني، والتي ٱنتعش بها المذهب المالكي بعد ذلك الرُّكود، وبعد النِّسيان لأنَّ مذهب الدَّولة كان المذهب الحنفي.[1]

وللمترجم أمداح أخرى في شيخه الغرياني وكما مدحه مدح غيره من أساتذته مثل محمد بن حسين بيرم (-1214هـ)[2] وكان مدحه له سنة 1167هـ حين ختم عليه دراسة صحيح البخاري.

[الكامل]

يَهنيك يا مولاي ذا الختم الـذي لبس الزَّمان به طرازا مُذْهَبَا دقَّت
أوضحت فيه من الحديث غوامضًا فعنها كلُّ عقل قد نَبَا
إنَّ البخاري لو رآك مقرِّرا لصحيحه لغدا بفضلك مُعْجَبَا
ذاك الإمام الحافظ اللَّذ قد قضى من كلِّ علياءَ وفخرٍ مأْرَبَا
قد كان حاملَ راية العلم الجليـ ـل وسنَّة الهادي النَّبيِّ المُجْتَبَى

ومن شيوخه الذين مدحهم محمَّد بن حسين الهدة السُّوسي (-1197هـ)[3] حين ختم عليه شرح المحلِّي لجمع الجوامع لابن السّبكي وكان ذلك سنة 1169هـ:

[الكامل]

أختامُها مسكٌ يُفَكّ فَتَبْسِمُ أَمْ طيبُ ريَّاها الذي يُتنسَّمُ

---

1 حافظت تونس في هذه الفترة والتي قبلها على المذهب المالكي بأعلام جلَّة من البكريِّين ومحمَّد بن إبراهيم فتاتة والشَّيخ زيتونة وأبي الحسن النُّوري ومحمَّد الصفَّار وأبي الحسن عَلّي السُّويسي.

2 هو محمَّد بن حسين بن أحمد بن محمَّد بن حسين بيرم، وأوَّل هذا البيت رحل من الجند مع سنان باشا لفتح البلاد وأخذها من يد الإسبان. وأقام مفتيا 45 سنة، وله مؤلَّفات منها "بغية السَّائل في ٱختصار أنفع الوسائل".

3 كان من العلماء المشاهير طلب العلم بتونس ومصر ودرَّس بتونس وسوسة له مصنَّفات منها: "حاشية على الحطَّاب على الورقات"، طبعت بتونس.

وله في غيرهم قصائد أخرى، وعلى حسب ما يبدو أنَّه كلَّما ختم على أحد شيوخه كتابا مدحه وأشاد بفضله وعلمه، وتلك سنّة كانت رائجة في عصره، ولعلّه من أكثر الشُّعراء مدحا لشيوخه، وأكثر القصد من ديوانه أن يسجِّل به مدح شيوخه وإخوانيَّاته كما سيأتي.

فسنو تعليمه برزت في شعره مؤرَّخة مما حفظ تاريخ تدريس شيوخه لأشهر الكتب سواء كانت فقهيَّة أو غيرها، ويبدو في شعره ٱعتزازه بشيوخه ودروسهم فلم تلهه الخطَّة السياسيَّة عن الحنين إلى ماضيه في الدِّراسة، وهذا وفاء منه لمدرسته وأساتيذها.

من حياته السياسيَّة

تمكَّن المترجَم من أن يكون أديبا ورجل دولة، وٱمتاز عن بقيَّة معاصريه من الأدباء الذين كانوا إمَّا معتزلين للوظائف السَّامية بسبب ٱنكماشهم، أو لعدم إسعاف الحظِّ لهم فلم يتمكَّنوا من الدخول في الحياة العامَّة، وأخفقوا في وسائلهم مثل محمَّد الشَّافعي الذي رغم ما قدَّمه من تضحيات لأبناء حُسَين بن علي في محنتهم مع ٱبن عمِّهم فإنَّ قصارى ما ناله أنَّه ترفَّهت حياته وترقَّق عيشه فٱنكبَّ على شرح قصيدة محمَّد الرَّشيد، ثمَّ ألجأته الحال إلى التَّشريق فمات مشرِّقا وما نال مراما ولا مسك للحكم زماما.

أمَّا ٱبن عبد العزيز فقد تمكَّن من الدَّولة أشدَّ تمكُّن وأصبح أحد أعضادها البارزين، وكان ٱتِّصاله بواسطة أدبه الذي توسَّل به تعريفا بمنزلته في الكتابة، وقد حاول ذلك أوَّلا في مدَّة محمَّد الرَّشيد فإنَّه مدحه حين دخل تونس في صفر سنة 1170هـ:

[الكامل]

جُندُ الملاحة ضامن أن تُنصرا   فعلامَ تعتقل القنا المتأطِّرا*

ولسيف جفنكَ فتكةٌ يخفي لها   في الغمد سيف الهند كيلا يشهرا

أغريت جفنك بالقلوب يذيقها   مهما رنا بالبيض موتا أحمرا

*تأطر القنا في ظهر العدوِّ: ٱنثنى

ومن مديحها:

والآن مذ وافى الأميرُ وطـابَ لـي زمني الهنيُّ مـن أن أبيتَ مُسَهّرا
الأروعِ الملك الرَّشيد محمَّـد أعلى الملوك ذرى وأطيبُ عُنْصُرا
وأجلِّ من جلَّى الخطوبَ وقد دجتْ ليلاً وأفضلُ من يقودُ العسكرا
مَلكٌ إذا ٱفتخر الملوكُ بمجدهم يُغنيه باذخ مجده أن يُفْخرا
بذل النَّوال كما ٱستهلَّت ديمةٌ وبكفِّه سيفٌ يريك تسعُّرا
لله منه سيِّدٌ لا يُمترى في أنَّه ليثٌ وغيثٌ يُمترى
يأتي الوقائعَ غير مكترث بها فرحا ويقتحم الحروب مشهِّرا
كم قد غزا جيشًا فراموا حربَه حتَّى رأوا منه الجلاد الأكبرا
يجلُو بطلعته الظَّلامَ فإن بدا تحت العَجَاجة خلت ليلا مُقْمرا
ملكٌ له العلياء والشَّرف الذي أضحى على من رامَه متعذِّرا

وهي من غرر شعره نظمها وشبابه يتَّقد تطلُّعا وتحفُّزا للغاية المأمولة متحيِّنا إقبال دولة أبناء الأمير حُسَين بن علي بعد تغلُّب ٱبن عمِّهم الباشا علي، وقد أشار في خاتمة هذه القصيدة إلى مطمحه:

إن لم تنل منك القبولَ فإنَّه حظِّي وإن حُظِيَت لديك فبالحَرَى

والحرى مقصور: الخليق والجدير، جاء في الصحاح: هو حرى أن يفعل، بالفتح، ولا يثنَّى ولا يجمع وأنشد الكسائي:

[الطويل]

وأنت حرًى بالنَّار حين تثيب[1]

وهو مثل الحَري كَعَليٍّ.

ولكنَّه لم يقدَّر له أن يسلك سبيله الذي رامه إلاَّ في مدَّة أخيه علي بن حسين، وقد ذكر ٱبن عبد العزيز في "تاريخه الباشي" من أسباب ٱتِّصاله بالأمير المذكور أنَّه كان يعقد كلَّ ليلة في قصره بباردو مجلسا للمذاكرة

1 الحرى الخليق، قال الشَّاعر: وهنَّ حرًى إلاَّ يثبنك نقرة * وأنت حرًى بالنَّار حين تُثيبُ. (اللِّسان)

والمدارسة، فيبيت عنده من تكون نوبته تلك اللَّيلة المعنيَّة، فتذاكروا ليلة في قول نُصَيبٍ.[1]

[الطويل]

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فتفاوض من حضر تلك اللَّيلة في تضمين البيت مدحا للأمير.

وهنا يقول المترجَم له: "إنَّه لم يكن في تلك الجماعة من يحسن النَّظم، فلمَّا ٱنصرفوا أتى إليَّ بعضهم وسألني تضمين البيت، ولم أكن إذ ذاك ٱتَّصلت بخدمة حضرته العليَّة فنظمتها ودفعت له النُّسخة، فلمَّا كان في مثل تلك اللَّيلة من الجمعة القابلة وعادوا للمبيت عنده أيَّده الله قُرئت القصيدة عليه فٱستحسنها، وأخذ النُّسخة وعرضها على بقيَّة الفقهاء الملازمين لمجلسه الرَّفيع، ولمَّا ٱشتهرت أنشد جماعة من الشُّعراء لمعارضتها، فأتى كلٌّ واحد منهم بقصيدة ضمِّنت البيت المذكور وهم:

الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن أحمد الورغي (-1190هـ)[2]

والفقيه الأديب أبو العبَّاس أحمد العصفوري (-1199هـ)

والأديب البارع أبو الحسن علي الغراب الصفاقسي (-1183هـ)

وها أنا أعرض عليك القصائد الأربع وأكِلُ التَّرجيح إلى الأنظار السَّديدة.

وذكر بعد ذلك القصائد الأربع وبدأ بقصيدته، وإنَّك لتشعر وأنت تقرأ هذه الفقرة المنقولة من تاريخه الباشي بأنَّه يعتزُّ بشعره غاية الاعتزاز، إذ يضع نفسه في الميزان مع فحول شعراء ذلك العصر، فإنَّ كلاًّ من الورغي والعصفوري والغراب يعدُّ في ذلك العصر من أبرز الشُّعراء وأشهر الأدباء.

---

1 هو نُصيب مولى المهدي يقال له نُصيب الأصغر، من الموالي السُّود، شاعر مُجيد توفِّي نحو 175هـ

2 ترجم له الشَّيخ محمَّد النيفر في عنوان الأريب 538/1.

والمتتبِّع لآثار المترجَم يدرك أنَّه يتوق إلى التفـوُّق بـالجودة في الـشِّعر والترسُّل، ولم يكن تَوقُه إلى ذلك غير مستند إلى مقدرة، بل تمكُّنه من النَّظم والنَّثر يشهد له ما خلَّفه من آثار فيهما، وجودة شعره علاوة على شهادة من أرَّخه شعره نفسه يشهد لها، وستقف على ذلك أثناء الدِّراسة لأدبه الـوفير بالنِّسبة لغيره.

وقصيدته التي ضمَّنها البيت المذكور جاء فيها:

إِلَيْكَ وَإِلاَّ مَا تُشَدُّ الرَّكَائِبُ　　وَمِنْكَ وَإِلاَّ مَا تُنَالُ الرَّغَائِبُ
تَوَجَّهَتِ الآمَالُ نَحْوَكَ فَانْثَنَتْ　　وَمَا أملٌ فِيمَا تَرَجَّاكَ خَائِبُ
تَتَبَّع مُلُوكَ الأَرْضِ مَنْ لمَلِيكنَا　　أَبِي الحَسَنْ البَاشَا عَلِيّ يقَارِبُ
وَمَنْ كَأَبِيه يَوْمَ فَخْرٍ بِوَالِدٍ　　حُسَيْنٍ الذي أثنتْ عليه المَوَاكِبُ
وَمَنْ تُورَقُ الأغصَانَ فِي المَحْلِ كفُّهُ　　وَمَنْ يَكْشِفُ الغَمَّاء إِنْ نَابَ نَائِبُ
وَمَنْ فِي هُجُوم الخطْب يُعْملُ رَأيَهُ　　فَيَمْضِي نفَاذًا حيث تَنْبُو القَواضِبُ
سِوَاكَ بِحَدِّ السَّيْفِ أَصْبَحَ غالبًا　　وَأَنْتَ لِمَنْ نَاوَاكَ بالصَّفْحِ غَالِبُ

ويقول في تضمين البيت المذكور:

وقد صدروا والعيسُ كالنَّخل إذ زها　　سألناهم كيف العُلا والمناقبُ
فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهلُه　　فلو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

وقد اعترف المترجَم بأنَّ طالع القصيدة أغار فيه على غيره، ونصُّ ما جاء في أحد دواوينه ومثله في تاريخه الباشي.

وقال منشد القصيدة: "وبعد نحو عدَّة من السِّنين من تضميني لهذا البيت وقفتُ على بيتين أنشدهما أبو عثمان سعيد بن جعفر التُّجيبي في كتابه "مُلَح السِّحر من روح الشِّعر"، ولم ينسبها لأحد وهما:

إليكم وإلاَّ ما تشدُّ الرَّكائب　　ومنِّي وإلاَّ لا تُنَالُ الرَّغَائبُ
وعنكم وإلاَّ فالمُحَدِّث كاذبٌ　　وفيكم وإلاَّ فالمؤمِّلُ خَائِبُ

والبيت الأوَّل منهما هو مطلع قصيدتي بعينه، فلم أدرِ هل كنت رأيت البيتين في غير الكتاب المذكور لأنِّي لم أقف عليه قبلُ فنسيتُهما بعد أن كانا

بحفظي، أو كان ذلك من توارد الخواطر، ولو ٱطّلعت عليهما قبل أن تظهر قصيدتي وتذهب في النّاس لكنت أسقطت منها هذا البيت."

الوزير الكاتب

ٱندمج ٱبن عبد العزيز في الدَّولة التونسيَّة في عصره، وكان مرموقا بعين الإكبار، موسّعا عليه في الدُّنيا، ويستفاد ممَّا ذكره الشَّيخ ٱبن أبي الـضِّياف[1] أنَّه حصّل على المكانة المرموقة، وسُوِّغ له أن يُدلَّ ويتحمَّل له المسؤولون إدلاله لقصور الإنشاء والترسُّل على قلمه، وفي الحقيقة أنَّ ذلك كان أحد الأسباب لأنَّه ٱضطلع بمهمَّات في دولة الأمير علي بن حسين فوفِّق فيها، ورغم ما يُنتقد عليه ويُرمى به فإنَّه ظهرت نجابته وبدرت منه آراءٌ كان الأخذ بها، وعرف كيف يجذب إليه السُّلطة وكيف يتمكَّن من الدَّولة التمكُّن الذي أهَّله للنُّفوذ الواسع والكلمة المسموعة المسار على غرارها.

وتعرَّف الأمير المذكور عليه بسبب ما ذكره نفسه في تاريخه الباشي كما أسلفنا، ومن لباقته وحنكته أنَّه لمَّا طلبه الأمير لقلم الإنشاء أظهر التمنُّع وهو تمنُّع مصطنع إذ كيف يتمنَّع وهو من مدَّة الأمير محمَّد الرَّشيد يمهِّد لنفسه ويحاول الخطَّة، أو لعلَّ ذلك التَّمهيد كان لخطَّة قضائيَّة لا لخطَّة سياسيَّة.

وجدَّد له الأمير المذكور الطَّلب على يد مفتيه الشَّيخ محمَّد بن حسين البارودي المفتي الحنفي (-1216هـ) فقبل بعد ذلك التمنُّع، وٱتِّصال المترجَم بعائلة البارودي ٱتِّصال ممتدٌّ من الأب إلى الابن، وٱتِّصال هذه العائلة بالأمير المتقدِّم ٱتِّصال وثيق متين.

وكان والد المفتي محمَّد البارودي قد مدحه ٱبن عبد العزيز، وهو حسين البارودي[2] (-1186هـ) لمَّا تقدَّم للخطط الشرعيَّة، ونوَّه به في ديوانه حين قدَّم قصيدة المدح بقوله:

---

1 الإتحاف 23/7.

2 هو أبو محمَّد حسين بن إبراهيم البارودي شيخ الإسلام الحنفي ترجم له السنوسي في "المسامرات" بتحقيق كاتبه.25/2-30.

"وقلت أهنِّئ مولانا مفتي الإسلام أبا عبد الله حسين البارودي بالفتيا والخطابة وغير ذلك نفعنا الله به آمين.

[الوافر]

تضوَّع منبرٌ تعلوه طيبَا ... غداةَ رَقِيتَ ذُروتَه خطيبَا
وتطربه فيهتزُّ ٱرتياحًا ... كما قد كان أملودًا رطيبَا
لِيُهنكَ يا إمام العصرِ يا من ... بحكم الله مجتهدًا مُصيبَا
فأضحى الدِّين محميًّا مصونًا ... وقدْمًا كان قد لاقى شحوبَا
وأضحى آهلاً بمراح أنسٍ ... وقَبلَك كان في الدُّنيا غريبَا
ودارًا قد حللت بها فظلَّت ... لمرتاد العُلى رَبعًا خَصيبَا
تضمُّ البدر لا يخشى مَحاقًا ... وتحوي الشَّمس لا تبغي غروبَا
قد ٱزدحمت بساحتها وفودٌ ... وما أحدٌ توهَّم أن يخيبَا
فلاقوا منك وجهًا ذا ٱبتسامٍ ... وصدرًا ضُمِّنَ التَّقوى رحيبَا
سقاها غير مفسدها سحابٌ ... يحاكي جُودَ راحتكم صبيبَا
ولا زالت سعودكَ في توالٍ ... وقد زالت نحوسٌ لن تؤوبَا
تُبلِّغ كلَّ ذي أملٍ مناهُ ... بعيدًا كان ذلك أو قريبَا

ولم يتحاش في مديحه أن يصرِّح بآماله التي يبلغه إليها الممدوح، وهذه القصيدة لا توجد إلاَّ في إحدى دواوينه، وأمَّا بقيَّة الدَّواوين فمحذوفة منها، فكأنَّه بعد دهرٍ تحاشى أن تحفظ عنه فشذبَها من ديوانه.

ومع تحاشيه كما يبدو هي من الشِّعر المصون عن الإسفاف، والذي تشمُّ منه رائحة الاعتزاز بالنَّفس، وحتَّى في تحقيق مآربه عرَّض ولم يصرِّح.

ولَمَّا تمَّ له الاتِّصال ٱستعان به الأمير المذكور في تدبير الدَّولة وهذا لا بدَّ أنَّه حصل بعد فترة من الاتِّصال، إذ لا يمكن أن يأخذه من حلقات دروسه ويصعد به إلى تدبير دولة في أيَّام قلائل، بل حصل له ذلك بعد أن أبدى من الآراء ما أظهره الواقع في ثوب التَّفكير الرَّصين الرَّاجح، ولهذا أدار دفَّة الدَّولة في زمنه.

ولما أبداه أوفده إلى الجزائر في مهمَّات سياسيَّة، والمُوفد في مثـل تلـك الظُّروف لا ينجح إلاَّ إذا كان من ذوي الحنكة والدُّربة لأنَّها ظروف دقيقة جاءت إثر الحملة التي كانت سببا في إعادة أبناء حسين بن علي إلى عرشهم بعد أن كاد يضيع عليهم.

وبذلك طلع نجمه في سماء الإقبال حتَّى ٱختصَّ بالأمر أيَّما ٱختصاص، فأعطاه فلذة كبده حمُّودة باشا ليتخرَّج على يديه.

وفي هذه الحظوة التي نالها والمكانة المرتقى إليها يقول الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف: "ونال ما شاء من الحظوة والإقبال، وتوجَّهت تلقاء مدينته الآمال، وباكَر بابه العمَّال".[1]

وقد ٱقتصر في ترجمته على أنَّ سفارته كانت إلى بلاد الجزائر خاصَّة ونصُّه: "وبعثه سفيرا عنه إلى قُسَنْطينة والجزائر في بعض الأغراض السياسيَّة". وفي "عنوان الأريب"[2] أنَّه بعثه سفيرا لدار الخلافة العثمانيَّة والجزائر، ولعلَّ ذلك نتج عن تحريف في نسخته من تاريخ ٱبن أبي الضِّياف حيث حرِّفت قسنطينة بقُسْطَنْطينيَّة، أو أنَّ له رحلة إليها غير معلومة.

وقد تورك علَى المترجَم الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف في تاريخه في ترجمة الأمير علي بن حسين حيث لم يذكر في تاريخه الباشي منقبة للفقيه منصور المترلي في ٱستخلاص الجباية لَّما شكا أهل الوطن القبلي عاملهم حيث تطوَّع الفقيه المترلي بٱستخلاص الجباية بطرح ما يأخذه العمَّال، ودام على هذه الخطَّة ثلاث سنين، فرجع للوطن القبلي عُمرانُه وتجدَّدت ثروته، ثمَّ ٱستقال الفقيه المترلي متعلِّلا بأنَّ الأنذال من العمَّال نالوه بألسنتهم وأغروا من قال فيه:

يـا مـترلي خُـوذْ الفلـوسْ بِزَايِـد في الصُّبح قاضي وفي العـشيَّة قايِـد[3]

ثم قال ٱبن أبي الضِّياف: "وهذه المنقبة أنفع من كثير ممَّا ذكره في ترتيب أيَّامه ولياليه".

1 الإتحاف 23/7.
2 عنوان الأريب 623/1.
3 المرجع السابق210/2.

ويستفيد الواقف على هذا خُلُقًا من أخلاق المترجَم، فإنَّه لَمَّا ٱستحوذ على النُّفوذ في الدَّولة كان ضنينا بأن يعرف الماسك بزمام الدَّولة أنَّ لغيره منقبة، فلذلك يطوي ذكر المحاسن التي لغيره خوفا على وظيفته ومن هنا لا نعجب حيث لم يذكر ما صنعه الفقيه المترلي من إزالة الحَيْف، وله من هذا القبيل مواقف أخرى تدلُّ على نزعات نفسيَّة وغرور بسبب السُّلطان ألَّبت عليه النُّفوس حتَّى تناولته الألسنة بالمذمَّة، وكان في غنية عمَّا صنع.

وتتبَّع الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف سقطاته الخلقيَّة، وربط ما وقع له بما يصدر عنه من فلتات، وكما تتبَّع سقطاته الأخلاقيَّة حاسبه على سقطاته السياسيَّة فذكر أنَّ الباي حمُّودة باشا لَمَّا طلب التَّدبير في شأن الجباية بما يناسب الوقت والحال، وذكر أنَّه في ٱنتظار ما يشار عليه به ٱبتدر الوزير ٱبن عبد العزيز مبديا لرأيٍ لم تَسْلَمْ له العواقب من جرَّائه، فأشار بأن يعتبر دخل العامل، ويُولَّى على مشارطة ماليَّة ووراءه النَّظر حتَّى لا يتعمَّد الإخفاء، فردَّ عليه الوزير مصطفى خوجة وقال له "يكون ذلك على يدك أيُّها الشَّيخ".

فأجاب الوزير ٱبن عبد العزيز "لا يكون ذلك على يدي لمنافاته خطَّتي ولا على يديك، وإنَّما يكون سرًّا على من يثق به سيِّدنا في ذلك ليتدرَّب على سياسة الأعمال والعمَّال، ولا يتولَّى عامل إلاَّ على يده"، وأشار بالوزير يوسف خوجة صاحب الطَّابع فٱتَّفق الرَّأي على تقديمه.

وممَّا علَّق به الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف أنَّ ما صنعه ٱبن عبد العزيز موضع إنكار بشهادة الله سبحانه.

والمترجَم وإن وُفِّق فيما أوصله إلى مأموله في الوظيفة السَّامية إلاَّ أنَّه أساء بما دلَّ عليه لما ترتَّب عليه من آثار أظهر الواقع أنَّها حَيْفٌ، وتتبُّع حياته وزيرا يهمُّ من يؤرِّخ حياته السياسيّة والقَصْد إلى غيرها.

حجّـه

ذكره في تاريخه الباشي لمناسبة تتعلّق بممدوحه الذي ألّف كتابه "الباشي" تاريخا له، وهو الأمير علي بن حسين (-1196هـ) فذكر رحلته إلى الشّرق عرَضا حين مدحه بجودة الفكر وحدّة الذّهن:

"وأمّا جودة ذهنه وذكائه فكفاك أنّي سافرت من تونس إلى مكّة زادها الله شرفا، ورأيت ملوكا وعلماء، وعاشرت خلقا من أهل العلم والأدب وغيرهم فما رأيت أذكى ولا أفطن ولا أسرع فهما، ولا أقوى عارضة منه.

ولقد تُعرَض عليه كتب الإنشاء الصّادرة عن أمره من إنشائي أو إنشاء غيري من جهابذة كُتّابه فينتقد فيها أشياء كثيرة الصّوابُ فيها معه، ومنها ما لا يكاد يتفطّن إليه إلاّ أكابر الكتّاب والمترسّلين".

فحين مسّت المناسبة في إبداء ممدوحه في ثوب لا يشاركه فيه أحد بأنّه أذكى الخليقة ٱحتاج إلى الاستدلال على ذلك، فذكر هذا السّفر الطّويل من تونس وهي من بلاد المغرب إلى مكّة المكرّمة وهي من بلاد المشرق الذي لم يُرَ فيها مثيلا له مع أنّه رأى وعاشر الكثير من مختلفي الأصناف.

والواقع لا يماشيه في مدعاه لأنّه وإن جاب بلادا كثيرة أثناء سفره فإنّه على فرض المعاشرة لا يتأتّى له أن يختبر أهلَها، حتّى يرى من ذكائهم ما يقاس به، وبالأخصّ الذّوات من وجوه القوم إذ الاتّصال بهم لعابر سبيل غريب يعزّ اليوم فضلا عن زمنه.

ويؤكّد إغراقه البعيد عن الواقع أنّه لمّا سافر لم يسافر بقصد ٱختبار الذّكاء في أهل كلّ قطر حتّى يوازن بينهم وبين الأمير، ويا ليته ٱقتصر على ما رأى وحده حقيقة لكان أوقع في النّفس وأبلغ في التّأثير، ومن أجل ذلك لم يُكتب لتاريخه "الباشي" الانتشار كما كتب "لإتحاف أهل الزّمان"، وهذا علاوة عن تنميقه المتكلّف.

وحين ذكر حجّه في هذه المناسبة ٱقتصر على ذكره للسّفر من تونس إلى مكّة دون تحديد زمن السّفر ولا تعيين شيء ممّا دار فيه، ولعلّه ٱكتفاء بما

تقدَّم له، إذ شرح في جمل قصيرة سفره إلى الحجِّ، وذلك حين مسَّت المناسبة إلى ذلك دون قصد إليه.

وهي أنَّ الأمير المذكور كانت له عناية بالحديث وغـيره مـن الأوراد، فأجيز فيما له عناية به وجاءته الإجازات من المغرب والمشرق، وممَّن أجازه من علماء المغرب يوسف بن محمَّد بن ناصر الدّرعي[1]، وهو ٱبن أخي الشَّيخ أحمد بن ناصر الدّرعي المتوفَّى 1129هـ والمجيز المذكور لم يأخذ عن عمِّـه الشَّيخ أحمد مباشرة، فما أفاده صاحب "شجرة النُّور الزكيَّة" من أخذه عنه مباشرة لا تؤيِّده الإجازة التي ذكرها ٱبن عبد العزيز في "تاريخه الباشـي" إذ فيها أنَّه أخذ عن عمِّه بواسطة.

وممَّن أجازه من علماء المشرق محمَّد المدني الشَّهير بالسمَّان، فذكر "أنَّـه وردت على الأمير في سنة سبع وثمانين -أي بعد المائة والألف- من المدينة المنوَّرة على صاحبها أفضل الصَّلاة والسَّلام إجازة مـن الـشَّيخ الـصَّالح المتصوِّف أبي عبد الله محمَّد بن عبد الكريم السمَّان المدني رحمه الله تعـالى. وهي إجازة عامَّة بجميع مرويَّاته ومصنَّفاته وأوراده، وإن كان لم يحـضرني الآن لفظُها فأنقلُها.

ثمَّ ذكر تعرُّفه على الشَّيخ السمَّان بالمدينة حين قصدها زائرا عام حجِّه في السَّنة التي ذكرها:

"وهذا الشَّيخ السمَّان رحمه الله لقيته عام حجِّي (سنة إحدى وثمـانين بداره) التي بإزاء المسجد الشَّريف من شرقيِّه، دخلت عليه في جماعة من أهل بلدنا وغيرهم، فدعا بالطَّعام فأكلنا ثمَّ دعا لنا بخير، فلمَّا نَهضنا للانـصراف ٱختصَّني من بينهم وأمرني بالجلوس بعدهم، ولم أكن متميِّزا عنـهم بـزيٍّ الفقهاء، ولا أظنُّه سمع ذكري قبل أن أدخل عليه فقـال لي تـروي عنِّـي (الحديث المسلسل بالأولية)؟

---

1 الشَّيخ يوسف من المحدِّثين أجازه الكثير وأجاز كذلك. (شجرة النُّور الزكيَّة 358/1، رقم التَّرجمة 1431).

قلت نعم، فسمَّعته من لفظه، ثمَّ أجازني بعد ذلك الإجازة العامَّة، وتوفِّي بالمدينة المنوَّرة سنة( )"، وهنا بياض في النُّسخة التي وقفت عليها من تاريخه الباشي، ولعلَّ ذلك من بياضات المؤلِّف، أو هو في النُّسخة التي وقفت عليها خاصَّة.

والشَّيخ السمَّان الذي ذكره باقتضاب ترجَم له المرادي في "سلك الدُّرر في أعيان القرن الثَّاني عشر"[1]، ونوَّه بشأنه ووصفه بالصُّوفي الأوحد البارع الكامل العالم المرشد المسلِّك المربِّي فقيه الأقطار الحجازيَّة.

وكانت ولادته سنة 1130هـ بالمدينة المنوَّرة، وكانت وفاته بها سنة 1189هـ.

وهذه الدَّار التي دفن بها المترجَم تتَّصل بدار سيِّدنا أبي بكر الصدِّيق رضي الله عنه، وذكر المرادي أنَّها دار سيِّدنا أبي بكر الصدِّيق، وتعرف بالمدرسة السِّنجاريَّة وهي مشتملة على حُجر كثيرة، وكانت في وقت الشَّيخ السمَّان يترل فيها الغرباء والواردون على المدينة من الآفاق.

ونضيف إلى هذا ما ذكره مؤرِّخ الحجاز العلاَّمة الأستاذ عبد القدُّوس الأنصاري[2] في كتابه "آثار المدينة" (أنَّ دار أبي بكر الصدِّيق كانت شرقيَّ المسجد الشَّريف ويمكننا أن نقول أنَّ دار أبي بكر الصدِّيق هذه تتكوَّن في الأصل من مجموع كلٍّ من بيت السمَّان والدَّار الملاصقة له غربا إلى طرف المدرسة المقابلة لباب النِّساء المعروفة بزاوية السمَّان).

وأمَّا اليوم فهذه الدَّار أدخلت في الرَّحبة الواقعة شرقي المسجد مقابل باب النِّساء.

والمترجَم كان في حجِّه كما يظهر غير معتن بالتلقِّي، إذ أنَّه لو كان معتنيا به لبادر إلى الشَّيخ السمَّان وطلب منه الإجازة لاشتهاره في عصره

---

1 سلك الدُّرر في أعيان القرن الثَّاني عشر 60/4.

2 آثار المدينة ص28.

بالأخذ عنه وتلقِّي مواهبه الصُّوفيَّة، (فإنَّه ٱشتهر في الآفاق وأخذ عنه الجمُّ الغفير من أهل المدينة وغيرها).

فسبب الأخذ عن السمَّان ما توسَّمه في المترجَم من النُّبل والعلم، فلهذا دعاه لأن يروي عنه، والمترجَم يجعل ذلك من فراسته فيه حيث لم تتقدَّم معرفة بينهما ولا سمع الشَّيخ بذكر المتلقِّي عنه.

وحديث الأولية الذي أشار ٱبن عبد العزيز إلى أنَّه أخذه عن الشَّيخ السمَّان عام حجِّه هو من الأحاديث المسلسلات، وهي نوع من أنواع الرِّواية الحديثيَّة الذي تتابع رجال إسناده على صفة واحدة أو حالة للرُّواة.

وقد أُلِّفت في هذا النَّوع المسلسل تآليف خاصَّةٌ من قبل بعض علماء المدينة المنوَّرة وهو محمَّد علي بن ظاهر الوَتري المتوفَّى 1322هـ فله "التُّحفة المدنيَّة في المسلسلات الوتريَّة"، طبع هذا الكتاب في قازنده من الاتِّحاد السوفياتي سنة 1906 ميلاديَّة.

وكذلك ألَّف في المسلسلات من علماء المدينة محمَّد بن عبد الباقي الأيُّوبي "المناهل السَّلسلة في الأحاديث المُسلسَلة"، وقد طبعه صهره الأستاذ محمَّد الدفتر دار المدني سنة 1357هـ.

والحديث المسلسل الذي أشار إليه المترجَم هو (الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمان تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يَرْحمكُم من في السَّماء).

وقد خصَّ هذا الحديثَ جماعة بالتَّآليف منهم حافظ الاسكندريَّة أبو طاهر السّلفي، والحافظ المؤرِّخ الذَّهبي في جزء سمَّاه "العذب المُسَلْسل في الحديث المسلسل"، ولابن الأبَّار نزيل تونس (-658هـ) "المورد السَّلسل في حديث الرَّحمة المسلسل".

ويؤخذ على المترجَم عدم العناية بالرِّواية في رحلته الشاقَّة في عصره، وتلك شنْشنة في الكثير من العلماء الذين أغفلوا الرِّواية، فأغفلوا التَّاريخ، ولهذا يشَقُّ البحث على الباحث عن علمائنا وأدبائنا حين يترجم لهم، فكانت تراجمهم مُقْتَضَبَةً.

مؤلّفاته

ألّف المترجَم مؤلّفات، وإن كانت قليلة إلاّ أنّها شملت التّاريخ والأدب والتّوحيد، وقد أمكن لي الوقوف على البعض دون البعض، فممّا أمكن الوقوف عليه من مؤلّفاته:

"ديوانه"، "تاريخه الباشي"، "شرح موشح ٱبن سهل" (هل درى ظبي الحمى)- و"رسالة في علم الكلام".

وممّا لم أقف عليه "الحاشية على الوسطى للإمام السُّنوسي" في التّوحيد، و"رسالة في القبلة".

وسأصف ما وقفت عليه من تآليفه حتّى يكون التّعريف موفيا بالغرض ملمًّا بمحتويات هذه التّآليف.

ديوانه

تأتّى لي أن أقف على ثلاث نسخ من ديوانه، وهي وإن ٱتّفقت في بعض أشعاره ٱختلفت في البعض الآخر.

فإحدى النُّسخ الثّلاث نسخة قريبة من عصره، ولعلّها منسوخة بقلم أحد معاصريه، وقد حذف منها ما كان مدحا للأميرين حمُّودة باشا وأبيه علي، بينما تمتاز عن غيرها بقصائد أخرى ومقطّعات ٱنفردت بها لأنّ المدائح في الأميرين المذكورين موجودة في "التّاريخ الباشي" برمّتها.

وأمّا النُّسختان الأخريان فهما متماثلتان، وليس بينهما ٱختلاف إلاّ في أمور يسيرة ترجع إلى تحريف في إحداهما وسلامة في الأخرى، وهذه الأخيرة مع تحريفها أمكنت الاستفادة منها في تصحيح بعض ألفاظ جاءت محرّفة في بقيّة النُّسخ.

وهناك ما يعدُّ نسخة رابعة، وهو ما ذكره الشّيخ محمّد السّنوسي في كتابه مجمع الدّواوين المسمّى "شفاء النُّفوس السنيَّة بمجمع الدّواوين التونسيَّة"، فالجزء الثّاني منه قصره مؤلِّفه على شعر الورغي وحمُّودة بن عبد

العزيز، ويبتدئ القسم الخاصُّ به من صفحة 114 وهذا الجزء الآن بالمكتبة الوطنيَّة، وكان قبل ذلك بالمكتبة الخلدونيَّة، وإن سمحت الظروف فسأقابل عليه شعره بالدَّواوين الثَّلاثة، وبذلك تكون هناك نسخة من ديوانه جامعة سالمة من التَّحريف.

واتَّفقت النُّسخ الثَّلاث في التَّقدمة للدِّيوان على مقدِّمة من قلم المترجَم نفسه وهي "الحمد لله، هذه نفثةُ الصَّدر المقروح وتعلَّة القلبِ المجروح، اختلسها الفكر والحوادث ترميه عن كَثَب، والدَّهر يهدي له أشتات الخطوب والنُّوَب، تروُّحًا من بثّه وأحزانه وتعلُّلا عن وجده وأشجانه وأداء لبعض ما يجب لمدح مشائخه ومعلِّميه ومراجعة من بدأه من إخوانه ومقارنيه، جمعتها خوفا من الضَّياع وتشنيفا ببعض محاسن فيها للأسماع".

وفي بعض هذه النُّسخ تعليقات قليلة على الخطبة نذكر منها واحدة نموذجا وهي ما جاء شرحا لقوله في أوَّل الخطبة (نفثة الصَّدر المقروح): نفث ينفث وهو كالنَّفخ، وأقلُّ من التَّفل، ونَفْثُ الشَّيطان الشِّعر، والنفَّاثات في العقد السَّواحر، والنُّفَاثة ككناسة، أي بضمِّ النُّون وتخفيف الفاء، ما ينفثه المصدور من فيه، واسم موضع، والنَّفث الشرُّ الدَّائمُ، والمراد هنا ما ينفُثه المصدور من فيه بدليل قوله (الصَّدر المقروح وتعلَّة القلب المجروح).

وهذه التَّعليقة منقولة من القاموس المحيط، وقد أضاف إليها المعلِّق تعيين المعنى المراد من قول المترجَم هذه نفثة الصَّدر، ولنا مع المترجَم نكتة نأتي بها عند الكلام على أدبه تخصُّ هذه الجملة التي صدَّر بها ديوانه.

وهذه المقدِّمة الوجيزة التي كتبها المؤلِّف أشار فيها إلى أنَّ هذه الأشعار ما هي إلاَّ ترويحات نفسيَّة صدرت منه في مناسبات حصرها في أمرين:

1) مدائح أساتيذه أداء لبعض الواجب نحوهم.

2) مراجعات إخوانيَّة لم تكن فيها المبادرة منه، ونصَّ على هذا تعزُّزا منه وترفُّعا على إخوانه حيث يقول (ومراجعة من بدأه من إخوانه).

وينضاف إلى ذلك ممَّا لم يذكره تغزُّلاته، وهي كثيرة أخذَت جانبا مهمًّا من ديوانه، وتحاشى ذكرَها في الخطبة ولكنَّه لم يهملها من ديوانه ضنًّا بها وخوفا عليها من الضَّياع، كما أنَّه ضمَّنه قسما رابعا وهو مدائح الأمراء، وسلطان المغرب مولاي محمَّد، وقد ٱتَّفقت النُّسخ الثَّلاث على قصيدته في مدح سلطان المغرب التي مطلعها:

[البسيط]

يا جيرةَ السَّفح كمْ قلبٍ بكم تعِبَا لم يقضِ من حقِّكم نحبًا ولا أرَبَا

وكأنَّه أبقى هذه القصيدة في نسخة ديوانه التي حذف منها مدائح الأمراء، لأنَّ السُّلطان المذكور الذي مدحه ٱبن عبد العزيز المولى محمَّد بن عبد الله بن إسماعيل[1] (1134-(1171)-1204) معدود من العلماء، وله تآليف منها كتابه المشهور المسمَّى "الفتوحات الإلهيَّة في أحاديث خير البريَّة" الذي طبعه السُّلطان محمَّد الخامس.

وقصر ديوانه الذي حذف منه المدح على ما قصر إشارة منه إلى أنَّ شعره الذي يعتزُّ به ويضنُّ به هو ما كان برورا بأساتيذه أو وفاء لإخوانه حيث أنَّه شعر وجدانيٌّ خالص من الإطراء الذي دعت إليه الظروف أو ألجأت إليه الحاجة.

والّذي يبدو من ٱختلاف النُّسخ أنَّه جمع ديوانه على فترتين أولى وثانية، ففي الفترة الأولى لمَّا كانت الدُّنيا مقبلة عليه وهو يتنعَّم في رضا الأمراء ضمَّ إلى مدائح شيوخه وإخوانيَّاته مدائح الأميرين المذكورين حمُّودة وأبيه علي، ثمَّ بدا له رأي آخر فكانت الفترة الثَّانية فتبدَّل الرَّأي الأوَّل فحذف تلك المدائح إلاَّ قصيدة محمَّد الرَّشيد وٱقتصر على الأقسام الثَّلاثة، ولعلَّ ذلك

---

1 الشريف الحسني: من ملوك الدَّولة السجلماسيَّة العلويَّة بالمغرب. أوَّل من ٱتخذ مراكش عاصمة له، بويع سنة 1171هـ ألَّف تآليف بإعانة بعض الفقهاء، منها: "مساند الأئمَّة الأربعة"، و"الفتوحات الإلهيَّة في أحاديث خير البريَّة"...الخ. توفي سنة 1204هـ/1790م.(الأعلام 119/7).

كان حين أعرض عنه تلميذه الأمير حمُّودة باشا كما أشار إليه الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف في تاريخه[1]: "ولمَّا برئ الشَّيخ وأتى باردو على عادته غضَّ الباي من جانبه وتنكَّر له ولم يجد ما كان يعهده وأدبر إقباله ورمقته أعين الانتقاد وسلقته الألسن الحِداد إلى أن أزعجته يد المنيَّة".

ولا يبعد أن يكون في هذه الفترة حين جمع ديوانه ونقَّحه فحذف تلك المدائح، عثر أثناء المدَّة بين الفترتين على أشعار له أخرى فضمَّها إلى ديوانه فتضاعف حجمه.

وممَّا تمتاز به هذه النُّسخة ما ذكرناه سالفا من مدح الأمير محمَّد الرَّشيد بقصيده:

[الكامل]

جنــدُ الملاحــة ضــامنٌ أن تُنــصرا فعــلاَم تعتقــل القنــا المتــأطرا؟

ومن مدح الشَّيخ حسين البارودي بقصيده:

[الوافر]

تــضوَّع منــبر تعلــوه طيبــا غــداة رقِيــت ذِروتــه خطيبــا

وكذلك تمتاز بقصيده في مدح الشَّيخ الغرياني محمَّد بن علي، فتكون مدائحه فيه أربعا، بينما هي في النُّسخ الأخرى ثلاث.

والقصيدة التي تمتاز بها هذه النُّسخة هي التي قالها في شيخه المذكور حين ختم عليه "المختصر الخليلي" سنة 1171هـ

[الطويل]

جرى مستهلُّ الدَّمع من مقلتي سحا غداة وَهَى عقد الهوى بعدما صحّا
وخاف الكرَى خوضا بلُجَّة أدمع فناديته لا تخشها وٱذْكر الصَّرحَا
ولولا مقيم بين أكنفَة[2] الحمى لَما كان قلبي يعرف البَثَّ والقَرْحا
أرى السفح من بُعدٍ فأبكي لمن به فجفني على الحالين قد لزم السَّفحَا

1 الإتحاف 18/3.

2 جمع كنفٍ، وهو جانب الشيء، وهو ليس بجمع له لأنَّ جمع الكَنَف أكناف.

وكذلك تمتاز هذه النُّسخة بمدائح بعض الشُّيوخ الذين لم يكن لهم مدح في غيرها مثل محمَّد الشَّحمي الذي مدحه بقصيدتين يقول في أولاهما:

[البسيط]

قد أيقظ الطَّلُّ وَهْنًا ناعسَ الزَّهرِ وطاف يسعى بكاسات على الشَّجرِ
فما لمقلتك النَّعْساء ما ٱنتبهت وما لمشمولة الصَّهباء لم تُدَرِ
تشوَّفَتْ لاجتلاء الرَّاح أنفسُنا فٱنهض، وحَيِّ بها يا طلعة القَمَرِ

وثانيتهما يقول في مقدِّمتها:

وقلت أمدح شيخنا العلاَّمة محمَّد الشَّحمي وقد ختمت عليه المطوَّل، وأنشدتها إيَّاه في شوَّال سنة 1173هـ:

[الطويل]

مُطَوَّلُ ذَاكَ الوصل آذَنَ بالخَتْمِ رأَيْتُ له ٱسْتهلاَلَ دمعي من الخَتْمِ
ليالي تملَّيْنا بها السَّعد فٱنْقَضَت كعقد لآلٍ قد تداعى إلى الفَصْمِ
ويَوْمٍ على شَطِّ الغَدِير قطعتُه ولِلبرقِ تشويرٌ إلى الغيث بالكُمِّ

والتَّشوير: الإيماء باليد ونحوها.

والخلاصة أنَّ هذه النُّسخة تزيد على بقيَّة نسخ الدِّيوان بستٍّ وعشرين صفحة، وهي بالنِّسبة لديوانه الذي يُعدُّ من الدَّواوين الصَّغيرة ذاتُ قيمةٍ حيث حفظت من شعره ما يقارب النِّصف.

ومن ٱمتيازاتها التاريخيَّة أنَّها حفظت بعض ما دار له في مَجَالِسه الخاصَّة مثل ما نأتي عليه:

وحضرت مجلس سماع وهناك الشَّيخ أبو عبد الله محمَّد المعروف بالشَّافعي وتقدَّم التَّعريف به، وبالحضرة غلام وسيمٌ فقلت مداعبا للشَّيخ:

[الكامل]

بي شادنٌ مَلَكَ الفُؤادَ بحُبِّه ما ضرَّ دري لو روى عن (نافع)
لا غرو أن أضحى لقلبي (مالكًا) فبذاك قد أَفْتَى (الإمام الشَّافعي)

وفي البيتين توريات لا تخفى.

وتُعطينا الفقرة التي جعلها تقدمة لبيتيه أنَّه لم يكن كبقيَّة فقهاء عصره يتحاشى حضور مجالس السَّماع التي لم يكتف فيها بإمتاع الأذن إذ أضيف إليه إمتاع العين، والله أعلم بما وراء ذلك.

وهي صورة من حياة الكتَّاب التونسيِّين في ذلك العصر، حيث سمحوا لأنفسهم بما كان عند إخوانهم من الذين لم يندمجوا في بَوْتَقَتِهِمْ أمرًا يُتباعد منه، لأنَّ السَّماع وإن خلا من كلِّ شيء يتحرَّج منه البعض ويترّه نفسه عنه، خلا هؤلاء الذين ٱندمجوا في الأُمراء فإنَّهم ٱستطابوا حياة الخلاعة وٱنغمسوا في الرفاهيَّة.

وفي هذه النُّسخة صوَر أخرى من حياته ممَّا دار فيها، وهي وإن كانت لا تعطي صورة واضحة إلاَّ أنَّها تضيء جوانب منها إذا حُلِّلت أفادت فيها وفي حياة الكُتَّاب بالدَّولة في القرن الثَّاني عشر بتونس.

رسالة في علم الكلام

من مؤلَّفات ٱبن عبد العزيز هذه الرِّسالة التي ألَّفها جوابا لأسئلة وردت على الحاضرة التونسيَّة من محروسة قسنطينة من الجزائر، وهذه الأسئلة لم تكن موجَّهة إليه، وإنَّما وُجِّهت إلى غيره من معاصريه من العلماء إلاَّ أنَّه أجاب عنها، وفي تناوله لها وهي غير موجَّهة إليه إظهار لمكانته العلميَّة بجانب مكانته الأدبيَّة، وإبراز لتعاليه النَّفسي كما هو شأنه من حبِّ الشُّفوف.

ويصرِّح في تدخُّله في الإجابة بأنَّ هذا التدخُّل لا يعدُّ فضولا بل يعدُّ تفضُّلا لكونه لَّما تولَّى الإجابة لم يخطئ في مرماه وأصاب المحزَّ، فسلفا وقبل أن تصل الأجوبة للسَّائل يذكر أنَّ جوابه الجواب الكافي الشَّافي، ولسنا ندري ما كان من وقع جوابه في نفس السَّائل حين ٱتَّصلت به يداه هل ٱقتنع بما جاء في هذه الرِّسالة، أم أنَّه لم يزل على إشكاله.

وهذا ما مهَّد به لتدخُّله بين السَّائل والمسؤول (وهو -أي السَّائل- وإن خصَّ بالسُّؤال بعض العلماء الأعلام الذين هم رؤساء العلوم وأمراء الكلام، لكن رأيت إن أجبته طبَّقت المفصل وصادف الضَّربية المِنصَل، وعدَّ ذلك تفضُّلا منِّي لا فضولا، ووعدًا للفضل تنجَّز مفعولا لا مسؤولا).

فالمترجَم يتولَّى الإجابة مزهوّا ومتحدِّيا المسؤول الذي هو من رؤساء العلماء في عصره، ووجوه أهل المعرفة واللِّياقة تقتضي أن يترك تولِّي ذلك لمن توجَّه إليه السُّؤال، لكنَّه تخطَّى حدودها وٱعتذر بهذا الاعتذار الدَّال على الإعجاب والاعتداد الزَّائد بالنَّفس.

والأثر الحاصل لإلقاء هذه الأسئلة على أحد أعلام تونس بعد غضِّ النَّظر عن الباعث الحقيقيِّ لتحبيرها وإرسالها ربط للصِّلة العلميَّة بين قطر وقطر في عصر لم تكن فيه وسائل المعرفة متوفرة لانعدام الصَّحافة فضلا عن غيرها مع أنَّ إمكانيَّات التَّواصل محدودة، فلهذا يلجأ علماء العصور المتقدِّمة إلى الممكن المتوفر لديهم من وسائل التَّقارب مع إظهار المكانة العلميَّة في أسئلة ذات جوانب مشكلة تلقى إلى المشاهير من العلماء حتَّى تكون الإجابة من دواعي الارتباط والتَّعريف.

وهي عادة متعارفة بين الجزائر وتونس، لا من عهد ٱبن عبد العزيز بل منذ عهود متوغِّلة في القدم وكان التَّساؤل من الجانبين، فقد وجِّه السُّؤال من تونس إلى أحد أعلام الجزائر، إذ وجَّه ٱبن عُقيبة القفصي المتوفَّى 828هـ وٱعتمدنا في ذكر وفاته على من جاء في بعض التَّقاييد حيث أهمل ذكرها من أرَّخه مثل "شجرة النُّور الزكيَّة" إلى ٱبن مرزوق[1] (-842هـ)

1 محمَّد بن أحمد، بن مرزوق العجيسي التلمساني، أبو عبد الله، المعروف بالحفيد، أو حفيد وٱبن مرزوق: عالم بالفقه والأصول والحديث والأدب. له كتب وشروح كثيرة منها: "المفاتيح المرزوقيَّة لحلّ الأقفال وٱستخراج خبايا الخزرجية"، "وٱغتنام الفرصة في محادثات عالم قفصة"...إلخ. (الأعلام 228/6).

فأجابه بكتاب حافل بلغ فيه الغاية وسمّاه "آغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة".

وآفتتح آبن عبد العزيز رسالته بخطبة نمّقها بأسجاع خفيفة مع براعة آستهلاليّة وهي:

"سبحان القادر المختار مبدع الكائنات بلا واسطة، المقدّس بوجوب وجوده في ذاته وصفاته عن العلّة والرّابطة، مقدّر الأقدار في أزل وفق مشيئته التي لا يشذّ عنها في الكون صاعدة ولا هابطة.

أمّا بعد، فقد ورد على الحضرة - حاطها الله تعالى - من محروسة قسنطينة ثلاثة أسئلة من الكلام مهمّة، لأنّ غياهب الشّبه بها مدلهمة، وجّه بها فضلاء الأذكياء من الإخوان الذين يبتهج بمحاسنهم الزّمان".

والأسئلة الموجّهة من قسنطينة في علم التّوحيد يتعلّق أوّلها بالدليل الذي آستنتجه المتكلّمون من وجوب وجود القادر المختار خالق العالم من آستحالة الدّور والتّسلسل، لأنّه إذا لم نقل بالوجود الإلهي أدّى ذلك إمّا إلى الدّور أو التّسلسل وكلٌّ منهما مستحيل عقلا.

وهذا الدّليل الذي آستدلّ به المتكلّمون لا ينتج المطلوب فإنّه لا يفيد، إلاّ أنّ هناك واجبَ الوجود لذاته فحسب، وليس ذلك مطلوب المتكلّمين، إنّما مطلوبُهم الاستدلال على وجود الخالق المتّصف بصفات الكمال، ومنها القدرة والاختيار المطلق، ويستقرُّ الأمر بالسّائل حسبما أدّى إليه نظره إلى أنّ الدّليل لا يفيد، إلاّ أنّ هناك واجب الوجود لذاته، وأمّا إثبات الصّفات له فإنّما يكون بضميمة النّقل.

ويؤيّد السّائل نظره بأنّ مثله ذكره الإمام آبن عرفة وعبارته في سؤاله فيما يخصُّ موافقة الإمام آبن عرفة: "ثمّ لمّا قضى الله بآستيطان محروسة قسنطينة أدامها الله دار إسلامٍ وقفت عند بعض النّاس على مختصر الإمام آبن

عرفة[1] الكلامي، فرأيته نقل عن المحصّل للإمام الفخر[2] مثل ما ذكرته، ونحوه في نهاية العقول".

وكان المترجَم في إجابته عن هذا السُّؤال قاسيا حيث أبان له أنّ إشكاله في غير محلّه لأنَّ ما هداه إليه النَّظر وأيَّده بكلام ابن عرفة هو المعروف المتداول، وإليك ما صدر به جوابه:

"الجواب عن المسألة الأولى قولك – سدَّدك الله – تأمَّلت ٱستنتاج المتكلّمين فيما وقفت عليه من كتبهم المتداولة وجوب وجود القادر المختار الخالق العالم عزَّ ٱسمه لذاته من ٱستحالة الدَّور والتَّسلسل، فوجدته بالقياس إليه عميقا والسُّلوك من ذلك إلى ذلك المطلب ليس مستقيما.

أقول إن أردت أنَّهم ٱستنتجوا من ذلك الدَّليل وجوب وجود القادر المختار خالق العالم لذاته، بمعنى أنَّ ٱستحالة الدَّور والتَّسلسل دلَّت على أنَّه لا بدَّ من الانتهاء إلى واجب لذاته قادرا مختارا خالقا للعالم، فهذا لم نره في شيء ممَّا وقفنا عليه من كتبهم المتداوَلة وغير المتداولة، وإنَّما ٱستنتجوا من ذلك أنَّه لا بدَّ من الانتهاء إلى إله قيُّوم واجب الوجود لذاته.

ولهذا ٱحتاجوا بعد ذلك إلى إثبات علمه وقدرته وإرادته وحياته المصحّحة للفعل بالاختيار، ونفى أن يكون فاعلا بالإيجاب ببراهين أُخَر مذكورة في أبواب أُخر غير باب إثبات الواجب لذاته، وهذه كتبهم قد ملأت البقاع فليرجع إليها ليوقف على عين اليقين.

وإن أردت أنَّهم ٱستنتجوا منه وجوب وجوده لذاته لا من حيث أنَّه قادر مختار خالق للعالم فهو صحيح ولا يرد عليه إشكالك المذكور".

---

1 محمَّد بن محمَّد بن عرفة بن حماد الورغمّي،المقرئ الفقيه الخطيب المنطقي النَّحوي. تولّى الإمامة والخطابة بجامع الزَّيتونة. له: "تفسير القرآن"، "مختصر الفرائض"، "المبسوط في الفقه"...الخ. توفي سنة 803هـ/1401م. (تراجم المؤلّفين التونسيِّين 363/3).

2 محمَّد بن عمر بن الحسن البكري، فخر الدِّين الرَّازي: الإمام المفسِّر. من تصانيفه: "مفاتيح الغيب"، "لوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات"... الخ. توفي سنة 606هـ/1210م. (الأعلام 203/7).

وعند الرُّجوع إلى كتب المتكلِّمين نجدُهم يذكرون الدَّور والتَّسلسل في باب إثبات الصَّانع لا غير.

والسُّؤال الثَّاني من الأسئلة القسنطينيَّة في تشنيع ابن التِّلمساني في شرح المعالم على الفخر الرَّازي وأتباعه من أنَّ صفات الله ممكنة لذاها معلومة لذاته، ثمَّ طلب الدَّليل على ما نعتقده من أنَّ صفاته تعالى واجبة لذاها.

وسلَّم المترجَم اعتراض السَّائل في هذه المسألة حيث قال: "فإنَّ اعتراضك عليه صحيح لا مطعن فيه"، ولهذا لم يطِل في جواب السُّؤال الثَّاني.

والسُّؤال الثَّالث في تعلُّقات الإرادة الثَّلاثة، وللسَّائل إشكالان في ذلك.

وفي جواب هذا السُّؤال ينسب المترجَم السَّائل إلى الإغارة على غيره فيوضح (أنَّ الإشكال الثَّاني هو من المجالات الصَّعبة، وأصله مذكور في شرح المواقف[1] للسيِّد السَّند بحثا، فإن لم يكن كلاما مأخوذا منه فقد تواردت معه، ولا غرابة في صدور ذلك عن ذهنك السيَّال.

وأصل البحث مذكور في كتاب الأربعين للإمام الرَّازي، وهو كتاب عزيز الوجود لا يعرفه إلاَّ خواصُّ المعتنين بعلم الكلام، ولعلَّ السيِّد المحقِّق أخذ منه، وها نحن نورد كلام المواقف المرتَّب عليه ذلك البحث ممزوجا بالشَّرح ليسهل فهمه على النَّاظر، ثمَّ نورد البحث المذكور من كلام الشَّارح المذكور، ثمَّ نتصدَّى لدفعه بما ألهمنا إيَّاه واهبُ الفضل لمن يشاء جلَّ وتقدَّس، ثمَّ نتفرَّغ بعد ذلك لحلِّ إشكالك تفصيلا حتَّى يتَّضح إن شاء الله تعالى).

وهنا يبدي المؤلِّف مقدرته الفكريَّة في ردِّ هذا الإشكال العويص المتعلِّق بمسألة من العقيدة غير متقيِّد بكلام من تقدَّمه بل يعتمد على نظره.

وتقع هذه الرِّسالة في خمس وعشرين صفحة من القالب المتوسِّط بخطٍّ دقيق، وهي منسوخة سنة 1269هـ.

---

1 المواقف في علم الكلام لعبد الرَّحمن بن أحمد، عضد الدِّين الإيجي المتوفَّى سنة 756هـ وشرحه للسيِّد الشريف علي بن محمَّد الجرجاني المتوفَّى سنة 816هـ (الكشف 1891/2).

وهذه الرِّسالة رغم أنَّها في مسائل دقيقة من علم الكلام كان قلمُ مؤلِّفها غير بعيد عن قلمه الأدبيِّ، وكذلك كانت نفسيَّته فيها وهي النفسيَّة المتعالية الشَّامخة بما تنتجه والمعتزَّة بما تحرِّره.

فهي وإن كانت في موضوع خاصٍّ دقيق لا يهمُّ إلاَّ خــواصَّ المعتــنين بتحرير مسائل علم الكلام، إلاَّ أنَّها تفيدنا الرَّوابط بين أهل المعرفــة وإن لم يكونوا من قطر واحد، كما توضِّح ما كان يدور بين الأقران وما تعمر بــه الأذهان.

شرح الموشَّح

التَّأليف الثَّالث من تآليفه شرح موشَّح ٱبن سهل الإشبيلي (-659هـــ)[1] وهو موشَّحه الشَّهير الذي مطلعه:

[الرمل]

هل درى ظَبْيُ الحِمَى أن قَــدْ حمــى   قَلْب صَــبّ حَلَّــه عَــنْ مَكْــنَس

فهو في حَرٍّ وَخَفْقٍ مِثْــلَ مَــــا   لَعِبَــت رِيــحُ الــصَّبا بِالقَــبَس

وشهرة هذا الموشَّح دعت الكثير إلى معارضــته، وذكــر الإفــراني أنَّ معارضاته بلغت ٱثنتي عشرة معارضة، وقد وقفت على أزيد من ذلك ممَّــا يخرج تأليفا خاصًّا، وكما عُني بهذا الموشَّح معارضة عني به شرحا، وممَّــن شرحه قبل ٱبن عبد العزيز محمد الــصغيّر الإفــراني المُراكــشي (1080-1138هـــ) أو(-1140هـــ) وسمَّى شرحه "المسلك السَّهل في شرح توشيح ٱبن سهل"، وكذلك مترجَمنا، ولم يضع لشرحه ٱسما خاصًّا به.

---

1 إبراهيم بن أبي العيش بن سهل الإشبيلي نسبة لإشبيلية من أعظم مدن الأندلس وكان إبراهيم بن سهل في أوّل أمره يهوديّا ثمّ منّ الله عليه بالإسلام ويدلّ على ذلك مدحه لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم في قصيدة جاء فيها : تكاد منجاة النبي محمَّد * تنم بهم مسكا على الشمّ ذائعا

وما أثبتناه هنا من وفاته هو ما جاء في "المسلك السّهل" للإفراني ص7 من الكرّاس الثاني. وجاء في "فوات الوفايات" لابن شاكر الكتبي 20/1 أنّ وفاته سنة 649هـــ. (الأعلام 36/1).

وشرحُه بالنِّسبة للمتقدِّم عجالة، وقد جعله تقدمة للأمير علي بن حسين (-1196هـ) وعلى عادته في ٱلتماس المخارج اللَّطيفة ٱستشعر لعلوِّ نفسه أنَّ تنزُّله لشرح ذلك الموشَّح يوقع في الظُّنون، أنَّه من قبيل المجون، وهو يتحاشى مثل ذلك، فٱلتمس لذلك مخرجا وهو أنَّ تعاطيه لشرح الموشَّح المذكور يوجب الذمَّ والتَّعزير، لكنَّه لَّما ألَّفه برسم الأمير المذكور كان ذلك رافعا من شأنه، فإنَّ ٱسم الأمير كالإكسير الذي يحوِّل النُّحاس ذهبا ويلبسه جلباب الحسن ويزينه تحبيرا وباسمه يشرق بدرا منيرا.

وفاتحة هذا الشَّرح:

"الحمد لله وليِّ العظمة والكبرياء، والصَّلاة و السَّلام على خاتم الرُّسل والأنبياء وبعد، فهذه عجالة سمح بها العقل القاصر، وجاد بها الذِّهن الفاتر، قصدت بها خدمة المولى الهُمَام الأسد الضرغام، واسطة عقد السَّلاطين، وقرَّة أعين المؤمنين، قهرمان العصر والزَّمان، وباسط ألوية العدل والإحسان، أمير المؤمنين المتحصِّن بسرِّ السُّور والآي، مولانا الباشا علي باي، لا زال موردُ أهل العلم موائدَ إنعامه، ودرر أهل الفضل شكر إكرامه، وكوكب الخلق شمس عدله، وكساء العباد أثوابَ فضله، ما دار الفلك الدوَّار وأُولج نهار في ليل وليل في نهار.

وهذه العجالة وإن كان جوهرها رديء المعيار، إلاَّ أنَّها سبكت بٱسمه الشَّريف فصار لها شأن وٱعتبار عند ذوي البصائر والأبصار، لا ينكرها إلاَّ من هو في غيهب الضَّلال محتار:

[الكامل]

لّما توارى المدح عنها مبعدا وتراءى منها الذمُّ والتَّعزير
دبَّرت جوهرَها بوصف كماله تمَّ المُراد وكان ذا التَّدبير
بعد السَّماجة والرَّداءة أُلبِستْ جلباب حسن زانه التَّحبير
لا تعجبوا إن فاق جوهر ذاتها فهي النُّحاس ووصفُه الإِكسير"

ولعلّه يقصد برداءة الجوهر أنّ هذا الشّرح لمّا كان عجالة كان رديئا فٱرتفع بٱسم الأمير المذكور، وعلى أيّة حال فإنّه كان معجبا بموشّح ٱبن سهل، وممّا يدلّ على ذلك أنّه لم يشرحه فحسب بل عارضه بموشّح مدح به شيخه محمّد بن علي الغرياني الذي يقول في مطلعه:

إنّ ظبيًا حَوْلَ كُثبان الحمَى باتَ يَرْعَى زَهَرَات الأنفُسِ
هو مُذْ لاح سناه أَضرَمَا بفؤادي جذوة المقتبسِ

وإعجابه بالموشّح المذكور منذ عهد الحداثة والطّلب لأنّ مدحه لشيخه المذكور كان أثناء الدِّراسة وشرحه بعد أن ترعرع وتقلّب به الزّمن بين شدّة ورخاء حتّى أصبح من رجال دولة الأمير المذكور، فٱنتقاصه إن كان للموشّح فليس لقيمته الأدبيّة فإنّ تعلّقه به معارضة وشرحا أدلّ دليل على أنّه من المعجبين به، ولا غرابة في ذلك لكثرة من عارضه من الشُّعراء، وتكفيه معارضة ٱبن الخطيب، وإنّما تنقصه من جهة أخرى لا تخفى وهي التي بسط القول فيها الإفراني حين تَرْجَمَته.

وهذا الشّرح أغفل ذكره المترجِمُون له مثل الشّيخ ٱبن أبي الضِّياف في تاريخه، والسُّنوسي في "مجمع الدَّواوين التونسيّة"، ولعلّ ذلك يرجع إلى المؤلِّف نفسه فإنّه ربّما كان يحسّ بوخز الضّمير من هذا التّأليف فأخفاه عن العيون، فٱقتصر على النُّسخة المقدّمة.

ويبقى هل إنّ ٱبن عبد العزيز ٱطّلع على شرح الإفراني لأسبقيّته، والاتّصالات بين تونس والمغرب متوفِّرة، وبالأخصّ أنّه ذهب إلى المغرب يوم تقلّب به الزّمن، لكن الذي يدلّ عليه صنيعه في الشّرح أنّه لم يطّلع عليه لبعد أسلوب الكتابين فليس بينهما ٱلتقاءٌ في شيء.

والموازنة بين الشّرحين غير ممكنة للاختلاف الواسع بينهما، فشرح الإفراني شرح حافل عددُ صفحاته 200 وهو دسم في مادّته شرحا ومقدِّمة حيث ٱستهلّه مؤلِّفه بسمطين.

الأوّل في التّعريف بٱبن سهل.

الثَّاني في معنى التَّوشيح لغة وعرفا، وذكْر أوَّلِ من ٱبتكره.

ثمَّ تكلَّم على الموشَّح من نواح أربع العربيَّة، والمعنى، والمعاني، والإعراب.

وأمَّا شرح ٱبن عبد العزيز فهو كالقطرة بالنِّسبة لهذا الشَّرح، إذ هو عبارة عن رسالة تبلغ صفحاتها 18، و لم يُفصِّل شرحه بل كانت مادَّته من لغة وإعراب ومعان ومعنى ممزوجة حسبما عنَّ له، وكذلك لم يكتب على كلِّ بيت بٱنفراده كما فعل الإفراني بل يجمع حسب المعنى.

ومن المآخذ على شرح ٱبن عبد العزيز أنَّه لم يكتب ولو سطرا واحدا على ٱبن سهل تعريفا به مع أنَّه في عصره كانت مصادر التَّراجم مفقودة لدى القارئ، فالإتيان بترجمته تكون له فائدة كبرى، وبالطَّبع أنَّه لم يحرِّر شيئا في معنى الموشَّح.

بقي أن نوازن من ناحية خاصَّة في ٱتِّجاههما في الشَّرح وفهمهما لبعض مواضع منه، وننظر بين ما شرحه الإفراني وبين ما شرحه ٱبن عبد العزيز حيث كان الموضع موضع ٱختلاف، ونقتصر في ذلك على قول ٱبن سهل (أنْ قد حمى)، فقد شرحه ٱبن عبد العزيز (وإن قد حمى): حمى منع وأنْ مخفَّفة من الثَّقيلة تنسبك بمصدر وهو مفعول درى، والمعنى هل علم الحبيب أنَّه منع قلبي من الالتفات إلى غيره، وٱتَّخذه مسكنا ومأوى فتجاوز المَكْنَس إليه.

هكذا شرح المترجَم قوله (أن قد حمى)، بغاية الاختصار مع عدم التكلُّف، بخلاف الإفراني فإنَّه أطال وٱحتاج إلى تمحُّل لغويٍّ تطلُّبا للمخرج وجلب لذلك كلام الكافية لابن مالك، ونصُّه:

"وحمِي الشيء كرضي وأَحماه ٱشتدَّ حرُّه وسخنه حميا... وصريح القاموس أنَّ حمي من باب فَعِل بكسر العين لا فعل كما في البيت، وسيأتي، ويتمِّم القول على ذلك في البحث الإعرابي.

وقد تقدَّم في تفسير المفردات أنَّ حمي من باب رضي، لا على فَعَل بالفتح، والجواب: أنَّ فَعِل في لغة طيء تبدل الكسرة فيه فتحةً والياء ألفًا

فتقول في خفي: خفَا، قال في التَّسهيل: وفتح ما قبل الياء الكائنة لاءًا مكسورا ما قبلها وجعلها ألفًا لغةٌ طيء. قال في الكافية:

[الرجز]

والكسرَ فتحا رُدَّ، والياء ألفا لطيء وخَفِيَ ٱرْدُده خفا

وإذا نصبنا أنفسنا حكما بينهما نميل إلى أنَّ ما جلبه الإفراني لا حاجة إليه، وأنَّ الحقَّ في جانب ٱبن عبد العزيز، وليس ذلك لسلامة البيت من التكلُّف حسبما شرحه المترجَم دون الإفراني، بل المعنى يتطلَّب ذلك، إذ معنى طالع الموشَّح هل علم ظبي الحمى، أنَّه جعل قلبي حِمًى فٱختصَّ به فقد ٱتَّخذه مسكنا عوض المكنس وهو مسكن الغزال، وهذا إذا شرحناه على ما ذهب إليه ٱبن عبد العزيز في معنى حَمَى.

وأمَّا إن ذهبنا على ما ذكره الإفراني من أنَّ معنى حمى أحرق قلبه حين جعله نارا تتلظَّى، فإنَّه حينئذ لا يمكن أن يسكن فيه لأنَّه صار جهنَّم إلاَّ أن يتكلَّف في المعنى كما تكلَّف في اللَّفظ، ولهذا ٱحتاج الإفراني لدفع هذا التكلُّف:

(وهذا الاستفهام على سبيل التَّوبيخ قصد به إنكار فعله عليه وتقبيحه لديه ليُقْلع عمَّا هو عليه ويرجع إلى الوصال، وإيضاح محلِّ الإنكار منه أنَّه لَّما أَلِف فؤاده وصيَّره مهاده فاللاَّئق به أن يقصر من إحمائه لأنّه مسكنهُ).

التَّاريخ الباشي

يحتلُّ تاريخه المذكور المكانة الأولى بين مؤلَّفاته لاحتفاله بتأليفه وصرف عنايته إليه، فهو التَّأليف الحريُّ بالبحث والتَّحليل، إذ بقيَّة مؤلَّفاته بالنِّسبة إليه تعتبر رسائل في مواضيع خاصَّة، إلاَّ أنَّ ديوانه يأخذ المكانة الثَّانية بين مؤلَّفاته، وهذا التَّاريخ يتطلَّب الدِّراسة الوافية، ولعلَّ ما نكتبه لا يفي بالواجب نحوه، ولكن نجمل القول فيما لنا حول تاريخه ملخِّصين ذلك ممَّا كتبناه عليه، حتَّى تكون هذه الدِّراسة فيها بعض التعريف بهذا الكتاب

معتذرين عن بعض الإطناب، إذ لا معدل في دراسته عن التوسُّع بقدر الإمكان لانعدام الفائدة من الدِّراسات المقتضبة التي تشبه البرقيَّات، ومع ذلك وراء ما نكتبه بحث واسع ومجال فسيح، وسنبدي ما له من محاسن ومساو بعد التَّعريف به.

هذا التَّاريخ وضعه المترجَم لتخليد ذكر دولة الباشا علي بن حسين، ٱستهلَّه بمقدِّمة تحتلُّ خمس صحائف كان المقصود منها الإشادة بعمله لأنَّه يُبقي على الأيَّام ذكر هذا الأمير، وأطنب في ذلك ملتزما السَّجع.

فٱبتدأ هذه المقدِّمة بذكر حكمة الله جلَّ جلاله في العباد بإيجاد أصناف ثلاثة لهم الأثر كلُّ الأثر في سَوْقِ الخير ودرءِ الشرِّ، وهم السَّاسة والعلماء والصُّلحاء، وعطف عليهم غيرهم مجملا غير مفصح.

ويشير إلى الصِّنف الأوَّل وهم السَّاسة.

"إنَّ الله أقام لكلِّ زمان من يُقيم أوْدَه ويشدّ عضده، ويُحلي عاطله ويُجلي باطله، ويبين للخلق طرقَ رشادهم، ويحفظ عليهم أمرَ معاشهم ومعادهم، من ملك أنام الأَنام في ظلِّ أمانه، وأفاض عليهم سجال معدلته وإحسانه".

ثمَّ يذكر الصِّنفين الآخرين، ويتخلَّص إلى أنَّ هذه المآثر في إقامة صرح الإنسان عكَف على تدوينها من يخلِّد ذكر تلك المآثر، وينوِّه بأسماء أصحابها.

"ثمَّ قيَّض سبحانه لكلِّ مكرمة من ينشرها ولكلِّ مأثرة من يبديها على صفحات الأيَّام ويشهرها من شاعر ينظمها في لبَّة الدَّهر عقودا، ويبديها زهرا بالقلوب معقودا، أو كاتب ينثرها نثر الكواكب على صفحات السَّماء والأزهار أحاطت بضفَّتي الماء، أو مصنِّف يضمُّها من دفاتره إلى ديوان، تجتَنى منه غضَّة في كلِّ أوان، فلم يزالوا بذلك أحياء في النَّاس وإن ماتوا، ولم يفت التخلُّق بأخلاقهم الحميدة وإن فاتوا.

[البسيط]

جمالَ ذي الأرض كانوا في الحياة وهـــم بعد الممات جمال الكتـــب والـــسّير"

ويتدرَّج بعد هذا التَّمهيد إلى ذكر احتياج كلِّ عصر إلى ذي ســـلطان يتولَّى أموره، وأنَّ عصره كان المؤهَّل لتحمُّل أعباء هذه الأمانة هو الأمـــير الباشا علي بن حسين، ويصفه بأنَّه هو الذي أحيا معالم الـــدَّهر الطَّامـــسة، وأباد أرباب الفساد إلى ما يجري هذا المجرى من تدبيج مديح:

(وقد بعث الله في هذا العصر من الأمير الأجلِّ المعظَّم الأعلى أبي الحسن الباشا علي ابن الأمير الأرضى أمير المملكة الإفريقيَّـــة وعميـــدها، القـــائم بتوطيدها وتمهيدها، أدام الله دولته ومكَّن من أعدائه صولتَه، من صيَّر ظلمته -أي عصره- نورا وذكره حبورا وطامسه معلما، وغافله معلمـــا، ولياليـــه ثغورا بواسم، وأيَّامه أعيادا ومواسم، ومسرَّته متتابعة، والأماني بـــه بعـــد تعاصيها طائعة).

ويأتي بعد ذلك الغرض الدَّافع لتأليفه هذا، وإجمالـــه أنّ الـــشُّعراء وإن أفاضوا في مدحه لم يستوعبوا مآثره لضيق نطاق الشِّعر وكذلك ضيق نطاق الخُطب، أضف إلى ضيق الشِّعر أنّه لم يدوَّن لانعدام الاعتناء بذلك، فهـــو على ضيقه مآله للضَّياع، مع أنّه منسوب فيه الشَّاعر إلى المبالغة فليس هناك ما يخلِّد آثار أصحاب الأيادي البيضاء غير التَّأليف:

(بخلاف التَّدوين في الكتب فإنّه سببُ بقاءِ الذِّكر لآخر الحقـــب، وإنَّ الشَّاعر وإن تحرَّى الصِّدق جهده، وأتى بما هو الحقُّ عنده، فهو منسوب إلى المبالغة التي هي في حقِّه سائغة، بخلاف المصنِّف الثِّقـــة المعـــروف بحـــسن الطَّريقة، فكلُّ ما يأتي به محمول على الحقيقة).

وفي هذه الفقرة يدفع عن نفسه ما لصق بالشُّعراء من المبالغة، ويمـــدح نفسه بكونه ثقة وبكونه معروفا بحسن الطَّريقة.

ويعقبها بأنّ هذا التّخليد لمآثر هذا الأمير الحريّ بالتّخليد، إذ أضاء بــه العصر لم يقم به أحد، ولم يضطلع به كاتب يدوّن المآثر ويخلّــد المفــاخر، ولهذا قام بأعباء هذا العبء، فهو قد حملته عليه الغيرة على إبداء الحقيقة.

وكان رسم لتأليفه هذا خطّة أبداها أوّلا ثمّ عدل عنها أخيرا، والخطّــة المعدول عنها أن يذكر أوّلا كيف تأسّست هذه الدّولة التي الأمير المــذكور أحد رجالها مع ذكر تاريخ مؤسّسها، وأخبار ابنه محمّد الرّشيد، وما تخلّــل دولتيهما من ذكر دولة علي باشا، ثمّ يستقصي ما اطّلع عليه مــن مفــاخر الأمير المؤلّف باسمه الكتاب والمجعول تاريخا له منبّها على فضائله ومحاســن آثاره.

وعدل عن ذلك لكونه وجد أنّ تأليف الكتاب على ذلك الأســلوب يستدعي فراغ وقت إذ أخبار هذه الدّولة لم تدوّن إلاّ بنزارة فيمــا كتبــه الأديب محمّد الوزير السرّاج (-1149هــ) في تاريخــه المــسمّى "بالحلــل السندسيّة في الأخبار التّونسيّة"[1]، وذكر أنّه انتهى فيه إلى سنة 1144هـــ وأرّخ بقيّة أيّام المؤسّس في الجزء الرّابع الذي أحرقه علي باشا، فلم يوقف له على أثر، لأنّه نال منه في هذا الجزء حين قام على عمّه بجبل وسلات، وفيما ألمع به أبو عبد الله حسين خوجة (-1169هــ) في خاتمة كتابــه المــسمّى "بشائر أهل الإيمان"، ومع أشغاله الجمّة التي جعلته يعدل عن هذه الطّريقة في تأليف كتابه كان من المحتّم عليه أن يؤدّي شكر الأمير المذكور بتأليف يجمع تاريخه لما أسداه إليه من نعم رفعت من شأنه، فيذكر أفضاله عليه وخطّته في الكتاب على حسب ما تسمح به ظروفه ويتّسع له وقته.

"ورأيت واجب شكر نعمائه التي طوّقنيها تطويق الحمامة، وأرسلها عليّ من كلّ جانب كالغمامة، يقتضي أن أقوم بما أخلّ به غــيري مــن هــذه

---

1 أبو عبد الله محمّد بن مصطفى الأندلسي الوزير الشهير بالسرّاج أخذ عن علماء عصره، وتأليفه "الحلل السندسيّة" من أوسع المؤلّفات في تاريخ تونس ألّفه نزولا عند رغبة الأمير حسين بن علي مؤسّس الدولة الحسينيّة، وكانت وفاة الوزير السرّاج 1149هــ على ما أثبته المحقّق الشّيخ محمّد البشير النيفر.

الوظيفة، وأن لا يفوتني التحلّي بهذه الحلية الشّريفة، فإنّه أيّده الله تعالى قد جذب بضيعي ورفع موضعي ونوّه باسمي بعد خموله وبلّغني كلّ ما يبلغه خديم مَلك من مأموله، وبوّأني لخدمته ركن رفعة لا ينهدم، وسوّغني بتقريبه جانب عزٍّ لا يُهتضم، فإذن أنا وقعت بين أمرين عظيمين، وتوسّطت بين طريقين خطرين، فأعملت الحيلة في الخلاص، ولات حين مناص، بأن أعرضت عمّا كنت هممت به أوّلا، حيث لم أجد له قبلا، وصرفت القصد إلى الاقتصار على دولة مولاي بالتّصنيف، وجعلت ما أذكره من أخبار غيره كالتّابع لها والرّديف، واقتصرت من أخباره على أشهرها وكمالاته على أظهرها ومن مدائحه ما سار سير المثل وطلع نيِّرا كالشّمس في الحَمَل[1]، فجاء بحمد الله كتابا حافلا يشتمل عليه القلب ويتلبّس بالنّفس.

ومن أجل هذا الاختصاص سمّاه "بالكتاب الباشي" فهو تاريخ فردي يشتمل على الفضائل والمدائح وسمّيته "بالكتاب الباشي" إضافة للّقب الذي تميّز به ونسبة إلى وصفه الذي انفرد بمعالي رُتبه".

والمترجَم كما يبدو لم يُطلب منه تأليف هذا التّاريخ حيث لم يُشِر ولو بإشارة ما إلى أنّه سئل ذلك، ولكنّه مدفوع بصنيع من تقدّمه كالسرّاج، وحسين خوجة حيث ألّف الأوّل "الحلل"، والثّاني "ذيل البشائر" في مناقب الوالد المؤسِّس للدّولة، فمن شُكر النِّعمة أن يؤدّيها بتأليف يخلّد فيه اسم أميره، فسار على ذلك الغرار، وإنّما بأسلوب آخر.

ولم يحفل بما كتبه المذكوران حيث يرى أنّ تاريخ من تقدّم هذا الأمير يستدعي البحث إذ يقول:

"فنظرت فإذا هذا المطلب يستدعي من الفراغ ما ليس له مساغ، ويقتضي اتّساع مجال وتتبّع الأخبار من أفواه الرِّجال، إذ هي لم تدوّن بعدُ ولا تعرّض أحد لنظمها في عقد".

1 الحمَل: برج من بروج السماء

واستثنى من عدم التعرُّض للتّدوين ما كتبه المذكوران بلفظ ينمُّ على عدم الإكبار، ووراء هذا -إن شاء الله- تحليل الكتاب مردفا بنظرات نقديَّة فيما سيأتي ذكره.

نظرات نقديّة

بعد تلك المقدِّمة التّي تضمَّنت خلاصتها طريقته الكاملة المزمع عليها واعتذاره عن الوفاء بها، شرع في الخطَّة الأخيرة التي رسمها للكتاب، وهي الاقتصار على تاريخ الباشا علي باي، فاستهلَّ تاريخه بولايته وقد ابتدأ بها، وكان المنهج التَّاريخي أن يذكر أحواله منذ ولادته وكيفيَّة نشأته، ولكنَّه ترك ذلك كلَّه وبنى تاريخه على أسلوب خاصٍّ وهو السّير من الولاية متدرِّجا، وهو وإن سار عليه أوَّل الكتاب ترك كذلك أحواله قبل الولاية بعد ذلك فلم يذكرها قبلُ وبعدُ.

وإنّما ابتدأ بها لأنّها كانت بيعة طاهرة كما صرَّح به، وأدَّاه إلى الابتداء بها أنَّ أخاه محمَّد الرَّشيد طلب من الباب العالي تقليده ولاية تونس، ولكن لم يتأتَّ إتمام ذلك إلاَّ عند وفاته فتلقّى التقليد أخوه الباشا علي، وذلك عند المترجَم من الاتِّفاقات الغريبة كما تفصح عنه عبارته:

"فإنّ ولايته حرس الله ملكه ولا بدَّد على مرِّ اللَّيالي سلكه، كانت بيعة عقدها له أهل الحلِّ والعقد من العلماء المعتبرين والفقهاء المُشَاوَرِين، ورؤساء العساكر وكبراء الأجناد، ووجوه النَّاس من كلِّ حاضر وباد، فابتدأت بالكلام على هذه البيعة المباركة الطَّاهرة، وذكرت عقبها ما تسبَّب عنها من الأحوال السَّائرة، والله يلهمنا الصَّواب فيما ننقله ونشكره أنَّه وليُّ التَّوفيق فيما نأتيه ونذكره".

فجعل هذه البيعة أبرز ما في حياته ولذا بنى عليها الكتاب، وكانت هذه البيعة يوم الإثنين الرّابع عشر من جمادى الثَّانية سنة 1172هـ، وقد أجمل في ذكرها حتّى أنّه لم يذكرها إلاَّ في نصف صفحة من المخطوط.

ثمّ ثنّى بذكر ما اتّفق من الأمر الغريب في هذه الولايـــة، وهـــو ورود التّقليد السُّلطاني له ممّا كان من اختصاصاته ومميِّزاته.

"واتّفق له ما لم يتّفق لغيره من حصول البيعة من أهـــل الحـــلّ والعقـــد والتولية من قبَل السُّلطان في وقت واحد. ولم يعهد اتِّفاق مثل هذا لغيره من ملوك إفريقيَّة، بل قصاراهم أن يستقلّ أحدهم بالملك ببيعة أو غلبة ثمّ يرسل إلى حضرة السُّلطان يطلب التولية فيأتيه التّقليد والخلعة بعد أن يمكـــث في الملك مدَّة، فكان هذا الاتِّفاق لمولانا من عنوان السَّعادة ودليل العناية".

وعنده كما امتازت هذه البيعة بالاتِّفاق المذكور امتازت بأمر آخر وهي كونها بيعة بيضاء حيث تقلّد الملك بدون حرب قائمـــة ودمـــاء ســـائلة، واستشهد على ذلك بما قاله كاتب الأمير المذكور وصاحبه محمَّد الدَّرناوي (-1211هـــ) من جملة قصيدة يمدحه بها:

[الكامل]

يكفيـــكَ عـــزًّا أنّ أهـــلَ بـــلاده قـــد بـــايعوه ولم يُـــسلّ حُـــسامُ

وحقًّا ما ذكره، إذ لم يجر في ولاية هذا الأمير ما كان معهودا في أيَّـــام الدَّولة المراديَّة من اختلاف الأخوين على الملك[1]، وما جرى في آخر أيَّامها من منازعات، وفي انتقال الولاية لإبراهيم الشَّريف، وخاتمة ولايته بالأســـر حتَّى أنَّ مؤسِّس العائلة تلقَّاها بعد حروب طاحنة.

وكذلك ولاية علي باشا التّي كانت انتزاعا من عمِّه حسين بن علـــي تركي، وإطاحة بملكه وقتلا له، وأشدُّ من ذلك كلّه ولاية أخي الأمير وهو محمَّد الرَّشيد فإنّها كانت بعد وقائع مؤلمة أدَّت إلى مقتل علي باشا.

1 أشار ابن أبي الضّياف إلى ما نال تونس من مضرَّة بسبب اختلاف الأخوين قائلا: ولمّا اتّسع الفرق بين الأخوين وصارت الحرب أهليَّة وهي أضرُّ الحروب. (الإتحاف 52/2).

وإبراز هذا المعنى في تاريخه وإن كان يبدو شيئا لا يعبأ به مبدئيّا، إلاّ أنّ المتتبّع للأحداث الجارية يرى أنّ مثل تلك الولاية بالصُّورة السّلمية في تلك الأيّام الحالكة يعدُّ من الغرائب، فالقرن الثّاني عشر الهجري لم يخلُ من أحداث لأجل الملك قاست تونس ويلات منها، فهي بيعة غريبة لا بالنّسبة لمن عاش بعد ذلك، وإنّما هي بالنّسبة لمن مرّت عليه تلك الأحداث أو مرّت قريبا من عصره، والمترجَم لبِق في إظهارها في ثوبها المناسب.

وأعقب ذكرها بذكر ثورة إسماعيل بن يونس بن علي باشا التّي كانت إثر ولاية المذكور، وفصّلها معتمدا على ما حدّث به بعض من ثار مع إسماعيل، فذكر هزيمته على جمّال ممّا أنطق الشُّعراء بالتّهنئة بذلك، فذكر قطعة من قصيدة عبد اللّطيف الطُّوير القيرواني التّي يقول فيها:

[البسيط]

لا جمَّل الله جمالاً لقد نزلت بهم من الخُلف أوحال وأوجالُ
فأصبحوا لا تُرى إلاّ مَساكِنهم ونسوةٌ ومساكينُ وأطفالُ

وأعقب ذلك بقطعة للورغي، ثمّ قصيدة الغراب وهذه صورة من التّطاحن والانقسام مزج فيها الأدب نفسه بما يقطع القربى بالشّحناء والإذكاء، فعوض أن يذكر ما يطفئ القطيعة يشاد بالغلبة وهي في الحقيقة دماء أخويّة مهدورة.

وعقّب تاريخ الانتصار في جمّال بالانتصار الحاسم في جبل وسلات وكان ذلك سنة 1175هـ فأطنب فيه، وسجّل ما أقامه الشُّعراء من سوق تباروا فيها إنشادا، فذكر قصيدة الطُّوير التّي مطلعها:

[البسيط]

فتح ونصر وإسعاد وإقبال لمن له خضعت صيد وأقيال

وقصيدة ابن عبد الكافي بوعتُّور[1] ومطلعها:

[الكامل]

لله مــــا أحلـــى ســـرورا جاءنـــا بيـــشارة تمَّـــت بهــــا الأفـــراح

وما أنشده الورغي ورسالة الغراب المشتملة على تواريخ نثرا ونظمـــا، وقصيدة له، وقد أضرب عن أشعار أخرى لعدم نباهة قائليها.

وضمّنه بعد ذلك من تاريخ الأمير المذكور الخاصِّ به مـــن ولادة ابنـــه المأمون في صَفَر من سنة 1176هـــ وهو شقيق حمُّودة باشا كما ذكر ولادة آبنه عثمان في ذي القعدة من السنة المذكورة كما ذكر خروجه بالمحلّة، وما قيل في ذلك من أشعار.

ومّما آعتنى به ختان إبني الأمير سليمان وحمُّودة، وإبني أخيـــه محمـــود وإسماعيل، فذكر ما قيل في ذلك من أشعار إذ كان ذلك الختان ميدان سباق بين الشُّعراء، فأنشد الطُّوير معلّقة مطلعها:

[الوافر]

ســـــعودك بالمــــــسرَّة والتّهـــــاني مجـــــدَّدة علـــــى مـــــرِّ الزَّمــــان

وأتى بها كلَّها، وساق بعدها ما أُنشد فيه، وهو أكثر ممَّا أُنشد في فـــتح وسلات.

ومن فصوله الهامَّة ذكره لإنشاء مركبين بحريَّين في مدّة الأمير المـــذكور، وما أُنشد في ذلك من أشعار.

وبسط القول في قدوم الأسطول الفرنسي إلى السَّواحل التُّونسيَّة ورميـــه لسوسة وبنزرت إلى أن تمَّ الصُّلح، وعدَّ ذلك من الانتصارات الباهرة، وأتى على ما أنشده الشُّعراء في ذلك على عادته في جلب القصائد التّي تقـــال في تلك المناسبات، من ذلك قصيدة المشرّق[2] ومطلعها:

---

1 الوزير الأجل الكاتب أبو عبد الله محمَّد بن عبد الكافي بوعتُّور الصفاقسي (-1195هـــ).، ترجم له في "عنوان الأريب" 48/2.

2 هو خليفة بن القايد منصور المشرّق كان واليا على سوسة وقد نبغ في الشّعر وكان حيًّا سنة 1180هـــ (عنوان الأريب 55/2).

[الكامل]

قاتِلْ بسعدك فالمعالي تُنْجدُ   واعزم بجدِّك لم يزل يَتَجَدَّدُ

ثمَّ ذكر ما أمدَّ به الأمير المذكور الخليفة العثماني في سنة 1185هـ من مراكب بحريَّة.

ويذكر خروج الثَّائر عثمان الحدَّاد بجبل خمير في أواخر سنة 1183هـ، وبهذه المناسبة (يستطرد وكما يقال يَسْرَح) فيذكر تاريخ الدَّولة الحفصيَّة والدَّولة المراديَّة ونشأة الدَّولة الحسينيَّة، وثورة علي باشا وتاريخه ما شغل قسما هامًّا من التّاريخ.

ثمّ يعود إلى الحديث على الباشا علي ذاكرا محاسنه وخصائصه مقدِّما لذلك بمقدِّمة في القوى الثَّلاث التّي هي منشأ لأكثر الفضائل والرَّذائل، وهي قوَّة العقل وقوَّة الشَّهوة وقوَّة الغضب، ويفرِّع على ذلك الفضائل والمحاسن.

نظرات في تاريخه

لا يعدُّ "التَّاريخ الباشي" كتابا تاريخيًّا إذا أخذنا التَّاريخ بمعناه الصَّحيح، حتَّى ما نصَّ عليه كتابه حسب التَّقدمة وهو تاريخ الأمير الباشا علي باي، إذ أنّه في تاريخ هذا الأمير اقتصر على ولايته وحوادث الثَّوارت عليه وأمور أخرى تخصُّه، وهي مع ذلك نزرة، وسواء في ذلك ما كتبه عليه أولا، أو ما أتى به بعد الاستطراد الواسع حين تكلَّم عليه ثانيا فيما عنونه يذكر ما خصَّه الله به من محاسن الأخلاق وكرم الطِّباع وشرف الخلال وحميد الخصال.

ثمّ إنّه في حكايته لهذه الخلال قد أخلَّ بتدوينها على الصُّورة التي تُظهر الحياة الخاصَّة للأمراء بالوجه المضبوط الذي تعرف به حياتهم من جميع وجوهها دون أن تكون بتلك الصورة التي يرمي من ورائها إلى تلوين الواقع على حسب ما يقتضيه الإطراء.

وإذا أخذنا تدوينه لقراءة هذا الأمير على أستاذه برتقيز نجده يذكر ما هو المقصود بالذَّات بإيجاز، بينما يطنب في شيء آخر وهو البحث الذي ذكره

في المقدار المطلوب من علم التَّوحيد وكفاية القليل منه، وذكرِ وصيَّة الرَّازي.

وكان من حقِّه أن يعطي هنا بسطة على أستاذه الشَّيخ يوسف بن محمَّد برتقيز(-1148هـ). الذي تولّى تعليمه وتأثيره عليه.

وفي الواقع أنّ المفهوم التَّاريخي عنده ليس كما هو عند الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف، وشتَّان بين ما يكتبه المترجَم وبين ما يكتبه ٱبن أبي الضِّياف، فالأوَّل يكتب أمداحا شعريَّة ونثريَّة، ويحشر فيه ما يملأ تاريخه دون نظر إلى الوجه التَّاريخي الذي ينبغي أن يكتب به التَّاريخ، بينما الثَّاني يدوِّن التَّاريخ قبل كلِّ شيء للتَّاريخ، ثمَّ هو بعد ذلك مشبَعٌ به يكتب عن خطَّة واضحة ودراية بالأسلوب التَّاريخي.

وإخلاله بالتَّاريخ حتَّى "بالتَّاريخ الباشي" فيما بنى عليه كتابه دعا لنقده من المؤرِّخ التُّونسي الذي جاء بعده ٱبن أبي الضِّياف، فيذكر في أوَّل تاريخه "إتحاف الزَّمان"[1]، "وجرى في مضمارهم -أي مؤرِّخي تونس- العلاَّمة الوزير الكاتب أبو محمَّد حمُّودة بن عبد العزيز إلاّ أنّ كتابه في أخبار مخدومه أبي الحسن الباشا علي باي الحسيني -كما أشار إلى ذلك في كتابه المذكور-، وذكر غيره استطرادا، وانتهى بانتهاء دولته. فهو أشبه بالمديح"، وهو كما ترى إقصاء له عن التَّاريخ.

وانتقاد ابن أبي الضِّياف عليه في محلِّه ليس كما هو معهود من كون المتأخِّر يحمل على المتقدِّم إبرازا لنفسه وإظهارا لها، وطيًّا لمحاسن غيره لأنّ ما انتقدناه على الكتاب بعد تلك الإلمامة التحليليَّة والنَّظرة النقديَّة يوضِّح ما رمى إليه ابن أبي الضِّياف ويشرح ما أوجزه.

ثمَّ إنَّ صاحب إتحاف أهل الزَّمان كان يتحرَّى الحقائق، ويربأ بنفسه عن التدلِّي لمثل هذا، ويدلُّ لهذا أنَّه لم يحمل على تاريخ الوزير السرّاج "الحلل السندسيّة" بل ذكره كمؤرِّخ معتمَد، وكذلك مع معاصره وصاحبه الباجي

---

1 الإتحاف 3/1.

المسعودي حيث أشاد بتاريخه ومدحه على اختصاره فذكر: "أنّه جمع في هذا الشأن خبرا أنيسا وعقدا نفيسا سمّاه "الخلاصة النقيَّة في أمراء إفريقيَّة" ذكر فيه كلّ واحد ومشهور آثاره، وما تيسّر من أخباره على أسلوب معجب وجيز مصوغ من البلاغة صوغ الإبريز"، والمعاصرة حجاب ومع ذلك أطرى هذا الكتاب، وبالغ في الإطراء والإعجاب لأنّه حقيق بذلك، إذ طابق الاسم المسمّى، فهو خلاصة تاريخيَّة فتحت لمن جاء بعده ممّن كتب في الخلاصات التّاريخيَّة المجال.

وربّما يُلتمس للمترجم عذر وهو أنّ عصره لم يكن كعصر ٱبن أبي الضّياف وهذا صحيح حيث وقع التفتُّح في عصر الثّاني دون الأوّل لأنّ عصر المشير الأول قد بدأ فيه الفكر التُّونسيُّ يتّسع مجاله بسبب تغيُّر الأوضاع والتقارب بين تونس والعالم الغربيِّ المتفتّح، لكن إذا نظرنا إلى من كتب قبل المترجَم، -وإن لم يكن بالصُّورة المرضيَّة-، وهو الوزير السرَّاج في كتابه "الحلل السُّندسيَّة" نجده مع ما حشر فيه من تحلّيات سمجة كتابا تاريخيًّا جامعا لا من حيث أنّه بني ليكون تاريخا لمؤسِّس الدولة الحسينيَّة، بل كذلك في النَّواحي التاريخيَّة الأخرى، فنجد فيه علاوة على تاريخ الأمراء تراجم الذين كانوا في تلك العصور التّي أرَّخها، ورغم ما فيه من أبحاث خارجة عن التّاريخ فإنّه يعدُّ من أهمِّ المصادر التّاريخيَّة لتونس في تلك الفترة، وحتّى في غيرها، وأين منه "التّاريخ الباشي"، فإنّه من حيث القيمة التّاريخيَّة بعيد كلّ البعد عن "الحلل السندسيَّة" فضلا عن غيره.

فمشرب المترجَم التّاريخي متشبِّع بغير المبدأ التّاريخي السَّليم، فلهذا ٱنحطّت قيمة الكتاب عن بقيَّة الكتب الأخرى حتّى القاصر منها عن بلوغه لأن يكون مصدرا تاريخيًّا تامًّا مجديا.

ثمّ إذا نظرنا إلى الناحية التّرتيبيَّة نجده لم يبنِ تاريخه على قاعدته من أوّل الكتاب إلى آخره، بل ذهب فيه على حسب ما تيسّر له، فبدأ بولاية الأمير المذكور، ثمّ إنّه لم يتسلسل مع أحداثها، فلم يكن تاريخه تاريخا مبوّبا على

مقتضى السُّنن الطبيعيِّ، ولا مسلسلا حسب الزَّمن على الطَّريقة التي ٱختارها.

وقد شعر نفسه بهذا فاعتذر عنه عند حديثه على ظهور الدَّعيِّ عثمان الحدَّاد بجبل خمير و الظفر به وقتله "وهذه الواقعة كان حقُّها أن تذكر قبل هذا إلاَّ أنَّا أخَّرناها لاتِّصال الكلام السَّابق بعضه ببعض فاستوفيناه بتمامه، وذكرناها بعد لنربط بها ما بعدها من الأخبار".

ونراه بعد ذكر خروج عثمان الحدّاد لم يذكر من تاريخ الباشا شيئا، بل ٱنتقل إلى موضوع آخر وهو ذكر الدَّولة الحفصيَّة وتاريخ من بعدها وهو ٱستطراد ٱستغرق من الكتاب قسما لا بأس به، والمناسبة الدَّاعية إلى ذلك بعيدة بحسب الصِّناعة التأليفيَّة، وكان في هذا الاستطراد جامعا لتاريخ الدَّولة الحفصيَّة لأنَّ تاريخها وجده مدوَّنا، فسهل جلبه وكتابته، وهو تناقض منه، فإنَّه يعتذر في أوَّل الكتاب عن الخطَّة التي رسمها أوَّلا من ذكر تاريخ الدَّولة وٱبتداء تأسيسها بذكر أخبار والد أبي الحسن الباشا علي باي وما تمَّ له في ملكه من أعمال، وتاريخ ٱبنه محمَّد باي الذي ٱنتزع الملك من علي باشا، وما تخلَّل دولتيهما بينما في أثناء الكتاب يأتي ببسطة لا عمَّا عدل عنه أوَّلا، بل عن الدَّولة الحفصيَّة وعن دولة الأمير حسين بن علي ودولة التُّرك إلى غير ذلك.

والأقرب في الظنِّ أنّه ذكر ما ذكره ٱستطرادا حين ٱستصغر كتابه، ورآه لا يتناسب مع من قدَّمه إليه، فأضاف إليه ما أضاف بعد أن كانت فكرته محصورة فيما حدَّده لنفسه، إذ على فرض المناسبة بين قيام الدَّعيِّ الحدَّاد والدَّعيِّ ٱبن مرزوق أنّه يجلب ما يتناسب بين حادثتيهما لا أن يأتي بتاريخ الدَّولة الحفصيَّة منذ نشأتها إلى ٱنقراضها بينما هو قد حدَّد خطَّة كتابه.

ومع هذا الاستطراد بتاريخ الدَّولة الحفصيَّة وما يتَّصل بذلك يُغفل شيئا يتَّصل بحياة أبي الحسن الباشي الذي ألَّف الكتاب بلقبه، وهو ٱنتقال الملك من علي باشا إلى محمَّد الرَّشيد أخي هذا الأمير حيث بيَّض له و لم يذكر

شيئا كما هو في النُّسخة التي وقفت عليها، وليس ذلك من النَّاسخ بل من نسخة المؤلِّف، إذ أنَّ النُّسخة التي ٱعتمدها ٱبن أبي الضِّياف كذلك، وهذا ما ذكره في الجزء الثَّاني من تاريخه[1]: "الخبر عن قدوم محمَّد باي بن حسين باي من الجزائر ومقتل علي باشا، لم يذكر الوزير الكاتب أبو محمَّد حمُّودة بن عبد العزيز هذا الخبر في تاريخه وترك موضعه بياضا بورقات".

وهذا يدلُّ على أنَّ المترجم لم يكمل مواد تاريخه، فكانت كتابته له على حسب ما يبدو من غير ٱستعداد تاريخيٍّ، ومن أجل ذلك كثرت البياضات فيه، وهي وإن كانت لا تخلو منها مؤلَّفات كثيرة لكنَّها ليست بهذه الصُّورة.

ويكفيك هذا إخلالا إذ أنَّه يغفل ما يتَّصل بتاريخ أميره ويأتي بما هو بعيد عنه.

ننهي نظراتنا النقديَّة في كتابه "الباشي" طلبا للاختصار، ونثنِّي بذكر ما فيه من بحوث يحقُّ الوقوف عندها لكونها تظهر بعض آرائه في العمران الاجتماعي وبقاء الدُّول وزوالها، وهو وإن ذكر ذلك في معرض الاستطراد، فكان خروجا عمَّا حدَّده لكتابه من خطَّة حريٌّ بأن يوقف عنده، ومجيئه ٱستطراد لا يمنع من الاعتناء به ومناقشة آرائه.

كتب المترجَم بحثا في آخر كلامه على الدَّولة الحفصيَّة، ووازن بين ما كانت عليه أيَّام سالف ملوكها الأقوياء، وبالأخصِّ ما ٱتَّفق للأمير أبي زكريَّاء ٱبن الشَّيخ عبد الواحد بن أبي حفص من سعة الملك ونفوذ السُّلطان وٱتِّساع العمران وإخماد الثَّورات النَّاجمة من العرب النَّازحين إبَّان ضعف دولة صنهاجة ومن البربر هوَّارة وغيرهم، ووراثة للدَّولة المؤمنيَّة بمرَّاكش عندما خمد ريحها فبايعه أهل شرق الأندلس وبلنسيَّة ومرسيَّة وإشبيليَّة وغيرها من الأمصار قبل ٱستيلاء العدوِّ عليها، كما بايعه ٱبن الأحمر مؤسِّس دولة غرناطة، كما وفدت عليه بيعة أهل سبتَة، وأهل طنجة وقصر ٱبن عبد

---

1 الإتحاف 145/2.

الكريم ومكناسة وسجلماسة من المغرب، وٱفتتح تلمسان، وأطاعه بنو عبد الواد، ودخل أميرهم يغمراسن بن زيّان في حكمه، وأقرَّ له بنو مرِّين وهو في شباب الدَّولة، وإقبال العزِّ والصَّولة بالطَّاعة، فلم ينتقل للدَّار الآخرة إلاَّ وهو قرير العين في عزيز سلطانه وٱمتداد ملكه، فكان سلطانه بإفريقيَّة أضخم سلطان عرفته هذه الدِّيار، ومن توابع ذلك أنَّ عاصمته تونس كانت في تبحِّر عمران ورفاهيَّة سكَّان ما جعلها مأمَّ القاصدين.

وكان أمر ٱبنه السُّلطان المستنصر بالله الحفصي على غراره، حتَّى أنَّه لمَّا زالت الخلافة من المشرق لسقوط بغداد لم يكن أمل إلاَّ فيه، فبايعه أهل مكَّة ببيعة من إنشاء ٱبن سبعين الصُّوفي الشهير.

وهكذا كانت الدَّولة الحفصيَّة في ذلك الملك العريض إلى أن آلت بها الحال إلى التَّقهقر لَّما بلغت سنَّ الهرم ونزلت بها الأمراض المزمنة إلى أن أصبح الأمير الحفصي لا يملك إلاَّ موضع قدميه، وقد كان أجداده في إبَّان شباب الدَّولة يتمتَّعون بنفوذ واسع في المغرب بأقسامه وفي الأندلس، ثمَّ هو مقيَّد في سلطانه ليس حرًّا فيه إذ شاركه الإفرنج الإسبان في الحكم فأصبح مسلوب النُّفوذ، والشَّعب يقاسي الأمرَّين من حكم أجنبيٍّ ومن إدبار الدَّولة، إلى أن ٱستخلص الأتراك إفريقيَّة من الاحتلال الإسبانيِّ.

وبعد هذه المقارنة يذكر حال الحضرة التونسيَّة التي رأت الخراب بعد العمران والضِّعة بعد الرِّفعة والشدَّة بعد الرَّغادة والمذلَّة بعد العزَّة، وسبب ذلك هو الانغماس في الرفاهيَّة، والتَّغالي في أسباب التَّرف، ويأتي مبيّنا لهذا بأسلوبه المنمَّق:

"ثمّ ٱنظر إلى حضرتهم ودار خلافتهم - أي تونس الحاضرة حرسها الله تعالى- كيف كانت في زمن ٱستفحال دولتهم وهي حاضرة المغرب وأمُّ البلاد والأمصار مادَّة أيدي التَّأميل إليها مستمدَّة لرياح النَّصر ورجوع الكرة منها، وقد ٱتَّصلت عمارتها وعظمت مصانعها وكثر ترف سكَّانها وتوافَر علماؤها وشعراؤها وكتَّابُها، فآل أمرُها إلى ٱختلال النِّظام وزوال

العمران وٱستيلاء الخراب على أكثرها وخروج أهلها إلى الآجام والغياض طالبين النَّجاة بأنفسهم من العدوِّ الكافر يتكفَّفون بين خيام الأعراب وقد ذاقوا لباس الجوع والخوف وٱنطمست أعلامها وٱمَّحت رسومها وذهبت محاسنها وٱنقرض أعيانُها وقُبض علماؤها وخرس شعراؤها وأفحم كتَّابُها وبلغاؤها.

وهذا شأن البلدان إذا بلغت الغاية من حضارتها والنِّهاية من عمرانها، وقفت كذلك ما شاء الله ثمَّ ترجع أدراجها وتأخذ في الانحطاط تدريجيًّا إلى أن تبلغ إلى الحال الذي وصفنا، وربَّما خربت بالكليَّة وأصبحت خاوية على عروشها بالمرَّة.

وقد عقد وليُّ الدِّين ٱبن خلدون في الكتاب الأوَّل من تاريخه الكبير فصلا في هذا المعنى بيَّن فيه أنَّ للعمران أجلا لا يتعدَّاه، وأنَّ الحضارة غاية له ونهاية لعمره.

قال فيه: "إنَّ العمران كلَّه من بدواة وحضارة وملك وسوقة له عمر مخصوص، كما أنَّ للشَّخص الواحد من الأشخاص المكوِّنات عمرا محسوسا".

ٱعتمد المترجَم في رأيه هذا ما جاء به ٱبن خلدون في الفصل الذي عقده في كتابه "العبر وديوان المبتدأ والخبر"[1] في البلدان والأمصار وسائر العمران ونقله برمَّته وٱعتذر عن جلبه بطوله لما فيه من الفائدة.

وعقَّب المؤرِّخ ٱبن أبي الضِّياف على حالي الدَّولة الحفصيَّة مقتفيا أثر المترجَم فقابل بين ما كانت عليه في ٱتِّساع سلطانها، ثمّ ما كان عليه أمرها آخرا بذهاب ريح الدَّولة، معلِّلا بأنَّ ذلك مرجعه إلى أسباب معقولة تعضِّدها الأخبار المنقولة، منها أنَّ الدَّولة إبَّان ٱزدهارها تلتزم القانون الشَّرعيَّ غير ميَّالة مع الأهواء، وعضد ذلك بقصص تاريخيَّة تؤيِّد ما ذهب إليه، فإذا ما أدبرت أيَّامها وخلف فحولها الذين لا كفاءة لهم من ملوكها

1 العبر 669/1، الفصل18، الباب الرابع.

أرسلوا سوائم نفوسهم في مراتع الشَّهوة الحيوانيَّة وٱنساقوا مـــع أهـــوائهم ففقدوا الخلال الحميدة.

وٱستدلَّ على ما ذهب إليه بما ذكره ٱبن خلدون في المقدِّمة[1] من أنَّ من علامات المُلك التَّنافس على الخلال الحميدة وبالعكس، وجلب فقرا من هذا الفصل.

وحَوْصَل سبَب ما ذهب إليه بقوله: "وهذا من ثمرات المُلك المطلَق، فإنَّ من فعل ما شاء لقي ما ساء".

وتورك على المترجم ٱبن عبد العزيز بقوله: "هذا أعظـــم الأســـباب في ٱنحلال عُرَى الدَّولة وزوالها، لا ما ذكره الوزير الكاتب أبو محمَّد حمُّودة بن عبد العزيز في مثل هذا المحلِّ من كتابه حيث قصر السَّبب على ما يقع عنـــد تناهي الحضارة من الخراب، وعلى الأَعمار الطبيعيَّة للدُّول مـــن الـــشَّباب والوقوف والهرم، ونقل كلام وليِّ الدِّين ٱبن خلدون في كلام نفيس بليـــغ، لأنَّ القوم في ذلك الوقت لم تبلغ حضارتُهم مبلغًا يقتـــضي هـــذا التَّـــأخير والخراب، وهم إلى السَّذاجة أقرب، ومبانيهم شاهدة بـــذلك كـــالجوامع الحفصيَّة بتونس، فإنَّها بعيدة عن ترف الحضارة وزخرف التَّحسين".

إنَّ مناقشة ٱبن أبي الضِّياف لابن عبد العزيز كما تدلُّ على تعمُّق الأوَّل في نظرته التَّاريخيَّة، وصحَّة بناء الأسباب تدلُّ كذلك على أنَّ الثَّاني لم يخـــل تاريخه من بحث عن أسباب زوال العمران يرمي من ورائه إلى غاية ظهـــرت آثارها في تلميذه حمُّودة باشا.

ثمَّ إنَّ نقد ٱبن أبي الضِّياف وما جلبه من كلام ٱبن خلـــدون لـــيس في الموضوع الذي بحث فيه المترجَم، وذلك أنَّه أراد أن يقارن بين حالي العمران في الحاضرة التونسيَّة بعد مقارنته لحال الدَّولة الحفصيَّة، ويدلُّ لهذا ما جلبته من كلامه في هذه الحلقة (ثمَّ ٱنظر إلى حضرهم إلخ)، وما جلبه من كـــلام ٱبن خلدون في نفس غرضه لأنَّ الفصل الذي نقله كما تقدَّم مـــن البـــاب

1 المقدِّمة 255/1، الفصل 20، الباب الثَّاني.

الرَّابع وهو في البلدان والأمصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الأحوال، بينما ما نقد به ٱبن أبي الضِّياف في ٱنقراض الدُّول وما أتى به من كلام ٱبن خلدون هو من الباب الثَّاني كما تقدَّم في العمران البدويِّ والأمم الوحشيَّة والقبائل، وإن كان كلٌّ من الموضوعين متَّصلا بالآخر إلاَّ أنَّ هناك تباينا بينهما، فالانتقاد على المترجَم كان بغير مقصده إذ هو يتحدَّث على تأخُّر العمران في البلدان والمناقشة في تأخُّر الدُّول.

والبحث في هذه المناقشة يطول ويدعو إلى دراسة مفردة تتوفَّر عليها خاصَّة.

قيمة شعره

في الحقِّ أنَّ المترجَم كأغلب الشُّعراء الذين ليس لهم طابع شعريٌّ خاصٌّ بهم، أو روحٌ شعريَّة فيَّاضة تستمدُّ إلهامها من قريحة خصبة ومعين سلسبيل كأبي العتاهية أو أبي نوَّاس حيث سار أوَّلهما في الزُّهد فأبرزه في قالب شعريٍّ أخَّاذ، بينما الثَّاني كان على نقيضه فارتدى ثوب الخلاعة وحمل راية المجون، وإنَّما مترجَمنا كشعراء عصره الذين يقولون الشِّعر تشبُّها بالفحول ودخولا في زمرة الشُّعراء، ولكن يمتاز شعره عن غيره بوجود عاطفة نفسيَّة ممَّا خلا منه شعر الكثير من معاصريه، فرغم قلَّة شعره نظفر بروحه على ما هي عليه.

وقد حاولت جهدي وبكلِّ ما أوتيت من قوَّة أن ٱستخلص من شعره شيئا ينمُّ عن روحه، إذ شعره لا يخلو من ذلك، فإنَّ الشِّعر في ظنِّي كالكلَّة (الناموسية) الرَّقيقة التي تصوِّر ما تحتها بارزا جليًّا، فإذا لم يكن ذلك فلا شعر، فالشِّعر ما ألمَّ بحديث النَّفس وأبرزه وصوَّر هواها من فجورها وتقواها.

وبالطَّبع لمَّا كان شعره المدوَّن قليلا كان الشَّاهد على ما يجول في نفسه من شعره في القلَّة كشعره، والذي يدلُّ عليه تاريخه أنَّ ٱشتغاله بالشِّعر رغم

الشاعريَّة صدَّه عنه ما كان معتنيا به من العلوم التي كانت تدرس بالزَّيتونة، ثمَّ ما صار إليه أمره حين أصبح من رجال دولة الباشا علي باي، والمطالع لشعره وكذلك ما كتبه في نثره يجتمع لديه من شخصيَّته المنبثقة من شعره ثلاثة أمور وهي أنَّه ذو طموح وذو مجون وخلاعة، وذو شكاوي من زمانه.

أمَّا طموحه فله شواهد من نثره وشعره، أمَّا نثره فمقدِّمة ديوانه كما أسلفنا، فهي عنوان من عناوين ٱعتزازه بنفسه، وٱعتداده بشخصيَّته حتَّى أنَّه لا يبادر أحدا من إخوانه بشعره، بل ما قاله من إخوانيَّاته إنَّما هو مجيب في ذلك، وهذا الاعتداد قد بلغ به إلى حدِّ الصّلف، ولعلَّه من أسباب الاعتداء عليه.

وهذا الخلق صاحبه منذ الحداثة، ويدلُّ لذلك ما دوَّنه في ديوانه:

"وقلت مرتجلا ومضمِّنا قديما":

[الطويل]

إذا لم يساعدني الزَّمان ببغيتي ومقداريَ العالي لديه قد انحطا
تسليت من همي بقولة (حازم) ومن ذا الذي ما شاء من دهره يعطى

وكتب على هذين البيتين:

والمصراع لأبي الحسن حازم القرطاجنِّي صاحب المقصورة ففي الكلام تورية.

ويقصد بالتورية في قوله (بقولة حازم) أمرين فإنَّه يحتمل أن يكون المراد به ٱسم فاعل من الحزم كما يحتمل أنَّه تورية باسم حازم القرطاجنِّي التُّونسيِّ وقد ٱشتهر بالمقصورة التي مدح بها المستنصر بالله الحفصي وكتابه في البلاغة.[1]

1 أبو الحسن حازم بن محمَّد بن حسن بن حازم القرطاجنِّي ثمَّ التُّونسي ونال شهرة في تونس ومدح المستنصر بالله الحفصي بقصيدته المشهورة (بالمقصورة الحازميَّة) ومطلعها:

لله ما قد هجت يا يوم النوى * على فؤادي من تباريح الجوى

ومات بتونس 684هـ وله "سراج البلغاء"، وكتاب في القوافي وقصيدة في النحو على رويِّ الميم (أزهار الرِّياض3 /172).

وطموحه هذا أدَّى به إلى أن أصبح وزيرا في دولة الأمير المذكور، وأسند إليه تعليم ٱبنه حمُّودة باشا وكانت له في الدَّولتين حظوة بالغة، وقد أدَّى به الأمر إلى الإدلال في دولة الأمير الذي تولّى تربيته بما لا يحتمل، فأضعف ذلك نفوذه وأبقاه في زوايا الإهمال، فلم يتحمَّل ذلك مع ما أصيب به من صرخ ناري فانتقل إلى الدَّار الآخرة.

وأمَّا مجونه فرغم ما كان من رغبته في ظهوره بالمظهر الذي يليق بالفقهاء، فإنَّه أثبت في ديوانه قصيدة جاء فيها بيت من أكبر الشَّواهد على الخلاعة والاستهتار وهو قوله:

[الكامل]

هات الطّلا وعليَّ وحدي إثمها إن كنت تخشى أن تموت فتسألا

وما كنت أدري أنَّ من شعرائنا من يستهتر هذا الاستهتار، وتصل به الإباحيَّة إلى هذا الحدِّ، إذ لم يكتف فيه بطلب الخمرة حتَّى تجرَّأ فتهاون بالسُّؤال والحساب.

فهو بهذا البيت يلتحق بأبي نوَّاس وأصحابه الذين قال فيهم أبو نواس هجوا لأبان اللاَّحقي:

[المجتث]

يريد أن يتسوى بالعصبة المجان
بعجرد وعباد والوالبي الهجان[1]

ومن خلاعته ومجونه أنَّه حضر مجلس سماع فيه أبو الحسن الغراب فأثبت في ديوانه بيتين وتقدمة:

"حضر الأديب أبو الحسن علي المعروف بالغراب مجلس سماع في جماعة من الأدباء فيهم وسيم يعرف بالبازي، فكتبت إليه والتورية ثلاثيَّة:

[الكامل]

يا ليلة نهضت بها الأدباء في قنص السُّرور بكلِّ صقر باز
لم تنسلخ ظلماؤها عن فجرها إلاَّ وقد صاد (الغراب) (البازي)

1 الأوراق للصولي ص 11.

وله تورية رفع فيها القناع وصرَّح بما صرَّح، وقلت في ذلك ماجنا والتورية في غاية اللُّطف:

قــــل للمحـــــاول جهــــــلا في الحـــب بــــدرك صيتـــــي
أقـــــصر قلـــــيلاً فإنِّـــــي ركبـــــت ظـــــهر (الكُمَيْـــت)

والكميت هذا غلام يلقَّب بذلك، وقد أغرم به المترجَم، وله فيه غير ما تقدَّم من ذلك ما قاله فيه:

وقلت في غلام يلقَّب بالكميت والتورية فيه رباعيَّة:

سوابق اللَّهـــو قـــد جـــرت فـــي حمـــى رشـــا مفـــرد النعيـــت
للخمـــــر في ثغـــــره مجـــــال تـــنعش يـــا صـــاح كـــل ميـــت
فاركـــب جـــواد الـــسُّرور طلقـــا فهـــــذه (حلبـــــة الكميـــــت)

وقد مدح هذه النُّتفة إبراهيم العصفوري في كتابه "تشحيذ الأفهام بما يحسن من الإيهام"، "وللشَّاب الإبريز حمُّودة بن عبد العزيز في الكميت وأجاد".

وقد أولع الأدباء التونسيُّون بالكميت، وممَّن أنشد فيه كذلك إبراهيم العصفوري المذكور:

[الوافر]

خلعـــت عنـــان حـــبي في الكميـــت بـــصبر عنـــه لا ينفـــكّ ميـــت
فقلـــت و لم أنـــل منـــه مرامـــــا جواد منـــاي مـــا لحـــق (الكمـــيتي)

والكميت في اللُّغة من الخيل ما خالط حمرته سواد غير خالص، أو ما بين الأسود والأحمر، ولعلَّ تلقيبه بذلك من عبث أدباء عصره، ولا يخفى مرماهم في هذا اللَّقب، وبعد تلقيبه بذلك تفنَّنوا في التورية.

وما ذكره ابن عبد العزيز من التورية الرباعيَّة في الكميت هذا لم يبد لي منها إلاَّ أنَّها ثلاثيَّة لا رباعيَّة.

وهي حلبة الكميت، ويعني ميدان السِّباق، أو "حلبة الكميت" الكتاب المشهور وهو في الأدب والنَّوادر، ومؤلِّفه محمَّد بن الحسن النواجي

(-859هـ) وقد لحقته محنة بسبب تأليف هذا الكتاب أو الحلبة التي تضمُّ الأدباء التونسيِّين الذين كانوا متعلِّقين بالمذكور.

ولم يذكر العصفوري من توريات المترجَم إلاَّ النُّتفة الأخيرة، أمَّا البيتان اللذان فيهما التَّصريح دون التَّلويح فإنَّه أغفلهما.

وكما له شعر مجونيٌّ في هذا الجانب له شعر آخر في غير هذا الجانب من ذلك:

[مجزوء الكامل]

وغزالـــة روميّـــة ... مقـصورة عنـها النفـاسة
يـصبو الحلـيم لحـسنها ... تـسبي عقـول ذوي الرئاسـة
حركاتهـا وسكـونا ... همـا حـوت كـل الـسياسة
قالـت وتعلـم حـرفتي ... كيـف الطريـق إلى الكناسـة

والروميَّة المتغزَّل بها هي من تعرف بالعلجيَّة، ومن اللَّطيف أنَّ العلجيَّة كما تطلق على الروميَّة تطلق على مرآة يزيَّن بها بهو البيوت.

الاضطراب والشَّكوى

النَّاحية الثَّالثة من النَّواحي التي تستفاد من شعره غير المعنون من مدح الأمراء أو الشُّيوخ أو غير ذلك، وإنَّما هي من النَّواحي المطويَّة في شعره التي تفيد ما في قرارة نفسه هي ناحية الشَّكوى التي سببها الاضطراب في الحياة وعدم الرِّضا عن الحال الحاضرة، فقد عاش ٱبن عبد العزيز عيشة ٱضطراب في بدء حياته كما يدلُّ عليه ٱغترابه في شبابه حيث ضاقت عليه الحياة في نظره، فخرج طلبا لما يرضي نفسه، فكانت له رحلتان إحداهما إلى الشَّرق، وهناك أدَّى فريضة الحجِّ، والأخرى إلى المغرب ومكث سنين، ويبدو أنَّهما رحلة أرب لا رحلة طلب.

وزار في رحلته الأولى مصر والحجاز، وكانت هذه الرِّحلة كما ذكرنا سابقا سنة 1181هـ، وهي في زمن شبيبته، وذكر السُّنوسي في "مجمع

الدواوين التونسية" أنّه أقرأ ٱبن الشَّيخ محمَّد التَّاودي بـــن ســـودة المـــري (-1209هـــ) مختصر الشَّيخ السَّنوسي في المنطق، وفي الحقيقة أنّه أقرأ ٱبنيـــه وهما محمَّد وأبو بكر إذ كانا معه في سفره للحجِّ، ودرسا معه الرياضيَّات في القاهرة كما أفاده الجبرتي في تاريخه "عجائب الآثار"[1] في حـــوادث ســـنة 1207هـــ ظنًّا منه أنَّه توفِّي في تلك السنة مع أنّه توفِّي كما تقـــدَّم ســـنة 1209هـــ وترجم له فيمن مات ممَّن له ذكر، وكانت رحلة الشَّيخ التَّاودي المذكور سنة 1181هـــ، فلا يجوز أن يقرئ أحـــدهما دون الآخـــر، وهمـــا يدرسان معا وإقراؤه لهما للتمعّش، وإن كان الشَّيخ الـــسُّنوسي يـــذكر في "مجمع الدَّواوين" "أنَّه لمَّا ٱجتمع بشيخ المغرب التَّاودي فأعجب بـــه غايـــة الإعجاب حتَّى طلبه أن يقرئ ٱبنه فأقرأه مختصر السُّنوسي في المنطق"، وربَّما منشأ هذا ما كان يتحدَّث به المترجَم لأنَّ البلاد تعجُّ بمن يقرئ هذا الكتاب.

وأمَّا رحلته إلى المغرب فسببها حادثة حدثت له ٱضـــطرَّته إلى مبارحـــة البلاد التُّونسيَّة حتَّى لا يمسَّ، وقد أشار إليها صاحب "مجمع الدَّواوين"، ولم يبين ما هي:

"وبلغ إلى المعالي... وذلك بعد أن طحت به طوائح الزَّمن، وجرَّعتـــه غصص المحن، حتَّى أغرته ملمَّة كبرى، على الظَّعن في تونس الخضراء فسار عند ذلك إلى المغرب الأقصى خشية أن يسام نقصا".

وفي هذه الغربة أنشد قصيدا تغزُّليًّا يقول في أوَّله:

[الخفيف]

لحظك البـــابليّ منـــه وبالـــــــي كم بذا القلب قد رمـــي مـــن نبـــال
بمـــن أصـــاب، ومـــن أضـــــ حى مليك الأنام كيـــف يبالـــي ؟

ويتمنَّى في آخره أن تعود إليه أوقات صبوته وخلاعته:

وأعـــاد الإلـــه فيهـــا خلاعـــا تي وأوقـــات صـــبوتي مـــع غـــزالي

1 عجائب الآثار 258/2.

ومع أنَّ هذه القصيدة قالها في حال الغربة كما قدَّم لها في ديوانه، فإنَّه بناها على التغزُّل ولكنَّه لم يخلها من ذكر اشتياقه إلى معاهد النُّزهة بالخضراء، وقد أجاد في وصفه لها، فلم ينسها وإن بارحها وفارقها.

و لم أقف له على غيرها في ذكر غربته، وما جاء في "المنتخب المدرسي" من الأدب التونسي من أنَّ له قطعة في الغربة يتشوَّق إلى أهله جاء في مطلعها:

[البسيط]

مللت دهري وملَّتني حوادثه فبعدكم ليس لي في العيش من أرب

لهفي على زمن لا بل على سكن عهدهم منتهى الآمال والطلب

وهي عند البحث لم يقلها في غربته، وإنَّما هي من قصيدته التي في مدح شيخه الغرياني (-1195هـ) وصدَّر بها ديوانه ومطلعها:

لولا عيون المها ترنو فتفتك بي ما كان بيني وبين الحبّ من سبب

وثبتت كذلك في جميع نسخ ديوانه وغيرها.

وقد قال هذه القصيدة سنة 1167هـ حين ختم عليه كبرى الشَّيخ السُّنوسي، فهو إذ ذاك في سنِّ الطَّلب، و لم يبتدئ أسفاره إلاَّ بعد الثمانين من القرن الثَّاني عشر.

وهي من قصائده التي بثَّ فيها ذات نفسه، وشكا حظَّه على العادة الجارية من بثِّ الشَّكوى للشُّيوخ رجاء الاستعانة بهم في الوصول إلى المبتغى لعلَّ على أيديهم يكون تنفيس الكربة وإقبال الحظِّ كما جاء في قوله:

كأنَّني قد أعرت الأفق من حلك سواد حظِّي فلا ضوء سوى لهب

حتى بدا الصّبح بعد اليأس منه وما يغني الصباح وجيش الشوق في غلب

و لم يبح بذات نفسه بإفاضة إلاَّ في قطعة أجاب بها بعض من لامه على إبطائه في الإجابة، فقد أفاض في الشَّكوى، وصوَّر قلبه مليئا بالهمِّ حتَّى غدا كالحجر الصَّلد، وقد أثبت في ديوانه بيتي من لامه وما أجابه به:

"وكتب إليَّ بعض الأدباء مادحا فأبطأت عليه في الجواب فكتب إليَّ:

[الطويل]

أيا من على عرش القريض قد استوى ويا من له في القلب مستخلص الودّ
فما بال كتبي لا يردُّ جوابها لديك فهل إكرامها عدم الردّ

فراجعته:

أيا من سما بالفضل والجد والمجد ويا من له في القلب مستخلص الودّ
إليك انتهى نظم القريض فمن يرم يجاريك رام المسك للبدر باليدّ[1]
ألستم وأبناء الزمان بجيده قد انتظموا عقدا بواسطة العقد
فكم لسنٍ غادرته وهو مفحم لعي وكم أسكت عن ألسن لُدّ
فلا تلزمنّي أن أعارضكم فما معارضة الهطال والبحر في جهدي
فلا تحسبن تركي الجواب من الجفا ولكنني أحجمت عن معرك الأسْد
بماذا أقول الشعر لو كنت منصفا بقلب غدا بالهمّ كالحجر الصَّلد
فللرَّاح لا يرتاح غما ولم يكن ليصبو ولو مرت مرارا صبا نجد
تعود صرف الدهر، أم بل أقوله بفكر تقضي جذْعَ مذْعَ[2] فما يجدي
فيا أسفي من قبل إدراكيَ المنى رماني فأصماني الزمان على عمد
فعش ما بقيت الدهر غير معارض بقول سوى بالشكر منا وبالحمد

تنطق هذا القطعة بتبرُّمه من دهره، وأنَّه لم ينصفه، فهي من شعره الذي نظمه أيَّام محنه وٱضطرابه في حياته حتَّى تقاذفته الأسفار طلبا لما يرضي نفسه، فمن أجل ذلك حمل على دهره حملة شعواء، وتأسَّف غاية التأسُّف حيث رماه الزَّمان قبل إدراك المنى، لعلَّه يقصد المحنة التي ٱضطرَّته إلى الالتحاق بالمغرب الأقصى.

1 اليدُّ بتشديد الدّال لغة في اليد، وهي المستعملة في اللغة الدّارجة
2 يقال ذهبوا جذع مذع بتحريك العين فيهما ولعلّه سكّنها للضرورة

فهذه الشَّكوى من الدَّهر المدَّعي فيها عدم إنصافه ربَّما تكون من أجل ضيق ذات اليد والفاقة، لكنّ مترجميه ٱبن أبي الضِّياف والسُّنوسي لا يذكران ذلك، بل إنَّهما في طالعة ترجمته يخبران بأنَّه عاش في أوَّل حياته في كنف أبيه الذي كان من فقهاء عصره المعروفين ممَّا يدلُّ على أنَّه كان في سعة من العيش، وذهب الظنُّ أوَّلا إلى أنَّ فقدان أبيه الذي توفِّي سنة 1162هـ تسبَّب في ضيق ذات يده حتَّى ٱضطرَّ إلى الهجرة، وربَّما نالته المحنة من أجل تراكم الدّيون، ولهذا ٱنبثقت الشَّكوى في شعره، ولكن تبيَّن أنَّ بين وفاة والده وهجرته قرابة العشرين سنة، وهي مدَّة طويلة فالهجرة والشَّكوى ليستا من الضِّيق وإنَّما هما لسبب آخر، وتؤيِّد لنا هذا أنَّ في شعره مقطَّعات وحتى قصائد وموشَّحات تدلُّ على أنَّه حيي حياة الخلاعة والدَّعة، وذلك قبل تولِّيه رئاسة ديوان الإنشاء.

فالظَّاهر أنَّ طموحه هو الذي جعله يتبرَّم من الحياة، ولعلَّ الدَّاعي إلى الهجرة إلى المغرب أنَّه أحسَّ بهضيمة في جانبه فبارح الدِّيار، وملَّ القرار خشية أن يحطَّ من قيمته، فلو كانت المحنة لأمر أخلاقيٍّ أو لتراكم الدُّيون لم ينل حظوة بعد رجوعه، إذ أنَّه بعد رجوعه ٱستقبل حياة جديدة كما في "مجمع الدَّواوين التُّونسيَّة": "ثمَّ رجع بعد سنين إلى موطنه رجوع الدرِّ إلى معدنه، فقابلته الأيَّام بثغور ٱبتسام، ورقّته إلى منصَّات الأحكام".

ثمَّ إنَّ قطعته الأخيرة التي تشكَّى فيها دهره مفقودة، ومن ذلك أنَّها لم تسلم عربيَّة حيث ٱستعمل اليد مشدَّدةَ الدَّال كما في الاستعمال الدَّارج في لسان العامَّة، كما أنَّه سكَّن ذالي (جذَعَ مذَع) في قوله:

(بفكر تقضي جِذْعَ مِذْع فما يجدي)

مع أنَّهما مفتوحتان، والكلمتان كما في كتب اللُّغة بكسر أوَّلهما وفتح الثَّاني والبناء على الفتح.

موشّحاته

تأثّر ٱبن عبد العزيز بالشّعر الأندلسي، فكاد شعره يلتحق به ويمتزج بـه لسيادة النّزعة الأندلسيّة عليه، فالباحث يجد هذا التّأثير باديا في الكثير من شعره، و لم يكن هذا التّأثير في ناحية خاصّة بل هو في لفظه ووزنه ومعناه.

وتأثّر غاية التأثّر بما أعطته الأندلس للشّعر العربي من توشيح، وهذه الهبة الأندلسيّة للأدب العربي كانت مبعث روح أدبيّة خاصّة في الشّعر التّونسيّ، بدت فيه من طريق شاعر ٱفتتن التّونسيّون بشعره وهو ٱبن سَهْل الأندلسي (-646هـ) فإنّ أكثر الأدباء في تونس في العصر القريب كانوا معجبين بل مفتونين به، وبالأخصّ بموشّحه حتّى أنّ ديوانه كان مدرسة ينشأ الشّادون في الشّعر عليها، ومنهم ٱبن عبد العزيز والمسعودي.

وموشّح ٱبن سهل (هل درى ظبي الحمى)، له ٱختصاص من بين شعره في الافتتان به ومعارضته، فكانت معارضته وتقليده تامّين، فـإذا أخـذت معارضة المترجَم ٱبن عبد العزيز تجدها مطبوعة بطابع ذلك الموشّح وعلى نمطه في إقفاله وأبياته فضلا عن الوزن والقافية اللذين لا تـتمّ معارضة إلاّ بهما، والموشّح الأندلسي وإن عورض في الشّرق فإنّ هناك طابعا خاصّـا، ولكلٍّ وجهة.

وكما تأثّر المترجم بابن سهل كذلك تأثّر بمن عارض ٱبن سهل، وهـو ٱبن الخطيب الشهير بلسان الدّين[1] (-776هـ) في عدد الأقفال وغير ذلك.

وتتوزّع الفكر جهات في أسباب هذا التّقليد حتّى كثرت معارضة هـذا الموشّح بالخصوص دون غيره، بينما الوشّاحون في الأندلس بكثرة، فلماذا لم يقتف الشُّعراء غير هذا الشّاعر وغير هذا الموشّح، فكان ٱنصباب المعارضات عليه، ومن أقرب ما نراه من أسباب هذه المماشاة لهذا الموشّح أنّه يعـدُّ في

---

1 محمّد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي الوزير الأديب وٱشتغل بالتأليف حتّى أنّ مؤلفاته تقع في نحو ستّين كتابا من أشهرها: "الإحاطة في تاريخ غرناطة"، وتوفّي قتيلا بفاس وباسمه ألّف المقّري "نفح الطيب" وقد أفاض في ترجمته.

موشَّحات المتأخِّرين من أشهرها، ولعلَّه المنفرد بالشُّهرة دون غيره حتَّى أنَّه إذا ذكرت الموشَّحات ٱنصرف الذِّهن إليه، ولكن من أين ٱكتسب هذه الشُّهرة فغطَّى على المتقدِّمين والمتأخِّرين؟ الظَّاهر أنَّها ترجع علاوة على إبداعه وٱختراعه أنَّ الكاتبين على الموشَّحات يعدُّون هذا الموشَّح في صدورها، والصَّدر في ذلك ٱبن خلدون في مقدِّمته[1].

"ومن محاسن الموشَّحات للمتأخِّرين موشَّحة ٱبن سهل شاعر إشبيليَّة وسبتة من بعدها، فمنها قوله:

هل درى ظبي الحمى أن قد حمى   قلب صبٍّ حلَّه عن مكنس
فهو في نار وضيق مثل ما   لعبت ريح الصَّبا بالقبس

وقد نسج على منواله صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب بعصره، وقد مرَّ ذكره فقال:

جادك الغيث إذا الغَيْثُ هَمى   يا زَمانَ الوَصْلِ بالأَنْدَلُس
لم يَكُنْ وصلُك إلاَّ حُلُمًا   في الكرى أو خلسَةَ المُخْتَلِس"

ثمَّ أتى على موشَّحة ٱبن الخطيب بتمامها إلاَّ ما ٱستدركه عليه المقَّري[2].

وٱنضمَّ إلى مدح ٱبن خلدون أنَّ ٱبن الخطيب عارضها، كلَّ ذلك جعل هذه الموشَّحة في القمَّة، من أجل ذلك تبارى الشُّعراء في معارضاها، فكانت ميدانا تسابقت فيه قرائح عدَّة.

وإذا ما رجعت إلى ما كتبه من طرقوا موضوع الموشَّحات لا تجد أثرا يذكر للتُّونسيِّين في هذا المجال فكأنَّهم لم يساهموا في المعارضة أدنى مساهمة، مع أنَّهم سبَّاقون في معارضة هذه الموشَّحة بالخصوص مكثرون متفنِّنون، ومن بين من طرق هذا الموضوع متأخِّرون درسوه دراسة ٱدُّعيَ فيها الإحاطة ولكن أغفلت فيما أغفلت التُّونسيِّين، وفي الحقِّ لا ننسى الوزر قبل كلِّ شيء ملقى علينا لأنَّنا لم نعرِّف بأنفسنا، والكثير ممَّن كتب إمَّا أنَّه أتى بنتف لا تسمن ولا تغني من جوع، أو دار في فلك شاعرين أحدهما قديم

1 المقدِّمة 1111/1.
2 نفح الطِّيب 229/9.

والآخر محدث، وهذا من الدّوافع والحوافز لكتابة هذه الحلقات، وعساها تتوسّع شيئا فشيئا حتّى يأخذ أدبنا القديم حظّه، والحمد لله أنّ الآفاق اليوم رحب مجالها.

وميدان المعارضة الذي جرى فيه ٱبن عبد العزيز معزّز بكثير من شعرائنا التّونسيّين ومن أقدمهم ٱبن الخلوف التّونسي (-899هـ)، وقد عرّفت به بإيجاز في مجلّة الشبّان المسلمين التونسيّة، وطالع معارضته اللّطيفة:

قابل الصُّبح الدُّجى فانْهزما ومحَا بالسَّيف إفكَ الغلَسِ
وعلى الغيم ببرق رقما ثوب ديباج به الجَوُّ كُسِي

ثمّ إنّ معارضة المترجَم ٱبن عبد العزيز (-1202هـ) جدّدت صلة التُّونسيّين بموشّح ٱبن سهل، فعارضه أحمد الكيلاني[1] (-1272هـ) لمّا شفي حمُّودة باشا في سنة 1215هـ، وطالعه:

قد زها الوَقْت ورَاقَ عنْدَمَا شُفيَ المولى زكيُّ النَّفْس
والأقاح قد غدا مبتسما ولَهُ تَرْنُو لحاظ النَّرْجَس

والشَّيخ الطّاهر بن عاشور الجدُّ[2] (-1284هـ) وطالعه:

يا نَسيمًا هَبَّ من نَحْو الحمَى وبَريقًا لاَح لي كالقَبَس
حَدِّثَنْ عن أهل ودي عَلَما يُطْفِيءُ الذِّكْرَ لَهيبَ النَّفْس

والشَّيخ محمود قبادو (-1288هـ) وطالعه:

صَاح هَا شَمْلَ السُّرُور انْتظَمَا وانْتَهزْنَا فُرْصَةَ المُخْتَلس
وتَنَاوَلْنَا مَصَابيح السَّمَا فَأَدَرْنَاهَا مكَانَ الأَكْؤُس[3]

والوزير أحمد بن أبي الضّياف (-1291هـ) وطالعه:

---

1 أبو العبّاس أحمد بن محمّد الكيلاني لازم التّدريس بالجامع الأعظم وٱنتصب للتوفيق وكان عالما أديبا له ديوان شعر. ترجم له في الإتحاف 99/8.

2 أبو عبد الله محمّد الطاهر بن محمّد الشّاذلي بن عبد القادر بن عاشور الجدُّ مع علمه الجمّ كان شاعرا تولّى قضاء الحاضرة ثمّ الفتيا. له "حاشية على شرح القطر" و"شرح على البردة".(شجرة النّور 392/1)

3 وذُكر هذا الموشّح في ديوانه 137/2.

تُونُس الأنـــس لهـــا شَـــوقي نَمَـــــا نُزْهَــــةُ الــــنَّفْسِ وَرُوح الــــنَّفْس
أَهْلُهَا أَضْـــحَوا نُجُومًـــا فِـــي سَـــمَا سَـــطَعَتْ مِـــنْهُم بعقـــد أَنْـــفَس

كما عارض الموشَّحة السَّهليَّة غيرهم.

وموشَّحة ٱبن عبد العزيز هي من عيون شعره، وقد أولع بها الأدباء مـــن التونسيِّين كما أولعوا بموشَّحة ٱبن سهل، فكانت موشَّحة ٱبن عبد العزيـــز زينة الكنَّاشات التُّونسيَّة كما كانت زينة الإنشادات في المجتمعات، وقد نوَّه بشأنها كثيرا شيخ الأدباء العربي الكبادي[1](–1380هـــ/1961م). كما جاء في تقويم تونس سنة 1946هـــ ص 349:

"وله الموشَّحة التي سارت بها الرُّكبان، وجمعت أشتات الإحسان، يقول في طالعها" وذكر منها نتفة.

ولقيمة هذه الموشَّحة نأتي بتغزُّلها وتخلُّصها، وٱستهلها في ديوانه بقوله:

"وقلت أمدح شيخنا أبا عبد الله محمَّد الغرياني بموشحة في عراض ٱبـــن سهل":

إنَّ ظَبْيًا حول كُثْبَـــان الحمَـــــــــى بَاتَ يَرْعَـــى زَهَـــرات الأَنْفُـــــــس
هُو مُذْ لاَح سَـــناهُ أَضْـــرَمَـــــا بِفُـــؤَادي جَـــذْوَة المقتبــــــــــس

**** ****

وَيْحَ قَلْبِي كَمْ تَـــصَدَّى لِلْمحَـــــــنْ سَالكا نَهْجَ الـــرَّدَى فـــيمَنْ سَلَـــــكْ
وَلَقَدْ حَذَّرتُه مـــن قَبْـــــــــل أَنْ يَتَرَدَّى هَالكًـــا فـــيمن هَـــــــلَكْ
كَيْفَ يَنْجُو مَنْ رَأَى الظَّبْـــيَ الأَغَـــنْ يطبق الجفَن علَـــى ســـحْرِ المَـــلك

**** ****

سَافِرًا عَنْ وَجْنَـــة ذَات لَمَــــــــــى بِظُبَـــا أَلْحَاظِـــه مُحْتَـــــــــــرِسِ
تَحْسِب الخيلان فيهَـــا أَنْجُمًـــــــا كَسَفَتْ فَـــوْقَ نَهَـــار مُـــشْمِـــسِ

*** ****

1 يعدُّ الشَّيخ الكبادي شيخ الأدباء لما قام به من تثقيف الناشئة في فترات عديدة تثقيفا أدبيًّا تخرَّج منه الكثير وكان يلقي شبه محاضرات من حافظته الثريَّة.

يَا خَلِيلَيَّ انظرا هَـــلْ تُبْـصــــــرانْ   غَير صَبٍّ شـــاقه ذِكْـــرُ الحَبيـــبْ
فَــإذا مَـــا جئْتُـــه لا تَعْــــذلانْ   من غرامــــي لــيس بــالأَمْرِ الغَريــبْ
فَدَعِ السلوان يمَـضي في أَمَـــانْ   والهَوَى يَــأْوِي إلى مَــأْوى رَحِيــبْ

****   ****

وأديرًا لي بنفــسي أنتمـــــــــا   أكؤسا فيهــا حيــاةُ الأنفــــسِ
واسقيا سقيًا ورعيًــا لكمــــــا   غلل الــشَّوق بتلــك الأكـــوس

****   ****

هل يعيد الــدَّهر أوقــاتَ الــصِّبــا   وتعاطينا بها صــرفَ الــشُّمــول
حيث نفح الرَّوض أذكتــه الــصَّبــا   وأتت تَهديــه في ذيــل بليــــل
وحمام الــدُّوح غنَّــت والرُّبـــى   سكبت فــيهنَّ صــهباءَ الأصيـــل

****   ****

والنَّدى السَّاقط من جــوِّ الــسَّمــا   صار دمعًــا في عيــون النَّرجـــس
وهو في وسط أقــاح نجمـــــا   شنب جــال بثغــر أَلــــــعَس

****   ****

ضرب اللَّيل خباء مــن قمــــر   ضوؤه للأرض ألقَــى أطنبــــه
كيف حال الــصَّب فيــه بالــسَّهــر   وهو لو رام سرى مــا ضــرَّ بــه
بات مقتولا بسيف مــن حـــوَر   فالدُّجى تبكــي عليــه أغربَـــه

****   ****

والدَّراري قــد أقامــت مأتَمًــــا   لبست فيــه حــدادَ الخُنــــسِ
والسُّها من بينــها رقَّ لَّمــــا   ذقته فهو بــسقمٍ مكتـــســي

****   ****

من له في كــلِّ قلــب مــسكـــن   تحــسدُ الأبــصارُ فيــه الأفئــدَه
جرَّدت مــن ناظريــهً الفتَـــن   ماضيَ الحــدِّ كليــل الأغمــده
هو شمسٌ في الــضُّحى بــل أحــسن   كحل اللَّحــظ عليــه أيَّـــده

****   ****

بعته قلبا بــه قــد خيَّمــــا   وله فيــه خيــارُ المجــلــس

هَبْهُ أضحى مـن سـلوٍّ معدَمـا   ربَّما قد صحَّ بيـعُ المفلـس
**** ****

صاح قد حلّت مـن الـصَّبر العـرى   عند من سـحر ألحـاظ الأنـام
إن يكن منـها مـضلٌّ للـورى   فلهم هاد مـن الـشَّيخ الإمـام
قد سما في مجـده شُـمَّ الـذّرى   فله فـوقَ الـسِّماكين مقـام

وهذه الموشَّحة رغم أنَّها من عيون شعره لم تسلم من النَّقد وبـالأخصِّ في قوله: (فإذا ما جئته لا تعذلان)، حيث أثبت النُّون في الفعل المجزوم بـلا النَّاهية، وكذلك ٱنتقاله من الإفراد إلى التثنية حيث قال: إذا مـا جئتـه، ثمَّ قال: لا تعذلان، فالشَّرط بالإفراد وجوابه بالتَّثنية، وفيها غير ذلـك ممَّـا لا نطيل به.

تولع المترجَم بموشَّحة ٱبن سهل، فكما عارضـها بالموشَّـحة الـسَّابقة عارضها بأخرى، وإنَّما هي معارضة من حيث الوزن لأنَّهما من بحر الرَّمل الذي عروضه وضربه محذوفان بخلاف الأولى فإنَّها قد ماشت موشَّحة ٱبـن سهل مماشاة تامَّة كما سبق، ويبدو أنَّ ٱختلاف معارضتيه يرجع إلى كونـه يرى أنَّ معارضتين من نوع واحد في كلِّ ناحية يسمُج ويثقُل فلذلك نوَّع، وكذلك من أسباب هذا التَّنويع في المعارضة أنَّه أنشد الأولى وهو في سـنِّ الطَّلب والمحاكاة مالكة عليه ذوقه، فقصارى الإجادة عنده آن ذاك أن يحاكي ويجيد المحاكاة، ثمَّ لمَّا ٱشتدَّ ساعده الأدبي وسار في الشِّعر شـوطا أنـف أن تكون معارضته عبارة عن محاكاة تامَّة فتحرَّر بعض التحرُّر للتقدُّم في المعرفة ولرهافة الذَّوق الأدبي بسبب أنَّ الممارسة الأدبيَّة قد وجدت مساغا، بخلافه في أيَّام الطَّلب إذ قد قصر به أمران، أحدهما حداثة السنِّ حيث لم يتضلَّع من الأدب مثل تضلُّعه لَمَّا ٱكتملت سنُّه، وثانيهما عدم التفرُّغ فإنَّه عند الطَّلـب كانت ممارسة الكتب المدروسة المتنوِّعة بين نحويَّة وفقهيَّة وغير ذلك تضايق ذوقه الأدبي فضعف إنتاجه فكان دون ما حبَّره بعد ذلك، فلهذا كـان في موشَّحته التي سنأتي بها مطلق العنان، وقلمه غير مقيَّد ذلك التقيُّـد الـذي

ٱلتزمه أوَّلا، فكان فيها شاعرا حسب سجيَّته غير مقيَّد بقيود التكلُّف الـتي تأبى على صاحبها إلاَّ أن يكون أسيرها، والشِّعر وإن كان مصدره شـاعرا واحدا فإنَّه يختلف باختلاف الأحوال.

ثمَّ إنَّ موضوع هذه الموشَّحة لم يدع إليه داع غير التغزُّل، بخلاف الأولى فإنَّها وإن تغزَّل في أكثرها على عادة الشُّعراء في المدح من تقديم النَّسيب والتغزُّل ٱستجلابا لفكر الممدوح وللتأثير عليه كان التغزُّل فيها وسيلة لا مقصدا بخلاف هذه الموشَّحة. والتغزُّل في طالعة المدح وإن كان في مـدح الأمراء على ما هو متعارف لأنَّهم هم الذين لا يهتزُّون للشِّعر إلاَّ إذا كـان فيه ما يحرِّك الشُّعور النَّفسيَّ صار سنَّة في كلِّ مدح حتَّى في مدح الشُّيوخ المعتبرين بمنزلة الآباء في الاحترام، ومع ذلك يتغزَّل في أمداحهم كما يتغزَّل في أمداح الأمراء طرقا لهذه التقدمة التغزليَّة على وتيرة واحدة، فكان المدح لا يتمُّ إلاَّ إذا ٱستُهلَّ بالتغزُّل.

وهذه الموشَّحة ٱشتهرت كالموشَّحة السَّابقة وسارت أكثر مـن بقيَّـة شعره، فكما أُثبتت في دواوينه كذلك جاءت في مجموعات شـعريَّة تعـنى بالشِّعر التُّونسي وهي:

[الرمل]

زمن الوصـل مـضى وٱنـصرما صاحبي قم نبكـه مـلءَ العيـون
مـا تـرى الـوُرْقَ أقامـت مأتـا بعـده والمُـزن ذا دَمْـع هَتُـون

**** ****

مـا رأَتْ عَيْنَـاي مَـرْأى بَهجَـا بَعْـده إلا معـاناةَ الأَرَقْ
أبـصر النَّـوْمُ دمـوعي لُجَجـا فأبى الخوض بِها خـوف الغـرق
لا ولا ٱستنـشقت نَفْحًـا أَرِجـا بَعـد دهـر مـر بـالأُنس شـرق

**** ****

وعَـشيَّات تَقَـضَّتْ بـالحمَى كُلُّ شـيء بعـدها عنـدي يهـون
إذ يقـولَ الـسعد للـدَّهر فَمَـا يَتَعَاصَـى كُـن غُلامـا فيكـون

****　　　　****

وبأَكْنَـــاف الحمـــى ظـــبي إذا　　رُمْت وصلا كان كاللَّيْـــث وأفتـك
وجـــد الحُـــسْن ولكـــن مثـــل ذا　　مـــا رأت عينـــاك فاعـــشق وتَهتـكْ
لامـــني فيـــه عـــذولي وهـــذي　　فبـــدا وٱســـتغفر الله وٱمْـــسكْ

****　　　　****

عـــاطر الأنفـــاس معـــسول اللَّمـــى　　أهيف الأعطـــاف سـحار الجفـــون
إن تثَّـــى أو بـــدا مبتـــسما　　فـــضح البـــدر وأزرى بالغُـــصون

****　　　　****

يـــا لقـــومي للاغـــن الأنفـــس　　عنـــدما صـــاد فـــؤادي نفـــرا
ذا جفـــون فـــاترات نُعَّـــس　　منعت عـــينيَّ مـــن طيـــف الكـــرى
وٱرتـــشافي عـــسلا مـــن لَعَـــس　　فيـــه خمـــر مـــن رآهـــا ســـكرا

****　　　　****

رشـــقت في كـــل قلـــب أسْـــهُما　　وسقت كـــلَّ شَـــج كَـــأْسَ المَنُـــونْ
مُلِئَـــتْ سِـــحرا فظلـــت كلَّمَـــا　　أَوْمَأت دارت رحى الحـــربِ الزَّبـــونْ

****　　　　****

أنـــا أهْـــواه غَريـــرا أَوْ طَفَـــا　　ذهبـــت نفـــسي عليـــه حـــسراتْ
ليتـــه لـــو كـــان بالوصـــل طفـــا　　حُرُقًـــا تُـــذْكِي بِلفـــح الزَّفَـــرَاتْ
ظـــل في الحـــسن مليكـــا مـــصطفى　　يـــأمر النـــاس ببـــذل المُهُجَـــات

جانس جناسا غير تامٍّ بين قوله (أو طفا) وبين قوله (طفا) والأوطف هو كثير شعر الحاجبين والعينين ومؤنثه وطفاء، وطفا فعل ماض مسهل طفـأ المهموز، وقد ألجاه هذا الجناس إلى أن يُعدِّي الفعل القاصر لأنَّ طفا السِّراج ذهب نورِه، وإذا أريد تعديته عدِّي بالهمز فيقال أطفا السِّراج.

لا يرى الحَزْم ســوى سَـفْك الـدما　　لا ولا العَـــزم ســـوى لِيّ الـــديونْ
صَـــار جِـــسمي فيـــه لَمَّـــا سَـــقُما　　لائحـــا بَـــيْنَ ظُهُـــورٍ وكُمُـــونْ

****　　　　****

يَا لَـــه مِـــن شَـــادنٍ كـــم أَوْدَعَـــا　　فِـــي فُـــؤادي مِـــنْ زَفِـــيرٍ ولَهيـــبْ

في سمـــاء الحـــسن بـــدرًا طلعـــا   مَا لَـهُ في غـير قَلـبي مـنْ مغيـب
غُـصْنَ بَـانٍ خَـضِلٍ قـد أيْنَعـا   يَنْثَنِـي مَـا بَـيْنَ بَـدْرٍ وكَثِيـبْ

**** ****

لـبس الحـسن طـرازا معلمـا   وتحلـى دُرَرَ الثَّغْـر المَـصُون
فتـرى كـلَّ خَلـي مُغـرما   بَلَـغ الوَجْـدُ بـه حَـد الجُنـونْ

قبل أن نوازن بين موشَّحتيه هذه والسَّابقة نقدِّم ما قاله ٱبن حزمون الأندلسي لمَّا دخل عليه يحيى الخزرجي وأنشده موشَّحة لنفسه فقال له ٱبن حزمون "ما الموشَّح بموشَّح حتَّى يكون عاريا من التكلُّف"[1].

وإذا أخذنا بهذه القاعدة نحكم لموشَّحته هذه على السَّابقة لأنَّها عرِّيت من التكلُّف، فسجيَّته منطلقة حسبما تجود به القريحة دون أن تكون ملزَمة بذلك الاقتفاء الضيِّق كما في الأولى، فعلاوة عن ٱلتزام القافية في الأقفال صدرا وعجزا هناك محاكاة في المعاني فيها وليس ذلك مقصورا على الموشَّحة المعارضة بل حتَّى معارضة ٱبن الخطيب كما تقدَّم، ومن هذا التورية ببعض العلوم كما في قوله:

بعتـه قلبـا بـه قـد خيَّمـا   ولـه فيـه خيـار المَجلـس
هبـه أضـحى مـن سـلوٍّ معـدما   ربمـا قـد صـح بيـع المُفْلِـس

ففي هذه القفلة قد أشار إلى خيار المجلس وإلى بيع المفلس ممَّا هو مبسوط في الكتب الفقهيَّة، وهو في ذلك يقتفي ما أنشده ٱبن الخطيب:

وروى النُّعمـان عـن مـاء السَّما   كيف يـروي مالـك عـن أنـس
فكـساه الحـسن ثوبـا معلمـا   يزدهـي منـه بـأبهى ملـبس

ففي هذه القفلة تورية حديثية ووقفة عندها، وما أنشده ٱبن عبد العزيز تظهر خفَّة الأولى، بينما الثَّانية تثقل وبالأخصِّ قوله (ربَّما قد صحَّ بيع المفلس)، ولا شكَّ أنَّ الموازن بينهما إذا تعمَّق يحكم لهذه الموشَّحة دون سالفتها.

1 نفح الطِّيب 223/9 نقلا عن ٱبن خلدون.

كما رقَّت موشَّحاته كذلك رقَّ شعره في غير الموشَّح، ويكاد في رقَّته في بعض أشعاره، وخفَّة ألفاظه أحيانا أن يصل إلى طبقة المجيدين المبرِّزين مثـل آبن سهل الذي أغرم به وأضرابه الذين يسيل شعرهم لطافة ويـرقُّ ظرافـة وطرافة.

وهو بعكس ذلك في نثره كما سنوضِّحه، فالشِّعر من سجيَّته، فإذا مـا قاله لم يكن فيه موجَّها بعامل خارجيٍّ.

ويزداد لطافة ورقَّة حين يصف الحدائق الغنَّاء أو يهـيم في الأوصـاف الجمالية، فالطبيعة الخلاَّبة تتمازج مع شعره، فحين يجود بالشِّعر يجـود بـه سَلْسَلاً خفيفا مقبولا، وحين يهيم في الجمال تثور فيه الشَّاعريَّة المنبعثة مـن أعماق نفسه.

وكما هام بالطَّبيعة الخضراء هام بالطَّبيعة الزَّرقاء وهي البحـر، فيـذكِّر بعشايا البحر في القصيدة التي نأتي بها لاحقا، وهذه العشايا البحريَّة تُهـيِّج حقًّا ذكريات عذبة لأنَّها ممَّا أولع به التونسيُّون في أيَّام الصَّيف لتحلُّلهم في تلك الأيَّام من الكلفة ولخروجهم من ربقة العمل: حتَّى سمُّوا تلك الأيَّـام (بالخلاعة)، لأنَّهم ينخلعون ممَّا ألفوه في سائر أيَّام العام سواء في ذلك اللِّباس أو نظام الحياة، فالمنكمشون على أنفسهم فضلا عن غيرهم إذا جاء الصَّيف سمحوا لأنفسهم بالخلاعة بمعناها الواسع وآستنشقوا زهرة الحياة وطرحـوا لباس الكُلفة، وحتَّى إذا جرت بينهم مهاترات غضُّوا الطَّرف عنها بـصدر رحب، والمترجَم من دعاة هذه الانطلاقة في الطَّبيعة الخضراء، فله قـصيدة دعا فيها الجاهلين زهرة الحياة أن ينظروها في إيناعها، ويبالغ في دعوته حتَّى أنَّه لا يعبأ بتحمُّل الإثم -غفر الله له- وهذا لا نظنُّه إلاّ من مبالغاتـه، ولا غرابة أن يكون ذلك عين الحقيقة لأنَّ تلك الأيَّام يقطع فيها المـرء صـلاته بكلِّ شيء، ويطلق العنان للنَّفس فتجمح، وتسترسل مع الصَّبوة فلا تكـون هناك حدود، ويؤكِّد هذا أنَّه في تلك الأيَّام قد أقبلت عليه الدُّنيا وأصبحت

حياة الانطلاقة في الخلاعة طوع يمينه، فالأسباب متوفِّرة والصَّبوة جامحة وهو في مأمن من عيون النَّقدة الحسدة المكدِّرين رونق العيش :

[الكامل]

وحديقة إن كنت تجهل زهـــرة الــــ دنيـــا الأنيقــــة فاتَّخــــذها مــــترلا
ضَـــــربت سمــــاء فوقنــــا أدواحهــــا بــــالزَّهر مطلعــــة نجومــــا شــــعلا
والورد والنِّــــسرين فيهــــا وجنَّـــــــة أهدى لهــــا الثغــــر الــــشنيب مقــــبَّلا
والمـــــاء مطــــــرد بهــــا فكأنَّهــــا أهدى السحاب لهــــا المجــــرة جــــدولا
هات الطِّلا وعلــــيَّ وحــــدي إثمهــــا إن كنت تخشى أن تمــــوت فتــــسألا

والسَّلاسة التي تجدها في هذه الأبيات تتكدَّر إذا تغزَّل، وتدرك أنَّــــه في غرامه بالطَّبيعة لم يتكلَّف، أمَّا التغزُّل فالكلفة بادية عليه والتَّعقيد اللَّفظــــي يتعثَّر فيه بعض أبياته:

راح إذا نزلــــت بــــصدر مكــــرب فــــالرَّأي عنــــد الهــــمِّ أن يتــــرحَّلا
من كفِّ معسول الرِّضــــاب تكــــاد إن أهــــدى لهــــا مــــن ريقــــه أن تقــــتلا
متــــأوّد الأعطــــاف يثنيــــه الــــصبِّا لــــيلا فيــــأبى الغــــصن أن يتمــــيَّلا
والخــــدّ منــــه وردة قــــد فُتِّحــــت في الماء ليس تخــــاف مــــن أن تــــذبلا
والثّغــــر والــــشَّنب المعــــسَّل حامــــل فيــــه أقاحــــا بــــات تنهلــــه الطِّــــلا
وبوجهــــه معــــنى الجمــــال مُبَــــيِّن قد طــــابق التفــــصيل منــــه المجمــــلا
يرمــــي فتــــزدحم القلــــوب بلحظــــه كــــل يــــودّ بــــأن يمــــوت الأوَّلا

وإن ٱلتمسنا العذر للمترجَم في بيته الخليع حين يقول (هــــات الطِّــــلا، البيت)، نحمله على المعنى الأصلي للطّلا وهو ما طبخ من ماء العنب حتَّــــى ذهب ثلثاه وهو غير مسكر، وذكر الجبرتي من علماء الحنفيَّة في "الأقــــوال المعربة"[1] أنَّ حكمه الحليَّة فٱعتمادا على هذا طلبها، وٱستنادا عليــــه رغــــب فيها، فلهذا تجاسر على تحمُّل الإثم إذ هو مفقود، والجواب بهذا من بــــاب

1 الأقوال المعربة، ص59.

ٱلتمس لأخيك عذرا وإن كان واهيا، ويخفُّ الحكم القاسي الذي تقدَّم عند حديثنا عن شعره المجوني، إن ٱعتمدناه.

ولكن يعكّر العجز في البيت المذكور هذا الجواب لإغراقه في التحلُّل ودلالته على ضعف العقيدة، ولهذا لم تدرج هذه القصيدة في كلِّ نسخ ديوانه، إذ هي محذوفة من ٱثنتين منها حسبما وقفت عليه، وشعره الذي نجد في بعضه الإجادة والرقَّة نجد في بعض آخر منه غير ذلك، إذ يتدلَّى تدلِّيا يوجب نقده، فجواده كاب، وصارمه ناب فتغلب الرَّطانة، ويظهر هذا في تغزُّله في طوالع قصائده المدحيَّة كما جاء في إحداها التي مدح بها شيخه محمَّد بيرم (-1214هـ) وكان مدحه له سنة 1167هـ وطالعها:[1]

[الكامل]

زمنَ الوصال وعهد أيام الصّبا   يسقيك عهد الغيث ساقته الصّبا
من لي بها أيّام لهو قَد مضت   ما شمتُ فيها بَرْقَ وَصْلٍ خُلَّبا

بعد أن تستمع إليه في هذا الطَّالع ورديفه يرقُّ ويعذب يكبو في شعره:

[الكامل]

أَيَّام ما ظل المنام محرما   عني ولا أمسى الحبيب محجّبا
في حيث زهر الرّوض بلّله النَّدى   فالشَّمس تلمس منه ثغرا أشنبا
في حيث وجه الأرض طلق باسم   تخذت به غزلان وجرة ملعبا

كدر هذه الأبيات ما جاء في صدر البيت الثَّاني والثَّالث من قوله (في حيث زهر الرَّوض)، و(في حيث وجه الأرض)، فما أثقله على السَّمع وأسمجه في الطَّبع وأوقعه في ذلك أنَّ القصيدة بناها على المدح وأراد أن يتوِّجها بتذكُّر أيَّام الصِّبا، وأحبَّ أن يجاري الشُّعراء المتحسِّرين على الأيَّام الخوالي وهو خلو من كلِّ ذلك، فكلَّف القريحة ضدَّ طبعها ومكلِّفها ذلك لا بدَّ أن يحيد عن الإجادة.

ومن هلهل شعره قوله:

1 ديوان ٱبن عبد العزيز، مخطوط، و148 و.

[المتقارب]

كلامــك عنــدي يــا ذا الــذي فــصيح الكــلام غــدا ديدنــه

وأشدُّ منه قوله:

معــان أتيــت بهــا لا تطــاق ومــا كنــت أحــسبها ممكنــه

حيث اقترب من الاستعمال الدَّارج في قوله (لا تطاق)، ومع ذلــك لم يوفَّق لأنَّ الاستعمال العاميَّ إنَّما هو في الذمِّ لا في المدح، إذ قــولهم (مــا يطاقش)، يقصدون به الشَّخص الذي لا يحتمل، وكان ثقيل الظلِّ، وعلــى كلٍّ له مخرج في أنَّ المراد منه أنَّ المعاني التي أتى بها هذا المخاطب لا قــدرة عليها.

ومؤاخذته على هلهل شعره شأنه فيها كشأن غيره، إذ الإجادة لا يوفَّق إليها الشَّاعر في كلِّ الأحايين، بل تتعاصى الإجادة في بعض الأحايين علــى الفحول من الشُّعراء فضلا عن غيرهم.

وإنَّك إذ تظفر في شعره بمثل القصيدة التي قالها متغزِّلا وأنشدها في أيَّــام الغربة والابتعاد عن الصُّحبة تغتفر له ما لم يوفَّق فيه من شعره ومن عيونها:

[الخفيف]

يا سقيم الجفون يا أهيــف الأعــــ طاف يا ســالبا عقــول الرِّجــال

باللّحاظ التي تركت بهــا العــشّــ ــاق قتلــى هــوى وصــرعى دلالِ

والقوام الــذي إذا اهتــزَّ يهــزُو[1] بغُصون النّقــا وسمــر العوالــي

لا تعذب فــؤاد حبّــك بالهجْــرَ ان يكفيه مــا بــه مــن خبــال

وتذكَّر عهود وصــل تقَــضــت جاد فيهــا الزَّمــان بالآمــال

حيث كنــا في روضــة ذات حــسن وبهــاء وبهجــة وجمــالِ

وعشايا بشاطئ البحــر راقــت إذ تَخذْنا ملاعبــا في الرِّمــالَ

يا رعى الله حُسْنَها مــن معــان آنــسَات ووارفــاتِ الظّــلال

وأعاد الإلــه فيهــا خلاعــاً تي وأوقاتَ صبوتي مَــع غــزال

---

1 هزا يهزوا أي سار

ينحصر شعره في الأغراض التي نظمَ فيها غيره في تلك العصور، بل لم يتناول إلاَّ البعض منها دُون جَميعها، فله في تلك الأغراض المعروفة تِسع وستُّون ما بين قصيدة وقطعة ونُتفة، وهي مجموع ما في نسختَي ديوانه، إذ أنَّ شعره تتوزَّعه نسختان إحداهما بها أربع وستُّون، والأخرى سبع وعشرون، وهذه الأخيرة رغم قلَّة ما فيها تمتاز عن التي قبلها بأربع قصائد وموشحة بينما الأولى تمتاز عنها بٱثنتين وأربعين ما بين قصائد وقطع ونُتف.

وبحسب ظنِّي أنَّ النُّسخة التي وقعت في أيدي النَّاس كثيرا هي النُّسخة الصَّغيرة المشتملة على سبع وعشرين بسبب أنَّ المختارات من شعره لا تخرج عنها.

وأكثر ما تناول شعره الغزل والمجون، أمَّا المديح فلم يكن له فيه إلاَّ ثمان عشرة قصيدة وأكثرها في مدح شيوخه، أمَّا مدح غيرهم من الملوك فله في نسختي ديوانه خمس قصائد في مدح الأمير علي بن الحسين وٱبنه حمُّودة وفي أخ الأمير علي وهو محمَّد الرَّشيد، وله قصيدة في مدح سلطان المغرب محمَّد بن عبد الله بن إسماعيل، وكان مدحه لشيوخه حين ختمهم لبعض الكتب المدروسة جريا على العادة المتعارفة من إنشاء الشِّعر يوم ختم الكتب المذكورة.

وبإحصاء أغراض شعره يكون الغزل والمجون قد نالا النِّصف في شعره بحسب القصائد والقطع والنُّتف، وبهذا يتبيَّن أنَّ شعره لم يتقيَّد فيه، بل كان يقوله حسبما تدعو إليه ظروفه الخاصَّة التي عاشها وحملت قريحته على قول الشِّعر، فهو في شعره غيره في نثره.

وهناك ناحية يكاد يكون مهملا لها بل هو مهمل لها عند التَّحقيق وهي الرِّثاء، فله فيه أقلُّ من القليل، فهو لا يريد أن يلزم قريحته ما ٱلتزمه الشُّعراء المعاصرون له وقبل ذلك من التَّاريخ الأبجدي، إذ أنَّ الرِّثاء ٱلتزم فيه ذلك، وهو يتطلَّب براعة خاصَّة، والتَّواريخ الشعريَّة تكدح الذِّهن لاستخراجها،

والمترجَم يريد أن تكون شاعريَّته طليقة مرتاحة. وكما هو معروف أنَّ المبرِّز في هذه النَّاحية الشَّاعر التُّونسي الشَّهير محمود قبادو.

ولم أكن مدَّعيا على المترجَم ما ليس فيه من أنَّه ترك الرِّثاء لعدم إجادته فيه، إذ أنَّه حين رثى وأرَّخ نزل شعره وهلهل، فقد أثبت في ديوانه المتَّسع أنَّه طُلِب منه رثاء إمرأة فقال في رثائها:

[الكامل]

قبر عليه الأمنُ والبركاتُ ... للمسك في أرجائه نفحات

حلَّته خير عقيلة كانت لها ... نعم غدت تحيا بها الأموات

قد عيش في أكنافها زمنا فإن ... ماتت فقد ذهب الكرام وماتوا

ويؤرِّخها بقوله:

ولئن غدت أبياتها صفرا ففي الـ ... ـفردوس قد بنيت لها أبيات

فلذلك قد أنشدت في تاريخها ... (دار بجنَّات لها جنات)

ومن ضيق عطنه في التَّاريخ أنَّه ٱحتاج إلى تكرار جنَّات، وربَّما تخفُّ الوطأة إن كان ٱسم المرأة المتوفَّاة جنَّات، ثمَّ إنَّ الإدخال على بيت التَّاريخ ٱستعمل فيه الجمع القليل للبيت السَّكني، مع أنَّ الكثير في ٱستعماله أن يكون جمعا للبيت الشِّعريِّ لا السَّكني وإن كانت اللُّغة لا تفرقة فيها.

ولأجل نفور شاعريَّته حين يؤرِّخ أهمل التَّاريخ حتَّى لا يقصر باعه، وتتبلَّد أوضاعه، وكما أهمله في الرِّثاء أهمله في غيره إلاَّ ما جاء نادرا عنه.

ومن لباقته أنَّه حين قدَّم لهذه القطعة التي رثى بها المرأة قدَّمها بهذه التَّقدمة:

"وقلت ما يكتب على قبر إمرأة مضمِّنا للتَّاريخ ٱرتجالا أو شبهه"، فالظَّاهر أنَّه لم يرتجلها، ولهذا قال أو شبهه وإنَّما لمَّا رآها دون شعره أسند الارتجال أو شبهه.

فشاعرنا أراد الإنطلاق الشعريَّ حيث لم يتأتَّ له ذلك في النَّثر لكونه يشتغل به، فالشِّعر أراد أن يجعله خاصًّا به دون أن يكون معرضا عنه إلى

غيره كما هو الشَّأن عند معاصريه، وإن كان ذلك ميدانا من الميادين المعدودة للإجادة الشعريَّة، فلهذا سجَّل في شعره الكثير من تغزُّلاته ومجونه فجاءت له مستملحات ذات طابع تونسيٍّ خاصٍّ علاوة عن إخوانيَّاته، فمن مستملحاته ما أنشده في مغفَّل ٱنتحل الشِّعر والغناء، فكان يأتي بالشِّعر الخالي من الإعراب ومن الوزن ويضيف إلى ذلك أن يغنِّي به، وتفكُّها ببساطته وغفلته مدحه المترجَم ونوَّه به، فظنَّ ذلك من باب الحقيقة، والمقصود التفكُّه بما يأتي به، فلمَّا ٱنطلى عليه المدح عانق المترجَم فأنشد نتفة في هذا المغفَّل الذي يدعى بعمِّي:

[الكامل]

لله ما أحلى على تصحيفها　　أبيات شعر قد أتت من (عمّي)
فغدا يطيل لنا الغناء بلحنه　　فمدحته مدحا خَلا من ذمّي
فحنا عليَّ محبَّة وتعطُّفا　　فعلمت حقًّا أنَّ عمِّي (أُمِّي)

وقد ورَّى بقوله (أمِّي) فأشار به إلى أنَّ تعطُّفه عليه جعله يعتبره أمًّا، وفي ذلك إشارة إلى أنَّه أمِّيٌّ أي خلو من التَّثقيف والمعرفة.

وفي غزليَّاته فيمن ٱلتحي فغطَّى الشَّعر وجنتيه، ومع ذلك لم يذهب حسنه من التَّضمين.

[الوافر]

لقد زعموا بأنَّ الشَّعر غطَّى　　محاسنه فصارت في خفاء
لقد وهموا وضَلُّوا قد تجلَّت　　محاسن وجنتيه بلا غطاء
فقالوا هل توافق قلت كلاَّ　　فصبح الخدِّ بادٍ في الجلاء
(وهبني قلت هذا الصُّبح ليلٌ　　أيعمى العالمون عن الضِّياء)؟

والبيت الأخير المضمَّن من أبيات أبي الطيِّب المتنبِّي في قصيدته التي مدح بها الحسين بن إسحاق التَّنوخي حين نسب قوم هجوه إلى المتنبِّي فتبرَّأ أبو الطيِّب من ذلك بقصيدة مطلعها:

أتنكـــر يـــا ابـــن إســـحاق إخـــائي وتحسب مـــاء غـــيري مـــن إنـــائي[1]

وقد أبدع المترجَم في نقل تبرِّي أبي الطيِّب من الهجو إلى المعـنى الـذي أراده من كون وجه الملتحي صبحا ولو أنَّه ٱلتحى فلا تعمى عنه الأبصار.

وقد أكثر في هذين النَّوعين التَّورية والتَّضمين وتـصرَّف في الأخـير في أغراض متعدِّدة، من ذلك قوله لمَّا صرف شيخه علي الشَّريف عن الإشـهاد فكتب إليه:

أبا حسن ما أنـت أوَّل مفـضـال غدا حظُّه عُطلا وحظُّ العـدى حـالي
رويدا فعن قرب ترى كـلَّ شـامت (عليه القتام سيِّئ الظـنِّ والبـال)
ولا زلت مغبوط الجنـاب معظَّمـا (قليلَ الهمـوم ما تبيـت بأوجـال)
ولا زلت تسمو للمكارم والعلـى ولا سموَّ حَبَاب الماء حالا علـى حـال
غرو أن عطِّلت عـن رتبـة غـدت ينال حماها كلُّ أعزل مـذلال
فأنت كشهر الصَّوم أصـبح عـاطلا وطوق هلال العيد في جيـد شـوَّال

فقد ضمَّن في أبياته الثَّاني والثَّالث والرَّابع أعجازا ثلاثة لامرئ القيس من قصيدته الشَّهيرة بعد معلَّقته:

أَلاَ عِمْ صَبَاحًا أَيُّهــا الطَّلَــلُ البَّــالِي وهل يَعِمَنْ مَنْ كَانَ فِي العُصُرِ الخَــالي[2]

وقد أحسن المترجَم في تضمينه للبيت الرَّابع حيث نقله من عهارة ٱمرئ القيس في قوله:

سموت إليها بعـد مـا نـام أهلـها سموّ حُباب الماء حـالا علـى حـال

إلى التحلِّي بالمكارم والمعالي، فقد خرج به من العهر إلى الطُّهر.

وأمَّا البيت الأخير فقد ٱقتبسه من الصَّلاح الصَّفدي حين تـشكَّى مـن حاله لمَّا أصبح خاليا وغيره حاليا، وطرقه المستملحة تدلُّ على أنَّ زاده الأدبيَّ مادَّته وافرة ولا بدَّ من الاكتفاء في النَّظرات لشعره.

1 وجاءت هذه القطعة في ديوان أبي الطيِّب المطبوع بتحقيق عبد الوهاب عزَّام، وهي عشرة أبيات، ص 70.

2 قصيدته هذه في ديوانه ص27 بتحقيق أبي الفضل إبراهيم.

تاريخ وموازنة

كتب في تاريخه ذيلا لاستطراده تاريخ الدَّولة الحفصيَّة تناول فيه الحياة التي أعقبت التَّدهور في تونس آخر أيَّام الدَّولة الحفصيَّة، وما تعثَّرت فيه البلاد إبَّان الحكم التركيِّ رغم أنَّها نجت من الاستعمار الإسباني الذي كاد يفرض عليها خاتمة مثل خاتمة الأندلس، فإنَّها مع نجاتها لم تغنم شيئا من المقوِّمات إذ كانت خلوا من المعارف، والآداب في ركود مع تدهور عمراني، وما كتبه المترجَم هو أروع آثاره النثريَّة، ومن أهمِّ فصوله التَّاريخيَّة.

فذكر في طالعة ذلك التدرُّج العمراني الذي مرَّت به البلاد متخلِّصا إلى عصره الذي يراه عصر الازدهار الذي أينعت فيه البلاد التونسيَّة، واكتست فيه حاضرتُها بلدة تونس حلَّة التقدُّم، وبسط القول حسبما دعاه إليه المدح وما جرَّه إليه من القول وما أيَّد به من الاستشهاد وحبَّر كلَّ ذلك إطنابا في مدح الأمير علي الذي ألَّف هذا التَّاريخ تنويها بدولته.

والأهمُّ من ذلك ما له مساس بالحياة العلميَّة والأدبيَّة ما دوَّنه من استرجاع تونس لحياتها العلميَّة، وهي التي كانت منحصرة في الدائرة الجامعة للعلوم العربيَّة والعلوم الفقهيَّة كما هو متعارف في تلك الفترات المتقدِّمة، وهي وإن كانت ضيِّقة الدَّائرة فهي بالنِّسبة لما كانت عليه البلاد التونسيَّة إثر ذلك التَّدهور المريع ممَّا أدَّى بملوك بني حفص آخر أيَّامهم أن يستدعوا الإسبان نهضة بعد كبوة، فالمعارف قد تقلَّص ظلُّها، وصوَّح نبتها آخر أيَّام بني حفص، فما تجدَّد بعد ذلك يعدّ نُهوضا وإن كان اليوم لا يذكر، فالنَّهضة نسبيَّة فهي إنارة ضئيلة بعد ظلام دامس.

فتدوينه أرَّخ فيه الطَّبقات العلميَّة بصورة موجزة مع مقايسة وموازنة بين طرق التَّدريس في أقطار ثلاثة، وهي تونس والمغرب ومصر بناها على اطِّلاعه على التَّدريس فيها، وهي موازنة خاصَّة اعتمد فيها على إحساس خاصٍّ توصَّل إليه مدفوعا برأيه الذي يتحمَّل وحده آثاره، وإذ ننقل عنه

هذه الموازنة ننقلها مجرَّدة من التَّأييد والنَّقد مرجئين مناقشتها إلى فرصة أخرى.

وله مثل هذا الفصل الذي أرَّخ فيه الحركة العلميَّة فصل آخر ذكر فيه النَّهضة الأدبيَّة، والانتعاش الشِّعري في عصره، وسنتعرض لذلك لاحقا.

وٱخترنا فصليه هذين لما فيهما من ظهور شخصيَّته حيث كان فيهما كاتبا يؤرِّخ النَّهضة التي عاشها وهي نهضة يراها -حسب رأيه- قد ٱنتقلت فيها البلاد من كبوة فكريَّة إلى ٱنتعاش (وكلٌّ فتاة بأبيها معجبة).

ونأتي بما حرَّره فيهما حاذفين ما لا فائدة تاريخيَّة فيه من إغراق في المدح مع إضافات قليلة موضوعة بين قوسين.

وقد كان العلم ٱرتفع منها -أي تونس- كما قدَّمنا حتَّى ورد عليها المولى أحمد أفندي من أرض الرُّوم لأوَّل المائة الحادية عشرة على عهد عثمان داي (-1019هـ) وكان متفنِّنا في العلوم، فأخذ عنه جماعة من أهلها منهم الشَّيخ محمَّد الغمَّاد (نوَّه به في المؤنس[1] أثناء ترجمة ٱبنه، وللتَّمييز بينه وبين ٱبنه وصفه في "ذيل البشائر" بالكبير، والشَّيخ أبو يحي الرصَّاع (-1034هـ) ترجم له في "ذيل البشائر"[2]، وذكر الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف وفاته في السَّنة المذكورة أو بعدها، والشَّيخ محمَّد براو، (ٱقتضب ترجمته في "ذيل بشائر أهل الإيمان"، وقد بسطها الوزير السرَّاج في "الحلل السندسيَّة"[3] ولنا ردٌّ في جعل الشَّيخ براو من حسنات المولى أحمد أفندي المذكور، وتوفِّي الشَّيخ براو كما في "الحلل" سنة 1065هـ) وأبو القاسم البجائي (ترجم له في "ذيل البشائر"[4] ترجمة مقتضبة، ولم يذكر سنة وفاته، ويستفاد أنَّه كان حيًّا سنة 1025هـ كما جاء في شرحه الثَّاني "شواهد شذور الذهب" لابن هشام)

---

1 المؤنس، ص 284.

2 ذيل البشائر، ص 91 - 93.

3 الحلل السندسيَّة 2/ورقة 65.

4 ذيل البشائر ص91.

وغيرهم، وٱرتحل -أي أحمد أفندي- وافدا إلى المغرب على سلطانه مولاي أحمد الذَّهبي (-1012هـ) إلى آخر كلامه.

(وهذا منقول من "ذيل البشائر"[1]، وفي آخر كلامه إساءة إلى أهل المغرب، وصاحب الذَّيل نقله عن شيخه أحمد برناز الحنفي (-1138هـ) عن أحمد أفندي).

ثمَّ تحدَّث المترجَم عن الطَّبقة القريبة من عصره بما نصُّه:

"فألقى العلم عندهم عصا التِّسيار وصاروا رحلة لطلاَّبه ونجعة لُمرتاده، فكان منهم حافظ المغرب أبو عبد الله محمَّد زيتونة (-1138هـ) وله ترجمة حافلة في "ذيل البشائر"[2] و"مفاتح النَّصر" للعياضي، وعالم إفريقيَّة على الإطلاق أبو عبد الله محمَّد الخضراوي (-1144هـ)[3] وخلق كثير.

واتَّفق خروج جماعة من أئمَّة الهدى وأعلام الدُّنيا في نواحي عمله -أي الأمير حسين بن علي- كالإمام أبي الحسن علي النُّوري[4] (-1117هـ) الذي طبَّقت تصانيفه المفيدة الآفاق وأبي فارس عبد العزيز الفراتي رديفه في ذلك وكلاهما بصفاقس (توفِّي عبد العزيز الفراتي سنة 1131هـ، وترجم له في "نزهة الأنظار"[5]) وأبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله الجمني الذي أطبق الكافَّة على ولايته وعلمه بجزيرة جربة، (توفِّي الجمني 1134هـ)[6]".

ثمَّ ٱنتقل إلى طبقة بعدهم في أيَّام علي باشا:

" لم يقصروا عن شأوهم ولم يقفوا دون مداهم كقاضي الجماعة أبي محمَّد حمُّودة الرِّيكلي (-1161هـ) الذي بعُد العهد بمثله علما وديانة وعدالة

---

1 المصدر السَّابق ص73- 74.

2 المصدر السَّابق ص132 - 139.

3 ٱنظر البشائر ص 143 -145، ومفاتح النَّصر للعياضي.

4 ترجمة الشَّيخ النُّوري شهيرة منها في "نزهة الأنظار" 163/2 -167.

5 نزهة الأنظار 172/2-175.

6 المصدر السَّابق 204/2-208.

(انظر ترجمته في مسامرات الظَّريف)،[1] والمفتي أبي عبد الله محمَّد سعادة شيخ السِّيرة والتَّاريخ والأدب (-1171هــ) (له ترجمة حافلــة في "مــسامرات الظَّريف"[2] في خمس صفحات وكذلك "مفاتح النَّــصر")، والمحقِّــق شــيخ الجماعة أبي الحسن علي سويسي (-1146هــ) ("ذيل البشائر"[3] ومسامرات الظَّريف[4] وأثناء ترجمة ابنه) ، ووالدنا أبي عبد الله محمَّد بن عبــد العزيــز (-1162هــ) ("مفاتح النَّصر" و"شجرة النُّور"[5]) الذي لم يكن في عــصره من يحسن "المختصر الخليلي" وشروحه مثله وشيخنا العلاَّمــة المطَّلــع أبي العبَّاس أحمد المكودي (-1171هــ)، له ترجمة مطوَّلة في "مفاتح النَّــصر"[6] للعياضي، و"مسامرات الظَّريف"[7]، الوافد عليها من فاس، وواحد المغــرب علما ودينا وورعا أبي محمَّد عبد الله السُّوسي الوافد عليهــا مــن المغــرب الأقصى (-1179هــ)[8]، وغير هؤلاء من الأعيان والمهرة والعلماء الأجلَّة.

ثمَّ جاءت هذا الدَّولة الميمونة الغرَّاء، فأصبحت الخضراء وقد ضرب العلم فيها بجرابه وآرتحل إليها طالبوه من كلِّ حدب ينسلون وحفلت بهم المجالس، وغصَّت بسكناهم المدارس التي بلغ عددها لهذا العهد ممَّا أبقاه العفــاء مــن عهد الحفصيِّين وما أحدثه ملوك الدَّولة التُّركيَّة نيفا وعشرين مدرسة خاتمتها وواسطة نظامها مدرسة مولانا التي أحدثها بساباط عجم.

وليس الآن فيما بلغنا أحواله من المعمور شرقا وغربا مدينة هي دار العلم وموضع الهجرة إليه من الأقطار مثل القاهرة، وليس الأزهر اليــوم بــأعمر

1 1/ 122-124.
2 مسامرات الظَّريف 2/171-175.
3 ص 150-151.
4 1/230.
5 الشَّجرة 1/345.
6 مفاتح النَّصر ص18-25.
7 مسامرات الظريف 3/ورقة 13-15.
8 مفاتح النَّصر 25-27.

مجالس الدروس من جامع الزَّيتونة، ولا علماؤه في تحقيق المسائل وحلّ مشكلاتها وٱستجلاء عويصات الشُّروح والحواشي وٱستخراج نكتها كعلماء تونس، وذلك أنَّ أكثر توجُّه الطَّلبة بالقاهرة إلى تحصيل ما يقرِّره الشَّيخ ويقوله، فتراهم مثابرين على كتابة ما يلفَظ به ويخطفونه من فيه ويقيِّدونه وهم أحذق النَّاس بذلك وأسرع فيه فشَغَلهم ذلك عن البحث وتدقيق النَّظر.

وأمَّا أهل فاس والمغرب الأقصى فأكثر عنايتهم بالحفظ، فحفظهم أبلغ من حفظ سواهم لشدَّة عنايتهم به، وظنُّهم أنَّه المقصود من الملكة العلميَّة، فإذا فاوض أحدهم أو ناظر تجد ملكةَ تصرُّفه قاصرة في الأكثر".

ثمَّ انتقل إلى ذكر الطَّبقة التي تلقَّى عنها:

"وفيها اليوم من الجهابذة النقَّاد والفحول الذين تضرب إليهم أكباد الإبل ولا يشقُّ غبارهم ولا يجارى مضمارهم كشيخنا المفتي أبي الفضل قاسم المحجوب المساكني (-1190هـ) ("مسمارات الظَّريف")[1]، حامل لواء المذهب المالكي بالمغرب، وشيخنا المفتي الأكبر أبي عبد الله محمَّد بن حسين بيرم (-1214هـ) ("اتحاف أهل الزَّمان"[2] و"مسامرات الظَّريف"[3]، عالم الحنفيَّة بالمغرب غير مدافع، ومن لم يوجد فيهم مثله منذ زمن شاسع، وشيخنا أبي عبد الله محمَّد الغرياني (-1195هـ) ("شجرة النُّور الزكِّية")[4]، شيخ التَّربية وواحد العصر علما ودينا وورعا وسلوكا، وشيخنا أبي عبد الله محمَّد الشَّحمي (- بعد 1190هـ) ("شجرة النُّور")[5]، نسيج وحده الذي لا يدانيه أحد ولا يتعلَّق به في تحقيق العلوم العقليَّة من الكلام والمنطق والحكمة، وشيخنا الفاضل أبي عبد الله محمَّد بن حسين الهدَّة (-1197هـ) ("اتحاف

1 179/2.
2 30/7-35
3 30/2-38
4 349/1
5 349/1.

أهل الزَّمان")[1]، بسوسة، وغيرهم ممَّن تبتهج بهم المحافل وتزدهي المنابر ويقال في شأنهم كم ترك الأوَّل للآخر".

أرَّخ في هذه النَّبذة الطبقات العلميَّة في عصره وما قرب منه، وأضاف إلى ذلك موازنة بين طرق التَّدريس في كلٍّ من تونس والقاهرة وفاس والمغرب الأقصى حيث إنَّه رحل إلى القطر المصريِّ والمملكة المغربيَّة، وتلقَّى فيها بل درَّس في بعضها وهي القاهرة، وهذه الموازنة أبدى فيها رأيا خاصًّا وتحرَّر في إبداء رأيه حيث اعتمد على اطِّلاعه، والحقيقة ستظهر فيما بعد كما أسلفنا.

وقد نوَّه بهذه النَّبذة صاحب "إتحاف أهل الزَّمان" ونقل بعضا منها إلاَّ أنَّه أهمل الأهمَّ فيها وهو الموازنة.

ثمَّ إنَّه ذكر أنَّ من ذكرهم ابن عبد العزيز سيأتي له التَّعريف بهم مع أنَّه لم يذكر إلاَّ أقلَّ من القليل وهو الذي دعانا إلى إضافة ما أضفناه باختصار وإلمام دون تتبُّع للمصادر، وعسى أن يكون ذلك في فرصة أخرى تتيح لنا إشباع القول.

كما أنَّه أهمل النَّبذة التي أشاد فيها بالأدب التُّونسي لأنَّ الشَّيخ ابن أبي الضِّياف غير ميَّال إلى الشِّعر في تاريخه وإن كان يقوله.

فحولة الشِّعر

أتى بعد تلك النَّبذة التي بيَّن فيها الحضارة العلميَّة في الدِّيار التونسيَّة في القرن الثَّاني عشر الهجري بنبذة أخرى أراد أن يظهر فيها أنَّ الشِّعر بعد خموده في الدَّولة التركيَّة نهض نهضته في القرن المذكور حين تحرَّكت القرائح وأتت بالمبدع المطرب.

وكأنَّه في نبذته هذه يحاكي بصورة مصغَّرة "عنوان المرقصات والمطربات" لأبي الحسن علي بن موسى بن سعيد الأندلسي (-685هـ) وهو قد اختار فيه عيونا من الشِّعر ورتَّبها على الأعصار، ودقَّق في الاختيار ممَّا رآه غاية في

---

1 14/7-15.

الإبداع ونهاية في الاختراع، فٱختار نتفا وقطعا شعريَّة والمترجَم فعل مثل ذلك في شعراء عصره الذين رآهم مبرِّزين على غيرهم فٱنتقى لهم عيون ما نظموا ممَّا يبرز هذه النَّهضة الشِّعريَّة لكنَّه لا بصورة تاريخيَّة ولو مثل الصُّورة التي تقدَّمت في النَّهضة العلميَّة وإنَّما بصورة أخرى.

فهو في نبذته هذه يؤرِّخ الشِّعر بصورة أدبيَّة في منتقياته الشِّعريَّة وهي طريقة مسلوكة منذ العصر العبَّاسي، ولكن المترجَم على عادته في حبِّ الابتكار لم يأخذ في نبذته الشُّعراء بأسمائهم مع ترجمة تعبِّر في جملة أو جمل قصيرة عن قيمتهم وما يمتازون به، ثمَّ يأتي بعيون شعرهم كما هو متعارف فيمن سلك هذه الطَّريقة المسلوكة من قبل المترجَم، بل ٱقتصر على إيراد منتقياته دون أن يصرِّح بٱسم المنتقى له، فعنده الشِّعر يعبِّر عن صاحبه، فبذلك ٱكتفى بما ٱختاره دون تسمية أيِّ شاعر.

والشُّعراء الذين ٱختار لهم أربعة، وقد ختمهم بنفسه فٱختار من عيون شعره ما ٱرتضاه، وهذا صنيع ٱبن سعيد[1] في "عنوان المرقصات والمطربات" ولَّما أغفل الأسماء دعانا إلى ذكر ما يتعلَّق بمختار كلِّ شاعر من التَّصريح بٱسمه مع ذكر مصدر القطعة أو النُّتفة بإيجاز إرشادا لمن أراد الوقوف على البقيَّة في مصادرها إن أمكن ذلك، وهذا القسم الأوَّل من تلك النَّبذة:

"وأمَّا الأدب والشِّعر والكتابة فشيء ٱقتضى المقدار أن تخرس الألسنة عنه وتجمد القرائح دونه مدَّة الدَّولة التركيَّة وٱدَّخره لدولة مولانا أدامها الله زيادة في محاسنها وتكميلا لما أوجبه من سعادتها حتَّى كان من شعرائه الذي يصدر عنه من الطبقة مثل قوله في وصف بدويَّات ٱستلمتهنَّ الحامية فجعلن يسترن محاسنهنَّ:

1 علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد العنس، الأندلسي، أديب، شاعر، توفي سنة 673هـ/1274م. من تصانيفه "لذَّة الأحلام في تاريخ أمم الأعاجم"، و"ريحانة الأدب". (معجم المؤلفين 249/7).

[الطويل]

لقد تركوهنَّ الغداة بمهمَّه يُخبِّين معسول اللَّمى بالعصائب
وغَيَّرْنَ حسنا ليس يخفى مكانه بترتيب ما بين اللِّحى والحواجب

ومثل قوله في تشبيه بقايا الحنايا ذات الأقواس المنعطفة على الأعمدة الضَّخمة القريبة من مكان بستان أبي فهر:

[البسيط]

وقفْ هنا بأبي فهر (المجيد) فقد مضت به دولة الشُّمِّ العرانين
ترَى الحنايا كسطر النَّخل مدَّ به بعض لبعض بمجنى العراجين
أو خرد نهضت للرَّقص فٱعتنقت كي لا تجيء برقص غير موزون

ومثل قوله من جملة قصيدة، وهي أبيات تَسَهَّل في ألفاظها وتأنّق في معانيها وقرَّب ٱستعاراتها وأحسن في تشبيهاتها فجاءت في غاية الإبداع:

[الكامل]

يَا صَاحِبَيَّ وما دعوت مُثَقلا عوجا على تلك الربوع قليلا
تريا ابتزاز الأرض حلة أختها قبل الظَّلام وبُرْدُها مَسْدُولا
والنَّهْر في خلف اليَفاع كمعصم ضمت به إحدى الحسان سليلا
والغُصن يعطف من عليه كعاشق أومى إلى معشوقه تقبيلا
والوُرق في جلب الهوى بنغيمها تحكي قساوسة تلت إنجيلا
والشَّمس وجه في مؤخر هَودج يهوي به عبل السنام نفيلا
والغَوْر في فَيء الأصيل كعوَّم لم تبد إلا هامة وتليلا"

هذه المختارات للشَّاعر الفحل أبي عبد الله محمَّد الورغي (-1190هـ)[1] وتقدمته في الاختيار على شعراء عصره حريٌّ بها لأنَّه في تلك الحلبة لم يكن من يجاريه أو يسابقه ويباريه، فهو حامل لواء الشِّعر في تلك الحقبة، وعنوان

1 ترجمته تناولها صاحب "عنوان الأريب" 36/2- 39، والعياضي: "مفاتح النَّصر"، ص 185-187، محمَّد بيرم الرَّابع: "الجواهر السنيَّة".

أولئك النُّخبة فقد أنصف المترجَم حين صدَّر به شعرهُ إذ أنَّه لو وازنته بغيره لسما عليه سموَّ الحباب على الماء.

وقد كانت بين الورغي وبين حمُّودة بن عبد العزيز رابطة وثيقة رغم الزَّمالة والمعاصرة وزعارة أخلاق الأخير، فقد أخذ بيده الوَرْغيَ حين أفل نجم دولته بأنهيار سلطان علي باشا (-1169هـ) حين خاطبه مستنجدا به وطالبا شفاعته في تخليصه من محنته وانتشاله من كربته:

[الخفيف]

يابن عبد العزيز أنت عزيز ثابت الودِّ في جميع القلوب
تحمل الكلَّ في المضيق وتحمي من يناديك من تعدِّي الخطوب
وإذا ما الزَّمان أصبح صعبا كنت عونا على الزَّمان العصيب

فقد قارنت الإجادة الفائقة المودَّة الآخذة بالأوثق، فمن أجل ذلك سمحت نفس المترجَم بتصدير اختياره لشعر الورغي والتَّنويه به.

والنُّتفة الأولى نتفة من قصيدة مشهورة للورغي، قال الشَّيخ ابن أبي الضِّياف أنَّ المترجَم تزلَّف بعدم نقلها[1]، فلهذا جلب الكثير منها مخالفا لعادته، ومطلعها:

هو العزُّ في سُمْر القنا والقواضب وإلاَّ فما تغني صدور المراتب

وكان إنشاد هذه القصيدة حين أوقع علي باشا بالنمامشة كما فصَّل في "الإتحاف".[2]

ولم يوفِّق ابن عبد العزيز في اختياره تلك النُّتفة إذ هي وإن لطفت في ألفاظها ورقَّت في وصف البدويَّات لا يحسن إيرادها لما فيها من هتك أعراض المسلمات، وسَوقهنَّ كالحيوانات ممَّا يذكِّر بالقطيعة بين أهل الوطن الواحد والدِّين الواحد والمصالح المتَّحدة، زيادة عن وحشيَّة التَّقتيل والتَّشتيت والتَّرويع، فالأخلاق تقتضي أنَّ مثل هذا يجب أن يطوى خصوصا إذا كان

1 ينظر اتحاف أهل الزَّمان 134/2.
2 المصدر السابق 132/2.

يتناول الجنس اللَّطيف وقد طرق الجادة صاحب "الإتحاف" حين أغفل هذه النُّتفة وأضرابها ولعلَّه لما ذكرنا.

وأمَّا النُّتفة الثَّانية والقطعة بعدها فمن المقامة الباهيَّة التي ألَّفها الورغي في الشَّيخ الباهي، وهو أبو العبَّاس أحمد الباهي صاحب الزَّاوية الـتي وقـع تجديدها الآن حتَّى أصبحت روضة من رياض القرآن، والنُّتفة في الحنايا من قصيده الشَّهير ومطلعه:

[البسيط]

باكر سعودَكَ ليس الوقـت بالـدُّون   واجعل صبوحَكَ عند بـاب سـعدون

وهو في ذكر منازه تونس ومعاهدها الشيِّقة وقد وقع في الباشي صـدر النُّتفة هكذا:

(وقف هنا بأبي فهر المجيد فقد)، والصَّواب ما أثبت في الدِّيوان: (وقف هنا بأبي فهر المحيل فقد) والمحيل بالحاء المهملة آخـره لام: المـتغير القليـل السَّكن.

وأما القطعة الأخيرة فمن قصيدته في المقامة المذكورة ومطلعها:

هبَّ النَّـسيم مـع العـشيِّ علـيلا   فأرتدَّ ثـوب الـرَّوض منـه بلـيلا

ثنَّى المترجَم بعد منتقياته الأولى بهذه القطعة:

وكان بعضهم الذي يقول حنينا إلى أوَّل أرض مسَّ جلده ترابها. وشوقا إلى ما ألفته نفسه من معاهد عمرتْها لذاته وأترابها:

[الطويل]

أودِّعُهُـمْ قَـسْرا وأُودِعهـم هَـوًى   وتاللهِ لي فـيهم شـجون وأشـجان
أحنُّ إلى تلك القِبَـاب علـى النَّـوَى   وكـل مـشوق للمعاهـد حنَّـان
فإن بَعُدوا عـنِّي وشـطَّت ديـارهم   فإن فـؤادي كـائن حيثمـا كـانوا
ينوبون بدر الـتَّم إن بـان مثـل مـا   ينوب محيّـا البـدر عنـهم إذا بـانوا
فيا دارهم حيثَ الحنـا يـا مـصانع   وحيث تَهادى الدّوح وٱنعطف البـان
وحيث الحـسان الـسّافرات رواتـع   لهـا دارة الجـلاز مرعـى وفـدّان

فلا برحت تهمي عليهم غمائم   من الدَّمع أو مزن يباكر هتَّان

هذه القطعة للشَّافعي ذكرها في شرحه المسمَّى "بإظهار النِّكات من خبايا المحرِّكات"، وقد تقدَّم التَّعريف بهذا الكتاب.

وهي قطعة منتقاة من قصيدته التي أنشدها في شكوى الزَّمان وتقلُّب الإخوان، حين قلب الدَّهر ظهر المجَن وأصبح غريبا بعيدا عن الوطن.

وهي قصيدة من قصار شعره الطَّافحة بما في نفسه من تأثُّر من كون الحياة أصبحت حياة تشريد بعد عزٍّ ورغد، و لم يكف ذلك حتَّى أظهر الإخوان الجفاء، فكانت أخوَّتهم معلَّلة شأن الإخوان المتقلِّبين المتعلِّقين بالمنافع، وقبل هذه القطعة قطعة أخرى لا تقلُّ عمَّا ٱنتقاه جودة إلاَّ بعض الضَّرورات، ولكنَّ المعنى يشفع.

[الطويل]

أيا زمنا بالجَوْر والظلم ملآن   يذكرنا بؤسا سَمَنْجا ومَلْيَان
أذبت نفوسا وٱنثنيت بسُبَّة   تجنبها كبرا لها الإنس والجان
تُقوِّض ممَّا شيَّد الحمد خطة   أقر لها بالنبل خان وخاقان
إليك أنْكرًا بعد عِرْفان فتية   لهم عزة بين الورى ولهم شان
فإنَّ لنا في البائنين معاشرا   تحنُّ لهم منَّا عيون و أَعْيَان

وكما ٱستجاد هذه القصيدة المترجَم ٱستجادها صاحبها حيث صدَّر بها تأليفه المذكور، إذ يقول بعد الحمد لله والصَّلاة على الرَّسول صلَّى الله عليه وسلَّم:

"هذا وإنَّ محمَّدا الملقَّب بالشَّافعي بن محمَّد بن القاضي يقول لمَّا حمَّ الاغتراب والاعتراض و لم ير للدَّهر عن ذلك إضراب ولا ٱعتراض وتنكَّرت المعارف ونابَت الموانع عن الصَّوارف، ومُزِّق من الصَّبر القَبا وتفرَّق شمله أياديَ سَبَا، قلت للدَّهر مخاطبا، وللمناكير خاطبا".

وأنشد القصيدة المذكورة.

ثمَّ إنَّ المترجَم شحَّ ببيت على القطعة المختارة، وبه يتمُّ المعنى ويتَّضح تمام الوضوح، وهو البيت الأخير ممَّا نقلناه لأنَّك إذا سمعت قوله (أوَدِّعهم) لم تدر من هؤلاء المُوَدَّعُون وإن كان الفكر إذا جال يعلم أنَّ هناك مودَّعين من إخوانه وإنَّما بصورة جمليَّة فلو أتى بهذا البيت لكفى الفكر المؤونة.

وحتَّم الإتيان به أنَّ هذه القطعة جعلها عنوانا عن شعره، فإذا ما كانت مكتفية بنفسها كان ذلك أوقع في النَّفس وأبلغ في التَّأثير.

والبيت المحذوف كما يتوقَّف عليه تمام المعنى ووضوحه هو كذلك من عيون تلك القطعة، فلو أنَّه ٱنضاف إليها لكان مع ما بعده في غاية الالتحام مع الطَّرافة والانسجام، فٱستمع إليهما مقرونين حيث تشعر بالالتحام وعدم الانفكاك بينهما:

فإنَّ لنا في البائنين معاشرا تحنُّ لهم منَّا عيون وأَعيان
أودِّعهم قَسْرا وأُودعهم هوى وتالله لي فيهم شجون وأشجان

وكما لم ينصفه في ضمِّ البيت المتقدِّم كذلك لم ينصفه حيث ٱختار له قطعةً فحسب، بينما الورغي كما قدَّمنا ٱنتقى له ثلاث منتقيات، وسيأتي للموالي للمترجم ٱنتقاء الكثير، والشَّافعي لا يقلُّ عمَّن تقدَّمه ولا من جاء بعده في وفرة الجيِّد، وإن كان هناك تفاوت فهو نسبيٌّ، فجيِّده ليس مقصورا على هذه القطعة فحسب، بل له أخوات لها.

ثمَّ إذا ناقشناه الحساب في جعل هذه القطعة عنوانا لشعر الشَّافعي نحكم أنَّه لم يوفَّق كذلك في ٱنتقائه لها من بين أخواتها، فإنَّ قصيدته الميميَّة تكون من طالعة قصائده، ففيها أبيات عند موازنتها بما ٱنتقاه المترجَم ترجَّح على ذلك المنتقى، وإن كان الذَّوق في معاييره يختلف، فللنَّاس فيما ينتقون مذاهب.

فمن عيون هذا الميميَّة ما أنتقيه:

[الطويل]

وهل آن إلقاء العصَا نحو رامة فيأنس آراما بأرجائها بُغْما

ويقضي مرادا من كدى وتهامـــــــة ويشفي فؤادا من ســعاد ومـــن أسمــا
ويستنشق الرَّيحان من نحـــر حاجـــز فناهيك من نحر ومـــن نــشقة شمَّـــا
وما شاقني إلاّ حمــائم سُجـــــــع يسجعن للضَّليل وٱبــن أبي سلمـــى
يرددن شَجْوًا فَوق أفْنَــان أيْكَــــة كأنَّ عنانا تنقــر الزِّيــر والبَمّـــا
ويا راكب الوجنـــاء إن زرت واديـــا وجاورتَ أطوادا بـــه أنفـــا شَمّــا
تحمل سلاما مـــسك دَاريـــن نَفْحُـــه إلى قَمَر مَا بَيْن آفَاقــه تَمَّـــا

ولعلّ إيثار ٱبن عبد العزيز للقصيدة المتقدِّمة على هذه وإن كانت الأخيرة في متانة نسجها وقوَّة لفظها تفوق التي قبلها يرجـــع إلى أنَّ المتقدِّمـــة ذات مساس بتونس في معالمها وأوانسها، بخلاف هذه فإنّه حاكها عربيَّة قحَّـــة، والتشوُّق فيها لأماكن غير تونسيَّة، ولو أنَّه جمع بينهما لكان أعطى الشَّافعيَّ حقَّه و لم ينقصه شيئا.

وتبريز المترجَم للشَّافعي الباجي وعدَّه من فحول هذه الحلبة التي عاشت في القرن الثَّاني عشر الهجري ليس مقصورا على ما جاء في التَّاريخ الباشي، بل تعزَّز هذا الحكم للشَّافعي بكونه أحد أركان الأدب التُّونسي بما جاء في "الجواهر السنيَّة في شعراء الديار التونسيَّة" لمحمَّد بيرم الرَّابع (-1278هـــ) إذ خصَّص الجزء الأوَّل منه بشعراء الطَّبقة الأولى وهم ستَّة شعراء، وجعل ثاني رجالها الشَّافعي بعد محمَّد الرَّشيد ثمَّ ذكر بقيَّة الستَّة.

وهذا التَّعزيز للشَّافعي في كونه من مبرِّزي الشُّعراء التونسيِّين يؤيِّد مـــا ذهبنا إليه سالفا من كونه أحد أعلام الأدب التُّونسي، ومع ذلـــك كـــان مغمورا لم يشتهر كالورغي والغراب. فصاحب "الجواهر السنيَّة" ينعته بأنَّـــه من أئمَّة الأدب حين ترجم له "هو -أي الشَّافعي- شيخ الأدب وإمامه ومن ألقي إليه زمامه صاحب القلائد الفريدة والغرر المجيدة علاَّمة زمانه ومحقِّـــق عصره وأوانه".

وهذا التَّعزيز يعطينا قيمة لما رآه المترجَم في الشُّعراء المـبرِّزين في الأدب التُّونسي في عصره، حيث إنَّه غاص في آختياره ولم يكن يحكم حسب الهوى، وبالأخصِّ حكمه على الشَّافعي الذي لم يعط حقَّه.

أشار إلى ثالث الأدباء المبرِّزين من الطَّبقة التي يصدر عنها ما تَهشُّ له النُّفوس، ويخفُّ على الأرواح لما فيه من تصرُّف في الألفاظ ولعب بها بهذه النُّبذة، وكان منهم الذي يصدر عنه في نكات التَّورية البديعة مثل قوله:

[الكامل]

وبيَ الذي في طرفه وقوامه ... للعاشقين مثقَّف ومهنَّد
أصلى الحَشا نارا مُشْهدَ ريقه ... لا تُنْكرَنَّ (مُصلّيًا يَتَشَهَّد)
وكم اجتهدت بأن يقلِّدني يَدا ... فأَبَى وربُّ (الاجتَهاد يقلَّد)
ضارَعت خصرك في تجرُّد شخصه ... لا تنكرنَّ (مُضَارِعًا يَتجَرَّد)

وقوِله وكتب به إلى صديق له يستعير منه كتاب "فضِّ الختام عن التَّورية والاستخدام" للصَّلاح الصَّفدي:

[السريع]

يا من غدا في كلِّ فنٍّ إمامْ ... ومالكًا من كلِّ معنى زمامْ
فالعبد منكم مستعير لما ... بيانُه يُغنيك عنه المَقَام
وهاك من أبكارِ أفكاره ... بكرًا أتت تطلب (فضَّ الختام)

وقوله من قصيدة:

[الطويل]

ولِلَّيل طول من عذار جبينه ... يطول الدُّجى والشَّمس بالقوس أجدر
إذا نُصبت أشراك جفني وشعره ... لصيد الكرى والعقل فهو المظفر

وقوله وهو من النِّكات الغريبة:

[الوافر]

غدا الزقموط يُدعى بالإمام ... ويجلس بين جُلاَّس لئام
يُعلِّمهم حساب الرَّأس منه ... بضرب فيه بسط للمقام
فما أحد يريد (البسط) إلاَّ ... ويضرب ما على رأس الإمام

ويصدر عنه في الاقتباس مثل قوله:

[المتقارب]

وبـــدر إذا مـــا بَـــدَا في الـــدجى   تـــرى البـــدر في أُفقـــه يُحجـــب
إذا مـــا تبـــسَّم عـــن لؤلـــــؤ   (يكـــاد ســـنَا برقـــه يَذهـــــب)

وقوله وقد جمع مع الاقتباس التَّورية:

[الوافر]

دع الـــــشعراء في مـــــــدح وذم   لجلب الـــرِّزق تـــضرب في البـــلاد
فهُمْ مثـــل الـــضَّفادع أيـــن حلّـــوا   (ألم تـــر أنَّهـــم في كـــــــلِّ واد)

ويصدر عنه في حسن الابتداء وبراعة المطلع:

[البسيط]

مـــاليَ عـــن مـــورد الهـــوى حَـــذر   يلـــــحُّ فيَ العـــــذول أو يَـــــذر

كلٌّ هذه المنتقيات للشَّاعر المبدع علي الغراب الصفاقسي (1183هـ)، وقد ٱشتهر بتورياته وٱقتباساته المتلقاة من أهل عصره ٱستطرافا لها وتعلّقا بها، وقد ذكر له العصفوري في "تشحيذ الأفهام بما يحسن من الإيهام" الكثير من لطائفه، ومع ذلك لم يستوعب ما جادت به قريحة هذا الشَّاعر المولع بهـذه النَّاحية في التَّورية.

وقد نوَّه به محمود مقديش (-1228هـ) في "نزهة الأنظـار": "وأمَّـا تورياته وتشبيهاته وٱستعاراته وكناياته فأمر مشهور".[1]

وهذا ما أراد المترجَم إبرازه من عيونه في بعض هذه النَّواحي التي ٱشتهر بها في عصره، والتي سجَّلها من بعدُ صاحب "تشحيذ الأفهـام"، وميـزة المترجَم عليه أنَّه عبَّر عنها بشعر الغراب نفسه، فجعل شعره ينطق بها.

فالقطعة الأولى أبرز فيها براعته في التَّورية وهي من بديع تورياته حيـث ورَّى بقوله (صلَّى) المأخوذ من التَّصليَّة بالنَّار عن الصَّلاة بمعنى العبادة.

---

1 نزهة الأنظار 201/2، الطَّبعة الحجريَّة، تونس، 1321هـ/1903م.

إلاَّ أنَّ ٱستعمال (يتشهَّد) بمعنى ذي شَهْد وهو العسل غير مسموع حتَّى أنَّ ٱستعمال الشُّهد -بضمٍّ فسكون- من شوَاذِّ هذه المادَّة كما في مقاييس اللُّغة لابن فارس.[1] والتَّوريات في بقيَّة الأبيات في قوله (قلده الذي بمعنى أمتن) ورَّى به عن التَّقليد المذهبي، وكذلك في قوله (مضارعا يتجرَّد)، ممَّا هو غير خاف.

والنُّتفة الثَّانية ذكرها العصفوري في "تشحيذ الأفهام" كما هنا، وكتاب "فضُّ الختام" الذي ورَّى به عمَّا أراد هو للصَّفدي خليل بن أيبك (-764هـ) وقد تولَّع به التُّونسيُّون حين هذه النَّهضة الأدبيَّة.

وقد بنى عليه العصفوري كتابه المتقدِّم الذِّكر.

والنُّتفة الرَّابعة في (الزقموط) أحد عدول صفاقس المعاصرين له، والغراب ذاته كان أحد عدولها، كما ذكره في "نزهة الأنظار"[2] وهو فقيه عدل ذو حظٍّ من علوم الحساب.

وقد أشار في هذه إلى ما هو متعارف عند الفرضيِّين من أنَّ أئمَّة الأعداد هي الأعداد المفردة التي إذا ضربت في بعضها حصل العدد المركَّب، فالعشرة من أئمَّتها إثنان وخمسة، لأنَّك إذا ضربت الخمسة في الاثنين خرجت العشر، وحلُّ الأعداد إلى أئمَّتها في علم الفرائض (المواريث) فائدته قسمة القليل على الكثير، والبسط هو الضرب.

وقد ورَّى الغراب في هذه النُّتفة بضرب الإمام (الزقموط) عن بسط الأئمَّة في الفرائض أو العكس.

وهذه النُّتفة كما ترى تدلُّ على براعة في التَّورية وتضلُّع في ربط القواعد الحسابيَّة الفرضيَّة بالأدب بصورة مقبولة يطرب لها من تذوَّق هذه المسألة من الفرضيِّين.

وكان الغراب فيها كأبي نواس في قطعته العجيبة وإن كان بينهما بون من حيث الموضوع والتضلُّع في الحسابيَّات إذ أنَّ نتفة الغراب مجرَّد تورية

---

1 مقاييس اللُّغة 222/3.

2 نزهة الأنظار 201/2.

بينما قطعة أبي نواس تدلُّ على مقدرة حسابيَّة هي مرتبطة بصورة فرضـيَّة ولكنَّها خفيَّة، وإنَّما يشتركان في الرَّبط بين الحساب والأدب.

وهذه النُّواسية

[الهزج]

جنـــانٌ حـــصَّلت قَلْـــبي فمـــا إن فيـــه مـــن بَـــاق
لهـــا الثُّلْثـــان مـــن قلـــبي وثُلْثَـــا ثُلْثـــه البَاقـــي
وثُلْثَـــا ثلـــث مـــا يَبْقَـــى وثُلْـــثُ الثُّلْـــث للـــسَّاقي
فتَبْقَـــى أَســـهم سِـــتٌّ تُجَـــزًّا بَـــين عُـــشَّـــاق[1]

وقد مرَّ عنها محقِّق ديوانه المطبوع سنة 1953م أحمد عبد المجيد الغـزالي كأنَّها من البسائط، وإنَّما تولَّى تفسير قوله (تُجَزًّا) أي تقسم أجزاء، وهذه آفة المحقِّقين الذين يفسِّرون البسيط دون العويص.

وهذه الأبيات قد سئل عنها الكلائي (انظر ترجمته في الدُّرر الكامنة لابن حجر)[2] المتوفَّى 777هـ عن سبعين سنة، فأجاب بأنَّها تصحُّ مـن أحـد وثمانين، وتحليل كلامه يحتاج إلى بَسْط.

وأمَّا اقتباسات الغراب فذكر منها المترجَم قوله (يَكَادُ سَنَا بَرْقه يَذْهَبُ) وهو من قوله تعالى ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقه يَذْهَبُ بالأَبْصَارِ﴾[3] ، وفيه مع الاقتباس الاكتفاء، وقوله (أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ) من قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَاد يَهيمُونَ﴾[4].

فهذه عيِّنات من مخترعات الغراب في التَّورية والاقتباس وغيرهمـا ممَّـا استدلَّ به المترجَم على الانتعاش الأدبي في العصر الباشي الذي يؤرِّخه، وهي تبدي أنَّ أدباء ذلك العصر لم يقصروا عن شأو غيرهم، وإنَّما كان تـراثهم

1 ديوان أبي نوَّاس، ص298.
2 452/3.
3 سورة النُّور، الآية 43
4 سورة الشُّعراء، الآية 225.

غير معرَّف به، فلهذا لا نجد لهم ذكرا بين المتــرجَمين في الأدب العــربي، وعسى أن تتحرَّك الهِمَمُ حتَّى يأخذ الأدب التُّونسي حظَّه.

ختم المترجَم نبذته التي جعل بها عناوين للشِّعر التُّونسي في عصر النَّهضة عنده بهذه المختارات، وٱفتتحها على عادته بما يفيد أنَّها لشاعر آخر:

وكان منهم الذي يهزل فيقول:

[البسيط]

وبالفُؤاد من الظَّبْيِ الربيــب هَــوى ... يَملأ المحاجر دمعا والحــشا لهبــا
أوما إلي بطَــرف كلّــه كحــل ... يوم النَّوى هل يردُّ الدَّهر مــا ٱســتلبا
فظلت أبكَي ويكسي خــدَّه خجــلا ... تفتُّح الورد من مزن الحيــا ٱنــسكبــا
قد زارني وبقايا لــيلتي لعــس ... والفجر ثغر جرى فيه النَّــدى شــنبا
يختال واللَّيل مهــزوم بطلعتــه ... في لازورديَّة قــد زررت ذهبــا

ويَجِدُّ في أُخرى فيقول:

[البسيط]

تقول لي ناقتي والشَّوق يزعجهــا ... وما شــددت لهــا رحــلا ولا قتبــا
أُمَّ المغارب إمّا رُمت نيل عــلا ... أما ترى كلَّ نجــم طــالعٍ غربــا
سأركب الصَّعب أُسميــه الــذلول ولا ... أقيم حيــث فــؤادي ممتلــي كربــا
وسوف يعرفني من كــان يجهلنــي ... إلاَّ يكن رغبا منــه يكــن رَهَبــا

ويقول:

[الطويل]

أرَى السَّفْحَ من بُعْد فأبكي لمــن بــه ... فَجفني على الحالين لــزم الــسَّفحــا
نأوا ورجونا أن يدوموا علــى الهــوى ... فَسلُّوا الجفا سَيفا وقد ضربوا صــفحا
إذا كان من أهواه شمسا وقــد نــأى ... فلا تَعْجبوا أن لا أرى بعــده صــبحا

ويقول:

[الخفيف]

أَغْيَــدٌ مــن ســوالف ورُضــاب ... منه قد همت بين حَــالٍ وعاطِــل
ناصــب مهجــتي بعامــلِ قَــدٍّ ... ليتني قد ضممت ذاك العَامِــل

باخــل باللّقــاء كــالرّيم في النُّفـــــ ـــرة فاعْجب له (كــريم باخـــل)
خــاذل للســلُوِّ في نــصرة الحُبْـــ ــب فويلي من الغــزال الخــاذل
هَــاجِر لا عدمتــه زينتــه لثغة الراء فهو عندي كـ(ـــواصل)

ويقول أيضا كذلك:

[الخفيف]

لَهْفَ نَفسي على زمــان لَدَيْــه هاجري كان لا يزيــل وصالَــه
إذ حَثَثْنَا الكميت طلقا وطــرف اللـ ـــلَهْــو قد جال في الرِّيــاض مجالــه
وخليلي من سكره حــسبَ النَّـــــ ـــر جَسَ لَحْظا فقال مــالي ومالــهْ
وأتاني مبــشِّرا بــشقيـــق ظنَّــه وجنــةَ الحبيــب وخالَــهْ
بَدْرٌ تَمّ معمَّم حين يــبـــدو يقــصر البَــدْرَ أن ينــال كمالَــهْ
وإذا ما بــدا فيــا مــن لــصب راعه حــسن بــدر تمَّ وهالَــهْ
قابل الشَّمس وجهــه فتلظَّــت غيرة منــه حــين أبــدى جمالَــهْ
وَعَدَتْ طَوْرَهَا فأدمتــه غيظًــا وهــي لا ينبغــي لهــا أن تنالَــهْ
قم نبايعــه ذا نَبِــيُّ الجمــال ما تراه قد كلَّمتــه الغزالَــهْ

فهذا الشِّعر وأمثاله ممَّا لا يبعد عن شأو المجيدين من الــسَّالفين نــصاعة ألفاظ وبراعة معان وٱشتمال على النُّكت الغريبة واللَّطائف النَّــادرة وقــع لشعراء هذه الدَّولة زاد الله في سعادتها.

ولو قصصنا عليك ما تأدَّى إلينا من أشعار المتقدِّمين عليهم في عهد التُّرك إلى أن حدثت هذه الطَّبقة لوجدت أحسنها ما سلم من لحن الألفاظ وفساد الوزن وٱختلال المعنى، وأمَّا الاشتمال على النُّكت الغريبة واللَّطائف البديعة فهي بمعزل عن ذلك وبينها وبينه بَوْن بعيد، أستغفر الله إلاَّ ما وقع لــشيخ الحضرة ومفتيها في الدَّولة المراديَّة أبي عبد الله محمَّد فُتاتة من قوله وكتب به إلى صديقين له من بني زرت[1] أهديا له سمكا وصُحبَته كتاب يشتمل علــى نثر:

---

1 يقصد بها بنزرت، من مدن الشَّمال التّونسي وكانت تكتب "بني زرت".

[البسيط]

أهديتُما سمكًا مثل اللُّجين فيا ... لله من سمك وافي به شَرَك
شَّفعتماه بمكتوب حوى غُررا ... من درٍّ لفظكما بالدُّر مرتبك
لا شكَّ أنّكما بحران قد زخرا ... فمنكما يستفاد الدرُّ والسَّمك

فإنَّه من المعاني الغريبة مع ما في لفظه من لين.

وقوله يصف روضا حلَّه متنزِّها ومعه مغنٍّ يعرف بالحمائمي موريا:

[الطويل]

وروض حللناه كان نواره ... قلائدُ دُرٍّ في نُحور النَّواعم
إذا ما شَدَتْ أطْيارُه في غصونه ... ومالت سواقيه كبيض الصَّوارم
وجدت لذيذَ الخمر في طعم مائه ... وشنَّفت سمعا من غناء (الحمائم)ي

هذه النُّبذ التي نقلها أخيرا في هذا الفصل هي من شعره، وقد تواضع فيها حيث ذكرها مجرَّدة ممَّا يدلُّ على مدحها، فلم يقل فيها كما سبق له في المختارات السَّابقة وإنَّما ٱقتصر على قوله (وكان منهم الذي يَهْزُلُ تارة فيقول)، بينما صدر عنه في الغراب مثل قوله (وكان منهم الذي يصدر عنه نكات التَّورية البديعة مثل قوله الخ)، ويختم بعض المختارات للورغي بمثل قوله (الله أكبر هذه والله الغاية التي لا يتعلَّق بها أحد في هذه الأعصار).

والقطعتان الأولى والثَّانية هما من قصيدة واحدة مدح بها سلطان المغرب وهو محمَّد بن عبد الله بن إسماعيل (1134-(1171)-1204هـ) وكان هذا السُّلطان مع ٱشتهاره بإحكام زمام نفوذه في المغرب موصوفا بالعلم، وله مؤلَّفات في الحديث وهو جدُّ الفرع المالك، وكان تفرَّع هذا الفرع عن ٱبنه هشام، وطالع هذه القصيدة:

[البسيط]

يا جيرة السَّفح كم قلبٍ بكم تَعبا ... لم يقض في حبِّكم نحبًا ولا أَرَبَا

ويتخلَّص فيها إلى المدح:

قل للزَّمان تَقلَّب كيف شئت وصِل ... فقد وصلت لنفسي بالعلا سببا
لي في ٱبن مولايَ إسماعيل معتقدٌ ... أن سوف يترك نبع الدَّهر لي غرَبا

في أوضح النَّاس مهما يفخروا حسبًا   وأشرف النَّاس مهما ينتموا نسبًا

ويبدو من هذا القصيد أنَّه نظمه بتونس لا بالمغرب إذ من أبياته:

حتَّى متى ترضى دار الهونِ تسكنها   وتترك العزَّ في (مكناس) والنَّشبَا

وهذا البيت حذفه من القطعة التي ٱختارها من القصيدة وهو قبل قوله (سأركب الصعب)، والذي دعاه إلى حذفه أنَّ إثباته في التَّاريخ الباشي يوغر صدر الأمير حيث جعل بلاده دار هوان ومكناس بلاد عزٍّ، وهي من غرر قصائده ولهذا ثبتت في كلِّ نسخ ديوانه وعلاوة على ذلك ٱختار عيون شعره منها، و لم يكتف بقطعة حتَّى عزَّزها بأخرى.

وأمّا النُّتفة الثَّالثة فمن قصيدته التي يقول فيها:

جرى مستهلُّ الدَّمع من مقلتي سحا   غداة وهي عقد الهوى بعدما صحا

وهي في مدح شيخه محمَّد بن علي الغرياني (-1195هـ) وتَهنئته بختم المختصر للشَّيخ خليل في صفر سنة 1171هـ.

وأمَّا القطعة الرَّابعة فمن قصيدته:

إنَّ بالسَّفح من مهبِّ الشمائل   مستلذُّ الرُّضاب حلو الشَّمائل

والخامسة من قصيدته التي يقول مَطْلَعًا لها:

لِيَ غُصْنٌ على الكثيب أمالـه   قُلْ لغصن النَّقَا يُحاكي ٱعتدالَه

والشَّيخ فتاتة (-1115هـ) الذي ٱستثناه من العصر التُّركي كان من أعلام الدَّولة المراديَّة، وقد شهد له بالسَّبق والتَّبريز كلٌّ من ترجم له، وأوفى تراجمه ترجمة السرَّاج في "الحلل السندسيَّة"[1] وقد ذكر له في التَّرجمة تلك ما ذكره المترجَم هنا من المختار.

وفاته وأسبابُها

لم تكن وفاة هذا الأديب في أسبابَها عاديَّة كوفاة غيره، وإنَّما كانت نتيجة رأي له في سياسة الدَّولة حينذاك، ولهذا لا يجد الباحث في وفاة غيره من الأدباء ما يذكر إلاَّ الاقتصار على سنة الوفاة، فلهذا لا يذكر مترجموهم

1 أخذت ترجمته من مخطوط الحلل قبل طبعه، ج2، في ثماني صفحات من ورقة 157.

شيئا غير الأمور العاديَّة بخلاف هذا الوزير الأديب لذا خصَّها الوزير الكاتب في "إتحاف أهل الزَّمان" ببسطة طويلة، وهي حريَّة بها إذ أنَّها تطَّلع على السِّياسة الماليَّة والوسائل المتذرَّع بها لجمع الأموال، وكيف يُولَّى العمَّال في تلك الفترة، وكذلك غيرها في العصور السَّالفة.

وإجمال القول أنَّ سبب الحادثة التي مات إثرها متأثِّرا بها أنَّ عامل الوطن القبلي رجب بن عيَّاد (-1215هـ) وهو الذي ٱستكفى به حمُّودة باشا في بناء بوغاز حلق الوادي باع غلَّة زيتون الدَّولة بثمن وازى ثمن غلَّة سنة فارطة خصبة، وكان البيع الفارط على هذا البيع على يد أحد العمَّال السَّالفين قبل العامل المذكور، وكانت السَّنة التي باع فيها الغلَّة رجب بن عيَّاد قليلة الغلَّة، فأثنى الوزير مصطفى خوجة (-1215هـ) على العامل رجب بن عيَّاد وهو أحد أتباعه، فصادف أن كان هذا الثَّناء بحضور الوزير الكاتب حمُّودة بن عبد العزيز فلم يشارك في هذا الثَّناء بل بدا عليه الإنكار، فٱستفسره الوزير مصطفى خوجة عن سكوته فذكر له وجها وجيها وهو أنَّ ثمن الغلَّة تبع لثمن الزَّيت، وهو في ثمنه ينحطُّ في أيَّام الخصب ويرتفع تبعا لذلك من أجل هذا تساوى الثَّمنان، والغلَّة في زمن العامل السَّابق كثيرة بخلافها في زمن العامل الممدوح.

وكانت هذه المناقشة سببا في تذكير حمُّودة باشا (-1229هـ) خاصَّة بما كان طلبه منهم في إبداء رأيه في تنظيم خاصٍّ بالجباية، فٱستغلَّها المترجَم فرصة وأشار إلى أنَّ العامل لا يولَّى إلا على مشارطة ماليَّة، فأنكر عليه الوزير مصطفى خوجة ذلك قائلا على سبيل الإنكار يكون ذلك على يديك أيُّها الشَّيخ، فأجابه المترجَم بأنَّه يكون على يد من يثق به الباي وهو يوسف خوجة صاحب الطَّابع (-1230هـ) فتمَّ له الأمر وباشره بإعانة المترجَم، ثمَّ تخصَّص في ذلك ودرَّت عليه هذه الطَّريقة أموالا إلى أن أدَّى تصرُّف يوسف صاحب الطَّابع إلى إغضاب عامل باجة، وهو صنيعة مصطفى خوجة، فٱمتلأت نفسه غيظا على المترجَم فدبِّرت مؤامرة لاغتياله تولَّى تنفيذها ٱبن أخ عامل باجة، فرج الزُّوز فصرخ عليه وجه بارود.

وهذا الصَّرخ وإن لم يصادف من المترجَم مقتلا كان هــو الــسَّبب في وفاته، وقد حكَّمه حمُّودة باشا في الصَّارخ عليه فحكم عليه حكما قاسيا لا رأفة فيه، تركه أحدوثة وأوغر عليه صدر الباي، فلمَّا تماثل للشِّفاء، وقــصد باردو رأى الإعراض من حمُّودة باشا، فٱجتمع على المترجَم الأمــران أثــر الصَّرخ، وٱنحطاط المنزلة فأدَّى ذلك إلى وفاته إثر ذلك سنة 1202هـــ.

فالدَّافع لاغتياله ليس شريفا، وإنَّما هو أحقاد ٱمتلأ بها صــدر الــوزير مصطفى خوجة على المشرف على العمَّال الذي درَّ عليه إشرافه أموالا جمَّة وهو يوسف صاحب الطَّابع بإشارة حمُّودة بن عبد العزيز، وكانت منزلــة صاحب الطَّابع منزلة مكينة فكان الضحيَّة المترجَم.

والظَّاهر أنَّ حمُّودة باشا كان صدره ممتلئا على المترجَم فوجد الحادثــة ذريعة لإقصائه لأنَّه أدلَّ عليه إدلالا لا يحتمل.

والمترجَم جرَّ الأقلام والألسنة على الغضِّ منه، وقد وجد في ذلك ٱبن أبي الضِّياف في إتحافه ما يشفي النَّفس من النَّيل منه، ولهذا أطال في هذه الحادثة المؤديَّة بحياة المترجَم حتَّى يظهر الانتصاف منه.

بينما غيره من المؤرِّخين وهو محمَّد الــسنُّوسي في "مجمــع الــدَّواوين التُّونسيَّة" يجعل هذه الحادثة من رعونة السُّفهاء المتطاولين على عليَّة القــوم إظهارا للغضب وركوبا للجسارة مكتفيا في وفاته وسببها بقوله:

"ولم يزل رحمه الله في عزِّه رافلا وبمحاسن فِقَر آدابه حافلا، إلى أن وفد عليه وافد القضاء وعاجله بما ٱرتضى، بسبب وجه بارود أطلق عليه حــال ركوبه من بعض السُّفهاء القاصدين إظهار كروبه فأسقط بسبب ذلك رجله وبقي في عناء إلى أن قضى أجله".

وذكر في المجمع ما نقش على قبره من قصيد ومنه:

[الخفيف]

يا ضريح عمَّتْــك بــالخير ســحب حين حصَّلت جــسْم هــذا الكــريم
نجل عبــد العزيــز حمُّــودة الأســـــ مىِ أخــي الجــَاه والفــؤاد الــسليم
كــان للخَلْــق ملجــأ ومــــــلاذا بغية المعتفــي وكــنز العديــــــــم
فهو عــون لمـــن أتـــى مــستجيــرا ورجا مـــن نحــا بقلــب كليــــــم

عاش عنـــد الملـــوكِ أعلـــى وزيـــر   لم يفه مـــرَّة بلفـــظ ذميـــــــــم
قد حبـــاه الإلـــه خَلْقًـــا وخُلقـــا   فهـــو ذو نـــضرة وخُلُـــقٍ عظيـــــم

ونلاحظ هنا شيئا، وهو أنَّ الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف من عادته إنـــصاف مترجَميه، وإن كان لا يتحاشى قول الحقِّ إصداعا بالحقيقـــة، وخـــالف في ذلك عادة الكثير من الكاتبين الذين هم عن الحقيقة بمعزل إلاَّ أنَّه في هـــذه التَّرجمة سواء في جزء التَّراجم أو التَّاريخ لا يخلو من تحامل وبـــالأخصِّ في سبب الوفاة، فقد ألقى التَّبعة كلَّها على المترجَم ٱبن عبد العزيز.

والواقف على هذه القضيَّة لا يبرِّئ المترجَم من تلك السُّنة السيِّئة الـــتي سنَّها في ولاية العمَّال في حكومة حمُّودة باشا من تلك المشارطة التي هـــي عبارة عن أموال تؤخذ من مريدي التقدُّم لولاية الأعمال، فهـــي ٱشـــتراء للوظيفة وينجرُّ عن ذلك الشِّراء ما ينجرُّ، لكن الوزير ليس ملقى عليه وحده إذ ٱرتضاها الباي وتولَّى تنفيذها يوسف صاحب الطَّابع غفر الله للجميـــع، ووِزرُ المترجَم أنَّه المتقدِّم بالرَّأي وسير المشارطة تمَّ على يد غيره فلماذا يلقى الوِزر عليه خاصَّة.

وليس عند هذا الحدِّ وقف ٱبن أبي الضِّياف، بل تجاوز ذلك إلى أن ذكر أنَّ للمترجَم ولدا ٱسمه محمَّد ساء حاله، وأباد تراث أبيه في قليل من المـــدَّة بمذاهب التَّرف، وباع الرَّبع والعقار وخرج بالبيع مـــن الـــدَّار ولله عاقبـــة الأمور.

فهذه الفقرة المسجَّعة خلافا لبقيَّة التَّرجمة تبرز العاقبة السيِّئة التي لقيهـــا عقب المترجَم.

ونحن تتريها لمؤرِّخنا الكبير نلتمس له عذرا وهو أنَّه ذكر ما ذكر وعظا وتحذيرا، لا تشفِّيا وتشهيرا، والله يتولَّى السَّرائر.

صورة 4 : ورقة من وسط مخطوط ب عدّة رسائل بخط أبي الحسن الغراب

أبو الحسن الغراب

نسبه ونشأته

أثبت المترجَم نسبه بخطِّه على هذه الصُّورة، وهي أنَّه علي بن محمَّد بن محمَّد، وذكر بعد ذلك ثلاثة من جدوده كلُّهم يسمَّى بمحمَّد، فهم خمسة محمَّديِّين على نسق واحد وهذا عزيز الوجود في أسماء الآباء والجدود، و لم يجره أبوه على هذا النَّسق لأنَّه كان له ثلاثة أبناء فسبقه أخوه لذلك.

وأمَّا لقبه فذكر أنَّه (الغراب) و لم أقف على وجه لتلقيب هذه العائلة باللَّقب المذكور. وقد أعانه هذا اللَّقب على التَّورية فأولع به، وجاءت له في ذلك توريات لطيفة ومن ألطف ما وقع له قوله:

يا من إذا ما لاح بارق ثغره   هطلت عليه سحائب الأجفان
وإذا ٱنثنى كالبان صحت (وربَّما   صاح الغراب على قضيب البان)

والتَّورية في قوله وربَّما صاح البيت، إذ له معنيان معنى قريب وهو أنَّه ربَّما نعق الغراب الطَّائر المعروف على شجر البان، والمعنى البعيد أنَّه ويعني نفسه ربَّما ناح على المتثني كقضيب البان، وربَّما ورَّى عن معنى آخر يهجن ذكره.

وهو في هذا كالسرّاج الورَّاق عمر بن محمَّد الذي أكثر شعره تولّع باسمه (لقبه)، وقد عذبت له في ذلك توريات ومن أعذبها:

وقالت يا سراج علاك شيب   فدع لجديده خلع العذار
فقلت لها نهار بعد ليل   فما يدعوك أنت إلى النّفار
فقالت قد صدقت وما علمنا   (بأضيع من سراج في نهار)

و لم يسرف المترجَم في هذا كإسراف السرّاج الورَّاق، ولكن هذا الأخير مع إسرافه متفنِّن في ذلك.

ولد المترجَم بصفاقس، ونشأ بها، وأخذ عن شيوخها، وذكر منهم صاحب "نزهة الأنظار" الشَّيخ عليًّا اللُّومي[1]، وقد مدحه بقصيد لمَّا ختم عليه كتاب "التَّلخيص في المعاني والبيان":

خذ من فنون فنّ كلّ عويص فالعلم يُعلي قدر كلّ رخيص[2]

والظَّاهر أنَّه كما انتفع به تدريسا وتلقيا انتفع بكتبه التي أتى بها من المشرق.

وأخذ عن شيوخ تونس وفي مقدِّمتهم الشَّيخ محمَّد سعادة (-1171) قاضيها وأنشد فيه بعض شعره ومنه[3]:

[الكامل]

يا كاملاً ساد الأنام بفضله فسما على زهر السَّما وزياده

وقد لازم مسقط رأسه صفاقس مع أنَّه كان غير راض عن وضعه فيها، وفي ذلك يقول في قصيد[4]:

[الوافر]

ومن بلد تأكَّد فيه ذمِّي على أن لا يذمَّ فتى بلاده

ومن عجب رأيت الحرَّ عبدًا بها والعبد يدعى بالسِّياده

وقد شاهدتُ فيها الفضلَ نقصًا وفيها النَّقص فضلاً والزِّياده

وقد نظم هذه الأبيات التي تشكَّى فيها من دهره وبلاده حتَّى همَّ بذمِّها لولا أنَّ الفتى لا يذمُّ بلاده، كيف وهي عزيزة على النَّفس وإن جارت، متوجِّها إلى شيخه محمَّد سعادة الذي ذاع صيته، وكان قاضي تونس.

ومن أسباب هذا التشكِّي ضيق ذات يده حيث لم يتوصَّل إلى ما يغدق عليه الأموال، وتبدَّل به الحال وتبرَّم من ذلك في قوله[5]:

---

1 أبو الحسن علي اللُّومي الصفاقسي، الإمام الفقيه العالم المتفنِّن، رحل إلى مصر وأخذ عن شيوخها. توفِّي سنة 1204هـ (شجرة النُّور364/1).

2 ديوان الغراب ص153.

3 المرجع السَّابق ص139.

4 المرجع السَّابق ص140

5 المرجع السَّابق ص 301.

[الطَّويل]

وبين يمــيني واليــسار مــسافـــــة   كأنّ السُّهى من بعـــدها قـــرب وثبـــة
لأن زعمـــوا أنَّ الخـــلاء وجـــوده   محالٌ فمنقـــوض بكفِّـــي وكيـــستـــي

ومن أجل ذلك ألحَّ عليه الكاتب محمَّد الــدَّرناوي (-1211هــــ) في الانتقال إلى تونس محبِّبا له سكناها، وإيثارها على صفاقس التي لم تعطه مناه، ولم ينل فيها مبتغاه، وأن يستعين في نيل مراده بالشَّيخ سعادة المتقدِّم، وأنشد في الغرض:

سمعًا أبا الحـــسن الغـــراب لنَاصـــــــح   لك يبتغي نيـــل العـــلا وســـياده
أَيَّام دهرك قد مـــضت (بـــصفـــــاقس)   وكذا لياليـــه بغـــير إفـــــــــاده
فاْرحل إلى (الخضرا) لكي تعطـــى المـــنى   وتنال مـــا أمَّلتـــه (بـــسعـــــاده)

وتبرُّمه من بلاده وما كاتبه به الدَّرناوي أهمله مترجموه، وإنَّما جمع ذلك من مجاميع متفرِّقة، ولنا في ذلك عودة.

مدرسته

تخرَّج الغراب من مدرسة أدبيَّة خاصَّة، ولا نطوِّح بالقارئ حتَّى يذهب إلى أنَّ هذه المدرسة التي تخرَّج منها بالاقتداء بها، هي مدرسة من مـــدارس الفكر التي تبرز في مظاهر الشِّعر، لأنَّ الشِّعر من شأنه أن يكون مظهرا مـــن مظاهر النَّفس، فيعبِّر عن الاختلاجات النفسيَّة، بل هذه من نـــوع آخـــر سنعرِّف بها تعريفا بمقوِّماته الأدبيَّة، وطريقة نشأته، ثمَّ تمهيدا لدراسة شعره.

وهذه المدرسة نشأت في الشَّرق خلال القرن السَّابع الهجري، وٱستمرَّت بعد ذلك، وٱمتدَّت ذيولها، ومن مميِّزاتها الإغراق في البديع، وخصَّت من بين ذلك أنواعا منه، وهي التَّورية والاقتباس والتَّضمين وبالأخصِّ التَّورية، فقد تفنَّن فيها أهل هذه المدرسة فاْدَّعاها أهلها لأنفسهم كما جاء في "خزانـــة

الأدب" لابن حجَّة الحموي[1] (-836هـ) وقد علم أنَّ المتأخِّرين من الفاضل -أي من القاضي الفاضل- إلى من فضل بعدهم نور مشكاتها، والمتفيئون في أدواح الأدب بثمراتها، فإذا جليت عرائس أفكارهم على ٱختلاف أنواع التَّورية لا يملُّ المتأمِّل، اللَّهمَّ إلاَّ أن يكون سيف ذهنه كليلا فيقول إنَّه من هذا الفنِّ متنصِّل.

فالأديب في هذه المدرسة لا بدَّ أن يجري في مضمار التَّورية، وإلاَّ فهو كليل الفكر، عديم الذَّوق، وهي قريبة من اللُّغز، وقد أُلِّفت فيها بخصوصها مؤلَّفات ومن أشهرها في تونس مؤلَّف الصَّفدي "فضُّ الختام".

وبرز في هذه المدرسة أئمَّة، وبمتأخريهم كان لمترجَمنا ٱتِّصال، ومن هؤلاء السِّراج الورَّاق المتقدِّم، وٱبن حجَّة الحموي صاحب "الخزانة"، والشِّهاب الحجازي (-875هـ) وهذا الأخير كاد يكون مدرسته الخاصَّة، وسنبيِّن فيما يأتي حلقة الاتِّصال بينه وبين المترجَم.

وتكوين المدرسة التونسيَّة وأفرادها ليس هذا محلّهما، والذي يخصُّنا من أفرادها المترجَم الذي أصبح علما من أعلامها في تونس وبرز تبريزا على كافَّة المشاركين له هنا، ويكاد يقترن ٱسم الغراب بالتَّورية، فما يأتي به من هذا النَّوع يتهافت عليه المولعون بالآداب، ولربَّما نسب له ما ليس له على عادة المشتهرين بجهة فإنَّهم ينتحل لهم ما كان لغيرهم.

وقد خصَّه العصفوري المؤلّف في هذه المدرسة في كتابه "تشحيذ الأفهام بما يحسن من الإيهام" بالذِّكر من بين أدباء عصره في مقدِّمة الكتاب المذكور مع أنَّ الأدباء في هذا العصر وفرة وكثرة، ولكن هذه النَّاحية لم تتوفَّر لهم كما توفَّرت للغراب، ولم يتمكَّنوا من الإبداع فيها كما تمكَّن، وإن كان شعره ليس مقصورا على هذه النَّاحية خاصَّة.

---

1 أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي، الأزراري، تقيُّ الدِّين ٱبن حجَّة، إمام أهل الأدب في عصره، شاعر، جيِّد الإنشاء، من تصانيفه: "خزانة الأدب"، "ثمرات الأوراق" و"كشف اللِّثام عن وجه التَّورية والاستخدام" (الأعلام 43/2).

فالكتاب التُّونسي المعتني بالفنِّ الخاصِّ بالتَّورية وهو: "تشحيذ الأفهـــام" من أبرز رجاله من تونس الغراب، مع ضميمة رجلين آخرين إليـــه وهمـــا مؤلِّف الكتاب ووالده، وأمَّا غير هؤلاء الثَّلاثة فلم يشر إليـــه في المقدِّمـــة، ونسبة ما لغيرهم لا تذكر.

وننقل الفقرة التي أشاد فيها العصفوري بالغراب منوِّها بمكانته الأدبيَّة:

"ولم أدع فيه من نظم أدباء العصر إلاَّ من نظم... ومن نظـــم الأديـــب الأريب، المتفنِّن النَّجيب، الفاتح من بيوت مدينة الآداب، كلَّ باب، المـــانح من خزانة فكرته كلَّ لباب، السَّامي بآدابه على الأتراب، مولانا أبي الحسن علي الغراب"[1].

الغراب والشِّهاب

يجد الباحث تشابها كبيرا بين أبي الحسن الغراب، وبين شاعر آخر مـــن أهل القرن التَّاسع وهو الشِّهاب الحجازي، ونستهلُّ بيان وجه التَّشابه بينهما بالتَّعريف بهذا الشَّاعر الذي فتن بطريقته المترجَم، وتخرَّج به، وهو أحمد بن محمَّد بن علي ويعرف بالشِّهاب الحجازي من مواليد القاهرة سنة 790هـــ، وبها كانت وفاته سنة 875هـــ وكان تعلُّمه أوَّلا متَّجها إلى علمـــي الـــسنَّة والفقه، فعرضت له أسقام بسبب تعاطيه شرب حبِّ البلاذر من أجل تقوية الحافظة، ثمَّ عني بعد ذلك بالأدب حتَّى صار أحد أعيانه، وفرسان ميدانـــه، وله فيه "التَّذكرة" التي تزيد على خمسين مجلَّدا[2].

وفي انتقاله كان عكس شيخه الحافظ ابن حجر العسقلاني (-852هـــ) الذي اشتغل بالأدب أوَّلا وقرض الشِّعر، وبلغ في ذلك الغايـــة، ثمَّ صـــرف الوجهة نحو الحديث وعلومه فكان من أفذاذ أعلامه، وأئمَّة حفَّاظه ويكفيه فيه "شرح البخاري"، وقد رثاه الشِّهاب منوِّها بفضله بما مطلعه:

---

1 تشحيذ الأفهام مخطوط، ورقة 2 ظ.

2 الضوء اللاَّمع 147/2.

كـــــل البريَّـــــة للمنيَّـــــة صـــــائرة   وقفولنـــــا شـــــيئا فـــــشيئا ســـــائرة

ولمَّا ٱنصرف الشِّهاب للآداب ٱنصرف إليها بكليَّته وعاش عيشة الأدباء، وتهتَّك تهتُّكهم في شعره، وجارى أهل عصره فيما هو شائع إذ ذاك، وٱبتكر في ذلك منهجا خاصًّا في كتابه "جنَّة الولدان في الحسان من الغلمان" تأثَّر به الغراب.

ويقول الشِّهاب في مقدِّمة كتابه:

"فقد سألني بعض الأصحاب اللُّطفاء، والأصدقاء الظُّرفاء، أن أجمع شيئا من الأشعار، وإن كانت في هذا الزَّمان قليلة الأسعار، مقترحا عليَّ في ذلك أن لا يكون من كلم شتَّى رواها من روى، بل من نظمي خاصَّة لا غير ولا سوى مقيِّدا في ذلك أن تكون تلك المقاطيع في الحسان من الغلمان حسبما يطلبه أبناء الزَّمان، فكلَّفت طباعي الطَّاعة على حسب الاســـتطاعة وقلَّـــة البضاعة".

ومنهجه المبتكر فيه أنَّ أشعاره في النَّاحية التي أشار إليهـــا ذات طـــابع خاصٍّ، إذ أنَّ الشُّعراء وإن أكثر البعض منهم في الغزل الخاصِّ فإنَّ طريقتهم غير طريقة الشِّهاب في "جنَّة الولدان"، فإنَّه فيه أتى بنُتف عديدة كلُّ نتفـــة في مليح – على حسب قوله – خاصّ وتدرَّج في ذلك من الخليفـــة إلى أن وصل إلى الحرامي (اللصُّ) فقال في الأوَّل:

قلت للـــشَّادن الخليفـــة يـــا مـــــن   قد سبى النَّـــاس حـــسنه: ٱدن مهـــم
ســـدت بـــالجود والمحاســـن فـــيهم   وتقدَّمت مـــن تخلفـــت عنهـــــم

وفي الأخير مع التَّورية:

ولصٌّ ســـارق مـــن بعـــد نهـــب   لبيت القلـــب مـــن جفـــني منـــامي
ســـعى في قـــتلي ورمـــى فـــؤادي   وعـــاد يطـــوف بالبيـــت الحرامـــي

فما من صاحب حرفة أو صناعة أو ديانة إلاَّ ونظم فيه، وكذلك له أنظام في أصحاب أسماء مختلفة، وألقاب متنوِّعة.

وهذه الطَّريقة نفسها سلكها الغراب، فله في ذلك نُتف نظمها تغزُّلا في أصحاب أسماء متنوِّعة.

ومن نماذجه في سلوكه هذا المسلك وتفنُّنه في التغزُّل حسب الأسماء والألقاب متصيِّدا لذلك توريات متنوِّعة منها قوله فيمن ٱسمه مراد مورِّيا به[1]:

[الكامل]

لا زلت أخضع للزَّمان ودأبه   فيما أروم من الحبيب عنادي
حتَّى رثى لي رحمة وأنالني   منه المراد (وما وراء مراد)ي

وقد تمتَّك في هذه التَّورية وهو في هذه النُّتفة أحسن حالا من نتف أخرى كشف فيها القناع.

وله فيمن ٱسمه عطاء الله[2]:

[الكامل]

يا مانعي وصال من أحببته   بزواجر قد ذكروا ونواهي
الله أعطاني حبيبا مخلصا   فمنعتموني من (عطاء الله)

وله في مليح يدعى بالغربي[3]:

[الطَّويل]

ولَمّا تبدّى راعني بجماله   وأمسيت من وجدي به خافق القلب
ولاحت لنا شمس الضحى من جبينه   ألا فٱعجبوا شمس تلوح من الغربي

و لم يقتصر الغراب على النَّظم في الأسماء والألقاب بل تجاوز ذلك إلى ما تناوله الشِّهاب الحجازي في النَّظم في نحويٍّ أو فقيه، إلاَّ أنَّ الغراب كانت

1 ديوان الغراب ص196.
2 المرجع السَّابق ص260.
3المرجع السَّابق ص189.

وجهته في الأسماء وما نظمه في أصحاب الأوصاف أقلّ من القليل، من ذلك ما أنشده في نحويّ[1]:

[الوافر]

ونحويّ خلـــوت بـــه فباتـــــــــت مراشـــفه تعلّلـــني بـــسكـــــــر
فمنصوب القـــوام ضـــممت ضـــمّا (ومضموم فتحـــت بـــلام جـــر-ي)

وفيه أنشد الشّهاب الحجازي:

روحي الفـــداء لنحـــويّ فتنـــت بـــه قد شاع حبّـــي فيـــه فهـــو مـــشهور
قد جرَّ بـــاللّحظ قلـــبي نحـــوه فلـــذا قلبي وألحاظـــه جـــار ومجـــــرور

إنّ التّشابه بين الشّاعرين في هاتين النُّتفتين تشابه يدلُّ على أنّ المتـــرجَم أراد معارضة الشّهاب في النّحوي، فجاراه في التّورية بالجار والمجرور، إلاّ أنّ على الغراب في هذه النُّتفة مؤاخذة في جعل فتح المضموم بلام الجرِّ، مع أنّ لام الجرِّ عملها في العربيَّة هو الجرُّ، ومن أجل ذلك سمِّيت بلام الجرِّ فـــالفتح له عوامل أخرى غيرها، وله مندوحة بأن يقول (ومضموم كسرت بلام جرّ) إلاّ أنّ المعنى يسمج، إذ التغزُّل فيه لا يليق الكسر به، وما قصده من الفتح لا تخفى توريته وما يرمي إليه بها إلاّ أنّ العربيَّة لا تساعد على ذلك.

والغراب وإن جارى الشّهاب في هذا المضمار إلاّ أنّه لم يكثر في ذلـــك كالشّهاب الذي ألّف فيه تأليفا خاصًّا وهو "جنَّة الولدان" كما تقدَّم.

ثمَّ إنَّه لم يجار فحسب بل ٱلتزم في نتفه ما لم يلتزمه الشّهاب من التَّورية أو التَّضمين أو الاقتباس، فإنَّ كلّ أنظام المترجَم في ذلك قد ٱلتزم فيها أحد تلك الأمور بخلاف الشّهاب إذ لم يقيِّد نفسه بذلك، وإن كانت له توريات إلاَّ أنَّها لم تلتزم، فلم يماشه مماشاة تامَّة (من أجل ذلك بـــدت شخـــصيَّته الشّعريَّة) ذات الميزة.

---

1 ديوان الغراب ص211.

ومن غرام الغراب بالشِّهاب أنَّه نسخ ثلاثة دواوين من دواوين الشِّهاب الحجازي تولُّعا بها وترسيخا لطريقته في نفسه، وهي دواوين ذات نتف ومقاطيع كلٍّ واحد منها في غرض خاصٍّ وهي:

"جنَّة الولدان في الحسان من الغلمان"

و"قلائد النُّحور في جواهر البحور"، ٱستخرج فيه من القرآن الكريم ما جاء على وزن الأبحر ٱتِّفاقا.

"الكنَّس الجواري في الحسان من الجواري"، وألَّفه بعد كتابه "جنَّة الولدان" وهو فيه يكفِّر ما سبق له في الحسان من الغلمان:

قد سلونا عن الحبيب بخود   ذات حسن فيه الجمال تفنَّن
ورجعنا عن التّهتُّك فيه   ودفعناه بالتي هي أحسن

وهذه الكتب نسخها الغراب بخطِّه ضامًّا لها كتابين آخرين: "منتخب ديوان القيراطي"[1] وأحد دواوين الحافظ ٱبن حجر.

وهذان الأخيران من هذه المدرسة المغرمة بأنواع البديع وبالأخصِّ التَّورية التي شغلت الأذهان في تلك الحقبة.

وكان نسخه لهذه الكتب الخمسة أواسط ربيع الثَّاني عام ثمانية وخمسين ومائة وألف، ونقل نسخته من "قلائد النُّحور" عن نسخة منقولة من خطِّ الشِّهاب الحجازي.

وذيّل نسخته بما ذيَّلت به نسخة الشِّهاب الحجازي بأوَّل شعر نظمه الشِّهاب في معنى الحديث المشهور.

يا من غدا من الذنوب في وجل   وخائفا من الخطايا والزَّلل
كن راحما للخلق ٱرج رحمة   فإنَّما الجزاء من جنس العمل

1 إبراهيم بن شرف الدِّين بن عبد الله بن محمَّد القيراطي المصري برهان الدِّين. له ديوان شعر سمَّاه "مطلع النيرين" ومجموع أدب "الوشاح المفصَّل" توفِّي سنة 781هـ/1379م. (كحالة 38/1).

صراع الحياة

يتصيَّد الواقف على شعر الغراب علاوة عن تراجمه أنَّه كان في صراع مع الحياة سواء مع خاصتَّه من ذوي قرابته، أو مع أرباب النُّفوذ بـــصفاقس، أو مع أهل بلده، وحتَّى غيرهم.

وشأن الأديب إذا ٱعترضته عوارض في الحياة أن لا يَجم[1] أمامهـــا بـــل ينطلق لسانه إمَّا بالشِّكاية أو الهجو المتناول للّذين يعتقد أَو يظنُّ أنَّهم كانوا حجر عثرة في إقامة حياة سعيدة، وينتج عن ذلك أدب الشِّكاية والـــضَّجر وهو نوع تستطيبه النُّفوس الغضبى من الحياة، وتجد فيه مثل ما تجد في نفسها فيكون لها سلوى.

وكان الغراب في هذا الصِّراع بين أمرين يدور تشكِّيه عليهما، فهو إمَّـــا ٱستنجاد بذوي النُّفوذ الذين يرى فيهم وصوله إلى مبتغاه، والظَّفر بمرامـــه، فكان أدبه ذريعة التوصُّل إلى إدراك المقاصد.

وإمَّا هجو لمن دبّت سعايتهم فضايقوه في مرامه، وكانوا شجا في حياته فأبغضهم، فكان الانتقام منهم بسلاطة اللِّسان، وهؤلاء المنتقم منـــهم إمَّـــا النَّائلون من عرضه، أو الحائلون بينه وبين أمانيه، ومن هنا كثرت أعاديـــه، ولسعوه كالأفاعي، وحالوا بينه وبين ما يشتهي ويتطلَّع إليه، فحين أمكنتـــه الفرصة ٱندسُّوا في حواشي علي باشا، فٱقتنع برأيهم وأحجم عمَّا عزم عليه من توليته الكتابة بالدَّولة التونسيَّة حين أعجب بقصيدته الرَّائيَّة التي يقول في مطلعها:

[الطَّويل]

فجفني بـــشرح الحـــبِّ درس يقـــرَّر   عليّ حواشـــي الـــسقم منِّـــي تحـــرَّر

فإنَّ الباشا المذكور لَمَّا وقف على قصيدته تلك همَّ بتوليته، إلاَّ أنَّ الحسدة النَّاقمين ٱستطاعوا أن يقصوه عن تلك الوظيفة السَّامية، فٱقتـــصر الأمـــير المذكور على ضمِّه إلى سلك العدول بالبلاد.

---

1 الوجوم، السُّكوت على غيظٍ، والواجم هو الذي أسكته الهمَّ وعلته الكآبة. (اللِّسان).

ومن نكد حظِّ المترجَم أنَّه يوم جلوسه للإشهاد بمكتب عـدلين برسم الشَّهادة معهما عزلا في ذلك اليوم الذي ٱنتصب فيه فأدَّت هذه الصُّدفة إلى التطيُّر منه فعرَّض بعض الشُّعراء به قائلا:

[الوافر]

حوانيت الـشُّهود عفـت وأمـست   عيـون معمّريهـا مثـل عـين
وقد سأل الأنـام بـأيِّ ذنـب   فقلـت مؤرِّخـا (بغـراب بـين)

وهاجيه بالبيتين المذكورتين لم يظهر ٱسمه، وإنَّما قالهما وأشـاعهما دون أن ينسبهما لنفسه خشية من هجو المترجَم وإقدامه في الـردِّ، ومـع هـذا الإخفاء فإنَّ الغراب تفرَّس في شخصين وهجاهما معا، وهجوه لهمـا مـن الاحتياط في الهجو فأيُّهما هجاه يكون قد ردَّ عليه وشفى غليل نفسه بالنَّيل منه.

وقد ٱعتذر له المرحوم محمَّد بيرم الرَّابع (-1278هـ) في كتابه: "الجواهر السنيَّة في شعراء الدِّيار التونسيَّة" بأنَّه يحقُّ له ذلك لأنَّه ذبَّ عن العرض وأيَّد ذلك بقوله -أي الغراب-:

[الطَّويل]

وإن لسعت عرضي عقـارب ألـسن   فـإنَّ لـساني في اللَّواسـع عقـرب[1]

وقد تطرَّف وأبدع هذا الهاجي في ٱستخلاص تاريخ بديع أرَّخ به هـذه الحادثة التي صادفت المترجَم حيث ٱستخرجـه من لقبـه لأنَّ قولـه (بغراب بين) بحساب الجمل (1167) وهذه السَّنة هي السَّنة التي جلس فيها الغراب بمكتب الإشهاد الذي عزل العدلان به يوم جلوسه، وهذا التَّـاريخ على طريقة المغاربة، وفيه أنَّ الغين 900 لا ألف كما عند المشارقة.

وهذه السَّنة المنتصب فيها المترجَم للإشهاد تأتي في آخر أيَّام الباشا علي المؤذنة بٱنقضاء حكمه.

---

1 جاء في "الجواهر السنيَّة" ص419، "فإنَّ لساني في اللَّواسع أرقم".

وجاء في "المنتخب المدرسي" في ٱقتضاب ترجمته "أنّه ٱتّصل بأمير عصره علي باشا ٱبن محمّد الحسيني، فضمّه إلى ديوانه، وجعله من خواصِّ ندمائه وله فيه النّظم الرّائق".

ومع أنَّ الذي يفيده ما جاء في "الجواهر السنيَّة" خلاف ما جاء في "المنتخب المدرسي" لم أقف على مصدر يعتمد ٱستقى منه صاحبه المنتخب المدرسي، ثمَّ إنَّ الباشا عليًّا ليس حسينيًّا وإنَّما هو باشي كما هو متعارف في تلك الفتنة من ٱنقسام البلاد إلى حسينيَّة وباشيَّة.

ومن ٱستنجاد الغراب وتعريضه بمن حال بينه وبين ما يريده ما ختم به قصيدته التي مدح بها علي بن حسين، وذمَّ فيها أهل جبل وسلات، فقد ذكر في ختمه لها وصف حاله والشّكوى من عامل صفاقس الذي ماطله بصلة وعده بها الأمير المذكور، وطالع القصيدة[1]:

[الخفيف]

زارع البغي حاصد للنّدامة   فٱطلب السِّلم إن أردت السّلامه

ومن أبيات تشكّيه:

يا مليكا مني به لاذ شاك   من سقام الزّمان أشفى سقامه
أنا أشكوك من زمان غدا بي   مضمر القلب خازنا آلامه
غربتي في البلاد مدَّت نواها   لاضطراري والقصد قصد الإقامه
وظننت المقام لي فيه يسر   فتبدَّى بالعسر أقوى علامه
فيه وطّنت للشّدائد نفسي   فأرى من لذائذي إيلامه
بعت ما لم يبع لقوتي ٱضطرارا   من جميع الكسى وكور العمامه
والذي قد أمرت للعبد فيه   منعت عنِّي الولاة ٱغتنامه
أفظنُّوا بأنَّ أمرك نهي   أو إلى النَّدب أولوا أحكامه

1 ديوان الغراب ص 111-114.

أم خطاب أتى لهم فيـــه نـــســـــخ	رفع الحكم لي وأبقـــى ٱرتـــسامــــــه
فكأنّ الذي بــــه قـــد أمرتُــــــــم	قطعة من قلـــوبهم أو غرامـــــــــه
فٱحمني يا مليك وٱرفـــع مقامـــــي	من أعاد وحـــسد نمّامـــــــــــــه
أنت أعلـــى مـــن أن يـــغرّك واش	فتظنّ السّراب مـــاء غمامـــــــــــه

وكان يقدم إلى العاصمة التونسيَّة فيقيم الأشهر لإصلاح الأحوال وقضاء المآرب وخصام الأقارب، فلم يقتصر صراعه على حسَّاده بل تناول أقاربه، من ذلك ما جاء في "نزهة الأنظار"[1] أنَّ أباه كان أوصى لذكور المتــرجَم، وذكور أخويه بالثُّلث من تركته و لم يكن له إلاَّ ذكر واحد، وأمَّـــا أخـــواه فكان لكلٍّ واحد منهما ذكور، فتنازع الإخوة، أمَّا المترجَم فكان يطالـــب بأن تكون القسمة على عدَّة جهات أولاد الموصي الثَّلاثـــة ليفـــوز بثلـــث الوصيَّة، وأمَّا أخواه لتعدُّد ذكورهم فطالبوا بالقسمة لا على الجهات وإنَّما على الرُّؤوس لتوفير حظِّهما فٱستفتى المترجَم في ذلك فكانت الفتوى بحسب مطلبه لأنَّه الجاري به العمل وحكم له قاضي صفاقس بذلك، ثمَّ توجَّـــه إلى تونس العاصمة لتأكُّد ما حكم له به، فٱستفتى الشَّيخ ســعادة نظمـــا مـــع الاعتذار عن تأخيره في الاستفتاء[2]:

[الكامل]

يا كاملا ســـاد الأنـــام بفـــضلـــــه	فسما علـــى زهـــر الـــسَّما وزيـــاده
ألقت إليـــك المـــشكلات ســـلاحها	مـــن طوعهـــا قهـــرا وغيـــــر إراده
ما جاء بابـــك للإفـــادة سائــــــــل	إلاَّ سمحت لـــه بخـير إفـــــــــاده
مهما أتى مـــستنجدا مـــن دهـــــره	مـــا عـــوده إلاَّ بخـــير أعـــــــاده
نظم الأفاضـــل درهـــم في عقدنـــــا	ولقد رجوت بكـــم تمـــام قـــلاده
إنِّي جعلتـــك للختـــام لأنَّـــــــــه	ذو الفوز من يختـــم لـــه (بـــسعـــاده)

فأجابه الشَّيخ محمَّد سعادة على حسب مرغوبه بقصيدة منها:

---

1 "نزهة الأنظار في عجائب التَّواريخ والأخبار" لمحمود مقديش 203/2.

2 ديوان الغراب ص139.

حمدا لمـــن زان الوجـــود بعـــصبـــة فضلا في حلِّ العـــويص وقــــــــــاده
فهم الكهوف لمـــن أتـــى مـــستنجدا ولهم بأسرار العلـــوم إفـــــــــــاده
وصلاته وسلامه تتـــرى علـــــــى من أوضـــح الـــدِّين القـــويم وشـــاده
فهو الصَّحيح وما حكـــوا مـــن أنَّـــه عرف لـــديهم في الـــبلاد وعـــــاده
يقضي بها أيضا ويكفيـــك الـــــذي قد أسندوا عـــزوا بغـــير زيـــــــاده
فأقبله يا من قـــد أتـــى بقريظـــــــة ســـحرا وحلاَّنـــا بخـــير قــــــــلاده
وآعذر بنـــسج هلـــهل لكنَّـــــــــــه بقبـــولكم يكـــسي حلـــي سيـــــاده
فالله يمنحنـــا مواهـــب فـــضلـــــه ونـــال في الـــدَّارين خـــير سعـــاده

وحكم القاضي الحنفي أبو العبَّاس أحمد الطرودي المتـــوفَّى بعـــد ســـنة 1161هـــ بذلك.

وجرى نظير هذا بين العصفوري والشَّيخ سعادة المذكور[1]. ولست أدري من السَّابق أهو العصفوري أم الغراب، ولا شكَّ أنَّ أحدهما اطّلع على نظم الآخر لأنَّ التَّشابه قريب جدًّا.

تناقضات

تناول شعر الغراب ما هو متعارف في قرض الشِّعر في تلـــك الأعـــصر، فالأنواع المطروقة آنتهجها وبالأخصِّ المدح والمجون وله في كلٍّ منهما أشعار وفيرة، وهو في قريضه يسترسل مع القريحة، وينساق مع شـــاعريَّته بـــدون حدود محدودة، ولا يتقيَّد بقيود يرعاها من يرعاها، فأرسل قريحته في مجونه وخلاعته، وبجانب ذلك أراد أن يساهم الشُّعراء الذين آمتـــدحوا الجانـــب النَّبوي صلوات الله وسلامه عليه، وكانت لهم جولات شعريَّة خدموا بها هذا الجانب الكريم فأثاروا كوامن الحبِّ، وغرسوا الإخلاص له.

---

1 ينظر ترجمة أحمد العصفوري ص46. ؟

ولم يشأ الغراب إلاَّ أن تكون له كذلك خدمة لذلك الجانب الشَّريف فأنشد تخميسا ضمَّنه تشوّقه إلى الزِّيارة النبويَّة وقد خمَّس به قصيدة له في المدح النَّبوي حين مرض[1]:

[الطَّويل]

تناءى فدمع العين منّي في سكب وجسمي في محلّ وشوق في خصب
ولمّا تولّى الركب في أيمن الشعب تولّى فؤادي حيث ولّوا مع الركب
فها أنا في أسر النّوى فاقد القلب

دموعي فوق الخدّ من مقلتي دم ونومي من حفني عليّ محرّم
وقلبي من فرط الأسى يتألّم وصبري ناء والغرام مخيّم
يبوح به واشي المدامع من سكب

فؤادي بمن أهوى يزيد صبابة ويزداد منّي كلّ حين كآبة وجسمي
ويملأ عيني كلّ حين سحابة أضحى يضمحلّ إذابة
ونومي من ذكر الأحبّة في سلب

يهيم إلى ذكر العذيب وبارق فؤادي إذا ما شمت لائح بارق
وقد كان من أهواه غير مفارقي فتهت بطيف في الكرى منه طارق
فضنّ ولم يسمح إلى الطّيف بالقرب

وبجانب هذا المدح الطَّاهر النَّقيِّ هام في نُتفه الشِّعريَّة، وبعض مقطعاته، وكان في شيء منها خليعا غاية الخلاعة، ورفع منها الحياء الذي يتستَّر به الأدباء الخلعاء أو الهجَّاؤون وخالف قانون الأدب الخلقي، وصرَّح بما يهجن إمَّا إمعانا في المهاترة أو توغُّلا في المجون.

وهذا التَّناقض في جمعه بين الطَّهارة والرِّجس له ما يسوِّغه، وهو أنَّه في أمداحه الطَّاهرة أراد أن يكفِّر عن خلاعاته ومجونه وغير ذلك، وشأنه في ذلك شأن الشُّعراء الشَّاعرين بوخز الضَّمير حين يستهترون، ويجرون وراء إطلاق العنان للقول فيخلطون بين العمل الصَّالح والآخر السيِّء فإذا ما

---

1 ديوان الغراب ص28.

سمحوا لأنفسهم بالاسترسال مع ظروفهم الخاصَّة وأباحوا لها ما تهوى قابلوا ذلك بجديَّة في أشعارهم لتغلب الحسنات السيِّئات.

وهذا ما لَمَّح له الغراب في مقدِّمة ديوانه التي كتبها بقلمه والتي خطَّ فيها ترتيبه فجعل فاتحته وخاتمته في المدح النَّبوي ليكون الوسط معفوًّا عنه حيث أنَّ المقدِّمة والخاتمة في غير مهيعه[1]:

"ولمَّا كان حقًّا على كلٍّ من يتعاطى هذه الصِّناعة أن يجعل جلَّ ٱهتمامه في مدح صاحب الشَّفاعة، فلعلَّ أن يكـــون تـــسويدها في بـــيض هـــذه الصَّحائف، يبيض في غد سود هاتيك الصَّحائف، جعلت في ٱبتـــداء هـــذا المجموع ما تيسَّر لي من مدحه، وجعلت في ختمه من المدح أيضا ما جعلته في فتحه".

وإن أنبأ هذا منه على شيء فإنَّه ينبئ على أنَّ روحه الدينيَّة غير خامـــدة الأنفاس، فهي وإن كانت تلهو، وتستهتر، وتنساق مع الهوى لم تـــبرح أن يثوب إليها الرُّشد فتُنيب، وتلتمس الصَّالحات، وتأخذ فيما ينفع.

وإن وجد مبرِّر في التَّباين بين جدِّه وهزله في شعره ليقظة الشُّعور الدِّيني فهناك في شعره تناقض لا مبرِّر له، وإنَّما هو ٱضطرابات نفسيَّة تنبئ بعـــدم الاستقرار، والبلبلة المنتابة للنَّفس في نظرتها إلى النَّاس، فتارة تنظر إليهم بعين ٱجتماعيَّة، وأخرى تنظر إليهم كأنَّهم أعداء الـــدَّاء، وتبـــع شـــعره هـــذه الاختلاجات النفسيَّة المختلفة، فٱضطرب بٱضطرابها، وتلوَّن بتلوُّنها، ونأخذ لذلك مثلا في صلته بأبناء الشَّرفي، وهم أبناء الشَّيخ أحمد بن محمَّد الـــشَّرفي (-1195هــ) حيث ٱختلف شعره فيهم، فمرَّة ذمَّهم وأخـــرى مـــدحهم وتكرَّر ذلك منه، فمن تناوله لهم ما أنشده العصفوري في "تشحيذ الأفهـــام بما يحسن من الإيهام" في قافية الثَّاء المضمومة:

"وله في أبناء الشَّرفي، وهو حسن وأحمد والطيِّب وعلي[2]:

1 ديوان الغراب ص22.

2 المرجع السابق ص271.

[الوافر]

أرى الـــشَّرفين لـــيس لهـــم عهـــود	وغـــدرهم بـــصاحبهم حثيـــث
وأحـــسنهم وأحمـــدهم قبيـــــح	ومـــذموم بـــذا شـــاع الحـــديث
وإنَّ علـــيَّهم أبـــدا وضيـــــــع	تـــراه وإن طيِّـــبهم خبيـــث"

وكما ذمَّهم جمليًّا مدح بعضهم فرادى، فمدح الشَّيخ حسنا[1] بقصيدة نوَّه فيها به تنويها عريضا، وعرّض بغيره ممَّن يعترض عليه من معاصريه[2]:

[البسيط]

يا آخذا من دروس العلـــم ظاهرهـــا	ما في ظواهرهـــا للحـــقِّ تبيـــان
دع عنك ما تدَّعي للعلـــم مـــن نـــسب	فللعلوم مجـــالٌ فيـــه فرســـان
فمـــا أراك مـــدى الأيَّـــام مجترئـــا	إلاَّ على كـــلِّ درس فيـــه صـــبيان
فمن يكن طالبـــا للعلـــم مجتهـــدا	والقلب منـــه إلى التَّحقيـــق ظمـــآن
ورام للعلم تحـــصيلا يكـــن كأبـــي	محمَّد حسن شيخ لـــه شـــان
حبر زكيٌّ جليـــل فاضـــل علـــم	ففكره في مجال البحـــث جـــذلان
سَما على كـــلِّ قـــرن في الفنـــون وقـــد	سارت بتحقيقه في العلـــم ركبـــان
إذا تزيَّنـــت الأيَّـــام وٱفتخـــرت	بأهلها فبه الأيَّـــام تـــزدان
في الدَّرس يـــبرز مـــن أبحاثـــه نكتـــا	كأنَّها فوق صحف الخـــدِّ خـــيلان
لو ســـابقت فـــضله الأفـــلاك دائـــرة	لعاقها عن ســـباق الفـــضل دوران
زادت بنو الـــشَّرفي طـــرًّا بـــه شـــرفا	فهم به في عيون النَّـــاس أعيـــان

والذي ٱنطلق لسانه بالتَّنويه والتَّمجيد ما قلَّده ممدوحه من منن، أزالت الإحن، وأطلقت اللِّسان، وفجَّرت البيان:

قلَّدتني مننا لا أســـتطيع لهـــا	حملا، وإنِّي بمـــا قلِّـــدت تعبـــان
ولو يقضِّي الفتى من دين شـــكرك مـــا	ينوء بـــالأرض ثقـــلا فهـــو مـــديان

---

1 حسن بن أحمد بن محمَّد الشَّرفي الصفاقسي، ولي خطابة الجامع الأعظم بصفاقس ثمَّ أولاه الأمير قاضيا ثمَّ مفتيا، مات بالطاعون سنة 1199هـ (عنوان الأريب 570/1).

2 ديوان الغراب ص177.

وليس ببعيد أن تكون المنّة بفتح مجال الإشهاد في وجهه فدرّت الأموال، وٱستقامت الأحوال.

ولم يكتف بقصيدته تلك بل أنشد في إنشاء سقف في بيت الطيّب الشّرفي مادحا له ولصانع السّقف الشّعبوني[1]:

[الرّمل]

حسن هذا السّقف يحكي في البها روض زهر أو محيّا من تحب
خصّ بالحبر المعلّى طيّب شرفي حين يدعى في النّسب
وإلى الشّعبوني يعزى صنعه متقن الأشياء من غير نصب
أدع للمالك يا ناظره بهنـاء وسرور وطرب
ثمّ قل من بعد في تاريخه (نجز السّقف المبارك في رجب)

وللوزن يقرأ المبارك بالسكون وصلا، وهذا التّاريخ على الطّريقة المغربيّة، وجملته (1160).

ديوانه

من أبرز ما لأبي الحسن الغراب ديوانه[2] الذي جمع فيه شعره، وقد نوّه به مترجموه، ومنهم صاحب "نزهة الأنظار"[3] ذكر أنّه ديوان كبير، وكذا صاحب "عنوان الأريب"[4] حيث قال: "وله ديوان شعر كبير متداول بين النّاس، كلّه عيون".

وحسبما وقفنا عليه فإنّه جمع شعره في مجموع كما تنصّ عليه خطبته، وضمّ إليه نثره ودعاه إلى جمعه أنّ الرّقاع التي كان يكتب فيها شعره كثرت لديه، فصار كلّما طلب الرّجوع إلى شيء من شعره أعوزه البحث شأن الأوراق المتناثرة التي لم تضبط.

---

1 ديوان الغراب ص208.

2 حقّق من طرف الأساتذة محمّد الهادي المطوي وعمر بن سالم. وطبع سنة 1973. (الدّار التونسيّة للنّشر).

3 نزهة الأنظار 430/2.

4 عنوان الأريب 533/1.

وقدّم هذه المجموعة الشِّعريَّة بمقدِّمة أهمّ ما ضمَّنها أنَّه تيقَّن أنَّ الكثير من شعره يتنافى والأخلاق، ولا يلتقي مع المبادئ الدينيَّة في صعيد، ولكنَّه لم يحذفه ضنًّا به، وٱعتزازا لأنَّه يتضمَّن من رقيق الشِّعر ولطيفه ما يطرب، وإن كان فيه ما يهجن، فأثبته معتذرا بأنَّه قاله في مطارحات شعريَّة لا ٱتِّصال لها بالواقع، فهي لا تؤرِّخ وقائع مخصوصة وكأنَّه خشي أن تناله الألسنة لأنَّه ٱعترف في بعضها ٱعترافا صريحا.

وهذه المقدِّمة في ذاتها قطعة أدبيَّة من نثره، وقد ظفرت بها مع منتخبات من شعره، ولم تثبت هذه المقدِّمة في بعض نسخ الدِّيوان التي سنأتي على وصف البعض منها.

وإنَّما نقتصر الآن على المقدِّمة المثبتة في طالعة منتخبات ديوانه لأنَّها بقلمه بخلاف بعض النُّسخ فإنَّها بقلم من جمع الدِّيوان وهذا يتحتَّم البحث عن جامع ديوانه أهو الغراب نفسه أو تولَّاه غيره؟

وقبل أن نأتي على ذلك نذكر المقدِّمة المشار إليها[1]:

"الحمد لله الذي أنشأ العالم في أحسن نظام، وخصَّ من شاء من مزيد التفضُّل والإنعام، والصَّلاة والسَّلام على المحمود بكلِّ لسان، المعجز ببلاغته الإنس والجان، وعلى آله الأصفياء، وأصحابه البررة الأتقياء.

أمَّا بعد فقد كنت في غرَّة الشَّباب – غفلته – ولعا باللَّطائف من فنون الآداب قنَّاصا لشواردها، غوَّاصا على فرائدها، فإن نشرت ٱزينَّت بنثر الأزهار والزواهر، وإن نظمت خلَّلت بمحاسن نظم الجوزاء وعقود الجواهر.

ولم ٱقتصر على فنٍّ واحد من الفنون، ولا بٱنتقالي من أساليب الكلام من المجون والخلاعة إلى الجدِّ، أو من الجدِّ إلى الخلاعة والمجون، إظهارا لقدرتي على تلك المعارف، وتحديثا بنعم الله الذي أورثني إبراز هاتيك الدَّقائق.

وما ذكرت من ذلك لم يكن شيء منه مطابقا للواقع، أو جاريا على حسب الحوادث والوقائع، بل على حسب ما يقتضيه المقام من الفكاهات،

1 ديوان الغراب ص21-23.

أو ما يرد من كلام البلغاء على ذلك الأسلوب في بعض المطارحات، على أنّها سنّة معهودة عند البلغاء والأدباء، وطريقة مسلوكة بين الشُّعراء والخطباء، ولم يتحاش عنها من عانى تلك الصِّناعة، أو ٱستبضع في سوق الآداب هاتيك البضاعة ولو كان المتعاطي لها الجنيد[1] أو عمرو بن عبيد[2].

ولمّا كثرت عندي رقاعها، وٱمتلأت بقاعها، وصرت كثيرا ما ألتمس منها بعض ما تدعو الحاجة إليه لم أجده، وأحاول إنشاد بيت ممَّا كنت نظمت منها فيغيب عن ذهني كأنّي لم أنشده، جمعت حينئذ ما قدرت عليه منها في هذا الزّبور وجعلته فصلين: الأوَّل في المنظوم، والثَّاني في النّثور، ولم أراع فيه حسن التَّرتيب، ولا ميَّزت البعيد من القريب، طلبا للسُّرعة خوفا من عوادي الطوارق، وٱنتهازا للفرصة بين رقباء العوائق.

ثمَّ إن ساعدني – بحول الله – في هذا الجمع الزَّمان، لخَّصته في مجموع آخر ورتَّبته ترتيبا لا يشبه حسن ترتيبه ديوان.

ولمّا كان حقًّا على كلٍّ من تعاطى هذه الصِّناعة أن يجعل ٱهتمامه في مدح صاحب الشَّفاعة، فلعلَّ أن يكون تسويدها اليوم في بيض هذه الصَّحائف، يبيِّض في غد سود هاتيك الصَّحائف جعلت في ٱبتداء هذا المجموع ما تيسَّر من مدحه، وجعلت في ختمه من المدح ما جعلته في فتحه.

وها أنا أشرع فيما ٱعتمدته، مستعينا بالله من ألجأت ظهري إليه وأسندته".

ومن مبالغة الغراب في هذه القطعة أنَّه يجعل للجنيد بن محمَّد البغدادي (–297هـ) شيخ التَّصوُّف وقرض الشِّعر لصنع صنيعه، وفي الحقِّ أنَّ الجنيد كانت تجتمع عليه طوائف متعدِّدة منهم الشُّعراء لفصاحته ومعانيه، لكن مع

1 الجنيد بن محمَّد بن الجنيد البغدادي الخزاز، أبو القاسم صوفي، كان يعرف بالقوارير لصنعه القوارير، أوَّل من تكلَّم في علم التَّوحيد ببغداد. (الأعلام 137/2).

2 عمرو بن عبيد بن باب التَّيمر بالولاء، أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة في عصره ومفتيها. ٱشتهر بزهده وعلمه وأخباره مع المنصور العبَّاسي. من كتبه "التَّفسير" و"الرَّد على القدريَّة". (الأعلام 252/5).

أنَّه جرى في شوط الشّعر لا تسمح له نفسه أن يقول ما قاله الغراب، وإنَّما ٱلتمس الغراب لنفسه عذرا بأنَّ الجنيد وهو لا يتورَّع أن يقول مقاله إذا بسط بساط المطارحات، وفتح باب القول على مصراعيه.

وكما لزَّ بالجنيد في هذه المضائق لزَّ فيها بعمرو بن عبيد (-144هـ) الذي حجَّ ماشيا أربعين سنة، ولزهده في الدُّنيا أنشد فيه المنصور حين ٱتَّبعه طرفه:

كلُّكم يمشي رويد كلُّكم يطلب صيد
غير عمرو بن عبيد

فهذا الذي لم يسأل المنصور حاجة إلاَّ أن لا يبعث إليه تخيله الغراب في مكانه، وينشد إنشاده، ولا أظنُّه فاعلا.

وهذا يدلُّ على ٱتِّساع مادَّة الغراب التاريخيَّة حيث ٱختار علمين من أعلام الزُّهد ليس لهما نظير في أمثالهم ومثلهم قليل، أمَّا الجنيد فهو أشهر من أن يعرَّف، وأمَّا عمرو بن عبيد فرغم ٱعتزاله كان الحسن البصري يقول فيه: كأنَّ الملائكة أدَّبته والأنبياء ربَّته.

وهذه المختارات وإن كانت بقلم من هو ضعيف في العربيَّة إلاَّ أنَّه ٱستطاع أن ينتقي منتقيات هي من عيون شعر الغراب، ومال في بعضها إلى شعره الذي يتَّصل بحياته في صفاقس.

ولم يخالف إرادة الغراب فصدَّر هذه المختارات بتحمُّسه الذي تقدَّم ذكر البعض منه.

وكما صدّرت المختارات المذكورة بذلك كذلك صاحب "الجواهر السنيَّة في شعراء الدَّولة التونسيَّة"[1] فإنَّه صدَّر بها مختار شعر الغراب وإنَّما ٱقتصر على القصيد دون التَّخميس.

وهي في الحقيقة من عيون قصائده[2]، ومن عيونها:

---

1 "الجواهر السنيَّة في شعراء الدَّولة التونسيَّة" ص419-450.

2 المرجع السَّابق ص420.

[الطَّويل]

فلذت بجـــــاه الهـــــاشميِّ محمَّـــد ولازمت مدحي سيِّد العجـــم والعـــرب
نبيِّ الهدى المبعوث مهمـــا ذكرتـــه تجلَّى به همِّي وزال بـــه كربـــــــــــي
أتانا بسيف للـــضَّلالـــة حاســـــم ونور من التَّنزيل يهـــدي إلى الـــــربِّ

ويقول في الإسراء والمعراج:

وأسرى به الرَّحمان لـــيلا إلى الـــسَّما فلاقتـــه أمـــلاك الـــسَّماوات بالرَّحـــب
وصلَّى بهم والأنبياء مكبِّـــــــــرا وأدنـــاه إذ نـــاداه ذو العـــرش بـــالقرب

لم يقتصر الانتقاء على المجموعة السَّالفة الموصوفة آنفا، إذ تعدَّد الانتقـــاء لشعره، وهذا بالنِّسبة له مع شعر غيره كثير، وذلك لوفرة شـــعره، فنظمـــه أغزر من غيره إذ الدَّواوين الأخرى غير ضخمة، فديوانـــه يعـــدُّ في عـــدد صفحاته ضعف ما لغيره من المكثرين فضلا عن غيرهم من المقلِّين.

فهناك انتقاء ثان بالمكتبة الوطنيَّة بتونس، وهو وإن كان أقلَّ من الانتقاء الأوَّل، إلاَّ أنَّه يمتاز بالصحَّة النِّسبيَّة نظرا إلى الانتقاء الأوَّل، إذ أنَّه في عربيَّته أحسن وأضبط، مع كونه خطّه أجمل.

وقد جاء هذا المنتقى على وتيرة ما قبله في التَّصدير بـــالتَّخميس الـــذي ذكرنا بعضا منه فيما تقدَّم، ويزيد في القصائد النبويَّة بتخميس آخر مطلعه[1]:

[الطَّويل]

على القلب لي من حب غيركم حجـــب ونجم علاكم في سمـــاء العـــلا قطـــب
صلوا دنفـــا فـــيكم تملّكـــه الحـــبّ لكم مهجتي والرّوح والجسم والقلـــب
وكلّي لكم ملك وإنّي لكم صبّ

وقد اعتنى أيضا بشعره الجاد، فذكر له قصيدة في طلب الغيث:

يا من له المشتكى يا راحـــم المهـــــج عجّل لنا بـــترول الغيـــث والفـــرج

1 ديوان الغراب ص32.

وكذلك شعره في مدح الشُّيوخ وغيرهم كمـــدح أحمـــد الـــشَّرفـــي، وحسن الشَّرفـــي، والغرياني، وبعض ما كاتبه به بعض الأدباء، وما أجاب به المترجَم، وبعض نُتف ومقطعات، وهي قلَّة بالنِّسبة لغيرها.

وتمتاز هذه المنتقيات عن غيرها بكونها تجنَّب فيها ما كان خارجا عـــن الدَّائرة الأخلاقيَّة من التغزُّل أو الهجو.

ومن ضمن منتقياتها قصيدة[1] للمترجَم مدح بها الأزهر وبعض رجاله ومن بينهم الحفنيَّان[2] والشبراوي[3] والبليدي[4].

[الكامل]

ما للمدامع كـــلَّ حـــين تـــذرف   وقويٌّ شـــوقي في الحـــشا لا يـــضعف

تزهـــو بأزهرهـــا الـــذي علمـــاؤه   كحدائق منـــه الأزاهـــر تقطـــــــف

وهذه القصيدة هي التي أشار إليها صاحب "نزهة الأنظار" ولم يذكرها، ومن ذكرها لم يحرِّر من قيلت فيه، ففي بعض المنتقيات يكتفي بقوله: وله.

واحتوى هذا المنتقى على بعض نثره من مكاتيب والمقامة العبائيَّة.

وهذا المنتقى مبتور من الآخر لأنَّ المقامة العبائيَّة غير تامَّة به.

---

1 ديوان الغراب ص162.

2 يوسف بن سالم بن أحمد الحفني، من فقهاء الشَّافعية وشاعر، له عدَّة شروح منها "حاشية على الأشموني" و"حاشية على مختصرالبعد" وديوان شعر. توفِّي سنة 1176هـ/1763م. (الأعلام 308/9).

– محمَّد بن سالم بن أحمد الحفني (أو الحفناوي)، شمس الدِّين، فقيه شافعي، من علماء العربيَّة، من تآليفه "أنفس نفائس الدُّرر" وحاشية على الجامع الصَّغير للسُّيوطي" توفِّي سنة 1181هـ/1766م. (الأعلام 4/7).

3 عبد الله بن محمَّد بن عامر الشَّبراوي، فقيه ، تولَّى مشيخة الأزهر. من كتبه، "شرح الصَّدر في غزوة بدر" وله ديوان شعر سمَّاه "منائح الألطاف في مدائح الأشراف". توفِّي سنة 1171هـ (الأعلام 274/4).

4 محمَّد بن محمَّد الحسني التُّونسي المالكي المعروف بالبليدي، عالم بالعربيَّة والتَّفسير مغربي الأصل. من كتبه "حاشية على تفسير البيضاوي" و"حاشية على شرح الألفيَّة للأشموني". توفِّي سنة 1176هـ/1763م. (الأعلام 296/7).

وهناك منتقى ثالث ضمن مجموع به شعر ابن عبد العزيز، ووقعت العناية في هذا المنتقى بشعره الذي قاله في الأمير حسين بن علي، وهذه المختارات أغفلت شعره النّبوي، وجاء في أوّلها قصيدته التي أنشدها لّما دخل الحاج علي بن عبد العزيز جمّالا[1] سنة 1172هـ حين ثار أهلها مع إسماعيل بن يونس بن علي باشا، ومطلعها:

نجم السعادة في علاك تصعّدا والنّصر في ماضي حسامك خلدا

وأكثر المختار من شعره هناك من التّاريخ الباشي لحمّودة بن عبد العزيز.

وختم بمقامتيه العبائيّة والهنديّة، وأفاض صاحبه فيما يتعلّق بسبب إنشاء المقامة الأخيرة، وهو أنّ أحمد بن منصور أنشأ مقامة في ذمّ الهندي، وممّا جاء في قطعة شعريّة في ذمّه قوله:

رضيتم بأكل الشّوك في كلّ بلدة وأهلكتم فيه الخراريب بالعدّ

والخراريب جمع خرّوبة وهي نوع من السكّة كان التّعامل بها في تونس قبل الحماية.

وما جاء في هذا المنتقى يختلف عمّا هو موجود بأحد المجاميع التي بالمكتبة الوطنيّة.

وبجانب هذه المنتقيات ديوانه الجامع، وحيث لم تتوفّر نسخة لديّ أفادني مشكورا الأستاذ محمّد محفوظ عن النّسخة التي بمكتبة اللّجنة الثقافيّة بصفاقس بأنّ عدد صفحاتها 225، وأنّها ليست من جمعه كما تفيده العبارة التي صدّرت بها هذه النّسخة وهي:

"وقد أثبتُّ من شعره ما يشعر بكماله، ممّا يريح الأرواح بمرنح، وهو أجود عود البخور شماله، وسطرت منه بدائع مقوله، ما يؤنس النّفوس بمحاسن شموله".

وديوانه لم يقتصر على شعره بل ضمّ إليه نثره من مقامات ورسائل.

---

1 قرية من قرى السّاحل.

وصدَّر بما صدَّر به بعض منتخبات الدِّيوان، وهو تخميسه للقصيدة النبويَّة:

تناءى فدمع العين منِّي في سكب وجسمي في محلّ وشوقي في خصب

وبجانب هذه المصادر لشعره ونثره من منتخبات وديوان، هناك مصادر أخرى لها أهمِّيتها إمَّا بزيادة وإن كانت ضئيلة، وأهمّ من ذلك تصحيح شعره لما دخله من تحريف النسَّاخ.

وهي مصادر غير مختصَّة بشعره، وإنَّما ورد فيها شعره لمناسبات متعدِّدة "كالتَّاريخ الباشي" لابن عبد العزيز الذي ٱعتنى بشعره في ممدوحه الباي علي بن حسين في ٱنتصاراته أو غيرها.

وبعض الكنَّاشات التي تستطرد بذكر شعره وربَّما لمناسبة أو غيرها ولوعا بلطائف الغراب في غزليَّاته أو هجوه أو غير ذلك.

ومنها كنَّاشة لبعضهم ٱعتنى فيها ببعض مقطّعاته، والرَّسائل التي كاتب بها أدباء عصره، من ذلك ما كاتب به أديبًا مجهولا وهو أبو العبَّاس أحمد الهويدي[1] وقد نوَّه به الغراب أيَّما تنويه[2]:

[البسيط]

من رام يحكي أبا العبَّاس في الأدب ولم يتب فهو أولى النَّاس بالأدب
من ضلَّ عن طرق الآداب فهو له بها (هويد) بلا شكٍّ ولا ريب

وٱعتنى صاحب هذه الكنَّاشة بشعره الخليع، ويقدِّم لذلك بقوله: وله سامحه الله.

وكنَّاشة خليل الطواحني التي ٱبتدأ في جمعها سنة 1273هـ فذكر للغراب ما يتجمَّع منه منتخب شعريٌّ.

ومن مصادر شعره في نُتفه ذات التَّورية والإيهام: "تشحيذ الأفهام بما يحسن من الإيهام" لإبراهيم بن أحمد العصفوري.

1 أحمد الهويدي أبو العبَّاس، شيخ فاضل أديب (عنوان الأريب 584/1).
2 ديوان الغراب ص 372.

وٱعتنى به عناية فائقة للصِّلة بين العائلتين العصفوري والغراب، والميل من البعض إلى البعض، هو من الجانبين، وقد أنشد في ذلك الغراب[1]:

[الكامل]

ومتى شدت في الأيـــك ورق حمامـــة مال (الغراب) إلى لقـــا (العـــصفوري)

فأودع كتابه المذكور أكثر التَّوريات التي أتى بها الغراب حتَّـــى أنَّـــه في الغالب لم يخل قافية من شعر الغراب من الألف إلى الياء.

وتتبُّع مصادر شعر الغراب يطول، وما ذكرناه يكفي تدليلا على ٱنتشار شعره ووجوده بأيدي النَّاس لاستظرافهم نكته البديعة، وحتَّى مطوَّلاتـــه في المدح لما ضمَّنها من حكم.

في نظر مؤرِّخَين يعدُّ -من كَتَب في تاريخ الأدب التُّونسي ســواء مـــن كتب في تاريخ تونس العام أو من خصَّ الأدب بها- أبا الحسن الغراب من أبرز الأدباء التونسيِّين.

فٱبن عبد العزيز في "التَّاريخ الباشي" يعدُّه من الطَّبقة الأولى التي نقل من أدبها ما يبرز وجه الأدب التُّونسي حسب رأيه وهو وإن كان لم يميِّز الغراب من بين الأربعة الذين ٱختار لهم تعبيرا عن السموِّ الأدبيِّ فإنَّه ميَّزه من بـــين الأربعة الأدباء البارزين: الشَّافعي، الورغي، ٱبن عبد العزيز بميزة خاصَّة وهي أنَّه ٱختار له أوفر من غيره ونوَّه في تقديم قطعه بقوله:

"ويصدر عنه في نكات التَّورية البديعيَّة مثل قوله، وقوله وهو من النكات الغريبة".

وٱبن عبد العزيز ضنين بإعجابه فلا يكاد يبديه إلاَّ عندما تكون الإجادة متوفِّرة.

فكما عدَّه من أهل الطَّبقة الأولى من كتب في تاريخ تونس العام كذلك من ٱعتنى خاصَّة بالأدب التُّونسي وهو محمَّد بيرم الرَّابع (-1278) إذ بـــنى كتابه "الجواهر السنيَّة في شعراء الدِّيار التونسيَّة" على الطَّبقـــات، وقـــسَّم

1 ديوان الغراب ص49-148.

شعراء العصر الذي أراد تدوين أدبائه إلى ثلاث طبقات كلّ طبقة تحتوى على جمع من الشُّعراء.

ولكنَّه لم يجمع إلاَّ من شعر الطَّبقة الأولى وخصَّها بجزء لم يتمَّه، وهو الذي أثار تفكير محمَّد السُّنوسي في "مجمع الدَّواوين التونسيَّة".

وهذه الطَّبقة الأولى بدأها بالأمير محمَّد الرَّشيد (-1172) وختمها بأبي الحسن الغراب مترجَمنا، والكتاب حينئذ وقف عند هذه الطَّبقة ولم يتجاوزها إلى الطَّبقة التي تليها، ثمَّ إنَّ مختارات الغراب لم تتمَّ فيه، فالكتاب في الحقيقة يقف عند ترجمة ٱبن عبد العزيز ومختاراته، أمَّا الغراب فلم يذكر له إلاَّ اليسير من شعره.

وقد أضاف صاحب الجواهر إلى الطَّبقة الأولى التي ذكرها ٱبن عبد العزيز رجلين هما محمَّد الرَّشيد والشَّيخ محمَّد الأصرم[1] وأنت ترى أنَّ التَّقديم من ٱبن عبد العزيز وبيرم الرَّابع للغراب، وكذا لغيره ليس مدعَّما بنقد أدبيٍّ للإنتاج الشِّعري أو النَّثري، وإنَّما هو حكم يصدره الكاتب على الأديب ويأتيك بمختارات توقفك على منزلته الأدبيَّة فحسب، وهما وإن لم يكن حكمهما مخطئا لأنَّ الغراب الذي حكما له بأنَّه من رجال الطَّبقة الأولى عند النَّقد والتَّمحيص لا تخرج بغير ما حكما له، إذ أنَّ الغراب ليس أميرا مثلا حتَّى يتملَّق له أو لذوي قرابته بتقديمه، بل هو أديب تمعَّش من الإشهاد، فإذا ما قدّم كان ذلك عن جدارة كما يشهد به أدبه إلاَّ أنَّهما حكما حكما مجرَّدا.

ولكنَّ التَّوقان النَّقدي لا يطمئنُّ لمثل هذا الحكم الذي لم يدعَّم بنقد يجعل القارئ يشارك في الإصدار الحكمي لأنَّه يدعو إلى التَّقليد دون النَّظر.

وجلب مختارات بارزة من شعر الأديب أو مقتطفات من نثره ووضع إنتاجه بين يديك لتنظر فيه، وتصدر حكمك بعد ذلك وهي طريقة بين

---

1 أبو عبد الله محمَّد الأصرم، تقلَّب في الخطط النبيهة كولاية صفاقس وأرسى أمره إلى أن صار خوجة عسكر زواوة. توفّي سنة 1221هـ/1806م. (الإتحاف 51/7).

التَّقليد والنَّظر إذ أنَّ الكاتب المؤرِّخ لم يغص في إنتاج الأديب حتَّى يوقفك على جوانب تستطيع بواسطتها أن تتعرَّف على قيمته، وتتذوَّق أدبه بنظر ثاقب لتمهيد الطَّريق لك، فإذا ما سرت في أدبه سرت عن رويَّة ودراية ومعرفة بدخائله، وإنَّما أرشدك إلى ما تهتدي به.

وٱبن عبد العزيز في تعريفه بفحول الشُّعراء في تلك الفترة التي عدَّها نهضة أدبيَّة كان أنقد وأقعد في ذلك الفصل الذي عقده في تاريخه، فرغم الاقتضاب كان مفتاحا للتَّاريخ الأدبي في تونس.

وهو ما بسطه وتوسَّع فيه صاحب "الجواهر السنيَّة"، فإنَّه ركَّز كتابه في الجزء الأوَّل منه على الطَّبقة التي أشاد بأدبها ٱبن عبد العزيز، فصرَّح بأسماء من ٱنتقى لهم المذكور في باشيه وترجم لهم، وحاول أن يجمع لهم ما ظفر به من أدبهم بدون إشارة إلى "التَّاريخ الباشي".

ومن هؤلاء الغراب إلاَّ أنَّه كما قدَّمنا وقف الكتاب عنده مع أنَّ مختاراته لم تتمَّ.

وٱكتفى في ترجمته كما ستقف عليها بالأمور العامَّة التي لا تكاد تختلف في التَّراجم وفي هذه التَّرجمة بالخصوص، ونصُّ ما يتعلَّق بناحيته الأدبيَّة وشيء من حياته[1]:

"الأديب البارع أبو الحسن علي الغراب: أبدى من بدائع لئاليه عقدا، وسبح في بحر البراعة فردا، توشَّح جيد زمانه بنظامه، وأخذ لمعصمه سوارا من كلامه، إذ أتى بما يسحر الألباب، ويفعل فعل ذات الحباب، سقى بزلال التَّورية والاقتباس بناته، فزاحم فيها جمال الدِّين ٱبن نباته[2]، وعنده بجميل الشِّعر فنون وولوع، وله في سمائه غروب وطلوع، نشأ رحمه الله بصفاقس

1 الجواهر السنيَّة ص 418-419. تحقيق الدُّكتور الهادي حمزة الغزِّي. (المكتبة العتيقة 1973).

2 محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن الحسن الجذامي الفارقي الأصل، المصري. أديب، ناثر، شاعر، مؤرِّخ. من تصانيفه "سجع المطوق في التراجم"، ديوان شعر. توفِّي سنة 768هـ/1366م. (معجم المؤلفين 273/11).

مستوطنا لها، وهو ذو بيت لها، وأخذ بها طرفا من العلم فحصلت له مشاركة في كثير من الفنون، ولا سيَّما في الفرائض والحساب.

وكان كثير التردُّد إلى الحضرة حاطها الله يمدح أمراءها في أغراض مختلفة بنفائس من الخرائد، وكان يقيم بها الأشهر في إصلاح حاله، وقضاء مآربه.

توفِّي رحمه الله بصفاقس في أيَّام المولى علي باي ولم أتحقَّق عام وفاته.

وها نحن نثبت من بنات أفكاره، ومختارات أشعاره، ما تلذُّ به الأسماع، وله على زهرات الأفق ٱرتفاع".

وفي هذه المختارات ٱقتصر على قليل القليل من شعره فذكر قصيدته النبويَّة التي أشرنا إليها لاشتهارها وقصيدة في مدح علي باشا وقصيدته المشهورة في مدح علي باي:

زارع البغي حاصدٌ للنَّدامة فٱطلب السِّلم إن أردت السَّلامه

وقصيدة أخرى في ختان أبناء الأمير المذكور[1]:

[الكامل]

ماء الحياة أرى بثغرك أو لمى بذبيح صبري للصَّبابة أولما

والسَّبب في قلَّة منتقياته للغراب أنَّه لم يقف على ديوانه كما يبدو، كما أنَّه لم يقف على ترجمته وهي في "نزهة الأنظار" لمقديش، وذلك يوضِّح أنَّ الرَّابطة العلميَّة والأدبيَّة بين أمصار تونس فضلا عن غيرها كادت تكون مقطوعة بسبب عدم ٱنتظام المواصلات بين أطراف تونس.

ونظير هذا نجده في تاريخ ٱبن أبي الضياف في ترجمته لمقديش وهو العالم الذي ذاع صيته، وكثرت مؤلَّفاته، "ولم نر تآليفه لأنَّها لم تصل إلى حاضرة تونس"[2].

1 ديوان الغراب ص 123.
2 الإتحاف 7/86-87.

فمؤلَّفات مقديش لم تصل إلى ٱبن أبي الضياف ومقديش توفِّي في الثُّلث الأوَّل للقرن الثَّاني الهجري بينما ٱبن أبي الضِّياف توفِّي في آخره، هي مـــدَّة فوق الكافية لبلوغ مؤلَّفاته إلى تونس، ثمَّ إنَّ الأخير بلغ رتبة الوزارة ففـــي مقدوره أن يتمكَّن من الوقوف على مؤلَّفات مقديش، إذ لو طلبها لما شحَّ بها ورثته، وكذلك لو طلب ٱنتساخها، فترجَمة الغراب من هذين المؤرِّخين تتركَّز على أنَّه من المولعين بالفنون البديعيَّة، وبالأخصِّ التَّورية والذين هـــم من أهل البراعة واللَّطافة في ذلك ووراء ذلك ما وراءه ممَّا يـــدعو الباحـــث النَّاقد أن يجسِّم ما في شعره بالخصوص من جوانب خاصَّة.

مع معاصريه

تمتَّع الغراب بالشُّهرة في حياته فلم يكن ككثير من الأدبـــاء لا ينـــالون السُّمعة الأدبيَّة إلاَّ بعد ٱنتقالهم إلى الدَّار الآخرة، إذ نال هذه الصِّيت الأدبيَّ رغم أنَّه كان يعيش في عصر فقد وسائل التَّعارف ممَّا هو متوفِّر لدينا اليـــوم من صحافة وغيرها، فحتَّى الطِّباعة لم تعرف سبيلها إلى تونس.

ومع هذا الفقدان فقد كان الأدب يجد رواجا بين المتعلِّقين بـــه علـــى قلَّتهم، وسبب الرَّواج تلك المجالس التي كانت في الحقيقة نـــوادي تؤمُّهـــا النُّخبة، وهي وإن كانت تعيش بين جدران البيوت الخاصَّة فإنَّ أحاديثهـــا وأحكامها تنال صداها في المجتمع لأنَّ تلك النَّوادي في الحقيقة تضمُّ أهـــل الثَّقافة المشار إليهم في أوساطهم.

فلعلَّ شهرة الغراب تسرَّبت من تلك النَّوادي فتعرَّف عليه الكثير حتَّـــى من غير أهل بلده صفاقس، ولا يمكن أن يكون مـــن الأدبـــاء المـــشتهرين المرغوب في أدبهم بدون واسطة هذه النَّوادي الخاصَّة، فيكفي أن تتذاكر نخبة ما في ٱستحسان شاعر حتَّى يقوم أفرادها بإبداء آرائهم الأدبيَّـــة وكـــلٌّ في وسطه.

ولا يتَّهم المجتمع الأحكام الشَّائعة بينه لأنَّ النُّخبة محـصورة ومتمتِّعـة بالإكبار من كثير الأفراد.

وينجرُّ عن ذلك التَّراسل بين الأدباء رغبة في التَّعارف المؤدِّي إلى تحريك القريحة حتَّى تنتج بعد الرُّكود والخمود.

ويتراسل الأدباء وإن كانت الدَّخيلة متكدِّرة لما يحسُّه البعض من البعض الآخر حين يمتاز في حلبة مدح أو غيرها لتـشوُّف النُّفـوس إلى التفـوُّق والشُّهرة، فقد راسل عبد اللَّطيف الطوير مترجَمنا برسالة جاءت في "مجمع الدَّواوين التونسيَّة" ونثبتها لما فيها من اعتراف كاتبها بأنَّ مترجَمنـا مـن المتمكِّنين في فنون الآداب شعرا ونثرا:

"من توغَّل في أسباب الفصاحة وأفانينها، وترقَّـى في معـارف الآداب وقوانينها، حتَّى جُبل طبعه على إنشاء النَّظم والنَّثر دون اكتساب، وتقلَّـب في فنون الآداب، وتمكَّن من علمي المعاني والإعراب، مولانا الـشَّيخ أبـا الحسن عليًّا الغراب، فلا زال في هذا الفنِّ فارس ميدان، ومـمـارس فـصاحة وبيان، وبمحمَّد وآله الأطهار، وصحابته الأخيار.

وبعد فإنَّ قطعتك الرَّائعة البهيَّة، الفائقة الشهيَّة، حـرَّكتني أن أقـول في الحال، وإنِّي من الفصاحة والبلاغة خال، من بحر الخفيف لنكتة لا تخفى على مثلك اللَّطيف، فقلت موريا، وإيَّاك عانيا:

[الخفيف]

يـا بليغـا أتـى قرضـك يهمـي ... غب شوق بوبـل أنـس لهائـم
ذكّرتنـا ومـا نـسينا ولكـن ... ربَّما أكـد الرقـي بالتمائـم
قطعـة تـذعن الأنـام إليهـا ... وهي مسكٌ يفـوق مـسك البطـائم

جاء هذا العجز في الأصل (ولساكا يفوق مسك البطائم) واللـساك لا معنى له فلعلَّ صوابها ما ذكرنا.

سألوني من الذي أنت فيه   تنهج المدح قلت قول ملائم
قد كفاني عن الأوادم طرًّا   آسم طير معلِّم لابن آدم"

والأوادم جمع آدم – والمراد بنوه – والطَّير المعلِّم لابن آدم هو الغراب كما جاء في قوله تعالى ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ﴾[1] في قصَّة قابيل وهابيل ٱبني آدم حين قتل الأوَّل الثَّاني.

فالطوير أخذ الغراب من النَّاحية التَّعليميَّة، ولم يصنع صنيع بلديه الذي أخذه من ناحية أخرى وهي الشُّؤم.

وجاءت فقرة في هذه الرِّسالة (أن أقول في الحال... من بحر الخفيف لنكتة لا تخفى الخ...) تبعثنا على الحدس في أنَّ الغراب ربَّما كانت قطعته في ٱلتماس شيء من الطوير فأخبره بأنَّه خفيف أي قليل المال، وربَّما تكون النُّكتة شيئا آخر.

سنذكر جواب الغراب عن هذه الرِّسالة لاحقا.

وصلته ليست مقصورة على الطوير القيرواني بل كانت مع غيره، وبالأخصِّ أهل العاصمة التونسيَّة، فإنَّ صلته بهم صلة ودّ حتَّى أنَّه مدح بعضهم أيَّام تطلُّعه إلى رتبة الكتابة أيَّام الباشا علي، فإنَّه عزم على توليته الكتابة بالوزارة لولا أنَّ الحسدة ثنوا عزمه عن ذلك.

وممَّن مدحهم لذلك المختار العياضي الذي كانت له صلة بالباشا وفيه يقول لمَّا ولي الكتابة[2]:

[الكامل]

يا من لرتبته الثَّوابت في العلا   حارت ومن نظر العجيب يحار
ومن امتطى بعلاه كاهل دهره   وإليه في كلِّ الفنون يسار
فٱخترت أشرف رتبة منها فهل   يرضى بغير الأشرف (المختار)

ومن الذين مدحهم الوزير أحمد الأصرم رئيس قلم الإنشاء[3]:

---

1 سورة المائدة، الآية 31.
2 ديوان الغراب ص 145.
3 المرجع السابق ص 175.

[السَّريع]

لئن غدا في كــفِّ كــلِّ العـــدى ســيفٌ مـــن الدَّولـــة مســتـــصلم
فلـــم أخـــف والله كيـــدَ العــــدى يومًـــا وســـيفي فـــيهم (الأصـــرم)

وقد ورَّى في قوله (الأصرم) عن لقب الممدوح، والمورَّى بـــه الـــسَّيف الصَّارم، لكن عربيَّة لا تتمُّ له التَّورية لأنَّ الأصرم ليس في معانيه ما قصده، ولعلَّه ذهب إلى أنَّه صيغة تفضيل من فعل صرمه إذا قطعه بائنا.

ويدلُّ البيتان على أنَّ أمل المترجَم في الكتابة لم ينقطع، فقد جدَّد مدحه لرئيس قلم الإنشاء في دولة محمَّد الرَّشيد لأنَّ الأصرم تولَّى ذلـــك في مـــدَّة الأمير المذكور بعد مقتل الباشا، وقد تقدَّم أنَّه رامها في مدَّته.

وعموما إنَّ صلته بأهل العاصمة كانت صـــلة ودٍّ وتـــرابط، وأوكـــد صـــلاته بعائلة العصفوري فإنَّها صلة وثيقة كما يبدو من الطَّرفين، فالميلان من الجانبين العصفوري والغراب، وقد أنشد في ميله إلى العصفوري:

ومتى شدت في الأيـــك ورقُ حمامـــة مال (الغراب) إلى لقاء (العـــصفوري)

وكمـــا اتَّصل برجال الدَّولة بتونس ومدحهم كذلك اتَّصل بشيوخها فقد كان اتِّصاله بالشَّيخ سعادة في شأن قضيَّته الشَّهيرة.

وممَّن مدحهم من شيوخ الحضرة التونسيَّة الـــشَّيخ عبـــد الله الـــسُّوسي المغربي[1] الوافد على تونس يقول فيه لمَّا أصيبت عيناه[2]:

[الطَّويل]

ألا أيُّها الحبر الـــذي بحْـــر علمِـــــه له في الـــورى منـــه تلاطـــم أمـــواج
إذا سنح المعنى العـــويصُ لذهنـَــــــه فذلك صيدٌ لم يكـــن منـــه بالنَّـــاجي
لئن حلَّ في عينك ضعفٌ فقـــد غـــدا لفكرك في الأشياء قـــوَّة إنتـــــاج

1 أبو محمَّد عبد الله السُّوسي، ولد بالمغرب وقدم إلى تونس في طلب العلم، إلتزم الإقراء بالقيروان. ولَّما كانت دولة الأمير علي باشا نقله إلى حاضرة تونس اغتباطا به. (عنوان الأريب 501/1).

2 ديوان الغراب ص 138.

ولو أنَّ المترجَم ٱتَّخذ الحضرة محلَّ إقامته كما أشار به عليه الــدَّرناوي لتسلَّم ذروة الكتابة بالوزارة التونسيَّة مطمح نظره، ونظر كلِّ أديب إذ هي أسمى الوظائف عند أرباب الإنشاء.

من رسائله

يكاد نثره يكون مقصورا على المكاتبات والمقامات، وهما الموضـــوعان الغالبان في تلك الفترة التي عاشها الغراب، ولكن هناك نواح أخرى منها ما يتَّصل بالعلوم الدينيَّة من تآليف أو رسائل، والكاتبون في هذه النَّاحية هـــم المتبرِّزون في الفقه، ومنها ما يتَّصل بالعلوم الآلية مـــن العربيَّـــة وغيرهـــا، وٱنصراف الغراب إلى الأدب لم يترك له المجال حتَّى يحبِّر في تلك النَّواحي.

ونثره لم يكثر فيه من الإشارات التَّاريخيَّة أو الأدبيَّة كما ٱعتنى البعض من معاصريه الذين يرصِّعون كتاباتهم بإشارات تاريخيَّة تربط الماضي بالحاضـــر، وشعره أمتن من نثره، ولو أخذنا بعض مكاتيبه لرأينا أنَّهـــا مـــن الطِّـــراز المعروف من ٱلتزام السَّجع والمغـــالاة في المدح، إلاَّ أنَّه لا يسرف إســـراف بعض الكاتبين حتَّى يقعوا في مغالاة لا يقبلها الذَّوق.

وممَّا يعاب عليه التكلُّف، ولا يخصُّه ذلك بل بعض الكتَّاب، بل أكثرهم ٱلتزموا السَّجع في كلمات مخصوصة لا يكادون يتجاوزونهـــا مثـــل محيـــا الشَّمس، وحميا الكؤوس، والمجلي من أسماء حلبة الخيل، وحمل راية الأدب.

و لم يتخلَّص من هذا إلاَّ القليل من الكتَّاب الذين ٱتَّسعت دائرتهم فكـــرا وٱطِّلاعا، وذلك من القيود التي جعلت الأقلام تتعثّر حتَّى أنَّها لم تنـــتج إلاَّ بقدر معلوم أو لم تنتج أصلا، فلو أنَّ الأقلام تحرَّرت من ذلـــك وســـارت بطبيعتها لرأيت للغراب ولأمثاله الكثير الطيِّب.

رسالة إلى الطوير القيرواني

ومن نثره ما أجاب به الطوير الأديب القيرواني الذي راسله بالرِّسالة المتقدِّمة[1]:

"إلى من كشفت له لطائف البلاغة عن شموس محيَّاها، وأرشفته مطارف البراعة من كؤوس حمياها، المحلِّي من جواهر آدابه السنيَّة ذوي الذَّوق بنظم تنشرح له الصُّدور، والمجلِّي من أفكاره عرائس رسائل حسنها يقرب المبعوث (كذا) ويبعث من القبور، المنسيّ ذكر من كان بمعرفة النَّظم ماهرا، والظَّاهر على أهل الأدب بتمييز فأظهر أعلامهم وكان علما ظاهرا، مولانا فلانا (كذا).

لا برحت ألوية الأدب كقلوب أعدائه عليه خافقة، وجياد ذوقه في مضمار البلاغة والبيان كمدامعهم سابقة.

أمَّا بعد، فإنَّ جواري الأبيات التي أجرتها رياح آدابكم إلينا في بحر الخفيف، وشحنتها أيدي بلاغتكم من خزانة الفكر بجوهر كلِّ معنى لطيف، قد تشرَّفت بها أيدينا وتعطَّرت بنشرها نوادينا، وتنزَّهت في رياض محاسنها الأنفس والأعين، وتحلَّت بدرر معانيها المسامع والألسن.

فلكم غُصت على ذلك البحر، فٱستخرجت نفائس جواهره بعد الكدِّ والتَّعب، وحلَّيت بهذه الجواهر تلك الجواري في تشطير فكانت عليها أحلى من الياقوت والذَّهب، فلا عيب فيها إلاَّ أنَّها حملتني على مؤن شكر أياديها ما يعجز عنه لسان سحبان، وينوء بثقله جبلا طور وزغوان.

ولَّما رأيت لساني عن الجواب عنها قصيرا، توصَّلت إلى ردِّ جوابها تشطيرا:

1 ديوان الغراب ص 373-374.

يا بليغًا أتى قرطك يهمي همي بحر زري بصوب الغمائم
أوحشتنا بفقدها ثمّ جادت غبّ شوق بوبل أنس لهائم
ذكّرتنا وما نسينا ولكن قد يقاد الفتى لما هو عالم
أكّدت في لقاك أفعال شوقي ربّما أكّد الرّقى بالتّمائم
قطعة تذعن الأنام إليها لم يحم حول نسجها قطّ حائم
يا أديبا حويت نظما بليغا ولسانا يفوق مسك اللّطائم
سألوني عن الذي أنت فيه تنسج المدح قلت قول ملائم
قد كفاني عن الأوادم طرًّا بنكات تزري بزهر الكمائم
وسلام يهديه من هو يدعى بأسم طير معلّم لابن آدم"

قبل أن ننظر في هذه الرِّسالة الموجَّهة إلى الطوير من الغراب بعيني الفاحص نوعا ما أنبّه على أمر جال بخاطري وهو ما الغراب صانع بالبيت الأخير تشطيرا فإنّه في مدحه إذ هو:

قد كفاني عن الأوادم طرًّا بأسم طير معلّم لابن آدم

وكيف يمدح المرء نفسه فيكون كما يقال مادح نفسه يقرئك السّلام، لكنَّ الغراب قد تخلّص من ذلك مع الإبقاء على البيت نفسه دون تغيير إذ جعل متعلّق قوله (كفاني) قوله:

(بنكات تزري بزهر الكمائم)

وجعل الإدخال على العجز قوله:

(وسلام يهديه من هو يدعى)

وهذا التّخلّص من الغراب يعفى على قوله (من هو يدعى)، فإنّه لولا الوزن كان يكفيه أن يقول (من يدعى)، وأهل البراعة في النّظم يتجنّبون ما يسمج على السّمع، ويمجّه الإحساس الأدبيّ الرّهيف المتأثّر بالحركة فضلا عن ضمير لا حاجة إليه مع طول الصِّلة، وإنّما هي حسنات تمحو السيِّئات.

وهذا المكتوب يبدو من تضاعيفه أنّه يشير إلى الحال التي كان عليها الطوير من اضطراب نفسانيٍّ كما أشار إليه مؤرِّخوه، فإنّه لمّا كان بالقيروان

مسقط رأسه بعد ٱتِّصاله بالأميرين محمَّد الرَّشيد وأخيه علي بعد ٱتِّصاله بسلفهم علي باشا ثار عليه أعداؤه، فإنَّ الاقتراب من الأمير المذكور كان عند سلفه من الكبائر التي ربَّما تؤول بصاحبها إلى ٱنقطاع حياته.

والذي يلتقطه الملتقط هو أنَّ الغراب كاتب الطوير فأجابه بالرِّسالة المتقدِّمة، وأشار إلى بحر الخفيف إلى أنَّه لم يحسن الإجابة لخفَّة حاله وهذا هو الصَّواب لا ما أشير إليه فيما سلف، ولهذا أكثر الغراب في رسالته هذه من الحطِّ على أعداء الطوير حتَّى جعل قلوبهم خافقة خفق الألوية.

ومن عيوب كتَّابنا السَّالفين أنَّهم يرمزون إلى حوادث هامَّة تحفُّ بالأديب عوض أن يبدوها في صورها الحقيقيَّة، ولعلَّ ذلك يرجع إلى ظروفهم وخوفهم من الأمراء، وينضاف إلى ذلك حبُّ الاختصار مع السَّجع.

وإلى هذه الوشايات التي أدَّت إلى ٱختلال عقل الطوير، أشار السُّنوسي في "مجمع الدَّواوين التونسيَّة":

"ومازال يتردَّد على بلاده، ويتعهَّد مدفن آبائه وأجداده، إلى أن أشخصت إليه الحسَّاد لمَّا رأوا له مع الأمير من مزيد الإقبال مع كثرة التِّرداد، فأوعزوا بإطعامه ما أوقعه في حمامه، بحيث أنَّه ٱختلَّ أيَّاما".

والظَّاهر أنَّ ٱختلال عقل الطوير لا بسبب سمِّه وإنَّما تخيُّلات الوشايات أوقعته في الاختلال العقلي، وكثيرا ما يتسارع النَّاس إلى ٱدِّعاء الإطعام، وينقل المؤرِّخون ذلك على علاَّته.

وفي رسالة الغراب ٱنتقادات من جهة العربيَّة أصلحناها ذهابا منَّا إلى أنَّها من النَّاسخ حيث لم نتمكَّن إلاَّ من نصٍّ واحد سقيم لأنَّ السَّنوسي في "مجمع الدَّواوين" ٱقتصر على رسالة الطوير، وتجرَّأنا على التَّصحيح وإن كان البعض يبدو أنَّه من الغراب مثل قوله (ولَّما رأيت لساني عن الجواب عنها قصير، توصَّلت إلى ردِّ جوابها بالتَّشطير).

رسالة إلى أحمد الهويدي

كتب الغراب إلى أديب من أدباء تونس عرف أدباء عصره مكانته، فنوّهوا به ولكنّه غير معروف لدى ناشئتنا شأن الكثير من الأدباء الذين هم في حاجة إلى التّعريف بهم، وراسله بهذه الرِّسالة التي تنوِّه بشأنه أيَّما تنويه، فهي نموذج نثريّ من نثر الغراب، وتعريف خاطف بأديب مغمور.

وهذا الأديب هو أبو العبَّاس أحمد هويدي الذي عاش في مدَّة أخذ الأدب التُّونسي فيها في الانتعاش بعد أن كاد يتناسى، وقد عاصر هذا الأديب الغراب والورغي وغيرهما.

وكانت بين أدباء تلك الحقبة صلات تحتِّم علينا التَّعريف بالأدباء السَّالفين أن نجمل فيها حلقات خاصَّة نبيِّن فيها كيف كانت تلك الصِّلات، وما كان يدور فيها مساهمة في تاريخ ذلك العصر علاوة على التَّعريف بأدبائه.

وسبب مراسلة الغراب للأديب أبي العبَّاس هويدي أنَّ هذا الأخير أنشأ مقامة في أحد صلحاء تونس وهو الشَّيخ أبو العبَّاس أحمد الباهي الذي ترجم له عرضا بٱقتضاب الوزير ٱبن أبي الضياف في كتابه: "إتحاف أهل الزَّمان"[1]، وٱستطرادا حين ترجم لحفيده الشَّيخ علي الباهي.

والشَّيخ الباهي عاش في مدَّة علي باشا، وقد تفنَّن أدباء تلك الحقبة مشرقا ومغربا في التَّنويه به بالمقامات والشِّعر، فمدح بأدب كثير، ومترجَمنا يعبِّر عنه بقطب الزَّمان في هذه الرِّسالة.

والغراب في هذه الرِّسالة كما مدح صاحب المقامة أبا العبَّاس، مدح من أُنشئت من أجله، ومقامة هويدي كمقامة الورغي المعروفة "بالمقامة الباهيَّة" التي نوَّه بها الوزير ٱبن أبي الضياف في إتحافه.

وسبب إنشاء هذه المقامة هو بناء الشَّيخ الباهي للزَّاوية القائمة الآن في حيِّ باب سعدون، والتي وقعت العناية بها، ولو ٱنضمَّ إلى العناية بالبناء العناية بالتَّاريخ لكانت الفائدة أجزل وأشمل.

---

1 الإتحاف 7/ 120-121.

والغراب في رسالته للأديب هويدي يحلّيه برئيس الأدباء، وليس ذلك من المبالغة، وإنَّما ذلك لمترلة هذا الأديب الذي كانت له مطارحات أدبيَّة تنبئ عن شاعريَّة.

ورسالة الغراب لم يقتصر فيها على النَّثر بل ضمَّ إليها شعرا، والنَّثــر في الحقيقة شبه عنوان وأمَّا الرِّسالة الأساسيَّة فهي شعره[1]:

"رئيس الشُّعراء والخطباء، وحجَّة البلغاء والأدباء، ناثر الفرائد مقامــات للأفاضل، وناظم القلائد على صدور الرَّسائل، من تقاصر عن تناول رتبتــه ذوو الأيدي، المحبُّ الأصفى سيدي أحمد هويدي.

لازالت أيدي الأدباء تحمل عليه، وجمهور الشُّعراء ينتهون في الأدبيَّــات إليه.

هذا وقد ترنَّم طائر الثَّنــاء على دوح مقامتكم الباهيَّة، وما ٱتَّبعتموهـــا من البيوت الشعريَّة، فتحرَّك شوقي إلى تلك اللَّطائف الأدبيَّــة، والاطَّــلاع على تلك الظَّرائف الفرديَّة، فالملتمس من المولى أن يشرِّف بإرســالها عــن عجل، وأن يسيِّرها إليه مع أوَّل وارد سير المثل، ليترِّه طرفه في رياضها.

وهذه بيوت تتضمَّن سؤال ذلك، والاتِّصاف بفضلك وكمالك، وهي:

[البسيط]

من رام يحكي أبــا العبــاس في الأدب ... ولم يتُب فهو أولى النَّــــاس بـــالأدب

من ضلَّ عن طرق الآداب فهــو لــه ... بها (هُويد) بلا شــكّ ولا ريــــب

رقت مقامته العلياءُ حيــــن بـــدت ... مقامة فٱستوى منها علــى الــشُّهـب

مقامة تحتوي أوصــاف ذي كـــرم ... سريٍّ مجد رفيع البيــت والحـسب

قطب الزَّمان أبي العبَّاس أحمــد مــن ... أمست كرامــاته في أشــرف الرُّتــب

(باهي) الورى نسبا أزكــاهم خلُقــا ... أعلاهم شرفا في الــذِّكر والنـسـب

صفاتها مــلأت بالــذِّكر مـسمعنــا ... في الحسن والذَّات عن عينين في حجب

(أبدى له كاتب الأعــراض جوهرهــا ... يا حسن جوهرها إبداع منتخــب)

---

1 ديوان الغراب ص 371.

حلّت بقلبي أبا العبّاس حين أتت على لسان أخي الذّوق غير أبي
أرسل إلينا ولا تمهل بها مع ذي نبل ومعرفة إنّ الرّسول نبي
عشقتها طربا إذ (شاد) طائرها والأذن تعشق قبل العين من طرب
أشنّف السّمع والأيدي أشرّفها بها ولحظي (ويحظى في الإجازة بي)
هذا وأهدي سلام الله يشملكم أذكى الطيوب شذى أحلى من الضّرب"

هذه الرِّسالة في نثرها وشعرها لم يحتفل لها الغراب، ولذلك كانت في نثرها لا تحتوي على لطائف لا في معناها، ولا في لفظها، والشّأن عند علية الكتّاب أنّهم إذا أخلوا رسائلهم من معنى ذي قيمة عوّضوا ذلك بالتّلاعب بالألفاظ، والغراب من شأنه عدم التّقصير في التّزويق اللّفظي، إذ هو من أبرز أدباء عصره في التّورية.

حتّى أنّه في شعره الذي يخصُّه بحظٍّ أوفر من نثره كانت له في هذه الرِّسالة أبيات معقّدة المعنى علاوة عن كون الأبيات في جملتها لم تتوفّر لها الإجادة، ومن معقّداته فيها:

(أبدى له كاتب الأعراض جوهرها يا حسن جوهرها إبداع منتخب)

إذا قلّبتَ هذا البيت ظهرا لبطن لا تجد له معنى مفهوما فهو أشبه بالجمل العاديَّة الصَّادرة عن غير رويَّة.

وأدّاه إلى هذا الإغلاق أنّه أراد أن يورِّي عمّا هو متعارف من المقولات العشر التي تنحصر أصولها في الجواهر والأعراض.

والمعنى المقصود له أنّ الكاتب الذي وصف له المقدِّمة الباهية لأبي العبّاس هويدي وصف أعراضها وفي ذلك إظهار لجوهرها وحقيقتها، ويا حسن جوهرها حين أبداه الواصف المنتخب.

والأشدُّ من ذلك ما جاء في أبياته من قوله:

(ويحظى في الإجازة بي)

عندما يطرق السَّمع قوله هذا لا يتبادر إلى الفكر إلاَّ أنَّه سيجيز الرَّسول من معبر مع أنَّه لا يقصد ذلك بل يقصد أنَّ الرَّسول إذا جاءه بالمقامة الباهيَّة سيثيبه جزاء الإسراع بها، وهذا المعنى لا يفيده التَّعبير المذكور.

إذ المعروف في العربيَّة أنَّ تعدية فعل الإجازة بالباء إنَّما هو للشَّيء المجازى به، فإذا ما قلت أجزت فلانا بدينار أفدت أنَّك جعلت الجائزة له منك دينارا.

ثمَّ إنَّ الرِّسالة في عمومها خلوٌّ ممَّا يستطرف بين الأدباء إذا تراسلوا في أمر أدبيٍّ كما هنا، وهو إتحاف المرسل المترجَم بالمقامة المذكورة فإنَّ شأن الأدباء – وإن تحلَّلوا من القيود الكتابيَّة – أن يأتوا بما تهشُّ له النُّفوس إذ أنَّ ذاك قائم مقام الهديَّة.

وهناك ٱنتقادات أخرى في ٱستعمال (شاد)، موضع أشاد، وكذلك في نثر هذه الرِّسالة بعض مؤاخذات، وهذه الرِّسالة على ما هي عليه حريَّة بالتَّسجيل إذ تعرِّف بأديب وهي من رسائله التي ٱعتنى بها منتخبو ديوانه، وصورة من المخاطبات الأدبيَّة.

رسالة غزليَّة

كتب الغراب هذه الرِّسالة وبناها على المداعبة شأن الأصدقاء مع بعضهم حين ترتفع الكلفة، وتقترب النُّفوس من بعضها، فعند إزالة الحدود تجد المداعبة مساغا للنُّفوس، وإن كانت ربَّما يبدو منها ما هو ظاهر منها من التغزُّل فإنَّها لا تحمل على تلك الظَّاهرة بل تحمل على ما يدور بين الأتراب من المفاكهة.

ولا يمكن أن تحمل هذه الرِّسالة على خلاف ما ذهبنا إليه، فإنَّها صادرة من الغراب إلى بعض أبناء أهل العلم، ولو كانت على خلاف ذلك لأدَّت إلى قطيعة وجفاء مع أنَّه لم يثبت ٱنفصام بين الكاتب والمكتوب إليه، وما ذاك إلاَّ كونها رسالة بريئة بعيدة عن المزالق الخلقيَّة شأنها شأن القصائد

الغزليَّة التي يقولها حتَّى المتشدِّد في الزُّهد والتصوُّف، وإن كان هناك فارق بين رسالة الغراب والغزل الذي يقال في غير معين فإنَّه كثيرا ما يراد منه معان أخرى لها مغزى خاصّ.

وهذه الرِّسالة قد تفنَّن فيها الغراب وٱحتفل لها خلاف الرِّسالة السَّابقة التي هي أشبه بالرَّسائل العاديَّة منها بالرَّسائل الأدبيَّة، إذ في هذه الرِّسالة ورَّى وٱقتبس من الذِّكر الحكيم في نثرها، كما ٱقتبس في شعرها ٱقتباسا من نوع خاصّ، وهو وإن كان لا ضير عليه في الاقتباس الشِّعري، فٱقتباسه من الذِّكر الحكيم قد كان في غير محلِّه، وما كان أغناه عن ذلك.

وصدرت منه هذه الرِّسالة إلى سميَّة في الاسم التي أبدع فيها تصوير الأوصاف من ذكر الحسِّية والمعنويَّة[1].

ونثبت هذه الرِّسالة كما هي إبداء لإنشائه الأدبيِّ الرَّاقي في الرَّسائل:

"البدر الذي مطالعه في كلِّ فؤاد، والظَّبي الذي مراتعه من كلِّ القلوب والأجساد، لواحظه تساقينا خمر الكؤوس، ومراشفه دونها إتلاف الأموال والنُّفوس، أجهد الواشين الطَّلب في أن ينسبوا لمحاسنه عيبا، فأعياهم البحث في أن يثبتوا لها بعد التيقُّن ريبا، فلم يجدوا نقصا إلاَّ في خصره، ولا بردا إلاَّ في ثغره، و لا ثقلا إلاَّ في ردفه، ولا سقما إلاَّ في طرفه، ولا مرارة إلاَّ في صدِّه، ولا ميلا إلاَّ في عادل قدِّه، ولا رقَّة إلاَّ في معانيه، ولا قصرا إلاَّ في ليل تدانيه، ولا سوادا إلاَّ في ليل شعره، ولا تكسُّرا إلاَّ في جفنه بسحره، غير أنَّ الصبَّ لا سهم له إلاَّ من مقلتيه، ولا شقيق إلاَّ ما أحاط بخال وجنتيه.

رقَّة ألفاظه تليِّن الصُّخور، وطيب نشره يبعث من في القبور، وقلب المحبِّ بحيات ذوائبه سليم، وريقه يحيي العظام وهي رميم، من إذا كشف عن

---

1 جاء في ديوان الغراب ص385-391 : الغراب كاتب الشَّيخ المفتي علي الرصَّاع، وهو الشَّيخ أبو الحسن علي بن حميدة بن علي ابن أبي يحيى بن قاسم بن محمَّد بن قاسم بن عبد الله الرصَّاع الأنصاري التلمساني. قرأ وجلس للإقراء والتَّوثيق وقدَّمه مراد باي لإمامة جامع الزيتونة وتقدَّم للفتيا. توفي سنة 1132هـ وما جاء في المسامرات يوضِّح أنَّ الغراب لم يراسل الرصَّاع حيث جاء "وقد أبدع أبو الحسن علي الغراب في التورية في بعض قصائده" (مسامرات الظريف 167/2).

محاسنه التي لم يخلق الله مثلها، تذهل كلُّ مرضعة عمَّا أرضعت وتضع كـلُّ ذات حمل حملها، وتظلُّ العقول له حيارى، وترى النَّاس سكارى وما هـم بسكارى، ويقول من نظر إلى ذلك الوجه الوسيم والجمال العميم، وشـام بارق ذلك البدر اليتيم، ما هذا بشرا إن هذا إلاَّ ملك كريم.

المجلِّي عرائس آدابه على عيون الأسماع، والمحلِّي لما رصَّعه من جواهرهـا صدور الطُّروس، فوا شوقاه إلى التحلِّي بجواهر ذلك الرصّاع، لا زال نـير حسنه كاسفـا لأعظم النيِّرين، وبرق مباسمه خاطفا كلا النَّاظرين.

أمَّا بعد، فيهدي إليك المحبُّ تحيَّة كنفحات المسك الأذفر وإن كانت من نسماتك، ورنَّات المثاني والمثالث وإن كانت من نغمـاتك ولطف التَّـسيم وإن كان من شمائلك، وطيب التَّسنيم وإن كان من مناهلك، ونور القمرين وإن كان من محيّاك، وبارق العذيب وإن كان من مباسمك وثناياك، ورقَّـة السِّحر وإن كانت من لحاظك، ونفـيس الـدرِّ وإن كـان مـن ثغـرك وألفـاظك، فسبحان من خلق من ألفاظكم وألحاظكم المـوت والحيـاة، وصوَّركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيِّبات.

هذا ولم تزل طيور أشواقي يشتدُّ حوْمها على تلك الموارد الصفيَّة، وبلبل بلابلي ينشد في رياض تلك المحاسن اليوسفيَّة، والزَّمان يشكل جناحيَّ عـن تلك الأمنية ويعدني لها في كلِّ حين مواعد عرقوبيَّة، ويطمعـني مطـامع أشعبيَّة، وعلى ذكركم يجذب إلى نحوكم عناني، ويلهب نـيراني، ويمطـر سحائب أجفاني، وينطق بالنَّظم والنَّثر مقلتي ولساني.

وها هو يصلكم ما شدا به بلبل بلابلي وأستعير من سحر بلاغته السِّحر البابلي، وهي من بيوت تشتمل على بديع صفاتكم الحسيَّة والمعنويَّة وتتضمَّن تضامين من كلِّ اللاَّميَّتين الطغرائيَّة والمتنبيَّة، وذلك أنِّي عمدت إلى بعـض بيوت منها فصدرت أعجازها وحلَّيت صدورها بجواهر ملائمات وغيَّـرت مزاجها حتَّى صار الأصل لشدَّة ملاءمتها وٱمتزاجها، كأنَّه غير جار علـى منهاجها، منحرف في الأسماع عن طبعها ومزاجها، فهاك خذ منِّي الأوزان

والأسجاع، وحلِّ سمعك بجواهر ذلك الرصّاع، وٱرفع بصرك الكرَّة بعد الكرَّة وتأمَّل من تلك التَّضامين المشار إليها بالحمرة، تجدها أشدَّ ٱمتزاجا من الماء والرَّاح، وأنجع علاجا من أدهان الجرَّاح، وهي في طيِّ الكتاب ملتحفة منه بأحسن جلباب، ثمَّ السَّلام على كلِّ من ينتهي إليك وترفع مترلته لديك، والسَّلام من ناسج برودها، وناظم عقودها، من إذا جعل أوَّله آخره كان في حبِّكم راغب (راغبا)، أو جعل ثانية مكان ثالثة كلٌّ لنحسه من طالع جمالكم غارب (غاربا) وهذه الأبيات المشار إليها[1]:

[البسيط]

أرقُّ للخصر مهما يشك من كفل ... يا من إذا سلَّ سيف الجفن منك فلي
سموت حسنا على من في الأنام سما ... على الأواخر في الأيَّام والأوَّل
أرى بوجهك جنَّات النَّعيم بدت ... لكن بها القلب في نار الجحيم صلي
برد الثَّنايا وثقل الرِّدف منك حلت ... فيا حلاوة ذاك البرد والثِّقل
بدُرِّ ثغرك شهدُ الرِّيق مُمتزج ... فأبيض الدُّرّ ممزوج مع العسل
يا قلب كم يحمي عنك طيب مورده ... وأنت يكفيك منه مصَّة الوشل
من دُرِّ لفظك أو من دُرِّ نظمك أو ... من دُرِّ ثغرك درّ الدَّمع من مقل
وقال شارقه للبرق سيرك ذا ... وراء خطوي لو أمشي على مهل
رام العواذل من جفني تكفكفه ... ومن يسدُّ طريق العارض الهطل
كمقلتيك سيوف الهند قد سقيت ... حدودها بمياه الموت لا الكحل
بيض من السُّود فيها حمر أدمعنا ... تجري وأجسامنا صفر من العلل
يا من يظنُّ نجاة من مهالكها ... فظنَّ شرًّا وكن منها على وجل
إن قُلت هب لي سهما من محاسنه ... أهدى من اللَّحظ سهمين على عجل
يا من إذا رآه الطَّرف قارنه ... نجم المرّيخ وحلَّ الجسم في زحل
وجهي ووجهك يوما قطُّ ما جمعا ... من صفرة السُّقم أو من حمرة الخجل
لئن تلوَّنت في حين تكون بها ... عليك يخلع من حلي ومن حلل
فأنت باللُّطف أوفى واللَّطيف بما ... تحوي كحاوية نحو الماء في المثل
قل للذي راح يغزو بالرِّماح أما ... أغنتك قامته الهيفا عن الأسل

---

1 ديوان الغراب ص 388-391.

قل للذي في الورى يهوى سواه أما | في طلعة الشَّمس ما يغنيك عن زحل
قل للذي قاس بالأغصان قامتَه | وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل
يا من يكحِّل كي يحلي لواحظه | ليس التكحُّل في العينين كالكحل
فالنَّظم أشغله داعي الفراغ فما | أحلاه من فارغ في النَّاس مشتغل
لم تدر دُرَّ الذي قد راح ينظمه | ممَّا حوى الثَّغر أو ممَّا عليه حلي
كانت جواهر نظمي في محاسنه | تَسمو على أنجم الجَوزاء والحمل
فلم يزل يحتوي دُرَّ البيان وما | يحوي يرصِّعهُ دُرًّا عليه جلي
حتَّى إذا ما علا فيما يُرصِّعه | خفضت قدري للرصَّاع وهو علي"

ٱقتباس وتضمين

أودع الغراب رسالته المتقدِّمة والموجَّهة إلى أحد أصدقائه الذي ورَّى بٱسمه ولقبه ٱقتباسات متعدِّدة وزَّعها في نثرها، كما أودعها تضامين في شعرها.

ففي النَّثر ٱقتبس من القرآن الكريم، وفي الشِّعر ٱعتمد في تضمينه على لاميَّتين مشهورتين.

أمَّا ٱقتباسه القرآني فإنَّه ٱستعمله في الهزل والغزل، من ذلك نقله قوله تعالى:﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾[1] ، من تصوير هول يوم القيامة إلى ٱفتتان النَّاس بحسن صديقه حتَّى ذهلوا فكأنَّهم سكارى، وفي الحقيقة ليسوا بسكارى الخمر وإنَّما هم سكارى الحسن.

وهذا النَّوع من الاقتباس هو النَّوع المردود كما أشار إليه ٱبن حجَّة الحموي في "خزانة الأدب" حيث قسَّم الاقتباس القرآني إلى ثلاثة أنواع مقبول ومباح ومردود، أمَّا الأوَّل فهو ما كان في الخطب والمواعظ ومدح النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم وغير ذلك، وأمَّا الثَّاني فما كان في الغزل والرَّسائل والقصص، والثَّالث على ضربين أحدهما ما نسبه الله لنفسه كما قيل عن أحد بني مروان وإن أنَّه وقَّع – بتشديد القاف أي كتب – في

1 سورة الحج، الآية 2.

شكاية من عمّاله ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾[1]، والآخر تضمين آية كريمة في معنى هزل، ونعوذ بالله من ذلك كقول القائل:

أوحى إلى عشّاقه طرفه "هيهات هيهات لما توعدون"[2].

فالاقتباس القرآني ينبغي أن يصان عن المجون لأنّ ذلك مؤدّ إلى الاستخفاف كما قال السُّيوطي[3] في كتابه "رفع الباس" ومحلُّ ذلك كلِّه في غير الهزل والخلاعة والمجون.

وإذا كان الأمر يدعو إلى التنزُّه في الاقتباس فكيف أباح الغراب لنفسه هذا وهو غير خليع ولا متهتِّك، فلعلَّه اعتمد صنيع صاحب مدرسته الشِّهاب الحجازي في كتابه "قلائد النُّحور"، حيث اقتبس من القرآن في الشِّعر، ومن نتف ذلك الكتاب ما هو غزليٌّ، والكتاب مع كونه على صورته تلك وقف عليه الحافظ ابن حجر[4]، وكتب له خطَّه عليه وأثنى عليه، ومثل الحافظ ابن حجر لو كان هناك تحرُّج لما كتب عليه بل يتورَّع ويأنف من مطالعته فضلا عن الثّناء عليه.

و لم يقصِّر الغراب رغم المؤاخذة في رسالته تلك بل أبدع في إنشائه، وكاد يلتحق بالمبرِّزين من المنشئين مثل فقراته التي يقول في أوّلها "أمّا بعد، فيهدي إليك المحبُّ تحيَّة كنفحات المسك الأذفر وإن كانت من نسماتك".

وأمَّا تضمينه الشِّعري فأخذه من لاميَّتين، إحداهما لأبي الطيِّب المتنبي، وهي التي مدح بها سيف الدَّولة ومطلعها:

---

1 سورة الغاشية، الآيتان 25-26.

2 "خزانة الأدب وغاية الأرب" لابن حجَّة الحموي ص 442.

3 عبد الرَّحمان بن أبي بكر بن محمَّد بن سابق الدِّين الخضيري السُّيوطي، جلال الدِّين. إمام حافظ مؤرِّخ أديب. له نحو 600 مصنَّف، منها: "الإتقان في علوم القرآن" الأشباه والنَّظائر" و"الأرج بعد الفرج". توفِّي سنة 911هـ/1505م. (الأعلام 71/4).

4 أحمد بن علي بن محمَّد الكناني، العسقلاني، المصري، ويعرف بابن حجر (شهاب الدِّين، أبو الفضل). محدِّث، مؤرِّخ، أديب، شاعر. من تصانيفه "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" "الإصابة في تمييز الصَّحابة" وديوان شعر. توفِّي سنة 825هـ/1449م. (الأعلام 173/1).

أجاب دمعي وما الدَّاعي سـوى طلـل دعا فلبَّـاه قبـل الرَّكـب والإبـل[1]

وهي من غرر قصائد أبي الطيِّب وقد أودعها من أمثاله وحكمه ما حلَّقت به علوًّا وأنافت على غيرها، ومن هذه القصيدة العجز الذي جرى على كلِّ لسان:

والهجر أقتـل لي ممَّا أراقبـه أنا الغريق فما خوفي من البلل

وضمَّن الغراب منها ثلاثة أعجاز، الأوَّل في قوله:

رام العواذل من جفني تكفكفه ومن يسدُّ طريق العارض الهطل

وبيت أبي الطيِّب:

وما ثناك كلام النَّاس عن كرم ومن يسدُّ طريق العارض الهطل

وقد صدق تضمين الغراب قوله فيما سبق من أنّ تضمينه يلتحم مع المضمَّن التحاما أشدّ امتزاجا من الماء والراح، إذ تضمينه هذا في غاية الالتحام لأنَّ العواذل راموا منه أن يكفكف دمعه ودمعه غزير، فهو كالعارض – وهو السَّحاب – الهطل – الكثير المطر – فدمعه لا يكفكف كالمطر الهاطل الثجَّاج.

والثَّاني في قوله:

قل للذي في الورى يهوى سواه أما في طلعة الشَّمس ما يغنيك عن زحل

وبيت أبي الطيِّب:

خذ ما تراه ودع شيئا سمعت به في طلعة الشَّمس ما يغنيك عن زحل

قد غيَّر الغراب عجز بيت أبي الطيِّب عن معناه حيث نقله إلى معنى آخر لأنَّ أبا الطيِّب يقصد إلى أنَّ ما قرب فيه عوض عمَّا بعد عنك لا سيَّما إذا كان القرب أفضل من البعد.

وقد تصرَّف الطغرائي[2] في معنى أبي الطيِّب تصرُّفا بديعا حيث قال:

---

1 الديوان 74/1.

2 الحسين بن علي بن محمَّد بن عبد الصَّمد، أبو إسماعيل، مؤيِّد الدِّين، الأصفهاني الطغرائي. شاعر، من الوزراء الكتاب، كان ينعت بالأستاذ. له ديوان شعر وأشهر شعره لاميَّة العجم. توفي سنة 513هـ/1120م. (الأعلام 267/2).

وإن علاني من دوني فــلا عجــب لي أسوة بانحطاط الشّمس عــن زحــل[1]

وأمّا الغراب فنقله إلى معنى آخر وهو أنّ من يهوى غير من يهواه أمــا يتنبّه لبهجة الشّمس المغنية عن زحل.

وهذا المعنى الذي أتى به الغراب وإن كان في غاية اللّطافــة والتّــصرُّف البديع إلاّ أنّه ليس من شأن المحبِّ أن لا يغار من الشُّركاء بــل شــأنه أن يتضايق ممَّن يضايقه في الحبِّ فضلا عن كونه يدعو إلى محبّته من غيره، لأنّ بيته دعوة إلى هوى محبوبه والإعراض عن محبَّة سواه.

وكذلك يؤخذ عليه أنّ المتعارف في زحل أنّه نجم بعيد لا أنّه يقلّ عــن الشّمس إذ هو مشتقٌّ من الزُّحول والتّباعد، وهو مثل في العلوِّ والبعد كمــا قال أبو الطيِّب:

وعزمة بعثتها همّة زحل

ويقولون إنّه شيخ النُّجوم.

ولا يبعد أن يكون الغراب أشار إلى ثقله كما شاع في تونس قــولهم في الرّجل الثّقيل (يا زحل)، وفي ذلك من التندُّر ما لا يخفى.

والثّالث في قوله:

يا من يكحِّل كــي يحلّــي لواحظــه (ليس التّكحل في العيــنين كالكحــل)

وبيت أبي الطيِّب:

فــإنّ حلمــك حلــم لا تكلفــه ليس التّكحل في العيــنين كالكحــل

واللاميَّة الثّانية التي ضمّن منها هي لاميَّة الطغرائي (-515هـــ) وضــمّن منها أربعة أعجاز، الأوّل في قوله:

يا قلب كم يحمى عنك طيب مــورده وأنت يكفيك منــه مــصّة الوشــل[2]

وبيت الطغرائي:

فــيم اقتحامــك لجّ البحــر تركبــه وأنت يكفيك منــه مــصّة الوشــل

---

1 ديوان الطغرائي ص307.

2 الماء القليل يتحلّب من جبل أو خصرة يقطر منه قليلا قليلا (اللّسان).

وبيت الغراب المضمَّن كان دون بيت الطغرائي بكثير كما يظهر للمتذوِّق الأدبي.

والثَّاني في قوله:

وقال شارقه للبرق سيرك ذا (وراء خطوي لو أمشي على مهل)

وبيت الطغرائي:

تقدَّمتني أناس كان شوطهم وراء خطوي لو أمشي على مهل

وشتَّان بين موقع العجز من بيت الطغرائي وبين موقعه من بيت الغراب رغم ٱنتقاله من الجدِّ إلى الهزل.

والثَّالث في قوله:

يا من يظنُّ نجاة من مهالكها (فظنَّ شرًّا وكن منها على وجل)

وبيت الطغرائي:

وحسن ظنِّك بالأيَّام معجزة فظنّ شرًّا وكن منها على وجل

والرَّابع في قوله:

قل للذي قاس بالأغصان قامته (وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل)

وبيت الطغرائي:

وشان صدقك عند النَّاس كذبهم وهل يطابق معوجٌّ بمعتدل

المقامة الهنديَّة

تناول نثر الغراب المقامات كما تناول الرَّسائل، وموضوع المقامة عنده تونسيٌّ يتَّصل بشيء من حياته مضمّنا في الدَّعابة، لأنَّ المقامة إذا لم تكن مشتملة على ذلك خرجت عن صميم موضوع المقامة، لأنَّ موضوعها إمَّا أن يكون لغويًّا فيه مباحث طريفة، وإمَّا أن يكون هزليًّا تنشرح له النَّفس، فهي في الغرض الثَّاني رواية قصيرة.

وتتَّصل هذه المقامة بحياة المترجَم حيث أثارها خلاف وقع بينه وبين أديب آخر وهو أبو العبَّاس أحمد بن منصور الذي كان معه في مكتبه

للإشهاد فالغراب يمدحه وٱبن منصور يذمُّه، وألّف كلاهما مقامة في مدحه وذمِّه.

وبعد نشرنا للمقامتين نذكر ما تمتاز به كلٌّ واحدة منهما، وما هي الفوارق بينهما علاوة على ٱختلاف قصدهما في مدحه وذمِّه.

وفي بعض نسخ الدِّيوان تقدمة على هذه المقامة يذكر فيها النَّاسخ الذي يبدو من قلمه أنَّه من المنشئين حيث قدَّم بمقدِّمة تأنَّق فيها وهو من معاصريه قوله فيها بعد الحمدلة والتَّصلية:

"ومن بدائع المستغربات ونهايات المستظرفات أنَّ رجلا بالمغرب بثغر صفاقس يكنَّى أبا الحسن الغراب كان مولعا بعلم البيان، البديع التِّبيان حتَّى لقد ظهر منه العجب العجاب، وبلغ ذلك جمهورا من الأصحاب، وٱشتغل بتوشيح المعاني وترصيع المباني، وٱتَّفق أنَّه دخل يوما محروسة تونس وهي الحضرة العليَّة بإفريقيَّة، فٱجتمع فيها برجل من العدول المنتصبين يكنَّى أبا العبَّاس بن منصور، وكان أبو العبَّاس صاحب مزاج ومداعبات، وكان أبو الحسن الغراب يجلس معه لتصدُّرهما للإشهاد حتَّى ٱنجرَّ بينهما ذكر الهندي ذات يوم فأخذ أبو العبَّاس بن منصور يذمُّ، وطفق أبو الحسن الغراب يمدحه، ووقع بينهما في ذلك ما وقع من الكلام، وبقيا كذلك حتَّى شرع أبو الحسن الغراب في إنشاء مقامة تشهد للهندي بحسنه وتشهد لأبي الحسن بطول باعه وحسن تصرُّفه وإبداعه".

وفي مجموع بالمكتبة الوطنيَّة تقدمة أخرى تفيد أنَّه قالها بٱقتراح من الشَّيخ أحمد المكودي الفاسي[1] نزيل تونس إذ ذكر:

"قال الشَّيخ العلاَّمة أبو الحسن الغراب أيضا هذه المقامة في التِّين الإفرنجي المسمَّى في عرف تونس (الهندي) ٱقترحها عليه علاَّمة دهره وفريد عصره أبو العبَّاس أحمد المكودي الفاسي القاطن بمدينة تونس وكان عالمها وأديبها

1 توفِّي سنة 1169هـ (تراجم المؤلِّفين 368/4).

ومفتيها وذلك حين حلوله (بمترل أبو زلفة) من عمل تونس لوليمة لبعض الأصدقاء وكان أبو العبّاس أحمد بن منصور ذمّه بكلام لا معنى له".

وهذه المقامة الهنديّة[1] مقابلة على ثلاث نسخ بٱختيار الأجود منها:

"حدّثنا أبو سنان الجندي عن أبي عاصم (الهندي) قال لمّا بلغ هندي (المترل) ما صدر عن ٱبن منصور في حقّه من المقالات الشّنيعة، والصّفات الوضيعة، ٱصفرّ وٱستحال، وتشوّك بدنه من ذاك المقال، وقال كيف يصفنا بهذا الوصف المذموم، وما منّا إلاّ له مقام معلوم، وعلى رؤوسنا من لدن نشأتنا الأكاليل الذهبيّة، والأسلحة الحربيّة، وجلوسا على الأسرّة الزمرديّة، وتخفق فوق رؤوسنا أعلام زبرجديّة، نلبس الحلل الحمر، ونحمل على الخيل الضمر، حرمنا رفيع، وحصننا منيع، لا يأمن من سهامنا الدّاني، وقلّما يسلم منّا الجاني، وكلّما ٱستترلنا قلنا له عليك، وأبعد من حرمنا وإلاّ كنت في شكٍّ ممّا أنزلنا إليك، سهامنا مجرّدة للكفاح وكلّنا شاكي السّلاح، دولتنا عليّة وشوكتنا قويّة، بأسنا في كلّ جمع شديد، ولا يفارقنا مع ذلك الحديد، ولا قبض علينا قابض من لدن نشأتنا، ولا يقدر أحد على وطأتنا، تشتهينا النّفوس، ونحمل على الرّؤوس ونرفع على أطباق، وننبت في الأوراق، وتحضرنا الأكابر على الموائد، ويعضّ علينا بالنّواجذ، ولا ترى في يد كلّ واحد منّا ملموسا، إلاّ وكلّمه من الجانب الأيمن موسى، فمتى ترك فهو على حاله مقيم، وإلاّ أحضر موسى فهو كليم، وقال موسى للخضر تصبر إلى أن يستحيل مزاجك إلى الصفرا، وقال الخضر إنّك لن تستطيع معي صبرا، على أنّه يسوؤنا حاله، ويشقّ علينا ٱحتماله، قدرنا قد ٱرتفع، ومترلتنا البطين وسعد بلع البطين بالتّصغير مترل من منازل القمر، وسعد بلع بضمّ باء بلع وفتح اللاّم أحد نجوم أربعة من منازل القمر – وإذا ٱقترن بنا طالع الإكليل – وهو مترل للقمر أربعة أنجم – فالسّعد بنا قليل، ومتى ٱتّصل بنا سعد الذّابح – هو مثل سعد بلع – بعد الخروج من الشولة والنّاطح، – الشولة

1 ديوان الغراب ص 352-355.

كوكبان نيِّران يترلهما القمر، والنَّاطح من منازل القمر – فالاتِّصال سعيد، والاقتران حميد، ومتى نزلنا بالطَّرف والذراع – هما مكانـان – فـالنَّحس الأكبر بالإجماع، ومتى أقمنا بالفرع المؤخِّر، حضر أبو عاصم وما تـأخَّر، ترى إلينا شدَّة شوق، ولنا حلاوة عند أرباب الذَّوق، نقابل باغينا بالإحسان فمتى أفرط ربَّما آذيناه بالبنان واللِّسان، وكلّ من أكثر علينا تحريك الفكِّ، أيقن بأنَّه يقع منَّا في شكٍّ، نكفي الفقير المضطرَّ، ونطعم القـانع والمعتـرَّ، ونقف عند الحدود، وإذا حضر الجامع نكثر من الرُّكوع والسُّجود ترانا على كلِّ بستان جنَّة، ولا نفارق بفضل الله الجنَّة، نستترل بـالجوامع للجمـع، ونغتسل بعد الإنزال حتَّى لا يبقى لنا شكٌّ في لمعة من اللّمع، ونقف علـى طريق السَّالكين، ونطعم اليتامى والمساكين، وابن السَّبيل والسَّائلين، فينتفع أهل الجنَّة بعدم الاحتياج إلى الخادم، ونعصم الدَّاخل عن الخروج والخـارج عن الدُّخول وما لهم غيرنا من نافع ولا عاصم.

أفنسيت يا ابن منصور أنت وأمثالك حيث جعلتمونا كلّ حين مأكلكم، وتجلسون لأكلنا فتتَّخذون المجالس مترلكم، وتؤثرون الطيِّـب منَّـا لكـم وتتركون الردي لمهملكم، وتودُّون أنَّ غير ذات الـشَّوكة تكـون لكـم، أفلست تسلبني كلَّ يوم ثيابي عن أعضائي، وتنشدني قول حبيب بـن أوس الطَّائي:

إنَّ الأسـود أسـود الغـاب همَّتـها ... يوم الكريهة في المـسلوب لا الـسَّلب

ألست بعد إنزالي تبردني بالماء من خوفك، وتخلع عنِّي ثيـابي إلى حمَّـام جوفك، حتَّى إذا أردت خروجي لا أتجاوز الباب ورأيت التَّلـيين لي مـن أقوى العلامات والأسباب، شجرتنا صالحة، وتجارتنا رابحة، فما هي بضاعة لشدَّة نفاقها تخافون فسادها، ولا تجارة تخشون كسادها.

قـل للـذي متجرنـا عنـده ... أدنى التِّجـارات علـى الـضدّ
فسل تجَّـار الأرض هـل متـجر ... أقـوى لهـم مـن متجـر الهنـدي

قال أبو سنان فلمّا سمع ٱبن منصور بهـذه الصّفات، أبدل سيّئاته بالحسنات، وندم على ما قال، وعلم أنّ الهندي من أرباب الكمال".

جعل كنية الهندي أبا عاصم لأنّه (يعصم) أي يمسك البطن، ويسبّب إمساكا عسيرا فيها، والاستعمال التُّونسي لفعل يعصم بالمعنى المذكور وإن لم يكن ٱستعمالا عربيًّا شائعا فهو لا تأباه العربيَّة لأنّ من معاني عصم منع.

وقد أكثر الغراب من الاقتباس المردود إذ كثيرا ما نقل معاني سامية إلى هزله، وهذا ما يأنف منه المتحرّي لدينه.

وعلى عادة الغراب لم يخلها من التَّورية جريا منه على سنَّته في النَّثر والشِّعر.

المقامة المنصورية

تستدعي الموازنة بين مقامة الغراب السَّالفة، وبين مقامة أبي العبَّاس أحمد بن منصور التي ذمَّ فيها (الهندي) أن ننشر كذلك مقامته تلك حتَّى تتبيَّن الموازنة بينهما.

وٱبن منصور صاحب هذه المقامة كان من أهل الدّعابة، وكان يتصدَّر للشَّهادة مع المترجَم فثار بينهما حوار في ذمٍّ (الهندي) ومدحه، فٱبن منصور يحمل عليه والغراب يرفع من مكانته فسبق ٱبن منصور إلى ذمِّه بهذه المقامة فتصدَّى له الغراب.

وهذه المقامة المنصوريَّة

"حدَّثنا فلان بن فلان عن هيان بن بيَّان: قال أخبرنا بعض الأحبار، الملتقطين لطرائف الأخبار، قال لَمّا ٱستحكم زمن الصَّيف، وغرَّه على القدوم فصل الخريف، حرَّكني داعي الأشواق، إلى أن أتفرَّج في بعض الأسواق، لعلِّي أرى أمرا يطرب، أو أشتري شيئا يعجب وما أدري أنَّ هناك أمرا يكرب، وينبئ عن أحوال الزرَّادين ويعرب، فاخترت لذلك وقت الصَّباح، المتَّصف بطلب الرِّزق والفلاح، وٱنتخبت من الأسواق باب البحر، المشتمل

على الذَّبح والسَّلخ والنَّحر، سوق له في كلِّ يوم بهجة لا تعتريـه بطالـة وكساد، فيه الفواكه والثِّمار تجمَّعت في كلِّ يوم خيره يزداد، وحين خرجت من السَّقيف، تجرَّعت غصَّة اللَّكز والوكز من القويِّ والضَّعيف، وتخلَّصت من الزِّحام واللِّجاج وقطعت خنقة ٱبن الحجَّاج، رأيت تجاه الباب أعيانا من النَّـاس، مجتمعين على أكداس وأيُّ أكداس، وبأيديهم خناجر وأمـواس، لايفترون من حركات الأحداق والأضراس.

ومنهم جماعة يذبحون، وآخرون يسلخون، وطائفة يأكلون، وهم في أمر مريح، لا فرق بين البهيج والهجيج، تـسمع لحلـوقهم أيَّ ٱزدراد، وهـم متراكمون كالجراد، وبينهم أشكال كالمرجان، وهم يقولون هـذا وقـت المهرجان، هذا وقت سرور الإنس والجان.

فقلت السَّلام عليكم يا زاردون، فيم أنتم مشتغلون و لم أنتم مجتمعون؟

قالوا وهم يختصمون، لمثل هذا فليعمل العاملون، ثمَّ ردُّوا السَّلام بكلفة، وكلُّ واحد منهم بإزائه زنبيل أو قفَّة، وقالوا يا عذول يا محروم، أتجهل طعم العسل المعلوم، كأنَّك بأفعالنا غير راض، وسددت نحونا الأغراض.

فلمَّا نظرت كثرة المخلوقات في هذا المقام، وسمعت أنَّ المنهل العـذب كثير الزِّحام، و لم أعلم أنَّ هذه غلَّة عظيمة، لا ينكرها إلاَّ من كانت فكرته وخيمة، فقلت ما هذه إلاَّ أوخام سقيمة، وأوضاع غير مستقيمة، أفـرأيتم شوكه الكثير، أما سمعتم بقبضه الكبير.

فقالوا إنَّا ذكَّيناه وسلخناه، وعلى ٱسم الله أكلناه وزردناه، فٱترك الكلام عنه والملام، وٱذهب عنَّا بسلام، فهذا أكلة وزردة، وهذه المخلوقات بعض من جنده، وإذا أردت أغرب من ذلك فٱلتفت وراءك تجـد سـوقا آخـر هنالك، وهو سوق تحصيله وجمعه، شرائه وبيعه.

فٱلتفتّ فإذا بالميدان كبير، وبغال وحمير، وألف ناقة وبعـير، وأحمـال محمَّلات وزنابيل مختلفات، وقراطيل وقفاف وعياط وهياط، وكلُّ واحـد بيده زلاَّط ومهباط وقبض ودفع ومضرَّة ونفع، فقلت ما هذا الهرج والمرج

والنَّاس يزدحمون من كلِّ فجٍّ، أفي هذا المحلِّ وليٌّ صالحٌ، أو واعظ ناصـــح، فقالوا هذا الشَّيخ الهندار، صاحب المناقب والأخبار، والآية الكبرى، وحامل آية الحلاوة في صدر البلاد وفي الخضراء.

فقلت يا معشر الزرَّادين ويا جماعة البيَّاعين بالذي حبَّب إلـــيكم هـــذا الشَّوك وأسال ماءه الأحمر على تلك الذقون، وشوَّهكم به كما تستحقُّون، ألا ما بيَّنتم لي الظَّاهرة، وحججه القويَّة الباهرة.

فقالوا هذه غلَّة حمراء، اَفتخر بها المترل وأهل تونس الخضراء، طعمهـــا نفيس، هديَّة كلُّ جليس، وكفى به شاهدا أن مدحوه في (كتاب داود)، أمَّا لونه فصنفان، صنف كالمرجان، وصنف كالعقيان، أمَّـــا ورقـــه فأشـــكال زمرّدية، وأنواره أصناف عسجديَّة (ونسبته فإلى الفرنج أو الهنود)، فلا تكن لفضله بالمنكر أو الجحود، فلا تسلَّط عليه آفات الزَّمان، ولا يتطـــرَّق إليـــه جراد ولا جرذان، وهو سور لكلِّ بستان، مانع لكلِّ لصٍّ وشيطان، ولـــولا حسنه وفضله، وجميله وعدله، لما حمل على الرُّؤوس في الأطباق، وبيـــع في أشرف الأسواق.

قال الرَّاوي فلمَّا ألجموني بالحجج، وسبحوا في بحر ذي لجٍّ، ثنيت عـــن ذلك السُّوق عناني، بعد أن رأيت وسمعت ما عناني، وتأسَّفت عـــن هـــذه الأحوال وما أحدثته الزَّردان الأغوال، وخطر إذ ذاك ببالي أن أنظم قصيدة ولا أبالي، فنظمت من بحر الطويل وتركت القال والقيل، خـــشية الـــسآمة والتَّطويل، فقلت:

[الطَّويل]

أسأتم بأكل الهند يا معـــشر الـــزُّرد — وصار لكم صيت إلى الـــسِّند والهنـــد
رضيتم بأكل الـــشَّوك في كـــلِّ بلـــدة — وأهلكتم فيه الخراريـــب بالعـــــــدّ
وذكَّيتموه بعـــد سـلخ لجلــــــده — فأعجب لقوم صيَّروه كما الـــشَّهـــد
جعلتم له شـــأنا وعـــزًّا ورفعـــــة — وما كان بعد العتق إلاَّ كمـــا العبـــد
ولم تختشوا قبضا (يطـــول ببطـــنكم) — فتوبوا إلى التوَّاب يا معـــشر الجنـــد

وأنا أستغفر الله من أضاحيك القول، وأباطيل الهزل، إنَّه هـو الغفـور الرَّحيم، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم.

هديَّة المرء على قدره والفضل أن يقبلها السيِّد، أما ترى أنَّ العين بجلالها تقبل ما يأتي به المرود".

يشير بكتاب داود إلى غير ما يتبادر إلى الذِّهن من أنَّه المزامير بل يقـصد بذلك التَّذكرة للشَّيخ داود الأنطـاكي[1] وٱسمهـا الكامـل "تـذكرة أولي الألبـاب والجامع للعجب العجاب" وذلك من باب التَّورية.

وقد ٱشتهر هذا الكتاب في عصر الغراب وزميله ٱبـن منـصور أيَّمـا ٱشتهار، وغطَّى على الكتب الطبيَّة الأخرى مثل "المختصر الفارسـي" لأنَّ الأنطاكي مؤلِّفها جمع فيها ما تفرَّق في الكتب المؤلَّفة قبله ثمَّ قرب عـصره فلغته مفهومة لأنَّه توفِّي سنة 1008هـ والعصر المذكور هو القـرن الثَّـاني عشر الهجري، وقد بحثت في التَّذكرة فلم أجدها تتكلَّم عليه بخصوصه ولعلَّه يقصد ما جاء في التَّذكرة من تمر هندي الذي هو الصبَّار، لكن بإمعان النَّظر يتبيَّن أنَّ الهندي شيء آخر غير التِّين الهندي الذي هو موضوع المقامة، وقد بحثت في مظان كثيرة فلم أظفر بالبغية، ولعلَّ طول البحث في التَّذكرة يوقف على ذلك، وٱنظر التَّمر الهندي في "معجم الألفاظ الزراعيَّة" ص460 والتِّين الهندي[2] أو الإفرنجي يعرف بالتِّين الشَّوكي جاء في "القاموس الوسيط" لمجمع

---

1 داود بن عمر الأنطاكي، عالم بالأدب والطِّب وٱنتهت إليه رئاسة الأطبَّاء في زمانه. من تصانيفه "تذكرة أولي الألباب" في الطبِّ و"تزيين الأسواق" في الأدب. توفِّي سنة 1008هـ/1600م. (الأعلام 9/3).

2 فيما يخصُّ لفظ الهندي وتعرض تذكرة الشَّيخ داود الأنطاكي له، تكرَّم الأستاذ محمَّد محفوظ من صفاقس بإفادة وتذكرة. أمَّا الإفادة فإنَّه جاء في "حلِّ الرُّموز" وهي رسالة لمؤلِّف تونسيٍّ من أهل القرن الثالث عشر أنَّ جوز الرقع هو الهندي بتونس.

وذكره في التَّذكرة باسم جوز الرقع، والرقع اليماني وذكر أنَّه يعرف بمصر بالتِّين الإفرنجي، وقد يقال تين هندي وكذا جاء في المعتمد لٱبن رسول اليمني. أمَّا التَّحريض فإنَّه منذ عشرين سنة خدمنا رسالة الفاسي إلاَّ قليلا، وهي معجم في النَّباتات وما يقابلها من العاميَّة التونسيَّة، وٱعتذاري هو ما المرء فيه غير موفر للوقت، ولولا ذلك لما تأخَّرت هذه المدَّة، وهي جاهزة، ولنا إن شاء الله عودة لهذا الموضوع.

اللُّغة العربيَّة التِّين الشَّوكي ضرب من الصبَّار، مع صورته خلافا لما في المنجد من أنَّه التَّمر الهندي.

وأفاد صاحب هذه المقامة في تسمية هذه الفاكهة (الغلَّة) بأنَّها تنسب إلى الإفرنج أو الهنود فيقصد أنَّه يسمَّى بالتِّين الإفرنجي أو التِّين الهندي، ولعلَّ الذي كان الشَّائع في تونس أنَّه كان يسمَّى بالتِّين الهندي، ثمَّ وقع الاقتصار على بعض الاسم فقيل (الهندي)، وهذا أقرب وجه في تعليل تسميته بالهندي، ومن باب الملح أنَّه لم يقتصر على تسميته بالإفرنجي كما أفاده في هذه المقامة فهو كما ينسب إلى الهند ينسب إلى الإفرنج ٱستبشاعا لأنَّ هناك مرضا يسمَّى الحبُّ الإفرنجي وهو الزهري، فكرهوا تسميته بذلك خشية ٱنصراف الذِّهن إلى المرض المذكور.

موازنة

تستدعي الموازنة بين مقامتي الغراب وٱبن منصور المنشورتين أن ننظر إلى كليهما بمنظارين مختلفين، فإنَّ المقامتين قد بنيتا على غرضين مختلفين، ولست أعني ٱختلافهما في المدح والذمِّ فذلك لا يهمُّ كبير أهمِّيَّة في الموازنة، وإنَّما الأهمُّ مقصد الكاتبين في المقامتين، فالغراب بناها على أن تكون مقامة عربيَّة متينة إلاَّ ما زلَّ فيه القلم وٱبن منصور السَّابق للكتابة له غرض سنوضِّحه.

وإذا نظرنا إليهما بنظرتين لا نظرة واحدة لم نحكم حكم أحد النَّاسخين لمقامة الغراب الذي يذهب إلى أنَّ ٱبن منصور ذمَّه بكلام لا يفهم، ونرى أنَّه لم ينصفه و لم يتَّضح له مرماه فلهذا رماه بأنَّه أتى بكلام لا يفهم.

وفي الحقيقة لكلٍّ وجهة فالغراب أراد أن يظهر فيها براعته في فنونه البديعيَّة التي تمهَّر وبرز فيها، فلهذا نجده يفتتحها بتورية لطيفة وهو أنَّه كنَّى الهندي بأبي عاصم كما تقدَّم، بينما ٱبن منصور لم يذهب للتَّورية وصرَّح بأنَّه قابض للبطون كما جاء في خاتمة أبياته، ومن هنا يتَّضح الفرق بين

مشرب الكاتبين، فالغراب أراد أن يتفنّن ويبرز فنّه الخاصّ وهو التّورية بينما ٱبن منصور لم يذهب إلى ذلك و لم يتحاش في التّعبير إتماما لما تتطلّبه الدّعابة.

ومن توريات الغراب بعلم الفلك قوله (قدرنا قد ٱرتفع، ومترلتنا البطين وسعد بلع) وهما كما تقدّم من منازل القمر، ولكنّه يورّي بذلك لشيء آخر وهو أنّ مترلة الهندي مترلة عزيزة ومرتفعة بالنّسبة لآكليه حيث أنّ الآكلين أوّل مبادرتهم لأكله يضعونه في حلـــوقهم حين الابتلاع، وفي هـــذه رفـــع لمترلته حيث كان في التُّراب فأصبح في حلق الإنسان، والحلق من أشرف ما في الإنسان، ثمّ بعد الحلق يترل إلى البطن، فالبطين كما هو نجم كذلك هـــو تصغير بطن.

وكذلك قوله سعد الذّابح ورّى به عن إزالة قشر الهندي بالموسى ممّـــن ٱسمه سعد مع أنّه نجم، وتدلّ هذه التّوريات على تمكّنه من علم الفلك مـــع تصرُّف لطيف في تورياته حيث أشار بها إلى حالات هذه الفاكهة من ٱبتلاع ومكث في البطن، وقد عرف كيف يختار من نجوم السّماء ما يتلاءم مع هذه الفاكهة ممّا يدلّ على قدرة بارعة في التّورية.

وتتبُّع تورياته يطول بنا وإنّما نقتصر على ما أجاد فيه وأبدع، ومن ذلك تعبيره عن قرب حالات خروجه بقوله بالطرف، وعـــن الحـــال الأخـــيرة (بالطّرف المؤخّر، حضر أبو عـــاصم وما تأخّر)، ولا تخفى هذه التّورية.

وكانت الحالات الأولى حالات سعد، وهذه عبّر عنـــها بـــالنّحس لأنّ الفاكهة صارت فضلة فبعد حمل الإنسان لها يقذفها مع المستقذرات، وتعبيره بالنّحس – عافانا الله منه — تورية أخرى وهي أنّ النّحس كما هـــو ضـــدُّ السّعد الذي ورّى عنه بٱسم سعد بلع وسعد الذّابح كذلك النّحس يطلـــق على الغبار في أقطار السّماء فيقال هاج النّحس، ويوم نحس للغبار الذي فيه.

والنّحسان زحل والمرّيخ والسّعدان المشتري والزّهرة، ومن هنـــا أطلـــق زحل على الرّجل الثّقيل فهو ثقيل على النّفس كثقل الأمر النّحس.

ومن تصرُّفه البديع نقله لبيت حبيب بن أوس الطّائي:

إنَّ الأسود أسود الغاب همَّتها يوم الكريهة في المسلوب لا السَّلب

وهو أبو تمَّام، وهذا البيت من قصيدته التي يمدح فيها المعتصم بالله بن الرَّشيد، وهي قصيدته المشهورة التي مطلعها[1]:

السَّيف أصدق أنباء من الكتب في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ واللَّعب

وفي هذا البيت الذي تصرَّف فيه الغراب أنَّ الأسود البيت هو من عيون قصيدة أبي تمَّام ومعناه أنَّ الممدوح غنيٌّ غير محتاج إلى المال فيخدع به ليكفَّ عن الحرب، فهمَّته في حرب أعدائه لا الغنيمة، وقد نقله الغراب إلى معنى آخر وهو أنَّ آكل الهندي يترك قشره لأنَّ المقصود اللبّ.

ونقله هذا طريف وإن كان فيه تغيير لمعناه السَّاحر الذي قصده أبو تمَّام، وهذا يدلُّ على قريحة وقَّادة في الغراب قادرة على التَّصرُّف في محفوظه وٱستغلاله ٱستغلالا مقبولا لا أثر للتكلُّف فيه.

وعلى هذا عامَّة المقامة في التفنُّن في التَّورية والاقتباس، وهو قد أحسن في التَّورية إلاَّ أنَّه في ٱقتباسه لم يلتزم الأدب مع القرآن.

وأمَّا المقامة المنصوريَّة وإن كانت خلوا من البدائع الغرابيَّة فقد كانت من ناحية أخرى ذات قيمة ممَّا خلت منه المقامة الغرابيَّة، إذ أنَّها صوَّرت سوق باب البحر تصويرا دقيقا، فلو أنَّ فنَّانا أخذ هذه المقامة وبنى عليها صورة لتلك الحال لجاءت صورة طبق الأصل، فهو يصوِّر الزِّحام عند خروجه من السَّقيفة الباقية إلى اليوم وما تجرَّعه عن ذلك الزِّحام (وحين خرجت من السَّقيف تجرَّعت غصَّة اللَّكز والوكز من القويِّ والضَّعيف)، ويصوِّر بعد ذلك أكداس الهندي وتجمُّع النَّاس حولها (رأيت تجاه الباب أعيانا من النَّاس مجتمعين على أكداس وأيّ أكداس وبأيديهم خناجر وأمواس لا يفترون عن حركات الأحداق والأضراس).

ويصوِّر كذلك جلوس كلِّ بائع بإزاء قفَّته أو زنبيله (ثمَّ ردُّوا السَّلام بكلفة، وكلٌّ واحد بإزائه زنبيل وقفَّة)، فهذه المقامة ٱنبنت على تصوير تلك

---

1 ديوان أبي تمَّام 45/1.

السُّوق وما يدور فيها حول الهندي من بائعين قادمين على وسائل النَّقل إذ ذاك من جمال وبغال وحمير وزنابيل وقفاف معبَّأة بهذه الفاكهة أو ملتهمين مقبلين على إعداده وأكله بشره حتَّى صارت مناظرهم بشعة بسيلان مائه على الذُّقون.

وكما بناها على التَّصوير وسواء أكان عفوا أم عن قصد أصلي بناها على الدّعابة و لم يقصّر فيهما، وهي وإن لم تكن متينة العربيَّة فهي في عربيَّة قريبة من الأفهام، وليست بكلام لا يفهم، بل هي أشدُّ قربا إلى الأفهام من المقامة الغرابيَّة وبهذا يتبيَّن أنَّ المقامتين في اتِّجاهين مختلفين وكلٌّ منهما أبدع في اتِّجاهه الخاصّ.

المقامة العبائيَّة

هذه المقامة تمتاز على المقامة الأخرى التي سلفت للمترجَم بأنَّه تأنَّق فيها غاية التأنُّق، وجاءت كما يريد في أسلوب طريف ذات إبداع واختراع، وهي من عيون نثر الغراب.

وكاتب بها أحد زملاء الدِّراسة بتونس حسبما جاء في طالعة المقامة ضمن أحد المجاميع: "هذه المقامة العبائيَّة[1] التي أرسلها الأديب الشَّهير، عديم النَّظير، من رفع عن محيَّا الأدب النِّقاب، وتلاطمت في لُجج بحره الآداب، أبو الحسن علي الغراب، الصَّفاقسي رحمه الله الملك التوَّاب إلى الشَّيخ الفاضل العلاَّمة أبي محمَّد حمُّودة بن عطاء الله سامحه الله على شأن عباءة حملها معه من صفاقس إلى مدينة القيروان ليقصرها بالصَّابون في زمن الصَّيف، وتأخَّرت عنده إلى زمن الشِّتاء فأرسل ليستحثَّه عليها وذلك سنة 1161هـ".

أفادتنا هذه المقدِّمة أنَّ هذه المقامة تعرف بالمقامة العبائيَّة نسبة إلى العباءة وأصل معناها في العربيَّة كساء من صوف مفتوح من قدَّام يلبس فوق

---

1 ديوان الغراب ص343-351.

الثِّياب، وهي هنا بمعنى آخر وهو الغطاء وهذا ٱستعمال تونسيٌّ، لقِّبت هذه المقامة بالعبائيَّة للسَّبب المذكور.

وٱبن عطاء الله الذي كاتبه ترجم له في "تكميل الصُّلحاء والأعيان"[1] بأنَّه الشَّيخ أبو محمَّد حمُّودة عطاء الله السلمي ٱرتحل إلى تونس مع ٱبـــن عمـــه المذكور – أي علي بن عطاء الله – للقراءة فقرأ على المشائخ المذكورين – أي في ترجمة ٱبن عمِّه السَّالف الذِّكر – وهو فقيه جليل وله في الأدب حظٌّ وافر.

وذكر أنَّ له كتابا في الأدب النَّافع أنسي ٱسمه وإنَّما ذكر طريقتـــه فيـــه وهي أنَّه يأتي بحديث نبويٍّ شريف ويعقبه بحكمة من أحد العارفين في معناه، ثمَّ يأتي ببيت أو بيتين من الشِّعر في المعنى، ويختم بنثر من قلمه يحلِّـــل فيـــه الحكمة التي أُبتدئت بالحديث وختمت بالشِّعر، وهي طريقة سلكها بعـــض الفاسيِّين وهو الشَّيخ أبو مدين بن أحمد الفاسي[2](– 1181هـــ) في كتابـــه "تحفة اللَّبيب ونزهة الأريب"، وطريقته أن يأتي بسجع حكمي ثمَّ يعقبه بنظم في المعنى وكان ذلك على حروف المعجم ويختم كلَّ فصل مـــن حـــروف المعجم بحكاية رائقة.

وذكر الكناني أنَّ ٱبن عطاء الله هو الذي كاتبه الغراب بالمقامة العبائيَّـــة المعلومة.

ثمَّ ذكر أنَّه رجع إلى بلده بعد الإقامة في تونس مع ٱبن عمِّه عليٍّ وتوفِّي قبله، وقبره بإزاء قبر ٱبن عمِّه ولم يذكر سنة وفاتـــه وجـــاء في "هـــامش التَّكميل"

---

1 تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان لمحمَّد بن صالح الكناني القيرواني، فقيه مؤرِّخ صوفي شاعر، له: ديوان شعر، "ديباجة الأعيان". توفِّي سنة 1292هـــ/1875م. (تراجم المؤلِّفين 176/4).

2 فقيه، أديب من تآليفه "شرح سيرة ٱبن فارس" (معجم المؤلفين 288/8).

"ومن خطِّ الشَّيخ بوراس ما نصُّه[1]

أبو محمَّد حمُّودة عطاء الله وأبو عبد الله محمَّد السَّنوسي بوراس ولد الشَّيخ المفتي أبي عبد الله بوراس أخذا جميعا بمحروسة تونس عن مشايخ وعمدتهم سيدي عبد الله السُّوسي، مكثا بتونس نحو العشرة أعوام، وقدما للقيروان عدلين يشهدان جميعا، ويدرسان إلاَّ أنَّهما لم تطل حياتهما فالأوَّل منهما تولَّى خطابة جامع الزَّيتونة بالقيروان المنسوب لتاجر الله سيدي إسماعيل الأنصاري التَّابعي الجليل".

وتوفِّي حمُّودة عطاء الله عام 1178هـ والثَّاني رحمه الله تعالى بعده ولم نقف له على تاريخ.

والغراب في هذه المقامة ينوِّه بحمُّودة بن عطاء الله تنويها كبيرا حتَّى أنَّه يعبِّر عنه "بضياء الملَّة وسراج الدِّين"، ومثل هذا لا يلقى جزافا خصوصا ممَّن يحترم نفسه، ويعتزُّ بأدبه، فلا بدَّ أنَّ المكتوب إليه من ذوي القيم العلميَّة، ويرشد لهذا أنَّ الكناني في تكميله ترجم له بأنَّه فقيه جليل وله في الأدب حظٌّ وافر.

وهذه المقامة سائرة سير المثل بين التونسيِّين لأنَّ الغراب كتبها بأعتناء وأودعها الكثير من فنِّه الأدبيِّ، وسنذكر بعضا من ذلك بعد ذكر هذه المقامة التي أطال فيها النَّفس وضمَّنها أشياء طريفة:

"إلى من ضربت أوتاد أشواقه في عروض الفؤاد، فلا تحذف بسبب والحذف إنَّما يكون في الأسباب دون الأوتاد، وأضرم في الحشا نيران فراقه، وأطلق دمعي بعد تقييده وقيّد صبري بعد إطلاقه، قطب دائرة المتَّفق على كمال فضلهم وعلمهم وصدر رؤوس الأدب المجمع على أعجاز نثرهم ونظمهم، علماء عصره في المغرب يقتفون أثره بكل قطر وناحية، وتتوقَّف في الإملاء على إجازته حتَّى يأذن بالإصراف أو الإجازة لتلك القافية، عنيت

1 تكميل الصُّلحاء والعلماء لمعالم الإيمان وأولياء القيروان لمحمَّد بن صالح عيسى الكناني القيرواني ص328. المكتبة العتيقة تونس 1970.

به الحبر الزكي الفاضل، والبحر المديد الكامل، من أصبحت علوم المنقـــول برده ورداه، وفنون المعقول وشيه وحلاه، الجليل بما يحوي مـــن الجميـــل، والخليل الملتفت إلى نحو الخليل، ضياء الملّة وسراج الدِّين، أبا محمَّد بن عطاء الله السلمي لا زال فضله بين الأئمَّة متعارفا، وذكره بـــين الأمَّـــة متـــواترا مترادفا، ولا برح ميزان كماله راجحا لا يدخله نقص، وأجزاء شرفه سالمة لا يعتريها عقص ولا وقص.

أمَّا بعد، فإنَّ كتابنا هذا يصل إليك، سلام منَّا وبركات عليك، ســـلام طويت من نشره نفحات الأزهار وغارت من عذوبته جاريـــات الأنهـــار، وٱعتلت من نظمه نسيمات الأسحار، ينمُّ على جنابكم كلَّ وقت أرجـــه، وتشرق على أرجائكم كلَّ حين سرجه، ما راقب الله مؤمن بحسن المراقبة، خشية من عذاب النَّار وسوء العاقبة.

هذا وإنَّ قلبي من بعدكم لم يحظ بالمسرَّة يوما ولم يفز، وإنَّ ذلك البيت المديد الوافر لم يسعني منه صدر ولا عجز، لا سيِّما وقد ضربتني من عجزه ريح في الصَّدر، أبعدتني من قربه فلم يطب لي جلوسي في الصَّدر، وخبـــث عندي ريح ذلك العجز بضربه، وطالما وقع لي في هذا البيت تغيُّـــر وقـــبض بسبب بعدكم ولا ٱنكفَّ لي دمع ولا ٱنطوى لي نشر حـــزن وأنَّـــى لي في الكفِّ والطيِّ من بعدكم حتَّى كأنَّ مدامعي سيول همر، أو بحـــر يزخـــر، والبحر يمدُّه من بعده سبعة أبحر، وكم لزمتني من علل، إلى إضمار بالجـــسم وتبديل في الشَّكل، وأثرت نقصا في الفعل، وخبلا في العقل، وشعث أجزاء صبري فواصل بينكم، وقطعت بأسباب الإيحاش أسباب الأنس بيني وبينكم، فيا لها من فرقة ٱسودَّ منها الإهاب، وشبَّ منها جمر الحشا وشـــاب منـــها الغراب، وكيف لا وقد ٱنكفأتم عن الدِّيار، وأقوى ذلك البيت من أنـــسكم على الرَّغم بغير ٱختيار، فظلَّت من الإكفاء والإقواء بذلك البيت في كـــرب متوال متأسِّفا على تلك اللَّيال، التي هي في جيد الزَّمان كعقود اللَّئـــال، أو زهرات في غصن رطيـــب، أو خيلان لها حلاوة بصحن خدِّ الحبيـــب، أو

نجم تزهر في غياهب، أو سيف يلمع في منار نقع السَّلاهب، فيا لها من صفاء ليال لو لم تشب ببعاد، أو كان وصلها ماله من نفاد، فدام ذلك الوصل على حاله، ولم يجدع أنف كماله بزواله، لكنَّه أسرع ما لجَّ في النّفار، وولَّت أجناده الأدبار وٱرتحلت الأحبَّة عن الدِّيار، كأن لم يلبثوا إلاَّ ساعة من نهار، فراحت الرُّوح على آثارهم، وناح الغراب على أوكارهم، سليم الحشا يصلى بنيران فراقه ويتألَّم، وما صام عن ذلك التألُّم، منذ صلَّى وسلَّم بل يتركه يتلقَّى، وعبس وتولَّى، فلمَّا لمته بسبب التَّقصير على جدع أنف مدَّته بمدية المسير، قال وكيف أجدع أنفي وأنا قصير، كأنَّه في سرعة الزَّوال، طارق خيال، أو برق خاطف، أو إجابة عرش بلقيس بدعوة آصف، أو دموع محبٍّ يوم البين، أو فرس بدر بن عمَّار موصوفة ٱبن الحسين، ولقد كنَّا قيَّدنا على الذمِّ بالمدح مطلقات الألسنة، ومحونا جميع سيِّئاته في جانب تلك الحسنة، فيا لك من ليالي وصل، لو لم تكن كسِنَة، وساعة فراق في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة.

وقد زاد مع فراقكم تكدُّر صفوتي، ونزغ الشَّيطان بيني وبين إخوتي، وقرعنا باب الاشتغال بالتَّنازع، ولم يجزم المنتصبون بيننا الحكم عند التَّرافع، وما أظنُّ أنَّه يخفى عنكم ما نحن فيه معهم من عدم الإجلال والمبرَّة، أو يعْزب عن ذهنكم منه مثقال ذرَّة، وإنِّي معهم في تلك الدَّار على سعتها في أضيق من سمِّ الخِياط، وألاقي منهم ما لقي يوسف من الأسباط، وقلوبهم على أشدِّ كفرا ونفاقا وأجدر، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر، فنسأل من بيده العقد والحلُّ، أن يمنَّ عليَّ بنشر هذا البين والغمِّ ونظم ذلك السُّرور والشَّمل.

ويليه أعزَّ الله مولانا أنَّ العباءة التي كلَّفناكم بحملها، وألزمناكم بغسلها، لم ندر هل سبب تأخُّرها هذه المدَّة، إلى أن تنقضي أيَّام العدَّة، أو أنَّها لم تبلغ إلى المكان الذي حملت إليه، فقلت إنَّ غير البالغ لا يجب الغسل عليه، أو ٱرتحل صابونكم بحلولها فورا، أو أصبح ماؤكم غورا، فإذا كان الأمر

كما ذكرناه، والحال على ما وصفناه فإذا هاد إليكم من بلدنا الجمَّالون، جاء الماء مع الذين هادوا والصَّابون، أو ضلَّت سبلها، ولم تضع إلى الآن حملها، أو وضعت إلى الزَّمن الذي حملت فيه أو آن الزَّرع، والحال أنَّ الخطاب عليها خطاب تكليف لا خطاب وضع أو طرحت في متروك مكان، ونسجت عليها عناكب النِّسيان، أو ألحقت بالقارضين، وصارت أثرا بعد عين، ورجع الأمل عنها بخفَّي حنين، متزرا بثوب الاحتساب، راضيا من الغنيمة بالإياب، أو ألحقت بأهل المقابر، وذهبت كأمس الدَّابر، أو خرقتها يد الأسفار الشَّواسع، فاتَّسع الخرق فيها على الرَّاقع، أو وقعت بعد رقعها في يد الضياع، فأبيت أن تخبر عن وقعة ذات الرقاع، أو حسنت لكم منها مواقع، أو لكم فيها دفء ومنافع، أو نهبت بالسَّيف والأسل، فسبق فيها السَّيف العذل، أو بقيت في منعرجات زوايا الإهمال، أو نزلت للإنس من ربِّها منزلة البعض من الكلِّ، فصارت الآن بدل اشتمال، أو آنت من يخلف الميعاد، فلا تدرك المطايا بحثها، وممَّن ينكر المعاد فلا يقول ببعثها، فأمسكت لذلك الغرض، وقد يسدُّ مسدَّ الجوهر العرض، فالحاصل أنَّه لم يترجَّح عندي احتمال، والدَّليل متى طرقه الاحتمال سقط به الاستدلال.

فالمسؤول من علوِّ همَّتكم، وشريف حرمتكم أنَّها إن كانت في دائرة الوجود على الوجود مشتملة، فالإسراع بإنفاذها على الحالة اللاَّزمة لها أو المنتقلة، وإلاَّ فأخبرنا لنعرض عنها، ونقول عسى ربَّنا أن يبدلنا خيرا منها، فإنَّ الشِّتاء أرسل يخبرنا بموافاته، ويطالبنا بسبع كافاته، فأعددت له من ذلك ما وسعه جهدي وحيني، ولم يبق إلاَّ لبس عباءة وتقرُّ عيني، وذلك أنَّ هذه العباءة غاشية لجميع أهل بيتنا في البرد، كافية للجمع منهم وللفرد، ومنذ فقدت زمن ذلك الحرِّ الكثير، لم يسألني عنها منهم كبير ولا صغير، بل كلَّما أمال النَّوم رقابهم، غلَّقوا أبوابهم، واستغشوا ثيابهم، إلى أن قطَّب وجه الشِّتاء وعبس، وبدا أفق صبحه يتنفَّس، صاروا كلَّما أقبلت ليلة شاتية، تجافت جنوبهم عن المضاجع في كلِّ ناحية، وقاموا قبل الفجر يسألونني هل أتاك من

ذلك البلد حديث الغاشية، وجعلوا يتأسَّفون على فقد تدفيها، وقـالوا يـا حسرتنا على ما فرَّطنا فيها، والحاصل أنَّك ترى لأجنحتهم في البرد شـدَّة ٱضطراب، فالمطلوب إرسالها على جناح غراب، خشية من هجوم الـشِّتاء وكلٌّ منهم مجرَّد، فيجعل يصيح ويستغيث أين كسائي فإنِّي المبرَّد، لا سيِّما وأنَّ الشِّتاء بذلك البيت أشدُّ علينا من نهش الحيَّة، وأبرد علينا مـن بيـوت سميَّة.

ثمَّ ٱعلم أنَّه قد كان وقع بيننا الاتِّفاق، قبل الافتراق، على الاجتماع من الخل الموافق الموافي، وثالثة الأثافي، بجمَّال ثمَّ يكون من هناك الارتحال نتبرَّك بزيارة المشائخ السوسيَّة، ثمَّ نتوجَّه إلى الحضرة التونسيَّة فإن كنت باقيا على ما نطقت به وأبنت، وبانيا على الاجتماع بالبلد الذي عيَّنت، ولم تنفكَّ في دائرة المتَّفق الذي تضمَّنت فٱجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت.

ثمَّ إنَّنا لم ندر كم كانت إقامتكم بسوسة، وهل حصلت لكم بها ليـالي مأنوسة، غير أنَّ بعضكم قالوا أقاموا بها كثيرا، وقال آخرون ما تلبثوا بها إلاَّ يسيرا.

ٱستدراك:

ٱعلم أنَّ العباءة والكتاب وصلا إليَّ عقب فراغي من هذه الرِّسالة، وذلك آخر يوم من رمضان لا محالة، وقد كـاد القوم يتَّخذون يوم وصالها عيـدا يستحلُّون فيه الإفطـار، ويتعجَّبون كيف تعمَّدوا الصَّوم في ذلك النَّهـار فكانت أشهى من زيارة المحبوب، وأنفع من قميص يوسـف علـى عـيني يعقوب، وأقبلت وهي ضاحكة مستبشرة، وكانت حين تولَّت يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة.

ثمَّ المطلوب من كرمكم ودماثة شيمكم أن تعرِّفونا بحقيقة الشَّيخ الإمام، والعلم الهمام، العادل في أقضيته بين الأنام، سعادة من ٱنتهى إليه، وركن من عوَّل عليه، بأيّ إضافة إليه ٱستحقَّ الصَّرف، وبأيِّ عامل خفـض وكـان

منتصبا على التَّمييز والظرف، وكيف يصرف وقد عرف بالعلم والفضل، وآجتمع فيه العلميَّة والعدل، بأيِّ سعاية يستوجب سعادة صرفا، وعلَّة المنع فيه لا تخفى، وكيف تقبل فيه أقوال مزوَّرة، وقضايا أحكامه بالعدل مسورة، وهل يصدق من وقع فيه بما لا يليق؟ أو يتصوَّر أنَّه بذلك حقيق؟ وموجبات علمه وفضله تنفي عنه ذلك التَّصوُّر والتَّصديق.

وكذلك أنبئنا هل رجع بعد فقد النَّظير إلى حماه، وعاد الماء إلى مجراه، والغريب إلى مأواه، وقد أرّخنا وفاة قاضي القضاة بالحضرة العليَّة، بتاريخ له مزيَّة ما له في الحسن ما يضاهي، وهو: علي قاضي القضاة قضى الهي وبنينا عليه أبياتا ليس هذا محلُّ ذكرها و لم تكمل.

والسَّلام على ذراريكم السَّبع، بعين الجميع لا بعين الجمع، وهاك أبياتا أنشأها يوم التَّاريخ تتضمَّن تاريخ قدومكم وقصيدة".

تتضمَّن هذه المقامة أو الرِّسالة الموجَّهة إلى حمُّودة عطاء الله السلمي أمورا منها:

تحيَّة الموجَّه إليه بهذه الرِّسالة، وإبلاغه سلامات الكاتب وأشواقه وعدم الصَّبر على الفراق بين الكاتب والمكتوب إليه، وتشكِّي الكاتب ممَّا يلاقيه من إخوته الذين أساؤوا معاشرته، وتضايقه من سكناهم معه في الدَّار المعنيَّة، ثمَّ جاء حديث العباءة التي كلِّف بتقصيرها المكتوب إليه وأشرف الشِّتاء و لم يتمَّ تقصيرها وإرسالها، وهنا تفنَّن الغراب في أسباب هذا التَّباطؤ في التَّقصير والإرسال، ومن أجل هذا الغرض سمِّيت هذه بالمقامة العبائيَّة، إذ أنَّها كانت السَّبب الحامل للغراب على إرساله هذه المقامة.

وهي في الأصحِّ رسالة لا مقامة وإن كان كلُّ من نقلها عنون لها بالمقامة العبائيَّة كمثل ما جاء في تلك المقدِّمة التي ذكرناها آنفا، مع أنَّ الغراب نفسه عبَّر عنها بالرِّسالة إذ يقول في آستدراكه: (عقب فراغي من هذه الرِّسالة).

و لم أدر لماذا عُنونت بالمقامة مع أنَّنا إذا نظرنا إلى أسلوبها نجده يخالف أسلوب المقامات، فما ذكره ناقلوها من أنَّها مقامة مجرَّد تسمية لأنَّ الغراب

بناها على أسلوب الرَّسائل حيث يقول في أوَّلها (إلى من ضـــربت أوتـــاد أشواقه الخ...) وهذا ما دعانا إلى إجمال ما تضمَّنته حتَّى يتَّضح موضـــوعها من أنَّه موضوع رسالة، وهذه العبائيَّة تخالف المقامة الهنديَّة لأنَّها لم تُبن على الحوار المتعارف في المقامات والابتداء بالتَّحديث عن شخصيَّة خياليَّة تـــبنى عليها المقامة.

ثمَّ إنَّها لم يسلك الغراب فيها إلاَّ مسلك الرَّسائل من خطاب للموجَّه إليه بها في كلِّ فقرة وحفاظا على ما وجد أبقينا ٱسم المقامـــة، وإن كانـــت في الحقيقة بعيدة كلَّ البعد عن ذلك، بل هي رسالة أدبيَّة تضمَّنت جدًّا وهزلا، والهزل في شأن العباءة، وما عداها فجدٌّ مثل تشكِّيه من نزغ الشَّيطان بينـــه وبين إخوته، والاستفسار عن بعض الأحوال.

وبعد حديث العباءة ذكر ٱتِّفاقه مع المكتوب إليه على الاجتماع بجمَّال، ومنها يكون الارتحال إلى سوسة ثمَّ إلى الحضرة التونسيَّة، وتساءل هل بقـــي المكتوب إليه على وعده.

وأخيرا ٱستدرك في آخر الرِّسالة بأنَّه إثر فراغه منها ورد عليه مكتـــوب من الموجَّه إليه مع العباءة فكان يوم وصولها عند العائلة عيدا.

وتمتاز النُّسخة التي في حيازة كاتبه بأمرين عن النُّسخة المحفوظـــة بـــدار الكتب الوطنيَّة تحت عدد 9760 ضمن مجموع

1) الاستفسار عن تأخُّر الشَّيخ سعادة عن خطَّته وهل رجع إليها.

2) إنشاء تاريخ لوفاة قاضي القضاة بالحضرة التونسيَّة ويعـــني القاضـــي الريكلي الذي ستأتي ترجمته مع تحقيق في هذا التَّاريخ للوفاة في التَّعليق على هذه المقامة، فيما يستقبل.

بدائع التَّورية

قد تفنَّن الغراب أيَّما تفنُّن في الرِّسالة العبائيَّة أو المقامة، وٱستعمل فنَّـــه الذي برز فيه وهو التَّورية، وجمع في هذه المقامة الكثير من الاصـــطلاحات

العروضيَّة، وسنبيِّن الكثير ممَّا جاء فيها إبرازا لقـــدرة الغـــراب في التَّوريـــة مقتصرين على ذلك دون تتبُّع لجميع ما أتى به لما يؤدِّي إليه مـــن إطنـــاب وإسهاب.

ورغم أنَّ المحسِّنات البديعيَّة قد تجنَّبها الكتَّاب والشُّعراء المتحرِّرون مـــن التكلُّف لأنَّ هذه المحسِّنات قلَّ أن تجيء عفوا، وإذا عني بها جعلت القطعـــة نثريَّة أو شعريَّة تتعثَّر في التكلُّف الذي يأباه الطَّبع، وفي ذلـــك مـــا يـــدعو للإعراض من أجل التكلُّف ترى الغراب وإن كان في توريـــاته لم يأت بهـــا عفويَّة بل قصدها وتصيَّدها، قد كان في تصيُّده حاذقا أحذويا يعرف كيف يتصيَّدها، وكيف يضعها في أماكنها، فبين أيدينا مقامته العبائيَّة هذه وقـــد حشاها بالتَّوريات والاقتباسات، وهي مع ذلك لا يتعثَّر المطـــالع فيهـــا ولا يحسُّ بثقل حين يقرأها بل يقبل عليها بنهم ويطرب لها.

وقد ٱفتتح أوَّلها بتوريات عروضيَّة وسنوضِّح البعض الكثير منها ٱستجلاء لما ٱنطوت عليه هذه المقامة المعدودة من عيون نثر الغراب ذات التَّوريـــات البديعة.

ففي الفقرة الأولى نجد جملا ذات توريات متعدِّدة حتَّى أنَّـــه في الجملـــة الواحدة لا يكتفي فيها بتورية واحدة بل يعدِّدها كمثل ما جاء في صـــدر المقامة من توريتين في قوله (إلى من ضربت أوتاد أشواقه في عروض الفـــؤاد فلا تحذف بسبب)، فالأوتاد عند العروضيِّين هي أحـــد الأمـــرين اللـــذين تتركَّب منهما الأجزاء وهي التَّفاعيل، واحدها وتد وهو ثلاثة أحرف إمَّـــا وتد مجموع وإمَّا وتد مفروق.

ومعنى الوتد في اللُّغة ما رزَّ في الأرض أو الحائط من خـــشب، يقـــصد الغراب بذلك أنَّ أشواقه ضربت أوتادها في فؤاده، ومع ذلـــك ورَّى عـــن الوتد عند العروضيِّين.

وعروض الفؤاد أصل معناه المقصود ناحية الفؤاد، ومع ذلك ورَّى عن علم العروض الذي يعرف به صحيح أوزان الشِّعر من فاسدها، وفي هذا براعة ٱستهلال وهي عند البديعيِّين إتيان الشَّاعر أو النَّاثر في ٱبتداء كلامه بما يشير إلى مراده في القصيدة أو الرِّسالة، وها هنا مراده أنَّ مقصوده التَّوريات العروضيَّة.

وورَّى في جملة أخرى عن الأوتاد والأسباب، فالأوتاد كما تقدَّم والأسباب جمع سبب وهو عند العروضيِّين حرفان، وهو على نوعين خفيف وثقيل، وكذلك ورَّى عن الحذف وهو عندهم حذف سبب خفيف من آخر الجزء ويقع في ثلاثة أجزاء حيث قال "والحذف إنَّما يكون في الأسباب دون الأوتاد)، يقصد إلى أنَّ أوتاد أشواقه المضروبة في الفؤاد لا تحذف وفي ذلك تورية عن الحذف وهو من علل النَّقص خاصٌّ بالأسباب الخفيفة دون الأوتاد.

وأشار إلى تورية أخرى عروضيَّة بقوله (قطب دائرة المتَّفق على كمال فضلهم وعلمهم) والدَّائرة عندهم إحدى الدوائر الخمس التي للبحور، وهي معلومة، والدَّائرة أيضا ما أحاط بالشَّيء.

ومن ألطف ما جاء له في هذه المقامة جمعه بين الجناس والتَّورية في قوله (الجليل، بما يحوي من الجميل، والخليل، الملتفت إلى نحو الخليل)، فقد جانس الجناس اللاَّحق بين الجليل والجميل، والجناس اللاَّحق ما أبدل من أحد ركنيه حرف من غير مخرجه، كما جانس التَّصحيف بين الجليل والخليل، وجناس التَّصحيف ما تماثل ركناه خطًّا وٱختلفا لفظا ويمثّل له بقول أبي فراس:

من بحر جودك أغترف وبفضل علمك أعترف

وورَّى بنحو الخليل عن جهة الخليل وهو الصَّديق المختصُّ وعن علم النَّحو الذي من علمائه الخليل بن أحمد[1] اللُّغوي المشهور وخصَّه بالذِّكر لكونه مخترع علم العروض.

وله توريات أخرى عروضيَّة في هذه الجملة (ولا برح ميزان كما له راجحا لا يدخله نقص، وأجزاء شرفه سالمة لا يعتريها عقص ولا وقص)، فالعقص عند العروضيِّين من العلل غير اللاَّزمة، والوقص من الزِّحاف المفرد، وفي اللُّغة العقص ٱلتواء الأمر، والوقص العيب.

وكما أتى بتوريات عروضيَّة أتى بتوريات من القافية فذكر الإكفاء والإقواء (فظلَّت من الإكفاء والإقواء، بذلك البيت بكرب متوال متأسِّفا على تلك اللَّيال)، فالإكفاء كما هو ٱختلاف الرويِّ بحروف متقاربة المخارج، والإقواء كما هو ٱختلاف المجرى في الحركة هما بمعنى آخر فالإكفاء بمعنى الإمالة والإقواء من أقوت الدَّار خلت من ساكنيها.

وأضاف إلى هذين النَّوعين من التَّورية نوعا ثالثا وهو التَّورية النحويَّة كما جاء في الفقرة الثَّالثة التي تحدَّث فيها عن تكدُّر صفوته بسبب خلافه مع إخوته الذين تنازع معهم ودخل في خصومة صارت هي الشُّغل الشَّاغل (ونزغ الشَّيطان بيني وبين إخوتي وقرعنا باب الاشتغال بالتَّنازع ولم يجزم المنتصبون بيننا الحكم عند التَّرافع)، فقد ورَّى بالاشتغال والتَّنازع عن البابين المعروفين في علم النَّحو وكذلك الجزم والانتصاب، وله توريات أخرى بالتَّمييز والعلميَّة والعدل في فقرة أخرى.

---

1 الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي اليحمدي، أبو عبد الرَّحمن. من أئمَّة اللُّغة والأدب، وواضع علم العروض، أخذه من الموسيقى وكان عارفا بها. وهو أستاذ سيبويه النَّحوي.من مؤلَّفاته "العين" "معاني الحروف" وكتاب "العروض". توفِّي سنة 170هـ/786م. (الأعلام 363/2).

ومن بديع تورياته قوله في فقرة العباءة (فإذا هاد إليكم من بلدنا الجمَّالون جاء الماء مع الذين هادوا والصَّابون)، فهاد من معانيه رجع، ودخل في اليهوديَّة، والصَّابون إمَّا المركب الذي يغسل به، وإمَّا جمع صابئ بحذف الهمزة والصَّابئون قوم يعبدون النُّجوم، وفي ذلك اقتباس من قوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَالَّذينَ هَادُوا وَالصَّابُونَ وَالنَّصَارَى﴾[1] قرأ السَّبعة والصَّابون بالرَّفع وفي تخريج ذلك أوجه ذكرها المفسِّرون، ثمَّ إنَّ حذف الهمزة منه قراءة نافع.

إشارتان تاريخيَّتان

أشار في الاستدراك إلى أمرين تاريخيَّين حدثا في سنة كتب المقامة وهي سنة 1161هـ.

الأوَّل عزل الباشا علي للشَّيخ محمَّد سعادة (-1171هـ) فقد عزله الباشا في وسط المجلس الشَّرعي عند اجتماعه للحكم بين يدي الباشا، فأمره بالقيام وقال له عزلتك من الوظيفة الشرعيَّة.

ولمَّا خرج أعاده الباشا وقال له إنِّي عزلتك من التَّدريس.

ولمَّا خرج أعاده وقال له إنِّي عزلتك من مشيخة المدرسة.

ولمَّا خرج أعاده وقال له إنِّي عزلتك من الإمامة.

فلمَّا علم الباشا أنَّه انتزع منه جميع ما بيده من الوظائف قال له ارجع إلى بيتك فقال له الشَّيخ سعادة بقي عندي وظيف آخر لم تعزلني منه، فقال الباشا ما هو، فقال وظيفة العلم وستجتمع عليَّ النَّاس لتلقيه.

ثمَّ خلَّى سبيله الباشا وأعاده إلى جميع خططه فهنَّأه الغراب بقصيدة مطلعها[2]:

---

1 سورة المائدة، الآية 69.

2 ديوان الغراب ص 134.

[الكامل]

زارتـــك بعـــد تمنُّـــع وجفـــاء   بيـــضاءُ ذات ذوائـــب ســـوداء

الثَّاني وفاة القاضي وهو أبو محمَّد حمودة الريكلي كان أحـد الـشُّيوخ الذين تولَّوا التَّدريس بالمدرسة المراديَّة التي بسوق القماش، وتولَّى الإمامة والخطابة بجامع الزَّيتونة وتقدَّم لخطَّة القضاء المالكي، وتوفِّي سنة 1161هـ في تاريخ إنشاء هذه المقامة ورثاه الغراب كما تقدَّم وجاء في التَّاريخ

على قاضي القضاة قضى إلهي

ومجموع كلمات هذا التَّاريخ تتحصَّل منها سنة وفاته إذ أنَّ (علي) 101، و (قاضي) 201، و (القضاة) 622، و (قضى) 191، و (إلهي) 46، بـدون ٱعتبار الألف المحذوفة في الخطِّ من إلهي.

مدحه

من المناسبات التي أنشد فيها الغراب حادثة جمَّال وهي مأساة من المآسي التي كانت تقاسيها البلاد التونسيَّة – وكذا غيرها – من أجل الاخـتلاف على العرش فكانت الدِّماء تهرق، والنُّفوس تزهق، والدِّيار تخرَّب، والأموال تبدَّد من أجل منافسة على الحكم.

والغريب أنَّ أمثال هذه المآسي ينبغي أن تطوى وتنسى ولكن الأدبـاء يأبون ذلك، ويتَّخذونها سوقا لإنشاد الشِّعر والإطالة في الإنشاد، ويتَّخذون هذه الحوادث الدَّامية محورا للشِّعر.

ولم يقف الأمر عند الشِّعر بل أخذ النَّثر قسطه فالحاج حمُّودة بن عبـد العزيز يبني كتابه كما أسلفنا على ثورة إسماعيل بن يونس بن علـي باشـا وٱنتقاله بين جمَّال ووسلات.

وتشرح هذه المأساة فقرة من أشجى ما يقف عليه النَّاظر قد كتبها المؤرِّخ ٱبن عبد العزيز كأنَّها أمر عادي ويختمها بٱقتباس، فالأموال تنهب، والأعراض تنهك بعد القتل والتَّرويع والتَّخريب، والمؤرِّخ يسجِّل ذلك كأنَّه نصر في معركة مع الأعداء مع أنَّها معركة بين إخوان لا تفرِّق بينهم الفوارق، وإنَّما هو ٱختلاف لإطاحة شخص وإقامة آخر ليس غير، وهذه الارتكابات لو كانت مع أعدى الأعادي لما ٱستحلّت فضلا عن كونها ضربات مسدَّدة للنَّفس، إذ لا فرق بين أخ وأخيه، وهذه الفقرة الشَّارحة لهذه المأساة[1]:

"ولمَّا ثبت عنده – أي فرار إسماعيل عند الحاج علي بن عبد العزيز – ركب في إثره ودخل العسكر وزواوة والمخازنيَّة وغيرهم جمَّالا صباحا ونهبوا دورها ومخازنها وجميع ما ٱشتملت عليه ولم يأت عليها اللَّيل إلاَّ وهي بلاقع وٱتَّبعوا أهلها في الطُّرقات ينهبونهم ويسلبونهم أمتعتهم، وٱمتدَّت الأيدي إلى بعض حرمهم وتفرَّقوا في كلِّ مذهب فٱنظر كيف كان عاقبة الظالمين، وكان ذلك يوم الخميس غرة ذي الحجَّة من السَّنة" .

ففي هذه المآسي الدَّامية ينشدنا الغراب من شعره الكثير وينتقيها المؤرِّخون، ويكاد المتداول من شعره المنتقى ينحصر فيما أنشده في هذه المناسبات، ولولا الحفاظ على التُّراث الأدبي مهما كان لما أسغت لنفسي نقل هذا الشِّعر وأمثاله.

فالغراب وإن أجاد في قريضه فقد أساء في ٱختيار المناسبة حيث كانت الأخوَّة بجميع معانيها تتلاشى وتضمحلُّ وتتمزَّق، فأنا أنقل هذه القطعة على ما هي عليه للأدب لا غير[2]:

1 الكتاب الباشي ص59.
2 ديوان الغراب ص 71-72.

[الكامل]

نجـــمُ الـــسَّعادة في عُـــلاكَ تـــصعّدا والنَّصر في ماضي حـــسامك خُلّـــدا
والـــدَّهر لا ينفـــكُّ خـــادم بـــابكم وعلـــى ســـواكم لم يـــزَل متمـــرِّدا
أنـــس الزَّمـــانُ بعـــدلكم ولطالمـــا قد كان من جـــورِ العـــداة مـــشرِّدا
وريـــاضُ مجـــدك بالثّنـــاء هزارُهـــا لا زال في أدواحهـــــــنَّ مُغـــــرِّدا
لـــو أنَّ في العليـــاء ضـــارعك امـــرؤ لغدا المـــضارع مـــن عـــلاك مجـــردا
إن تُكس مجـــدًا يعـــرُ منـــه ســـواكم وتراه مـــن عـــدم الكـــساء مـــبرَّدا
يا أهل ودٍّ ٱبـــن الحـــسين أرى لكـــم تاجًا على هـــام الـــسَّحاب منـــضَّدا
فأعـــدتم الأيَّـــام وهـــي مواســـم وهـــديتمُ الـــدَّهر المـــضلّل فٱهتـــدى
أبـــديتم في النَّـــاس درَّ مـــآثر أضحى بهـــا جيـــد الزَّمـــان مقلَّـــدا
ثـــق أنَّ ربَّ العـــرش قلَّـــد ســـيفكم نصرًا فلا قُطِـــع الـــذي لـــك عـــوَّدا
حاشـــا لمثلـــك أن يهـــزَّك حـــادث أيهـــزُّ رضـــوى مـــن بـــريح غـــرَّدا
وأبـــشر بهلـــك المفـــسدين جمـــيعهم عمَّـــا قريـــب إنَّـــه لـــن يبعُـــدا
إذ فـــتح جمَّـــال غـــدا لـــك منبئًـــا عن فتح وسلات علـــى أدنى المـــدَى
قد جرَّب الأعداء حلمَـــك فٱرتـــدُّوا بُرد الجنايـــة وٱقتفـــوا ســـبل الـــرَّدى
خسرت تجـــارة أهـــل جمَّـــال ومـــا ربحت إذا ٱشـــتروا الـــضَّلالة بالهُـــدَى
عاصـــتك قـــومٌ بالأسُـــود تـــشبَّهت أرأيت قطًّـــا في القطـــاط ٱستأســـدا
هَب أنَّ حلمك غرّهم أو مـــا مـــضت شهبُ السُّعود لكم بـــإهلاك العـــدى
يهنيكَ يا مـــولاي ذا الفـــتحُ الـــذي ما زال مـــصطحبًا لـــسعيك سَـــرمَدا
لا زلتَ ممتطيًـــا علـــى هـــامِ العلـــى عـــزًّا علـــى مـــرِّ الزَّمـــان مؤبَّـــدا

هذه القصيدة من عيون شعر الغراب لم يتكلَّف فيها إلاَّ قلـــيلا حيـــث أرسل قريحته الشعريَّة على سجيَّتها ولولا ما فيها من قلب الحقائق لكانـــت حريَّة بكتب المنتقيات فكيف يقول:

وأعدتم الأيَّام وهي مواسم

ودخول جمَّال كان نهبا وسلبا، وكيف يعبِّر عن ذلك بالفتح ويهنِّئ به، ومع هذا هي من أخفِّ قصائده وأمتنها في حبك لطيف.

وعلى عادته لم يخلها من التَّورية، وقد ضمَّن ذلك في بيتين، التَّورية الأولى قوله:

لغدا المضارع من علاك مجرَّدا

فهذه التَّورية نحويَّة وقد أشار إلى تورية أخرى أشار مثلها في المقامة العبائيَّة: (خشية من هجوم الشِّتاء وكلٌّ منهم مجرَّد، فيجعل يصيح ويستغيث أين كسائي فإنِّي المبرَّد)، وقد أعاد هذه التَّورية في قوله:

إن تكس مجدًا يعر منه سواكم وتراه من عدم الكساء مبرَّدا

ويبدو أنَّ الغراب قد عدل عند تقدُّمه في السنِّ عن التَّوريات التي كان مولعا بها، وإن أتى بها أتى بها معادة، وربَّما غير تامَّة كما في هذا البيت، حيث لم يتأتَّ له في الكساء ما تأتَّى له في قوله في العبائيَّة أين كسائي، وإن كانت التَّورية في العبائيَّة غير تامَّة لاختلاف الياءين.

لم يشأ الغراب إلاَّ أن يندمج في هذه المآسي فكما أنشأ قصيدته السَّالفة له قصيدة أخرى في ذمِّ أهل وسلات وشكاية عامل صفاقس الذي ماطله بصلة أميريَّة، وهذه القصيدة نشر بعضها في "عنوان الأريب"[1] للشَّيخ محمَّد النَّيفر ومطلعها:

[الخفيف]

زارعُ البغي حاصدٌ للنَّدامة فاطلب السِّلم إن أردتَ السَّلامه

وهي من طوال قصائده إذ تبلغ أبياتها اثنين وثمانين بيتا ذكر منها في العنوان ثلاثا وثلاثين وقد استهلَّها بأبيات ضمَّنها حكما وهي المنشورة في العنوان وحطَّ على الواشين ممَّا يستفاد منه أنَّه وشي به للأمير علي بن حسين والظَّاهر أنَّه يعني عامل صفاقس حيث ذكر مماطلته وطلب من الأمير حمايته منه، وهذا ممَّا حذفه في العنوان.

والذي قد أمرت للعبد فيه منعت عنِّي الولاة اغتنامه

وقد تقدَّمت هذه النَّبذة[2]، وفي هذه القصيدة يمدح نفسه ويرى ليس هناك أديب يساويه في بلاغته حيث يقول:

---

1 عنوان الأريب 1/ 533، وجاءت في ديوان الغراب كاملة ص 111-114.

2 يراجع ص317؟؟

لـــيس في الـــنّظم والبلاغـــة مثلـــي في مـــدى الـــدَّهر خلفـــه وأمامـــه
لو علـــى قـــدرنا الملـــوك تـــساوي لم يفـــز مـــادح معـــي بقلامــــــه

وقد أرَّخ واقعة جبل وسلات نظما ونثرا فمن النَّظم قوله[1]:

ســـر إلى الأعـــراب يمِّـــم أرضـــهم إذا أتـــى الفـــتح وذو البغـــيّ تنحّـــى
وأتـــاك النَّـــصر في تاريخـــــه (أمّه إنَّا فتحنـــا لـــك فتحـــــا)

وفي هذا التَّاريخ نظر.

لم يقصر الغراب مدحه على الملوك بل مدح غيرهم، ومن هؤلاء محمود بن رجب آغة[2] ببيت المال وأحد أعيان دولة علي باشا وقد مدحه لأنَّه أعزُّ أهل العلم لأنَّه أنالهم مرجوّهم:

[البسيط]

يا ذا الذي فعله في النَّـــاس محمـــود وجود مثلك في الأيَّـــام مفقـــود
ما جاء بابك مضطرٌّ فـــلاذ بـــه وعاد وهو كسير القلـــب مطـــرود
تنافست فيك أيَّام الـــورى حـــسدا وصاحب الفضل في الأيَّـــام محـــسود
فليس أمـــرك مـــردود إلى أحـــد بل كلُّ أمر إليـــك الآن مـــردود
(وإنَّما الفضل مقصور عليـــك يـــرى باق على أمد الأيَّـــام ممـــدود)
لفضل غيرك حـــدّ في العفـــاة ومـــا مزيد فـــضلك في العـــافين محـــدود
فتحت بالنَّفع كلَّ الخلق حـــين غـــدا من نيله كـــلُّ باب وهو مـــسدود
فدأبك الخـــير لا تنفـــكُّ تفعلـــه وفاعل الخير عند النَّـــاس محمـــود
شرَّفت قدر ذوي العلم الـــشَّريف لـــذا عليك إجماعهم بالفضل معقـــود
فبعضهم نـــال مـــا يرجـــو ويأملـــه وبعضهم منك بالعليـــاء موعـــود
لازال دهرك في أوج الـــسُّعود يـــرى ونجم حظِّك بالإقبـــال مـــسعود
ولم يـــزل بمـــراد عـــزِّكم أبـــدا نحل به بيتك المعمـــور مقـــصود

1 ديوان الغراب ص 69.
2 المرجع السابق ص 143.

يبدو أنَّ المترجَم أراد أن يحرِّك همَّة الممدوح لينال ما أمَّل، فهو على ما يظهر من القسم الثَّاني وهو القسم الموعود كما جاء في البيت العاشر، فلو كان من القسم الأوَّل لما مدح الآغة بمثل هذه الأبيات التي تنمُّ عن الحاجة فالبيت الثَّاني يدلُّ لذلك، ولكنَّه مع هذا لم يكن مستجديًا بأتمِّ صور الاستجداء، بل مدحه فيه شيء من الأنفة حيث ركَّز مدحه على تشريف أهل العلم.

وفي هذه القصيدة له ما ينتقى وبجانب ذلك كبا به الجواد في العربيَّة في بيت من أبياهَا،

أمَّا بيته المحمود فقوله:

فدأبك الخير لا تنفكُّ تفعله وفاعل الخير عند النَّاس محمود

وأمَّا بيته الآخر الذي أخلَّ فيه بقواعد العربيَّة فهو قوله:

وإنَّما الفضل مقصور عليك يرى باق على أمد الأيَّام ممدود

حيث رفع (باق) و(ممدود) مع أنَّهما منصوبان لأنَّ الأوَّل مفعول ثان ل(يرى) ونائب الفاعل ضمير يعود على الفضل، ولا يصحُّ المعنى إذا كان (باق) هو نائب الفاعل، وممدود كذلك مثل (باق) في إعرابه.

ومن مدح الغراب ما قاله مادحا للشَّيخ أحمد عمَّار[1]، وهو من كتبة دولة علي باشا:

[البسيط]

لاحت عليك من الأسرار أنوار وطيب ذكرك فاحت منه أزهار
وقد أباحت بإنشاء الثَّناء على أفنان فضلك في الآفاق أطيار
فأنت حلي لجيد الدَّهر منتظم به وأنت له سمع وأبصار
عمَّرت قلبي بأسرار البيان فلم أخف عليه الخلا إذ أنت عمَّار

1 أحمد بن عمَّار: نشأ بين يدي حمَّودة باشا، تقدَّم باش حانبه بعد وفاة أخيه صالح بن عمَّار إلاَّ أنَّه زاد عليه باللِّسان التركي والطلياني. (الإتحاف 35/8). ديوان الغراب ص 146.

وله تقريض أبيات راسله بها الأديب الشّاعر المكثر أبو عبد الله السَّنوسي أحد أبناء الإمام الشَّيخ عبد الله السُّوسي وهو أحد إخوة ثلاثة هو أكـــبرهم قال فيهم الشَّيخ ٱبن أبي الضياف[1] حين ترجمة الابن الأصغر وهـــو أحمـــد السُّوسي:

"نشأ هذا الفاضل – أي أحمد السُّوسي – في حجر أبيه وقرأ عليه مـــع أخويه أبي عبد الله محمَّد السنوسي، وأبي عبد الله محمَّد الوسط، وكانوا على درجة عليا في الفضل والعلم، وأكبرهم – وهو محمَّد السَّنوسي – آية الله في الشِّعر والأدب وشعره يسع ديوانا معروفا عند أهل الأدب".

وهذه أبيات الغراب التي أجاب بها المذكور[2]:

[مخلع البسيط]

وقطعـــة حاكهـــا أديـــــــب أشـــهى مـــن القـــوت للنُّفـــوس

أعـــني الـــسَّنوسي مـــن طأطَـــأت لنظمـــه ســـائر الـــــرُّؤوس

إنـــشاؤه للقـــريض أنـــشأ عنـــدي مـــن خمـــرة في الكـــؤوس

لهـــا بـــراهين منـــه دلَّـــت علـــى البلاغـــات كالـــشُّموس

ولا عجيـــب إذا نـــسبتـم (ذات الـــبراهين للـــسَّنوسـي)

وورَّى بذات البراهين عن عقيدة الإمام السَّنوسي محمَّد بـــن يوســـف[3] (-895هـــ) لكن المعروف أنَّ ٱسمها (أمُّ البراهين)، فلو قـــال أمُّ الـــبراهين للسَّنوسي لسلمت له التَّورية، وأتى بٱسمها المعروف.

ومدح والد محمَّد السَّنوسي هذا، وهـــو الـــشَّيخ عبـــد الله الـــسُّوسي (-1179هـــ) الوافد على تونس وقد تقدَّمت الإشارة إلى هـــذه القطعـــة[4] والآن نأتي بها كلِّها[5]:

1 الإتحاف 104/7.

2 ديوان الغراب ص 152.

3 محمَّد بن يوسف بن عمر بن شعيب السَّنوسي الحسني، أبو عبد الله. عالم تلمسان وصالحها له تصانيف كثيرة منها "شرح صحيح البخاري" ،"عقيدة أهل التَّوحيد" (الأعلام 29/8).

4 يراجع ص 339؟؟

5 ديوان الغراب ص 138.

[الطَّويل]

ألا أيُّها الحبر الذي بحر علمـــــه	له في الورى منه تلاطـــم أمـــواج
إذا سنح المعنى العويص لذهنـــــه	فذلك صيد لم يكن منــه بالنَّاجـــي
لئن حلَّ في عينيك ضعف فقد غدا	لفكرك في الأشياء قــوَّة إنتـــاج
إذا طرق المعنى العويص تضــايقت	ترى كلّ ما قد ضاق أوســع منـــهاج
وإنَّك بحر موجه متلاطـــــــم	وما البحر يوما للعيـــون بمحتـــاج
شفاك إله العالمين بفـــضلــــــه	إلى أن ترى ما دقَّ في ظلمـــة الــدَّاجي
وأخرج منها داخل الدَّاء مـــسرعا	على غير إيذاء بـــألطف إخـــراج
بمن خصَّه المولى برؤية كلِّ مــــا	غدا خلفه وٱختـــصَّ منـــه بمعـــراج
عليك سلام يحسد المسك نفحـــه	يجدِّد أفواجا لكـــم بعـــد أفــــواج

ومدح علماء الأزهر في عصره بقصيدة وقعت الإشارة إليهـــا ســـابقا[1] وٱستهلَّها بمدح الحفني محمَّد سالم الشَّافعي (-1181هـــ)، وهذا العالم مـــن أشهر علماء الأزهر وقد نوَّه به أيَّمـــا تنويه الجبرتي[2] في "عجائب الآثـــار" فقـــال: (ومات — أي سنة 1181هـــ — الشَّيخ الإمام العلاَّمة أوحد أهـــل زمانه علما وعملا، ومن أدرك ما لم تدركه الأوائل المشهود لـــه بالكمـــال والتَّحقيق، والمجمع على تقدُّمه في كلِّ فريق، شمس الملَّة والدِّين محمَّـــد بـــن سالم)، ثمَّ قال: (وشاع ذكره في أقطار الأرض وأقبل عليـــه الوافـــدون في الطُّول والعرض، وهادته الملوك، وقصده الأمير والصُّعلوك).

وثنّى بذكر أخيه يوسف بن سالم (-1178هــ) وهو صاحب الحاشـــية على الأشموني على الألفيَّة، وهي حاشية ٱشتهرت قبل أن يؤلِّـــف الـــصبَّان حاشيته على الشَّرح المذكور.

---

1 يراجع ص 328؟؟

2 عبد الرَّحمان بن حسن الجبرتي. مؤرِّخ مصر ومدوِّن وقائعها وسيررجالها. جعله "نابليون" من كتبة الدِّيوان، مات مخنوقا سنة 1237هـــ/1822م. من مؤلفاته "عجائب الآثار في التراجم والأخبار" ويعرف "بتاريخ الجبرتي". (الأعلام 75/4).

يقول الغراب في الأخوين[1]:

ما للمدامع كلَّ حين تـــذرف | وقويّ شوقي في الحشا لا يـضعف
أصبو إلى ذكر الحمى فهـوى الحمـى | باق ومحـض وداده لا يـصـرف
ما بالعذيب هتفت كــلا لا ولا | للرقمتين حـشاشتي تتلهَّـف
لكن بمصر منازل الفـضلاء مـن | كل بمرآه يعـافى المدنـف
بلد له في الأرض قدر قـد عــلا | في كلِّ عصر لم يـزل يتـشـرَّف
تزهو بأزهرها الـذي علمــاؤه | كحـدائق منـه الأزاهـر تقطـف
منهم شهير الذِّكر سـيِّد دهـره | وكماله في الفـضل لا يتكيَّـف
علم له في العلم قـدر شامـخ | وله بإمداد الإلـه تـصـرُّف

يشير بهذا إلى صلاحه وقد أبان الجبرتي ذلك فقال: (وللشَّيخ رضـي الله عنه مناقب ومكاشفات وكرامات وبشارات وخـوارق عـادات يطـول شرحها).

نعنـي أبـا عبـد الله محـمَّـدا | يعزى لحفـنيٍ في الأنـام ويعـرف
ثم آلتفت لـشقيقه البحـر الـذي | من موجه كلَّ الأفاضـل تغـرف
وله مـن الآداب كـلُّ لطيفـة | جلت أدقُّ مـن النَّـسيم وألطـف
هو أشـهر العلمـا وأعلـم عـصره | وعزيز مصر أبـو المحاسـن يوسـف

وبعد أن مدح بعض علماء الأزهر مدح عالم المالكيّة في عصره وصاحب الحاشية الشَّهيرة علي الخرشي على خليل الشَّيخ علي الصّعيدي (-1189):

واعطف إلى المولى أبي الحـسن الـذي | بلـدان مـصر بـه تعـزّ وتـشرف
يعزى إلى أرض الـصّعيد ولـو هُـم | لسما الصّعود دعوه كـانوا أنـصفوا

تورياته

فنُّ الغراب الذي آمتاز به هو التَّورية وهي نوع من أنواع فـنِّ البـديع ويقال لها الإيهام والتَّوجيه. وهي كما في "الخزانة"[2] "التَّورية مصدر وريت

1 ديوان الغراب ص 162.

2 خزانة الأدب للبغدادي ص 239.

الخبر تورية إذا سترته وأظهرت غيره، كأنَّ المتكلِّم يجعلــه وراءه بحيـــث لا يظهر".

وتعرف عند علماء البديع بأنَّها ذكر المتكلِّم لفظا مفــردا لـــه معنيـــان حقيقيَّان، أو حقيقة ومجاز، أحدهما قريب ودلالة اللَّفظ عليه ظاهرة والآخر بعيد ودلالة اللَّفظ عليه خفيَّة فيريد المتكلِّم المعنى البعيد ويوري عنه بـــالمعنى القريب وليس كذلك، ولأجل هذا يسمَّى هذا النَّوع إيهاما. وطبَّـــق ٱبـــن حجَّة التَّورية على بيت أبي العلاء المعرِّي:

وحرف كنون تحت راء ولم يكـــــن   بدال يؤم الرَّســـم غـــيره النقـــــــط

وإنِّي أطبِّق التَّورية على نتفة تونسيَّة وهي:

جمعت هوى ظبي وقد كـــان جامعـــا   لزيتونة من فـــوق أغـــصانها ٱســـتوى

أيا جامع الزَّيتونـــة الفـــاتن الـــــورى   تفضَّل بمعروف على جـــامع الهـــوى

يوهم البيتان أنَّه يخاطب جامع الزَّيتون، وهو الظَّبي الذي أشار إليـــه في البيت الأوَّل (جمعت هوى ظبي البيت)، وكذلك يخاطب الذي جمع الهـــوى ويعني نفسه فهذا هو المعنى المورّي به، وهو المعنى القريب المتبادر إلى ذهـــن السَّامع، والمراد غيره وهو المعنى البعيد الموري عنه بالمعنى القريب لأنَّ المـــراد بالخطاب جامع الزَّيتونة المسجد العتيق بتونس الذي أسَّسه عبيـــد الله بـــن الحبحاب سنة 114هـــ، وجامع الهوى المسجد الذي أسَّسته عطف أمّ الأمير الحفصي المستنصر بالله سنة 650هـــ، ولعلَّه يقصد أنَّ جامع الزَّيتونة ثـــريٌّ بأوقافه بخلاف جامع الهوى فلهذا طلب أن يتفضَّل جامع الزَّيتونة على جامع الهوى.

وقد ٱشتهر أنَّ البيتين لأبي الحسن الغراب حتَّى أنَّ صـــاحب "عنـــوان الأريب"[1] نسبهما له حيث قال "ومن شعره – أي الغراب – موريا عـــن جامع الزَّيتونة وجامع الهوى الكائنين بحاضرة تونس".

---

1 عنوان الأريب 533/1.

لكن وقفت في "تشحيذ الأفهام" على أنّهما ليسا له وإنّما هما للشّيخ محمّد فتاتة ونصُّ ما جاء في التّشحيذ[1] (وممّا وجد بخطٍّ أبي عبد الله محمّد فتاتة موريا عن جامع الزّيتونة وجامع الهوى بتونس وأجاد غاية وذكر البيتين)، إنّ وجود البيتين بخطّ الشّيخ محمّد فتاتة ينفي نسبتهما للغراب لتقدُّم المذكور على المترجَم، ومحمّد فتاتة قائل البيتين كان أحد الأعلام بتونس وقد ترجم له الوزير السرّاج في "الحلل السندسيّة"[2]، جاء في طالعة ترجمته:

(وفي هذه السّنة أعني سنة خمس عشرة ومائة وألف 1115هـ توفّي إلى رحمة الله تعالى إمام الأئمّة، ورحمة العلم لهذه الأمّة، الأستاذ الذي لا تنقاد أزمة الفضلاء إلاّ إلى عريض بابه، ولا تغترف الأذكياء إلاّ من فياض عبابه، ولا تستند الأجلّة إلاّ لكهف جنابه، ولا تقلّد جيد الدّهر بأعلى من درّه ولا سمحت مزن اللّطائف بأخلص من درّه، ولجامعه عفا الله عنه بيت مفرد

تهتزُّ أوراق الطروس تلذُّذا بيمينه كيما تزور أنامله

أعلى منار الأحكام بلين إنصافه، وأحيا موات المعارف من ندى لطافته بخالص لبن أوصافه، وزان طرّة اللّيالي بنجوم خصاله، وأخجل شمس الضُّحى بشمس جماله، وجلى دجى الغسق ببدر كماله).

والشّيخ فتاتة كما ٱشتهر بسعة معارفه العلميّة وفتاويه السّائرة، ٱشتهر بقرض الشِّعر وبالأخصّ ما ٱشتمل على تورية، وممّا أنشد حفيده الوزير السِّراج صاحب "الحلل السندسيّة"[3]:

وروض حللْناه كأنّ نواره قلائد دُرٍّ في نحور النّواعم
إذا ما شدت أطياره في غصونه ومالتْ سواقيه كبيض الصّوارم
وجدت لذيذ الخمر في طعم مَائه وشنّفْت سمْعاَ من غناء الحمائم

1 تشحيذ الأفهام ورقة 108ظ. (مخطوط).
2 الحلل السندسيّة 684/2.
3 المرجع السابق 687/2.

أنشد هذه الأبيات في مجلس أنس فيه مغنّ آسمه الحمائمي فورَّى عن آسمه بجمع حمامة وهو المعنى القريب.

وبعد هذه البسطة نتيقَّن أنَّ البيتين ليسا للغراب وإن آشتهر أنَّهما له حتَّى أنِّي كنت أعتقد ذلك إلى أن وقفت على "تشحيذ الأفهام"، ورغم ذكرهما في "تشحيذ الأفهام" لفتاتة كنت أظنُّ ربَّما ذلك من قبيل السَّهو لكن بعد تحقيق النَّظر تيقَّنت أنَّهما لفتاتة لأنَّ العصفوري يقول أنَّهما وجدا بخطِّ الشَّيخ فتاتة مع تقدُّم عصره والغراب وإن لم يكن هذان البيتان المشهوران له لا ينقص ذلك من براعته في التَّورية فإنَّ له من التوريات الثَّابتة له قطعا ما يصحُّ أن تحكم له بالسَّبق في ميدان التَّورية، وسننقل له من ذلك الشَّيء الكثير الشَّاهد له بالتَّبريز في هذه النَّاحية.

أنشد له في التَّشحيذ قوله[1]:

[الطَّويل]

مديح رسول الله أوَّل واجب على من له في رتبة النَّظم إيماء
فمن شاء يحظى بالسَّعادة منهم ليأتوا بمدح طيِّب فيه إنشاء

فالمعنى القريب أنَّ المراد الإنشاء مصدر أنشأ والمعنى البعيد المورّى عنه إن أرادوا فالجملة مركَّبة من إن الشرطيَّة وفعل المشيئة فيكتب حينئذ هكذا: إن شاءوا.

وأنشد قائلا وأجاد فيه:

إن ألف القد من غزالي لاحت تلاها الرَّقيب كالبا

أو كلبا حقيقة قد أجاد الغراب في هذه التَّورية حيث جعل الرَّقيب لغزاله في التبعيَّة كالباء وهذا هو المعنى القريب لقوله (إنَّ ألف القد)، وورَّى بهذا عن معنى بعيد وهو أنَّ الرَّقيب كالكلب الذي يتَّبع صاحبه حيثما سار.

وأنشد له في مليح يدعى بالغربي[2]:

---

1 ديوان الغراب ص 27.

2 المرجع السّابق ص 189.

[الطَّويل]

ولمّا تبدَّى راعني بجمالـــــــــــــه وأمسيت من وجدي به خافق القلـــب

ولاحت لنا شمس الضُّحى من جبينـــه ألا فٱعجبوا شمس تلوح من الغـــــرب

أو الغربي وهو المعنى المورّى عنه.

وله وقد مرض بداء الجنب[1]:

[السَّريع]

لم أر أوجـــاع الكلـــى فعلهـــــا إلاَّ كفعـــل الـــصَّارم العـــضب

قـــد صـــحبت جـــنبي ألا فـــٱنظروا مـــا يفعـــل الـــصَّاحب بالجنـــب

وهذه التَّورية من التَّوريات التي أجاد فيها حيـــث أنَّـــه ورَّى بكليتـــه المصاحبة لجنبه عن الصَّاحب الذي يكون بالجنب قال الله تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْـــسَانًا وَبِـــذِي الْقُرْبَـــى وَالْيَتَـــامَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَٱبْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾[2].

وله في مليح يلقَّب بالزيَّات[3]:

[الخفيف]

رشـــأ في هـــواه أمـــسى بخـــيلا بـــاذل المـــال دونـــه والحيـــاة

ولـــع بـــالزُّيوت يكتـــال منـــها كـــلَّ يـــوم ويلـــي مـــن الزيَّـــات

وأنشد مهنِّئا الإمام غيثا لمَّا ٱستقلَّ بجامع الزَّيتونة[4]:

ألا جدِّدوا للجـــامع الأعظـــم الهنـــا بغيث وقولـــوا الآن فارقـــك العيـــث

غـــدا جـــامع الزَّيتونـــة الآن روضـــة من الزَّهر تزهـــو لا يفارقهـــا غيـــث

وغيث الذي مدحه هو الشَّيخ غيث بن عبد الرَّحمان غلاَّب أولاه الباشا علي إماما أكبر بجامع الزَّيتونة في حدود الخمسين والنَّيف من القرن الثَّـــاني عشر[5].

1 ديوان الغراب ص 299.
2 سورة النِّساء، الآية 36.
3 ديوان الغراب ص 191.
4 المرجع السّابق ص 137.
5 مسامرات الظّريف 233/1.

ذكر له التَّشحيذ قوله[1]:

[الخفيف]

تبـــدى علــــى ســـاقه كاشـــفا فحـــــال بمـــــرآه دون الحجـــــا
تـــراه إذا مـــا بـــدا سائـــــرا مـــن النُّـــور (ســـارية في الـــدُّجا)

يبدو أنَّ الغراب ورَّى عن نجمة تظهر في ظلام اللَّيل.

ومن تورياته النَّحويَّة الشعريَّة قوله[2]:

[الخفيف]

نـــسخت مقلتـــاه عقلـــي ٱبتـــداء فهي (للابتـــداء منـــه نواســــــخ)
ســـلخ الـــصَّبر عـــن فـــؤادي منـــه أسود الفـــرع فهـــو (أســـود ســـالخ)

ورَّى بنسخ مقلتيه لعقله عن نواسخ الابتداء وهذه العوامل الدَّاخلة على الابتداء فتنسخ عمله، وهذه التَّورية من ضعيف توريات الغراب فعــوض أن يقول: وهما أي المقلتان، قال وهي مع أنَّه لم يكن هناك جمع حتَّى يعبِّر عنه بقوله فهي، وإنَّما مطلب التَّورية دعاه إلى ذلك حيث أنَّه كما تقدَّم يريد أن يصل إلى التَّورية عن النَّواسخ وكما أتى بتورية في البيت الأوَّل أتى في البيت الثَّاني بتورية أخرى في قوله (أسود سالخ)، فقد ورَّى بالشَّعر الأسود السَّالخ لفؤاده عن الأسود السَّالخ وهو العظيم من الحيَّات في أساس البلاغـــة (وفي النّصح سمّى الأساود جمع أسود سالخ).

وله تورية أفحش فيها غاية الإفحاش:

وظـــبي هندســـــت في حبِّـــــــه مليـــــح بـــــه محـــنتي زائـــــــده
إذا رمـــت فيـــه ٱنكـــسار الهـــوى ضربـــــــــت... في القاعـــــــدة

فقد ورَّى بما صرَّح به عمَّا في الهندسة من ضرب العمود في القاعــدة، وهذا المجون وإن كان قوليّا لكنَّه خروج عن دائــرة الأدب، فهــذا الأدب

1 ديوان الغراب ص 192.
2 المرجع السَّابق ص 195.

المكشوف لولا الضنُّ بالتُّراث الأدبيِّ لما ساغ ذكره، وعلى كلٍّ هو بالنِّسبة لما شاع ويشيع لا ضير فيه.

وله في مليح توريات عدَّة وهذا المليح يلقَّب ببودة من ذلك قوله[1]:

[الخفيف]

وأغن بلحظه شــاك قلبـــــــــــي فيه نــار الهــوى غــدت موقــوده
في حشا الصبِّ أسهم اللَّحــظ منــها وجمار الغــرام تــشوي (كبـــــوده)

وهذه التَّورية من دقائق توريات الغراب لأنَّه إن كتب هكــذا (وجمــار الغرام تشوي كبوده)، كان المعنى أنَّ جمار الغرام شوت كبده، والكبود جمع كبد، وإن كتبت هكذا (وجمار الغرام تشويك بوده)، كان المعنى المورَّى عنه وهو أنَّ جمار الغرام هي غرز شوك بوده، والمراد يشوكه لحاظه.

وقد أنشد فيه غيرها[2]:

[الخفيف]

أوردتـــني الأهـــوال نظـــرة عـــين في غـــزال بالقلـــب زادت شـــروده
فلـــه في كنـــاس قلـــبي لبـــــود منه مبدا الـــبلاء أهـــوى لبـــــوده

وهذه التَّورية كالتي قبلها إن كتب هكذا (أهوى لبوده)، كــان المعــنى المورّى به وهو أنِّي أحبُّ إقامته في قلبي، وإن كتب هكذا (أهوال بــوده)، كان المعنى المورَّى عنه وهو أنَّ مبدأ البلاء أهوال هذا الملقَّب ببوده، ولــه في بوده نتفة أخرى[3]:

[الخفيف]

في مـــن لم أكـــن أصـــرِّح يومـــا بأسمه بـــل أكنِّـــي أبـــدي جحـــوده
ذكـــره شـــاع في بـــرودة ثغـــــر لم تجد ثانيا لــه فـــي (بـــروده)

---

1 ديوان الغراب ص 204.

2 المرجع السَّابق ص 204.

3 المرجع السابق ص 203.

هذه التَّورية من نوع آخر وهي أنَّ قوله (في برودة)، يحتمل أن يكون من البرودة، وأن يكون جمع برد وهو الثَّوب المخطَّط لكن يلزم عليه الأقواء.

وتفنَّن الغراب في بوده موريا فقال[1]:

[الخفيف]

ومليح أطال عمر سهادي وسقام لنا أطال صدوده

أنا عبد له على كلِّ حال ليت عبد الهوى غدا (معبوده)

كذلك هذه التَّورية تختلف بآختلاف الكتابة فإن كتب قوله (معبوده) متَّصلا كان المعنى ليت عبد الهوى يصير معبودا للهوى، وإن كتب منفصلا هكذا (مع بوده)، كان المعنى المورّى عنه وهو أنَّ عبد الهوى يكون مع هذا الملقّب ببوده.

وإذا قايسنا هذه النتفة بقول آبن عبد العزيز:

هل ينال المحبُّ ليلة وصل فيناجي الهوى بها (معبوده)

نجد أنَّ عبد العزيز كان في تورية سليمة من النَّقد إذ المعنيان الدَّائر بينهما الاحتمال كلٌّ منهما مقبول في الذَّوق لأنَّ كلامه يحتمل أن يكون المعنى مناجاة الهوى لمعبوده وهو من ألطف ما يكون، وأن يكون المعنى فيتناجى الهوى مع الملقَّب ببوده، وهو معنى لطيف بخلاف الغراب فإنَّ المعنى المورّى به وهو المعنى الأوَّل القريب لا يُقبل في لغة الهوى إذ كيف يمكن أن يتمنَّى المحبُّ وهو عبد الهوى أن يصبح معبودا للهوى، وما سمعنا بأنَّ محبًّا صار معبودا لمحبوبه، وزيادة على الصَّيرورة المستحيلة أنَّ المحبَّ لا يتمنَّى ذلك إذ فيه زوال تلك المترتبة المحبَّبة هنا دون بقيَّة الأحوال.

وبوده الملقَّب بهذا اللَّقب أظنُّه كان يسمَّى بحمُّودة فرخَّم من أوَّله مع قلب الميم باء، هذا آحتمال ويمكن أن يكون لهذا اللَّقب سبب آخر، وهو أنَّه

---

1 ديوان الغراب ص 204.

معبود لمحبِّيه فلقِّب ببوده معبود الوثنيِّين فيكون أصله بوذه، وهذا اللَّقب كما يقولون (تربيجة).

ومن تورياته في الهجو[1]:

[مخلع البسيط]

صــــفعت عنقـــا لــــه مـــــديدا	مـــن كـــفٍّ ذي ســـاعد شـــديد
فقـــــال لم ذا فقلـــــت قالـــــوا	قــد يـــصلح (الكـــفُّ للمـــــديد)

والتَّورية هنا في عجز البيت الثَّاني (قد يصلح الكفُّ للمديد)، إذ الكفُّ يحتمل أن يكون المراد به الرَّاحة مع الأصابع، والمـــراد بالمديـــد الممـــدود وصلاحيَّة الكفِّ للمديد لأجل الصَّفع، ويحتمل أن يكون الكفُّ مـــا عنـــد العروضيِّين وهو حذف الحرف السَّابع السَّاكن وصلاحيَّته أنَّه يدخل علـــى فاعلاتن إلاَّ في الضَّرب[2]، والمديد هو بحر المديد (فاعلاتن فاعلن فاعلاتن).

وله موريا[3]:

[الطَّويل]

ألا كــــلُّ علـــم إن أردت عزيــــزه	يعود ذليلا طوع فهمـــك لا يكـــدي
عليـــك بأســـرار البلاغـــة بعـــد أن	تنال أصول النَّحـــو بـــالعزم والجـــدّ
فترقـــى سمـــاء المجـــد عـــزًّا ورفعـــة	وتبلغ في عليائها مـــترل الـــسَّعـــد

هذه النُّتفة قد أجاد فيها الغراب وأتى بتوريته فيها بدون تكلُّف عكـــس بعض نتفه التي تبدو عليها الكلفة ولا يمكن الوقوف عليها إلاَّ بعد كـــدح الفكر، والتَّورية هنا في قوله (وتبلغ في عليائها مترل السَّعد)، لأنَّ مراده إمَّا أن تبلغ مترل السَّعد وهو اليمن ونقيض النَّحس وإمَّا أن تبلغ مترلة العلاَّمـــة السَّعد.

1 ديوان الغراب ص 274.
2 "تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب"، للشَّيخ محمَّد بن أبي شنب ص29. الطَّبعة الثَّانية، الجزائر 1928.
3 ديوان الغراب ص 306.

والسَّعد هو مسعود بن عمر التفتازاني إمام البلاغة وصاحب البـــاع في النَّحو والتَّصريف، وكما هو من علماء العربيَّة كذلك هو من علماء العقائد والأصول، وقد ٱشتهر بتحقيقه في كتاباته، من أجل ذلك أقبل النَّاس علـــى مؤلَّفاته تدريسا حتَّى غطَّت على سائر المؤلَّفات الأخرى، وبالأخصِّ في علم المعاني والبيان والبديع وله على التَّلخيص شرح مطـــوَّل، وآخـــر مختـــصر، المعروف بمختصر السَّعد وشرح القسم الثَّالث من مفتاح السَّكاكي والسَّعد هو المفرد في القرن الثَّامن في العربيَّة، وتوفِّي بسمرقند سنة 791هـــ كما في "البغية" وفي "الدُّرر الكامنة" أنَّه توفِّي سنة 792هـــ.

هجوه

نستفيد من هجو الغراب أنَّه كانت في أخلاقه شـــدَّة تدفعـــه للـــهجو والخصام، ولم يسلم من ذلك حتَّى أقرب النَّاس إليه، فإخوته ٱشتدَّ النِّـــزاع بينه وبينهم، وطال الخصام، ولعلَّ تردَّد الحكَّام في فصل القضيَّة يرجـــع إلى أنَّهم كانوا يريدون إصلاح ذات البين، والحفاظ على الرِّباط العائلي، ولكن ذلك التردُّد لم يرضه، وشنع به في مقامته العبائيَّة المتقدِّمة:

"ونزغ الشَّيطان بيني وبين إخوتي، وقرعنا باب الاشتغال بالتَّنـــازع، ولم يجزم المنتصبون بيننا الحكم عند التَّرافع".

ورماهم بقطع حبل الأخوَّة، وفقدان المبرَّة الرَّابطة بين الإخوة فقامـــت الحرب العوان، وٱشتعلت نارها وٱشتدَّ ضرامها، حتَّى أصبحت حياتـــه في جحيم لا يطيق معه الصَّبر، وجعل ما يلاقيه منهم مثل ما لاقى يوسف بـــن يعقوب من إخوته.

"وأظنُّ أنَّه لا يخفى عنكم ما نحن فيه معهم من عدم الإجلال والمبرَّة، أو يعزب عن ذهنكم منه مثقال ذرَّة، وإنِّي معهم في تلك الدَّار على سعتها في أضيق من سمِّ الخياط، وألاقي منهم ما لاقى يوسف من الأسباط".

فلعلّه من الذين يستطيبون الخصام، فلا يهنأ عيشهم، ولا يستقرُّ قرارهم إلاَّ بعد الخصام، فتشدُّده مع إخوته، ومع ذلك هم جيرانه بدار بيتهم يدل على أنَّ حياته قضاها في عراك مستمرٍّ ولولا الأدب متنفَّسه لضاقت عليه الحياة أشدَّ ضيق ولما طاق البقاء ببلده ولهاجر كشأن الكثير الذين يفرُّون من شدَّة ما يلاقون من عنت الأقارب.

ولو أنَّ الأمر وقف عند إخوته لوجدنا مبرِّرا في خصامه مع إخوته بسبب المجاورة والاختلاف على الميراث، وكثيرا ما يجري هذا بين الإخوة حين تدبُّ السعاية، وتفرِّقهم المادَّة لكن قد تجاوز الأمر الإخوة إلى من هو أشدُّ لحمة مع الإنسان وهو الابن، فقد هجا أحد أبنائه بقوله[1]:

[الوافر]

على أنِّي بليت بكلِّ بلوى ... من الأيَّام ما عطفت عليّا
وأعظم ما بليت به وأدهى ... شقيٌّ جاء من ظهري عصيّا
أريد حياته ويريد قتلي ... كلانا بالخلاف غدا سويّا
تذرَّع للغواية كلَّ مكر ... وجافاني ولم يك بي حفيَّا

وتوقفنا هذه الأبيات على شيء من خلق الغراب وأنَّه كان مولعا بالخلاف فجاء الابن نسخة من أبيه وهذا ما جرى على لسانه من قوله:

كلانا بالخلاف غدا سويا

وأقوى ما يؤاخذ به المرء إقراره بلسانه فقد أقرَّ بأنَّ ٱبنه مولع بالخلاف مثله، فلعلَّ عصيان ٱبنه – إن ثبت – ناتج عن ولع الغراب بالخلاف، فالابن مهما تنازل لأبيه إذا كثر خلافه مجَّه طبعا وجاراه في صنيعه، وماشاه في طريقه.

ولعلَّ هذا من الغراب ساعة الغضب ولم يكن الابن عاقًّا لأبيه، وإنَّما في ثورة الغضب وفورانه هجاه بهذه الأبيات، وهو الأقرب، فهي أبيات شردت

---

1 ديوان الغراب ص 295.

من اللِّسان كما يشرد الشَّتم من الآباء حين غضبهم على أبنائهم، وضـنُّه بأدبه هو الذي دعاه إلى إبقائها.

وهجو الأبناء مغتفر لأنَّ الآباء قد لا يجدون ما يأملون من أبنائهم فتضيق نفوسهم بالشَّتم والدُّعاء، أمَّا العكس وهو هجو الأبناء للأباء فكبيرة لا تغتفر أخلاقيًّا، ومع هذا وقع للشُّعراء، من ذلك هجاء الحطيئة أباه وأمَّه معا في قوله:

ولقد رأيتك في النِّساء فسؤتني   وأبا بنيك فساءني في المجلس

وهجا أباه وعمَّه وخاله:

لحاك الله ثم لحاك حقًّا   أبا ولحاك من عمٍّ وخال

فنعم الشَّيخ أنت على المخازي   وبئس الشَّيخ أنت لدى المعالي

جمعت اللُّؤم -لا حيَّاك ربِّي-   وأبواب السَّفاهة والضَّلال

وبلغ الأمر به إلى أشدّ من ذلك، لكن مترجَمنا قد عافاه الله من ذلك حيث قرَّع ٱبنه، فهو لا يخرج عن التَّقريع الصَّادر من الآباء نحو الأبناء فشدَّته الخلقيَّة لم تكن كنفسيَّة الحطيئة فقد ربا بشعره عن هذه المترلة رحمه الله وعفا عنه.

وذكرنا بعضا من شعر الحطيئة ليعلم عدم إسفاف المترجَم وإن ٱحتدم الغضب في قلبه فهو في هجوه لابنه لم يخرج عن حدود اللِّياقة و لم يتذرَّع بعصيانه إلى شتمه، وإنَّما كان في أبياته متشكِّيا ومستعطفا له بإنبائه أنَّه يريد حياته، وهو يريد موته، وبهذا ندرك الكرامة النفسيَّة عند الغراب التي هي مفقودة عند الحطيئة.

وله يهجو ذيابا وقطاطة[1]:

1 ديوان الغراب ص 269.

[مخلع البسيط]

إن يصطحب في الورى ذئاب قطاطة ما به ٱرتياب

(إذ جيفة المنخر ريحها من) قطاطة ما له ذهاب

ولا أرى جيفة بأرض (إلاّ أتى نحوها ذياب)

هكذا وقع صدر البيت الثّاني بخطّ العصفوري من عروض غير عروض الأبيات إذ هذه النُّتفة من العروض الثّالثة المقطوعة المخبونة، فعوض فعولن في الأخير مفتعلن، ولا يصحُّ هذا الصَّدر إلاّ بحذف من.

وقد أتى في هذه النُّتفة بتورية في قوله ذياب عن ذياب المهجو.

ومن ثورته الهجائيَّة حملته على أهل صفاقس حين عزلوا إماما لهم بسبب رميهم له بما رموه به فٱنتصر لذلك الإمام المعزول[1]:

[الكامل]

يا ويح أهل صفاقس عزلوا إمامهم ورموه بالخبث

وقدَّموا في صلاتهم حدثا وهل تجوز الصَّلاة (بالحدث)

هذان البيتان – وإن كان موضوعهما لا يوافق عليه – قد أجاد فيهما في التَّورية حيث ذكر أنَّ أهل صفاقس بعد عزلهم إمامهم قدَّموا عوضه إماما حدثا أي شابًّا، يقال رجل حدث، ويجمع على أحداث ثمَّ قال وهل تجوز الصَّلاة بالحدث أي بإمامة الشَّاب، وهذا المعنى هو المعنى القريب، وورَّى به عن معنى آخر، وهو هل تجوز الصلاة بالحدَث أي الغائط، وهو من نواقض الوضوء فلا تصحُّ الصَّلاة بالحدث.

وله هجوا الأبيات المتقدِّمة:

أرى الشَّرفين ليس لهم عهود

وحتَّى أنَّ بيته في مدح الشَّيخ غلاب هجا فيهما البكريِّين حيث قال:

بغيث وقولوا الآن فارقك العيث

1 ديوان الغراب ص 271.

وله معاتبا وهاجيا من طرف خفيٍّ بعض العدول الذي ماطله في كتب عقد له[1]:

[الوافر]

عقودي تشتكي طول القعود إلى كم لا تحلُّ من العقود
وكم عاقدتم أن تعقدوها وما عقدت (فأوفوا بالعقود)
يقولون الخلود بلا انقضاء ولى أمد يزيد على الخلود

والتَّورية في قوله (أوفوا بالعقود)، إمَّا أن يكون المعنى ادفعوا العقود أي الرُّسوم، وإمَّا أن يكون إشارة إلى قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أُوفُوا بِالْعُقُودِ﴾[2] أي العهود.

ومن كثرة تكرار العقد في بيت التَّورية ثقل هذا البيت فآخى بيت أبي الطِّيب المتنبِّي الذي قلقل فيه:

فقلقلت بالهمِّ الذي قلقل الحشا قلاقل همٍّ كلُّهن قلاقل

نظرة في أدبه

أدب الغراب كأدب غيره في قصره على نواح خاصة تكاد تكون دائرة على محور واحد، وإن خرجت عنه فبقدر، والغراب في هذه النَّاحية نعدُّه من المتحرِّرين نسبيًّا إذ سلك مسلكا خاصًّا فسار على غرار مدرسة خاصَّة وهي مدرسة الشِّهاب الحجازي كما تقدَّم في أوَّل ترجمته وابن نباته وأضرابهما من الشُّعراء الذين سلكوا مسلك التَّورية والتغزُّل المتنوِّع.

فالغزل كان عند العرب يتَّجه إلى شخص معيَّن حتَّى قرنت أسماء بعض الشُّعراء بمن تغزَّلوا به مثل كثيِّر عزّة، لكن هذه المدرسة التي اتَّخذها الغراب قدوة في أدبه لم تتَّجه ذلك الاتِّجاه، والمكثر من ذلك هو الشِّهاب الحجازي الذي أكثر إكثارا لا نظنُّ أنَّ غيره جاراه فيه.

1 ديوان الغراب ص 306 .
2 سورة المائدة، الآية 1.

وبسبب هذا الإكثار كان هذا الغزل في الحقيقة جريدة بأسماء المتغزَّل بهم فأيَّة روح غزليَّة في مثل قول الغراب الذي جاء على غرار هذه المدرسة في مليح دمل[1]:

[الطَّويل]

لئن ظهرت بالجسم منك طوالع ففيها دليل عن كمالك قاطع
لأنَّك أفق للكمال بأسره وإنَّ من الآفاق تبدو الطوالع

إذا أخذت هذه الأبيات وحلَّلتها لم تخرج عن أنَّ هذه الطَّوالع أي البثور في جسم هذا المليح دليل على كماله لأنَّه أفق الكمال، ومن الأفق تظهر الطَّوالع أين هذا من غزل كثير عزة وأضرابه فضلا عن غزل ٱبن أبي ربيعة[2] وحتَّى أبي نوَّاس صاحب المدرسة الخاصَّة في الغزل المذكور، ولولا التَّورية التي أتى بها في عجز البيت الثَّاني في الطَّوالع التي تدور بين الأهلَّة، أو الفجر، وبين البثور، لم يكن فيهما أيُّ معنى يذكر وعلى كل إنَّ الصِّناعة اللَّفظيَّة قد غطَّت القصور في المعنى.

ولا ننكر أنَّ الصِّناعة اللَّفظيَّة قد تدخل على النُّتفة من الخفَّة ما ينسي السموَّ المعنويَّ حتَّى تصبح تلك الصِّناعة معنى ساميا تطرب له الأذهان مثل قوله في النّشوق: النَّفة[3]

[المتقارب]

أرى نفَّة الأنف لو لم تكن أميرا على الكيف من غير مين
لما كان مسكنها قصبة وتلزمها نوبة الإصبعين

---

1 ديوان الغراب ص 222.

2 عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي القرشي، أبو الخطاب. أرقُّ شعراء عصره، من طبقة جرير والفرزدق. ولد في اللَّيلة التي توفِّي بها عمر بن الخطَّاب فسمِّي بٱسمه. غزا في البحر فٱحترقت السَّفينة به وبمن معه فمات فيها غرقا سنة 93هـ/712م. له ديوان شعر. (الأعلام 211/5).

3 ديوان الغراب ص 326.

فهذه النُّتفة قد كانت توريته فيها معفيَّة على ما فيها من ٱستعمال لفظة القصبة كما هو في الاستعمال التُّونسي أي بتسكين الصَّاد، ولعلَّ هذا الاستعمال له دخل في خفَّتها على المتذوِّق التُّونسي، وفوق ذلك إنَّ هذه التَّورية منتزعة من الفنِّ الغنائي.

و لم يغفل جانب المعنى مع الصِّناعة اللَّفظيَّة في بعض قطعه مثل قوله متغزِّلا فيمن يسمَّى بالزُّبير[1]:

[الكامل]

قمر البها تبلو بك الأجسام | قمر السَّماء يبلي الثِّياب وأنت يا
منك الجفون فإنهنَّ سهام | إن مزّقت أثواب صبري في الحشا
أعدى الصَّحيح من السَّقيم سقام | سقم الفؤاد بسقمهنَّ وربَّما
إن الزُّبير أتى به العوَّام | من رام نيلك فليعم بحر الرَّدى

جمع في هذه القطعة بين معان طريفة كما في البيت الأوَّل وبين التَّورية في البيت الأخير حيث شبَّه المتغزل فيه بالقمر لكنَّه تبلى به الأثواب وهذا تبلى به الأجسام، و لم يخل كذلك الأبيات بعده من معان لطيفة، وأتى ختاما بتلك التَّورية إذ قوله: (الزُّبير أتى به العوَّام)، دائر بين أن يكون العوَّام العائم في بحر الرّدى، وأن يكون المراد به العوَّام والد الزُّبير وهو الزُّبير بن العوَّام الصَّحابي الجليل وأحد العشرة المبشَّرين بالجنَّة، وأحد السِّتَّة أصحاب الشُّورى (-36هـ).

وليس في هذه التَّورية ما يؤاخذ عليه الغراب إلاَّ التَّورية عن هذا الصَّحابي الجليل الذي شهد له بالجنَّة، وإن كانت التَّورية سليمة من مطعن فإنَّ ذكره في تغزُّل غير محمود ممَّا تأباه النَّفس.

وكما أجاد الغراب في هذه القطعة أجاد في أخرى تغزَّل فيها في ٱبن المجاهد[2]:

---

1 ديوان الغراب ص 247.

2 المرجع السَّابق ص 200.

[الكامل]

شهد السِّقام بأنَّني لك عاشق | إنَّ السِّقام عليَّ أصدق شاهد
لله ظبي عن جُفوني شارد | أترى أفوز بوصل ذاك الشَّارد
بهرت محاسنك الأنام فكلُّهم | ما بين ملتهِّف عليه وساهد
يا من يجاهدني بسيف لحاظه | إن متُّ قل هذا قتيل (مجاهد)

فزيادة على خفَّة هذه الأبيات أتى فيها بتورية عن ٱسم مجاهد، وهو المتغزَّل به، إلاَّ أنَّه لا يلقَّب بمجاهد وإنَّما يلقَّب بٱبن المجاهد، ولست أدري هل قصد التَّورية عن مجاهد بن جبر أبي الحجَّاج التَّابعي شيخ القرَّاء والمفسِّرين الآخذ عن ٱبن عبَّاس رضي الله عنهما (-104هـ)، ولا عيب في هذه الأبيات إلاَّ ٱستعمال (ساهد) بمعنى قليل النَّوم، والقياس سهد كفرح، واللُّغويُّون وإن ذكروا فارحا لم يذكروا ساهدا.

والغراب وإن برع في التَّورية براعة فائقة، وبزَّ أقرانه وحتَّى غيرهم لكنَّه في التَّضمين لم يبلغ هذا الشَّأو، وإن حاوله فدونك بعض أبيات تقدَّمت قصيدتها[1] ونعيد هذا البعض للموازنة.

قال الغراب مضمِّنا أعجازا من قصيد لأبي الطيِّب:

رام العواذل من جفني تكفكفه | (ومن يسدُّ طريق العارض المهطل)
قل للذي في الورى يهوى سواه أما | (في طلعة الشَّمس ما يغنيك عن زحل)
يا من يكحِّل كي يحلي لواحظه | ليس التكحُّل في العينين كالكحل

إذا وازنت هذه الأبيات بأخرى لابن نباتة (-768هـ) ضمَّن فيها أبياتا لامرئ القيس من قصيدته الشَّهيرة (قفا نبك)، وتضمينها صعب لكن جرت مع أبيات ٱبن نباتة في غاية السَّبك، وهذه مقتطفات منها:

1 يراجع ص 350؟؟

فطمــت ولائـي ثم أقبلـت عاتبـا (أفاطم مهلا بعض هـذا التـدلّل)
بروحـي ألفـاظ تعـرض عتبـها (تعرض أثنـاء الوشـاح المفـصل)
نعم قوضت منك المودّة وٱنقـضت (فيا عجبا مـن رحلـها المتحمَّـل)
أمولاي لا تسلك من الظُّلـم والجفـا (بنا بطن خبت ذي قفـاف عقنقـل)
وحاولت من إدناء ودِّك مـا نـأى (فأنزلت منه العصم من كـلِّ مـنزل)

إذا وازنت بين تضمين الغراب وتضمين ٱبن نباتة تجد أنَّ الغراب لم يلِّحق شأو ٱبن نباتة، والفرق بينهما يدركه المتذوِّق، وإن لم يقصِّر الغراب وهـو وإن لم يحلِّق في التَّضمين كما حلَّق في التَّورية فإنَّه في الاقتباس قد حلَّق فقد جاء له بيتان جمع فيهما بين الاقتباس والاكتفاء[1]:

[المتقارب]
وبـدر إذا مـا بـدا مـسفرا تـرى البـدر في أفقـه يحجـب
إذا مـا تبـسَّم عـن لـؤلؤ (يكـاد سـنا برقـه يـذهب)

فالاقتباس من قوله تعـالى ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِـهِ يَـذْهَبُ بالأَبْـصَارِ﴾[2]، والاكتفاء هنا من القسم الذي يكون بجميع الكَلمة، وهي بالأبصار.

وفاته

جاء في كنَّاشة على ملك العلاَّمة الشَّيخ البشير النَّيفر[3]: سمعت من مفتي صفاقس الشَّيخ الفقيه المشارك الأديب أبي العباس أحمد الفـراتي أنَّ وفـاة الأديب أبي الحسن الغراب الشَّاعر المشهور الصَّفاقسي كانت سنة 1185هـ كذا بخطِّ ثقة.

والذي في تاريخ الشَّيخ مقديش[4] وكانت وفاته – أي الغراب – رحمـه الله سنة ثلاث وثمانين ومائة وألف 1183هـ.

1 ديوان الغراب ص 186.
2 سورة النُّور، الآية 43.
3 محمَّد البشير بنِ أحمد بن محمَّد بن أحمد النَّيفر. فقيه، مشارك في العلوم. من مؤلَّفاته "تراجم المفتيِّين والقضاة" توفي سنة 1394هـ/1974م. (تراجم المؤلفين التونسيِّين 67/5).
4 نزهة الأنظار 204/2.

محمّد سعادة

أخذ هذا المترجَم وهو محمَّد بن عمر سعادة المنستيري من لقبِه حظّا وافرا فبورِك له في عمُره حتَّى أناف على الثَّمانين ونال حظًّا من دنيـــاه، فنــــال الوظائف العلميَّة السَّامية، وأقبلت عليه الدُّنيا إقبالا، وٱنثالت عليه ٱنثيــــالا، ولمع نجمه وصار من أعلام عصره، وحتَّى في وقت إدبارها عنه لم تطل المدَّة المنغِّصة.

وكما رافقه الحظُّ في ذلك رافقه في ذيوع ٱسمه، إذ ترجِم لـــه في حـــال حياته مؤرِّخان، فقد ترجَم له صاحب "ذيل بشائر أهل الإيمان"[1] ترجمة نوَّه فيها به وحلاَّه بأنَّه: "العالم العارف، صاحب العلوم والمعارف، الحبر المدقِّق المحقِّق".

وكذا العياضي في "مفاتح النَّصر" المخطوط، وجاء فيه تنويها بشأنه أيَّما تنويه: "أنَّه حاز في العلوم المعقولةِ والمنقولةِ قصبَ السَّبق، فكأنَّـــه في تلـــك العلومِ لمعُ برقٍ، وهو في هذا القطرِ لسانُ الأدب وروايةُ شعر العرب، علاَّمة الأعلام مبدعٍ النَّثر والنَّظم واسع الدَّائرة في الكلام"، وهي من تراجم المفاتح الحافلة المطوَّلة.

وقد بلغ به القمَّة حيث ذكر أنَّه إذا نظم أخجل أحمد بن سليمان وهو المعرِّي[2] وبديع الزَّمان صاحب "المقامات"، وهو في النَّثر ابن الخطيب الذي ألَّف فيه المقَّري "نفح الطيِّب"، وأشاد العياضي بشعره حتَّى أنَّه جعله إذا رآه

---

1 ذيل بشائر أهل الإيمان، ص249.

2 أحمد بن عبد الله بن سليمان، التنُّوخي المعرِّي، ولد وتوفي في معرَّة النُّعمان، أصيب بالجدري صغيرا فعمي. شاعر، فيلسوف، ديوان شعره يعرف باللُّزوميات وله عدَّة رسائل من أشهرها "رسالة الغفران"، "خطبة الفصيح" توفِّي سنة 449هـــ/1075م. (الأعلام 150/1).

أبو تمَّام وهو هو لقال: هذا الشِّعر لا يفارقه التَّمام، وكذلك أبو الطيِّب[1] لو رآه لقال: "هذا في المعاني كالعارض الصيِّب"، فأعلام الشُّعراء كلُّهم معجبون بشعر سعادة هكذا عند العياضي، فهو عنده لسان الأدب، وستأتي لنا مناقشةٌ في هذا التَّنويه حيث فضَّله في الأدب على كلِّ من سواه، لأنَّ من يشهد له هؤلاء الأعلام على حسب مخيَّلته لا يضاهيه أيُّ أديبٍ ولا يبدع إبداعه أيُّ شاعرٍ، ولم يقف الأمر عند نظمه فكذلك حلّق به في النَّثر حيث قرنه بٱبن الخطيب والفتح بن خاقان صاحب "قلائد العقيان".

وكما ترجم له في حال حياته هذان المؤرِّخان كذلك ترجم له بعد وفاته غيرهما، فمجال القول فيه رحبٌ، فالسَّعادة لازمة له في الحياة والممات، وقلَّ من تجده مثله من السُّعداء الذين نالوا حظًّا في التَّرجمة مثل ما ناله.

ولكن مع هذا المجال الرَّحب والإطناب بالنِّسبة لترجمته لم يعتنوا بدراسة أدبه، وبالأخصِّ في كتابه: "قرَّة العين" الذي نظنُّ أنَّهم لم يقفوا عليه، وسنوافي في الحلقات الآتية بتحليل لهذا الكتاب الذي هو عنوان أدبه، فتحليل هذا الكتاب تحليلٌ لأدبه، وإن كان أدبا في وضعه غير مرضيٍّ عنه للإسراف في المدحِ.

ميلاده

ذكر العياضي في خاتمة ترجمته أنَّه ولد سنة 1088هـ، ولم يذكر مكان الولادة، وفي "مسامرات الظَّريف" وصفه بالمنستيري ثمَّ ذكر ٱلتحاقه بتونس،

---

1 أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصَّمد الجعفي الكوفي الكندي ، المعروف بالمتنبِّي (أبو الطيِّب). شاعر، حكيم، أحد مفاخر الأدب العربي. تنبَّأ في بادية السَّماوة وسجن ورجع عن دعواه. له الأمثال السَّائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. قتل بالنُّعمانية سنة 354هـ/965م. (الأعلام 110/1).

وفي "عنوان الأريب"[1] أنَّه ولد بالمنستير، ومثل ذلك في "شجرة النُّور"[2]. وفي "ذيل البشائر"[3] الاقتصار على قوله: تزايد سنة 1088هـ ونشأ بتونس، فعبارته لا تفيد أنَّه من مواليد المنستير.

ولكن مجموع تلك النُّصوص المتقدِّمة تفيد أنَّه من مواليد المنستير، مع أنَّ ما في "ذيل البشائر" لا يناقض ما جاء في تلك النُّصوص، وفي "عنوان الأريب" أنَّه نشأ بالمنستير ممَّا يخالف ما جاء في "ذيل البشائر"، ويمكن التَّوفيق بأنَّ المقصود بقول حسين خوجة في "ذيل البشائر": "أنَّه نشأ بتونس" أنَّه قرأ بها ولم يقصد النَّشأة الأولى، لكن يعكر على ذلك أنَّ كلامه يفيد أنَّ حفظه للقرآن كان بتونس حيث قال ما نصُّه: "ونشأ بمدينة تونس وحفظ القرآن العظيم".

تلقِّيه

لم أر أنَّه تلقَّى تعليمه بالمنستير بل كلُّ المصادر مجمعة على أنَّه تلقَّى بمدينة تونس، ففي "مفاتح النصر" "أنَّه قرأ بتونس في أوائل صباه"، وفي "ذيل البشائر" مثل ذلك حيث قال: "ومن مشائخه بمدينة تونس"، وكذلك في "مسامرات الظَّريف"[4]: "وقدم إلى تونس في طلب العلم".

ومن أبرز شيوخه بتونس محمَّد فتاتة، وبالمقارنة بينه وبين تلميذه المترجَم يظهر أنَّه تأثَّر به لذا نذكر ترجمة شيخه ببعض بسط حتَّى يتَّضح أنَّ مكانة المترجَم إنَّما حصلت له بالاقتداء بشيخه هذا.

---

1 عنوان الأريب 532/1.
2 شجرة النُّور 348/1.
3 ذيل البشائر 249.
4 مسامرات الظَّريف 171/2-175.

ومحمَّد فتاتة أحد الفضلاء الجلَّة من أعلام تونس في عصره، تولَّى الإفتاء بتونس وتوفِّي سنة 1115هـ وتخرّج المترجَم به هو في الجمع بين التَّحقيق العلميِّ والأدب، وممَّا قيل في رثاء فتاتة للوزير السرَّاج بما يشير إلى تحقيقه الفائق:

لقَّبوك فتاتة من أجل ما فتّت درسا معجز الآيات

فشيخه هذا كان في التَّحقيق آية إبداع، تلقَّى عنه العديد من التَّلاميذ، وكان من نبغائهم المترجَم، ومع هذا التَّحقيق لم ينس الأدب، فكان أديبا وشاعرا لطيفا، وكذلك المترجَم جمع بين الأمرين مع أنَّ الكثير من المبرِّزين في الشَّريعة كانوا يتحرَّجون من الأدب ويرونه ملهاة لا فائدة من ورائها.

أمَّا طريقة فتاتة فهي لا تتحرَّج من الأدب، وحتَّى من مجالسه الرَّقيقة وقد سلكها سعادة، ولكنَّه برز على شيخه في الأدب حتَّى صار معدودا من الأدباء، وفي طليعتهم كما تقدَّم عن "مفاتح النَّصر"، أمَّا فتاتة وإن قرض الشِّعر فإنَّما كان قرضُه له في دائرة محدودة.

وكما كان هذا الفرق بينهما كان هناك فرق آخر بينهما، وهو أنَّ سعادة ٱستغلَّ أدبه للتقرُّب من صاحب السُّلطان الأمير حسين بن علي، وأنشأ من أجله تأليفا خاصًّا بخلاف فتاتة فإنِّي لم أقف له على صنيع مثل صنيع سعادة، بل ناله من بعض أمراء عصره ما ناله حتَّى قبض عليه هو والشَّيخ يوسف درغوث وكانا معرَّضين للقتل، أمَّا درغوث فنفذ فيه القضاء وقتل، وأمَّا فتاتة فاستطاع الانفلات والنَّجاة من القتل، أمَّا المترجَم فإنَّه وإن تعرَّض كشيخه لغضب الأمير فإنَّه تعرّض ليس كالتعرُّض الذي حصل لشيخه وكاد يؤدِّي به إلى القتل.

فسعادة يعرف كيف يكيِّف حياته من صاحب النُّفوذ بخلاف شيخه فإنَّه بعيدٌ عن التَّكييف الحياتي.

كما تلقّى تعليمه في تونس عن أحد شيوخها البارزين وهو محمَّد الحجِّيج الأندلسي المشتهر بإتقان كثير من الفنون المدروسة في عصره من علوم الفقه والكلام والحديث والتَّفسير ونوازل الأحكام واللُّغة العربيَّة والأصول والبلاغة وتوابعها والتَّاريخ وأخبار النَّاس وعلم الحساب والفرائض وسرِّ الحرف، وغير ذلك كما في "ذيل البشائر"[1] وتوفِّي سنة 1108هـ.

ومن ترجمة المترجَم وشيخه يظهر أنَّ المترجَم لم يأخذ بطريقة شيخه في كثرة جمع العلوم، بل كان للشَّيخ سعادة تبرُّز خاصٌّ في بعض هذه العلوم التي مهَر فيها شيخه المذكور.

ومن شيوخه الذين تأثَّر بهم محمَّد الغماري ٱبن أبي القاسم الغماري[2] الذي كان ولوعا بالعربيَّة، وله ٱختصاص "بالتَّوضيح"[3] و"الألفيَّة"، وكان أحد المدرِّسين بالزَّيتونة، وٱختصَّ بتدريس العربيَّة، وكان شيخ الفتح توفِّي سنة 1119هـ وتأثُّر سعادة به أنَّه ولع مثل ولَعِه بالعربيَّة وألَّف فيها تأليفه الذي سيأتي.

وأخذ عن سعيد الشَّريف وهو من مواليد طرابلس الغرب، بلغ المرتبة السَّامية في معارف عصره، وكان من المحقِّقين في تدريس الكتب التي يتولَّى تدريسها وتوفِّي سنة 1112هـ.

وتلقَّى عن الشَّيخ سعيد بن إبراهيم المحجوز أحد المحدِّثين بتونس والذي تخرَّج النَّاس به، وكان شيخ عصره في الرِّواية والدِّراية له "شرح الموطَّأ" لم يكمل، ومات بمرسى مطروح في طريقه للحجِّ، لكن المترجَم لم يسلك مسلكه في الاختصاص بالعلوم الحديثيَّة، فلم يتأثَّر به كما تأثَّر بالشَّيخ فتاتة.

---

1 ذيل البشائر، ص199-201.

2 المرجع السابق، ص204-205.

3 "التَّوضيح على الألفيَّة" لأبي محمَّد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري. (هديَّة العارفين 465/1).

رحلته وأثرها

تدلُّ رحلة المترجَم إلى الشَّرق على أنَّه كان ذا طموحٍ علميٍّ، وتطلُّعٍ إلى السموِّ، فإنَّه لم يكتف بما حصل عليه في العاصمة التونسيَّة التي كانت تضمُّ أعلاما مثل الشَّيخ فتاتة الذي تأثَّر بطريقته كما يبدو، وهـذان الطموح والتطلُّع ظهر أثرهما فيه فإنَّه كان من النَّحارير، وقد أقرَّ له بذلك أهل عصره كما أثبته مترجموه، فكلٌّ من ترجم له ذكر أنَّه من أهل التَّحرير.

وكانت وجهته في رحلته القاهرة قاصدا الأزهر الذي كان في تلك الحقبة المدرسة الإسلاميَّة الشَّهيرة تضمُّ نخبة من العلماء تدلُّ تآليفهم على مكانتهم العلميَّة، فمدرسة الأزهر جذبت أنظار المترجَم، فبعد أن تلقَّى العلم بتونس قصد الأزهر وهو ناشئٌ فأمَّه وتربَّع في حلقاته، فكان خرِّيج مدرستين شهيرتين في العالم العربي هما الزَّيتونة والأزهر.

وقد جمع بين الطَّريقتين طريقة الزَّيتونة وطريقة الأزهر، فالطَّريقة الأولى تميل إلى التوسُّع في المحاضرات والبحث كما هو متعارفٌ في هذه الطَّريقة التي أعجب بها الكثير، والطريقة الثَّانية تميل إلى التَّأليف دون أن تعنَى بالتوسُّع في التَّدريس.

وبدا فيه أثرُ الطَّريقتين فكانت محاضراته في التَّدريس في غاية الدقَّة والتَّحرير كما وصفه بذلك في "ذيل بشائر أهل الإيمان"[1] حسين خوجة، وكانت دروسه حافلةً لهذه الطَّريقة التي اعتنى بها التونسيُّون، وقد شغلتهم عن التَّأليف، ومن أجل ذلك قلَّت مؤلَّفات التونسيِّين.

وبجانب توسُّعه في محاضراته التَّدريسيَّة اشتغل بالتَّأليف، وهي طريقة الأزهريِّين الذين يعتمدون على الكتابة لا الذَّاكرة، فكثرت تآليفهم في الفنون التي يدرِّسونها.

فأثر الطريقتين بدَا في حياة المترجَم وتمثَّلت فيه المدرستان، فكان في عصره محلَّ تقديرٍ كما جاء في "مفاتح النَّصر": "عالم علاَّمة، وحبر

---

1 ذيل البشائر، ص249-250.

فهَّامة،على عصن لسانه تصدح بلابل التحقيق، وعلى هامة تخفق راية التَّدقيق".

فصاحب المفاتح ذكر تقدُّمه في المحاضرات التَّدريسيَّة بأنَّه على لسانه تصدح بلابل التَّحقيق، وذكر براعته في التَّأليف بأنَّ على هامة بنانه تخفق راية التَّدقيق.

فرحلته إلى القاهرة قد كانت من عوامل تكوينه العلميِّ، وتنشئته تنشئة خاصَّة به دون غيره من أقرانه، وأخذ في رحلته إلى القاهرة عن رجال الأزهر المتصدِّرين للتَّدريس، وفي طليعة هؤلاء الذين تلقَّى عنهم محمَّد بن عبد الباقي الزرقاني[1] (-1122هـ) الذي يعبَّر عنه بخاتمة المحدِّثين، وهو من نحارير العلماء ويكفيه تحريرا وسعة ٱطِّلاع كتابه الذي ألَّفه في السِّيرة النبويَّة الشَّريفة، وهو "شرح المواهب اللدنيَّة" للقسطلاني[2]، فإنَّه من كتب السِّيرة المحرَّرة الجامعة والمغني عن كثيرٍ من الكتب، ويقع هذا الكتاب في سبع مجلَّدات، وله كتاب آخر لا يقلُّ عن ذلك وهو "شرح الموطَّأ" للإمام مالك في أربع مجلَّدات.

فلا نعجب بعد هذا إذا وصف المترجَم بالنَّحريريَّة إذ كان تلميذاً للزُّرقاني الذي ينطق كتابه "شرح المواهب" بالتَّحرير البالغ، فقد ٱستفاد من شيخه هذا التَّدقيق العلميَّ.

وكان الزُّرقاني منذ نشأته تظهر عليه النَّجابة حتَّى أنَّ شيخه الشِّبراملسي[3] يعتني به ٱعتناءً زائدًا على الطَّلبة ممَّا دعاهم إلى مفاتحته في هذا التَّخصيص حتَّى كان لا يفتح درسه إلاَّ إذا حضر الزُّرقاني فاعتذر عن ذلك بأنَّه موصى به.

1 محمَّد بن عبد الباقي الزّرقاني المصري الأزهري، توفِّي سنة 1122هـ/1710م. (الأعلام 55/7).
2 أحمد بن محمَّد القسطلاني المصري، توفِّي سنة 923هـ/1517م. (معجم المؤلفين 85/2).
3 علّي بن علّي الشّبراملسي المصري. توفِّي سنة 1087هـ/1676م. (معجم المؤلفين153/7).

وتأثير هذا الشَّيخ كان في خصوص التَّحرير، أمَّا غير ذلك فلا نجد له في المترجَم أثرًا لأنَّ الزُّرقاني كان من المحدِّثين، ومن الشُّيوخ الذين تعلَّقوا بعلم الحديث حتَّى قال فيه الجبرتي كما تقدَّم: "خاتمة المحدِّثين"، بينما سعادة لم يشتهر بعلم الحديث حتَّى بصورة جزئيَّة ممَّا في شيخه، ولم يؤلِّف ولو كتابا واحدا يتَّصل بالحديث كما ألَّف شيخه ذينك المؤلَّفين وغيرهما.

ولعلَّه آكتفى بالإجازة عن التَّأليف أو آكتفى بالتَّدريس، فقد تلقَّى علم الحديث هناك كما في "ذيل البشائر"، ولعلَّ الذي قصر به في علم الحديث عدم الاعتناء بتدريسه كالفقه والعربيَّة في تونس.

ومن شيوخه بالقاهرة أحمد بن عبد الرَّحمان بالفقيه التريمي (-1118هـ) له مصنَّفات في الفقه والفرائض.

ومن شيوخه البارزين أحمد بن غنيم بن سالم النَّفراوي[1] (- 1125هـ)، وهو أحد الفقهاء من علماء المالكيَّة وقد آشتهر بكتاب له في الفقه وهو "الفواكه الدَّواني على رسالة آبن أبي زيد القيرواني" المتوفَّى سنة 386هـ وقد طبع هذا الكتاب في ثلاث مجلَّدات ثمَّ في مجلَّدين، وهو أحفل شرح على الرِّسالة المذكورة وعمدة المطالعين والدَّارسين في الفقه حيث حرَّر فيه الفقه المالكيَّ وبالأخصِّ العبادات.

فهو من شيوخه في الفقه المعتني به كثيرا إذ شهرة النَّفراوي فقهيَّة أكثر منها في العربيَّة، وإن كان له كمال معرفة بها وإتقان، وله فيها تأليفٌ وهو "شرح الأجروميَّة".

والشَّيخ النَّفراوي له اتِّصال بأحد علماء البلاد التونسيَّة شيخ الإقراء بها الشَّيخ علي النُّوري الصفاقسي[2] إذ شرح النَّفراوي مقدِّمته التي تشتمل على فوائد فقهيَّة وعقائد دينيَّة، وتعرف بالنُّوريَّة، ولست أدري هل هو أوَّل

1 أحمد بن غنيم النفراوي، فقيه، توفِّي سنة 1125هـ (شجرة النُّور 318/1).

2 علِّي بن محمَّد النُّوري الصَّفاقسي، مقرئ محدِّث، له مؤلَّفات عديدة. توفِّي سنة 1118هـ (شجرة النُّور 322/1).

شيوخ المترجَم الذين ٱتَّصل بهم بسبب ٱتِّصاله بالشَّيخ النُّوري أم لا، ولا يبعد أنَّه رحل إلى المشرق وقد ٱستصحب كتابا أيضا من الشَّيخ النُّوري للنَّفراوي.

وتلقَّى عن عالمٍ ثالث من علماء المالكيَّة بمصر، وهو الشَّيخ إبراهيم بن موسى الفيُّومي[1](- 1137هـ) شيخ الجامع الأزهر صاحب "شرح العزيَّة".

وأخذ عن الشَّيخ منصور المنوفي البصير الشَّافعي (-1135هـ) صاحب "نظم الموجهات"، فهو من شيوخه في علوم المعقولات.

ودرس على الشَّيخ البشبيشي، وهو الشَّيخ عبد الرَّؤوف بن محمَّد البشبيشي شيخ الشُّيوخ وإمام المحقِّقين (-1143هـ)

وهذا أحد شيوخ التَّحقيق الذي استفاد منه كما ٱستفاد من الشَّيخ محمَّد الزُّرقاني، وهذا يدلُّ على أنَّه كان يتحرَّى في شيوخه فلا يأخذ إلاَّ عمَّن ٱشتهر بالتَّحقيق والتَّحرير العلميِّ.

والبشبيشي هذا حلاَّه الجبرتي في "عجائب الأثار" بأنَّه "الإمام العلاَّمة، والبحر الفهَّامة، إمام المحقِّقين وشيخ الشُّيوخ خاتمة محقِّقي العلماء واسطة عقد نظام الأولياء والعظماء".

وجاء في "ذيل البشائر" وأخذ المترجَم الحديث عن الشَّيخ الطُّولوني، ولا يمكن أن يكون عبد الله بن عبد الرَّحمان الطُّولوني الذي كان حيًّا سنة 1151هـ لتأخُّر زمنه، ثمَّ إنَّه لم يكن محدِّثا وإنَّما كان موقتا.

وفي "مسامرات الظَّريف" أنَّه أخذ الحديث عن الشَّيخ الطَّالوني، أظنُّ أنَّ ذلك تحريفٌ عن الطُّولوني وربَّما كانت نسخة صاحب المسامرات من الذَّيل محرَّفة فٱعتمدها.

كانت رحلة المترجَم إلى مصر رحلة عامرة تلقَّى فيها عن هؤلاء الشُّيوخ المختارين المشار إليهم بالتَّبريز وضمَّ ما تلقَّاه في تونس إلى ذلك، فكانت رحلته مثمرة غاية الإثمار، وأنتجت هذا العالم الذي لم يقصِّر في مهمَّته

1 شجرة النُّور 318/1.

العلميَّة، فأثر هذه الرِّحلة أثر لا ينكر في المترجَم، ثمَّ في مهمَّته هذه، فكـان علَمًا من الأعلام المشار إليهم في تونس المعترف لهم بالتبحُّر والتقدُّم علـى الأقران.

ٱعتنى مترجمو سعادة بذكر شيوخه الذين تلقَّى عنهم في الشَّرق، ولكنَّهم أغفلوا تاريخ هذه الرِّحلة، ونذكر تاريخها ٱستنتاجا بأنَّه كان في أوائل القرن الحادي عشر ولا يتجاوز سنة 1118هـ التي توفِّي فيها أحد شيوخه وهـو أحمد بالفقيه أوَّل شيوخه وفاةً إذ كلُّهم بعد هذه السَّنة.

ومن أثر هذه الرِّحلة أنَّه أدخل إلى تونس شرحًا على الألفيَّة وهو الشَّرح المسمَّى "منهج السَّالك إلى ألفيَّة ٱبن مالك" لأبي الحسن نور الدِّين علي بن محمَّد الأشموني المتوفِّي في حدود 900هـ كما في "كشف الظُّـون"[1] وفي "شذرات الذَّهب" توفِّي سنة 929هـ.

وهو شرح عظيم من أشهر شروح الألفيَّة العديدة، ولا يزال إلى اليـوم مرجعا هامًّا في العربيَّة لما تضمَّنه من تحقيق وبحوث يعنون عنـها بالتَّنابيـه والخواتم، ومن تحليته بالشَّواهد الشِّعريَّة فكان خزانة العربيَّة.

وأغرم به معاصرو المترجَم في الشَّرق، فكتب عليه حواشي العديد مـن علمائه ممَّا يدلُّ على المكانة التي أخذها هذا الكتاب فغطَّى تدريسه على غيره من شروح الألفيَّة الكثيرة، فكما أقبل دارسو العربيَّة على الألفيَّة تـاركين غيرَها من كتب العربيَّة مثل "الكافية"[2] كذلك هذا الشَّرح قد ٱعـتنى بـه أولئك الدَّارسون معرضين عن غيره من الشُّروح.

وممَّن كتب عليه من معاصري المترجَم أحمد بن عمر القـاهري الحنفـي الشَّهير بالإسقاطي (-1159هـ) حاشية تسمَّى "تنوير الحالك على منـهج السَّالك إلى ألفيَّة ٱبن مالك".

---

1 كشف الظُّنون 153/1.
2 "الكافية في النَّحو" لعثمان بن عمر بن الحاجب. توفِّي سنة 646هـ (الأعلام 374/4).

وحسن بن علي المدابغي الشّافعي الأزهري (-1170هـ) كتب على شرح الأشموني حاشية.

وكذلك كتب على الأشموني يوسف بن سالم الحفني (-1178هـ) قال الجبرتي: "وكتب حاشيةً عظيمةً على الأشموني" جمعها من أخيه محمَّد بن سالم الحفني"(- 1181هـ)، وهي في أربعة أجزاء.

هؤلاء العلماء الثّلاثة من معاصري المترجَم كتبوا على هذا الشَّرح الذي كتب عليه هو أيضا، فٱشتهر هذا الشَّرح وطار صيته.

وذهبنا إلى أنَّ المترجم هو سبب ٱشتهار هذا الشَّرح في تونس لأنَّنا لا نجده معروفًا فيها قبل أن يكتب عليه حاشيته: "تنوير المسالك من شرح منهج السَّالك إلى ألفيَّة ابن مالك".

ومن بعد عصر سعادة ٱشتهر هذا الشَّرح ٱشتهارا واسعا، فجاء بعده محمَّد بن سعيد الحجري (-1199هـ) وكتب حاشيته "زواهر الكواكب لبواهر المواكب".

ومن شهرة هذا الشَّرح البالغة أنَّ سنوات التَّعليم في الزَّيتونة في المرتبة المتوسِّطة كانت تعرف بتقسيم هذا الكتاب، فالطَّلبة الذين يدرسون الجزء الأوَّل منه مع غيره من الكتب تعرف سنتهم بالأشموني الأوَّل وهكذا إلى الأشموني الرَّابع.

وبعد رحلة المترجَم إلى مصر قام برحلة أخرى وهي رحلته إلى بلاد الرُّوم، وقصد اسطنبول العاصمة الإسلاميَّة، وفي هذه الرِّحلة لم يتلقَّ العلم كما تلقَّى في التي قبلها، بل كانت رحلة لقاءات وٱجتماع بالشُّيوخ من أهلها ومن غيرها كما أفاده في "ذيل البشائر"[1]، لكنَّها لم تخل من ٱستفادة وإفادة، فدخوله إلى بلاد الرُّوم وكان في حال ٱكتمال معارفه، وحتَّى إذا ٱستفاد بعض الفنون في هذه الرِّحلة كان المستفاد من غير الفنون الأصليَّة.

1 ذيل البشائر، ص249.

فرحلتاه كانتا عامرتين ذاتي أثر على معارفه التي قصد من أجلها هـــذه الرُّبوع، فلم تكونا مجرَّد سفر خال من التزوُّد العلميِّ والتلقِّي عن مـــشاهير ذينك البلدين.

وظائفه

لَّما رجع إلى تونس ٱشتغل بالتَّدريس، وكان يدرِّس بجامع الزَّيتونة الجامع الأعظم، وعيَّن له الأمير حسين باي مرتَّبا، وفي "ذيل البشائر":" وٱستفاد منه خلق، ودرسه يحضره كثير من النَّاس للاستفادة منه، طلق اللِّـــسان حـــسن العبارة قويَّ الجنان".

ثَّم ولاَّه الأمير المذكور المدرسة المراديَّة التي أسَّسها مراد الثَّـــاني قـــرب الزَّيتونة بسوق القماش، ذكر في "ذيل البشائر"[1]: "وهو المدرِّس بهـــا الآن"، وذلك سنة 1137هـــ، ومشيخة المدرسة من الوظائف العلميَّة الـــسَّامية في ذلك العصر.

هذا ما ذكره في "ذيل البشائر" من وظائفه، وقد تولَّى الخطَّة الـــشَّرعيَّة كما في المسامرات حيث ذكر "أنَّه تقدَّم نائبا بالمحكمة الشَّرعيَّة ثمَّ لَّمـــا ورد الإذن للباشا علي من دار الخلافة بأن يولي القاضي من علماء تونس قـــدَّم صاحب التَّرجمة لخطَّة القضاء بالمذهب المالكي سنة 1157هـــ، ثمَّ قدَّمه لخطَّة الفتوى وتقدَّم لرئاسة أهل الشُّورى فكان زينة المجلس الشرعيِّ".

وتولية الباشا للمترجَم خطَّة القضاء مع أنَّه ألَّف كتابا في مدح عمِّـــه، وٱبنه محمَّد المزاحم للباشا تدلُّ على لباقة في المترجَم حيث ٱستطاع أن يجمع بين المتناقضين، فهو من مدَّاح الباي حسين بن علي الذي قتله الباشا، ومن رجال دولة هذا الأخير الذي كان يتتبَّع رجال عمِّه، فضلا عـــن توليتـــهم الخطط السَّامية، وكما يدلُّ ذلك على لباقته يدلُّ على مكانتـــه العلميَّـــة، وتبريزه على أقرانه فلو كان هناك من يزاحمه لما تأخَّر الباشا عن توليته.

---

1 ذيل البشائر، ص249.

فتقلُّب الدُّول لم ينل من مكانته فبقي عليها، ورغم أنَّه عزل في مــدَّة الباشا كما تقدَّم في ترجمة الغراب في خاتمة المقامة العبائيَّة، لم يفقده ذلــك وظيفته بل كان عزله سحابة صيف.

وكان في قضائه يهزُّه الأدب ويثير همَّته للحكم فدخل الأدب قــضاءه، ومن ذلك ما تقدَّم في ترجمة أحمد العصفوري فقد أرسل إليه رسمًا يتـضمَّن نازلة في العمري وطلب منه الإفتاء[1] فيه:

أرى المفتين قد وضعوا خطوطـــــا   بفتياهم لنَا حصلت إفـــــــادة

فكتب له الشَّيخ سعادة في الرَّسم بهذه القصيدة[2]:

تأمَّلـــت الـــسُّؤال ومـــا عـــــلاه   من العمري المـسطَّرة المفــــادة
وما زبـــر الـــشُّيوخ أمـــام رقمـــي   ويمنـــاه لـــســـائله إفــــادة
فألفَيـــتُ الجميـــعَ أجـــاد فيهـــــا   أجاب به وأغـــنى عـــن زيـــادة
ومـــا نقلـــوا بموضـــعه صريـــــحٌ   صحيحٌ حاز ســـائلُهم مـــراده
وأغنى عـــن مزيـــد فيـــه طــــول   ونفس الحرِّ تجتنـــب الإعــــادة
وناظمُها يُجيـــب بمثًـــل مـــا قــــد   أجابوا ســـائلاً ربِّـــي الـــسَّعـــادة
وعفـــواً عـــن خطايانـــا جميعــــا   وعند الموت خاتمـــة الـــشَّهـــادة
وكنـــت عـــن الجـــواب غنيـــت لَّمـــا   أتاني سائلاً يبغـــي الإفـــــادة
ونفـــسُ الحكـــم فيهـــا لـــيس صـــعبًا   فأغنى من أجـــاب عـــن الزيـــادة
فألجـــاني المُهـــذَّب حـــبَّ نفـــسـي   هو العصفور من حـــاز الـــسِّيـــادة
وراقمُ مـــا عـــلا نظمـــي بـــــدرٌ   رآني فيه واســـطة القــــلادة
فحينئـــذ سمحْـــتُ لـــه قـــــد   دعاه إلى جواب مـــن سعــــادة
جـــزاهُ اللهُ في دنيـــاه خيـــــرًا   وبلَّغه من الأخـــرى مــــراده

تـــآليفـــه

تآليف المترجَم في العربيَّة والتَّاريخ والفقه، وهذا الأخير نظمٌ، فالعربيَّة قد كانت هوايته حتَّى أنَّ تآليفه كلّها عليها مسحةٌ من العربيَّة، وهذه تآليفه.

---

1 المسامرات 172/2.
2 المرجع السَّابق 172/2.

1) **حاشية على شرح الأشموني**، في "ذيل البشائر" أنّه سمّاها[1]: "تنـــوير المسالك من شرح منهج السّالك إلى ألفيّة ٱبن مالـــك"، وفي "مـــسامرات الظّريف"[2] أنّه سمّاها: "تقرير المسالك من شرح منهج السّالك"، وحيـــث لم أقف على هذه الحاشية و لم أر من ذكر أنّه وقف عليها لا أستطيع أن أصوِّب إحدى التّسميتين، والظّاهر أنّ صاحب المسامرات ٱعتمد في ترجمته للـــشّيخ سعادة على "ذيل البشائر"، فلعلّ نسخته التي ٱعتمدها وجد فيها أنّ هـــذه الحاشية تسمّى تقرير المسالك، لكن المناسب للمسالك هو التّبيين.

وهو أوّل من كتب على الأشموني من التّونسيّين وحتّى من كتب عليه من المصريّين هو من المعاصرين له، ولست أدري هل ٱطّلـــع علـــى كتابـــات المصريّين فجاراهم، أو أنّ الأمر من باب توارد الخواطر فكلٌّ واحد لم يطّلع على ما كتبه الآخر.

ولا نعرف هل هي في جزء واحد أو أجزاء فإنّ الكاتبين على الأشموني من المصريّين بلغت حواشي بعضهم عليه أربعة أجـــزاء مثـــل الإســـقاطي والصبّان، ومن أجل ذلك كانت دراسته أربع سنوات بالزّيتونة تبعا لهـــذه الأجزاء.

وهي لم تشتهر مثل ٱشتهار حاشية ٱبن سعيد، فلو كانت قيمتها مثـــل قيمة حاشية ٱبن سعيد لحلّت محلّ الحاشية المذكورة ولحظيت بالطّبع مثلها.

وما ذكره ٱبن سعيد من قوله: "دعاني إليها حقّ دعوته فأجاب، وخطـــا ردعته فانجاب، في مسائل ليست على فضلاء عظام، فلم يعرفوا لها لحوما من عظام، لم ألتفت فيها إلى ما قيل فالحقُّ أولى بذلك، و لم أعوّل فيهـــا علـــى أقاويل فلكلٍّ نظر مسالك"، لعلّه يقصد به فيمن يقصد من العظام الـــذين لم يعرفوا اللُّحوم من العظام المترجَم، ولا يكون قوله ذلك خاصًّـــا بالكتّـــاب المشارقة الذين كتبوا على هذا الكتاب بل يشمله.

---

1 ذيل البشائر ص 250.

2 المسامرات 171/2.

2) **تاريخ الأمير حسين بن علي** 1153هـ وفي "ذيل البشائر" أنّه سمّاه: "قرّة العين بنشر فضائل الأمير حسين المجّد وٱبنه الأمير الباي سيدي محمّد"، ثمّ ذكر أنّه أتى فيه بكلّ غريب، من النّظم والنّثر العجيب، والنّاقلون عن الذّيل المذكور يقتصرون على أنّه قرّة العين مكتفين ببعض ٱسمه حيث ذكر بعضهم "أنّ له كتابا لطيفًا سمّاه قرّة العين في نشر فضائل الأمير حسين وأتبعه بمدح ٱبنه محمّد الرّشيد"، وٱقتصر صاحب "شجرة النّور الزكيّة"[1] على ما جاء في ذيل البشائر حيث أنّه لم يقف عليه.

وتأليفه لهذا الكتاب في حدود الثّلاثين ونيف من القرن الثّاني عشر الهجري، حيث أنّ محمّد الرّشيد ٱبن الأمير حسين ولد سنة 1122هـ وفي سنة سبع وثلاثين بلغ خمسة عشرة سنة فقدّمه أبوه.

ونصف الآن هذا التأليف بإجمال لأنّ لنا عودة إليه عند ذكر أدبه، فنقتصر على ما جاء في المسامرات[2] من وصفه.

"فكان – أي "قرّة العين" – من أبدع المقامات في الآداب، وقد نزع فيه عدّة منازع لطيفةً، وأودعه من ذكر الخصال الحميدة وذكر فضائلها ما يروق علماء الأدب وحكماء تهذيب الأخلاق.

وضمّنه أرجوزةً في معنى الصّادح[3] والباغم[4] في الحكم والأمثال تبلغ مائتين وخمسة أبيات، مطلعها:

أحمدُ من أتى حسينًا مِننًا رقى بِها من المعالي قُنَنَا

وقفت على نسخة منه مذهّبة في غاية حسن الرّونق..."

---

1 الشّجرة، ص 347.

2 المسامرات 173/2.

3 الصّادِحُ: صَدَحَ الرّجل يَصْدَحُ صَدْحًا وصُداَحًا: وهو صدّاح وصدوح وصَيْدَحٌ: رفع صوته بغناء أو غيره، والقَيْنَة الصّادحة: المُغنّية. (اللّسان 2049/4).

4 الباغم: بَغَمَ، بُغَامُ الظّبية: صوتها، بغمت الظّبية تَبْغَمُ وتَبْغِمُ وتَبْغُمُ بُغامًا وبُغومًا. وهي بَغُومٌ: صاحت إلى ولدها بأَرْخمِ ما يكون من صوتها. (اللّسان 320/1).

وتأليفه هذا هو الذي بعث الهِمم على التَّأليف في الأمير المذكور لأسبقيَّة هذا التَّأليف على بقيَّة التَّآليف فيه، وإن كان من نوعٍ خاصٍّ، وهي كذلك لها طريقة غير طريقته إلاَّ أنَّ السَّابق للتَّأليف في الأمير حسين هو الشَّيخ سعادة "بقرَّة العين" هذا.

3) **نظم مناسك الحجِّ** سمَّاه: "تحفة المعتر من حاجٍّ أو معتمر"، وهو نظمٌ بديعٌ نوَّه من وقف عليه من مترجميه.

وهذا هو التَّأليف الوحيد الذي له في الفقه ممَّا يدلُّ على أنَّه لم يشرب قلبه حبّ الفقه، وإنَّما أُشرِب العربيَّة.

والتَّنويه بهذا من متذوِّق للأدب يدلُّ على أنَّه نظمٌ سلس ألمَّ بأحكام الحجِّ في قالب سائغ.

مطارحاته

طارح المترجَم بعض أشياخ العصر وطارحه الأدباء، فكانت منه مطارحات ومساجلات أدبيَّة لطيفة، وهذه ميزة له تميِّزه عن أكثر علماء عصره الذين يتحرَّجون من الشِّعر، فقد أخذ بطريقة شيخه فتاتة كما تقدَّم، فلهذا كان الأدب متنفّسه يروِّح به ذهنه.

وقد أرسل إلى بعض العلماء في مسألة خاصَّة شعرا وأجابه كذلك، وهذا نوع من الأدب اللَّطيف، والمرسل إليه بهذا هو العالم الصَّالح محمَّد الصَّغير داود[1] من رجال القرن الثَّاني عشر كان جامعًا بين الحقيقة والظَّاهر ينظم الشِّعر الجدِّي، وقد خمَّس البردة.

وهذه الأبيات التي أرسل بها المترجَم:

---

1 الشَّجرة، ص 326، وله ترجمة مطوَّلة في الذَّيل، ص235-239.

إليـــك قطـــبَ النُّهـــى ســـــؤالٌ نحـــاك شــــخصٌ بـــه وأمـــــــم
فأنــــت كـــــشّاف مــــشكــلات وأنــــت في عــــصرنا المقــــــدَّم
وذاك قــــول الـــورى لـــشخصٍ إذا يُـــصاب الفتَـــى ويـــسقــم
(آجــــــرك الله في مــــــصـــــابٍ مـــا دفـــع الله كـــان أعظــــم)
هــــل ذا صــــحيحٌ وذا بنـــــصٍّ أثبـــت في كتـــبِ مـــن تقـــدَّم
عبــــدُكم قـــال ذاك لمَّــــــا دهـــاه خطـــب بـــه تألَّـــــم
وقلبـــه منـــه فيـــه شـــــيءٌ ببـــادئ الـــرَّأي لا يـــسلـم
أجِـــب فـــلا زلـــتَ في المعـــالي تجـــرُّ ثـــوب التُّقـــى وتكـــرم

فأجابه الشَّيخ الصَّغير داود بقوله:

إنَّ الجواب لمـــن توهَّـــــــم يبـــدو إذا مـــا الفـــتى تفهَّـــــم
إذ كـــلُّ خطـــب وإن تناهـــــى في غيـــب مبديـــه منـــه أعظـــم
وكونُ هـــذا مكـــانُ هـــــــذا عـــين الـــدِّفاع فـــلا توهـــــم
يقول مـــن قـــال للتـــسلِّــــي (ما دفـــع الله كـــان أعظـــم)
صحيح معنى لكـــلِّ حبـــــــر يقال نشـــرًا نعـــم وينظـــم
وفي حديث (لـــو اطَّلعتـــــم) إلى تمـــام الحـــديث مغنَـــم
يفيد من يبتغـــي جوابًـــــا وحـــسبنَا الله وهـــو أعلـــم

وراسله العصفوري في مسألة العمري نظما، وأجابه كذلك، وراسله الغراب نظما كما تقدَّم في ترجمة الغراب فأجاب:

حمدا لمـــن زان الوجـــود بعـــصبـــة فـــضلاء في حـــلِّ العـــويص وقـــادة

تقريظ الحلل السندسيَّة

وقفت له على تقريظ المقامات المسمَّاة "بالحلل السندسيَّة" لعلاَّمة أديب وهو أحمد بن عبد الحيِّ الحلبي الفاسي.

وصاحب المقامات معدود في طالعة أدباء المغرب البارزين، وقد نوَّه به محمَّد بن الطَّيب العلَمي الفاسي[1] في كتابه: "الأنيس المطرب فـــيمن لقيـــه

1 ولد بفاس وتوفِّي بالقاهرة سنة 1034هـ/1625م. (الأعلام 46/7).

مؤلِّفه من أدباء المغرب"[1]، وهو حقيق بذلك لما ٱمتاز به من الأدب الغزير، ولما قاله في الجانب النَّبويِّ من أمداح تنبئ عن محبَّة صادقة في هذا الجانب الكريم.

نشأ بحلب ثمَّ غادرها مفارقًا للأهل وحلَّ بفاس مستوطنا لها كما أشار نفسه إلى ذلك في المقامات المذكورة، وجاء تعريفا له في "الأنيس المطرب" فهو الحلبي الفاسي، فحلب منشؤه وفاس مقرُّه.

ولَّما حلَّ بالمغرب لقي من الحسدة ما كدَّر العيش، لكنَّه عرف كيف يستدرج هذه العقول الجامحة ويردُّها إلى الجادَّة حتَّى سالموه بعدما حاربوه، وإلى ذلك أشار العلَمي:

"حتَّى حلَّ بدره بفاس حلول الشَّمس في الحمل، فاشتفى بها من جوى التَّبريح، وجاءها بأنواع الأدب بالضحِّ والرِّيح، فكابد من أهلها ما كابد من الحسد، ثمَّ جال فيهم بعقله الأسد، جولان الأسد، فألقوا إليه السّلم، وكلفوا به كلف الحلي بعرب ذي سلم، وأعظموا أمره، وأصغروا دونه زيد الأدب وعمره، وأدُّوا بحرم قصائده حجَّة الإعجاب والعمرة".

وقصر أدبه على المدائح النَّبويَّة فتفنَّن في ذلك أيَّما تفنُّن وجاء بلون من الأدب خاصٍّ به، وهو أنَّه جعل المقامات التي كانت مبنيَّة على الهزل والمجون في الجانب النَّبويِّ، فانتقل بِها من الهزل والمجون إلى المدح الجدِّي.

وقد ٱنتقد على الحريري[2] كيف صرف إجادتهِ وبراعته في الهزل دون أن ينصَرف إلى ما ٱنصرف إليه، ولكنَّه يعترف للحريري بالبراعة الفائقة التي لا يضارعه فيها مضارع، ولكنَّه يحطُّ عليه في جمعه بين الجدِّ والهزل وينتقده في ذلك:

"وخلط الظُّلمة بالنُّور المصون، في جمعه بين الجدِّ والمجون، فلم يبلغ هديه محلَّه، ولا أنزل قدر الأدب محلَّه، إذ جعل الهزل والدعابات له محلَّة، فلم يكن

1 لابن عبد الله محمَّد الطَّيب بن أحمد بن يوسف بن أحمد الشَّريف العلمي. طبعة حجريَّة 1305هـ

2 الشَّحرة، ص 6.

موقِّره ولا مجلِّه، إذ وضع في الهزل جلَّه، ولا ٱتَّخذ عند الحبيب صلّى الله عليه وسلَّم خلَّة، حتَّى يسدَّ من العيوب خلَّة، فليته ما حاص عن هذا ولا حــاد، وليته حين أجاد الصِّناعة جادَ، ترك قطف زهرة العليا، وأكبَّ على قطــع زهرة الحياة الدُّنيا".

وللحلبي الفاسي مؤلَّفات عديدة ذكرها في "الأنيس المطرب" ومن بينها مقاماته وقد سمَّاها: "الحلل السندسيَّة في المقامات الأحمديَّة القدسيَّة".

وقد وصفها نفسه في أوَّل مقاماته:

"أنشأت خمسا وعشرين مقامة، تشتمل على أنوار عرشــيَّة، وأســرار كرسيَّة، وعلوم لوحيَّة، وحكم ربَّانيَّة، وطُرف نورانيَّة، وعجائب ســدريَّة، وغرائب دريَّة، ومواهب ذريَّة، إلى غير ذلك مــن الكمــالات المحمَّديَّــة، والأطوار القدسيَّة الأحمديَّة، ممَّا تقشعرُّ منه جلود العبارات، وتنقطع دونــه أعناق الإشارات".

وقد تواطأ في تسمية هذه المقامات بالحللِ السندسيَّة مع تسمية الــوزير السرَّاج كتابه في تاريخ تونس "بالحلل السُّندسَيَّة"، والأسبق إلى هذه التَّسمية هو صاحب المقامات، ولا نظنُّ أنَّ الوزير السرَّاج لم يطَّلع عليها لاشتهارها بتونس حتَّى قرَّظها الكثير من علمائها منهم فتاتة والمترجَم، ولعلَّ الذي ترك الوزير السرَّاج يأخذ هذه التَّسمية أنَّه أخذها في السَّجعة الأولى دون الثَّانية.

وتوفِّي صاحب المقامات سنة 1120هـــ بفاس التي ٱتَّخذها مقرَّه قال في الأنيس[1]: "وقبره معروف ومقصود للزِّيارة بموضع يقال له مطرح الجنَّة يقابل الخارج من باب الفتوح أحد أبواب فاس بالنَّاحية الأندلسيَّة".

هذه المقامات هي التي قرَّظها المترجَم بتقريظ مطوَّل يــصلح أن يكــون نموذجا من نثره وشعره حيث جمع فيه بين النَّثر والشِّعر، وهو نموذج لم ينشر للمترجَم إذ أنَّ صاحب "عنوان الأريب" ٱقتصر على ما جاء في المفاتح من

1 الأنيس، ص19.

تقريظه شرح الباشا للتّسهيل، وهذا النّموذج علاوة على كونه لم ينشر من قبل هو تعريف بأدب المترجَم، ونصٌّ من آثاره.

جاء في النُّسخة التي نقلتُ عنها تعريفا بالمترجَم ما يأتي:

"هذا ما كتبه الشّيخ الإمام الصّدر الهمام أبو عبد الله محمّد سعادة، مفتي الحضرة العليّة، تونس المحميّة أناله الله الحسنى وزيادة، بمنّه وكرمه آمين.

الحمد لله الذي أطلع من شاء من عباده على رياض الأسرار فاقتطف من غرائب نوره أنوارا، وأورده حياض العرفان فتعلّل من عذب مواردها أسرارا، وملّكه أزمّة البلاغة فلم يسبق في ميدانها، وراض له سبقَ الفصاحة فسطّر بالمعاني من دناها، ووفّقه لاستعمال شرائف المباني، في التّنويه بقدر من أوتي السّبع المثاني، أحمده أن حلّى الأفاضل بحلى الفضائل، وأحلّهم من ذرى الفواضل أعلى المنازل، حمد معترف بأنّ المواهب هو مولاها، ومغترف من أطعمة موائد كرمه أعلاها، ومغترف من بحار جوده أنفس اللّئالي وأغلاها، ومقتطف من ثمار إمداده أطيبها وأحلاها، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له شهادة حلّ يقينها صميم السُّويدا، واجتنب قائلها شركا وميدا، وأشهد أنّ سيّدنا ومولانا محمّدا عبده ورسوله المبعوث في عنفوان الفصاحة والبلاغة فانفرد فيهما بالرِّئاسة، وولج حصن هذا اللِّسان العربيّ فاستخرج غريبه وجاسَه، فخاطب فصحاءهم على اختلاف لغاتهم كلاًّ بلسان عن صبح عرفاته سفر، كقوله ليس من البر امصيام في امسفر، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين جاهدوا معه في الله حقّ الجهاد، المفدين له بالأباء والأمّهات والأنفس والأولاد، والتّابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم المعاد.

وبعد فلمّا منّ الله عليّ بالاطّلاع على غرائب هذا المؤلّف الذي علَت السّماكين مقاماته، وكانت من بشائر أشائر علم الغيب إشاراته وعباراته، أنشأ من غدَا بما أبدى صدرا، وحبّر فأبدع من الحلال سحرا، وغاص فاستخرج من معادنِها اللّئالي، وطوّقها أشرف النُّحور فعذب ثناؤه مدى

الأيَّام واللَّيالي، الشَّيخ الإمام العلَم الهمام، محيي رسوم البلاغة بعد ٱندراسها، الباحث بجيد فكره عن قواعدها وأساسها، بلبل الأدب المطرب بمحاسنه النُّفوس الزكيَّة، والملبس ذويه من نفائس خلعه الحلل السُّندسيَّة، في المقامات الأحمديَّة القدسيَّة، المفرد فيما وشَّى من البدائع العلم، والمعجز بما نمَّق من شرائف الحكم، الذكيُّ الأوحد، سيِّدي أبي العبَّاس أحمد بن عبد الحيِّ الحلبي منشأ ودارا، الفاسي رحلة وقرارا، سقى الله ثراه وابل فضله الهتان وحشرنا وإيَّاه في زمرة السَّادة الأعيان، ألفيته يشير بمبانيه، إلى مخدَّرات معانيه، ويقسم بمثانيه لمعانيه ألاَّ يلج خدرها أويعرف قدرها".

" فقلت: أين لضعيف البضاعة أمهار الغانيات ما يساويها، وهل يلحق الأعرج السِّباق أو يقاويها، وجنح عن هذا المنحى طِرفي، – بكسر الطَّاء، الكريم من الخيل – وأغض حياء من التطفُّل طرفي، - بفتح العين- ثمَّ تأسَّيت بأنَّ العاجز قد يرقى بالتأنِّي طودا، وأنَّ العرجاء قد تسبق غيرها عودا، فولجت ميدانه الفسيح، وٱختبرت جياده ٱختبار الشِّيح، - بالكسر نبات طيِّب الرَّائحة ينبت في بلاد العرب، والمتبادر أنَّ المراد به غير هذا وهو الجادُّ في الأمور – فألفيت فيه من نفائس العبر، وما ستره الله عمَّن عبر.

وقلت هذا رياض الأدب الذي تنوَّعت أثماره، ومعدن الفضل الذي ٱرتفع على غيره نضاره، وشرف بشرفِ موضوعه محتده ونجاره، وٱقتنص مؤلِّفه الشَّوارد فأحكم ٱقتناصها، وعثر علَى ملتقطات الأوائل فعرف وكاءَها وعفاصَها، - أشار بهذا إلى ما يذكره الفقهاء من أنَّ اللُّقطة تردُّ وجوبا بمعرفة العفاص والوكاء، والعفاص الوعاء من جلد أو خرقة تكون فيه النَّفقة، وسمِّيت عفاصا أخذا من العفص وهو الثني، والوِكاء بالكسر رباط القربة وغيرها كالوكاء والكيس والصرَّة، وهذا إشارة إلى الحديث الذي رواه الستَّة إلاَّ النَّسائي عن يزيد مولى المنبعث قال: سمعت زيد بن خالد رضي الله عنه يقَول: سئل رسول الله صلَّى الله عليه وسلَّم عن لقطة الذَّهب أو الورق فقال: ٱعرف وكاءها وعفاصها، ثمَّ عرِّفها سنة فإن لم تعرف

فاستنفقها ولتكن وديعة عندك، فإن جاء طالبها يوما من الدّهر فأدّها إليـــه، ووقع هنا عقاصها بالقاف دون الفاء، وهو لا شكّ تحريف من النّاسخ لأنّ العقاص خيطٌ يُشدُّ به أطراف الذّوائب، ولا يصحُّ هنا – فأنفق من غرائبها ما شاء، وصدع ببلاغة ذلك الإنشا الحشَا، إن نثر أعجـــب مـــن بلاغتـــه وأغرب أو نظم أرقص وأطرب - لا يبعد أن يشير إلى كتاب ٱبـــن ســـعيد المسمَّى "بجامع المرقِصات والمطربات وما يعنون به عن سائر الطّبقات"-.

أقسم من فقرات نثره العديمة السّوى، بالنّجم إذا هوى، ما ضلّ صاحبه وما غوى وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ إلهام من خالق القُوى، – ٱقتباس من أوّل سورة النّجم (53) الآيات (1–4) وقد غيّر في الآية الرّابعة الـــتي لا تكون إلاّ للنّبي صلّى الله عليه وسلّم إذ هو الذي يصدق عليه قوله تعـــالى: ﴿إنْ هُوَ إلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾، وٱنتقل بها من الوحي إلى الإلهام الذي جاء بـــه الحلبي في مقاماته، وكذلك أبدل في الفقرة الثّانية صاحبه بـــدل صـــاحبكم الذي جاء في الآية-.

ومن قوافي نظمه الذي راق وفاق بالسّبع الطِّباق، أنّه العديم الـــنّظير في الاتّساق، – أشار في هذه الفقرة إلى نظمه الرّائق، بعدما أشـــار في الفقـــرة السّابقة إلى نثره العديم النّظير، وأقسم على ذلك بالنّجم إذا هوى كما أقسم القرآن الكريم-.

فيا لها من مقامات يعترف من رآها أنّ لها في الفضائل مقامًا معلومًـــا، ويقضي قضاء مبرما محتوما – اقتبس في السّجعة الأولى من هذه الفقرة مـــن قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾ من سورة الصافات (37) الآيـــة (164)، والمقام المعلوم المنزلة والتّقريب والتّشريف-،

مقامـــات تجـــلّ عـــن النّظيـــر   حوَت مدحًا لـــذي الـــشّرف الخطـــير
وفاقـــت في المعـــاني إذا تبـــدّت   حلى المختار فيهـــا كالبــــــدور
مُحمَّـــد الـــنبي الأمِّـــــيُّ طـــه   شفيعُ الخلقِ في يـــوم النُّـــشـــور

-يُقرأ النَّبي بالتَّخفيف أي بحذف الشدِّ الذي على الياء وبحذف الحركة ليستقيم وزن هذا الصَّدر- .

جزى الله أبا العبَّاس خيرًا وأسكنه الفسيح من القصور
لقد أحيا (بسندسه) قلوبًا وحطَّ نسجُه نسجَ الحرير

-السُّندس ضربٌ من نسيج البزِّ، وأشار به إلى المقامات المسمَّاة "بالحلل السندسيَّة"-.

فيا لله ما ألطف نسيم رياضها الباسق، وأشدَّ عطر زهرها النَّاشق وأحلى ثمارها اليانعة، وأترع حياضها الواسعة، لو قرعت بلاغتُها أُذن الحريري لفداها بالعين، ولأعترف بأنَّ مقاماته خيال وهذه العين، - المراد بالعين الأولى الباصرة، وبالعين الثَّانية ذات الشيء ونفسه، يقال: هو هو بعينه، ولا آخذ إلاَّ درهمي بعينه، فمقامات الحريري خيال وهذه حقيقة، أثاب الله مؤلِّفها على هذا الصَّنيع العجيب الحسن، وأسكنه من الفردوس المقام الأسنى، فلقد طوَّق أشرف الأجياد أنفس الفرائد وقدَّم لأرفع جناب أطيب الموائد، - مراده بتطويق أشرف الأجياد هو أنَّ المقامات هذه مخصوصة بالمقامات النبويَّة كما أسلفنا تقدمة لهذه المقامات -.

وأسند لدرك الغواص هذه الأخبار، واكتسى جلد الأسرار من أبي الأنوار، - أشار بمدرك الغواص وأبي الأنوار إلى الشَّخصين اللذين بنى الحلبي عليها مقاماته — فهي سماء البلاغة النيِّرة البروج، وطالع الاهتداء في اللَّيل الديجوج — المظلمة من اللَّيالي تجمع على دياجيج —

مقامات غدت تسمو وتزهو بطالع فخر ذي الشرف البهيج
تنشق قارئيها من حلاها شذا عطر من الطِّيب الأريج
سماء بلاغة حرست بشهب لترمي من تطفَّل للعروج
أقرَّ لها الأكابر إذ رأوها بأنَّ لها الفخار سوى اللَّجوج
فهل هذا الحلال اللَّذ تصفى من العاهات والأمر المريج
كما أبدى غرائب ترّهات وأملى عن أبي زيد السّروج

لا والعالم بالسَّرائر، ما هذا إلا متنافس الأكابر، ونبراس ذوي الأشائر ومغناطيس العارفين ذوي البصائر، وغيره من شقائق الأصاغر الدُّنيا، المعنطرفة (المغطرسة) بينهم في الحياة الدُّنيا.

لله درُّ أبي العبَّاس من رجل ... كيف ٱمتطى ذروة العلياء منفردا
لَّما رأى هذه الدُّنيا معرضة ... إلى الزَّوال نَحَا في المدح كي تر هدى
وأمَّ باب إله العرش كي يردن ... من حوضه ويرى من فضله مددا
فسوف يحظى بما قد رام مكتسبا ... من فضل نور رسول الله خير ردا
ومن يكن بمديح المصطفى ولعا ... فسوف يلقاه يوم الحشر معتمدا

فرحم الله صاحب هذه المقامات الطَّاهرة ووالى عليه نعمه الباطنة والظَّاهرة.

سقى الله الضريح لكم وحيا ... وطاب لك الثَّنا ميتا وحيًّا
لقد أسكرت أهل الفضل صرفا ... بما علَّلت من تلك الحميا
وعطَّرت المحافل من ثناء ... به أصبحت فيه العبقريا
وصغت من المعاني كلَّ فخر ... حلاه يفوق نسجا عبقريا
وأبرزت العذارى من خدور ... لتهديها جنابًا أحمديا
فأصبح سناها البشر يبدو ... وأضحى العطر فيها عبقريا
ستحظى بالجوائز من رسول ... غدا في حشرنا الكهف القويا
وإنِّي من مديحي فيك أرجو ... نوالاً من عطاياه وفيا
فمن شأن الكرام إذا أجازوا ... لمادحهم أجازوا التَّابعيا
أبا العبَّاس يا حلبي أضفني ... فقد أرضى بصحبتك المعيا
فأنت في الدنا قد كنت كهفا ... من الفضلاء وفكرا المعيا
وفي الأخرى تكون كذاك أيضا ... بما طوّقته ذاك السريا
وإن سمح الزَّمان وجئت أرضا ... بها رمس لكم غضًّا طريا
لثمت مواضعا وطئت بنعل ... لكم منها وعفَّرت المحيا

موازنة

حاكى في هذا التَّقريظ المتقدَّم الطَّويل الذَّيل شيخه محمَّد فتاتة، وهــذا يؤيِّد ما ذهبنا إليه في أوَّل هذه الحلقات من أنَّه يقتفي آثار شيخه المذكور، ويتقيَّد بأصوله الحياتيَّة في العلم والأدب.

وكما ٱقتفى آثاره من حيث التَّكوين العلمي والأدبي، كذلك يسايره في بعض جزئيَّات منها هذا التَّقريظ الذي إذا قابلناه بتقريظ فتاتة نجده يــسايره مسايرة تامَّة من حيث الإعجاب بالمقامات الحلبيَّة فكما أنَّ فتاتة أعجب بها كذلك أعجب بها المترجَم وكلٌّ منهما مدحها وأطنب في مدحها، وحمــل حملة شعواء على الحريري، وختم تقريظه بقصيد.

ولو أضفنا علما ثالثا وهو الشَّيخ زيتونة نجد البون شاسعًا بــين هــذين التَّقريظين وبين تقريظ الشَّيخ زيتونة الذي كان تقريظا عاديًّا، بخلاف هذين فقد تأنَّق فيهما غاية التأنُّق وجمع فيهما بين النَّثر والنَّظم ولم يكن النَّظم مجرَّد قطعة أو قصيدة بل تعدَّدت الأنظام في كليهما متخلِّلة للنَّثر.

وشأن هذه التَّقاريظ التي تجمع بين النَّظم والنَّثر ويحتفل لها ويتأنَّق فيها أن تكون لذوي الجاه العريض كمثل تقاريظ كتاب "شرح التَّسهيل" لعلي باشا الذي حفظ لنا الكثير منها العياضي في كتابه "مفاتح النَّصر"، لكــن فتاتــة وسعادة لم يكتبا لأمير أو ذي جاه دنيويٍّ عريضٍ، وإنَّما كاتبا لعالم مثلهما في الكتابة العلميَّة، وإنَّما خصَّاه بذلك لأنَّه كتبها في غاية شــريفة وهــي المقامات النبويَّة، فلذلك أطلقا العنان لقلمهما فنثر ونظم وأبدع كلٌّ منهما فيما حبَّر.

فلو أنَّك أخذت ما كتبه المترجَم على هذه المقامات وما كتبــه فتاتــة لوجدته يتبعه في الجزئيَّات فكلُّ ما أتى به فتاتة من فقرات أتى به المتــرجَم وحاذاه محاذاة دقيقة حتَّى أنَّه في بعض القطع الشعريَّة يعارضه كما يعارض الشُّعراء بعض القصائد المشهورة مثل:

يا ليل الصبُّ متى غده

فسعادة يأتي بقطعةٍ في مدح المقامات المذكورة وهـي الـتي يقـول في مطلعها:

مقامات تجـلُّ عـن الـنَّظير حـوت مـدحًا لـذي الـشَّرف الخطـير

ونجده في هذه القطعة يعارِض قطعة لشيخه المذكور وهي:

مقاماتٌ مـن التِّـبر المـصفّـى ومـن درّ حكـى درّ النُّحـور
تـضمَّنت اجـتلاء حلـى حبيـب سما نـورًا علـى البـدر المنـير
فـأحرزت الكمـال بـلا امتـراء وحـازت رتبـة الـشَّرف الخطـير
وإذ كانـت كـذلك أيّ فـضل يـضاف إلى مقامـات الحريـري

فإذا رجعت إلى قطعة المترجَم التي ذكرها سابقا، رأيته يقتفي خطواته في هذه القطعة.

بقي أن نوازن بين القطعتين قطعة فتاة وقطعة سعادة فمثلا كلٌّ منـهما أراد أن يجعل التفوُّق للحلبي على الحريري لأنَّ الأوَّل اجتلى فيهـا الحلـى النبويَّة بخلاف الأخير فإنَّه أنشأها تفكهة، وفي بعضها من المجون مـا هـو معلوم.

يقول فتاة في ذلك:

تـضمَّنت اجـتلاء علـى حبيـب سمـا نـورا علـى البـدر المـنير

ويقول سعادة في ذلك:

وفاقـت في المعـاني إذ تبـدّت حلـى المختـار فيهـا كالبـدور

فبان أنَّ بيت سعادة في إفادته المعنى المذكور كان أبلغ حيـث صـرَّح بتفوُّقها على مقامات الحريري بقوله: وفاقت، بخلاف بيت فتاة لا يفيـد التفوُّق إلاَّ بعد ربطه بالبيت قبله.

ثمَّ إنَّ سعادة أفاد أنَّ الحلى التي أتى بها الحلبي قد ظهـرت كالبـدور، بخلاف البيت الآخر فإنَّه مدح صاحب الحلى صلَّى الله عليه وسلَّم ذاته.

وبعد هذا كلِّه إذا أخذنا البيتين ووازنَّا بينهما من حيث الجرس الموسيقي الشِّعري نجد أنَّ بيت سعادة فيه من ذلك ما لا يوجد في بيت فتاة.

والمترجَم وإن أدَّى ما أدَّاه شيخه في البيت الأخير من قطعته حيث يقول:

لقد أحيا (بسندسه) قلوبًا وحطَّ نسجه نسج الحرير

وكان هناك تقارب بينهما حتَّى أنَّ القافية تكاد تكون واحدة، لكن المترجَم كان أقعد في إفادة هذا المعنى وهو أنَّ هذه المقامات الحلبيَّة سلبت فضل مقامات الحريري حيث أفاد هذا المعنى بطريق التورية مع التَّصريح باسم المقامات من جهة التورية أيضا، ففتاتة يقول ما مفاده وإذا كان الأمر كذلك فأيُّ فضل يضاف إلى مقامات الحريري بينما سعادة يقول: لقد أحيا بالسُّندس وهو البزُّ قلوبا لكنَّه ورَّى به عن المقامات المسمّاة بالحلل السندسيّة، ثمّ أفاد أنَّ نسج السُّندس حطَّ نسيج الحرير.

ثمَّ إنَّه في القافية ورَّى بالحرير عن الحريري صاحب المقامات، فالمعنى القريب في القافية هو الحرير المعروف والمعنى البعيد هو الحريري.

فشتَّان بين بيت المترجَم والبيت الآخر، إذ هذا الأخير يكاد يكون كلامًا عاديًّا بخلاف بيت المترجَم فإنَّ فيه من الصِّناعة الأدبيَّة ما وضَّحناه.

لكن فتاتة وصل قطعته بما أعطاها من طرافة بخلاف سعادة فإنَّه اكتفى بمعارضة القطعة و لم يصلها بشيء طريف مثل شيخه. والذي وصل به فتاتة قطعته هو: ولا أقول كما قال بعضهم:

إنَّ الحريري حريٌّ بأن تكتب بالتِّبر مقاماته

بل أقول:

إنَّ الحريري حريٌّ بأن تترك إهمالاً مقاماته
لأنَّه لم ينشِها في حلى من أشرقت كالشَّمس آياته
(محمَّد) ذي المعجزات الذي لم تنحصر عدًّا كمالاته
ومن ترجَى يوم جمع الورى في موقف الحشر شفاعاته
فهو الذي من أمَّ أعتابه بانت بلا شكّ سعاداته
ومن يمل عن بابه للسوى فذاك قد خابت تجاراته
سيقرع السن الحريري على أن لم تكن فيه بلاغاتهُ

فــذاك فــضل الله ذاتـــــا لـــه والله لا تحـــــصى مثوباتـــــــه

ومع هذه الحملة على الحريري من المقرظين للمقامات الحلبيَّة حتَّـــى أنَّ فتاتة قال: الحريُّ أن تترك مقامات الحريري لا أن تكتب بالتِّبر، فإنَّ الحلـــبي صاحب المقامات نفسها كان في موقفه مع الحريري في غـــير موقفهمـــا إذ ٱكتفى بتمنِّي لو أنَّ الحريري لم يسر في طريقته المُجونيَّة.

كما ٱعترف للحريري بالبراعة الفائقة في العلوم الأدبيَّة والتَّبريز فيهـــا إذ يقول:

"وهذا ما علمي بأنَّ الرَّئيس أبا محمَّد القاسم، ليس له في العلوم الأدبيَّـــة من مقاسم، وإن ألجأتني إلى مصارعته مضارعته، فإنَّـــه لا تخفـــى نباهتـــه وبراعته.

هو الآية الكبرى وحامـــل رايـــــة العجائب في بدو الـــبلاد وفي حـــضر
له سجدت أفكار أهـــلِ نباهــــةٍ وهل مثلُ هذا فِي ربيعــــة أو مــضــر"

تقريظ الشَّرح الباشي

كما قرَّظ المترجَم الحلل السندسيَّة كذلك قرَّظ كتاب "شرح التَّسهيل" لعلي باشا المتوثِّب على الملك بعد واقعة سمنجة[1] سنة 1148هـــ مــشاركًا لعمِّه الذي تحصَّن بالقيروان إلى أن تمَّت له الإمارة بمقتل عمِّه سنة 1153هـــ، وتمتَّع بالإمارة إلى سنة 1169هـــ.

كان هذا الأمير موصوفًا بالعلم والتَّأليف وقد ألَّف شرحًا على كتـــاب النَّحو الشَّهير وهو "التَّسهيل" لٱبن مالك جمال الدِّين محمَّد بـــن عبـــد الله (-672هـــ) الإمام في النَّحو والقراءات، وهو من أعظم نحاة القرن الـــسَّابع ولم يبلغ أحد شهرته وكان كثير الإنتاج.

وكانت كتبه المدرسة النحويَّة من الألفيَّة والكافية إلى التَّسهيل وهو كتابه الذي لخَّص فيه كتابه المسمَّى "بالفوائد والمقاصد"، ومن أجل ذلـــك سمَّـــاه

1 سمنجا وسمنجة قرية في جهة زغوان بتونس.

"تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد"، والاسم المشتهر هو الاسم المختصر لهذا الكتاب.

ومن أجل هذا ٱشتهر شرح الباشا "بشرح التَّسهيل"، وهناك شروح عدَّة لهذا الكتاب منها: شرح ٱبن مالك نفسه الذي أتمَّه ولده بدر الدِّين، ومن شروحه المشتهرة التَّامَّة شرح بهاء الدِّين عبد الله بن عبد الرَّحمان بن عقيل (-769هـ).

وكتاب "التَّسهيل" قد هجره الدَّارسون للتوسُّع الكبير الذي توسَّعه ٱبن مالك فيه فهو من أمَّهات كتب النَّحو، وهُجِر من أجل الميل إلى ما هو أقلُّ كلفة في تدريسه وإلى ما هو أخصرُ من غيره.

ولكن الباشا على أيَّة صورة قد أحيا هذا الكتاب وأظهره بعد أن كان في طيِّ النِّسيان، فله في ذلك يدٌ لا تنسى تدلُّ على سموِّ نفسه العلميِّ إذ لم ترض بما هو أقلُّ منه مثل الألفيَّة التي عكف المدرِّسون عليها إمَّا بتأليف الشُّروح أو الحواشي عليها، ومن جملة الكاتبين المترجَم، وإمَّا بتدريسها، وقد قرأ هذا الكتاب على شيخه أبي عبد الله محمَّد الخضراوي (-1144هـ).[1]

وقد جمع الباشا شرحه من تقارير شيخه المذكور وسمَّاه: "بدفع الملمِّ عن قرَّاء التَّسهيل لجلب المهمِّ"، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الوطنيَّة، ومنهم من يذكر أنَّ هذا الشَّرح في الحقيقة لشيخه وسمَّاه "بديع الملمِّ عن قرَّاء التسهيل لجلب المهمِّ" والذَّاكر لذلك ٱبن عبد العزيز، وبأيَّة حالٍ فإنَّ الباشا كما أحيا هذا الكتاب أوجد حركةً أدبيَّةً بتقاريظه حتَّى أنَّ العياضي بنى كتابه في التَّعريف بعلماء العصر على الآثار الأدبيَّة التي جاءت تقريظًا للشَّرح الباشي:

1 عالم عارف، جامع للعلوم، أحيا ما دثر من المعارف، أخذ عنه الجم الغفير، وهو من مشاهير ناشئة العلم في عصره بتونس (عنوان الأريب 491/1).

"لمَّا شرح مولانا السُّلطان أبو الحسن علي باشا متن التَّسهيل المتقدِّم الذِّكر قبل هذه التَّرجمة أجازه فيه علماء عصره سنذكر إجازتَهم في التَّعريف بهم إن شاء الله تعالى".

ومن هؤلاء الذين قرَّظوا هذا الكتاب المترجَم، وما كتبه على الشَّرح الباشي قد عرَف بعضه النُّور في "عنوان الأريب"، وسنذكر هذا التَّقريظ كاملاً تعريفًا بأدبه حيث أنَّه ٱحتفل به وضمَّنه من شعره قصيدتين ذكرت إحداهما في العنوان[1] والثَّانية حذفت طلبًا للاختصار وسنذكرها مع أختها.

وقد جاء هذا التَّقريظ كاملا في "مفاتح النَّصر" للعياضي المخطوط، وقد ٱعتمدت في نشره على ما جاء في الكتاب المذكور مقابلا على ثلاث نسخ، وبعد نشرنا لهذا النَّص نذكر تحليلا له.

وخالف المترجَم عادته في التَّقريظ المتقدِّم هنا حيث أدخل فيه الصَّنعة اللفظيَّة بكثرة، فما أخلى منه النصِّ المتقدِّم أتى به في هذا النصِّ، ويرجع ذلك إلى أنَّه لم يكتبه كما كتب المتقدِّم لرغبة نفسيَّة خاصَّة بل كتبه إرضاء للأمير علي باشا فلا بدَّ أن يتقيَّد بالصِّناعة اللَّفظيَّة حتَّى يجد مساغه في ذهن من كتبه إليه، وحتَّى يكون بين أترابه من الكتابات التي تقدَّم بها أصحابها علَما فردا لما تقرَّر في الأفكار من أنَّ البراعة إنَّما هي في الصِّناعة اللَّفظيَّة.

وكذلك خالف أسلوبه المتقدِّم في النصِّ المذكور، وقلَّد في هذا الأسلوب الشَّيخ الخضراوي حيث لم يجعله فقرًا نثريَّة متلوَّة بقطع شعريَّة كما هو مذكور فيما تقدَّم، بل بعد المدح النَّثري أتى بقصيدتين أطال فيهما النَّفس.

وقد كان في مدح الكتاب في نثره غير مغال نسبيًّا ممَّا يدلُّ على أنَّه يعتزُّ بقلمه فلا يسرف إسرافا يخرج به عن حدود المعقول كما يكون في بعض الكتابات التي يغالي أصحابها فيها مغالاةً غير مقبولة.

---

1 عنوان الأريب 1/495-497.

والقطعة النَّثريَّة التي ننقلها تشتمل على ثلاثة عناصر:

أ- خطبة التقريظ

ب- بيان الاحتياج إلى العربيَّة

ج- مدح الشَّرح الباشي مذكِّرا أنَّه ورد عليه في زمنٍ يظنُّ فيه أنَّ ليل الجهل مُدْلَهِمٌّ، وهذا ما قدَّمه من النَّثر على الشِّعر في كتابته على الشَّرح المذكور:

"الحمد لله الذي أحيا موات رياض الأدب بعد أن يبست ثماره اليانعة، وأترع رياض عرفانه بسلسبيل عيون المعارف النَّافعة، وأبدع بما أطلع من كمام نور أزهاره من الأنوار السَّاطعة، أحمده أن جعل اللِّسان العربيَّ قانون أسرار المعاني الفارعة، ومفتاح علوم المعاني المنطوية فيها البارعة، وجمع جوامع تلخيص البيان وأساس البلاغة الهامعة، ومعدن لآلئ قاموسها المحيط بلغاتها الجامعة، وخصَّه بين الألسن بتسهيل الفوائد الشَّاسعة، وتكميل المقاصد المستصعبة بإيضاح الأدلَّة القاطعة، وأشكره أن أنار الوجود بورثة أنبيائه الأخيار، وأطلعهم على مخبّآت المعاني وغرائب الأسرار، فٱفترعوا بأفكارهم أبكار معانيها، وٱقترحوا بأفهامهم غراس مغانيها، وطوّقوا أجياد الأفاضل، بلئالئ تلك الفضائل، وهذَّبوا نتائج التَّحصيل تهذيب الأماثل، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له النَّاصب على وحدانيَّته الأدلَّة القواطع، شهادة عبدٍ يعدُّها لمحو أوزاره وفي النَّجاة بها طامع، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّدا عبده ورسوله المخصوص بجوامع الكلِم والكلم الجوامع، صلَّى الله عليه أكرم مرسَل وأجلَّ شافع، صلاة وسلاما دائمين ما سجعت السَّواجع، وٱتَّصل الإعلان بِهما على رؤوس المنابر والصَّوامع، وعلى ذوي الحسب الباذخ النَّاصع، وأصحابه ذوي المناقب الشَّائعة والكرم الواسع.

وبعد، فإنَّ العلوم وإن تباينت موضوعاها، وٱنتشرت مفردات كلِمها ومجموعاها، فعلم العربيَّة منها بمترلة الرَّأس من الجسد، والموضِّح لما ٱنبهم من تراكيبها وشرد، لا يدخل إلى غيره إلاَّ من بابه ولا يعوَّل على فهم معانيه الغامضة إلاَّ بتيَّار عبابه، ولا تقتنص شوارده إلاَّ بشرك أسبابه، ولا يماط نقاب عرائس مخدَّراته إلاَّ بتسهيله ولُبابه، فالخالي منه في زوايا الإهمال طريح، وأنَّى يلتفت إلى من عدم التمييز بين المعتلِّ والصَّحيح، وأدغم أفعل التَّفضيل في تصريف أفعاله، وٱستوى عنده التَّعريف والتَّنكير في موصول أحواله، ولا يرى الحال غالبًا إلاَّ منتقلة، ولا العمدة في هذا الفنِّ مرفوع المترلة.

هذا وقد كنت أظنُّ أن لا يُقدم لحلبته إلاَّ السكِّيت واللَّطيمُ، والمجلِّي في ميادينها لإحراز الخصل عديم، وإنَّ ليل الجهل بقواعده مدلهمٌّ وفرسان بلاغته عدا عليهم الدَّهر المصطلمُ، حتَّى ورد عليَّ هذا الكتاب المعنوَن (بدفع الملمِّ عن قرَّاء التَّسهيل بجلب المهمِّ)، فعلمت أنَّ ذلك الظنَّ لا يصدر إلاَّ عن وهم، وأنَّ الأقدار تنبت الأفاضل ولا تقصر الفضائل على الأوائل، والقطر لا يعدم الأماثل وقد يعقب قطرُ الطلِّ سحُّ الوابل، فعقدت التَّوبة من ذلك لنفسي، وحكمت بتكذيب ظنِّي المسيء وحدسي، وٱلتفتُّ إلى هذا الكتاب الغريب متصفِّحًا مطاويه، مستشرفًا لما كمُن من شريف معانيه فيه، فإذا هو كتاب بهرت أسراره وظهر على غيره خياره، وأشرقت من شموس معارفه أنواره، وطمَا بحرُ معانيه يقذف بالآلي تيَّاره ورياض أدب صدح بلبله وهزاره، وبدا آسه وجلَّناره، وثمار معانيه قطوفها دانية، وبدور مبانيه عن درر النَّحر غانية، تجرُّ بوجازة لفظها الجامع على سائر شروح التَّسهيل مطارف الحسن الرَّائع، تعطي متصفِّحها بأنَّها نتيجة الدَّهر في العصر، وفريدة النَّحر في الفضائل الصَّدر".

قلت:

[السَّريع]

تخجل بدر التمِّ في طلعته ... وتسلبُ النَّاسك من بردته

نتائج أنتج عشقي بِها ... للَّهو ميلاً وإلى صبوته

ورد منِّي عنفوان الصِّبا ... بعد تناسيه إلى جدَّته

طربت من حسن حديث لها ... ما طرب القانون في رنَّته

أو بلبل تَهتزُّ عطفاه من ... زهو فيشدو في عُلى دوحته

أو الهزار المتصابي بما ... يدعوه للتَّغريد في نغمته

وملتُ للتَّشبيب في حسنها ... ميل جميل لحلى بُثنته

واَستهترت لبِّي أريحيَّة ... وصرت كالمفتون في ميتته

وقلت يا منية قلبي صلي ... صبًّا يرى التَّسويف في توبته

حُلاك في الطَّرس أمسك شذا ... أو عنبر قد ضاع في نفحته

أم هي فِي كافور طرس بدا ... تدبيج خيلان على صفحته

قالت وقد سدَّد لي لحظُها ... سهما يحطُّ النِّسر من قنَّته

لولا جنون وهوى غالب ... فيك فما تنفكّ عن هفوته

رماك مزبورٌ لأقلامي الـ ... ـدن بما كالرُّمح في طعنته

هذي نكاتٌ بأدلاَّهَا ... تحمي حمى المنطق من سقطته

تريح من ينظرها منصفًا ... تريع من مال إلى لحدته

يزينها التَّوضيح والجمع والـ ... ـتَّس هيل ما حادت على سنَّته

نمَّقها الباشا عليُّ الذي ... كواكب العلياء من أسرته

فمن يَحُم حول حماها ومن ... ينازع اللَّيث لدى أبوته

لحظتُها حينئذ لحظ من ... ينقد إبريزًا على حكَّته

فراقني من طيِّ طرس لها ... مستعذب قد رقَّ في صنعته

سكرتُ من راووق دنّ لها ... لا تلم الشَّيخ على سكرته

فإنَّه معتقد حلَّه ... مذ قد حلا معناه مع رقَّته

وغبتُ عن حسِّي ومدَّت يدي ... لقطف نور الزَّهر من وجنته

فانتـــــهرتني مـــن مطاولهـــا شـــواهد دلَّـــت علـــى صـــحَّته
وقلن لِي مثلـــك مـــن يخطـــب البـــا شـــا عروســـا علـــى عزَّتـــه
كلَّلـــها بالـــدرِّ مـــن لفظـــه ودلَّ معنـــاه علـــى فطنتـــه
يـــسجد أهـــل النّهـــى مهمـــا تلـــوا تلـــك البراعـــات إلى كعبتـــه
فقلـــت إنِّـــي بـــاذل مهرهـــا روحـــي ومـــالي لعُلـــى عزَّتـــه
فقلـــن إن أعطيـــتَ هـــذا فمـــا نـــراه شـــيئًا في عُلـــى همَّتـــه
وقلـــن إن حاولـــتَ مـــا تـــشتهي لا تلـــم الباشـــا علـــى ســـطوته
فقلـــت كـــلاَّ إنَّـــه ماجـــدٌ يهتـــزُّ لـــلآداب مـــع رفعتـــه
فبـــتُّ أســـتعذب مـــن لفظهـــا تعـــذيب إنـــساني في مقلتـــه
أقـــسمتُ لـــو عاينـــه مـــن غـــدا شـــرحًا لـــه لاختـــال في مـــشيته
عوَّذت مـــن وشـــي حلـــى بـــرده بـــسورة الإخـــلاص في حكمتـــه
ودام في المجـــدِ لنـــا ســـالمًا مـــن نفثـــة النفَّـــاث في عقدتـــه

وقلت من:

[الكامل]

أيَّـــه أحاديـــث الفـــضائل يأفـــل وأنشر من المدح الـــذي قـــد يجمـــل
وأدر بـــأكواب القـــريض محاســـنا بـــين النُّهـــى تـــروى وعنـــه تنقـــل
في وصف جمـــع مالـــه مـــن مـــشبه فيه نكات النَّحـــو أضـــحت ترفـــل
كعـــرائس بـــرزت وماضـــي فعلـــها ســـحر الجفـــون وقتلـــها مـــستقبل
متحلِّيـــات بالفـــصاحة فالـــذي رام العلـــى مـــن حليهـــا يتجمَّـــل
حـــاك النَّـــسيج لهـــا بيـــان إفـــادة في طيِّـــه أو نـــشره يتخبَّـــل
روضٌ بأزهـــار العلـــوم مـــدبَّج نـــور الفهـــوم بنـــوره يتـــهلَّل
وزلال عـــذب بلاغـــة بجـــداول منـــه بهـــا الـــصَّادي يعـــلّ وينـــهل
وأريجُـــه نقلتـــه مـــن دارينـــا إذ مرَّت بـــه ريـــح الـــصَّبا والـــشمأل
ماســـت بـــه الأفكـــار كالأطيـــار إذ ضـــاع الوجـــود وضـــاع المنـــدل
وعـــرت ذوي الألبـــاب منـــه هـــزة كتـــهزُّز العـــصفور إذ يتبلَّـــل

فغدت بلابل وجدهم وذكائهم تشدو بأمداح القريض وتهدل
لا سيَّما ما قد أتاه شيخه العالم النِّحرير ذاك الأمثل
قطبُ الزَّمان (محمَّد الخضراوي) من في وصف ما قد حاز يقصر مقول
وأراني لو وفقت كنت وفقت عن هذيان ما قد جئت لا أتطفَّل
لا سيَّما مثل المؤلِّف من له فضل مديد وافر لا يجهل
وشمائل تروي حديث كمالها أقلامه فيها الصَّحيح مسلسل
وعلى النبيِّ وآله وصحابه أزكى صلاة بالنَّجاة تكفل
ما دامت الأنفاس فوق طروسها بعيون أنوار المعارف تهمل"

جارى في هذا التَّقريظ كما أسلفنا تقريظا آخر وهو تقريظ الشَّيخ الخضراوي الذي ينسب إليه هذا الشَّرح وهو من علماء تونس الجلَّة وقد صدَّر بتقريظه وترجمته العياضي:

"فمنهم – أي من مقرِّظي شرح التَّسهيل – أستاذه الإمام علاَّمة الأعلام، فريد دهره، ووحيد عصره، خزانة العلوم، وصاحب التَّحقيق في الفهوم، الذي انتهت إليه الرِّئاسة في زمانه، ولا تحلُّ عرى المشكلات إلاَّ ببيان بنانه، عديم المماثل والمساوي، سيِّدي أبو عبد الله محمَّد الخضراوي رحمة الله عليه.

توفِّي في ذي القعدة سنة أربع وأربعين ومائة وألف هـ"

وقد اعتذر المترجَم عن هذه المجاراة في التَّقريظ حيث عدَّ ما أتى به من قبيل الهذيان كما في القصيدة الثَّانية التي ضمَّنها مدح الشَّيخ الخضراوي علاوة عن الاعتذار.

وكما حاكى في تقريظ الحُلل شيخه فتاتة محاكاة دقيقة كذلك في هذا التَّقريظ فإنَّه ماشى الشَّيخ الخضراوي مماشاة مثل التي مع الشَّيخ فتاتة، حتَّى أنَّه أتى بقصيدتين كما أتى الخضراوي، وتكاد تكون قصيدته الأولى عين قصيدة الخضراوي في البحر والمعنى والقافية فهما من البحر السَّريع، وكذا في القصيدة الثَّانية حاكاه في البحر.

وقصيدة الخضراوي التي حاكاه فيها المترجَم يقول منها:

لله نسج فاق في صنعته | نسج دمشق الشَّام مع غوطته
قد كتب الحسن على طَرزه | هل مغرم يحظى بأمنيته
سكرت من وجدي به هائما | سكر ٱمرئ قد تاه في حيرته
سلوبه المحزون عن حزنه | كذا غريب الدَّار عن غربته
يذكر المشتاق عهد الصِّبا | ينفس المكروب عن كربته
لازال من أبدى لنا صنعه | محروس دهر من أذى نوبته
تبدي لنا أبحاثه ما علا | من درٍّ لفظ فاق في حكمته
ما رنَّحت غصن النَّقا نسمة | وغرَّد البلبل في أيكته

وطالع الثَّانية:

قسمًا بما أبداه من تحقيقه | في حلِّ مشكله ومن تدقيقه

دراسة وتحليل

كان هذا التَّقريظ كالتَّقريظ السَّالف للحلل مشتملا على خطبة كأنَّها خطبة كتاب، وتحتلُّ خطبة التَّقريظ نصف النَّثر الذي ٱستهلَّ به فهي أشبه بخطَب الكتب لطولها، ولو نظرنا بعض الكتب للمكثرين لا نجد خطبها تتجاوز بضعة أسطر بينما هذه الخطبة وأختها يحتلاَّن مكانا بارزا.

ولو أردنا أن نقايس بين هذا الصَّنيع وما جرى عليه المقرِّظون لكتب أخرى لوجدنا أنَّ هناك بونًا، فمثلا نأخذ شرح الألفيَّة لمحمَّد بن حسين بن علي منتشالي التُّونسي السليماني فإنَّه ٱختصر شرح الأشموني على الألفيَّة وعرضه على التَّقريظ فكتب عليه جماعة من المعاصرين، وكذلك عرض شرحه للأزهريَّة فكتب عليه المذكورون، ومن الكاتبين محمَّد ماضور الأندلسي الذي تقدمت ترجمته، فنجد أنَّ الذي كتب عليه لا يطوِّل في خطبته مثل هذا التَّطويل إذ يقول في تقريظ الكتاب وإجازة مؤلِّفه:

(حمدًا لأكرم محمود وخير مجيز، وصلاة وسلاما على من خصَّ بالشَّرع الفصل والقول الوجيز، وعلى آله وأصحابه، وأنصاره وأحزابه، الحائزين منصب السَّبق في مضمار الحصر والتَّجويز، وبعد الخ...)

فهذه الخطبة غاية في الاختصار بالنِّسبة لخطبة المترجَم سواء في تقريظ الحلَل أو التَّقريظ الباشي، اللذين إذا قايسناهما بالخطب الجمعيَّة كانا إليها أقرب.

ولم ينفرد في هذه الخطبة التي هي إلى الكتب أقرب منها لغيرها، بل سبقه كذلك الشَّيخ الخضراوي الذي نأتي على خطبة تقريظه حتَّى يتبيَّن أنَّ المترجَم جاراه كذلك في هذه الفاتحة، وما أتى به الخضراوي أتى به المترجَم.

"الحمد لله الذي زيَّن العالمين بالعلماء وجعلهم لهداية الأنام أنجما، وجعل نور علمهم يهتدى به في غياهب الجهالات، كما يهتدى بأنجم السَّماء في دياجي الظُّلمات، أحمده سبحانه وتعالى أن جعل علماء الأمَّة المحمَّديَّة كأنبياء بني إسرائيل وجعلهم ورثة الأنبياء ووعدهم بالثَّواب العظيم والأجر الجزيل، ونشكره على ما أودع في أصداف الكلم، من فرائد المعاني وجواهر الحكم، وأسرج (مصباح البيان) في مشكلات اللَّفظ المنبهم، فلاح معنى اللَّفظ لسامعه بعد ٱنبهامه كنار على علم، ونشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ محقِّقٍ في إيمانه، مخلصٍ في عرفانه وإيقانه، ونشهد أنَّ سيِّدنا محمَّدا عبده ورسوله سيِّد العرب والعجم، المبعوث لسائر الأمم، المخصوص بجوامع الكلم وبدائع الحكم، صلَّى الله عليه وعلى آله الذين لا يعتري الكسوفُ بدرَ حسبهم الكامل، ولا يُخلق جدَّته توالي البكر والأصائل، وأصحابه فرسان اللِّسان العربي المبين، الحائزين منه كلَّ أسلوب غريب ومعنى متين، صلاة وسلاما أزكى وأذكى من شذا الأزاهر ما غرَّدت حمائم الأقلام والعنادل، فوق رؤوس أغصان الأنامل، ما ملئت الكتب والدفاتر، وأعربت عمَّا ٱنبنت عليه مشكلات الضَّمائر".

ترى الخطبتين متماثلتين حتّى في التورية، فكما ورَّى الخضراوي بكتاب بيانيٍّ ورَّى المترجَم بكتب بيانيَّة.

والكتاب الذي ورَّى عنه الأوَّل هو "المصباح في البيان" الذي ٱختصر فيه بدر الدِّين محمَّد بن محمَّد بن مالك الجيَّاني الدِّمشقي (–686هـ) "المفتاح" وسمَّاه "المصباح في ٱختصار المفتاح"[1].

أمَّا المترجَم فإنَّه ورَّى عن كتبٍ عدَّة منها ما هو في البيان ومنها ما هو في غيره، أمَّا التي في البيان فأشار إلى أحدها بقوله:

"أحمده أن جعل اللِّسان العربيَّ قانون أسرار المعاني الفارعة (ومفتاح علوم المعاني) المنطوية فيه البارعة"، فقد ورَّى عن كتاب "مفتاح العلوم" وهو أساس الكتب البلاغيَّة، ومنها "المصباح" الذي أشار إليه الخضراوي وهو كتابٌ جامعٌ لفنون ثلاثة.

و"مفتاح العلوم"[2] لسراج الدِّين أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكَّاكي (–626هـ) الذي جمع علوم العربيَّة الثَّلاثة فقسَّمه إلى ثلاثة أقسام: القسم الأوَّل في الصَّرف والقسم الثَّاني في النَّحو، والقسم الثَّالث في علمي المعاني والبيان والبديع وأتبعه الاستدلال والشِّعر.

ومن هذا الكتاب تفرَّعت كتب كثيرة فكأنَّه أشار إلى أصالة تقريظه حيث ورَّى عن الكتب في العربيَّة فإذا كان التَّقريظ الأوَّل مصباحا كان هذا مفتاحا.

وورَّى عن كتاب آخر تفرَّع عن المفتاح أيضا وهو "تلخيص المفتاح"[3]، الكتاب الذي كان المدرسة البلاغيَّة إلى عهد قريب بل إلى اليوم، إذ هو الكتاب المدروس في المدارس الإسلاميَّة والتَّلخيص هذا أشار إليه: "وجمع جوامع تلخيص البيان".

---

1 الكشف 1707/2.

2 المرجع السَّابق 1762/2.

3 المرجع السَّابق 473/1.

وتلخيص المفتاح في الفنون البلاغيَّة الثَّلاثة وهو لجلال الدين محمَّد بن عبد الرَّحمان القزويني المعروف بخطيب دمشق (-739هـ) وقد لخَّص فيه القسم الثَّالث من المفتاح.

كما ذكر تورية أخرى، لكن لا عن كتاب في البلاغة وإنَّما عن كتاب في اللُّغة يتَّصل بالبلاغة، وهو "أساس البلاغة"[1] للعلاَّمة جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزَّمخشري(- 538هـ)، وهو وإن كان كتاب لغة إلاَّ أنَّه لمميِّزاته البلاغيَّة كان حقًّا أساس البلاغة وإليه أشار: و"أساس البلاغة الهامعة".

وهناك كتاب آخر في اللُّغة جاءت عنه التَّورية "ومعدن لآلئ قاموسها المحيط بلغاها الجامعة" ، وهو الكتاب الذي يعدُّ عمدة اللُّغويِّين وهو "القاموس المحيط والقابوس الوسيط الجامع لما ذهب من كلام العرب شماطيط" لمجد الدِّين محمَّد بن يعقوب الفيروزآبادي (-817هـ).[2]

وكان من حقِّه أن يورِّي بكتب نحويَّة لأنَّ الكتاب المقرَّظ في النَّحو إذ هو "شرح التَّسهيل" لعلي باشا، والذي جرَّه لأن ينساق مع الكتب البلاغيَّة ثمَّ الكتب اللُّغويَّة هو أنَّ الشَّيخ الخضراوي الذي يجاريه أتى في توريته بكتاب "المصباح" وهو من كتب البلاغة.

ثمَّ تنبَّه المترجَم بعد ذلك إلى التَّورية عن الكتب النَّحويَّة فورَّى عن الكتاب المشروح: "وخصَّه بين الألسن بتسهيل الفوائد الشَّاسعة وبتكميل المقاصد المستصعبة بإيضاح الأدلَّة القاطعة"، وهو كتاب التَّسهيل لابن مالك المتقدِّم.

وقد اقتصر على هذا الكتاب في التَّورية عن الكتب النَّحويَّة مع أنَّ هناك كتبا نحويَّة كثيرة غير التَّسهيل تمكن التَّورية عنها مثل: "المفصَّل في صناعة الإعراب" للزَّمخشري المتقدِّم، ومثل: "مغني اللَّبيب عن كتب الأعاريب"

---

1 المرجع السَّابق 73/1.

2 المرجع السَّابق 1306/2.

لجمال الدِّين أبي محمَّد عبد الله بن يوسف بن هشام الأنصاري (-761هـ) وهو من الكتب المشهورة المتداولة في عصر المترجَم، ومثل: "الكافية الشَّافية في علم العربيَّة"[1] لابن مالك المتقدِّم وهي من الكتب المشهورة، أو "الإرشاد الهادي" لسعد الدِّين التَّفتازاني (-791هـ) وهو من كتب النَّحو المعروفة في عصره، وقد عني بهذا الكتاب الكثير وله شروح متعدِّدة[2].

فلا عذر له في عدوله عن كتب النَّحو حتَّى تكون التَّورية مطابقة للكتاب الممدوح، ولا عذر له في الاقتداء بالخضراوي لأنَّ الكتاب الذي ورَّى عنه كما يمكن أن يكون من الكتب البلاغيَّة كما تقدَّم يمكن أن يكون من كتب النَّحو، إذ أنَّ هناك كتاب مشهور في النَّحو، وهو: "المصباح" تأليف ناصر الدِّين بن عبد السيِّد الشَّهير بالمطرِّزي (-610هـ) وهو من كتب النَّحو المشهورة إذ شرحه الكثير[3]، وكانت مخطوطاته معروفة بتونس.

ولا دلالة على أنَّه كتاب بيانيٌّ في قول الخضراوي "مصباح البيان" لأنَّه يحتمل أن يريد بالبيان معناه اللُّغوي دون أن يريد العلم البياني.

إنَّ المحاكاة التي تكلَّفها المترجَم أدَّت إلى أن يكون تقريظه للشَّرح الباشي ذا مؤاخذات، إذ أنَّه بالخصوص في القصيدتين يبدو التكلُّف باديا واضحا، ولست أدري أنَّ هذا التكلُّف كان من أجل المحاكاة وحدها، أو أنَّه نشأ من جرَّاء أنَّ هذا التَّقريظ للشَّرح الباشي منشؤُه أنَّ المترجَم كان هواه مع الأمير حسين، وإنَّما ٱضطرَّ ٱضطرارًا لأن يكتب تلك الكتابة حتَّى لا يرمى بالجفاء فلذلك جاء متكلّفا.

فلعلَّ للعاملَين أثرهما في ذلك، فهو مضطرّ للكتابة كما أنَّ المحاكاة للخضراوي مدفوع إليها، فاجتماع هذين الأمرين أدَّاه إلى أن يكون ضعيفًا في شعره كما ستراه.

---

1 الكشف 1369/2.

2 المرجع السَّابق 67/1.

3 المرجع السَّابق 1708/2.

وقبل أن ندرس بعض أبيات من قصيدته نذكر أنَّ الأدب قد أصبح في ضيقٍ حيث لم يجد مجالا ضيِّقا فضلا عن كونه رحبا، ويرجع ذلك إلى أنَّ الحياة نفسها كانت ضيِّقة.

ومع هذا الضِّيق لم يشأ الأدباء أن يحرموا أنفسهم من إنشاد الشِّعر، لكنَّهم لم يجدوا المواضيع التي تصلح لأن تكون ميدانا لأدبِهم، إذ أنَّهم وجدوا أنفسهم أمام أمرين إمَّا المدح وإمَّا الرِّثاء، وبالأخص الأوَّل فهو الذي أقبل عليه الأدباء لأنَّهم وجدوا فيه منفعة، إذ أنَّ الممدوح الشَّأن فيه أن يكون من ذوي السُّلطان الذين إمَّا أن يفتحوا أمام المادحين أسباب الحياة بتسلُّم الوظائف، وإمَّا أن يدرُّوا عليهم بعض المال.

وهذا وإن كان من أوجه نشاطات الأدب لأنَّه من محرِّكاته فإنَّه يؤدِّي لأن يكون الأديب على غير سجيَّته، ثمَّ هو بصورة لم يرضها بعض الأدباء مثل الحاج حمُّودة بن عبد العزيز الذي يعتزُّ بشعره الذي مدح به شيوخه دون غيره، وإن كان قد قال في أمير عصره الذي خصَّه بكتاب خاصّ وهو التَّاريخ الباشي، فإنَّه لمَّا جمع ديوانه أبدى ما قاله في شيوخه لأنَّه يرى أنَّ ذلك وإن كان مدحًا إلاَّ أنَّه خالٍ من التَّعليل المادي الذي يكون للأمراء.

وبجانب هذين الأمرين نشأ عنصر في الأدب يدخل في المدح وهو التَّقريظ الذي يكون مدحا لأثر شخص، وبالطَّبع أن يكون في مدح الآثار مدح الشَّخص صاحبها، وٱستحوذ على مدح الآثار تقريظ الكتب، و لم يكن هذا مختصّا بكتب الأمراء لأنَّه من النَّادر أن تكون لهم مؤلَّفات، كما كان لعلي باشا هذا المؤلَّف الذي يذكر الحاج حمُّودة بن عبد العزيز أنَّه ليس له وإنَّما هو لشيخه، وعلى كلٍّ إنَّ الشَّرح منسوب إليه فهو من آثاره، وهو وإن لم يكن من آثاره حقيقة فهو من آثاره ظاهرا وذلك ما جعله من عداد الأمراء العلماء.

وهذا المدح للكتب قد توسّع فيه المقرِّظون، ولعلّهم توسّعوا في ذلك من أجل أنَّه متنفَّس لا مغمز فيه لأنَّه يندرج ٱندراجا علميّا، فلا خوف من ألسنة النَّاقدين الذين يكيلون النَّقد للمادحين مدَّعين عليهم بما تجود به ألسنتهم.

وقد أولع المؤلِّفون بحبِّ هذا حتَّى أنَّ المؤلِّف إذا أتمَّ كتابا عرضه على علماء عصره وهم الأدباء إذ ذاك فيكتبون عليه ويفيضون في ذلك إفاضة بالغة، مع أنَّهم لم يطَّلعوا إلاَّ على بعضه، ولا عجب إذا قلت أنَّ تلك المطالعة البعضيَّة لم تكن إلاَّ مطالعة عابرة.

فالتَّقريظ دخل في باب المجاملة، وقد توسَّع النَّاس فيها توسُّعا وصل إلى حدِّ الإسراف والغلوِّ.

وهذان الإسراف والغلوّ قد كان لهما من فطاحل الأدباء مبرِّر، فهم إذا مدحوا كانت لهم إجادة مطربة تنسيك سموَّ المعنى للقالب البارع، فالظّرف لجودته يسترعي ٱهتمامك ويملك فكرك حتَّى تنساق معه ٱنسياقا، كما نراه في فطاحل الشُّعراء مثل أبي تمَّام والبحتري وأبي الطيِّب المتنبِّي.

لكن هؤلاء المتأخِّرين الذين سلكوا المسلك المتقدِّم، ونقلوه للتَّقريظ قد ٱنحطُّوا كثيرًا عمَّن دون أولئك فضلاً عن هؤلاء الفطاحل.

ثمَّ إنَّ هذه التَّقاريظ التي هي بِهذا الشَّكل كانت متقدِّمة على عصر المترجَم حيث نجد في القرن التَّاسع (للهجرة) أنَّ المؤلِّفين يحتفلون بإتمام كتبهم، ويتكوَّن لذلك منتدى خاصّ، لكن شتَّان بين تلك المؤلَّفات وهذه المؤلَّفات التي تقرَّظ في العصور المتأخِّرة عن ذلك العصر.

فٱبن حجر العسقلاني[1] لمَّا أتمَّ كتابه "فتح الباري بشرح صحيح الإمام البخاري" الذي بدأ في تأليفه من سنة 813هـ وٱستمرَّ فيه إلى سنة 842هـ

1 أصله من عسقلان، أديب، شاعر، ثمَّ أقبل على الحديث. له عدَّة مؤلَّفات منها: "الدُّرر الكامنة في أعيان المئة الثَّامنة"، "لسان الميزان". (الأعلام 173/1).

عقد مجلسا للختم تبارى فيه الأدباء وغيرهم في الإنشاد، وٱستمر الإنشاد إلى ما بعد ذلك، وممَّن أنشد في ذلك البرهان البقاعي[1] قصيدة يقول فيها:

إن كنت لا تصبو لوصف عــذارى دَع عنَــك تَهيــامي وخلــع عــذاري
إنَّ الغرام له رجــال دينهــــم تلف النُّفــوس علــى هــوى الأقمــار
خاضوا بحار العشق وقــت هياجهــا إذ موجهــا كالجحفــل الجــــرَّار

ويتخلَّص إلى تقريظ الشَّرح:

بأبي الخدود نــواظرا حــسناهـــا كنواظر الغــزلان في الدِّينـــــار
قصدت يكون المسك حسن ختامهــا فتعلَّمت من فتح خــتم البـــــاري
شرح البخاري الـــذي في ضمنـــــه نظمت علوم الشَّرع مثـــل بحــــار

وهذا المؤلَّف أي "فتح الباري" قضى فيه مؤلِّفه ٱبن حجر الكــثير مــن عمره فيحقُّ له أن يجد هذا الصَّدى، ثمَّ إنَّ الشَّرح حقيق بالعناية لأنَّه كــان على كتاب البخاري المعدود من أوَّل أصول الإسلام، فإذا ما ٱحتفل به كان الاحتفال مناسبا للعمل، بخلاف ما نجده لبعض المؤلَّفات التي هي لا تــذكر بالنِّسبة لفتح الباري إذ هي مؤلَّفات لم ينفق فيها من العمر ما أنفق في "فتح الباري" مع تفاهة موضوعاتها.

ثمَّ إنَّ تقريظ المترجَم جاء على هذا الغرار المسلوك في تقــاريظ فــتح الباري في الشِّعر حيث مزج المدح بالغزل على طريقة المدح الذي ٱلتزم فيه ذلك.

لكن طريقة الخضراوي التي تبعه فيها المترجَم غير الطَّريقة المسلوكة من قبل، إذ هذه يكون فيها الغزل مقدَّما ثمَّ يؤتى بعد ذلك بالتخلُّص إلى المدح، أمَّا طريقة الخضراوي وكذلك المترجَم فإنَّها تبدأ بالتَّقريظ وتجعل الكتــاب المقرَّظ مذكِّرا بعهد الصِّبا ومنتجا للَّهو والصَّبوة.

نتــائج أنــتج عــشقي بـــها للَّهـــــو مـــــيلا وإلى صــــبوته

---

1 مؤرِّخ، أديب، له "عنوان الزَّمان في تراجم الشُّيوخ والأقران" وديوان شعر "إشعار الواعي بأشعار البقاعي". توفِّي سنة 885هـ/1480م. (الأعلام 50/1).

وقصيدة المترجَم علاوة على خلوِّها من المعاني الرَّقيقة في المدح كانت في آخرها تتضمَّن معنى سخيفا، وهو أنَّه لَّما أراد قطف الزَّهر المودع في الشَّرح الباشي ٱنتهر وقيل له: مثلك من يخطب من الباشا عروسا وهو في عزَّتــه، فأجاب بأنِّي باذل مهرها وهو روحي ومالي لعلي عزَّته، فأجيب بأنَّك وإن أعطيت هذا فهو ليس شيئا مذكورا لعلوِّ همَّته، ثمَّ ٱستمرَّ في هذا الحوار إلى أن يقول:

فقلـــن إن حاولـــت مـــا تـــشتهي   لا تلـــم الباشـــا علـــى ســـطوته

وهذا البيت زيادة على سخافته هو إلى الذمِّ أقرب منه إلى المدح حيـــث وصف هذا الأمير بأنَّه ذو سطوة وبطش أي غير مأمون الجانب، لكن البيت بعده فيه تدارك ممَّا في هذا البيت إذ يقول:

فقلـــت كـــلاَّ إنَّـــه مـــاجد   يهتـــزّ لـــلآداب مـــع رفعتـــه

وهناك مؤاخذة في قوله: نتائج أنتج عشقي بها

إذ عدَّى العشق بالباء مع أنَّ مادَّة عشق تتعدَّى بنفسها، جاء في القاموس المحيط: عشقه كعلمه عشقا بالكسر ولو قال:

نتائج أنتج عشقي لها ، أسلم من المؤاخذة لأنَّ الصَّدر من هـــذه المـــادَّة يقوى باللاَّم.

يهدف الأسلوب الذي ٱنتهجه المترجَم في قصيدته الأولى تبعا لتلـــك المحاكاة إلى أن يخرج بمدحه للكتاب إلى معان متعدِّدة من طبيعيَّة وغزليَّة، فهو يجعل منه مبعثًا للطَّرب كما تطرب النَّفس آلات اللَّهو، وخصَّ منها القانون الذي هو آلة من آلات الطَّرب ذات الأوتار، كما يطربه غنـــاء الطُّيـــور، وخصَّ البلبل والهزار.

كما يجعل منه باعثا على الشَّاعريَّة الغزليَّة حتَّـــى يحـــاكي شـــاعرين مشهورين أحدهما جميل بن عبد الله بن معمر أبو عمرو أحد عشَّاق العرب المشهورين، صاحب بثينة وهما من عذرة، ويشير إلى هذا في قوله:

وملـــتُ للتَّـــشبيب في حـــسنها   ميـــل جميـــل لحلـــي بثنـــه

أنَّ النَّتائج الفكريَّة في الكتاب المذكور أمالته للتَّشبيب، كما مال جميل للتَّشبيب ببثينة وقد عبَّر عنها بثنة، وربَّما يذهب الظنُّ إلى أنَّه قد ارتكب ضرورة شعريَّة في عدوله إلى التَّكبير في ٱسم صاحبه جميل عوض التَّصغير، وقد حملني ذلك الظَّن إلى ٱنتقاده، لكن بالرُّجوع إلى شعر الشَّاعر المذكور يتَّضح أنَّه لم يرتكب ضرورة شعريَّة، ، وإنَّما جاء على سنن جميل، فإنَّه كما يسمِّيها بثينة يسميها بثنة، ومن ذلك ما جاء في بيتيه اللَّذين قالهما في صاحبته لمَّا كان يأتيها سرًّا فجمع له قومها جمعا ليأخذوه إذا أتاها فحذَّرته بثينة فاستخفى، وأنشد على عادة الشُّعراء في التَّظاهر بخلاف ما هم عليه:

ولو أنَّ ألفا دون بثنة كلُّهم   غيارى وكلٌّ حارب مزمع قتلي
لحاولتها إمَّا نهارا مجاهرا   وإمَّا سرى ليل لو قطعت رجلي

إنَّ ٱستعمال المترجَم هذا يدلُّ على ٱطِّلاع أدبيّ واسع لأنَّ شعر جميل ليس من المتوفِّر في عصره وحتَّى في غيره، فإذا كان قد ٱطَّلع عليه مطالعة دارس أبان عن أفق أدبيّ ممتدّ إلى ما هو غير متعارف في معاصريه، وبهذا ٱتَّسعت ملكته الأدبيَّة وجمع بين العلم والأدب على عكس الكثير من علماء عصره الذين ٱنكبُّوا على الكتب المدروسة دون غيرها، فضاق أفقهم حتَّى في العلوم المدروسة فضلا عن الأدب الذي ينظر إليه نظرة خاصَّة.

وثانيهما: غيلان بن عقبة المعروف بذي الرمَّة[1]، وهو أحد عشَّاق العرب وصاحبته ميَّة بنت مقاتل بن طلبة وأشار المترجَم إلى ذلك:

وٱستهترت لبِّي أريحيَّة   وصرت كالمفتون في ميته

وهذا البيت لم يصادفه فيه الحظُّ كالبيت الأوَّل السَّالم من المؤاخذة حتَّى ما تبادر فيه من ذلك فهو مدفوع، أمَّا هذا البيت فهو غير سالم له حيث جاءت فيه لفظة الأريحيَّة على غير وجهها المعروف في العربيَّة، فإنَّها مفتوحة الهمزة وساكنة الرَّاء ومفتوحة الياء، لكنَّها إذا قرئت على هذا الضَّبط ٱنخرم

1 شاعر من فحول شعراء عصره، له ديوان شعر. توفِّي سنة 117هـ/735م. (الأعلام 319/5).

وزن البيت، إذ لا يستقيم وزنها إلاَّ إذا قرئت بهذا الضَّبط، وهو أن تكـون الهمزة مفتوحة والرَّاء مكسورة والياء ساكنة.

وحاكى بالأمرين هذين ما درج عليه الأندلسيُّون في شعرهم ونثرهم من الإشارات التَّاريخيَّة، وقد تمهَّر منهم جمع حملوا راية ذلك، وكانت لهـم في ذلك طرائف وبدائع تهتزُّ لها الأفكار، وتتقبَّلها الأذواق.

ورغم الضُّعف في هذا القصيد فإنَّه لم يخل من إشارات لها مساغ مـا في الأذواق.

وقصيدته الأولى رغم المحاكاة وما جرَّته أخفُّ من الثَّانية التي حاكى بهـا كذلك، والثَّانية وإن تحرَّرت من القافية فإنَّها بالأخصِّ في الطَّـالع كانـت بعيدة عن قصيدة الخضراوي فهو يقول:

أيـه أحاديـث الفـضائل يأفـل ... وٱنشر من المدح الـذي قـد يجمـل

بينما يقول الخضراوي:

قـسما بمـا أبـداه مـن تحقيقـه ... في حـلِّ مـشكله ومـن تدقيقـه

فالطَّالعان متباينان، فالأوَّل قد أثقلته تلك المناداة لفلان، ولولا التَّـرخيم لكان هذا الطَّالع من المترجَم في غاية الثِّقل، لأنَّ مناداة فلان إذا كانـت في الكلام العادي عدَّت من الهنات فضلا عن الشِّعر بينما الثَّاني خفيف سائغ.

وعلاوة على ذلك قد يتبادر إلى السَّامع في قوله: (قد يجمل) أنَّ "قـد" ههنا للتَّقليل لأنَّ من معانيها تقليل وقوع الفعل نحو: قد يصدق الكـذوب، وإن كان المعنى يحتمل التَّكثير لأنَّ قد في إفادتها التَّكثير خلاف شهير بـين النَّحويِّين فالذي ٱعتمده ٱبن مالك من كلام سيبويه: "أنَّ قد مثل ربَّما" أنَّها للتَّقليل، وحتَّى الذي ٱستشهد به سيبويه:

قـد أتـرك القـرن مـصفرًا أناملـه ... كـأنَّ أثوابـه مجَّـت بفرصـاد

حملوه على المعنى المذكور لأنَّ ترك القرن مصفر الأنامل أي ميِّتا ليس من الأمر الذي يصدر من الإنسان بكثرة إنَّما يصدر منه بقلَّة.

ولو تركنا هذا البحث النَّحوي، وأخذنا هذا العجز من الطَّالع المذكور لكان المعنى المتبادر هو التَّقليل لأنَّ دخول قد على المضارع لا يتبادر منه إلاَّ التَّقليل دون التَّكثير.

والشَّأن في مثل هذا المقام أن يتجنَّب الشَّاعر ما يثير أدنى شبهة في المعنى الذي يقصده، فهذا الطَّالع يضلع بسبب (يأفل) ثمَّ (قد يجمل)، ولو حــرَّر المترجَم نفسه من مسايرة غيره لكان في حلٍّ ولما وقع فيما وقع فيه.

ولو أخذنا بيتا آخر غير هذا الطَّالع وهو قوله:

كعرائس بــرزت وماضــي فعلــها　　ســحر الجفــون وقتلــها مــستقبل

نراه يريد التَّورية عن الفعل الماضي والمستقبل حيث يريد بماضي فعلــها مضاء فعلها كالسَّيف الماضي، وورَّى به عن المعنى السَّابق وهو الفعل الماضي الذي مرَّ زمنه، كما أنَّه ورَّى بالقتل المستقبل عن الفعل المضارع المقصود به الاستقبال، فالتَّورية عند هذه النَّظرة مقبولة، لكن إذا حقَّقنا النَّظر بان بأنَّها غير مقبولة لأنَّه كيف يتصوَّر أن يكون الفعل المؤدِّي للقتل ماضيا، والقتــل الحاصل منه يقع مستقبلا إذ الشَّأن أنَّ الذَّابح ينتج عند ذبحه القتل بسرعة.

ثمَّ هناك شيء آخر وهو أنَّه بصدد وصف العيون بالقتل وأنَّها ماضــية الفعل، فكيف يصفها بمضاء الفعل مثل السَّيف الماضي، ولا يحدث قتلها إلاَّ في المستقبل لأنَّ شأن السَّيف الماضي أن يعجِّل بالقتل لا أنَّه يحدث عنــه في المستقبل.

فشتَّان بين التَّوريات المتعدِّدة التي يأتي بها الغراب وبين هــذه التَّوريــة الوحيدة التي أتى بها المترجَم فلم يوفَّق فيها، ولم يتمَّ له مقــصود في هــذه التَّورية النَّحويَّة.

وكذلك يؤخذ عليه في قوله:

فغدت بلابــل وجــدهم وذكــائهم　　تــشدو بأمــداح القــريض وتهمــل

لا سيَّما مــا قــد أتــاه شيخــه　　العلــم النِّحريــر ذاك الأمثــل

إذ الانتقال من البيت الأوَّل إلى الثَّاني من البيتين المذكورين ٱنتقال مفاجئ إذ لا ٱرتباط بين البيتين، وٱستعمال لا سيَّما قد أتى في غير موضعه، فانظر إليه في بيت امرئ القيس:

ولا سيما يوم بدارةِ جلجلِ

وههنا ترى أنَّ البون شاسع.

أدب وتاريخ

ساهم المترجَم في إشاعة ذكر الأمير حسين الذي ألَّف له كتاب "قرَّة العين في نشر فضائل الأمير حسين"، ودخل في عداد المؤلِّفين الذين دوَّنوا مآثر ملوك عصرهم بتدوين سيرهم.

وهذا التَّدوين وإن ينقم عليه النَّاقدون لأنَّهم يرون أنَّ التَّأليف في هذا الصَّدد هو داخل فيما يقوله المادحون في ذوي السُّلطان، فلنا في هذا النَّقد والتَّحامل نظر.

وممَّن يحمل على هذا الصِّنف من التَّأليف المؤرِّخ التُّونسي النقَّادة الوزير أحمد ٱبن أبي الضِّياف في تاريخه "إتحاف أهل الزَّمان" فحين ذكر من ألَّف في التَّاريخ التُّونسي يقول[1]:

"وهذه المملكة التونسيَّة – وفَّر الله أعدادها وكثَّر امدادها – ٱعتنى بأخبارها وأخبار ملوكها جمع من الفضلاء كوليِّ الدِّين ٱبن خلدون[2]، وأبي عبد الله محمَّد بن إبراهيم الزَّركشي،[3] وأبي عبد الله محمَّد بن أبي الفضل الرُّعيني القيرواني المعروف بٱبن أبي دينار،[4] والوزير السرَّاج وغيرهم.

1 الإتحاف 3/1.

2 عبد الرَّحمن بن محمَّد بن الحسن بن جابر بن خلدون الحضرمي، الإشبيلي، التُّونسي، وليُّ الدِّين، مؤرِّخ، فيلسوف، وعالم ٱجتماع ورجل سياسة. من أشهر مؤلَّفاته "العبر في ديوان المبتدإ والخبر من أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السُّلطان الأكبر"، "المقدِّمة" هي الجزء الأوَّل منه. توفِّي سنة 808هـ (الأعلام 330/3).

3 محمَّد بن أحمد بن لؤلؤ الزَّركشي، من مؤلَّفاته "بلوغ الأماني"، "تاريخ الدَّولتين الموحديَّة والحفصيَّة". توفِّي سنة 883هـ/1478م. (تراجم المؤلفين 413/2).

4 أبو عبد الله محمَّد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني الشَّهير بأبي دينار. الأديب الألمعي، المؤرِّخ الشَّاعر. من تأليفه "المؤنس في أخبار إفريقية وتونس". كان حيًّا قرب سنة 1110هـ (شجرة النُّور الزكيَّة 307/1)

وجرى في مضمارهم العلاّمة الوزير الكاتب أبو محمَّد حمُّودة بن عبد العزيز إلاَّ أنَّ كتابه في أخبار مخدومه أبي الحسن الباشا علي باي الحسيني – كما أشار إلى ذلك في كتابه المذكور – وذكر غيره ٱستطرادا وٱنتهى بٱنتهاء دولته فهو أشبه بالمديح".

ويجعله من كتب الإنشاء البديع في الجزء السَّابع أثناء ترجمة الوزير المذكور حمُّودة بن عبد العزيز:

"وكان من أفراد العلماء وأعلام الكتَّاب، وفريدة عقد ذوي الألباب والآداب، وتاريخه الباشي الذي ألَّفه في مدح مخدومه أعظم شاهد له بالبلاغة والبراعة في فنِّ الإنشاء، والله يؤتي الحكمة من يشاء".

فٱبن أبي الضياف لا يعترف للتَّاريخ الباشي بقيمة إلاَّ قيمة واحدة، وهي البراعة في الإنشاء معرضا عن النَّاحية التَّاريخيَّة، فكأنَّها لم تكن شيئا مذكورا، وهذا منه حكم على أنَّ التَّاريخ المذكور لمَّا ٱنبنى على المدح خرج عن كونه تاريخا إلى كونه مدحا، ولمَّا تأنَّق في الإنشاء مدحه من هذه النَّاحية الخاصَّة.

وإذا كانت نظرته هذه إلى التَّاريخ الباشي فما بالك "بقرَّة العين"، ولعلَّ هذا هو الذي دعاه إلى إغفاله من كتب التَّاريخ التي عدَّها في مقدِّمة كتابه.

وهذه النَّظريَّة النَّاقدة لكتب المدح لها مبرِّراتها لأنَّ التَّاريخ إذا أدخل فيه المدح لم يلتزم مؤلِّفه الحقائق عملا بما يقال في الشِّعر: أعذبه أكذبه، والكذب وإن وجد مساغا في الشِّعر فإنَّه في التَّاريخ لا يجد مثل ذلك.

وربَّما بطول الزَّمن تختلط المجازات بالحقائق فيضيع التَّاريخ بين ثنايا ذلك، فحفاظا على التَّاريخ لا يعدُّ هؤلاء النَّقدة هذه الكتب المبنيَّة على المدح من جملة كتب التَّاريخ.

والباحث المتعلِّق بالتَّاريخ من غير نظر إلى مأتاه لا يغفل هذه الكتب، وإن سادها المجازفة لأنَّ التَّاريخ أغفل في فترات كثيرة، ولم تبق إلاَّ الكتب التي يسودها المدح، فإذا ما أعرضنا عن هذه الكتب كانت في التَّاريخ ثغرات وثلمات، ولو أخذنا التَّاريخ التُّونسي لوجدنا فراغا واسعا إذا أهملنا أمثال

هذه الكتب، وأعوزنا الظّفر بتاريخ ذلك الفراغ في تلك الفترات التي لم يؤلّف فيها إلاّ التّواريخ المبنيّة على المدح، وبذلك نقف أمام جهالة تاريخيّة فادحة.

والمؤرّخ الحريص يفضّل هذه التّواريخ على الفراغ، فهي على الاختلاط الذي بها لا يقاس بها الفراغ الذي لم يؤلّف فيه شيء مثل بعض العصور من تاريخنا المظلم، حتّى يحتاج المؤرّخ أن يلتقط من أفواه النّاس، وهذا ما فعله ابن أبي دينار في تاريخه[1]: "وحيث أتيت بجملة من أخبار الدّايات، وجب أن نأتي بنبذة من أخبار البايات، وإن كانت هذه التي جمعتها لم تدوّن قبل وإنّما تلقّيتها عمّن كان قبلي وأخبرني، وعنه أعتمد في نقلها".

وفي الاعتماد على ما يتناقل من الأخبار يدخل الزّيف بصورة غير مقبولة، فحينئذ يكون ما في الكتب المؤلّفة للإطراء أقرب إلى الحقيقة ممّا يتناقل، لأنّ شأن هؤلاء النّاقلين في الكثير من الأحوال أن يكونوا من غير ذوي المعرفة، وهؤلاء يحبّون المبالغة للتّعجيب والتّغريب، وهناك تكون الحقائق لا أثر لها.

ثمّ إنّ الكتب المبنيّة على المدح مثل "قرّة العين" يمكن استخلاص الحقيقة منها لأنّها إذ أعرضت على السّبر تأتّى استخلاص الحقّ وطرح غيره لأنّ التّاريخ والإطراء شيئان متقابلان إذ ذكر التّاريخ له طابعه والإطراء يأتي بعد ذلك إبرازا للحوادث المراد مدحها.

وكتاب "قرّة العين" وأمثاله لا بدّ أن تجد فيها ما يصلح للتّاريخ، وتلك المقتطفات تختلف أهمّيّتها بحسب المؤلّف، فهناك من المؤلّفات ما تجد فيه الكثير، ومنها ما تجد فيه النّزر اليسير.

وصاحب "إتحاف أهل الزّمان" مع حملته على كتب الإطراء اعتمد في حقبة من حقب تاريخه عليها، وهي دولة الأمير علي باي الحسيني:

"وقد اعتنى وزيره العلاّمة الكاتب أبو محمّد حمّودة بن عبد العزيز بتخليد مآثره ومحاسنه وأبنائه في تاريخه حتّى كاد أن يلحق بالمدّاحين من

---

1 المؤنس في أخبار إفريقيّة وتونس، ص213. مطبعة الدّار التونسيّة 1286هـ

الشُّعراء، ومجّته العقول بذلك على بلاغته وجميل نسقه، وبـديع نـسجه، ونذكرها إجمالا".

إنَّ الضَّرورة قد دفعت صاحب الإتحاف أن ينقل ما ذكره ٱعتمادا على تاريخ إطراء لأنَّه لا مندوحة له في ذلك.

وبهذا نعلم أنَّ الكتب التَّاريخيَّة المبنيَّة على المدح مثل "قرَّة العـين" لهـا قيمتها وإن ٱختلفت، فهي من عداد كتب التَّاريخ بما تحمله بين طيَّاتها مـن حوادث على نزارة في بعضها.

ومن أوائل الكتب المؤلَّفة على هذا الغرار والتي سير على منوالها، وهـو أشهرها "اليميني" لمحمَّد بن عبد الجبَّار العتبي المؤرِّخ الـشَّاعر (-427هـ) الذي ألَّفه ليمين الدَّولة محمود بن سبكتكين (-421هـ) الذي ٱنتظمت له الدَّولة في خراسان وغيرها.

وهو كتاب ٱشتهر ببلاغته، وٱحتوائه على اللَّطائف الأدبيَّة، فٱعتنى بـه الكاتبون وكتبوا عليه شروحا عدَّة فخرج عن كونه كتاب تاريخ إلى كونه كتاب أدب.

ولا يبعد أن يكون المؤرِّخون لمثل هذا أدركوا الضُّعف التَّاريخي فمـالوا إلى الجانب الأدبي حتَّى لا تهمل كتبهم، ومن أجل ذلـك كـان التَّـاريخ "اليميني" من أشهر الكتب لغلبة النَّاحية الأدبيَّة على النَّاحية التَّاريخيَّة.

لست أدري أنَّ المؤرِّخين من التُّونسيِّين الذين ألَّفوا على هذا النَّمط حين تأنَّقوا في عبارات تاريخهم وأضافوا إلى التَّاريخ منازع أخرى لاحظوا هـذا المعنى، أم كان ذلك منهم مجرَّد محاكاة للمتقدِّمين الكاتبين على غرارهم.

ونجد في "قرَّة العين" أنَّ التفنُّن مع التَّاريخ قد جرى فيه سعادة أشواطا، فضمَّن تاريخه أشياء أخرى من غير التَّاريخ، فنحـا بكتابـه نحـو الأدب والأخلاق ومع ذلك لم يخل عن كونه كتاب أدب وتاريخ.

قرَّة العين

هذا الكتاب كان عزيز الوجود، فأصبح في عداد المفقودات حتَّى ظفـر بنسخة منه شقيقي العلاَّمة أحمد المهدي النَّيفر فأعارنيها مـشكورا، وهـي

نسخة المؤلِّف نفسه التي كتب عليها مقرِّظو الكتاب بخطوطهم، فقد قرَّظه الخضراوي وأحمد البغدادي قاضي تونس الحنفي، والحاج أحمد برناز، وغيرهم.

وهي النُّسخة التي وقف عليها صاحب "مسامرات الظَّريف" فقد وصفها بٱختصار كما جاء في الجزء الثَّاني الذي لم يطبع، ونقلت ما ذكره فيما تقدَّم.

ولا يبعد أن تكون هذه النسخة هي المقدَّمة للأمير المذكور الذي ألّف الكتاب له، لأنَّها مذهَّبة الصَّفحة الأولى، وكذلك الطَّالع وٱلتزم ذلك في عناوين الكتاب.

كما أنَّها مهمَّشة ببعض توضيحات تبيِّن الغريب، وعلى كلّ فهذه النُّسخة التي نصفها إن لم تكن النُّسخة المقدَّمة إلى الأمير المذكور فهي نسخة المؤلِّف.

ولا يوجد فيها تحريف نسخي إلاَّ ما كان مصدره المؤلِّف مثل كتابة ما يكتب بالياء بالألف أو مصدره الغفلة.

وقد أبرز فيها ما هو عنوان، أو كالعنوان فيكتب بالأحمر تارة وبالأخضر أخرى ٱسترعاء لاهتمام النَّاظر.

وٱسم الكتاب التَّام كما جاء على ظهر هذه النُّسخة مكتوبا بالذَّهب: "قرَّة العين بنشر فضائل الملك حسين الممجَّد ونجله الأمير ٱبن الأمير الباي سيِّدي محمَّد".

ومن غريب ما جاء في هذا الكتاب أنَّه بنى خطبة الكتاب على مدح الأمير، ثمَّ في المقدِّمة وقد أطال فيها، وكذلك ذكر الغرض من تأليفه فيها.

ونقتطف من هذه المقدِّمة مقتطفات ممَّا يهمُّ الباحث، ونأتي بوصف الكتاب بعد ذلك مبرزين منه ما يفيد المؤرِّخ:

"وبعد فإنَّ قلم القدرة إذا جرى في القدم بالتَّوفيق والإسعاد، ألهم ٱكتساب السِّير الحميدة وأورى قدح الزّناد، وأيقظ إنسان الدَّهر من سنة غفلة الرُّقاد، فأجرى سوابق عزمه في مضمار وقائع العباد، فبحث عنها

بفهمه الثَّاقب، وأصدرها عن رأيه السَّديد الصَّائب، إذ هو بالولاية عليهم المنفرد بالتَّدبير، والمسؤول يوم القيامة عن النَّقير منها والقطمير، فلا ينجيه من ذلك إلاَّ عدله فيها بين الرَّفيع والحقير والكبير عنده والصَّغير.

هذا وقد ٱقتنى أميرنا حفظه الله من هذه المزايا أغلاها، وجبل بطبعه الشَّريف على أشرفها وأغلاها، وإذا خلي ونفسه بالنَّظر فيها أبدى العجائب، وإذا بلغ له الأمر على التَّحقيق نفذه على الحكم الواجب، لا يراعي في ذلك إلاَّ ما يقرِّبه إلى النَّعيم الدَّائم، ولا تأخذه في الله سبحانه لومة لائم.

وقلت:

[السَّريع]

هذا الذي ساد على الأكثر — من أصغر في الملك أو أكبر
وأصبح الدَّهر له خادما — يمتثل الأمر ولا يجتري
ومدَّه مولاه من فضله — بالسَّعد والإقبال والمفخر
وأطلق الألسن في مدحه — تثني على علياه لم تفتر
تقلّد الجيد له في العلى — قلائد العقيان والجوهر
وكلٌّ من أطنب في مدحه — منها يقول الحقَّ لم يفتر
وإن بدا نشر مزايا له — ضاع لها نشر كما العنبر
ففي النَّدى البحر ولكنَّه — عذب فحدِّث عنه وٱستكثر
وقل متى تختصر القول في — باقي خصال المجد: ذا العبقري
عوَّذته من حاسد ماكر — بسورة الإخلاص والكوثر

جزَّأ أوقاته فيما يقرِّبه إلى الله، وفي مصالح عباده، فشغل نفسه من ذلك عقب الصَّلوات بأوراده، وعند إسفار كلّ يوم في قضايا رعاياه وأجناده، ملازما لدلائل الخيرات والصَّلاة على أشرف بشير هجيراه تلاوة القرآن وهو يسمع وحديثه صلَّى الله وسلَّم الصَّحيح الشَّهير، وما نام على جنابة منذ عقل على ما أخبر به الملازمون له قطٌّ، ولا رئي له جنب على الأرضٍ قبيل الفجر ينحط، مستوفي ذلك حاله بطول اللَّيل وقصره، وفي إقامته بمحلٍّ ملكه وسفره".

وجلب على وصفه له بالتَّقوى في ملازمة الطَّهارة حتَّى أنَّه لاينام جنبا نقولا تبيِّن فضل من هذا حاله، وأورد على ذلك حديثين، ثانيهما ما رواه أبو داود[1] والنِّسائي[2] وآبن ماجه[3] مرفوعا: "ما من مسلم يبيت طاهرا فيتعار من اللَّيل فيسأل الله تعالى خيرا من أمور الدُّنيا والآخرة إلاَّ أعطاه إيَّاه"، -ويتعار أي يستيقظ-.

وكذلك على ما وصفه به ثانيا من مسارعته إلى قيام الأسحار وترك التلذُّذ بالنَّوم والفراش الوطيء فذكر فضل فاعل ذلك وأطال فيه.

وبعد نقله ذلك مدح الأمير بأبيات أتبعها بنثر، ثمَّ ذكر الغرض من الكتاب الذي ألَّفه للأمير مبيِّنا محتواه باختصار لأنَّه لم يضع له فهرسا في مقدِّمة الكتاب كعادة الكثير من المؤلِّفين:

"وبالجملة فعلى المراقبة لله يبني آستعداده، فدام بذلك ملكه وصلحت بلاده.

وقلت:

[الكامل]

فهو الذي من حلّ ساحة عزّه ... مستنصرا من كيد مكر الماكر
يحظى بنافذ عدلهِ ويفوز من ... لحاته بشريف عزّ باهر
لم لا وقد قهر الطُّغاة وقادهم ... بسديد رأي لا بسلّ بواتر
هل أبصرت عيناك من طغيانهم ... ما كنت تعهد في زمان غابر
خفض الجناحِ إلى الورى فأناله ... خفض المعيشة مع جزاء وافر
وإذ تراءى ما لك في زيٍّ مسـ ... ـكين وحسن سريرة وبوادر
فاشدد يديك به فذاك المبتغَى ... في الدِّين والدُّنيا بنصٍّ جماهر

---

1 سليمان بن الأشعث بن آسحاق بن بشير بن شدَّاد الأزدي، السَّجستاني(أبو داود). محدث، حافظ، فقيه،من تصانيفه: "كتاب السنن". توفِّي سنة275هـ/889م.(معجم المؤلفين 255/4).

2 أحمد بن علي بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرَّحمان النَّسائي: صاحب "السنن"، القاضي الحافظ، شيخ الإسلام. من تصانيفه: "السنن الكبرى"، و"المجتبى". توفِّي سنة 303هـ/915م. (الأعلام 164/1).

3 محمَّد بن يزيد الربعي القزويني، أبو عبد الله، آبن ماجه. أحد الأئمَّة في علم الحديث. صنَّف كتابه "سنن آبن ماجه"، وهو أحد الكتب السِّتة المعتمدة في الدِّين. توفِّي ستة 273هـ/887م. (الأعلام 15/8).

وهو الأمير الأشهر، والملاذ الأعزُّ الأنصر، صاحب الخيرات ومموليها، ومشيد أركانها ومعليها، محيي رسوم العلوم بعد اندراسها، والملاحظ بعين إمداده أفاضل ناسها، منشئ المدارس بها وبأقطارها، ومغنيهم ببرِّه العميم عن وابل قطارها، ناشر ألوية العدل الكامل، ومسعف الفقراء بالمبرَّات والأرامل، من تقصر الإحاطة عن وصفه الجلي وتكلُّ الأقلام عن إدراك مجده العلي، وما هو به من المزايا مشتمل حلي ظهر كالشَّمس لذي بصر وتيقنه جلي، مولانا حسين باي ابن علي، باي تونس الخضراء، وأعدل ملوك ما أقلَّت في هذا الزَّمان الغبرا، لا زالت نعم الإله عليه متوالية تترى في أحواله كلِّها سرًّا وجهرا.

وقد رأيت أن أصنِّف رسالة أشير فيها إلى بيان سيرته من خلال بعض ما يحتاج إليه كلُّ ملك في مملكته، من العدل الذي به قوام دولته، وإصلاح أمور رعيَّته، وذكر بعض الولايات الشرعيَّة، وما يجب في أهلها من الشروط المرعيَّة، تشتمل في ذلك على بابين مهمَّين، وتذليل حسن في ولاية نجله الأسعد، وانعقاد بيعته كأبيه من أهل الحلِّ والعقد، الأمير ابن الأمير الباي سيدي محمَّد، لا زال طالعهما النيِّر على أفق الغرب لامعا، ونور جمالهما للأبصار ساطعا، وما يتَّصل بذلك من أمداح رائقة، وفراسة صادقة، وخاتمة تشتمل على حكايات فائقة".

أتى في تلك المقدِّمة بوصف حاله ممَّا يشعر بأنَّه كان في أزمة من العيش وضيق في الحياة، وصوَّر ذلك بأنَّه كان في عزمه أن يؤلِّف كتابا يجمع تاريخ الأمير حسين مع تاريخ البلاد التونسيَّة ضامًّا إلى ذلك ما أنشده أدباء عصره من أمداح، ولكن أقعده ما أقعده.

ونوَّه بهذه الضَّميمة التي تحتوي على الأمداح حيث تعرَّف بقيم الفضلاء في العصر المذكور ووفرة الأدباء فيه وبلاغتهم الفائقة حتَّى كأنَّهم هم النَّاطقون وغيرهم موصوف بالخرس، ويقصد بهؤلاء الأدباء جماعة كتَّاب الدَّولة الذين تقوم عليهم محاضر النَّوازل.

وفيه تنويه بأولئك الكتبَة المعتمد عليهم في مصالح الحكومة التونسيَّة، إذ هم لسان الحكومة، وتنويهه بالكتبة إبراز لما لوظيف الكتابة القائم على أبناء البلاد باللِّسان العربي من ٱعتبار، إذ أنَّ الوظائف الأخرى من الجنديَّة وغيرها كانت تقوم على غير أبناء البلاد وهم الأتراك الوافدون من بلاد الخلافة.

وعقب تنويهه بالوظيفة الكتابيَّة بما أقعده عن تأليفه الذي رسم حدوده في جمل، وهو أنَّ العريَّ عن الكفاءة له التقدُّم، وأمَّا صاحب الكفاءة فإنَّه يبقى في كسر بيته منسيّا، ويشغله عن إظهار مقدرته ما هو بصدده من أتعاب كدح لتحصيل القوت.

وفي بيان ما صدَّه تعريض بتقدُّم غيره من الفاقدين للمؤهِّلات التي تجعلهم في صفوف العلماء مع تأخيره وقد حصّل المعارف الموجبة له التقدُّم.

ويجعل نتيجة تقديم غير الأكفاء أنَّ أصحاب الكفاءات يزهدون في الفضل، إذ يرون أن لا فائدة في إجهاد النَّفس وإتعابها تحصيلا للمعارف، إذ قد بان أنَّ التقدُّم لا بالمؤهِّلات بل بغير ذلك.

ويحتدُّ على المعارف وآلاتها والآداب ووسائلها فيجعل المعرض عن الفضل بسبب تقديم غير الأكفَّاء يكسِّر أقلامه.

ويذكر سببا ثانيا لصدِّه عن إتمام الكتاب الذي رسم خطَّته كما تقدَّم، وهو أنَّ البلاد التُونسيَّة لم يكن لها تاريخ جامع يهتدي به، ولا بدَّ أن يقصد العصور القريبة منه إذ أنَّ البلاد التونسيَّة في عصورها الزَّاهرة لها تواريخ عدَّة، ومن أهمِّها القسم الذي يخصُّها من تاريخ ٱبن خلدون، ويدلُّ لهذا أنَّه حين ٱستدرك على هذا النفي ذكر تاريخ ٱبن أبي دينار، ولكنَّه حمل عليه حملة شعواء فوصفه بأنَّه لا يساوي درهما فضلا عن دينار لأنَّه سرد الحوادث التَّاريخيَّة سرد العامَّة، ووصفه بالعاميَّة وسيأتي لنا تحقيق حول هذه النُّقطة التي حمل فيها المترجَم على ٱبن أبي دينار.

ثمّ آعترف بأنّ ما ألّفه ليس هو الذي كان يجول بخاطره، وإنّما هو نبذة لا تفي بالمقصود، إذ هو يرى أنّ ما جال بخاطره يتطلّب مجهودا يتوقّف على تفرُّغ البال ووجود منار تاريخيٍّ يهتدي به، وكلا الأمرين مفقود.

وأبرز تخطيطه للتّاريخ التُّونسي وما حال بينه وبين إتمامه، وآنتقاده على آبن أبي دينار في خاتمة المقدِّمة وأغمض فيها بعض الغموض بسبب آلتزام السَّجع وهو ما دعانا إلى تحليل ذلك تقدمة لما ننقله.

"وقد كان قدما يختلج في الصَّدر، تأليف كتاب في سيرته عبير النَّشر، يبقى له على ممرِّ الأيَّام أطيب الذِّكر، محيطا بمعظم أحواله وتاريخ مملكته إحاطة الهالة بالقمر، محلّى بما قيل فيه من الأمداح نثرا وشعرا كتحلية الحسناء بالخفر، والجيد النَّاع باللآلي والدُّرر، ويطّلع به على قيم الفضلاء في عصره، ويخصُّ بتخصيص رعايته أدباء مصره، ويراهم به النَّاطقين، وغيرهم الأخرس، ويميِّزهم بالتَّقديم في ولايته وضدّهم يعكس، إذ هم لسانه على التَّحقيق في محاضر النَّوازل، وحيث يطلب معرفة أقدار البَوازل ومن يستطيع إذا لز في قرن صولة البوازل، فتصدُّ عن ذلك صوارف القدر، ونوائب أحداث الدَّهر، وما يقع للأماثل ممَّا هو سبب إخماد فكر كلِّ فاضل، ونسيان ما حصل من المسائل، وذلك تقديم العريّ يقع للأماثل ممَّا هو سبب إخماد فكر كلِّ فاضل، العلماء ذوي الفضائل، فيقعد عند ذلك في خمول كسر البيوت ويشتغل بتعب تحصيل القوت، ويعلم أنّ الوسيلة لا يلزم عليها ترتيب المقصد وأنّ آستحقاقه الشَّيء لا يقتضي الإعطاء بل يفقد، فيرغب حينئذ عن الفضائل ويزهد، ويرى تلك الأشكال عقيمة، وتحصيلها ليس له مع كساد الأسواق قيمة، وعدم الوقوف على تاريخ لمن تقدَّم من الأفاضل جامع لحلي من ملك بها من الأوائل، يعتمد الفكر في إبداء لآليه على دلالته ويهتدي في دجى ليالي الشُّكوك بلطيف إشارته ويتبيَّن صواب الأمر بعبارته،

سوى ما أتى به الأديب في زمانه أبو دينار، ممَّا لا يساوي درهما فضلا عن دينار، فإنَّه ساق وقائع من تقدَّم في تاريخه مساق كلام العامَّة في المحاورة، وما حلاَّه بأدب يستملح ولا نادرة، وفي الحقيقة هو معذور بعاميَّته، مشتغل بحرفته وصناعته، ومذ أوهنني الدَّهر بكلكاله، وقابلني منه ببلباله، علمت أنِّي لست من قبيله وآله، ولا ممَّن في العماية عن الهدى كابن كلاله، حتَّى أحظى منه بنواله، أو يسمح لي مع إعراضه بوصاله، وحملني الفكر الفاتر، على تأليف هذه الرِّسالة، وألجأني أن أقول على هذه الحالة.

وسمَّيتها "قرَّة العين بنشر فضائل الملك حسين، الممجَّد ونجله الأمير ٱبن الأمير الباي سيِّدي محمَّد"، وقلت:

[الكامل]

هل تطلق الآداب غير لسان من | غذَّاه صفو الدَّهر منه بدره
أو تعمل الاقدام إلاَّ من فتى | حاز النَّدى وحبِّي بخالص درِّه
الدَّهر يعلم من به يحوي العلى | ويضيء ليل الشكِّ منه ببدره
ومن الذي إن هزَّ أقلاما له | أنساه هزَّ كمية من بتره
لكن يعامل أهله برياسة | كي يردي الفضلا بقائم مكره
مع أنَّه لا تأتمنه بغاية | بلغت بل أيقننَّ بغدره
من فاز منه بمنحة فكحالم | يبدو له أن حاز أنفس بدره
فإذا أفاق فلا ترى في كفِّه | غير الجناية في مصادر أمره
عجبا لهم ومركب الجهل الذي | حازوا وما حفظوا أفاضل عصره
أهم لمكر الله قد أمنوا فلا | حول لنا إلاَّ بعالي قدره

والله أسأل أن يحمني من حاسد ماكر، عن الفضل ساكت وللمساوي ذاكر، خال من آداب السلوك هاضم للأفاضل بمجالس الملوك، غافل في يومه وأمسه، عن صالح يعدُّه للحلول برمسه:

[الطَّويل]

فيا ربُّ هل إلاَّ بك النَّصر يرتجى ... عليهم وهل إلاّ عليك المعوَّل
وهل غير حفظ منك يكلأ مهجتي ... وهل غير نصر منك يبغي المؤمّل

وأن يقابلنا بفضله بالجميل، ويطهِّر ألسنتنا من القال والقيل، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليِّ العظيم".

رتَّب هذا الكتاب على غير التَّرتيب التَّاريخي، فلم يجعله مرتَّبا على الأحداث، أو مرتَّبا على السِّنين بل خرج به إلى كونه كتابا أخلاقيّا كما سيتَّضح من ذكر ترتيبه فيما بعد.

ولعلَّ هذا هو السَّبب الذي دعا الشَّيخ ابن أبي الضِّياف إلى إهماله وعدم ذكره في كتب التَّاريخ التي ساقها تاريخا لتونس كما تقدَّم.

والواقف لا يتردَّد في أنَّه كتاب أخلاقيّ القصد منه ذكر الصِّفات الحميدة التي ينبغي التخلُّق بها، ويرمي من وراء هذا أن يكون كتابه معبِّرا عن قيمته العلميَّة، وهو ما دعاه لأن يحطَّ من قيمة كتاب "المؤنس في أخبار إفريقيَّة وتونس" لمحمَّد بن أبي القاسم الرّعيني القيرواني حيث سرد الحوادث مجرَّدة عن الأدب المستملح، وعن النَّوادر، ونسب ذلك لعاميَّته.

وهو محقٌّ إن كان القصد من الكتاب أن يكون كتابا أدبيّا، أمَّا إن قصد به التَّاريخ فهو خروج بالكتاب عن مقصده إلى آخر.

فلهذا إن نسب ابن أبي دينار إلى العاميَّة من هذه الناحية نراه مخطئا لأنَّ الأسلوب التَّاريخي غير الأسلوب الأدبي الأخلاقي، وما ساقه ابن أبي دينار من الوقائع لا مغمز فيه تاريخيًّا، ولا ضير عليه في عدم إدماج المستملحات والنَّوادر.

وأمَّا إن نسب ابن أبي دينار إلى العاميَّة في إنشائه وتراكيبه وعدم مراعاته للقواعد العربيَّة فذلك أمر مسلَّم له.

ولكنَّه لم ينتقده من هذه النَّاحية، وإنَّما ٱنتقده من ناحية عدم المزج بين سرد الوقائع التَّاريخيَّة، والمستملحات والنَّوادر، وهذا المزج في الحقيقة خلط بين التَّاريخ والأدب.

وهذا الخلط وإن كان قد ٱرتضاه بعض المؤرِّخين فإنَّه ليس بالصُّورة التي وضع المترجَم عليها كتابه، فإنَّ الذين مزجوا بينهما كتبوا تواريخهم بأسلوب أدبيٍّ مثل العتبي الذي كتب تاريخه "اليميني" بأسلوب أدبيٍّ لكنَّه لم يخرج في معناه عن التَّاريخ.

والمترجَم لا ٱنتقاد عليه في ٱختيار أيِّ أسلوب أراده لأنَّ الابتكار مطلوب في التَّأليف والخروج عن المعهود بما هو مقبول لا ضير فيهما، وإنَّما المترجَم إذا نظرنا في مقدِّمته نراه يبدي رغبته في تأليف تاريخ إذ يقول:

"وكان يختلج في الصَّدر تأليف كتاب في سيرته عبير النَّشر، يبقي له على ممرِّ الأيَّام أطيب الذِّكر".

فالذي يختلج في صدره أنَّه يريد تأليف سيرة للأمير المذكور، لكن إذا نظرنا في كتابه نجده قد ٱنبنى على غير ذكر السِّيرة بل ٱنبنى على أمور أخلاقيَّة، فهو إلى كونه كتاب تربية أقرب منه إلى كونه كتاب تاريخ، إذ الأخير فيه نزر.

ولا ننكر أنَّ تأليف مثل ذلك الكتاب للأمير المذكور فيه نصائح يحتاج إليها ذوو السُّلطان، وإنَّما هل يكون مثل ذلك تاريخا أو لا يكون تاريخا!

إنَّ الموضعين مختلفان فشتَّان بين الأخلاق والتَّاريخ، فلو لم يعنون هذا الكتاب "بقرَّة العين بنشر فضائل الملك حسين" لسلم من النَّقد.

فهو وإن كان يختم كلَّ موضوع أخلاقيٍّ بأنَّ الأمير المذكور له أوفر نصيب بتلك الشَّمائل، فليس في ذلك كبير فائدة تاريخيَّة إلاَّ أنَّ الممدوح بذلك الكتاب قد تحلَّى بتلك الشَّمائل، ولولا بعض فصول أدمج فيها بعض التَّاريخ لكان الكتاب غريبا عن كونه يسجِّل سيرة، أو ينشر فضائل.

فالقصد منه أن يكون كتاب سمر ونصيحة للممدوح إذ حشر فيه النَّصائح الحديثيَّة وغيرها إلى جانب حكايات ملتقطات من كتب شتَّى يستطيبها الأمراء وتبعث فيهم الأريحيَّة، وله في ذلك غرض خاصٌّ نوضِّحه عند الوصول إلى ما قصده من الكتاب عند ذكره لذلك أثناءه فإنَّه بيَّن الباعث الحقيقي.

وببيان محتوى الكتاب يتَّضح أنَّه ليس فيه من التَّاريخ إلاَّ ما يأتي كأنَّه أمر عارض إذ بنى الكتاب على بابين:

- الباب الأوَّل في أصل الصِّفات الحميدة،
- الباب الثَّاني في الولايات.

وإذا أخذنا الباب الأوَّل نجده قسَّمه إلى فصول تدخل في الصِّفات المذكورة فانبناء الباب الأوَّل على الأخلاق.

عقد في (الباب الأوَّل) فصولا أخرى كلُّها لا تخرج عن الصِّفات الحميدة التي عنوَن بها الباب، وهذا ممَّا يزيد تأكيدا بأنَّ هذا الباب المقصود منه تركيزه على الأخلاق الحميدة التي ينبغي التحلِّي بها.

فبعد أن مدح العقل كما تقدَّم، ذكر أنَّ (الفصل الثَّاني) من الباب الأوَّل في حسن الخلق وأطنب في ذلك، وما يذكر ممَّا يتعلَّق بالأمير المذكور لا يعدو ما جاء في الفصل الأوَّل.

ويتَّضح من هذا أنَّ الصِّفات الحميدة ومكارم الأخلاق التي توفَّر العلماء على التَّأليف فيها هي سيرة الأمير المذكور، فما يبحث عنه علماء الأخلاق من المكارم الخلقيَّة موجود فيمن ذكر، فكأنَّه هو المثل المطلوب في هذه الصِّفات، والمترجَم وإن لم يصرِّح بأنَّه المثل الكامل في ذلك فإنَّه قصده ولم يعبِّر هذا التَّعبير لأنَّه لم يكن معروفا في عصره.

وهذا من المبالغة التي بنى عليها كتابه، إذ يجعل أنّ ما ٱتّفق النّاس عليه من المكارم في باب حسن الخلق كان فيه الأمير المذكور واسطة العقد، وبالغا منه الدّرجة القصوى التي لا يساويه فيها مساو.

ولم يشاركه في هذا الأسلوب غيره ممّن ألّف في سيرة المذكور، إذ درجوا في تأليفهم إلى التّاريخ، فمثلا حسين خوجة في "ذيل بشائر أهل الإيمان في فتوحات آل عثمان" يخصُّ هذا الذّيل بتحلية أميرها ممّا شاهده بالعيان من خيراته ومزاياه الحسان، كما يقول في الصفحة 117.

وركّز هذا الكتاب على التّعريف بمراتب العلماء، وختمه بمناقب من عرفه وشاهده من المشائخ والأولياء، فكان مصدرا هامًّا لتراجم علماء تونس في تلك الحقبة، وهو مرجع ثريٌّ لمن أراد الوقوف على التّراجم، وإن كتبه بلغة خاصّة، لكنّه من حيث التّراجم مفيد في بابه.

وإذا نظرنا إلى كتاب "قرّة العين" نجده من مثل تلك الفائدة خلوا وكان حقيقا أن يترجم لعلماء عصره إذ قد مارسهم.

و"الحلل السندسيّة" رغم التقعُّر في العبارة ٱرتضى سبيلا غير سبيل المترجَم، فسعادة في "قرّة العين" كما يتّضح من فصوله أمّة برأسها في الأسلوب التّاريخي، والخروج عنه إلى معان أخر.

وجاء (بالفصل الثّالث) في مدح التّواضع، ولم يخرج فيه كذلك عن سننه إلاّ أنّه ذكر حكاية ليست لها أهميّة إلاّ أنّها تتّصل بالتّاريخ ليس غير، وهي أنّ الأمير المذكور كان مارًّا بالعاصمة بعد زيارته لمقامات الصّالحين، فعطف على باب الجديد فهرع للسّلام عليه أحد عدول تونس فلاقاه ملاقاة حسنة، وهو على فرسه.

وٱتّخذ من هذه المعاملة دليلا على حسن تواضعه، وبذلك يزيد يقينا أنّ هذا الكتاب كتاب أخلاقيٌّ ممزوج بشيء من التّاريخ.

وكان (الفصل الرَّابع) في العفو والشَّفقة.

ومن أهمِّ فصول كتاب "قرَّة العين" (الفصل الخامس) في العدل، لأنَّه وإن ذكر فيه ما يتعلَّق بالعدل ممَّا يذكره الكاتبون في هذه النَّاحية لم يخله من فوائد تاريخيَّة تتَّصل بسيرة من ألِّف الكتاب له.

دعاه إلى الإطناب التَّاريخي مسألة تختصُّ بصنفه، وهي أنَّ الأمير المذكور أجرى مرتَّبات للعلماء، وذلك ممَّا يعدُّ من حسناته التي بالغ في التَّنويه بها لأنَّه كفى هؤلاء العلماء مؤونة العيش، إذ أنَّهم كانوا يكدحون في الغالب تحصيلا لعيشهم، فصرفهم إلى النَّاحية العلميَّة، وهؤلاء الممنوحون وإن كان عددهم قليلا فإنَّها ظاهرة طيِّبة في التَّعليم التُّونسي حيث نظَّم المدرِّسون من قبل الحكومة بعد أن كان التَّعليم مقصورا على المدارس، وهي لا تذكر، ثمَّ هي خطوة أخرى نحو تولِّي الحكومة لمرتَّبات رجال التَّعليم بعد أن كانت مقصورة على الأوقاف إلاَّ في القليل النَّادر، ويشير إلى هذا:

"وقد بلغ أميرنا حفظه الله ورقاه ومن كلِّ مكروه حماه ووقاه، ذروة هذه الخصلة، فحصل له بها مع الخلق أعظم وصلة، ووصل كلَّ معتمد حبله، فآب منه بأوفر نحلة، فلقد حبا أفاضل بلده بمزيد إحسانه وهنَّاهم من كدِّ العيش وأحزانه، وترصَّد لهم من مزيد شفقته جهة الحلِّ من العطيَّة، ورتَّب لهم جوامك تصرف لهم من الجزية، فهم وإن ٱستحقُّوها بمقتضى حكم الشَّرع، فقد منعوا منها غاية المنع، فالفضل له إن جاء بما كان قبله ممنوعا، ولم يسمح أن يجعله عن مستحقِّه مقطوعا، مع زوائد من أفضاله متوالية عليهم وافرة، وفي غرَّة وجه هذا الدَّهر بادية ظاهرة، فلذلك نسل الخلق إليه من كلِّ حدب، وحصل لهم منه غاية الأمنية والأرب.

فقام لسان الدَّهر ينشد قائلا   أمير الهدى حقّا حسين المبجّل"

نراه في هذه الإشارة يقتضب التَّاريخ، فعوض أن يحدِّثنا عن العدد الذي قرَّره الأمير المذكور، وعن أسماء من ٱختارهم يركِّز قوله على نقطة خاصَّة

وهي أنَّ هؤلاء الأفاضل كان هذا الحقُّ لهم ولكنَّهم منعوا منه، وعلى كلٍّ فالأمير مشكور لأنَّه أعاد لهم حقًّا كان عنهم ممنوعا.

فالسَّجع وٱختزاله حرما كتابه من التَّحقيق التَّاريخي، فما جاء به من التَّاريخ يكاد يكون إشارات تاريخيَّة.

وبعد ذكره ما نقلناه ذكر ما ذكره صاحب الذَّيل من منشآته، ومنها: الجامع المعروف الآن بالجامع الجديد، وكان يعرف بالجامع الحسيني.

ويأتي (الفصل السَّادس) في حكم وآداب تستطاب بين ذوي الألباب.

وعقد (الباب الثَّاني) في الولايات وبحث فيه بحثًا مطوَّلا في القضاء وذكر أوَّل من ٱستقضي وحكمة مشروعيَّة القضاء، وأفاض في مسألة من شروط القضاء، وهي أن يكون القاضي بلديًّا حيث ذكر ٱبن الحاجب في مختصره الفقهي أنَّ من شروط القاضي أن يكون بلديًّا ليعرف المقبولين من غيرهم من الشُّهود ويقصدون بهذا الشَّرط أنَّ قاضي البلدة من أهلها لا من غيرهم حتَّى يعرف حال الشُّهود.

ورجَّح المترجَم ما ذكره ٱبن عبد السَّلام من أنَّ الولاة -أي سلاطين بني حفص- يرجِّحون غير البلدي لأنَّ البلدي لا يخلو من أعداء، والغالب وجود المنافسة بينه وبين أهل بلده.

وكأنَّه بحث في هذا الشَّرط طويلا لترشيح نفسه للقضاء بالحاضرة التونسيَّة، ولقطع الألسنة التي ربَّما تتمسَّك بهذا الشَّرط حيث أنَّه من مواليد المنستير، وبهذا ندرك الأمور الواهية التي كان متعلِّقا بها أهل العلم، فما هو تأثير الولاية يا ترى على الشَّخص حين تتوفَّر فيه المؤهِّلات التي تؤهِّله للقضاء من العلم والعدالة والنَّباهة؟

ثمَّ نوَّه المترجَم بعصره حيث تفرَّغ العلماء فيه للتَّأليف، وضرب لذلك مثلا الشَّيخ محمَّد زيتونة المنستيري (-1138هـ) الذي له تآليف عديدة من

أهمّها: "حاشية تفسير أبي السُّعود"، وهي حاشية لو تمّت لبلغت ثلاثين مجلّدا، وقد أتمّ منها تسعة عشر مجلّدا.

وكانت هذه مناسبة لذكر العديد من العلماء ولكنّه ضيّع هذه المناسبة، إذ كان من المناسب أن يترجم لشيوخه من تونس ولكنّه لم يفعل، وإنّما ترجم لشيوخه المصريّين، وبالأخصّ الشّيخ محمّد الزرقاني شارح الموطأ والمواهب.

وختم بفصل في الأوقاف.

مقارنة

إنّ العرض المتقدّم لكتاب "قرّة العين" للمترجَم يؤكّد لنا أنّنا لا نتردّد في أنّه ليس بكتاب تاريخي وحتّى ما جاء فيه من التّاريخ، إذا عرض على التّاريخ الصّحيح لا يقوى على الثّبات أمام مقارنته بما كتب تاريخيًّا وتحليلا مثل ما كتبه مؤرّخ تونسيٌّ وهو الوزير ٱبن أبي الضياف ممزوجا.

هذا الضُّعف يتجلّى في النّاحية العلميَّة الممتزجة بالتّاريخ، فإذا أخذنا هذه النّاحية الدينيَّة نرى الوزير ٱبن أبي الضياف يحدِّثنا عن نصب الإمام، وما ذكره علماء الكلام في هذه النّاحية عارضا ذلك في تقسيم بديع حيث قسّم الحكم إلى ثلاثة أصناف: الحكم المطلق، والحكم الجمهوري، والملك المقيَّد.

وهو وإن كان ضعيفا ضعفا بيِّنا في القسم الثّاني وهو الحكم الجمهوري، وكأنّه لم يتصوَّره، فلذلك كان حكمه مخطئا، غير أنّه أبدى النَّظرة الشرعيَّة الدَّقيقة في الحكم المطلق، وكان مسدَّدًا فيما أبداه ممَّا يدلُّ على بعد غور، ونظرة توفِّق بين التّاريخ والدِّين متشبِّعة بروح ٱجتماعيَّة متأثِّرة غاية التأثُّر بٱبن خلدون، وفي ٱستطاعتها تطبيق ما جاء به ٱبن خلدون من نظريَّات ٱجتماعيَّة.

فهناك فقر لها قيمة متناثرة في الكتاب مثل حكمه على الملك المطلق إذ يقول: "...والحاصل أنَّ هذا الصِّنف – وهو الملك المطلق – يعارضه الشَّرع

لأنَّه تصرّف في عباد الله وبلاده بالهوى، والشَّرائع جاءت لإخراج المكلَّف عن داعية هواه... قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ ٱتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾"[1]...وفي الحديث الشَّريف: «أشقى الولاة من شقيت به رعيَّته».

ويعارضه العقل أيضا لأنَّه تغلُّب وقهر وهما من آثار الغضب والقوَّة الحيوانيَّة، وموضوع للإنصاف ورفع التعدِّي وجلب المصلحة ودرء المفسدة، وكيف يظلم من ٱنتصب لرفع الظُّلم حتَّى قال الأعرابي لبعضهم:

أوتيت ملكا لترعانا فتأكلنا   أكل الذِّئاب أذئب أنت أم راعي؟"[2]

وهذه الفقرة لو وزنت بكتاب "قرَّة العين" لرجحته، فضلا عن أخواتها وهي في الكتاب كثر.

ونجد المترجَم حين مزج الفقه بالتَّاريخ كان مجرَّد ناقل، ففي كلامه على القضاء لم يزد على ما يذكره الفقهاء من شروط القضاء وغير ذلك.

فعوض أن يعرض النظريَّات الفقهيَّة التي تبرز وجه التَّاريخ الاجتماعي يتهافت على الحكايات والحوادث التَّاريخيَّة التَّافهة، وبذلك فقد كتابه أن يكون عمدة في التَّاريخ حتَّى التَّاريخ المجرَّد مثل "المؤنس".

ويرجع هذا التَّباين بين المترجَم وٱبن أبي الضياف إلى سبب أصيل في ظنِّي، وهو أنَّ المترجَم كتب كتابه وهو مدفوع إلى جعله تقدمة للأمير حسين بن علي، فهو أشبه ما يكون بقصيدة مدح مدبَّجة للإشادة بحكم الأمير المذكور، لأنَّه ألَّفه وهو يطمع في الوظائف الدِّينيَّة وبالأخصِّ القضاء كما تقدَّم.

ألَّفه والأطماع جائشة في صدره فخرج معبِّرا عن تلك الأطماع بالإغراق في المدح، والإسفاف في التَّاريخ، حتَّى فقد التَّاريخ مسمَّاه الحقيقي.

---

1 سورة القصص، الآية 50.

2 الإتحاف 1/15-16.

بينما ألَّف ٱبن أبي الضياف تأليفه و لم يقصد به إلاَّ التَّاريخ ذاته، فالدَّافع تاريخيٌّ صرف مع فكرة مكوَّنة من أثر المهنة السياسيَّة التي باشرها والتقلُّبات في الوظيفة، ثمَّ السَّفر إلى الخارج، كلُّ ذلك أكسبه نظرة ثاقبة في الحكم وما يصلح منه وما لا يصلح، بخلاف المترجَم الذي جاء خلوا من كلِّ ذلك، فهو يكتب لا عن فكرة تاريخيَّة وإنَّما يكتب عن طالبيَّة في ذلك العصر الذي لا يثقِّف الطَّالب ثقافة سياسيَّة.

وليس هذا بالعذر الذي يرفع عن المترجَم اللَّوم لأنَّه وإن كان تأليفه ناشئا عن غير تجربة سياسيَّة فإنَّه لم يحسن كتابة التَّأليف التَّاريخي، وكان بوسعه أن ينتفع بالمورد الذي ورد منه ٱبن أبي الضياف، وهو مقدِّمة ٱبن خلـــدون، إذ هي معروفة في عصره ومشتهرة.

فلو سار على ضوئها في "قرَّة العين" بعض السَّير لما جاء تاريخه بتلـــك الصُّورة الاستجدائيَّة في قالب أخلاقيّ وفي أسلوب كتب المحاضرات.

قد بعدت "قرَّة العين" عن الأسلوب الخلدوني، وكأنَّه لم يطَّلع عليه، وإن ٱطَّلع عليه لم يتأثَّر به إذ لو تأثَّر به بعض التأثُّر لظهر ذلك في أسلوبه، وحتَّى الكتاب الذي ٱنتقده وهو "المؤنس في أخبار إفريقيَّة وتونس" لو ٱقتصر على أسلوبه لأفادنا إفادات تاريخيَّة جمَّة.

وحاد به عن المنهج الحقيقي في التَّاريخ، علاوة على أنَّه أراده كتـــاب محاضرات، إنَّه أراد أن يودعه نظمه الذي مدح به أمير عصره فقد حشد فيه الكثير من شعره في أغراضه المدحيَّة.

فهو من هذه النَّاحية ديوان فيه أكثر شعره، ولمَّا كان منصبًّا على ناحية واحدة، وهي ذلك التَّقريظ بالصِّفات الحميدة كان ذلك الشِّعر باديا عليـــه التكلُّف.

فقيمته أدبيَّة حيث جمع تلك الأشعار التّي تحتلُّ جزءا هامًّا من الكتاب، وتبرز القيمة الأدبيَّة للشِّيخ سعادة، فهو وإن كان من فقهاء عصره فهو أديب من هذه النَّاحية، وشعره الذي هو خارج هذا الكتاب لا يعدُّ بالنِّسبة لما جاء فيه.

فدراسته الأدبيَّة تتوقَّف على "قرَّة العين" من حيث نظمه ونثره، إذ هذا الكتاب يعطي صورة واضحة من أدبه، وبذلك يستطيع الدَّارس أن يحكم حكما مستندا فيه على مجموعة وافية من أدبه.

القاضي الأديب

قضى سعادة حياة مكَّنته من إدراك رغبته في تسنُّم أعلى وظيف شرعي وهو القضاء المالكي، وتدرَّج في السِّلك الشَّرعيِّ إلى بلوغه أقصى مطمح، فحقَّق بذلك أمنيته التي ألَّف من أجلها كتابه السَّابق الذِّكر، وأصبح علما من أعلام تونس، وقد وفِّق في قضائه، وٱمتاز قضاؤه بأنَّه كان سببا في إثارة قرائح الشُّعراء لمخاطبته بقطع شعريَّة أجاب عنها بمثلها كما تقدَّم، وذلك لما كان فيه من روح أدبيَّة، فلولا أنَّ الشُّعراء يعرفون أنَّ الشِّعر يهزُّه لما خاطبوه ٱستنجازًا لفصل خصوماتهم، وقد ٱمتاز بذلك عن علماء عصره، إذ لم نسمع أنَّه خوطب غيره في قضائه بما خوطب به.

وفاته

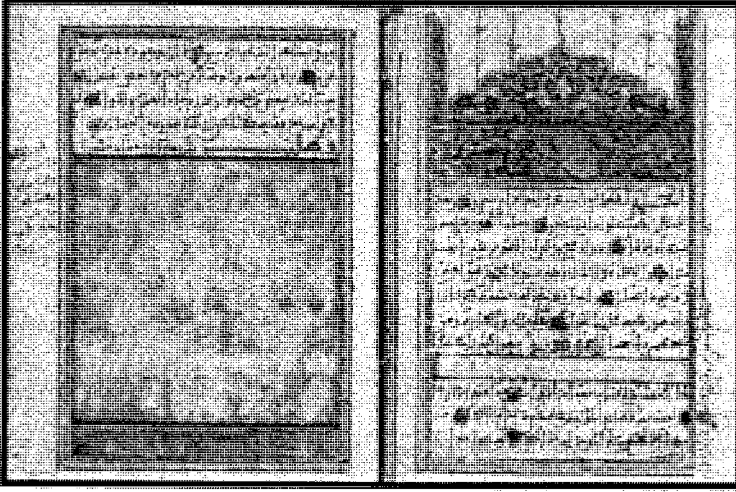
ذكر في "مسامرات الظَّريف"[1] قصَّة تتعلَّق بوفاته وهي أنَّه أدرك في مبدإ حياته الوليّ الصَّالح الشَّيخ عبد الرَّحمان بن أبي الغيث الطَّرابلسي الشَّريف، وكان صاحب التَّرجمة كثير الزِّيارة للوليِّ المذكور بداره التي بالممر خارج باب المنارة -الذي يعرف بالمرِّ الآن-، وكان الوليُّ المذكور يقول للشَّيخ:

---

1 مسامرات الظَّريف 175/2.

"هذا الموضع يجمع عظامي وعظامك"، توفّي الوليُّ أوائل ربيع الأوّل سنة 1122هـ وبعد مضيٍّ زمن اشترى الشَّيخ سعادة دارا بجوار زاوية الوليِّ المتقدِّم، ولمَّا توفِّي صاحب التَّرجمة دفن على يمين قبر من ذكر، فكان ذلك الموضع يجمع عظامهما.

وكانت وفاة الشَّيخ سعادة سنة 1171هـ.



صورة 5 : الورقة الأولى والثانية من مخطوط مفتاح الأفراح في امتداح الرّاح، تأليف عبد المحسن بن محمد التنوخي (-643هـ) هذّبه وأضاف إليه محمد الدرناوي قطعة وأضاف إليه من اشعار غيره الشيء الكثير وهو بخطّه.

محمّد الدّرناوي

الدَّرناويَّان

ٱشتهر بمحمَّد الدَّرناوي رجلان ترجم لكليهما الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف في الجزء السَّابع من تاريخه وذهب بي الظنُّ إلى أنَّهما أخوان وإن كانت النُّسخة المطبوعة من التَّاريخ المذكور ذكرت أنَّ ٱسم والد الأوَّل حسن، ووالد الثَّاني حسين وأرجعت ذلك إلى أنَّه أخطأ في أحدهما فهما إمَّا ٱبنا حسين أو حسن.

ولَمَّا وقفت على بعض منتسخات الأوَّل ظهر لي أنَّهما ليسا بأخوين، هذا وإنِّي ٱعتمدت على هذه النُّسخة ولم أعتمد على من ترجم لهما غير الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف لأنَّ من ترجم لهما غيره ٱعتمد على ما ذكره المؤرِّخ المذكور، وهو قد أجحف في ترجمة الثَّاني.

ذكر الأوَّل الشَّيخ مخلوف في "شجرة النُّور الزكيَّة"[1]، وهو الدَّرناوي المفتي وٱختصر ما جاء في "إتحاف أهل الزَّمان".

وترجم للثَّاني الشَّيخ محمَّد النَّيفر في "عنوان الأريب"[2] حيث أنَّه من الكتَّاب الأدباء.

فالذي حقَّق لي أوَّلا أنَّهما ليسا بأخوين وأنَّ أب الأوَّل حسن، والثَّاني حسين الرُّجوع إلى نسخة بخطِّ الأوَّل، وأخرى بخطِّ الثَّاني، إذ كلاهما مولع بالنَّسخ وإن كان الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف خصَّ الأوَّل وهو المفتي بجودة النَّسخ.

---

1 "شجرة النُّور الزكيَّة"، محمَّد بن محمَّد مخلوف، 350/1، دار الفكر.
2 "عنوان الأريب"، محمَّد النَّيفر 611/1، دار الغرب الإسلامي.

"وكتب بجميل خطِّه كتبا عديدة على جميعها تقاريره المفيـــدة، وتبـــاع الكتب التي بخطِّه بضعف قيمتها إلى الآن لما على حواشيها مـــن تقـــاريره الواضحة البيان".[1]

والدَّرناوي الثَّاني[2] وهو الكاتب مثل الأوَّل في جودة النَّسخ فقد وقفـــت على بعض ما نسخه فإذا هو لا يقلّ عن الأوَّل جودة خطّ، بل ويزيد عليـــه في التَّحقيق وكثرة التَّقارير على ما يكتبه مع زيادات أخرى فلعلَّ الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف لم يقف على ما نسخه، فلذلك خصَّ الأوَّل وهو المفتي بجـــودة النَّسخ دون الثَّاني.

أمَّا الدَّرناوي المفتي فقد ترجم له في "إتحاف أهل الزَّمـــان" أوَّلا ترجمـــة أحفل من ترجمة الثَّاني، ونوَّه بشأنه العلمي حيث ذكر أنَّه حاز قصب السَّبق في هذا الشَّأن، وتصدَّر للفتوى فبلغ الغاية القصوى.

ووصفه بأنَّه كان بارعا في الفقـــه والفرائض وله شـــرح على الـــدرَّة، وهي نظم في الفرائض يعرف "بالدرَّة البيضاء" من نظم الشَّيخ عبد الرَّحمان الأخضري[3]، وقد ٱعتنى بهذا النَّظم كثير من التونسيِّين، فكما شرحه المفـــتي الدَّرناوي شرحه غيره.

وفي غير "الإتحاف" أنَّ له كتابة على الشَّيخ عبد الباقي الزرقاني شـــارح "المختصر الخليلي"، وله كتابة على البخاري وله غير ذلك.

وتولَّى الإفتاء بعد الشَّيخ أحمد الثَّعالبي الشَّهير بالبرانسي[4]، وكانت وفاة البرانسي سنـــة 1197هـــ و لم تطل مدَّة الـــدَّرناوي في الفتـــوى، وتـــوفِّي

---

1 إتحاف أهل الزَّمان، ص19/7.

2 المرجع السابق29/7.

3 عبد الرحمن بن محمَّد الأخضري: صاحب "متن السلَّم" "أرجوزة في المنطق"، و"الجوهر المكنون"، و"الدرَّة البيضاء"... إلخ. توفي سنة 983هـــ/ 1575م. (الأعلام 108/4).

4 أبو العباس أحمد الشريف الثعالبي الشهير بالبرانسي أحد أعلام المفتين بالمذهب المالكي. تصدَّر للفتيا وصار رئيس المفتين. توفي سنة 1197هـــ/ 1782م. (الإتحاف 13/7).

بالطَّاعون في أوساط رجب سنة 1199هـ ورثاه الدَّرناوي الكاتب بقصيدة مطلعها:

ها قد توسَّد في الضَّريح صعيدا من بعد ما جاز السماك صعودا

ودفن بمقبرة جبل الفتح

والنُّسخة التي جاء فيها أنَّ أباه حسن هي التي كتبها بخطِّه وهي "حاشية الشَّيخ الحسن اليوسي[1] على مختصر السَّنوسي"، وهذا ما جاء في آخر الكتاب بخطِّه:

"ٱنتهى بحمد الله تعالى وحسن عونه وتوفيقه على يد أحوجهم إليه وأفقرهم لديه محمَّد بن حسن بن علي الدَّرناوي غفر الله جميع المساوي".

وعلى هذا المهيع ما ذكره ٱبن أبي الضِّياف أنَّه ٱبن حسن فلعلَّ ٱبن أبي الضِّياف وقف على هذه الحاشية بخطِّه على فرض أنَّ النُّسخة المذكورة من "إتحاف أهل الزَّمان" صحيحة، وتبع هذه النُّسخة صاحب "شجرة النُّور الزكيَّة".

لكن بالرُّجوع إلى غير نسخة ممَّا نسخه الدَّرناوي المفتي نجده يكتب بخطِّه أنَّه ٱبن حسين فلعلَّ ما جاء في آخر "حاشية اليوسي" سبق قلم، وبهذا نجزم أنَّه أخو الكاتب وذلك هو التَّحقيق.

وممَّا جاء بخطِّه ما كتبه آخر "حواشي الكمال" محمَّد بن أبي شريف الشَّافعي المقدسي[2] على شرح "العقائد النَّفسية" لسعد الدين التفتازاني

"ٱنتهت هذه الحواشي على يد عبيد الله تعالى وأقلِّ عبيده فقير ربِّه، وأسير ذنبه محمَّد بن حسين الدَّرناوي، ستر الله له تعالى جميع المساوي،

---

1 الحسن بن مسعود بن محمَّد، أبو علي، نور الدِّين اليوسي: فقيه مالكي أديب. من كتبه "المحاضرات"، "قانون أحكام العلم"، "حاشية على شرح السنوسي"... الخ. توفي سنة 1102هـ/1291م. (الأعلام 237/2).

2 محمَّد بن محمَّد بن أبي بكر بن علي بن أبي شريف المقدسي، أبو المعالي، كمال الدِّين ٱبن الأمير ناصر الدِّين: عالم بالأصول، من فقهاء الشَّافعيَّة. له تصانيف، منها: "الدُّرر اللَّوامع بتحرير جمع الجوامع"، و"الفرائد في حلِّ شرح العقائد"... الخ. توفي سنة 906هـ/1501م. (الأعلام 281/7).

وغفر الله لولديه ولمشائخه ولأحبّته، ولمن أحسن إليه وأساء إليه، كتبته لنفسي ولمن شاء الله بعدي".

وقريب من ذلك ما في آخر حاشية حمزة التّارزي على المقدِّمات السنوسيَّة، وفيه أنَّه ابن حسين.

وكذلك الجزء الثّاني من حاشية الشّيخ يس[1] على مختصر السَّعد في البلاغة:

"كمل نسخ هذه الحواشي للعبد الفقير المقرِّ بالعجز والتّقصير، كثير الخجل بما اقترفه من الذّنوب والمساوي محمَّد بن حسين بن علي شهر بالدَّرناوي، غفر الله حوبه، وأحسن بفضله خاتمته وأوبه، ورحم والدينا ومشائخنا وجميع المسلمين، وجعله بفضله يوم الفزع الأكبر من الآمنين، كتبه لنفسه ولمن شاء الله من بعده وذلك لسبع عشرة ليلة مضت من شهر رمضان المعظّم قدَّره بالإنزال من الرَّابعة من السَّابع من الثّاني عشر هجريَّة". أي سنة 1164هـ.

إنَّ هذه النُّصوص متضافرة على أنَّ والد المفتي حسين هو أخو الكاتب، ويزيد هذا تحقيقا أنَّ الشَّيخ محمَّد السَّنوسي في "مسامرات الظّريف" جزم بأنَّهما أخوان ونصُّه:[2]

"الشَّيخ محمَّد بن حسين الدَّرناوي نشأ هو وأخوه في طلب العلم الشّريف، فأمَّا أخوه أبو عبد الله محمَّد الدَّرناوي فقد تعلّق بالآداب"، وترجم له ترجمة مختصرة ضمن ترجمة أخيه.

والظّاهر أنَّ المفتي هو الأخ الأكبر كما يستفاد من المسامرات "وأمَّا أخوه صاحب التَّرجمة فإنَّه سبق أخاه المذكور إلى العلوم الشرعيَّة فتضلّع فيها".

---

1 ياسين بن زين الدِّين بن أبي بكر بن عليم الحمصي، الشّهير بالعليمي: شيخ عصره في علوم العربيَّة، له حواش كثيرة منها "حاشية على شرح التّلخيص المختصر للسعد التفتزاني". توفِّي سنة 1061هـ/1651م. (الأعلام 155/9).

2 "مسامرات الظريف" 187/2.

لم يبق شكٌّ في أنّهما أخوان، وما في تاريخ ٱبن أبي الضّياف خطأ من النّاسخ سرى إلى المطبوعة حيث إنّي رجعت إلى نسخة قلميّة من تاريخ ٱبن أبي الضّياف فإذا فيها أنّ أباه حسين، فما في المطبوعة هو ٱعتماد على نسخة غير صحيحة.

الدّرناوي الكاتب

هو محمّد بن الحاج حسين بن علي الشّهير بالدّرناوي، وقد عرّف بنفسه في آخر نسخة "شذور الذّهب" التي نسخها بخطّه وٱعتنى بها غاية الاعتناء، وفيها:

"وقد تمّ تسويد هذه النُّسخة المباركة على يد عبد من هو إذا عصاه عبده ستره، وإذا طلب منه عناية نصره، خديم العلماء العاملين والفقراء الذين ٱجتهدوا في خدمة مولاهم وعبدوه على اليقين، محمّد بن حسين بن علي الدّرناوي نسبا، التُّونسي منشأ ومسكنا، المالكي مذهبا، الأشعري ٱعتقادا، الشّاذلي طريقة، أواخر صفر سنة 1155هـ ونظمت ٱسمي وتاريخه لأنّ النّظم أحظى من النّثر فقلت بعد الاستعانة بالله، والتوكُّل على الله، والاستمساك به"، ومطلع نظمه هنا:

وقد تمّ ذا التّسويد من فضل ربّنا   على يد عبد الله يدعى محمّدا

ٱسمه ولقبه

تفيد الأبيات التي وقعت الإشارة إليها سابقا أنّه كما يسمّى محمّدا يسمّى حمُّودة، وهذه التّسمية إحدى التّصرفات في ٱسم محمّد، والظّاهر أنّه لمّا كان هو وأخوه يسمّيان بٱسم واحد وقعت التّفرقة بين الاسمين بإبقاء أحدهما بدون تصرُّف وهو المفتي، وأمّا المترجَم وهو الكاتب فصار يدعى بحمُّودة.

ومن ٱمضاءاته نستفيد أنّه كان يؤثر أن يسمّى محمّدا إذ لم يقع له فيما يكتبه بخطّه أنّه سمّى نفسه ولو مرّة واحدة بحمُّودة، ونعم هذا الإيثار حيث أخذ الاسم الشّريف كما هو.

وهذه الأبيات التي ختم بها النّثر السّابق:

وقد تمَّ ذا التَّسويد مـن فـضل ربِّنـا   على يد عبد الله يـدعى محمَّـدا
وتاريخه (نقـش) وزد لـه خمـسة   سنين وقل ثلثان من صـفر غـدا
وصلِّ وسلِّم يا إلهـي علـى النَّبـي   وآل وصحب ثمَّ من بهـم ٱقتـدى
(وحمُّودة) عفوا وسترا فجد لـه وأطلق   بفضلك يا الله قصرا علـى العـدى
لـساني عنـد مـوتي موقنـا   بتوحيدك اللَّهـم لا تخـزني غـدا
وعمِّم جميـع المـؤمنين تفـضـلا   فما خاب من يرجوك يا سـامع النِّـدا

وأشار (بنقش) إلى تاريخ نسخ الكتاب، وهو خمسون ومائة وألف، لأنَّ النُّون بخمسين والقاف بمائة والشِّين بألف، لكن بقيت خمـسة لأنَّ نـسخه كان سنة 1155هـ فلذا ٱحتاج إلى إضافة الخمسة بقوله (وزد له خمـسة)، فهذا التَّاريخ مركَّب من أمرين، وذلك معيب إذ كان عليه أن يأتي بالتَّاريخ الأبجدي دون أن يقول (وزد له خمسة).

وربَّما يبدو أنَّ هناك ٱنتقادا آخر، وهو أنَّ هذا التَّاريخ لا معـنى لـه، والشَّأن في التَّواريخ أن تكون ذات معنى مرتبط بالمعاني المـشار إليهـا في الأبيات، لكن يمكن أن نلتمس عذرا للمترجَم وهو أنَّ هذا التَّاريخ له معنى مناسب، وهو أنَّ عمله في كتاب "شذور الذَّهب" لابن هشام هو النَّـسخ، وعبَّر عن نسخه بأنَّه مجرَّد نقش.

وهذا من تواضعه حيث لم ينسب لنفسه من عمل في الكتاب المـذكور غير النَّسخ، مع أنَّه عمل فيه عملا تجاوز النَّسخ بتعاليقه الـتي همَّـش بهـا الكتاب، فكانت كتابة على الشُّذور كما سنوضِّحه عند الكلام على تأليفه.

وإشارته إلى أنَّه يسمَّى حمُّودة في هذا الصَّدر:

وحمُّودة عفوا وسترا فجد له

ولا يمكن أن يشير بذلك إلى غيره، فلا بدَّ أنَّه يعني نفسه فالدُّعاء لنفسه بالعفو والسَّتر.

وكتب على هامش هذه الأبيات غيرها لكن ليست من بحرها، ولا مـن قافيتها، وهي دعاء لنفسه آخر بالموت على محبَّة الأصحاب، والنَّبي صلَّى الله

عليه وسلَّم، وهي له إذ لم أقف عليها بغير خطِّه ثمَّ هي لا تخرج عن نفس الشِّعر المتقدِّم، وهي أبيات ثلاثة:

أمات الله كاتبه محبًّا لأصحاب النَّبي مع النَّبي
أبي بكر وفاروق جميعا وعثمان الرضى مع علي
وأسكنه بذلك دار عز جنان الخلد ذا الرَّوض العلي

كما كان يتلقَّب بالدَّرناوي كان يتلقَّب بالطَّرابلسي والنِّسبة إمَّا لناحية خاصَّة من طرابلس، وإمَّا أن تكون للقطر، فلا تخالف بين الدَّرناوي والطَّرابلسي، ولقَّب نفسه بذلك في آخر شرح "شواهد الشذور" المختصرة من "شرح شواهد" أبي القاسم بن محمَّد البجائي التُّونسي[1] الذي كان حيًّا سنة 1025هـ، وإليك ما جاء في آخرها:

"تمَّ تسويده على يد عبيد الله وأفقر عبيده إليه خديم العلماء ومملوكهم، محمَّد بن حسين الطَّرابلسي نسبا، والمالكي مذهبا، التُّونسي منشأ ومسكنا، الأشعري ٱعتقادا غفر الله له ولوالديه، ولجميع المسلمين، الأحياء منهم والميِّتين، أوائل رجب الحرام سنة 1155هـ خمس وخمسين ومائة وألف وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه وسلَّم تسليما كثيرًا دائما ما دمت للعالمين راحما يا الله يا مولانا. وقلت:

[المتقارب]

وقد تمَّ كتبي لهذا الكتاب بعون الكريم ومعطي الثَّواب
أوائل شهر الحرام رجب وعام (نقيش) بسقط (ابب)
وصلِّ إلهي على المصطفى وآل وصحب أهالي الوفا
وعبدك محمَّد أتى معلنا لتعفو عن ذنبه إذ جنى

ٱنتهى".

1 الشَّيخ العلاَّمة أبو القاسم الشَّهير بالبجائي، كان فقيها محدِّثا، ورعا خمولا، وكان إماما خطيبا بجامع الخطبة. ألَّف كتبا منها: "شرح قطر النَّدى"، و"شرح الشُّذور"...الخ. (ذيل البشائر، ص184-185)

وقد تكلَّف في البيت الأخير غاية التكلُّف حيث سكَّن دال (وعبدك) في حال الإضافة، وكذلك سكَّن دال (محمَّد) في الوصل إذ بدون التَّسكين في الدَّالين لا يستقيم الوزن، والأبيات من بحر المتقارب.

ولم يسلم تاريخه الثَّاني من التكلُّف، إذ أتى به أوَّلا بما يفيد أنَّه سنة 1160هـ لأنَّه زاد الياء في نقش، وهي بعشرة مع أنَّ تاريخ النَّسخ كما صرَّح به سنة 1155هـ فلذلك ٱحتاج أن يزيد قوله بسقط (ابب) أي أنَّ التَّاريخ ذلك يسقط منه خمسة، ولم يصرِّح بلفظ الخمسة كما في الأبيات الأولى، وإنَّما أفاد ذلك بقوله (ابب) لأنَّ الألف بواحد، والباء بٱثنين وهي مكرَّرة فالحاصل من ذلك خمسة، ثمَّ إنَّ (ابب) لا معنى له، وبإسقاط الخمسة من 1160 يحصل التَّاريخ المطلوب.

ونستطرد هنا تحقيقا في مؤلِّف ٱختصار "شرح الشَّواهد" للبجائي حيث أثبت هنا المترجَم الدَّرناوي أنَّ هذا الاختصار لبعض السوسيِّين إذ كتب على ظهر هذه النُّسخة:

"هذا شرح "شواهد الشُّذور" لبعض السوسيِّين من المتأخِّرين، رحمه الله تعالى ورحم جميع المسلمين".

بينما طبع الكتاب في مصر سنة 1291هـ بٱسم مؤلِّف آخر مصري وهو محمَّد علي الفيُّومي الشَّافعي، ولم أقف له على ترجمة. وهو غير الفيومي المشهور شيخ الأزهر، إذ هو إبراهيم بن موسى الفيُّومي (-1137هـ).

ولا شكَّ أنَّ ما ذكره المترجَم من أنَّه لبعض السوسيِّين من المتأخِّرين هو التَّحقيق ولا محيد عنه لأنَّ البجائي من علماء تونس ولم أر من ذكر كتبه من المشارقة، فالذي وقف على شرحه للشَّواهد لا بدَّ أن يكون من التونسيِّين.

ويغلب على الظنِّ أنَّه لبعض عائلة (أبي راوي) من سوسة الذي ٱختصر كتبا أخرى.

بقي أنَّ المترجَم هل هو طرابلسي المولد ووفد صغيرا مع عائلته؟ والذي يفيده كلامه أنَّ الدَّرناوي، وكذلك الطَّرابلسي إنَّما ذلك نسبة، إذ يقول

الدَّرناوي نسبا، أو الطَّرابلسي نسبا فالذي نعتقده أنَّ عائلتــه وفــدت إلى تونس، وبقيت محافظة على نسبتها.

وليس ببعيد أن يكون الوافد هو والده لأنَّه لمَّا حجَّ في تلك الحقبة الــتي كان الحجُّ فيها صعبا كان من القريب أنَّه من أهل الأسفار فبعدما شــرَّق غرَّب، وٱستطاب المقام بتونس.

والمترجَم لو كان من غير مواليد تونس لم يذكر أنَّــه التونــسي منــشأ ومسكنا، فجعله لتونس منشأ له دليل على أنَّه من مواليدها.

لكن صلته بقطره الأصلي لم تنقطع كما سنفيده في تلقِّيه للمعارف.

ومن الغريب أنَّ الدَّرناوي أغفلته كتب الأنساب فلم يُذكر في "لبــاب" ٱبن الأثير، ولا "لبُّ اللُّباب" للسُّيوطي، ولا في "فتح ربِّ الأرباب".

تعلُّمه

أغفل صاحب "إتحاف أهل الزَّمان" شيوخه الذين أخذ عنهم لأنَّه اقتضب ترجمته غاية الاقتضاب، وبالطَّبع من ٱعتمد عليه لا يجد ما يذكر عن تلقِّيــه وتعلُّمه.

ولم يهمل هذه النَّاحية السَّنوسي في ترجمتيه لــه لأنَّــه تــرجم لــه في "مسامرات الظَّريف" وفي "مجمع الدَّواوين التونسيَّة".

ومن الكتاب الأخير:

"وقد أدرك جلَّة من الأعلام، فنال منهم غايــة المرام، وأخذ عنهم أوفر الاسهام، كالعلمين القدوتين السُّوسي، والغرياني وناهيك بهما من طــودين يبلغ بهما قاصدهما غاية الأماني"، أمَّا السُّوسي فهو عبد الله بن محمَّد بن علي السكناني السُّوسي ترجم له العياضي في "مفاتيح النَّصر"، ونوَّه بشأنه غايــة التَّنويه:

"هو من العلماء الأعلام، كأنَّما هو ضياء في جبين الإسلام، وبدر علم لا يفارقه التَّمام، جيِّد المعرفة بالنَّحو والبيان، وبعلم الفقه والحديث والكــلام،

خزانة تحقيق، ومعدن تدقيق، قدم من المغـــرب إلى تـــونس، ثمَّ ٱرتحـــل إلى المشرق عكف على العلم ساهرا، وقطف منه رياحين وأزاهر، ثمَّ رجـــع إلى إفريقيَّة وٱستوطن القيروان ولازم التَّدريس والإقراء، فمكث بها برهة مـــن الزَّمان، حتَّى كان بها من أمر الله ما كان، فٱنتقل تحت الجانـــب العلـــي، والفخر الجلي، مولانا الباشا علي فأغمره في بحر إحسانه الزَّاخـــر، وصـــار معدودا من العلماء الأكابر".

وفي "ذيل بشائر أهل الإيمان"[1] أنَّه تصدَّر للتَّدريس أوَّلا بزاوية الـــشَّيخ سعيد الوحيشي بالقيروان، ثمَّ رتَّبه الأمير حسين بن علي[2] بمدرسته هنـــاك، وهذا قبل ٱنتقاله إلى تونس.

ولمَّا ختم عليه المترجَم مختصر الشَّيخ خليل مدحه بقصيدة طويلة يقول في مطلعها:

سلوا مدمعي الهتان عن شرح أحـــوالي وعن غربتي عن أهلي منـــذ أحـــوالي

وتوفِّي الشَّيخ السُّوسي على الصَّحيح سنة 1179هـــ.

وأمَّا شيخه الغرياني فهو طرابلسي مثله، وهو محمَّد بن علي الغرياني أخذ أوَّلا بجربة عن الشَّيخ إبراهيم الجمني، ثمَّ ٱنتقل إلى تونس، ثمَّ حـــجَّ ولقـــي العلماء هناك وأخذ عنهم، ويكفيه أخذ الحافظ مرتضى الزبيدي عنه كمـــا في "الدرِّ المكلَّل بالعقياني في إجازة أولاد شيخنا الغرياني"، للشَّيخ مرتـــضى المذكور.

وقد تلقَّى المترجَم عن الغرياني صحيح البخاري، وكان خـــتم الـــشَّيخ المذكور للبخاري حفلا بمثابة سوق أدبيَّة تبارى فيها الشُّعراء، وكان مـــن جملتهم المترجَم فقد مدحه بقصيدة يقول في مطلعها:

تصبر على الشَّكوى وإن برح الحـــب وأن تألف السَّلوى وإن بـــرح الحِـــب

---

1 لحسن خوجة تحقيق الطَّاهر المعموري، ص 119. الدَّار العربية للكتاب.

2 حسين بن علي تركي، أبو محمَّد مؤسِّس الإمارة الحسينيَّة سنة 1117هـــ/1705م. قتله ٱبن أخيه يونس 1153هـــ/1740م.(الإتحاف 85/2-116).

وقد جانس في هذا المطلع لأنَّ الحُبَّ في الصَّدر بضمِّ الحاء وهو مصدر، وأمَّا الذي في العجز فهو بكسر الحاء بمعنى المحبوب.

ولا يخفى ما في العجز من معنى غير مقبول أدَّاه إليه حبُّ الجناس.

وتوفِّي شيخه الغرياني المذكور سنة 1195هـ ولعلَّه آختصَّ بهذا الشَّيخ علاوة عن تبحُّره العلميِّ أنَّه مثله منحدر من أرومة طرابلسيَّة، فصلته بقطره الأصلي لم تنقطع، ففي شيخه هذا يرى أصوله.

تآليفه

لم يؤلِّف المترجَم مثل أخيه تآليف كثيرة، إذ كتب أخوه هذا على الكتب المدروسة كتابات عديدة، وهي وإن لم تشتهر فقد عرَّف بها مترجموه، وهي من مطوَّلات البحوث، أمَّا المترجَم فتآليفه قليلة بل أقلُّ من القليل وهي غير متَّصلة بالفقه وما شاكله، بل هي متَّصلة إمَّا بالنَّحو، وإمَّا بالأدب.

أمَّا تأليفه المتَّصل بالنَّحو فإنَّه آعتنى بكتاب من كتبه، وهو "شرح شذور الذَّهب في معرفة كلام العرب" للشَّيخ أبي عبد الله محمَّد بن هشام الأنصاري القاهري (-761هـ) وهو من كتب النَّحو المتوسِّط فنسخه بيده، وكتب على هوامشه تقريرات مختلفة عمَّم بها الكتاب.

وضمَّ إليه نسخا كذلك "شرح شواهد الشُّذور"، وهو شرح مختصر من شرح أبي القاسم بن محمَّد البجائي التُّونسي المترجم له باختصار في "ذيل بشائر أهل الإيمان"[1] ، وهذا المختصر كما حقَّقت سابقا[2]، لبعض السوسيِّين كما ثبت بخطِّ المترجَم، لا الفيُّومي المصري.

---

1 البشائر ص 91.

2 ينظر ص 486؟؟

وضمَّ المترجَم إليهما بخطِّه "شرح الصُّدور بزوائد الشُّذور" لشمس الدِّين محمَّد بن عبد الدَّائم البرماوي[1](-831هـ).

وختم هذا المجموع النَّحوي القيِّم بحاشية أبي القاسم بن محمَّد البجائي المتقدِّم، وهي حاشية على ٱختصارها فيها تحقيقات مفيدة، وتحريرات جمَّة.

وما كتبه المترجَم بهوامش نسخته يفوق ما كتبه البجائي إلاَّ أنَّ كتابة البجائي تمتاز بالسموِّ والتَّحرير.

ومن المتأكَّد أنَّه كتبها أثناء تدريسه لهذا الكتاب أوَّل ما درس لأنَّه كتبها سنة 1155هـ كما تقدَّم فهي مكتوبة في سنِّه المبكِّرة.

وهذه التَّعليقات جاءت كما هو المتعارف في الحواشي التي تكتب بحثا مع المؤلِّفين وتتميما للمسائل، ونذكر من بحثه ما جاء مختصرا من تقريراته التي غالبها مطوَّل.

وجاء تقريرا على قول ٱبن هشام في تعريف القول بأنَّه (اللَّفظ الدالُّ على معنى).

قوله (الدالُّ على معنى كان الأولى أن يقول الموضوع لمعنى لأنَّه لا يلزم من دلالة اللَّفظ على معنى وضعه له لأنَّه يشمل ما دلَّ مجازا، أو ٱلتزاما، أو تضمُّنا، وليس واحد من الثَّلاثة مرادا).

ومن التَّميم ما جاء فيها: تنبيهان:

- الأوَّل شمل قوله في تعريف الكلمة (الكلمة قول مفرد)، المقدَّرة كالضَّمير في قوله (قم) لأنَّه إذا نطق بها يكون قولا مفردا إذ المراد بالقول المقول قوَّة وفعلا.

- الثَّاني ٱختار القول على اللَّفظ لكونه جنسا قريبا، إذ اللَّفظ يطلق عليه وعلى غيره.

---

1 محمَّد بن عبد الدَّائم بن موسى النعيمي العسقلاني البرماوي، أبو عبد الله، شمس الدِّين: عالم بالفقه والحديث، شافعي المذهب، مصري. توفِّي سنة 831هـ/1428م. (الأعلام 60/7).

وزيادة على الهوامش أضاف أوراقا إلى الكتاب، فهي حاشية على الشُّذور بالمعنى الكامل، ولو جرَّدها لخرجت ممتازة في بابها.

و لم يخل هذا المجموع من فوائد تاريخيَّة وتحقيقات لغويَّة علاوة على ما كتبه على "شرح الشُّذور" من ذلك ما نقله عن ٱبن الفخَّار البيري في شرحه على جمل الزجاجي[1]، وهو شرح عزيز غير معروف، من أنَّ ٱبن الفخَّار كان في حلقة أبي إسحاق الغافقي وقصَّ قصَّة مطوَّلة.

ومن الفوائد الشعريَّة قوله:

أقسمت بالله على كلِّ من أبصر خطِّي حيثما أبصره
أن يسأل الرَّحمان لي توبة والعفو والرِّضوان والمغفره

ومن فوائده الغريبة:

فائدة حكى شارح اللبِّ عن سيبويه أنَّ اللاَّم في البتَّة لازمة مع كونها للتَّعريف، قال الدَّماميني: قلت في صحاح الجوهري لا أفعله بتَّة، ولا أفعله البتَّة لكلِّ أمر لا رجعة فيه، ونصبه على المصدر، وكذا في العباب وما نقله عن الصِّحاح يقتضي كما ترى، أنَّ ال ليست فيه زائدة.

2) **تكميل مفتاح الأفراح**: له مؤلَّف في ٱمتداح الرَّاح، وهو تكميل لمؤلَّف سابق لبعض أدباء حلب المشاهير في القرن السَّابع.

وهذا المؤلَّف الذي كمَّله الدَّرناوي يسمَّى: "بمفتاح الأفراح في ٱمتداح الرَّاح"، وهو من نوع آخر غير حلبة الكميت.

ومؤلِّف الأصل المكمَّل عبد المحسن بن حمُّودة بن عبد المحسن أمين الدِّين التنوخي الحلبي.

1 عبد الرحمن بن إسحاق النَّهاوندي الزُّجاجي، أبو القاسم: شيخ العربيَّة في عصره. له "الجمل الكبرى" و"الإيضاح الكافي" و"المخترع" في القوافي و"الأمالي". توفِّي في طبريَّة سنة 337هـ/949م. (الأعلام 69/4).

ترجم له آبن شاكر في "فوات الوفيات"[1]، وهي أوفى ترجماته، وقد أشاد بأدبه ووصفه بالمنشئ البليغ، فهو من الكتّاب الشّعراء النّابغين في ذلك العصر الأيّوبي.

ولد سنة 570هـ، وتوفّي سنة 643هـ.

وألّف مؤلّفات أدبيّة لأنّه عني بالأدب، وصرف مهجته إليه، فجمع كتابا في الأخبار والنّوادر بلغ عشرين مجلّدا، يذكر أحد مؤرّخي آداب اللّغة العربيّة أنّه لم يوقف عليه، وله ديوان شعر، وديوان ترسّل، وهذا الكتاب "مفتاح الأفراح في آمتداح الرّاح".

وقد ذكر آبن تغري بردي الأتابكي في "النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة"، في الجزء السّادس أنّه كان كاتبا لعزّ الدّين أيبك المعظمي صاحب صرخد، وهي قلعة ملاصقة لبلد حوران حصينة، وولاية واسعة، وحوران هضبة بجنوبي دمشق، وشرقي نهر الأردن، وهي الآن يسودها الدروز اليمنيّون وآل الأطرش.

والبلد الذي كان الأمين الحلبي وزيرا فيه هو الذي دعاه إلى تأليفه "مفتاح الأفراح" لأنّ صرخد ينسب إليها الخمر، ويقول الشّاعر:

ولذ كطعم الصرخدي تركته بأرض العدا من خشية الحدثان

واللذّ النّوم، ويقصد الشّاعر أنّه ترك النّوم الذي هو تأثيره ولذّته كطعم الخمر المنسوب إلى صرخد، ودعاه إلى ترك النّوم أنّه بأرض العداء خوفا ممّا يحدث له هناك.

وذكر في "النّجوم الزّاهرة" أنّ الأمين الحلبي كانت وفاته في رجب، ودفن بباب توما، وهو من أبواب دمشق.

وتأليفه الذي كمّله الدّرناوي موضوعه معروف من آسمه فهو في آمتداح الرّاح، ومن الغريب أنّ مؤلّفه كان موصوفا بالدّين، وكما هو من الكتّاب

1 فوات الوفيات 10/2.

الشُّعراء هو من رجال الحديث وقد روى عن أئمَّة هذا الشَّأن، فقد سمع بدمشق من ابن حنبل، وٱبن طبرزد، والكندي وغيرهم.

فكما عني بالحديث عني بالأدب، ومترجموه من المتأخِّرين ٱقتصروا على أنَّه أديب كما في أعلام الزركلي[1] حيث وصفه بأنَّه أديب من الشُّعراء، وكذا في "تاريخ آداب اللُّغة العربيَّة" لجرجي زيدان[2] حيث عدَّه من شعراء الشَّام في العصر العبَّاسي الرَّابع كٱبن حيُّوس[3]، وٱبن السَّاعاتي[4].

والعذر لهم في هذا الاقتصار لأنَّه غلب عليه الأدب حتَّى أنَّ تآليفه كلَّها في الأدب بين شعر وترسُّل وأخبار ونوادر مجموعة.

وٱحتاج الدَّرناوي إلى تكميل كتابه لأنَّه لم يقف على نسخة تامَّة في تونس كما سيأتي في الخطبة الدَّرناويَّة لهذا التَّكميل، فتكميله ليس لغاية أخرى مقصودة من المكمِّلين من زيادة في الكتاب لنقص فيه، بل التَّكميل حيث وجد فيه بتر.

و"مفتاح الأفراح" وإن كان في تونس لم توجد منه إلاَّ نسخةِ واحدة فإنَّه في الشرق متوفِّر، ومع قلَّته فالنُّسخة التي ظفر بها الدَّرناوي كانت غير كاملة فٱحتاج لتكميل ذلك البتر.

ويقول صاحب "تاريخ آداب اللُّغة العربيَّة" إنَّ من الكتاب نسخا خطيَّة في برلين، وفينا، فعلى ما يذكر أنَّ مصر ليست فيها نسخة منه، مع أنَّ دار الكتب المصريَّة فيها نسخة تامَّة، والسَّبب في ٱقتصاره على برلين وفينا أنَّ جرجي زيدان ٱعتمد في تاريخه على ما كتبه بروكلمان، ولم يجشِّم نفسه

---

1 الأعلام 295/4.

2 جرجي بن حبيب زيدان: منشئ مجلَّة "الهلال" بمصر صاحب التَّصانيف الكثيرة منها: "تاريخ مصر الحديث" تاريخ التمدُّن الإسلامي" "تاريخ اللُّغة العربية". توفِّي بمصر سنة 1332هـ/1914م. (الأعلام 108/2).

3 محمَّد بن سلطان بن محمَّد بن حيُّوس الغنوي، الأمير أبو الفتيان، مصطفى الدولة،. شاعر الشَّام في عصره، يلقب بالإمارة، مدح الفاطميين-وبني مرداس بحلب حيث توفِّي سنة 473هـ /1081م. (الأعلام 17/7).

4 عليّ بن محمَّد بن رستم بن هردوز أبو الحسن، بهاء الدِّين ٱبن السَّعاتي: شاعر مشهور، برع في الشِّعر ومدح الملوك. له ديوان شعر. توفِّي بالقاهرة سنة 604هـ/1208م. (الأعلام 150/5).

مهمَّة البحث، وهذا من التَّقصير إذ كيف يترك البلد الذي ألَّف فيه كتابه ويأتي بما جاء في المكاتب الأروبيَّة.

وقبل أن نتعرَّض لتكميل الدَّرناوي نذكر خطبة الكتاب تعريفا بالأصل، وتكميلا لما نقص في نسخة الدَّرناوي حيث أنَّ نسخته التي وقف عليها مترجمنا كانت ناقصة من أوَّلها، ومن ذلك الخطبة التي ذكرها الأمين الحلبي.

وخطبة الأصل نستفيد منها السَّبب الأصلي الدَّاعي للأمين الحلبي أن يؤلِّف كتابا في الخمر وهو أنَّ الملك المنصور عيسى سأله: هل شربت الخمر؟ فأجابه بالنَّفي.

يقول بعد الحمدلة والتَّصلية:

"إنِّي رأيت طائفة الشُّعراء من المحدثين والقدماء، قد وصفوا الخمرة ومدحوها، ووجدت أبا نوَّاس في ذلك رئيس الجماعة، واجب الطَّاعة فأحببت أن أقفو فيها آثاره، لا إيثاره، وأن أتَّبع في وصفها ما ٱستعاره لا ما أعاره، وأحتذي في الخلاعة أشعاره لا إشعاره، ولعلَّه كان قوَّالا لا فعَّالا، وإنَّما حداني على غرس هذه الأخبار أمران:

أحدهما الهيام المعتاد من الشُّعراء في كلِّ ناد.

وثانيهما أنَّ السُّلطان الملك المنصور عيسى بن أبي بكر بن أيُّوب قال لي يوما: هل شربت الخمر؟

فقلت لا، ومن له الخلق والأمر.

فنظمت هذا الكتاب في وصف الشَّراب، وتلاعب الحميا بالألباب، وذكر ما يجري بين القدماء من المجون والآداب".

ورتَّب قوافيه على حروف الهجاء.

والملك الذي سأله هو شرف الدين عيسى بن الملك العادل الذي أصبح أميرا على دمشق من سنة 615هـ إلى سنة 624هـ.

وهذا الكتاب يعدُّ ديوانا من شعر الأمين الحلبي، إذ جمع فيه شعره الذي قاله محاكاة لأبي نوَّاس المشتهر بخمريَّاته، وبها ذاع صيته.

ألّف صاحب "مفتاح الأفراح" كتابه وهو ينفي عن نفسه قطعا أنّه شرب الخمر لمّا سأله الملك المنصور عيسى، فأجابه بالنّفي مع الإقسام بمن له الخلق والأمر جلّ وعلا.

وقد ذكر شيئا أخطأ فيه لا محالة، وهو أنّ أبا نوّاس لعلّه كان قوّالا لا فعّالا، وذلك جهل بالتّاريخ، فإنّ أبا نوّاس كما ٱشتهر بخمريّاته ٱشتهر بأنّه من المستهترين المجّان المدمنين، فكيف ينسب إليه القول دون الفعل.

والذي دفعه إلى ذلك أنّه لمّا نفى عن نفسه شرب الخمر نفى عن أبي نوّاس ذلك ليقاس عليه، وهو قد كان في غنية من هذا كلّه لأنّ كلّ من ترجم له ذكر أنّه كان من أهل الدّين كما تقدّم.

وصاحب "مفتاح الأفراح" في تقليده لأبي نوّاس لم يجد إجادته، وقد نهج منهجا آخر في خمريّاته.

فله قصيدة خمريّة تأثّر فيها بالمسيحيّة، ويظهر أنّ سبب هذا التأثّر بقايا الحروب الصليبيّة يقول فيها:

قل بالنّصارى وٱترك الأتراك   لترى ملوكا للسرور ملاكا
يتعبدون بشر بها ويرون عيـ   ـشهم بغير الخندر ليس هلاكا
من كل من جعل الصّليب عتاده   للنائبات وأظهر الإشراكا
يسعى إليهم بالكؤوس شمامس   الشمس أيسر منهم إدراكا
توهيهم أردافهم فتراهم   يمشون من أثقالهم سراكا

وسراكا: ضعافا.

يسقونني من راحهم ولحاظهم   حتّى تراني لا أطيق حراكا

قدّمت هذا الوصف للكتاب الأصلي حتّى أستطيع أن أوازن بين الأصل للأمين الحلبي، وبين التّكميل للمترجَم الذي سأصفه لاحقا بأبسط من هذا مع نقل ما يعرف به.

تناول المترجَم "مفتاح الأفراح" الذي ألّفه مؤلّفه جامعا فيه شعره الذي أنشده مادحًا للرّاح، وأضاف إليه أشعارًا أخرى في الغرض.

ذكرنا أنَّه كمَّله لبتر فيه، وهذا البتر ليس مقصورا على أوَّله بل كما كان في أوَّله كان في وسطه، وهو ليس في موضع واحد من الوسط، بل في مواضع، إذ يقول في خطبة التَّكميل "بالأوَّل منه والوسط من الأحرف بعض نُقصان"، فالمفهوم من هذا أنَّ النُّسخة التي وقعت في يده فيها أحرف ناقصة من شعره، وقد تتَّبعت الكتاب لاستخراج أنقاصه فتبيَّن لي أنَّ النُّقص كثير في الأحرف لأنَّ هناك أحرفا ليس فيها من شعر الأمين الحلبي شيء ممَّا يدلُّ على أنَّ المترجَم لم يقف عليه للبتر المذكور.

وهذه الأحرف النَّاقصة التي ضمَّ إليها الدَّرناوي من شعر غير صاحب المفتاح، هي حرف الباء، والحاء، والدَّال، والرَّاء، والطَّاء، والضَّاد، والفاء، والقاف، والسِّين.

وهناك حروف أخلاها من الأشعار وهي الخاء، والذَّال، والزَّاي، والظَّاء، والصَّاد، فنصف الكتاب مبتور لأنَّ نصف الحروف الهجائيَّة إمَّا من تكميل المترجَم وإمَّا خال.

ولَّما وقف المترجَم على هذه النُّسخة المبتورة طلب منه بعض الأصدقاء تكميل النَّقص فأضاف إليه من الأشعار ما هو على غرار ما نظمه الأمين الحلبي.

وكما كمَّل النَّقص غيَّر ترتيبه الهجائي إلى التَّرتيب المتعارف في حروف الهجاء عند المغاربة، وطريقتهم في ترتيب حروف الهجاء مخالفة للمشارقة، وكذلك الأبجديَّة عندهم غير الطَّريقة المتعارفة عند المشارقة.

وطريقة المغاربة في التَّرتيب الهجائي لا توافق طريقة المشارقة إلاَّ في الأوَّل أي من الألف فما بعدها إلى الزَّاي، ثمَّ يكون التَّخالف فيما وراء ذلك.

فالمشارقة يضعون بعد الزَّاي السِّين والشِّين بينما المغاربة يضعون بعد الزَّاي الطَّاء والظَّاء.

وطريقة المغاربة هي التي كانت معروفة في تونس إلى أن جاءت الطِّباعة، فلمَّا دخلت الكتب الشرقيَّة التعليميَّة إلى تونس وبالخصوص المعاجم، تنوسيت الطَّريقة المغربيَّة هذه، وصارت غير معروفة بيننا فكأنَّها غريبة عنَّا.

وهذا ترتيب طريقة المغاربة من بعد الزَّاي إلى آخر الحروف:

الطَّاء، الظَّاء، الكاف، اللاَّم، الميم، النُّون، الصَّاد، الضَّاد، العين، الغين، الفاء، القاف، السِّين، الشِّين، الهاء، الواو، الياء.

وهذا التَّرتيب الهجائي الذي سار عليه الدَّرناوي ترتيبًا لأشعاره في التَّكميل، هي الطَّريقة التي قرأ بها في تونس.

وهذه النُّسخة المكمَّلة تقع في اثنتين وستِّين صفحة من القالب الصَّغير، وقد ضمَّ إليها صفحتين في أسماء الخمر المستعملة وأسمائها غير المستعملة.

وهذا التَّكميل يقع ضمن مجموع به التَّكميل المذكور، وبه الورقتان المذكورتان، وضمَّ إلى ذلك "الجوهر الفرد في المناظرة بين النَّرجس والورد"، للشَّرف المارديني.

و"الجوهر الفرد" مقامة للأديب أبي الحسن علي بن شرف المارديني وهي في خمس عشرة صفحة.

والمجموع كلُّه بخطِّ المترجَم، وقد اَعتنى بهذا المجموع وبالأخصِّ تكميله للمفتاح، فإنَّه مذهَّب الصَّفحة الأولى والثَّانية، ومفضضهما، وقد نوَّع الكتابة التي على طالعة القصائد، فكتب بالأحمر والأزرق والأسود، متفنِّنا في كتابة ذلك، حتَّى يكون الكتاب في مظهره النسخي تحفة فنيَّة، ممَّا يدلُّ على أنَّه أراد أن تكون نسخته متمثِّلا فيها الذَّوق الأدبي حتَّى تجمع بين طرافة المنظر والمخبر، وهذا ما أولع به الأدباء حسبما تتطلَّبه متطلِّبات ذلك العصر في مجلس الأنس والانشراح.

خطبة التَّكميل

ولَّما كان الكتاب الذي وقع في يده من "مفتاح الأفراح" ناقص الخطبة كمَّله بإنشاء خطبة أخرى، وهي بعيدة كلَّ البعد عن خطبة مؤلِّف الأصل، المنقولة سابقا.

ولم يقدم على تكميله إلاَّ بعد المبحث والسُّؤال عن نسخة أخرى، فلمَّا بحث لم يجد المسؤولين يعرفون الكتاب فضلا عن كونهم وقفوا على نسخة منه.

وهذا ٱفتتاح التَّكميل:

"الحمد لله الذي أودع في المدام أي سرور ترتفع الأحزان عند حلولها بالصُّدور، وجعلها تقوية لعقول نبهاء الأنام، ودواء مجرّبا لداء الهموم غير أنَّها حرام، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد من هو لعين الوجود إنسان، والسَّاقي من خالف سنَّته من دنان بأسه ورعبه كأس الهوان، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان ما ٱعتصرت مدام، ومزج كأس بماء غمام.

وبعد فيقول كثير الخطأ لمَّا ٱطَّلعت على كتاب "مفتاح الأفراح في ٱمتداح الرَّاح" ألفيت به (قصائد) لمؤلِّفه على عدد حروف الهجاء مشتملة على المدح له لا الهجاء به، (قصائد) تفوق سناء على الذَّهب الإبريز، إلاَّ أنَّ وجوده بمصر تونس عزيز، فالأوَّل منه والوسط من الأحرف بعض نقصان، فسألت البعض من الإخوان من أدباء العصر والأوان، فلم نجد لهم معرفة به فضلا عن أن شاهدوه بالعيان، فطلب منِّي بعض الأصدقاء تكميل نقصه بكلام مناسب، وللنَّاس فيما يعشقون مذاهب".

طريقته في التَّكميل

وهذا التَّكميل للنَّقص المشار إليه كان من شعر جماعة من الشُّعراء من طبقة مخصوصة وهو:

جمال الدِّين ٱبن نباتة محمَّد بن محمَّد الفارقي المصري (-768هـ)، وكان حامل لواء الشِّعر في زمانه.

وأبياته التي ٱنتخبها المترجَم في حرف الباء هي من قصيدة له في "المؤيِّد" صاحب حماه، ومطلعها:

عوِّض بكأسك ما أتلفت من نشب   فالكأس من فضَّة والرَّاح من ذهب[1]

1 ديوان ٱبن نباتة، القصيدة ص 21.

واختار له قطعة أخرى في حرف الحاء

قم يا غلام ودع مقالة من نصح   فالدِّيك قد صدع الدّجى لّما صدح
خفيت تباشير الصّبّاح فاسقني   ما طل في الظلماء من قدح القدح
صهباء ما لمعت بكفّ مديرها   لمقطب إلاّ تَهلّل وانشرح
هي صفوة الكرم الكريم فما سرت   سراؤها في باخل إلاّ سمح
من كف فتان القوام بوجهه   عذر لمن خلع العذار أو افتضح

وهذه القطعة غير موجودة بديوان ابن نباتة ولهذا أتينا بها.

وأتى بعد ذلك بأبيات لابن الوكيل، وهو محمَّد بن عمر بن مكي بن عبد الصمد صدر الدِّين ابن الوكيل من مواليد دمياط، النَّابغة في الحفظ، فقد حفظ ديوان أبي الطيِّب المتنبِّي في جمعة، وقد ترجم له الحافظ ابن حجر ترجمة حافلة في الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة[1]، وهي من أوفى تراجم الدُّرر، وكانت وفاته سنة 716هـ.

وكان ابن الوكيل غير مرضي السِّيرة حتَّى أنَّه حبسوه بالصالحيَّة مع جماعة شربة فأمر النَّائب بمصادرته، فبادر في ثاني يوم إلى القاضي وأثبت محضرا شهد فيه الذين كتبوه أنَّهم لم يروه سكران، ولا شمُّوا منه رائحة خمر، وإنَّما وجدوا في ذلك البيت وفي المكان زبدية خمر، فأثبت القاضي المحضر، وسأل ببقاء عدالته وشفع له بعض النَّاس فأعفي من المصادرة.

ويقول في القطعة المثبتة في التَّكميل:

ليذهبوا في ملامي اية ذهبوا   في الخمر لا فضة تبقى ولا ذهب
والمال أجمل وجه فيه تصرفه   وجه جميل وراح في الدّجى لهب
لا تأسفنَّ على مال تمزقه   أيدي سقاة الطلا والخرد العرب
فما كسوا راحتي من راحها حللا   إلاّ وعروا فؤادي الحزن واستلبوا

وهي قصيدة طويلة ذكر منها الدَّرناوي تسعة عشر بيتا.

1 الدُّرر الكامنة في أعيان المائة الثَّامنة 4/115-123

والظّاهر أنّه اعتمد في هذه القصيدة التي كمّل بها المفتاح على كتاب "مطالع البدور في منازل السُّرور" للبهائي الغزولي[1].

ويدلُّ لهذا أنّه لم يقتصر في تلقيب الشّاعر علي ابن الوكيل بل ذكر أنّه ابن وكيل بيت المال، وهذا لم يذكره إلاّ الغزولي في "منازل السُّرور" حيث قال: "ويعرف في الشّام بابن وكيل بيت المال".

جاء سابقا أنّ القطعة التي مطلعها:

قم يا غلام ودع مقالة من نصح   فالدِّيك قد صدع الدُّجى لمّا صدح

لجمال الدِّين ابن نباتة، وهذا حسبما ذكره الدَّرناوي في كتابه "تكميل المفتاح"، وهي في الحقيقة ليست له، إذ بعد البحث تبيَّن أنّ القطعة المذكورة لابن النَّبيه، ولست أدري هل أنّ المترجَم اعتمد غيره في هذا الخطأ أو وقع في ذلك غفلة منه.

وابن النَّبيه هذا هو من شعراء هذا الكتاب البارزين مثل ابن نباتة وابن الوكيل، فقد ذكر له قصيدا من أطول مختارات هذا الكتاب حيث أنّ القصائد المختارة من غير الأصل قليلة بالنِّسبة للنُّتف والقطع.

وابن النَّبيه من عصر قبل عصر الشّاعرين السَّابقين، فهو من رجال القرن السَّابع، وشعره في غاية الجودة والطَّرافة، حتَّى أنّ ديوانه يعدُّ تحفة فنيَّة رائعة لأنّه لم يجمعه ناظمه حاشرا فيه كلّ شعره بدون تمييز بين جيِّد ورديء، بل كان اختيار ناظمه اختيارا موفّقا، فهو في الحقيقة ليس ديوانا كسائر الدَّواوين، بل هو منتقيات من عيون شعره، كلُّ ما فيه من قصائد، أو مقطعات أو نتف هي في الحقيقة لوحات أدبيَّة ممتازة.

ويقول ابن شاكر الكتبي في "فوات الوفيات"[2]: "وهذا ديوانه المشهور هو انتقاء من شعره لأنّه كان منقحا، الدرة وأختها، وإلاّ فما هذا شعر من لا نظم إلاّ هذا الدِّيوان الصَّغير".

---

1 عليّ بن عبد الله الغزولي البهائي الدِّمشقي: أديب له شعر. تركي الأصل من المماليك، له "مطالع البدور في منازل السُّرور". عاش وتوفّي في دمشق سنة 815هـ/1412م. (الأعلام 122/5).

2 فوات الوفيات 71/2.

وٱبن النَّبيه علي بن محمَّد بن الحسن المصري صاحب الدِّيوان المشهور (-619هـ)، مدح بني أيُّوب.

وكان له ٱتِّصال متين بالملك الأشرف موسى ٱبن الملك العادل مظفر الدِّين، أبي الفتح من ملوك الدَّولة الأيوبيَّة (-635هـ)، وكتب له الإنشاء.

وديوان ٱبن النَّبيه يكاد يكون كلُّه في مدح الأشرف، إذ هذا الدِّيوان مقسوم على الخليفيَّات، والعادليَّات، والأشرفيَّات، وهذه في مدح الأشرف.

والقطعة السَّالفة التي أتى بها الدَّرناوي ونسبها إلى ٱبن نباتة هي في مدح الأشرف يهنِّئه بالعام، ويقول في تخلُّصه للمدح:

في وصفه ومديح موسى خاطري   متقسم بين الملاحة والملح

والقصيدة الأخرى التي ٱختارها الدَّرناوي من شعر ٱبن النَّبيه هي إحدى قصائده الخليفيَّات، وقد مدح بها أمير المؤمنين النَّاصر العبَّاسي (-622هـ)، ولم يل أحد الخلافة أطول مدَّة منه، فإنَّه أقام سبعا وأربعين سنة:

باكر صبوحك أهنا العيش باكره   فقد ترنم فوق الأيك طائره
واللَّيل تجري الدراري في مجرته   كالرَّوض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصُّبح نجاب على يده   مخلق تملك الدُّنيا بشائره
فٱنهض إلى ذوب ياقوت لها حبب   تنوب عن ثغر من تهوى جواهره
حمراء في وجنة السَّاقي لها شبه   فهل جناها من العنقود عاصره
ساق تكون من صبح ومن غسق   فٱبيضَّ خدَّاه وٱسودَّت غدائره

والظَّاهر أنَّ هذه القطعة التي ٱختارها الدَّرناوي نقلها من "فوات الوفيات" لابن شاكر الكتبي إذ جاء في أحد أبيات هذه القصيدة قوله:

بيض سوالفه لعس مراشفه   نعس نواظره خرس أساوره[1]

إذ جاء هكذا في "الفوات" (بيض سوالفه)، والذي في ديوان ٱبن النَّبيه[2] (سود سوالفه)، وما في الفوات هو الصَّواب لأنَّ السَّوالف جمع سالفة وهي

---

1 فوات الوفيات 2/72-73.

2 ديوان ابن النبيه، ص6.

سالفة وهي صفحة العنق، وهي توصف بالبياض لا بالسَّواد إذ العنق الممدوح ما كان أبيض لا أسود إلاَّ عند من يؤثر السَّواد على البياض، ثمَّ هو المناسب لقوله (لعس مراشفه)، لأنَّ اللَّعس سواد مستحسن في باطن الشَّفة ليحصل التَّقابل بين البياض والسَّواد.

ومن شعراء التَّكميل البارزين في هذه المختارات صفيُّ الدِّين الحلِّي، عصري المدرسة التي آثر شعراءها المترجَم بالاختيار كما هو من أفرادها، وقد تقدَّم منها سالفا شاعران ٱبن نباتة وٱبن الوكيل.

ومن ٱفتتان المترجَم بصفيِّ الدِّين الحلِّي أنَّه ٱنتقى له قطعة وقصيدتين، فٱختار له في حرف الدَّال، والرَّاء، والهاء.

والصفيُّ الحلِّيّ من الشُّعراء المشاهير، وهو عبد العزيز بن السرايا، ويعرف بصفيِّ الدِّين(-750هـ).

ونسبته إلى الحلَّة[1] من العراق -وهي بالكسر والتَّشديد- مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد، وفي خطِّ الدَّرناوي أنَّه الحُلِّي بضمِّ الحاء، وهو خطأ، فلعلَّه كان يظنُّ أنَّه منسوب إلى الحُلَّة بضمِّ الحاء وهي الثَّوب الجيِّد الجديد، أو سمعه من شيوخه كذلك فلم يبحث، وضبطه كما سمعه، إذ كثير ما ينطق البعض بالأسماء بالخصوص محرَّفة لأنَّها لا تنبني على قاعدة مثل الكلمات اللغويَّة التي مرجعها القياس، فإنَّ أسماء البلدان والأشخاص لا بدَّ فيها من الاعتماد إمَّا على معاجم البلدان، أو كتب التَّراجم التي تعتني بضبط الأسماء مثل ٱبن خلِّكان.

والحِلَّة -بالكسر- منزل القوم، ولهذا يفرِّقون بين حِلَّة وأخرى وهذه التي ينسب إليها صفيُّ الدِّين يقال لها حِلَّة بني مزيد.

ويقول الصفيُّ في القطعة التي ٱختارها له في التَّكميل:

زوج المـاء بابنه العنقود فٱنجلت في قلائد وعقود
قتلت بالمزاج ظلما فقالت كم قتيل كما قتلت شهيد

---

1 معجم البلدان 2/338-339.

وهي من قصائده الصالحيّات التي يمدح بها الملك الصالح، وهذه القصيدة أنشدها في الملك الصّالح بن المنصور بن أرتق الذي تولّى ماردين سنة 712هـ.

ويقول في القصيدة التي ٱنتقاها له في حرف الرّاء:

وحامل الكأس ساجي الطّرف ذو هيف صاحي اللّواحظ يثني عطف مخمور

والقصيدة هذه من قصيد للحلّي مطلعه:

من نفخة الصور أم من نخفة الصور أحييت يا ريح ميتا غير مقبور

ويقول في القصيدة التي ٱنتقاها له في حرف الهاء:

خذ فرصة اللذّات قبل فواتها وإذا دعتك إلى المدام فواتها

وهي قصيدة له من الصالحيّات يمدحه بها ويهنّئه بعيد الفطر سنة 726هـ.

وكما ٱنتقى لهؤلاء المذكورين سابقا ٱنتقى لغيرهم، وعدد من ٱنتقى لهم بالمذكورين سالفا ستّة وعشرون منهم من ذكرهم بأسمائهم ومنهم من لم يذكر أسمائهم.

لكن الذين ٱنتقى لهم غير من ذكرنا ٱقتصر على نتف البيتين وما قاربهما، مثل ٱبن المعتز[1] وٱبن دريد[2]، وحسام الدّين ابن منقذ، والسري الموصلي[3]، والشاب الظريف وٱبن حجّة، وكل هؤلاء لم يختر لهم إلاّ مرّة واحدة.

وأضاف إلى هؤلاء شاعرا صوفيًّا من مشاهير الصوفيّة وهو ٱبن وفا:

---

1 عبد الله بن محمّد المعتّز بالله ٱبن المتوكّل ٱبن المعتصم ٱبن الرّشيد العبّاسي، أبو العبّاس، الشّاعر المبدع، خليفة يوم وليلة. مولع بالأدب فكان يقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم. من تصانيفه "الزّهر والرّياض" "البديع" و"أشعار الملوك". توفّي سنة 296هـ/909م. (الأعلام 261/4).

2 محمّد بن الحسن بن دريد الأزدي، من أزد عمان من قحطان، أبو بكر: أشعر العلماء وأعلم الشّعراء، شاعر المقتدر العبّاسي. من كتبه "الإشتقاق"، المقصور والممدود" والجمهرة" توفّي سنة 321هـ/933م. (الأعلام 310/6).

3 السّريّ بن أحمد بن السّريّ الكندي، أبو الحسن: شاعر، أديب من أهل الموصل، مدح سيف الدّولة، أبعد عن مجالس الكبراء فضاقت دنياه فجلس يورّق شعره ويبيعه. له ديوان شعر. توفّي ببغداد سنة 366هـ/976م. (الأعلام 128/3).

إنَّ الصَّواب بتعجيل السُّرور فقم فإنَّ تأخير أوقات الهنا غلط

وأنشد له قطعة أخرى:

قد حان شرب سلاف الراح فاستبق واحذر بحبك من فرق ومن فرق
وراحة خضبت بالراح ما برحت تريك صبح الهوى في حندس الغسق

وٱبن وفا هو علي بن محمَّد الشَّاذلي المالكي من مشاهير المتصوِّفة بمصر (-807هـ).

وكأنَّ الدَّرناوي أضاف شعر ٱبن وفا[1] ليظهر أنَّ خمريَّاته التي ٱنتقاها لم يقصد من جمعها أنَّه من أرباب الراح، وإنَّما هو في جمعه لذلك لا يبتعد عن المتصوِّفة.

وٱبن وفا تحامل عليه السَّخاوي في "الضَّوء اللاَّمع"[2] "وشعره ينعق بالاتِّحاد المفضي إلى الإلحاد".

ونقل عن الحافظ ٱبن حجر في ترجمة أبيه محمَّد الوفا أنَّه أنشأ قصائد على طريق ٱبن الفارض وغيره من الاتِّحاديَّة ونشأ ٱبنه على طريقته.

شعر الدَّرناوي في التَّكميل

لم يذكر من شعر التونسيِّين في تكميله شيئا وإنَّما ذكر قطعة من نظمه وهي:

راح بدت في راحة البدر الذي فتن الأنام بحسن طرف أحور
شيئات في فيه أشهى لعاشق عين الحياة ومعدن جوهر
حمراء صافية كأنَّ حبابها عرق تبدى فوق خد أحمر

---

1 عليّ بن محمَّد بن وفا، أبو الحسن القرشي الأنصاري الشَّاذلي المالكي.، متصوِّف. من مؤلَّفاته "الوصايا" "المسامع الرَّبانية" وله ديوان شعر. توفي بالقاهرة سنة 807هـ/1405م. (الأعلام 159/5).

2 الضَّوء اللاَّمع لأهل القرن التاسع 21/6.

يجد المنتقد لهذا الكتاب المجال فسيحا لإخلائه من شعر الأدباء التونسيِّين، إذ هذا الكتاب حوى طائفة من الشُّعراء ذوي عدد من المشارقة، فلماذا لم يكن بينهم من التونسيِّين شاعر واحد مع وفرة الشُّعراء في البلاد التونسيَّة، لكن هذا الانتقاد لا يتَّجه على المترجَم لأنَّ الشُّعراء في المغرب على العموم كانوا يتجنَّبون الشِّعر الذي نظم فيه كتابا كاملا الأمين الحلبي.

وهذه ظاهرة يفترق فيها المغاربة عن المشارقة فإنَّ الأخيرين كانوا يطلقون العنان لأدبهم فينظمون في الأغراض المتنوِّعة بخلاف المغاربة فمثلا الصفيُّ الحلِّي يخصُّ جزءا من ديوانه بمدح الراح، وهو الباب السَّابع في الخمريَّات والنبذ الزهريَّات، ويحتلُّ هذا القسم من ديوانه أربعا وأربعين صفحة.

و لم يقف عند هذا الحدِّ، بل له قسم من ديوانه أطلق فيه العنان للسانه فأصبح من الشِّعر الذي يستحيي القارئ من قراءته وإن كان مختليا بنفسه لما فيه من خلاعة ومجون، وهو الفصل الثَّالث من الباب الأخير في الأحماض والمجون.

والظَّاهر أنَّ الكثير ممَّا جاء في ديوانه سواء من خمريَّاته، أو أحماضه هو من لغو القول لأنَّ الشُّعراء يقولون ما لا يفعلون، فإنَّه كان حريصا على أداء أركان الإسلام ورفض المدح كما صرَّح به في خطبة ديوانه "ودمت على رفض المدائح مقيما، فلمَّا منَّ الله عليَّ بقضاء حجَّة الإسلام وزيارة قبر النَّبي عليه السَّلام".

وله تكفيرا عن هذا اللَّغو بديعيَّته المشتهرة بين البديعيَّات وهي "الكافية البديعيَّة في المدائح النبويَّة"، وهي تشتمل على مائة وواحد وخمسين نوعا من محاسن البديع، وله زهديَّات، فالشُّعراء في المشرق لا يتحرَّجون من النَّظم فيما يخطر لهم ويعفون عن تلك السيِّئات بما ينظمونه من قبيل الحسنات.

وهذا ما يتحرَّج منه أدباء المغرب فإنَّهم يتحاشون أن ينظموا فيما نظم فيه إخوانهم في المشرق، وحتَّى إذا نظموا في ذلك تستَّروا غاية التستُّر.

وبالطَّبع أن لا يظفر لهم بشعر في هذه الأغراض، فالمترجَم معذور فحين أراد الاختيار لم يجد بين يديه شعرا تونسيًّا في غرض الكتاب وإنَّما وجد شعرا مشرقيًّا فٱغترف منه وٱنتقى ما أتى به في تكميله.

وبهذا كان الكتاب صورة مشرقيَّة لا تونسيَّة وليس للمترجَم إلاَّ الجمع والتَّرتيب.

لكن وإن أخلى الكتاب من إبرازه في صورة غير الصُّورة التي أبرزه بها، وهي مساهمة الشُّعراء التونسيِّين فيه ما كان ينبغي له أن يقتصر على النَّقل دون أن يكون له أثر ما في الكتاب بالتَّقريظ أو النَّقد على الصُّورة القديمة المتعارفة، فإنَّ الأدباء إذا ما جمعوا من أشعار غيرهم لم يقتصروا على مجرَّد الجمع بل تراهم يضيفون إلى ذلك أنظارهم، ويذكرون ما يناسب ما نقلوه، فيأخذ الجمع طريقا غير الطَّريق التي سلكها المترجَم، فيكون لهم أثر من قرائحهم وأنظارهم.

والمترجَم ليس بالمقصِّر لو سلك هذا المسلك لأنَّه في نسخة "الشذور الذَّهب" -كما تقدَّم- لم يقتصر على النَّسخ بل طرَّر هوامش الكتاب بتحريرات وإضافات دلَّت على ٱتِّساع نظر وتدقيق في فهم الكتاب.

ولو فعل مثل ذلك في تكميله لأتى بتحرير أدبيٍّ مفيد يعبِّر عن نظرته فيما ينقله، وهذا ما فعله النَّواجي في أعلام الزرنكي -بفتح النُّون بل بضمِّ النُّون وتخفيف الواو- في كتابة: "حلبة الكميت".

فإنَّه لم يقتصر على نقل الأشعار مجرَّدة، بل أضاف إلى ذلك إضافات يطرف بها الكتاب.

والذي لا مناص للمترجَم من نقده هو أنَّ مختاراته لم تخرج عمَّا ٱختاره النَّواجي ضمن ما ٱختاره في "حلبة الكميت".

فإنَّ النَّواجي محمَّد بن الحسن (-859هــ) رتَّب كتابه علـــى أبـــواب وخصَّ الباب الحادي عشر بوصف الرّاح بجميع أنواعها، وما يقع فيها مـــن المعنى البليغ، والتَّشبيه البديع، وهذا الباب تكاد تنحصر منتقيات الـــدَّرناوي منه حتَّى أنَّه لم يخرج عن منتقيات "حلبة الكميت" إلاَّ قليلا فهناك ثلاثون ما بين قصيدة وقطعة ونتفة، ثماني عشرة منها من "حلبة الكميت" من البـــابين الحادي عشر، والثَّاني عشر.

مثل قصيدة ٱبن نباتة:

عوض بكأسك ما ٱتفلت من نشب

هي في ص 128 من الحلبة وكذلك القطعة التي مطلعها:

يا مشتكي الهم والأحـــزان والنـــوب   ٱنف الهمـــوم بـــأم اللَّهـــو والطـــرب

في ص 128

وكذلك قصيدة صدر الدِّين بن الوكيل[1] على ما عند الـــدَّرناوي الـــتي مطلعها:

ليـــذهبوا في ملامـــي أيـــة ذهبـــوا   في الخمر لا فـــضة تبقـــى ولا ذهـــب

هي في ص 127

ونتفة ٱبن المعتز التي مطلعها:

خل الزَّمـــان إذا تقـــاعس أو جمـــح   وٱشك الهمـــوم إلى المدامـــة والقـــدح

في ص 123

والقطعة التي نسبها إلى جمال الدِّين ٱبن نباتة:

قم يا غلام ودع مقالة من نصح

في ص 123

ونتفة ٱبن شراعة:

---

[1] محمَّد بن عمر بن مكّي، أبو عبد الله صدر الدِّين "ابن المرحل" المعروف بابن الوكيل: شاعر من علماء الفقه. كانت له ذاكرة عجيبة إذ حفظ المقامات الحريرية في خمسين يوما. من تصانيفه "الأشباه والنَّظائر" وله ديوان شعر "طراز الدَّار". توفِّي في القاهرة سنة 716هـــ/1317م. (الأعلام 204/7).

لا خير في العيس فٱسمع قول ذي[1] نصح إن أنت لم تغـد سـكرانا و لم تـرح

في ص 123

ونتفة ٱبن حجَّة الحموي:

أرى طـير أفراحنـا سـارحا يحـوم علـى ورد عـذب القـدح

في ص 115

ولولا خوف الإطالة لأحلنا كلَّ ما ورد منقولا من "حلبة الكميت" على صفحاته، وإنَّما نكتفي بهذا للتَّدليل.

و لم يشر المترجَم إشارة ما إلى أنَّه ٱستقى من "حلبة الكميت"، وهذا ليس من الأمانة العلميَّة وما جاء عن النَّواجي تقدمة لمختاراته في القصائد والقطع والنُّتف تبعه في أكثره المترجَم، وكنت أظنُّ قبل هذه المقارنة أنَّه وقف على دواوين الشُّعراء الذين ٱختار لهم فٱنتقى من دواوينهم فتبيَّن بعد البحث أنَّه ٱكتفى بما جاء في "حلبة الكميت" بأن يأتي بما أتى به النَّواجي أو يختصره.

وما جاء به الدَّرناوي في تكميله هو جزء يسير ممَّا جلبـه النَّـواجي في "حلبة الكميت"، فهو ٱنتقاء من الانتقاء.

وقد وقعت للمترجَم أخطاء في نسبة قصائد ومقطعات من ذلـك مـا سلف من نسبة قطعة لجمال الدِّين ٱبن نباتة، وهي في الحقيقة لكمال الدِّين ٱبن النَّبيه، فعلاوة على وجودها في ديوان الأخير هي في "حلبة الكميـت" منسوبة لصاحبها دون ٱبن نباتة.

وكذلك القصيدة التي نسبها إلى ٱبن الوكيل -وجاريناه في ذلك- والتي تقدَّمت جاءت في "حلبة الكميت" لبعضهم بدون تعيين، والذي يدلُّ على أنَّها ليست لابن الوكيل أنَّ النَّواجي لمَّا ذكر قصيدتين لابن الوكيـل أتـى بالقطعة المذكورة قائلاً: "ويعجبني قول من قال في القطعة الثَّانية حيث قال: وله عفا الله عنه".

---

1 جاء بخطِّ الشَّيخ محمَّد الشَّاذلي النَّيفر:

لا خير في العيس فٱسمع قول نصح * إن أنت لم تغد سكرانا و لم ترح

فهي ليست من شعر ٱبن الوكيل وهذه القطعة المتقدِّمة هي التي يقول في مطلعها:

ليذهبوا في ملامي أية ذهبوا.

كما أنَّه لم ينسب احدى القصائد لقائلها، بل قال (ولغيره وأجاد) وهي التي مطلعها:

أدر الكـؤوس وٱسـقنيها قرقفـا فـالهم داء والمـدام لهـا شـفا

وقد ذكرها النَّواجي في الحلبة ص 138 وذكر أنَّها لابن الخطيب داريا.

وقد ذكرها النّواجي بعد قصيدة أخرى لابن خطيب داريا حيث قـال: "ومن لطائف جلال الدين عبد الرحمان بن خطيب داريا قوله:

هات ٱسقني الـصَّهباء يـا مؤنـسي علـى بـساط الـورد والنَّـرجس"

ثمَّ قال وما ألطف قوله، وذكر القصيدة التي أتى بها الدَّرناوي وهي مـن لطائف ٱبن خطيب داريا.

وٱبن خطيب داريا الظَّاهر أنَّه محمَّد بن أحمد (-811هـ) الذي ترجم له السَّخاوي في "الضَّوء اللاَّمع"[1] وما جاء في الحلبة من أنّه عبد الرَّحمان غلط أو هو شخص آخر غير المذكور.

سجَّل المترجَم بخطِّه في تكميل "مفتاح الأفراح" غلطات نحويَّة ما يظـنُّ الظانُّ أنَّه يقع فيها، فإنِّي أثناء دراستي للكتاب وقفت علـى أولى غلطاتـه فذهب بي الظنُّ إلى أنَّ ذلك منشؤه السَّهو والغفلة فجرى القلم بذلك كما يقع لكثير من عليَّة الكتَّاب حيث يطغى القلم، ويزلُّ فتقع لهم غلطـات في النَّادر، ولو عرض عليهم ما كتبوه لانتقدوه، لكن ما صدر من الـدَّرناوي تكرَّر ثمَّ كون الكتاب بين يديه لأنَّه تأليفه الوحيد أو شبه الوحيد يوقفه على غلطه فإن غفل عن غلطاته اليوم و لم يغفل عنها في المستقبل والكتاب في ذاته ليس بالكتاب الكبير حتَّى يخفى السَّهو عليه، فصغر حجم الكتـاب يبعـد الخطأ عن قلمه.

1 الضوء اللاَّمع 310/6-312.

ومن الغريب في غلطاته أنّ الخطأ تكرّر مرّتين في بيت واحد وهو قول ٱبن المعتز:

خلِ الزّمان إذا تقاعس أو جمح وٱشك الهموم إلى المدامة والقدح

حيث جاء فعل الأمر في أوّل الصّدر (خلي) بإثبات الياء، وكذا جاء في أوّل العجز فعل الأمر وهو (ٱشكي) بإثبات الياء، ولا موجب لإثباتهما في الفعلين إذ لو حذفنا الياء فيهما لم يكن هناك زحاف لأنّ السُّكون موجود في أداة التّعريف.

وحذف حرف العلّة من الأمر المعتل من بسائط المسائل، لأنّ المسألة مبسوطة في كتب النّحو الصّغيرة، ومنها "شذور الذّهب" حيث قال ٱبن هشام:

"الباب الثّاني ما لزم البناء على السُّكون أو نائبه، وهو نوع واحد وهو فعل الأمر، وذلك لأنّه يبنى على ما يجزم به مضارعه، فيبنى على السُّكون... وعلى حذف حرف العلّة في نحو (ٱغز) و(ٱخش) و(ٱرم)".

فالمسألة معلومة لديه لأنّ "شذور الذّهب" كتاب مدروس في الزّيتونة ثمّ وراء ذلك هو كتاب قد ٱعتنى به، فلعلّه لاشتغاله بالكتابة في الوزارة التونسيّة أعرض عن الكتب المدروسة له حتّى أدّاه ذلك إلى نسيان ما قرأه ودرسه، فكتابة المعاريض بالدّولة التونسيّة قد جعلته يبعد شيئا فشيئا عن معارفه القديمة، فحين كمل "مفتاح الأفراح" كان في تلك الفترة قد تلهّى عن النّحو والصّرف، وما كان مدروسا له.

وجاء قبل ذلك بخطّه في قول القائل:

يا مشتكي الهم والأحزان والنوب ٱنف الهموم بأمِّ اللّهو والطرب

(ٱنفي) بإثبات الياء فتكرُّر هذا منه يدلُّ قطعيًّا إثباته للياء في فعل الأمر المبني على ما يجزم به مضارعه، وهو حذف حرف العلّة في الفعل المعتلِّ لم يكن إلاّ عن ذهول عن هذه المسألة ونسيان لها.

وله في المقدِّمة التي قدّم بها التّكميل على قصرها غلطان فادحان:

-الأوَّل في فاتحة المقدِّمة حين التَّحميد حين يقول: "وجعلها تقوية لعقول نبهاء الأنام، ودواء مجربا لداء الهموم غير أنَّها حرام"، حيث جاء (ودواء مجرّب) هكذا بالرَّفع مع أنَّه منصوب لأنَّه معطوف على قوله (تقوية)، وهو مفعول لقوله (وجعلها)، والمعطوف على المنصوب منصوب.

-والثَّاني في تلك المقدِّمة حيث جاء (قصائدا)، منوَّنا هكذا في قوله: "لمَّا ٱطَّلعت على كتاب "مفتاح الأفراح في ٱمتداح الرَّاح"، ألفيت به قصائد على عدد حروف الهجاء"، فأثبت ألف التَّنوين في قصائد فهو عنده منوَّن مع أنَّ صيغة منتهى الجموع غير مصروفة ومنع صيغة منتهى الجموع في الصَّرف من أمَّهات المسائل المعروفة عند الابتداء في الدِّراسة وهي مذكورة في "شذور الذَّهب" في باب موانع الصَّرف إذ الذي يقوم مقام علَّتين شيئان ثانيهما الجمع الذي لا نظير له كمساجد ومصابيح، وصدور هذا منه يعدُّ غلطا لا يغتفر.

وله كذلك بعض غلط في الرَّسم كما جاء في مطلع القصيدة الميميَّة من شعر صاحب الأصل وهو:

نديمي قم فقد صدح الحمام ولاح الصبح و(ٱنحسر) الظَّلام

فقد جاء بخطِّه عوض (ٱنحسر الظَّلام)، (ٱنحصر الظَّلام)، وقد حاولت أن أجد له مندوحة من هذا الخطأ حيث أبدل السِّين بالصاد، وهو وإن كان مغتفرا للمتعلِّمين أوَّل الأمر فإنَّه لا يغتفر لهم ذلك بعد الممارسة فضلا عن مثله من قدماء الكتَّاب بالدَّولة فلم أجدها لأنَّه إذا كتب ٱنحسر بالصَّاد ٱختلَّ المعنى أيَّما ٱختلال لأنَّ معنى ٱنحسر الظَّلام ٱنكشف وهو المعنى المناسب لقوله في أوَّل العجز ولاح الصُّبح، إذ معنى لاح الصُّبح ٱنكشف الظَّلام، أمَّا ٱنحصر الظَّلام فمعناه ٱنحبس، وهو معنى بعيد إذ ينافي ما جاء من قبل لأنَّ ٱنحبس مكث في مكانه لا يبرحه فاللَّيل باق، وعند ذلك يكون هناك تناقض بين قوله: (ولاح الصُّبح) وبين قوله: (وٱنحصر الظَّلام) ولا أعتقد أنَّ الأمين الحلبي يصدر عنه ذلك.

وعلى فرض أنَّه وجد ذلك بالنُّسخة التي نقل منها فأين الذَّوق الأدبي، إذ يمتنع من إقرار ذلك فكيف يقرُّ الأديب الماهر الممارس للأدب والمتذوِّق لمعانيه لقلمه أن يكتب ٱنحصر موضع ٱنحسر والمعنى مختلف غاية الاختلاف.

والأهمُّ من ذلك أنَّ المترجَم في الكتاب لم يصنع شيئا مذكورا إذ ٱكتفى بالاقتباس من "حلبة الكميت" كما قدَّمنا.

ثمَّ إنَّه لم يعرِّف بصاحب الكتاب أمين الدِّين الحلبي (-643هـ) الذي قدَّمنا ترجمته سالفا، والشَّأن عند ٱختصار كتاب، أو تتميمه أن يذكر شيء عن مؤلِّف الأصل حتَّى يكون الواقف على الكتاب المحور أو المتمِّم على بيِّنة، ثمَّ هو لم يذكر ٱسم المؤلِّف بدون تعريف مكتفيا في المقدِّمة بقوله "مفتاح الأفراح... لمؤلِّفه"، وكذلك في أوَّل قصائده بقوله: "وله غفر له" أو "تجاوز الله عنه"، فلم يخرج عن تقليد "حلبة الكميت".

ثمَّ إنَّه في أسماء الشُّعراء الذين كمَّل بهم الكتاب ٱكتفى بالألقاب وفي ذلك تقصير حيث لم يذكر الشُّعراء بأسمائهم حتَّى يكون له بعض تعريف بهم.

وفي بعض نقوله عن الحلبة يكون هناك تحريف في الأبيات المنقولة منها فينقل ذلك على علاَّته، وله العذر فيما لا يختلُّ به الوزن، أمَّا ما يختلُّ به الوزن فلا عذر له فيه إذ عدم ٱستقامة الوزن منذرة بالتَّحريف وهذا كما في طالع أبيات حسام الدِّين بن منقذ إذ جاء البيت هكذا محرَّفا:

ٱغنم لذات المدامة دائما ما دمت تلق العيش غير منكد

وصوابه:

[الكامل]

خل ٱغتنم فرص المدامة دائما ما دمت تلقى العيش غير منكد

والبيت من الكامل، وهناك في العجز غلط في العربيَّة حيث حذف حرف العلَّة من قوله (تلقى)، ولا داعي للحذف عربيَّة.

عند مترجميه

ترجم للدَّرناوي ثلاثة من المعتنين بالتَّراجم من التونسيِّين، وبين ترجمة كلِّ واحد منهم تخالف في تناول التَّرجمة، ومن بين ذلك تدرك نظرة كلِّ واحد من مترجميه، وما هو وزنه عنده، وهي وإن كانت تراجم على الطَّريقة التي لا تعنى بالنَّقد والبحث والإحاطة بما للمترجَم فإنَّها لم تخل من نظرة خاصَّة تبين من بين السُّطور، فمهمَّة الباحث أن يتصيَّد أفكار المترجمين وإن كانت كتاباهم لا تعدو بضعة أسطر، والذي نرجوه أن نكون موفَّقين فيما نستنتجه من تلك السُّطور النَّزرة حتَّى نعرف نظرة كلِّ كاتب في التَّاريخ التُّونسي.

أرَّخ للدَّرناوي صاحب "إتحاف أهل الزَّمان" بترجمة كان فيها مقتصدا غاية الاقتصاد حتَّى كانت ترجمته له من أخصر تراجمه، ولعلَّ لذلك سببا وهو أنَّ صاحب الإتحاف إنَّما يعنى عناية خاصَّة بجانب الشُّيوخ المبرزين بالذين لهم ضلع في إدارة شؤون الدَّولة من قريب أو بعيد، والمترجَم لم يكن من أولئك، فهو وإن بلغ إلى مرتبة رئاسة الكتَّاب لم يكن له نفوذ في الدَّولة مثل حمُّودة بن عبد العزيز المتدرِّج من الكتابة إلى الاستحواذ على النُّفوذ في الدَّولة.

فهو مع بلوغه إلى تلك المرتبة التي تعدُّ في عصر المترجَم من أسمى ما يتطلَّع إليه أبناء البلاد لم يؤثر عنه شيء مذكور، وهذا ما دعا صاحب "الإتحاف" أن يختزل ترجمته ٱختزالا لا يتناسب مع من بلغ إلى تلك الرُّتبة.

وإن وجدنا للشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف عذرا في ٱختزال التَّرجمة نبقى مستفهمين عن إبراز تلك التَّرجمة في قالب ينمُّ عن شيء نفسي حيث ٱفتتح هذه التَّرجمة: "بأنَّ هذا الرَّجل له ملكة حسنة في العلم والأدب"، مخالفا لأكثر عادته في التَّراجم حيث يبتدئها بقوله: "نشأ هذا الفاضل"، أو "نشأ هذا الخيِّر"، أو "أصل هذا العفيف من الموالي"، ولم يبتدئ تراجمه بمثل ترجمة الدَّرناوي إلاَّ في القليل النَّادر وغالبا تكون ترجمة لمن لم يعرف بعلم ولا أدب، والمترجَم له مكانته العلميَّة والأدبيَّة، ولولا إنشاؤه لما بلغ إلى أن صار

رئيس الكتَّاب، فلعلَّ الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف يحمل شيئا في نفسه عليه، فلذلك ٱفتتح ترجمته بهذا الرَّجل.

ثمَّ إنَّ تعبيره بأنَّ له ملكة في العلم والأدب يدلُّ بالإضافة إلى ذلك الافتتاح أنَّه يعتبره من أصحاب الملكات لا من فحول العلماء والأدباء، وٱقتصر على أنَّ له ملكة فيهما دون أن يتوسَّع بوصفه بأنَّه عالم فضلا عن سجعاته التي يحلِّي بها مترجميه، ونقف هنا متسائلين أهذا الإجحاف بحقِّ المترجَم من صاحب "الإتحاف" وإن كان يحمل في نفسه شيئا عليه، والغريب أن يكون هذا منه مع أنَّهما ليسا بمتعاصرين لأنَّ المعاصرة حجاب وهي منتفية بينهما.

أو أنَّ المترجَم لم يكن بالمترلة التي تحظى بالتَّنويه من الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف فهو ليس عنده بمترلة ٱبن عبد العزيز لا في السِّياسة فقط بل حتَّى في الأدب، ولهذا كان مقتصدا في ترجمته.

وإذا ٱنتقلنا إلى ترجمة أخرى للدَّرناوي نجد الأمر يختلف ٱختلافا واضحا فبعد ذلك الاقتصاد في التَّرجمة تكون ترجمته موسَّعة، وفي مقابل كونه ذا ملكة أدبيَّة يوصف بأنَّه من البارعين في تحرير المسائل، وأنَّه تاج الآداب، وتوسَّع في ترجمته وحلاَّه بالأوصاف المنمَّة عن نبوغ وتفوُّق، الشَّيخ محمَّد بن عثمان السَّنوسي في "مجمع الدَّواوين التونسيَّة" إذ يترجم له بأنَّه:

"أكتب بارع، ونحرير لم يزل سائر الأعلام "أقوى" فارع وتاج بين الآداب، وباب ثدي الأراب، تدرَّج في المعالي، ورمى بالسمر العوالي إلى أن رقى عزَّ الدسوت الباذخة، بمراقي همَّته الشَّامخة، فأحرز لواء المفاخر، وأصبح بدرايته أعظم مفاخر، تحلَّى بالمحبَّة والكياسة، وتسلَّم راية السِّياسة، حتَّى رقى إلى الرياسة، وعطَّر بها ألباسه، وأبدع في تنظيم "الدرِّ الثَّمين"، حتَّى تفاخر بمديحه كلُّ ممدوح له من العالمين، إذ أحسن في ترصيع لئالئ الآداب، وقلَّدها بأعزِّ الرقاب فأصبح شعره غرَّة في الحياة، وقرَّة لمحاجر من رآه، فيه عذوبة ولطافة، يذكر ما بين الجسر والرَّصافة.

وقد أدرك جلّة من الأعلام، فنال منهم غاية المرام، وأخذ عنهم أوفر الأسهام، كالعلمين القدوتين السُّوسي والغرياني وناهيك بهما من طودين يبلغ بهما قاصدهما غاية الأماني".

إنَّ البَوْن شاسع بين ٱبن أبي الضِّياف والسَّنوسي في التَّرجمة للرَّجل يدلُّ على أحد الأمرين إمَّا أنَّ الأوَّل لم ينصف المترجَم، وإمَّا أنَّ الثَّاني بالغ في المدح.

ونرجِّح أنَّ ٱبن أبي الضِّياف كان من الحانقين عليه، وهذه شنشنة له مع الكتَّاب الذين تدرَّجوا في سلك الكتابة ونالوها بالبراعة في الإنشاء، ولكنَّه كان يتناول كلَّ من يريد نقده بلباقة ونيل يراه أقرب إلى التَّأثير على عقل القارئ فٱبن عبد العزيز حطَّ على تاريخه وأخرجه من التَّاريخ إلى المدح والتقرُّب، والدَّرناوي ترجم له ترجمة مجحفة.

ومع أنَّنا نرى أنَّ صاحب الإتحاف قصَّر في حقِّه لا نجاري السَّنوسي فيما خلعه عليه من الألقاب فهو وإن كان من الأدباء الفائقين لم يكن في عصره تاجا للأدباء بل هناك أدباء لا يضارعونه فحسب، بل لهم التفوُّق، وسننصف هذا الرَّجل حين ننقد أدبه.

وكما ترجم له السَّنوسي في "مجمع الدَّواوين" ترجم له في "مسامرات الظَّريف"[1] فذكر أنَّ:

محمَّد بن حسين الدَّرناوي -أي المفتي- نشأ هو وأخوه -أي الكاتب- في طلب العلم الشَّريف.

"فأمَّا أخوه عبد الله الدَّرناوي فقد تعلَّق بالآداب وتحلَّى بحلية الكتاب، ونظم الشِّعر البديع...

ولَّما ٱستكمل التَّعاليم وتقدَّم في الأشياء على كلِّ حميم، أولاه الأمير علي باي خطَّة الكتابة، وتقدَّم في مراتبها إلى أن بلغ الرِّئاسة في مبدإ دولة الأمير حمُّودة باشا غير أنَّه عزل منها بعد حين ولازم بيته على وجاهته وٱحترامه".

---

1 مسامرات الظَّريف3/187-188.

وثالث مترجميه الشَّيخ محمَّد النَّيفر في "عنوان الأريب"[1] وٱستقى ترجمته من "إتحاف أهل الزَّمان" لكنَّه لم يجاره في الغضِّ منه بل كان وسطا بين بين. والإنصاف يدعونا إلى أن يكون هذا الأديب في عداد أدبائنا السَّالفين فإنَّه رغم نزارة أدبه فإنَّ شعره من الشِّعر اللَّطيف المقبول، فليس من العدل إهماله فإنَّه لا يقلُّ عن شعراء عصره النَّابغين.

مكانته الأدبيَّة

كان الدَّرناوي من الكتَّاب الشُّعراء جريا على سنَّة ذلك العهد من الجمع بين الكتابة والشِّعر فكأنَّهما شيئان متلازمان، فلا يتمُّ فضل الكاتب إلاَّ إذا أضاف إليه الشِّعر، فكان من زمرة شعراء العصر الذي فيه الورغي والغراب وٱبن عبد العزيز والطوير وسميَّة وأضرابهم.

وهو وإن نظم في مناسبات أنشد فيها الغراب والورغي مثل ختان ٱبني الأمير علي بن حسين فهو ليس من فرسان تلك الحلبة، وإنَّما إنشاده بنفسه في ميدان الأحول كما سنوضِّحه.

وقد صدَّر السَّنوسي ترجمته في "مجمع الدَّواوين" حين ذكر شعره بقصيدته التي قالها في موت يونس باي ٱبن علي باشا الذي فرَّ من تونس إثر قيامه على أبيه علي باشا فلحق بقسنطينة، وقد دخلها بأموال وافرة وعدَّة ظاهرة، فكان في مفرِّه في أبَّهة عظيمة لفتت إليه الأنظار، فأدَّى ذلك إلى أمره بلزوم بيته إلى أن آل الحال إلى سجنه، ثمَّ إلى إشاعة موته، وقد تبيَّن عدم صحَّة ذلك، وبقي على تلك الحال إلى أن وقعت وحشة بين الأمير علي بن حسين وبين صاحب قسنطينة أحمد باي فأراد هذا الأخير أن يكيد الأمير المذكور فأخرج يونس بن علي باشا من محسبه لكنَّ المقادير لم تتمَّ له

1 عنوان الأريب 1/633-635.

مكيدته إذ توفِّي يونس بعد خروجه ببضعة أيَّام، وجاء البشير إلى الأمير علي باي بوفاة يونس.[1]

ٱغتنم الدَّرناوي هذه الحادثة فأنشد في ذلك قصيدا ذكره ٱبن عبد العزيز في التَّاريخ الباشي بعد إتيانه على تاريخ يونس بن علي باشا في قسنطينة.

بعد ذكر إنشاء علي باي ٱبن حسين باي لمركبين برسم الجهاد في البحر، وهذا على حسب ما جاء في نسخ قلميَّة، وهي التي ذكرت التَّاريخ على الولاء، ثمَّ ختمت بذكر ما خصَّ الله تعالى به الأمير المذكور من محاسن الأخلاق وكرم الطِّباع، وهذا التَّرتيب غير الذي ٱعتمد في الطَّبع، ولذلك لا توجد هذه القصيدة في المطبوع تبعا لبعض النُّسخ.

وهذه نتف من القصيدة المصدَّر بها في "مجمع الدَّواوين التونسيَّة"، وقد نقلها من التَّاريخ الباشي:

قتل العدى بالسيف لا سمر الفنا ... والصعب يدرك بالتأني لا الونى
والمرء إن أبصرته مستمسكا ... بالله فيما رامه نال المنى
وأجل مأمول لدى أهل الحجا ... ما قد أتى عن راحة لا عن عنا
وإذا العناية والحوادث أقبلت ... قد قلدتك قيادها نم في الهنا
وإذا قدرتك على عدوك فلتمل ... للعفو عنه فهو نعم المقتنى
كعلي باشا ٱبن الأمير حسين قد ... نال ٱقتدارا قد عفى عمن جنى
ملك الملوك وأنبه الأمراء الذي ... بالحلم والعلم الشريف له ٱعتنا
ملك زكي طاهر لكنَّه ... باليسر ملتحف وعار عن خنى
عاين ٱنقلاب زمانه فلذا يرى ... صعب الحوادث إن تواری هينا

****

إنِّي بحبك في الورى متشيع ... فأعجب لشيعي يرى متسننا
يا أيُّها الملك المعظم والذي ... كالبدر يبدو في السناء وفي السنى

****

1 الإتحاف 2/133-142.

أبشر بسعدك عـــن قريـــب لم يـــذر من قد بغى منـــهم فـــرادى أو ثنــــا

****

درا به غواص فكـــري قـــد أتـــــى لم يرض غيركم يكـــون المعدنــــــا

****

لازلت في عـــز يـــدوم ورفعـــــة تسمو سموَّ البدر يـــا مـــأوى الثنــــا

بالسادة الأنجـــال أقمـــار العلــــــى مقرور عين في سرور مــع هنــــا

ما قال في صـــدر القـــصيدة منـــشد قتل العدى بالسَّيف لا سمـــر القنـــى

وقد قدَّم لهذه القصيدة ٱبن عبد العزيز بقوله:

"وكان موته -أي يونس بن علي باشا- يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الثَّاني سنة 82، -أي من القرن الثَّاني عشر- وفي ذلك يقول صاحبنا الوزير الأجل الكاتب أبو عبد الله محمَّد بن حسين الدَّرناوي".

فٱكتفى بمدح القائل، فوصفه بالوزير الأجل الكاتب دون مدح القصيدة، وفي ذلك تعريض بأنَّها ليست من القصائد التي بلغت درجة الإجادة، إذ ٱبن عبد العزيز من نقَّاد الشِّعر فلا يكتفي بالنَّقل بل يبرز المحاسن والمساوئ.

وذكر ٱبن عبد العزيز بجانب هذه القصيدة قصيدة للشَّيخ صالح الكوَّاش[1] (-1218هـ) وهي التي يقول في مطلعها:

راحـــة الـــصب غيبـــة الرقبـــاء حـــين زال الرقيـــب زال عنـــائي

ويقول فيها بعد هذا الطَّالع:

فـــإذا أســـعد الزَّمـــان مُحبـــا نـــزَّه القلـــب في ريـــاض الهنـــاء

وأســـام العـــدو ربعـــا وخيمـــا لم يفـــد فيـــه نافـــع إلاَّ دواء

تونس الأنس زال نقطك مـــن أســـ ـــفل فـــاحو علامـــة العليـــاء

وقد علَّق ٱبن عبد العزيز على هذا البيت الأخير مـــن قـــصيد الـــشَّيخ الكوَّاش:

---

1 أبو الفلاح، صالح بن حسن شهر الكوَّاش، الكافي الأصل، أخذ عن علماء عصره، فرَّ من الأمير علي باشا لخوف سطوته إلى طرابلس ثمَّ إلى القسطنطينة ثمَّ رجع بطلب من الأمير محمَّد الرَّشيد باي. من تأليفه شرح الصَّلاة المشيشية. (عنوان الأريب 1/635-639).

"وقوله تونس الأنس زال نقطك من أسفل" يريد أنّ لفظة تونس إذا ٱنقطت تاؤها من أسفل صارت يونس فكنّى بزوال نقطها من أسفل عن زواله... وهذا معنى حسن لو ساعده اللّفظ فإنّ آثار الكلفة على هذه الأبيات ظاهرة.

ينتقد ٱبن عبد العزيز أبيات الشّيخ الكوّاش وهي أمتن وأعمر وأسلم من أبيات الدّرناوي، والسّبب في ذلك أنّ ٱبن عبد العزيز حين كتب تاريخه لم يكن يحسب للشّيخ الكوّاش حسابا إذ هو من سلك العلماء وليس من رجال الدّولة أمّا الدّرناوي فهو من الكتّاب البارزين وبلغ رئاسة الكتّاب فتحامى جانبه.

وأعرض عن ٱنتقاد قصيدته.

وإن أعرض ٱبن عبد العزيز عن ٱنتقاد الدّرناوي فإنّنا وفاء للنّقد وإظهارا للحقيقة نذكر ما في قصيدة الدّرناوي من نقد حتّى تأخذ قصيدته ما تستحق.

إذ قصيدة الدّرناوي منقودة في كثير من أبياتها، فالنّقد يتناولها من جوانب عدّة، من ذلك قوله:

وإذا قدرت على عدوك فلتمل للعفو عنه فهو نعم المقتنى
كعلي باشا ٱبن الأمير حسين قد نال ٱقتدارا قد عفى عمن جنى

فالبيتان من حيث المعنى والسبك منتقدان إذ لا معنى لذكر العفو لأنّه لا مدخل له في موت يونس المذكور لأنّه لا شيعة له حتّى يحرِّض الممدوح على العفو عنهم، ثمّ إنّ البيت في سبكه غير مستقيم وغير جار على السّبك الصّحيح لأنّ السّبك العربي يقتضي أن يقول كعلي باشا ٱبن الأمير حسين الذي نال ٱقتدارا فعفا عمّن جنى، فعوض أن يأتي بالذي أتى بقد، وعند ذلك لا يتمّ الرّبط، وكذلك قوله قد عفا الرّبط فيه إنّما يكون بالفاء لا بقد، ثمّ إنّ هذا البيت لا يستقيم وزنه إلاّ إذا قرئ علي وحسين غير مصروفين، وهذا وإن كان من الضرورات الشعريّة إلاّ أنّها ضرورة قليلة كما أشار إليها ٱبن مالك في الألفيّة:

ولاضـــطرار أو تناســب صـــرف ذو المنع والمصروف قـد لا ينـصرف

فالبصريُّون لا يجيزون منع المصروف من الصَّرف، و لم يجـزه منـهم إلاَّ الأخفش[1] والفارسي.[2]

وكذلك قول الدَّرناوي:

ملـــك زكــي طـــاهر لكنَّــــه باليسر ملتحــف وعــار عــن خــنى

فقوله:(عار عن خنى)، ممَّا لا يخاطب به عامَّة النَّاس فضلا عن أمير، فلفظ الخنى من المستهجن أن يذكر في مخاطبة من يمدح لأنَّه لا يتصوَّر أن يـصدر عنه حتَّى يحتاج إلى نفيه عنه وعريه منه، فإذا ما وصفه بأنَّه عار عن خـنى كان ذلك بمثابة أنَّه ألصق به الخنى فنفاه عنه ومجرَّد توهُّم ذلك فيـه ينـافي منافاة تامَّة مقام المدح والإشادة.

ومن المنقود قوله:

إنّـي بحبِّـك في الـورى متـشيِّع فأعجـب لـشيعي يـرى متـسننا

حيث ٱستعمل تسنَّن بمعنى ٱتَّبع السنَّة مع أنَّ تسنَّن كما في القـاموس[3] أحدَّ السكِّين وصقله وأمَّا السَّير في الطَّريقة فيقال سنَّ الطَّريقة سار فيهـا، وكذلك ٱستسنَّ قال في القاموس "وسنَّ الطَّريقة سار فيها كٱستسنَّها".

فالمعنى المعروف في العربيَّة على ٱستعماله يكون هكذا فأعجب لـشيعي يرى محددا للسكين.

وكذا قوله:

بالـسادة الأنجـال أقمـار العلـى مقرور عـين في سـرور مـع هنـا

فٱستعمل مقرورا بمعنى قرير أمَّا المقرور فهو الذي أصابه البرد.

---

1 سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثمَّ البصري، أبو الحسن، المعروف بالأخفش الأوسط: نحوي، عالم باللُّغة والأدب. أخذ العربيَّة عن سيبويه. من تآليفه "الاشتقاق"، و"معاني الشِّعر"... الخ. توفي سنة 215هـ /830م. (الأعلام 154/3).

2 الحسن بن أحمد بن عبد الغفَّار، الفارسي الأصل، أبو علي: أحد الأئمَّة في علم العربيَّة. من كتبه "الإيضاح"، و"التذكرة"، و"جواهر النَّحو"... الخ. توفِّي سنة 377هـ/ 987م. (الأعلام 193/2).

3 القاموس 238/4.

وأمَّا الذي أراده وهو سرور العين، وٱنقطاع بكائها وجفاف دمعها فإنَّه يستعمل فيه قرير العين لا مقرور العين قال في القاموس: (وعين قريرة، وقارة وقرهما ما قرت به)[1]

فقصيدته هذه التي نقدنا أبياتَها بجانب ذلك النَّقد هي في جملتها ليست من حرِّ الشِّعر إذ هي من ضعيف شعر الدَّرناوي، والعجب من السَّنوسي في "مجمع الدَّواوين" كيف صدَّر بها في ترجمته مع أنَّها ليست من جيِّد شعره.

وٱبن عبد العزيز في باشيه وإن لم ينقدها كما نقد قصيدة الشَّيخ الكوَّاش فإنَّه ٱنتقد تعريضا حيث ذكر قصيدته وقصيدة الكوَّاش، ثمَّ عقَّب القصيدتين بقوله:

"ولا نجد في هذا المقام أحسن ولا أبدع ولا أعذب لفظا ولا أحسن معنى، ولا أشدَّ مطابقة للحال من قول أبي الطَّيِّب المتنبِّي من قصيدة يمدح كافورا الإخشيدي في واقعة مشهورة تقرب جدًّا من هذه الواقعة أوَّلها:[2]

[الطويل]

عدوُّك مذموم بكلِّ لسان ... ولو كان من أعدائك القمران

ولله سرٌّ في علاك وإنَّما ... كلام العدا ضرب من الهذيان

أتلتمس الأعداءُ بعد الذِّي رأت ... قيام دليل أو وضوح بيان

رأت كلَّ من ينوي لك الغدر يبتلى ... بغدر حياة أو بغدر زمان

فمالك تَختار القسيَّ وإنَّما ... عن السَّعد يرمي دونك الثَّقلان

ومالك تعني بالأسنَّة والقنا ... وجدُّك طعَّان بغير سنان

ولم تحمل السَّيف الطويل نجاده ... وأنت غنيٌّ عنه بالحدثان"

ومعنى هذا البيت لأيِّ شيء تحمل السَّيف وأنت غير محتاج إلى حمله لأنَّ حوادث الدَّهر تقاتل عنك الأعداء.

أرد لي جميلا جدت أو لم تجد به ... فإنَّك ما أحببت فيَّ أتاني

---

1 القاموس 120/2.

2 ديوان أبي الطيِّب المتنبِّي 4/ 242-247.

فإنَّ هذا التَّعريض من ٱبن عبد العزيز كان في ذكر تينك القصيدتين مع قصيدة أبي الطيِّب المتنبِّي في موضوع واحد وهو القتال بالسَّعد، ووجود القصيدتين مع ما نقله من قصيدة المتنبِّي يكفي تدليلا على بعد ما بين هاتين وبين ما أتى به من شعر المتنبِّي وبالأخصِّ الأبيات الثَّلاثة التي طالعها:

فما لك تختار القسيّ وإنَّما

وأين منها قول الدَّرناوي:

وأجل مـأمول لـدى أهـل الحجـا ما قد أتى عن راحـة لا عـن عنـا

فهو بعيد كلَّ البعد لا في لفظه ولا في معناه عن أبيات أبي الطيِّب المتنبِّي المحكمة الحبك مع المعنى المتقبَّل في الذَّوق الأدبي.

والأبيات التي ذكرها ٱبن عبد العزيز هي من قصيدة لأبي الطيِّب في خروج شبيب ومخالفته لكافور الإخشيدي، وهي من روائع أبي الطيِّب وبالأخصِّ قوله:[1]

[الطويل]

لَوِ الفَلَـكَ الـدوَّارَ أَبْغَـضْتَ سَـعْيَهُ لَعَوَّقَـهُ شَـيْءٌ عَـنِ الـدَّوَرَانِ

وكان على ٱبن عبد العزيز أن لا يغفل هذا في ٱنتقائه لأنَّه بيت فريد، بل الأبيات كلُّها فريدة كما قال الواحدي: "هذه أبيات ليس لها في معناها مثل".

ومن شعر الدَّرناوي ما أنشده في عكاظية الختان حيث أنشد شعراء تونس في تلك الحفلة، فكلُّ من هو معروف من الشُّعراء لم يتخلَّف عن الإنشاد.

وهذه الحفلة الختانيَّة أشار إليها ٱبن عبد العزيز بأنَّها كانت يوم الخميس لسبع خلت من شهر ربيع الثَّاني سنة 1178هـ حيث كان ختان ولدي الأمير علي بن حسين، وهما سليمان، وحمُّودة، وختان ولدي أخيه محمَّد الرَّشيد، وهما محمود، وإسماعيل.

---

1 ديوان المتنبي، ص 247.

وقد اتَّخذ الأمير المذكور هذه المناسبة لأعمال البرِّ فختن الكثير من أبناء مستوري الحال، وكذلك جهَّز الكثير من المستورات اليتامى، وقضى الدُّيون على المسجونين في ديونهم.

ولهذه المناسبة تبارى الشُّعراء في الإنشاد فكانت جملة المنشدين ثمانية شعراء، ومنهم من كرَّر الإنشاد مثل الغراب الذي له أربع مقاطع.

وعلى عادة ٱبن عبد العزيز إذا ذكر شعرا لم يخله في الغالب من إبداء رأي فيما ينقله، فإنَّه صدَّر بقصيدة الورغي وفضَّلها على بقيَّة القصائد مشيرا لهذا.

وهنَّأه الشُّعراء بقصائد كثيرة، فممَّن أحسن في ذلك وبلغ الغاية أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الورغي.

وهذا الاختيار المقدَّم من ٱبن عبد العزيز نستخلص منه أنَّه يفضِّل قصيدة الورغي على كلِّ ما أنشد في ذلك الختان، ومنه قصيدة الدَّرناوي، لكن رغم هذا الحكم فإنَّ مترجَمنا لم يضلع في هذه الحلبة، بل كان مساهما ومزاحما للشُّعراء الذين أنشدوا في ذلك.

وقدَّم ٱبن عبد العزيز لقصيدته بهذه النُّتفة:

"وقال صاحبنا الأديب الكاتب الأجل أبو عبد الله – في المطبوع عبد الله – محمَّد الدَّرناوي".[1]

وأوَّل قصيده:

هناء وافر الا حزا جليل ... مديد والسُّرور له طويل
وبشرى عمَّت الأفاق طرا ... وسعد بالسماك له وصول
بختن لو محاسنه تراءت ... لبدر الأفق أدركه الأفول

وأوَّل قصيدة الورغي المفضَّلة:[2]

هذا الختان وقد دعوه طهورا ... خلع الزَّمان به عليك سرورا

---

1 الكتاب الباشي 149/1.

2 المرجع السابق 138/1.

فـــرح يخـــصك بالكرامـــــة أولا وهنا يعمُّ الخيريـــــــن أخيــــــرا
وعلى المنـــازل مـــن بهـــاه بـــشاشة كالنازلين، فهل وجدت شعـــــورا
أخفيتـــه تبعـــا لقولـــة صـــــادق (أخفوا الختان)، وما اتّخـــذت مـــشيرا
فزكـــت محاســـنه علـــى إخفائـــه كالمسك زاد مع الخفـــاء ظهـــــورا

إنَّ القطعتين من قصيدتي الدَّرناوي والورغي تظهر كلٌّ واحدة منهما ما لكلٍّ واحد منهما من مكانة فقصيدة الورغي فيها من المتانة الشعريَّة ما يحله محلَّ الشَّاعر الفحل فقد بلغ الغاية.

لم يكن تنويه ابن عبد العزيز بقصيدة الورغي تنويها مبنيًّا على تـــشبّه أو إيثار نفسي بل هو مبنيٌّ على نقد أدبيٍّ، وتذوُّق سليم للشِّعر، ومـــن أبـــرز مظاهر التفوُّق في قصيدة الورغي على الدَّرناوي أنَّ ما ذكره الأوَّل لم يخرج عن الموضوع المنشد فيه وهو الختان الذي كان مباراة للشُّعراء حيث كانت القصيدة في مظهرها متزلة على موضوعها تتزيلا مقبولا.

ومن لطائف قصيدة الورغي في الطَّالع قوله:

هذا الختان وقد دعوه (طهورا).

حيث أشار إلى التَّعبير التونسي عن الختان (بالطهور) مع في ذلك مـــن التَّورية، وهي أنَّ هذا الختان طهارة.

وتخلَّص في العجز إلى أنَّ هذا الختان الذي كان طهارة خلع على الممدوح السُّرور.

ومن ابتكارات الورغي المنتزعة من الختان أنَّه تعجَّب من الخاتن كيـــف استطاعت كفَّاه أن ينتزع جزءا من المختونين لو يقاس بملك القياصرة لكان ملك القياصرة دون ذلك، وكيف لم يخف من تولَّى الختان أن يشهر عليـــه حربا من ختنهم لأنَّهم ليوث الوغى، لكن الذي مكَّنه من ذلك الخليل لأنَّ الختان سنَّة إبراهيميَّة.

وهذا المعنى الذي أتى به الورغي من بدائعه مع أنَّه في موضـــوعه وهـــو الختان.

وقد أبرز الشَّاعر المعنى المذكور في أسلوب بديع متين كان فيه شـــاعرا فحلا.

وهذا المعنى صاغه في أبيات، وتصرَّف فيه تصرُّفا مدح بـــه المختــونين وتفرَّس لهم بالنَّجابة والظُّهور كالنُّجوم الثَّواقب بل هم في حـــال الختـــان كذلك.

ما للمـــزين فيـــه كيـــف تناولـــــت   كفَّاه في فلـــك البـــهاء بـــــدورا
أخذت بجزء لـــو يقـــاس بمثلـــــه   ملك القياصر كـــان بعـــد قـــصيـــرا
ويعـــد هيكلـــه لكـــلِّ عيونهـــــم   أهـــل المـــشارق والمغـــارب نـــورا
أفـــلا ٱتقـــى مـــن دون ذاك ثواقبـــا   تذكي عليـــه مـــن الجهـــات ســـعيرا

لو قال عوض هذا العجز: (تذكي عليه من الجهاد سعيرا)، لكان أوقـــع وأسلم.

لـــولا الخليـــل لعاقـــه عـــن أخـــذه   حرب يـــشيب لـــه الوليـــد صـــغيرا

أطلق الورغي على الخاتن المزيِّن، وهو إطلاق ٱتَّفق فيه التَّعبير التونـــسي مع الإطلاق العربي، لكن في الإطلاق العربي يطلق على الحجَّام، وهو الذي يحجم المريض، فيخرج الدَّم من قفاه، ولمَّا كان الحجَّام هو الحلاَّق ٱقتـــصر التَّعبير التُّونسي على إطلاق ما يختصُّ بالحجامة من الحجَّام والمزيِّن دون مـــا يختصُّ بالحلاقة.

وممَّا يتولاَّه الحلاَّق الختانة فلذلك قال الورغي: (ما للمزيِّن)، فهو إطلاق عربي.

وأمَّا الدَّرناوي فلم يتيسَّر له ما تيسَّر للورغي إذ لم يذكر في الختان إلاَّ ما هو متعارف من التَّهنئة بالختان، وعند ذاك حسن قصيده بالتَّورية العروضيَّة في الوافر، والمديد، والطَّويل والأجزاء التي أتى بها صفات للهناء.

وشتَّان بين تلك اللَّطائف التي أتى بها الورغي، وبين هذه التَّوريات، وهي وإن كانت خالية عن التكلُّف لم تبلغ في طرافتها مبلغ ما تقدَّم من الأطراف.

وأكثر القصيد في الأمير علي بن حسين من قوله:

هو الملك الزكي الباشا المرجى إذا ما نابنا أمر مهول
إمام بل همام بل غمام له خلق كباطنه جميل
وشغل دائم بعلوم دين ولا سيما بما قال الرَّسول

ويستمرُّ في هذا الغرض إلى أن يستوعب خمسة عشر بيتا من قصيدة جملتها ستَّة وعشرون بيتا.

وما مدحه به في الأبيات التي ٱستطرد فيها مدح الأمير لا يخرج عن المشتهر الذي يقوله الشُّعراء مثل أنَّ بيعته كانت بيعة بيضاء تعريضا بتملُّك علي باشا وحتَّى بيعة محمَّد الرَّشيد فإنَّها تمَّت بعد معارك بخلاف أخيه علي بن حسين فإنَّها تمَّت بدون منازعة.

وناهيك البريَّة بايعته ولا نهب يلوح ولا قتيل

وعلاوة على تكرار معنى ملوك هناك ضعف في العربيَّة في الصَّدر وهو (ناهيك البريَّة بايعته)، مع أنَّه يقال ناهيك به فارسا، وناهيك كلمة تعجُّب وٱستعظام لا ترفع الجمل وههنا قد جعل فاعلها جملة ولا يصحُّ هذا الصَّدر إلاَّ بتكلُّف.

وإن لفتنا وجهتنا إلى محاسنها نجد من أبياتها التي هي في مدح الأمير الذي أقام الختان أبياتا عذبة رفيعة أبرز فيها بالخصوص أنَّ الممدوح وإن كان من صنف الأمراء إلاَّ أنَّه مارس الزَّمان وعرك الأيَّام وعركته فٱستوى الصَّعب والذَّلول لديه.

سري ألمعي أوحدي نبيه فأفضل حبر نبيل
تأزر بالعفاف فلم تملـه شمائل ذي جمال أو شمول
ففي علم وفي حزم وعزم ومحض الفضل ليس له مثيل
به إن أمن الجاني عهود تزول الرَّاسيات ولا تحول
لقد عانى الزَّمان لذا لديه تساوى الصَّعب منه والذَّلول
ولا يخفاه من حال البرايا لفطنته كثير أو قليل
ولا عضد له في الملك إلاَّ قويُّ السَّعد والرَّأي الأصيل

وأنجال له نجبا ولكن لدي الهيجاء أشبال تصول
مآثره الجليلة انباتنا بعاقبة إلى الحسنى تؤول

وحين أراد أن يعود إلى الموضوع الذي من أجله أنشدت القصيدة كرَّر المعنى الذي بدأها به وهو التَّهنئة بالختان، ولكن هذا التِّكرار لم يكن صرفا بل أفاد فيه أنَّ الأبناء المختونين هم أهل لما يصدرهم ويؤهِّلهم للمراتب العالية والقيادة.

أيا ملك الورى يهنيك ختن به العلياء تاهت والخيول
وتخت الملك والتاج المحلي ورمح الطَّعن والسَّيف الصَّقيل
كذا الرَّايات والجند المفدى لعمرك والإقامة والرَّحيل
لأبناء دروا وهم بمهد أمورا ليس تدركها الكهول
فدم بهم فديتك في سرور قرير العين ما هبت قبول
فيا له من ختان قد أريعت به الأعداء وأنسر الخليل

فهذه الأبيات التي مدح بها الأبناء هي أبيات لطيفة لم يعكِّر على ذوقها الأدبيِّ إلاَّ البيت الأخير الذي ضمَّنه أنَّ الأعداء مرتاعون لهذا الختان، ولكن الخليل مسرور، وهذا معنى وإن قبله الذَّوق العامي الذي يقال فيه مثل هذا المعنى لكن إذا عرض على المحك النَّقدي لم يقو على أن يكون مقبولا لأنَّه أيُّ روع يحصل للأعداء من الختان.

وعلى فرض التَّساهل في هذا المعنى فإنَّه لا يقال راعهم الختان، وإنَّما المناسب أنَّه أحزنهم لأنَّ ما يسرُّك يسوءهم أمَّا الرَّوع فإنَّه إنَّما يكون من أمر مريع.

وختم هذه القصيدة ببيت ضمَّنه تاريخ الختان، وهو:

ومذ قد كان في زمن سعيد أتى التَّاريخ (ختنهم جميل)

ويظهر أنَّ هذا البيت كان مثار حمية في نفس الغراب فبعثه ذلك حين لم يؤرِّخ الختان في قصيدته الطَّويلة النَّفس على أن يضع لا تاريخا واحدا بل وضع تواريخ ثلاثة أخصرها ما جاء في القصيدة التي مطلعها:

ختـــــان بالمـــــسرَّة دام عـــــزّه ‏ وراح لكـــــلِّ حلـــم يـــستفزّه

وهو:

ودام ختـــانكم بـــالعزِّ يـــأتي ‏ بتـــاريخ (ختـــان دام عـــزّه)

رثاء أخيه

من شعر الدَّرناوي ما رثى به أخاه المفتي محمَّد بن حسين الدَّرناوي المتوفَّى بالطَّاعون سنة 1199هـ:

ها قد توسَّـد في التُّـراب صعيـــدا ‏ من بعد ما حاز السماك صعـــودا

من كان يا بشراه جـلّ حياتــــه ‏ في سلكه باب التُّقـى معـــدودا

العالم المفتي الذي أحكامـــــه ‏ سلكت طريقـا في الأنـام حميـــدا

فخر الزَّمان محمَّد الدَّرناوي مـن ‏ عانى العلوم وأبـذل المجهــــودا

زان المدارس والدُّروس بثـــــه ‏ علما لطلاَّب العلـوم مفيــــدا

فلكم تصانيف لـه تـسبي النهـى ‏ أخفى الخمود لها وجـاء المشهودا

قدام بابك يا جـواد فهـب لـــه ‏ قصرا بجنَّات النَّعيم مـشيـــدا

قد مات بالطَّـاعون قلـت مؤرِّخـا ‏ (ترب زكي لم الجـواد شهيــدا)

كان على المترجَم أن يكون في هذه الأبيات غير ما هنا إذا رثي أخاه لأنَّ المطلوب منه أن تؤثر عليه عاطفة الحزن فتحسّ في رثاه بما يسيل الدُّموع، وبما يعبِّر عن الحرقة البالغة لأنَّه غير مندفع إلاَّ بدافع العاطفة، بخلاف ما إذا رثي مدفوعا بدوافع غير العاطفة فإنَّه لا يعبِّر عمَّا في الضَّمير، وإنَّما يعبِّر عن أشياء خارجة عنه.

والرِّثاء بذكر المفاخر إنَّما يكون غالبا إذا كان الرَّاثي قد طلب منه أن يرثي من كان من الصُّدور فإنَّه إذا رجع إلى نفسه لم يجد حرقة ولا أسى، فلا يغترف منها، وإنَّما يغترف من مآثر الميِّت فينظم ذلك، وهو معذور لأنَّه إذا ذكر الفجيعة لم يكن بالصَّادق وإنَّما هو مماذق.

لكن من يرثي أخاه ليس بالمعذور لكونه قد نكب في أخيه، والنَّكبة به تفيض عليه من فداحة الخطب ما يفيض شعرا.

والتَّعبير عن الفجيعة بالمرثي أدَّاها فحول الشُّعراء بأسلوب تظهـــر فيـــه عاطفة الحزن المنبعثة من روح الشَّاعر، فإذا ما ٱتَّصلت بالسَّامع أو القـــارئ أحسَّ بما يحسُّ به الشَّاعر فيكون الشَّاعر قد ٱستطاع بشعره أن يؤثِّر علـــى عاطفة غيره فتصبح طوع يمينه يذهب بها إلى مشاركته في فجيعته.

وهذا ما ٱستهلَّ به أبو تمَّام قصيدته[1] في رثاء محمَّد وقحطبة وأبي نصر بني حميد الطوسي[2]:

كذا فليجلِّ الخطـــب وليفـــدح الأمـــر وليس لعين لم يفض ماؤهـــا عـــــذر

توفِّيت الآمـــــــال بعـــد محمَّـــد وأصبح في شغل عن الـــسَّفر الـــسَّفر

وأين هذا من طالع قصيدة الدَّرناوي الذي يقول فيه: (إنَّ أخاه توسَّـــد صعيدًا من بعد حوزه السماك في الصُّعود).

لست أطالب الدَّرناوي بأن يكون مثل أبي تمَّام في مراثيه إذ ذلك شـــأو بعيد، وأمر لا سبيل إليه، وإنَّما يؤاخذ الدَّرناوي لأنَّه لَّما كان يرثـــي أخـــاه كان عليه أن يبدو في أبياته شيء ما من الأسى على فقد أخيه.

ولو ٱنتقلنا إلى باقي الأبيات نراها مثل الطَّالع في كونها تحكي بعبارة قريبة من الحديث العادي من كونه كان تقيًّا مفتيا مدرِّسا زان التَّـــدريس، ولـــه مؤلَّفات تسبي العقول.

وهذا الرِّثاء لا يقبل من أخ في أخيه بل له منهاج آخر غير هذا المنهاج، وطريقة غير هذه الطَّريقة لما تدعو إليه الرَّابطة الأخويَّة من جزع عندما يفقد الأخ أخاه.

وكما هو مؤاخذ بخلوِّ أبياته من العاطفة كذلك يؤخذ عليه ما جـــاء في البيت الثَّاني من التَّعقيد وهو قوله:

من كان يـــا بـــشراه جـــلّ حياتـــه في ســـلكه بـــاب التقـــى معـــدودا

---

1 جاءت في كتاب "أبو تمام الطَّائي ، حياته، حياة شعره" لنجيب محمَّد البهبيتي ص 104.

2 حميد الطوسي، من كبار قوَّاد المأمون العبَّاسي. توفِّي سنة 210هـــ/825م. (الأعلام 318/2).

بل يؤخذ عليه فيه عدم صحَّة التَّركيب لأنَّ صواب العجز هو أن يقول في سلك باب التُّقى معدودا، وإنَّما ألجأه إلى ذلك الوزن لكنَّ الوزن لا يبيح للشَّاعر أن يأتي بتركيب غير مستقيم.

وقد حاولت أن أجد له مخرجا صحيحا في هذا التَّركيب فلم أجد منفذا إلى ذلك إلاَّ ما يأتي:

وهو جعل باب التّقى بدلا من سلكه وهو من التكلُّف، ولذلك عددت هذا التَّركيب من التَّعقيد المعنوي أوَّلا، ثمَّ عدلت عن ذلك ثانيا لأنَّه ما يكون غلط في التَّركيب إلاَّ وجد له وجه صحيح على تكلُّف.

وكذلك آستعمال أبذل مكان بذل، وقد فتَّشت القاموس والتَّاج[1] فلم أجد أبذل، وهذا ما جاء فيهما (بذله يبذله ويبذله من حدى نصر وضرب أعطاه وجاد به، والابتذال ضدُّ الصِّيانة).

ومع هذه المؤاخذات فإنَّ هذه الأبيات من الشِّعر المقبول غير المرذول، وبالأخصِّ الطَّالع إذ فيه التَّقابل بين الصَّعيد والصعود، فالموت الذي أدَّى به إلى التُّراب قد آنتقل به من مترلة عالية حيث كان من أفذاذ عصره، وعلمائه النَّحارير بدروسه وتآليفه، ووظائفه التي حازها عن جدارة وقيمة علميَّة.

ومع الصَّنعة البديعيَّة التي رمى إليها الشَّاعر هو بيت غير متكلِّف فيه، وإذا قيس بطالع مراث أخرى لشعراء في مرتبة الدَّرناوي كان متفوِّقا عليه.

وهذه الأبيات المتقدِّمة أنشدها السَّنوسي في "مسامرات الظَّريف" في الجزء الثَّاني عندما تعرَّض لترجمة أخيه وذكر وفاته[2].

في مباراة شعريَّة:

لَّما بنى الأمير علي بن حسين "التكية" لإيواء العجَّز الفقراء رجالا ونساء من أهل العفَّة عن السُّؤال، وسأل الشُّعراء أن ينظموا في ذلك تبارى الشُّعراء

1 القاموس 344/3 – تاج العروس 224/7.
2 المسامرات 189/2.

في تاريخها شعرا وزادت التّواريخ على العشرين ووقع الاختيار على أبيــات للحاج حمُّودة بنِ عبد العزيز وطالع أبياته:

كـــلّ بـــرٍّ محلّـــه ذي التكيـــة هـــي بحـــر ومـــا ســـواها ركيـــة

وأنشد تاريخا قوله:

تعـــدل الأهـــل للغريـــب فـــأرّخ (نعم كهف لابـــن الـــسّبيل تكيـــة)

وحين أرّخها الدّرناوي نقش ما أرّخ به على باب تكية النِّساء:

بـــنى الباشـــا علـــي ذي التكيـــة لوجـــه الله بـــات بخـــير نيَّـــة

كذا أنشد هذا العجز في "مجمع الدّواوين"، وهو في الباشي خلاف مـــا هنا:[1]

ســـليل حـــسين ســـيدنا المفـــدى أبو للخـــيرات[2] ذو الـــسِّير الرضيـــة

علـــى الفقـــراء ذا كـــن ومـــأوى مدى الأيّام مـــن أعلـــى مزيـــة

وهذا الصّدر في الباشي ذو ٱختلاف مع ما هنا:

مـــرامهم الـــدُّعاء لـــه بخيـــر تقبـــل منـــهم ربّ البريَّـــة

سمـــا بـــصنيعها شـــرفا وعـــزًّا وذو التّوفيـــق ربتـــه عليَّـــة

وفي الباشي:

سمـــا بـــصنيعها شـــرقا وغربـــا فيـــا بـــشرى لـــه إذ رخـــوه

(لـــه أوفى ثـــواب في التكيـــة)

وفي "الباشي":

فيا بشراه لما أرّخوها

ومن نظر في أبيات ٱبن عبد العزيز والدّرناوي في تاريخ التكيـــة يحكـــم للأوّل على الثّاني.

---

1 الكتاب الباشي، بناء التكية 303/1-305.

2 جاء في الكتاب الباشي 304/1: ..... * أبو الخيرات ذو السير الرضية

على الفقراء مأكولا ومأوى * ....

من إخوانيّاته

ٱعتنى المترجم بالتّقريظ، وهو من المواضيع الأدبيّة التي كانت منتشرة في تلك العصور التي ضاق فيها مجال الأديب، وذلك تبع للحياة الضيّقة الـتي كان يحياها النّاس، والأديب لم يكن يخرج عن دائرة الحياة فسايرها مسايرة كليّة، وهذا موضوع حقيق بدراسة خاصّة.

والشّأن في التّقريظ أن يكون لمؤلّفات ولكن شـاع في الأدب مـؤخّرا التّقريظ لنوعين من الأدب، وهما المقامات والقصائد. وٱمتدّ هذا حتّى أنّك تجد المقامة الواحدة، أو القصيدة الواحدة كذلك عليها تقاريظ عدّة.

وعلى كلّ حال إنّ هذا النّوع قد فتح للأدباء المجال فوجدوا بابا جديدا للنّظم والنّثر فلم يقصر وهما على مدح الأمراء، أو الشّيوخ، فٱنضاف لذلك نوع جديد، وإن حرّرنا القول لم نر هذا التّقريظ خارجا عن المدح إلاّ أنّـه في الإخوانيّات التي تخلو غالبا من الإسفاف بل هي من تقـارض الإخـوان المدح.

ومن مساهمة الدّرناوي في التّقريظ ما قرّظ به قصيدة شاعر من شـعراء عصره المغمورين، وهو أحمد هويدي الذي نظم قصيدة نبويّة فبعثت قصيدته ذلك التّقريظ:

ألا يـا واحـدا الفـضلا المرجـى لقاصـده إذا لاحـت خطـوب
قـصيدتك الـتي في مـدح طـه بهـا راق التغـزّل والنّـسيـب
فلـم تـسمع ولم ينـسج لعمـري علـى منوالهـا أبـدا لبيـب
فمنـذ ختمتـها بغريـب مـدح أتـى تاريخها (مـدح غـرب)

إنّ هذه الأبيات الأربعة من عيون شعر المترجَم في سلاسة نظم، وحسن تعبير.

وبالأخصّ التّاريخ فإنّه من التّواريخ الخالية من التكلّف مع مناسبته لمـا أنشد فيه الشّعر وهو المدح النّبوي، وجملة ما جاء تاريخـا 1166، وهـذا التّاريخ على الطّريقة المغربيّة التي تعدّ الغين 900، أمّا الطّريقة المشرقيّة فإنّهـا تعدّها 1000.

وله تقريظ آخر لمقامة أنشأها أحمد هويدي المذكور في الشَّيخ أحمد الباهي[1] الذي تبارى الأدباء في إنشاء مقامات في مدحه ومن أشهر هذه المقامات ما كتبه الورغي.

وقد أشار الورغي في مقامته إلى أبي العبَّاس أحمد هويدي المذكور:

"ثمَّ قعد بالوصيد، لأصحاب القصيد، وأومأ بالرَّأس والأيدي، لأبي العبَّاس أحمد الهويدي":

وهذا تقريظ الدَّرناوي لأبي العبَّاس:

أعقود درٍّ فوق جيد رداح ... هذه المقامة أم رياض أقاح
أم وجه بارعة الجمال وفوقه ... سود الذَّوائب مثل سمر رماح
فكأنَّها وسنا الجمال خلا لها ... ليل تخلَّله ضياء صباح
من صنع ذي أدب، سماع نظامه ... أشهى وأعذب من عتيق الراح
في كفِّ ميَّاس المعاطف وجهه ... يخفي البدور بحسنه الوضَّاح
وكأنَّها السجعات في منثوره ... درر ترصع في نفيس وشاح
في صدر غانية سمت بجمالها ... وٱستعبدت بالحسن كلَّ صباح
وكلامه حكم ومجلس أنسه ... لاراحة الأرواح خير مراح
معروفه للقاصدين اباحه ... ولديه عرض الغير غير مباح
فهو "الهويدي" إذ غذا بمقاله ... يهدي الضَّليل إلى سبيل نجاح
فٱنظر لها تلف بها من حسنها ... قوت النُّفوس ونزهة الأرواح
لو شامها ذاك البديع لقال ذي ... ممَّا نسجت أحل دون كفاح
أو لو تأمَّلها الحريري لانتهى ... عن ذكر قصَّة مادر وسجاح
كم آخر فاق الأوائل صنعه ... بمواهب من ربِّها الفتَّاح
فعليه منِّي طيب عرف تحية ... ما رجعت ورق على أدواح

تجري هذه القصيدة مجرى الأبيات الأولى في خفَّة الوضع وسلاسة اللَّفظ وتناسق المعاني، وهي وإن كانت خالية من معان مبتكرة، ولطائف منتزعة إلاَّ أنَّها في أسلوب مقبول من الذَّوق الأدبيِّ وتمكُّن في قوافيها.

---

1 أبو العبَّاس أحمد الباهي يرجع نسبه لوائل بن حجر الصَّحابي، عالما صالحا، ذا كرمات بنا زاوية التي أصبحت مأوى المتغربين. (الإتحاف، من ترجمة حفيده علي الباهي، 120/7).

والمؤاخذات عليها قليلة إذا نظرنا لها بمنظار خاصٍّ، وهو الشِّعر في تلك الحقبة دون تطوح إلى العصور الذهبيَّة للشِّعر مثل العصر العبَّاسي أو النَّهضة الأدبيَّة في الأندلس.

وحتَّى ما يبدو أنَّه إيطاء بين البيت الثَّالث والسَّابع في قوله (ضياء صباح)، وقوله (كل صباح) ليس بإيطاء[1] لأنَّ صباح في البيت الثَّالث يقرأ بفتح الصَّاد وهو الصَّباح أوَّل النَّهار، وأمَّا الذي في البيت السَّابع فيقرأ بكسر الصَّاد، وهو جمع صبيحة وهي المشرقة الوجه المنيرة، فما كان يبدو أنَّه عيب ظهر أنَّه وجه لطيف مستحسن فيه تلاعب بالألفاظ دون تكلُّف، إذ موقع كل منهما من البيت متمكِّن غاية التمكُّن.

غير أنَّه في البيت الثَّاني عشر الذي فضَّل فيه مقامة الهويدي على مقامة البديع فيه شيء من التكلُّف كما أنَّه لا موقع لقوله في العجز:

مما نسجت أحل دون كفاح

لأنَّ الكفاح لا تعلُّق له بالحلية في النِّكاح، وإنَّما الذي يقابل حلية النِّكاح هو السِّفاح الذي هو تزوُّج المرأة بغير سنَّة ولا كتاب فلو قال: (مما نسجت أحل دون سفاح)، لسلم له البيت، ولعلَّه وقع في نسخة أخرى لم أقف عليها.

وأشار في البيت الثَّالث عشر الذي فضَّل فيه المقامة الهويديَّة على مقامات الحريري[2] إلى مادر وسجاح في مثلين أتى بهما الحريري في المقامة التبريزيَّة

---

1 وَوَاطأ الشَّاعر في الشعر و أوطأ فيه إذ اتفقت له قافيتان على كلمة واحدة معناهما واحد، فإن اتَّفق اللَّفظ واختلف المعنى فليس بإيطاء. وقال الأخفش: الإيطاءُ ردُّ كلمة قد قَفَّيْتَ بها مرَّةً نحو قافية على رجلٍ و أُخرى على رجل في قصيدة، فهذا عيب عند العرب. (لسان العرب 4864/6)

2 القاسم بن علي بن محمَّد بن عثمان، أبو محمَّد الحريري البصري: صاحب "المقامات الحريرية". ومن كتبه "درة الغواص في أوهام الخواص"، و"صدور الزَّمان"... الخ. توفِّي سنة 516هـ/ 1122م. (الأعلام12/6).

وهي الأربعون التي دارت فيها مرافعة أبي زيد السروجي مع زوجه لـــدى القاضي فممَّا جاء في قوله إنَّها أكذب من سجاح الــتي تنبَّــأت في عهــد مسليمة الكذَّاب، وممَّا جاء في قولها أنَّه ألأم من مادر الذي سلح في الحوض بعد أن سقى منه لئلاَّ يسقي غيره.

ولعلَّه خصَّ هذه المقامة بالذِّكر دون غيرها أنَّها من المقامــات المعقَّبــة بالشَّرح، وممَّا جاء في هذا التَّعقيب شرح الألفاظ اللغويَّة والأمثال العربيَّــة، ومنها المثلان المتقدِّمان.

ولست أدري هل أنَّ الدَّرناوي قصد ما سأشير إليه، أو لم يقصده، وعلى كلٍّ هو من اللَّطائف التي لا تخلو من طرافة أدبيَّة، وذلك أنَّه ذكر ســجاح وهي كما هو معلوم ٱدَّعت النبوَّة كذبا وزورا ثمَّ لمَّا ٱجتمعــت بمــسيلمة تزوَّجت به بعد إيمانها به، وكلاهما كاذبا ليشير إلى وجه الفضل.

والفضل الذي للمقامة الهويديَّة على مقامات الحريري والذي ربَّما لمَّــح إليه المترجَم هو أنَّ الهويدي بنى مقامته على مدح رجل ٱشــتهر بالــصَّلاح وٱنتفع النَّاس به وهو الشَّيخ الباهي بخلاف الحريري المعتني بقصَّة ســجاح الكاذبة في نبوَّتها، فهو ٱنتقاد على الحريري لبناء مقاماته على العبث والمجون دون غيرهما إلاَّ في القليل النَّادر.

وهذا الانتقاد أولع به المتأخِّرون حين توجَّهوا بالمقامة في ٱتِّجاه غير ٱتِّجاه البديع والحريري والسَّابق لهذا الاتِّجاه هو الزَّمخشري، ولكنَّه ٱكتفى بإيثــار الجدِّ على الهزل فخالف المتقدِّم المتأخِّر في كون المتقدِّم ٱنتقل إلى الجدِّ بدون ٱنتقاد.

ولم يكتف الدَّرناوي بمدح منشئ المقامة الهويديَّة بل مدح من أنشئت فيه المقامة، وهو الشَّيخ الباهي:

تباهــت بــالولي البــاهي المقامـــه　　همام قــد غــدا ســامي مقــامـــه

هو التّحرير أحمــد (مــن عـــلاه)	لقــد أنبــأ المظلــل بالغمـــامــه
ولي قد حـــوى عـــزّا ولكـــــن	له بين الــورى كــم مــن كرامــه
فلو آبـــن العفيـــف رآهـــا يومـــا	لعاف بحـسن معناهــا نظــامــه
ولم لا وهـــي إنـــشاء المجلـــي	(هويـــدي أحمـــد) حـــاوي الزعامــه
همـــام في محيـــا الـــدَّهر أضحـــى	بإحـــسان وجـــود مثـــل شـــامــه
تـــروق إلى المـــسامع حـــين تتلـــى	فيا لله مـــا أحلـــى كـــــلامــه
لقـــد أبـــدى بهـــا نظمـــا ونثـــرا	لعلَّ بجاهــه يحـوي مــــرامــه

وهذا التَّقريظ لم يكن فيه كالسَّابق، فلعلَّ الأوَّل جاء عفويًّا، فلهذا كان من أرقّ شعره بخلاف هذا فإنَّه تعثَّر فيه تعثُّرا يبدو منه التكلُّف، وهـــو وإن حملته عنه الضَّرورة الشعريَّة لم يكن سائغا في الذَّوق الأدبي.

ولرفع الإيطاء بين الصَّدر والعجز نبيِّن أنَّ (المقامة) في الـــصَّدر معناهـــا القصَّة القصيرة المسجوعة كمقامات البديع والحريري، وأمَّا قوله في العجـــز (سامي مقامه)، فهي بمعنى سامي المجلس.

وآبن العفيف الذي أشار إليه إن كان آبن العفيف الذي هو علـــي بـــن محمَّد النابلسي المتوفَّى سنة 813هـــ المتولِّي قضاء نابلس – فكَّ الله أسرها – لم يكن لتفضيل المقامة الهويديَّة على شعره وجه لأنَّ شعره لم يشتهر، وهـــو غير معدود في فحولة الشُّعراء.

وأمَّا إن قصد الشَّاعر الفحل الذي رقَّ شعره وهو شمس الدِّين ســـليمان بن علي التلمساني الدمشقي فذاك لأنَّه قد آشتهر شعره وشاع ذكره وفيـــه يقول الشِّهاب بن فضل الله:

"وكان لأهل عصره ومن جاء على آثارهم آفتتان بشعره".

وليس يعني المترجَم غيره، ولا يقصد سواه وهذا ينبئ على وقوفه علـــى شعراء غير معروفين في عصره، وكانت وفاة التِّلمساني سنة 688هـــ على ما في "فوات الوفيات".

وللدَّرناوي تقريظ آخر لمقامة الأديب عبد الكبير الوشَّان ذاكرا أنَّ الذي بعث الوشَّان على إنشائها ما أنشاه الأديب الرحَّالة أحمد بن المهدي الغزَّال[1] – بتشديد الزَّاي – الذي كان كاتبا للسُّلطان محمَّد بـــن عبـــد الله ملـــك المغرب[2]، وهو صاحب الرِّحلة إلى إسبانيا المـــسمَّاة "نتيجـــة الاجتـــهاد في المهادنة والجهاد"، وكانت وفاة الغزَّال سنة 1191هـــ.

وقد صدَّر المترجَم تقريظه بنثر فجمع فيه بين النَّثر والشِّعر ممَّا يدلُّ على إعجابه بالمقامة الوشانيَّة:

"الحمد لله الذي خلع خلعة الأدب على من أحبَّ، وأطَّلع أهله في فلك عوالي الرُّتب، والصَّلاة والسَّلام على أفصح من نطق بالبيان، وأبلغ من نبغ بالتِّبيان، وعلى آله بحور النَّدى وأصحابه نجوم الاهتدا.

وبعد فإنَّه لَّما وردت مقامة الفاضل الذي التحف برداء الكمـــال، أبـــو العبَّاس أحمد الغزَّال، من مدينة فاس إلى مدينة تونس، وقعت في نفوس أهلها موقعا كبيرا، ورأى بعض من تعاطى الأدب كون معارضتها أمرا خطـــيرا، فتصدَّى لذلك نخبة النُّجباء، وواسطة عقد الأدباء، عظيم القدر والشَّأن، عبد الكبير الوشَّان، فأجاد وأبدع، وأتى بأعجب وأبدع، وأتى بمقامة (تـــزري) بالبكر النَّاهد، ولها عليها منها شواهد، وهذا مع صغر السنِّ، وقصر مـــدَّة التَّعاطي لهذا الفنِّ فقلت مقرِّظا عليها وإن كنت قصير الباع قليل الاطِّلاع، مشتَّت البال، مجمع البلبال":

لعـــــواذلي قـــــال الملامـــــــــه   مـــــا للمحـــــب ولا الملامـــــــــه
مـــــن ذا يلـــــوم متيّمـــــــــــا   فـــــيمن تـــــسامى بالوسامـــــــــه

---

1 أحمد بن مهدي الغزَّال الحميري الأندلسي، كاتب من رجال السِّياسة في المغرب. ولي الكتابة للمولى محمَّد بن عبد الله سلطان المغرب وعيَّنه المولى سفيرا له لدى ملك إسبانيا، فصنَّف: "نتيجة الاجتهاد في المهادنة والجهاد". توفِّي سنة 1191هـــ/1777م. (الأعلام 245/1).

2 محمَّد (المعتصم بالله) بن عبد الله بن إسماعيل بن الشريف الحسني: من ملوك الدَّولة السجلماسيَّة العلويَّة بالمغرب. ألَّف تآليف بإعانة بعض الفقهاء، منها كتاب: "مسانيد الأئمَّة الأربعة"، و"الفتوحات الإلهيَّة في أحاديث خير البريَّة" ...الخ. توفِّي سنة 1204هـــ/1790م.(الأعلام 119/7).

يســـبي الحلـــيم بـــشعـــره الـــصافي إذا بـــيح نظامـــــــه
تخـــشى الظبـــا مهمـــا دنـــا والـــرمح أن يهـــزز قوامـــــه
وتخـــال عـــذب رضابـــه بنـــت الـــدنان وفـــاه جامـــه
وإذا تـــثنى أو تغنـــــى مـــا القـــضيب ومـــا الحمامـــه
والبـــدر يبـــدو إن بـــدا والـــبرق يكـــشف لثامـــه
أنّـــى تحاكيـــه المهـــا كـــلا ولا أرام رامـــــه
قـــاس علـــى صـــب بميـــدان الهـــوى إن خـــان (ذامـــه)
مـــا ضـــره لـــو أنّـــه بالوصـــل بلغـــة مرامـــه
فـــيرى عقيـــب الجهـــد مـــا ينفـــي عـــن القلـــب اغتمامـــه
شمـــس تـــدير علـــى النـــدا مـــى في الـــدجى شمـــس المدامـــه
في روضـــة غنـــاء تحكـــي بالبـــها طـــرس المقامـــه
نـــسج الـــذي بـــصنيعـــه حـــساده عرفـــوا مقامـــه
تـــزري بمنـــسوج الحريـــر أجـــاد ناســـجه احتكامـــه
أحيـــا البـــديع وقبلـــه ريـــح البلـــى درســـت عظامـــه
وأقـــام ســـوق الـــشعر فينـــا إذ علـــى ســـوق أقامـــه
يـــا حـــسن ذات جـــداول تجلـــو علـــى الـــصادي أوامـــه
فكأنّهـــا زهـــر الحـــدا ئـــق جادهـــا صـــوب الغمامـــه
قـــد عـــارض الحـــبر الأديـــب بهـــا فيـــا لـــك مـــن فخامـــه
فعليـــه تـــسليم فنـــيق المـــسك قـــد أضـــحى (ختامـــه)

ومن بديع تفنُّنه في هذه القصيدة التي مدح بها المقامة الوشـانيَّة الطَّـالع الذي ربَّما يتبادر منه أنَّه كرَّر الملامة في الصَّدر والعجز وهذا ما بدا لي أوَّلا

ثمَّ لَمَّا أمعنت النَّظر بدا لي وجه بديع ينفي التِّكرار وهو أنَّ الملا قال لعواذله: مه، فعلى هذا ينبغي أن يكتب هذا الصَّدر هكذا:

لعواذلي قال المللا: مه

ومعنى مه ٱنكفف.

وله تقريظ ثان للمقامة الوشانيَّة، وفي هذا التَّقريظ يفضِّل الوشّان على كلٍّ من كتب مقامة في الشَّيخ الباهي، وهو تعميم شمل فيه التَّفضيل على جميع الكاتبين، ومنهم الورغي الذي ٱشتهرت مقامته، ولَمَّا لم نقف على ما كتبه الوشَّان لسنا ندري هل هذا التَّفضيل حقيقي، أو هو تفضيل للعاطفة فيه تأثير.

ومن القريب أن يكون تفضيل الدَّرناوي لمقامة الوشَّان لأمر خاصٍّ وهو الصَّنعة الكلاميَّة لأنَّ هذه المقامة ٱشتملت على جدول أعجب به أدباء العصر، ومنهم الدَّرناوي والعصفوري.

وما كتبه الدَّرناوي على مقامة الوشَّان نموذج يبدي نثر المترجَم وشعره حيث جمع فيما كتبه بينهما ويبدي تقييمه الأدبيَّ لأدب بعض علماء عصره.

ويدلُّ تقريظه هذا على صلة متينة بينه وبين الوشَّان لأنَّه يطيل في كلِّ تقريظ يخصُّ الوشَّان، ويفيض عليه من المدح الكثير البالغ.

وإفاضة المدح والإسهاب في الأوصاف وإن كانا شنشنة تلك العصور إلاَّ أنَّ ما جاء ينبئ عن ودّ متمكِّن في نفس المترجَم مع إعجاب بصديقه.

ونستفيد من هذا التَّقريظ والذي قبله أنَّ الوشَّان من الأدباء الممتازين لكن عفى الدَّهر على آثاره فلم يبق منها إلاَّ النزر اليسير الذي لا يعطي للباحث فكرة لولا ما أفاضه المترجَم من مدح وما أبداه من إعجاب.

وهذا التَّقريظ الثَّاني:

"حمدا لمن جعل الأدب مهذَّبا للطِّباع، وألهم الأفكار ٱبتكار الأنظام والأسجاع، وصلاة وسلاما على من فضَّله الله على سائر الأنبياء والرُّسل وأعلى مقامه، وعلى آله وأصحابه المتأدِّبين أولي الزَّعامة.

وبعد فإنَّ مِمَّن ٱشتهر بالولاية في هذا الزَّمان، وشاعت مناقبه السنيَّة في سائر البلدان، وسما بالمفاخر السنيَّة قدره عظما، وأحاط بالمآثر الجليلة إحاطة المراشف باللمى، ذو الفضل الغير المتناهي، الشَّيخ الكامل، والعليم الفاضل، الوليِّ الصَّالح سيدي أحمد الباهي، ومن تغالت في مديحه أدباء هذا العصر، بمقامات محتوية على بديع النَّظم والنَّثر، فأجلُّ مقامة وقع عليها ناظري، وهفا نحوها خاطري،

مقامة لوحيد العصر نادره بدر القريض كبير القدر والشان
تقول للناظر فيها أدم نظرا فمنسجي من بديع النسج (وشاني)

ألا وهو الأديب اللَّبيب، الأريب، اللوذعي النَّجيب، نادرة الزَّمان، السَّامي على أقرانه في بديع المعاني والبيان، أخونا عبد الكبير الوشَّان، لا زالت عرائس أفكاره مجلوة، ومآثره في الأدب بين أولي النُّهي متلوَّة، فيا لها من مقامة لها على المقامات مقام، تحار في نسجها العقول والأفهام، تكاد من عذوبة الألفاظ تشربها مسامع الحفَّاظ، قد جنس فيها ونوع، وأغرب وأبدع، وأنشأ بها جدولا تزدري درُّ ألفاظه بجواهر عقود النُّحور، تستخرج منه عدَّة بحور، ومن العجيب كيف تبدأ من الجداول البحور، يذهب بغرائب إنشائه عقول الألباب، لو لم يكن بمياه المعاني ذا انسكاب.

فمالها في الورى مثل يناظرها فكم لها سار بين النَّاس من مثل
أقمارها في تمام النظم قد طلعت تسير في أوج معناها ولم تفل
يرتاح سامعها حتَّى يهزّ لها من التعجب عطف الشارب الثمل
فلا تعر غيرها سمعا ولا نظرا (في طلعة البدر ما يغنيك عن زحل)

هذا وقد قرَّظها من أدباء الوقت أجلَّة أنجاد، وما منهم إلاَّ من أَلَمَّ في تقريظه بالمعنى المراد، فعند ذلك حرَّكتني دواعي الأشواق للتَّقريظ بمثل ما قرَّظوه، والانخراط في السِّلك الذي سلكوه، مع أنَّ لي شغلا عن الشِّعر شاغلا، ولكنَّه من كان بالنَّظم مولعا فلا بدَّ أن يرى للغزَّال مغازلا، فقرَّظتها بما نصُّه:

أدر ثغــر الـــذي أهـــواه أم حبـــب بدا بأعلى مدام كأسهـــا ذهـــب
ولؤلؤا أم نظامـــا قـــد جليـــت لنـــا مقامـــة لهمـــام شـــأنها الأدب
في مدح قطب الورى البهي الـــذي شـــهدت له بحـــسن المزايـــا العجـــم والعـــرب
شيخ سري ومعـــروف الجـــدا ولـــه سر إذا ما بـــدا للـــشمس تنحجـــب
وشى بها الألمعـــي (الوشـــان) منـــشئها وشيا يروق لمـــن للـــشعر ينتـــسب
حبر أديب بآفـــاق القريـــض لـــه مجد غدا كاسمه مـــن دونـــه الرتـــب
سلاف ألفاظها الغـــراء مـــا جليـــت يوما لذي الـــذوق الامـــسه الطـــرب
فقل لـــذي أدب أمـــســـى يعارضـــها لقد حكيت ولكـــن فاتـــك الـــشنب
لقد تباهت ومـــا أخفـــى محاســـنها في النّاس إلاّ جهـــول مـــا لـــه أدب
فيا لها تحفـــة لـــو لم تكـــن حـــسنت صـــنعا لا قرظتـــها ســـادة نجـــب
أنشأ بها جدولا يسبي النهـــى فلكـــم بدت بها من بحور ذا هـــو العجـــب
ما أبصر النّاس شـــيئا فيـــه ينقـــصه سوى مياه المعاني منـــه تنـــسكـــب
لا زال منشئها حاوي الكمـــال الـــذي يبدي بدائعه مـــا لاحـــت الـــشهب"

أنشأ الدّرناوي هذا التّقريظ وهو كما قال في شغل شاغل عن الـــشّعر وحتّى عن النّثر لأنّه وقعت له جملتان أخرجتنا عن أبسط القواعد العربيّـــة، وهما قوله: "مع أنّ لي شغل عن الشّعر شاغل، ولكنّه من كان بالنّظم مولع فعلا بد للغزّال يغازل".

ولو أردنا محاسبته على هذه السّقطات في النزر اليسير من الكـــلام لأدّى بنا الأمر إلى أنّه لم يشد من العربيّة يسيرا فضلا عن الكثير إذ أنّه رفع اســـم (أنّ) الذي تأخّر عن خبرها وهو قوله (مع أنّ لي شغل) ولا نحمّـــل هـــذا التّحريف النّاسخ لأنّه بنى عليه السّجعة في قوله (شاغل)، الذي هو وصـــف لشغل لأنّه لو كان منصوبا لم تصحّ السّجعة مع قوله يغازل، وهذا يـــبرّئ النّاسخ ويدين الكاتب نفسه.

ثمّ أنّه رفع خبر كان في قوله: (من كان بالنّظم مولع)، وهذا الغلـــط لا يبعد أن يكون من النّاسخ، وحاشا المترجَم أن يقع في مثل هذا الغلط، وعلى فرض صدوره عنه ليس هو عن جهل بالعربيّة، وإنّما هي الغفلة التي يقع فيها النّاس ونقع فيها، ولكن هذا لا يسيغه النّقد فإنّ الكاتب مطلوب منـــه أن

يتحرَّى، ويتحرَّى حتَّى لا يخرج ما هو منقود، وحتَّى يكون هـذا النَّص سليما عربيَّة صححته بما أثبته هنا.

وربَّما نستفيد من طالع قصيده الذي ختم به كتابته أنَّ للمدام عليه تأثير، وقد ذكرنا هذا الطَّالع بطالع قصيدة لشوقي[1]:

حـف كأسـها الحبـب فهـي فـضة ذهـب

ولَّما نظم شوقي قصيدته هذه قال بعض الظُّرفاء لوالد شوقي أنَّهـا مـن الإحداث في الإسلام..

ويقصد المترجَم بالمجد الذي كاسم الممدوح اسم عبد الكبير، فمجـده كبير كاسمه.

وهناك مؤاخذة في هذا التَّقريظ حيث كرَّر معنى واحدا، وهو التَّعجـب من استخراج البحور من الجدول الذي وضعه الوشَّان في مقامته، فـذكره مرَّتين الأولى في نثره والثَّانية في شعره.

مدح وشكوى

ساهم الدَّرناوي في حلبة شعريَّة مثل التي تقدَّمت وهي الحلبة الختانيَّة التي عني بقصائدها الوزير الحاج حمُّودة بن عبد العزيز في تاريخه، وهذه الحلبة من نوع آخر، وهي الحفلة الختاميَّة التي قامت سوقها في المدرسـة السليمانيَّة حيث كان يدرِّس فيها علاَّمة تونس محمَّد بن علي الغرياني الطرابلسي المولد التُّونسي النَّشأة والوفاة (-1195هـ)، وممَّا درَّسه صحيح البخاري، وكان ختم تدريسه ختما حافلا ويوما مشهودا أنشدت فيه قصائد، ومـن بينـها قصيدة المترجَم.

وهذه القصيدة ضمَّنها شيئا يدلُّ على أنَّ المترجَم الدَّرناوي فارق وطنـه حيث أكثر من وصف لوعة فرقة الوطن وذكر ذلك في أبيات، فلا يبعد أنَّه

1 أحمد شوقي بن علي بن أحمد شوقي، أشهر شعراء العصر الأخير. يلقب بأمير الشعراء. جرى شعره على كل لسان. من آثاره "الشوقيات"، و"مصرع كليوباطرة"، و"مجنون ليلى"... الخ. توفِّي سنة 1351هـ/1932م. (الأعلام 133/1).

ليس من مواليد الحاضرة التونسيَّة، وإن كانت كلُّ الدَّلائل تدلُّ على أنَّه من مواليدها كما تقدَّم.

ويحتمل ذكره للوعة فرقة الوطن أنَّه إشارة إلى مفارقة الممدوح وطنه وهو الشَّيخ الغرياني.

ولا نظنُّ أنَّه ذكر ذلك لمجرَّد المحاكاة كما ذكر تغزُّله بالرَّشا الذي خلَّفه في وطنه لأنَّ التغزُّل تستطيبه النَّفس بخلاف لوعة مفارقة الوطن من الأشياء التي تنغِّص النَّفس، فلا بدَّ أنَّ أحد الأمرين هو الذي بعثه على ذلك.

وعلى كلِّ حال هناك رابطة بين الشَّيخ وتلميذه إذ كلٌّ منهما يحمل نسبة طرابلسيَّة فالشَّيخ غرياني، والتِّلميذ درناوي، فهما يشتركان في ذلك، وينتسبان إلى قطر واحد.

وهذه القصيدة التي أنشدها في ختم صحيح البخاري:

تصبر عن الشكوى وإن برح الحب ... ولا تألف السلوى وإن فرح الصب
وكابد مشقات الهوى فصعابها ... تمر على أن الهوى مره عذب
وفرقة أوطان إذا ما ذكرتها ... نسيت مسراتي وزاد بي الكرب
منازل أنس كالسماء سحابها ... أكب أهاليها وأقصى لها الصحب
بها رشا من لحظة وقوامه ... إذا ما بدا يخشى الرديني والعضب
يدير على الندمان كأس مدامة ... على الشمس في وقت الضحى نورها يربو
يناولها صرفا ولو أن مزجها ... بمعسول ظلم منه لم يسأم الشرب
يعاتبني العذال فيه وما دروا ... بأنَّ شجي القلب ليس له قلب
يقولون لي ماذا التَّصابي وذا الهوى ... ومن ذا يرى هذا الجمال ولا يصبو
جياد اصطباري قد كبت في غرامه ... وعن مهجتي سيف الهوى منه لم ينب
إذا برقت منه الثنايا تصببت ... دموعي وعند البرق لا ينكر الصب
ومن عجب تزداد بالصف حرقة ... ونار الجوى بين الجوانح لا تخبو
وشمس محياه المنيرة ما جلت ... غياهب أحزاني ومني لها قرب
نعم إنَّها زالت بأنوار عالم ... له تقطع البيدا وتحدى له النجب
جلت ظلمات الجهل شمس علومه ... وما خلت أن الشَّمس مطلعها الغرب

لــــه غايـــة في العلـــم عـــز مثالهــــــا   وهمته العليـــاء مـــن دونهـــا القطـــب
إذا جـــاءه الـــضمآن للعلـــم صـــاديا   يقول يقينـــــا أنـــه المنـــهل العـــذب
يفيض على العـــافين بحـــر معـــارف   وجودا يوالى سكبـــه كفـــه الرحـــب
إذا آسود جنح الليـــل أحيـــا ظلامـــه   بقلب كسير والـــدموع لهـــا ســـكب
ويقطعـــه ذكـــرا بـــإخلاص نيـــة   وأمّا صـــلاة الليـــل فهـــي لـــه دأب
ويرضيه مـــا يرضـــي الإلـــه ورســـله   ويقنطه ما ليس يرضـــى لـــه الـــرب
إمام بـــه غريـــــان زادت مفـــاخرا   وتونس أضحت دون رتبتها الـــشهب
وكيف وقد أحييت دارس علمهـــــا   بدرس علوم درس أبحاثـــه خـــصـــب
وحليت فيها الطالبيـــن بحليـــــــة   من العلم ما أن مثلهـــــا اللؤلؤ الرطب
وأسمعتهم أخبار من ألجمـــــــت لـــه   مصاقع قحطـــــان وكلمه الـــضـــب
(صحيح البخاري) الـــذي بحديثـــــه   شفاء نفوس مـــــا لهـــا غيـــره طب
فيهنيك يا كهف الورى ختمه الـــذي   به حلّ كل الخير وآرتحـــــل الخطـــب
ودونكما جلـــــت بجمالهــــــــا   فريدة حسن مـــــا يقاومهـــا تـــرب
فإنّ زماني قـــد رمـــاني مكارهــــا   فلي كل يوم من حوادثــــه نكـــــب
وليس لها مهر سوى صـــالح الدعــــا   (عسى بدعاكم شيخ ينجبـــر الكـــرب
ولكـــنني أرجـــو بـــيمن دعـــائكم   بلوغي غايات الرجـــاء ولـــو تنـــــو)

لم يخرج في قصيدته هذه عن المتعارف في قصائد المدح حيث آســتهلّها بالتغزُّل بالرَّشا الذي خلّفه في وطنه المفارق، وما يقاسيه من لوعة الحـــزن، وجعل التخلُّص لمدح شيخه الغرياني أنّ الرَّشا الذي تعلّـــق بـــه لـــه محيـــا كالشَّمس المنيرة، ولكن شمس المحيا لم تجل أحزانه، وما جلّتها إلاّ شمس علوم الممدوح.

وهذا التخلّص إذا لم نتعمّق فيه كان تخلُّصا مقبولا إلاّ أنّنا إذا رجعنا قليلا نجده يذكر أنّ هذا الرَّشا المتحدِّث عنه لم يكن معه إذ هو في وطنه الـــذي فارقه وإذا كان مفارقا فكيف يرجو أن تنجلي أحزانه بسبب محياه وهو بعيد عنه فلا مطمع في شروق شمس محياه على أحزانه الكامنة في نفسه.

ومدح شيخه الذي تخلَّص إليه بهذا التخلُّص هو ثاني الأمرين اللَّذين ضمَّنهما قصيدته.

وختم هذه القصيدة بأمر ثالث وهو الإشادة بشعره الذي ضمَّنه هذه الفريدة في حسنها حتَّى أنَّها ليست لها مثيل، وهو لا يطلب عنها أجرا إلاَّ صالح الدُّعاء.

ويدلُّ ختم هذه القصيدة على أنَّه كان في أزمة لتشكِّيه من زمانه، وبالطَّبع أن يتشكَّى الزَّمان لأنَّه نظمها في سني الطَّلب لمَّا كان يدرس على أستاذه الغرياني، ونفسه متطلِّعة إلى معالي الأمور.

ففي آخر هذه القصيدة أفاض ما تجيش به نفسه الطَّلعة، وما تعتمده في نيل مآربها وهو الدُّعاء من هذا الشَّيخ المشتهر بالصَّلاح.

وتنبئ أبيات المدح على اعتقاد كامل في الشَّيخ الغرياني لأنَّ حاله حال منصرف إلى العبادة إمَّا بالتَّدريس وإمَّا بإحياء اللَّيل قياما بالعبادة فيقطعه صلاة وذكرا.

وما وصف به شيخه عين الحقيقة لأنَّه كان شيخ المعرفة وشيخ التَّربية في الدِّيار التونسيَّة.

وكما كون هذا الشَّيخ العامل تلاميذ من كبار العلماء مثل محمَّد بن قاسم المحجوب(- 1243هـ) والشَّيخ عمر المحجوب (-1222هـ) والشَّيخ صالح الكوَّاش(- 1218هـ) والشَّيخ حسن الشِّريف صاحب المؤلَّفات الفقهيَّة العديدة (-1234هـ) كون بجانب هؤلاء أدباء منهم حمُّودة بن عبد العزيز (-1202هـ) الأديب الشَّهير الذي كان مدح هذا الشَّيخ بأمداح ضمَّنها ديوانه، ورآها من مفاخر ما أنشده، ومنهم أبو العبَّاس أحمد العصفوري ومترجَمنا الدَّرناوي.

فالغرياني شيخ المترجَم كان من المعتنين بالأدب فبهذا كثر مادحوه من الأدباء لما يبديه من تشجيع لهم، ويدلُّ على هذا أنَّ الأدباء في عصره توفَّروا

على مدحه فمهما تأتَّت مناسبة لم يغفلوها كهذه المناسبة الكبرى التي ختم فيها صحيح البخاري تدريسا.

مدح السّوسي

قدم إلى تونس أحد رجلات المغرب وهو الشَّيخ عبد الله بن محمَّد السُّوسي، وٱستقرَّ بها وٱتَّخذها دارا حيث طاب المقام له بعد أن رحل في المغرب والمشرق لأنَّه وجد أين يبثُّ علمه لوجود القلوب الواعية والآذان الصَّاغية لما يلقيه من تحقيق، ولما يبديه من بحوث.

وقد عرف قيمة هذا العالم الجليل علي باشا فٱستقدمه من القيروان، وأسند إليه التَّدريس بالمدرسة العاشوريَّة جاء في "نزهة الأنظار في عجائب التَّواريخ والأخبار"[1] في ترجمة علي باشا: "وٱعتنى كثيرا ببناء المدارس فبنى أوَّلا مدرسة بحومة عاشور من تونس ورتَّب فيها شيخنا أبا محمَّد سيدي عبد الله السُّوسي".

ثمَّ ذكر قصَّة تدلُّ على ورع الشَّيخ حيث أنَّه مرض وهو متولِّي تدريس المدرسة العاشوريَّة وطال به المرض فٱمتنع من أخذ الجراية لأنَّها في مقابل التَّدريس، وهو لم يقم به، فأرجع إليه الباشا الجراية مخبرا له مع من أرسله إليه أنَّ تلك الجراية هي إعانة من الباشا، وليست في مقابل التَّدريس فحينئذ طابت نفسه لأخذها ودعا له بخير.

وختم هذه القصَّة الشَّيخ مقديش بقوله: "رحمة الله على هذه النُّفوس العفيفة طيبوا سرائرهم مع مولاهم فسخَّرهم للخير، وسخَّر لهم من أعانهم عليه".

والصَّحيح في وفاة الشَّيخ السُّوسي أنَّها سنة 1179هـ.

---

1 نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار 68/2.

وقد ترجم للشَّيخ معاصره حسن خوجة في "ذيل بشائر أهل الإيمان"، لمَّا تكلَّم على علماء القيروان[1].

ومن تلاميذ الشَّيخ السُّوسي المترجَم الذي مدحه بقصيدة أطال فيها النَّفس ونوَّه بهذا الشَّيخ الذي ٱحتضنته البلاد التونسيَّة وأصبح في عداد علمائها:

سلوا مدمعي الهتان عن شرح أحوالي وعن غربتي عن موطني منذ أحوال
وعمَّا بقلبي من أليم توجع وعن قرب أشجاني وعن بعد آمالي
صحيح بأنِّي مذ فارقت مواطني حليف هموم لا تطاق وأوجال
أكابد أحزانا عليَّ تراكمت وعد ما به (تبلى) أخا اللب (ٱسمالي)
تغربت عن أهل كرام وموطن به كنت من نيل المنى ناعم البال
به دار أحباب عليَّ أعزة بفرقتهم قلبي سعير الهوى صال
يعزونني إذ يعلمون بأنَّني جدير بنيل العز والمنصب العالي
وكم فيه من غض المعاطف أهيف قلوب ذوي الأشواق باللحظ نبال
إذا ماس في برد المحاسن خلته شجاعا لدى الهيجاء مال بعسال
أغن يريك الشَّمس تشرق في الدجى ومن ثغره يشفى العليل بجريال
إذا ما وفى لي بالوصال ورق لي تولت على الأعقاب أجناد أهوال
ولله يا كم شاقني (اليوم) حسنه وهيج وجدي بالدلال وبلبالي
وكم بات في دجن الغياهب مؤنسي وكم علني من بعد نهل بسلسال
وقد طاب لي فيه التهتك والصبا وإن كان في ذاك التهتك إذلالي
رماني كف الدَّهر بالبعد والنوى ومن دون ذاك البعد تقطيع أوصالي
وما كنت أخشى نأيه بعد قربه فيض عيوني بعد أنسي بهمال
فوالله ما فارقته قاليا له ولكن قضى المولى العظيم بترحالي
ولم أر ما يسبي الغريب بلاده سوى فاضل قفل الغوامض حلال
همام إمام قد سرى في ذرى العلى وكل خليل في الأنام له تال

---

1 ذيل بشائر أهل الإيمان ص24.

إذا أم يومـــا مـــشكلا كـــي يبينـــه   يعود لدى الإفهـــام عـــادم ٱشـــكلال
ومهمـــا تـــصدى للإفـــادة والهـــدى   أفـــاد علومـــا لـــيس تخطـــر بالبـــال
أفـــاد (خلـــيلا) طالبيـــه فأصـــبحوا   ومـــا منـــهم إلا (بعـــزٍّ لـــه) حـــال
فدونكـــه إن رمـــت نيـــل معـــارف   ولازم حمـــاه بالغـــدوِّ والآصـــال
لعمرك لا تلفـــي بـــذا القطـــر مثلـــه   صبورا على فهـــم العـــويص بإقبـــال
يراقـــب مـــولاه وبـــالعلم عـــالم   وليس لـــه شـــغل بقيـــل ولا قـــال
يـــذكرنا قومـــا تقـــضى زمـــانهم   كمثـــل حبيـــب والـــسري وغـــزال
كتـــاب إلـــه العـــالمين شـــعاره   إذا ٱسودَّ جنح اللَّيل فهـــو لـــه تـــال
وســـنَّة خـــير المرســـلين دثـــاره   لهـــا دائمـــا يحيـــي ولـــيس ببطـــال
فـــلا تعـــدون عينـــاك عنـــه لغـــيره   فقد صار في ذا العـــصر فاقـــد أمثـــال
هو الشَّيخ (عبـــد الله) قطـــب زمانـــه   هو الفاضل (السُّوسي) ذو الحب والغـــالي
أدام إلـــه العـــرش فينـــا وجـــوده   وأبقـــاه ذا نفـــع وصـــالح أعمـــال

****

زففت لكم بكرا تكـــامل حـــسنهـــا   تتيه على الأتـــراب تيهـــة مختـــــال
(فإنَّ) لها مهـــرا مجـــاب دعائكـــم   بتحقيق آمال وإصـــلاح أحـــــوال
وفهم علوم قد أتانـــا بهـــا الـــــذي   محا بحسام الحق عصبة جهـــــال
عليه صـــــلاة الله ثمَّ سلامـــــه   وأصحابه أهل الـــسِّيـــــادة والآل
مدى الدَّهر ما هب الصبا فتحرَّكـــت   به نفس مشتاق إلى الطلـــل البالـــي
وما ٱفترَّ ثغر الأقحوان لـــدن بكـــت   جفون سحاب الجون يوما بهطـــال
وما ٱبتدا القاري (بعلـــم أتَّمـــــه)   بحسن ختام راجيا فضل مفـــضـــال
وما أنشد النَّائي عن الأهـــل معلمـــا   (سلوا مدمعي الهتان عن شرح أحوالي)

إنَّ هذا القصيد في إقامته على غرار القصيد السَّابق من حيث أنَّ بنـــاءه على تلك التَّقاسيم الثَّلاثة المبنيَّة في الفصل السَّابق وهي التغـــزُّل، والمـــدح وإعجاب الشَّاعر بشعره.

أفاض في هذه القصيدة كأختها في وصف الغربة وما جرته عليه من محن، وإذا ما نظرت إلى قوله:

تغربت عـــن أهـــل كـــرام ومـــوطن به كنت من نيل المـــنى نـــاعم البـــال

تحكم مستندا إليه أنَّ هذا البيت لا يصدر إلاَّ عن نفس مكتوية بالغربة، متحسِّرة عن فراق الموطن الحبيب ولولا البيت الذي تخلَّص فيـــه إلى مـــدح شيخه السُّوسي لما نتردَّد في أنَّه يعني نفسه لأنَّ هذا البيت ينبئك أنَّه أفـــاض في الحديث عن الغربة لما في نفس شيخه من أشجان لأجل مفارقته الأوطان لأنَّه يقول فيه لم أر من يبني وهو غريب عن بلاده سوى هذا الفاضل الحلاَّل للغوامض.

ولو أنَّ الغربة تحقَّقت في شيخه وتحدَّث عمَّا في نفـــسه لم يخـــل هـــذا التحدُّث عن تقارب نفساني بين الشَّيخ وتلميذهٍ فهما كما قال امرؤ القيس:

أجارتنـــا إنَّـــا غريبـــان هاهنـــا وكـــلُّ غريـــب للغريـــب نـــسيب

وهذه القصيدة من عيون شعر المترجَم أطال فيها ومع تلك الإطالـــة لم يتكلَّف مثل بعض القصائد المدحيَّة التي تدرك فيها أنَّ صاحبها ينظم غير ما في نفسه وإنَّما يرمي بالقول على علاَّته، بل إنَّ المترجَم كان في مدحه يعتقد ما يقول فلهذا كانت هذه القصيدة من شعره المختار.

وأشار في عجز بعض أبياته إلى بعض أعلام الصوفيَّة ولكنَّه لم يوفَّـــق في الاسم الأوَّل فلو أبدله هكذا:

كمثل فضيل والسَّري غزال

يكون أشار إلى الفضيل بن عياض (-187هـــ) وإلى السَّري الـــسَّقطي وهو السَّري بن المغرس السقطي من كبار المتصوِّفة، وهو إمـــام الـــصوفيَّة البغداديِّين وتوفِّي على حسب ما في الرِّسالة القشيريَّة سنة 257هـــ، والغزَّالي يقرأ ههنا بالتَّشديد وهو الإمام المشهور محمَّد بن محمَّد الغزالي المتوفَّى ســـنة 505هـــ صاحب "الإحياء" الكتاب الفريد في بابه.

في مطارحاته

له تهنئة الشَّيخ عمر المحجوب، وهذه التَّهنئة من أواخر شعره لأنَّ ولاية الشَّيخ المحجوب لإمامة جامع الزَّيتونة كانت سنة 1210هـ.

والشَّيخ محجوب هذا كان من مفاخر عصره معدودا من العلماء الكتَّاب، وقد أتى الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف برسالته التي أجاب بها عن الرِّسالة التي وجِّهت إلى تونس من قبل حركة الشَّيخ محمَّد بن عبد الوهاب وخصَّها من بين غيرها بالذِّكر في تاريخه قائلاً: "وأجاب عنها العلاَّمة المحقِّق فخر عصره أبو حفص عمر ٱبن المفتي العلامة فخر المذهب المالكي أبي الفضل قاسم المحجوب برسالة بديعة مشتملة على الردِّ عليه في قصده الذي صرَّح به والذي أشار إليه وهي المطابقة لمقتضى الحال نذكرها عوض ما أضربنا عنه من المقامات، وأشعار التكسُّب التي لا تفيد إلاَّ التقرُّب للممدوح".[1]

وهذا تعريض من الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف بالحاج حمُّودة بن عبد العزيز حيث ملأ تاريخه بالقصائد وكذلك بعض المقامات التي في مدح مخدومه.

فٱبن أبي الضِّياف يرى أنَّ العناية ينبغي أن تتوجَّه إلى مثل هذه الرِّسالة البديعة الفائقة دون تلك القصائد التزلفيَّة، ومثل هذه الشَّهادة من ذلك المؤرِّخ الجليل في ممدوح شاعرنا تجعلنا نجزم بأنَّ ما مدحه به المترجَم هو بعض ما يستحقه هذا العالم الجليل.

والإمامة التي تولاَّها الشَّيخ المحجوب بجامع الزَّيتونة هي خطَّة إمام ثالث حيث كان الإمام الأوَّل هو الشَّيخ علي البكري آخر البكريِّين في الإمامة الزيتونيَّة.

وكانت وفاة الشَّيخ المحجوب سنة 1222هـ ومدح المترجَم للشَّيخ المذكور يتضمَّن مع المدح الاعتذار عن عدم الحضور للتَّهنئة، وهو نموذج جمع بين النَّظم والنَّثر وصورة من المراسلات الخاصَّة بين العلماء الأدباء:

"يا أيُّها العلم الحبر الإمام ومن حفته من جده طه العنايات

1 الإتحاف 64/3.

ومن تسامى إلى أن نال مرتبـــــــــة في الأفق من دونها الـــشهب المـــنيرات
يا أيُّها العلم الفرد الـــذي ٱجتمعـــــت فيه خصال حميدات جميـــــــــلات
إنّ العناية مذ وليتها ٱبتهجـــــــــت حتّى لقد أشرقت منها الدجنـــــــات
فبالها خطّـــة (قد زان منــــصبهـــــا) أئمّة في قديم الدّهر ســـــــــادات
أتتك ســـاحبة نيل الفخار بكـــــــم (من شوقها ولذي الأشياء أوقـــــات)
فاهنا بها يا أبا حفـــص الإمــــام ودم في أنعم مالها في العـــد غايـــــــات

وليكن في كريم علمك أيُّها الشَّيخ الجليل، والفاضل الذي ليس له مـــن مثيل، أنَّه قد تعذَّر علي الحال، بسبب الاشتغال (للملاقاة)، بل للهنا، يا نجم المنى، وتأنسي بلقياكم، ومشاهدة محياكم، و لم أجد عارفا بلقياكم بل بشرط النيابة، لمخاطبة تلك المثابة.

بعثت بنظمـــي نائبـــا عـــن زيـــارتي ومن لم يجـــد مـــاء تـــيمم بـــالترب

والخليل الجليل، الكريم الكثير الجميل، يقبل القليل، كالعين مع شـــرفها تقبل ما يهدي لها الميل، وربنا سبحانه يزيد في قواكم، علـــى القيـــام بمـــا أولاكم، ويتقبَّل منَّا ومنكم حسن الأعمال، ويجعلنا وإيَّاكم من أهل الكمال والسَّلام".

وممَّا يجري مجرى مكتوبه الأخوي للشَّيخ المحجوب أبيات أخرى هي من إخوانيَّاته كتب بها إلى شيخ الإسلام محمَّد بيرم الثَّاني (1247هـــ)[1] يـــستعير منه نظمه الذي سمَّاه "عقد الدُّرر والمرجان في سلاطين آل عثمان".

وهذا النَّظم رغم أنَّه يقرب من الأنظام العلميَّة إلاَّ أنَّه نظم قليل التكلُّف جمع فيه ناظمه ملوك آل عثمان إلى عصره، ويقول في أوَّله:

أقدم قبل القـــصد شـــكرا لمنعـــم علينا بما أربى علـــى كـــل أنعـــــم
على عز هـــذا الـــدين والملـــة الـــتي وإن لحقت فازت بفـــضل التقــــدم
وأتبعـــه أزكـــى الـــصلاة مـــسلما على أشرف المخلوق قـــدرا وأعظـــم

ويقول في مفتتح تاريخ آل عثمان:

1 جاء في "الإتحاف"7/158-162، شيخ الإسلام أبو عبد الله محمَّد ٱبن شيخ الإسلام أبو عبد الله محمَّد بن حسين بيرم وترجم هذا الشيخ لنفسه بأنه أخذ العلم عن أعلام عصره الفاضلين البارعين، تولَّى القضاء ثمَّ تولَّى الإفتاء إثر وفاة والده.من تأليفه عدَّة رسائل و منظومة في المفتيين الحنفيين.

وقد رمت في ذا النظم جمـع ملـوكهم وبعض مزايـاهم لتـروى فتعلـم
فأوَّلهم عثمان بـاكرة العلـى مذيق الردى من بأسـه كـل مجـرم
له فتحت بورصا فأضـحت سـريرهم فكان لهـا في ذاك فـضل التقـدم

ويقول في خليفة عصره عبد الحميد الأول:

مـن بعـده عبـد الحميـد إمامنـا أخوه عظيم مـن عظـيم مفخـم
أبـان لـه الله الهـدى وأنالـه رشادا وتسديدا لـدى كـل مبـهم

والأبيات التي ٱستعار بها الدَّرناوي هذا النَّظم هي:

يا أيُّها القاضي الهمـام المـشتهـر ون به إقلـيم تـونس ٱفتخـر
وٱبن رئيس العلمـاء الجلـه وفخرهم لله مـا أجلـه
نظمك يا مـولاي يحكـي الجـوهرا في آل عثمان سـلاطين الـورى
كما حكى في نظمه رقـم الحـلل لابن الخطيب الحبر في نظـم الـدول
فأرنيه يـا إمـام العـصـر لازلت جامعا لكـل فخـر

وقد قدَّم لهذه الأبيات الشَّيخ بيرم الثَّاني بقوله: "وقد كتب لرئيس الكتبة ببلدنا المرحوم أبي عبد الله محمَّد الدَّرناوي جوابا عن أبيات له أرسلها إليَّ في ارسال "عقد الدرر والمرجان في سلاطين آل عثمان".

وبعد أن ذكر الأبيات المتقدِّمة ذكر ما أجاب به عن أبيات الدَّرناوي:

يا صاحب القلم الأعلى الذي قـصرت في حلبة النظم عـن مجـراه فرسـان
بعثت تخطب بنت الفكر تـسمعهـا ومـا لنغمتـها في الـسَّمع ألحـان
خذها على أنَّها بنـت الفقيـه وذا قبل السَّماع علـى التَّقـصير عنـوان
جاءت ومن أدوات الشِّعر مـا معهـا إلاَّ كلام لـد معـنى وميـزان

ومن هذه المطارحة بين المترجَم والشَّيخ بيرم الثَّاني نتبيَّن المترلة التي كان يتمتَّع بها الدَّرناوي لدى علماء عصره لأنَّ الشَّيخ بيرم الثَّاني كان من أفذاذ العلماء الجلَّة وهو في هذه المكانة ينوِّه ذلك التَّنويه البالغ بـه، ومـا ذاك إلاَّ للمكانة المرموقة التي كانت له عند رجال عصره.

وهذه المطارحة كما أرتنا مكانته في عقول رجال عصره ترينا مكانته الأدبيَّة بالنِّسبة لغيره فأبياته إذا قيست بأبيات الشَّيخ بيرم الثَّاني يظهر الفرق بين أبياتهما فإنَّ أبيات الدَّرناوي وإن كانت من الرجز حمار الشُّعراء فهي أبيات خفيفة لطيفة بينما أبيات بيرم الثَّاني ليست في خفَّة ولطافة أبيات المترجَم.

وهذه الأبيات أنشدها الدَّرناوي والشَّيخ بيرم على خطَّة القضاء والظَّاهر أنَّه طلب منه هذه القصيدة في قريب من تاريخ إنشائها، وهو آخر القرن الثَّاني عشر الهجري في مدَّة ولاية الشَّيخ بيرم القضاء في ولايته الثَّانية بين سنتي 1194هـ و1215هـ.

وممَّا يجري في منزع مطارحاته ما كتب به للشَّيخ محمَّد بن حسين بيرم الأوَّل مستعيرا منه كنَّاشا ذكر أنَّه كان رآه عنده من زمن بعيد.

ومحمَّد بن حسين بيرم الذي أراد أن يعيره الكنَّاش الذي طلبه منه يعرف ببيرم الأوَّل وهو من علماء دولة محمَّد الرَّشيد، فإنَّه عندما قتل علي باشا وتولَّى مكانه محمَّد الرَّشيد باي عزل بعض العلماء الذين كانوا من رجال دولة الباشا وأولى غيرهم ومنهم بيرم الأوَّل أولاه مفتيا حنفيًّا، وكانت له منزلة علميَّة، ومكتبة نمت شيئا فشيئا لانحصار بعض الوظائف العلميَّة في بيته فأصبحت من أكبر الخزائن التونسيَّة.

وتوفِّي بيرم الأوَّل سنة 1214هـ عن سنٍّ عالية، وهي أربع وثمانون سنة.

وما طارح به الدَّرناوي بيرم الأوَّل في غاية التَّعظيم حيث جاءت فيه التَّحلية بالحافظ، ومثل هذه التَّحلية لا يتساهل فيها العلماء لأنَّها منزلة كادت تكون منقطعة، ولولا أنَّ المترجَم رأى في بيرم الأوَّل ما يقارب درجة الحافظ عند المحدِّثين لما تساهل في ذلك، ولما وصفه بهذا الوصف.

وأبيات الدَّرناوي على وجازتها تنويه وأيُّ تنويه بالمخاطب مع الإفصاح عن الغرض، وهو استعارة الكنَّاش الذي رآه عنده منذ زمن بعيد، وهي:

يا من لديه كلّ معنى يوجد ونظيره بين الورى لا يوجد

(قطب الزّمان) و(سـعده) وفخـاره الحـافظ المفـتي الهمـام (الـسيد)
فيما مضى شاهدت (كنّاشـا) بـه درر بـأمواه النـضار تقيّـد
فأعره لي يا ذا الكمال بقيـت فـي عزٍّ علـى طـول المـدى يتجـدّد

والبيت الثّاني يتضمّن ثلاث توريات بأشهر العلماء في ذلك العصر وقبله وأوّلهم القطب، وهو المعروف بقطب الدين الرّازي محمّد بن محمّد الشافعي، ومن اللّطائف أنّه يعرف بالقطب التّحتاني فرقا بينه وبين آخر كلاهما كـان يسكن بالظاهريّة، كان القطب الرازي يسكن من تحت بينما القطب الآخر يسكن بالعلوّ ففرّقوا بينهما بأن قالوا في القطب الرازي القطب التّحتـاني، وكان من علماء الشافعيّة له كتاب مشهور في المنطق كان المدرسة العليا في ذلك الفنّ، وهو "شرح الشمسيّة"، وسمّاه "تحرير القواعد المنطقيّة في شـرح الشمسيّة"، وليس هو من الإماميّة كما يدّعيه الشّيخ عبّاس القمّي[1].

وتوفّي القطب التّحتاني سنة 766هـ.

وثانيهم السّعد وهو مسعود بن عمر الهروي الشّافعي تلميذ المتقدّم، وقد أجاد الدّرناوي في هذه التّورية حيث جمع بين الشّيخ وتلميذه وتقديم مـن يستحقُّ التّقديم وهو القطب الرّازي لأنّه شيخ الثّاني.

والثّاني وإن كان تلميذا للأوّل فإنّ شهرته طبقت الآفـاق لأنّـه كـان المدرسة الحقيقيّة في كثير من الفنون المدروسة في العصور القريبة من عصرنا وقبل ذلك، ولم يكن السّعد في شهرته مقصورا على قطر دون آخـر بـل كانت شهرته في العالم الإسلامي قاطبة حتّى في اليمن المنطوية على نفـسها والمكتفية بما يؤلّفه علماؤها وكما كانت شهرته عامّة في الآفاق كـذلك في أكثر الفنون لأنّه كتب في التّوحيد، والتّفسير، والعربيّة والمنطق، وامتـازت كتبه على غيرها بالتّحقيق وسموّ العبارة.

وكانت وفاته سنة 793هـ.

1 عبد الله بن جعفر بن الحسين بن مالك، أبو العبّاس الحميري القمّي: من فقهاء الإماميّة. من كتبه "الإمامة والعظمة والتّوحيد"، و"فضل العرب". توفّي نحو سنة 310هـ/ 922م. (الأعلام 204/4).

وثالث المورَّى بهم السيِّد الشَّريف الجرجاني علي بن محمَّد بن علي الحنفي، وكان من معاصري المتقدِّم وجرى بينهما ما يجري بين المتعاصرين، كما كان يتَّبع آثار السَّعد فيكتب عليها فكتب على مطوَّل السَّعد شرح التَّلخيص كتابة تعرف بحواشي السيِّد الشَّريف كما نراه في محاذاة السَّعد فهما القرينان في تحرير الكتب المدروسة المشتهرة.

وكانت وفاة الشَّريف الجرجاني سنة 817هـ.

فجمع الدَّرناوي بين هؤلاء الثَّلاثة وبالأخصِّ السَّعد والسيِّد للإشارة إلى الأعلام الثَّلاثة الذين كانوا مطمح أنظار الطالب، وفي ذلك إشارة إلى أنَّ الشَّيخ بيرم هو كهؤلاء الأعلام الثَّلاثة المتألِّق نجمهم في تلك العصور حتَّى كان الغاية وقفت عندما وقفوا.

ولما لأبيات الدَّرناوي من وقع في نفس المخاطب بها لم يجب عنها نثرا، وإنَّما أجابه كذلك شعرا، ولكن الشَّيخ بيرم الأوَّل ربَّما رأى أنَّه لا يضارع الدَّرناوي شعرا، أو أنَّه كما قال ٱبنه: "وقد أنابني الوالد عنه في الإجابة لَّما أن ضعف"، فلذلك ترك الإجابة بنفسه وكان الجواب هذه المرَّة من البحر والقافية، وهو جواب فيه تعظيم، وتورية أيضا وهو:

يا أيَّها العلم الشَّهير المفرد	الجهبذ الأرضى الهمام الأمجد
من في البيان غدا (بديع زمانه)	فيه لتونس مفخر لا يجحد
وافى نظام من بدعك خلته	عقدا به جيد الزَّمان يقلد
حركت فيه للقريض ودونه	حال الجريض فما عليه مسعد
وسألت فيه أن أعيرك نسخة	من درِّ كنَّاش لدينا تعهد
واللان لا ذكرى له عندي ولا	لوجوده ما بين كتبي مشهد
ولعلَّه قد كان ثمَّ إليه من	خوان إخوان قد ٱنبسطت يد
يا ليته عندي فأرسله لكي	يقضي به حقٌّ عليَّ مؤكَّد
لازلت مكلوا بعين عناية	يرنو بها لكم القصي الأبعد

وكما ورَّى الدَّرناوي بالأعلام المتقدِّمة ورَّى بيرم الثَّاني في أبياته هذه بكاتب مشهور وهو بديع الزَّمان أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني وهو

"مبدع المقامات"، وعلى غراره جاء الحريري بمقاماته، وقد آعترف الحريري بفضله في خطبته ومات بمدينة هراة سنة 398هـ.

وقد ورَّى كلٌّ من المتطارحين بما يناسب المخاطب فبيرم لمَّا كان شيخ الإسلام كانت التَّوريات بالعلماء، والدَّرناوي لمَّا كان كاتبا كانت التَّورية بالكتَّاب.

والكتاب المستعار الذي دارت حوله المطارحة هو ما يعرف في تونس بالكنَّاش ويقارب هذا اللَّفظ في المعنى السَّفينة، وهو ما يجمع فيه الواقف الفوائد من غير ترتيب ولا تنظيم، وهو آسم مولَّد كما نصَّ عليه الشَّيخ مرتضى الزبيدي في "تاج العروس" حيث قال:

"قلت ومنه الكنَّاشة لأوراق تجعل كالدَّفتر يقيِّد فيها الفوائد والشَّوارد للضَّبط هكذا يستعمله المغاربة"[1]، وآستعمله شيخنا في حاشية هذا الكتاب كثيرا.

ومراده بالكتاب القاموس، وآستعمال الكنَّاشة بالتَّاء آستعمال مغربي كما ذكر لكن في تونس يستعمله التونسيُّون بلفظ الكنَّاش مذكَّرا.

فكلٌّ من الكنَّاشة والكنَّاش صحيح لأنَّ اللَّفظ من المولَّد، وهو يتصرَّف فيه حسب الاستعمال.

موازنة

وله تقريظ لقصيدة الأصرم جريا على السُّنن الشَّائعة في ذلك العصر من أن تقرظ القصائد كما تقرظ الكتب، وآمتداد في هذا الميدان نجد القصيدة الواحدة قد حيكت حولها قصائد عدَّة حتَّى أنَّ الواقف عليها يستطيع أن يجمع منها رسالة خاصَّة.

وآتِّباعا لهذه السنَّة في التَّقريظ مدح المترجَم قصيدة للشَّيخ أحمد الأصرم الوزير الكاتب، الذي آشتهر بالأدب وكانت له قصائد عصماء وهو أحد

---

1 تاج العروس 347/4.

الذين وفوا لأبناء حسين بن علي فلمَّا آلت الدَّولة لمحمَّد الرَّشيد بوَّأه رئاسة قلم الإنشاء.

وحين ذكر السَّنوسي في "مجمع الدَّواوين" تقريظ الدَّرناوي لقصيدة الأصرم لم يذكر القصيدة تعيينا وإنَّما اكتفى بقوله: "وقال مقرظا قصيدة للشَّيخ أحمد الأصرم"، وبالتَّتبع أمكن الوقوف على القصيدة المقرظة، وهي التي مدح بها علي بن حسين باشا التي يقول فيها[1]:

يا رعى الله للربيع شبابه إذ أشاب البطاح زهر تشابَه

هينم الغُصنِ في الرياض فتصغى مثلما سَلْسَلَ الحَبِيبُ عِتَابَه

وهذه القصيدة نوَّه ببعض أبياتها الوزير الحاج حمُّودة بن عبد العزيز تنويها بالغا، وهي من عيون القصائد:

وأبيات الدَّرناوي في غاية الوجازة وهي:

در ثغر منضد أم نظام سالكا في البديع نهج الغرابة

لوزير مهذب ونجيب ما رأينا نظيره في النَّجابة

في الأمير علي نجل حسين باشة الوقت ذي الثنا والمهابه

اقتدى بأبيه بل صار حقا من يشابه يزيد عمن يشابه

خلد الله ملكه في البرايا وهي لا شك دعوة مستجابة

وأبيات الدَّرناوي هذه ليست من حرِّ شعره لا عند الموازنة مع غيرها ولا إذا نظرنا إليها في نفسها.

فإنَّها إذا قيست بتقريظ سميَّة لقصيدة الأصرم بانت درجتها كما سنذكره، وقصيدة سميَّة يقول فيها[2]:

دُرَرٌ هذه بَدَتْ أَمْ دَرَاري أم رِيَاض زَهت بقَطر السَّحَابَه

أم بُدُورٌ سَطت ببازي سَنَاها فأطَارَت منَ الظَّلام غُرَابَه

أم شُموس تلألأت في المَعَالِي فأَزَالَتْ عَنِ العُيُونِ ضَبَابَه

1 الكتاب الباشي 348/1.

2 الكتاب الباشي 351/1.

أم عــبير مِـــنَ العَنَـــابِرِ أَهْـــدَى نفحة تــذهب العَنَــا والكــــآبه

ويقولِ في مدح الأمير آخر القصيدة:

زاده الله همِـــــة ووقــــــارا وحَمــــى عِـــزَّه وصـــان جَنَابَـــه

وهذه النُّتفة فضلا عن القصيدة كلِّها لا تقاس بها أبيات الدَّرناوي برمَّتها فأين سلاسة قصيدة سميَّة من أبيات الدَّرناوي، وأين معانيها من معاني تلك.

وإذا نظرنا إلى هذه وتلك في مدح صاحب القــصيدة الأصـــرم نجـــد الدَّرناوي يمدحه بما تمدح به التَّلامذة من الوصف بالتَّهذيب والنَّجابة بينمـــا سميَّة يمدحه بمثلِ قوله:

أم نظـــام الـــذّكي هُـــر المعــــــاني (أحمـــد) الأذكيـــاء وفخـــر الكتابـــه

هو بحـــر فـــإن بـــدا منـــــــه در بـــارع في جمالـــه لا غـــــــرابه

لا يـــلام القـــريض إن تـــاه فخـــــرا ســـيفه (أصـــرم) كـــبير النجـــــابه

وشتَّان بين هذه الأبيات وقول الدَّرناوي:

لــــــوزير مهـــــذب ونجيـــــب مـــا رأينـــا نظـــيره في النجابـــه

وكذا إذا ٱنتقلنا إلى مدح الأمير فهناك البون الشَّاسع والفـــرق الظَّـــاهر بينهما.

ولعلَّ ما أبديناه لاح للوزير حمُّودة بن عبد العزيز فٱكتفى بتقريظ سميَّـــة دون تعريج على تقريظ المترجَم وهذا من نقد ٱبن عبد العزيز وٱنتقائه، ولعلَّ له وراء ذلك أمرا آخر وهو أنَّه لم يذكر شعريهما حتَّى لا يبين ٱنحطاط مترلة الدَّرناوي عن مترلة سميَّة.

ومن المناسب أن نذكر أنَّ سميَّة لا يضيع أيَّة فرصة يبدو فيها نبز الغراب كما في هذه القصيدة حيث يقول كما تقدَّم:

فأطارت من الظلام غرابه

بينما المترجَم أقام على الودِّ والإكرام ما بينه وبين الغراب كما قـــدَّمنا سالفا، وكما سنذكره.

هذا إذا وازنا هذه القطعة الدَّرناويَّة مع قصيدة سميَّة وكذلك إذا نظرنا إلى هذه القطعة في نفسها نراها خلوا من المعاني ثمَّ إنَّ بعض أبياتها غير سالم بالنِّسبة للعربيَّة وهو قوله:

من يشابه يزيد عمن يشابه

هذا العجز مأخوذ من قول رؤبة بن العجاج[1]:

بأبه ٱقتدى عدي في الكرم ومن يشابه أباه فما ظلم

وقد أراد الدَّرناوي أن يزيد على ما أتى به رؤبة لكنَّه كبا به الجواد حيث رفع الفعل الواقع جواب الشَّرط الذي هو يزيد مع أنَّ فعل الشَّرط مضارع، ورفع المضارع بعد فعل الشَّرط المضارع ضعيف كما أفاده ٱبن هشام في "أوضح المسالك" ومثَّل له بقول أبي ذؤيب الهذلي[2]:

مطبعة من يأتها لا يضيرها

مدح الغراب:

إنَّ ما بين الدَّرناوي والغراب عكس ما بينه وسميَّة كما قدَّمنا، وقد دعا المترجَم الغراب لسكنى تونس في أبيات له تقدَّمت (سمعا أبا الحسن الغراب لناصح)، وكذلك مدحه ببيتين:

قد رأينا أهل الفضائل ممَّن حاز قصب السباق في الآداب

ما رأينا من حاز علم المعاني واحدا في البيان مثل الغراب

---

1 رؤبة بن عبد الله العجاج بن رؤبة التَّميمي السَّعدي، أبو الجَحَّاف، أو أبو محمَّد: راجز، من الفصحاء من مخضرمي الدَّولتين الأمويَّة والعبَّاسية. كانوا يحتجُّن بشعره ويقولون بإمامته في اللُّغة. له "ديوان رجز". توفِّي سنة 145هـ/762م. (الأعلام 62/3).

2 خويلد بن خالد بن محرِّث، أبو ذؤيب من بني هذيل بن مدركة، من مضر. شاعر فحل، مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، خرج في جند عبد الله بن سعد بن أبي سرح فشهد فتح إفريقية. له ديوان شعر. توفِّي حوالي سنة 27هـ/648م. (الأعلام 373/2).

وفـــــاتـــه

توفّي الدّرناوي في شهر ربيع الأوّل سنة 1211هـ ودفن بأعلى الزلاّج كما في "مجمع الدّواوين" ونقش على قبره:

يا ناظرا قم داعيا مستحلفا إن ليس في دار الفناء مخلد
هذا ضريح (محمّد الدّرناوي)من وافى الإله موحدا يتشهد
كان الرّئيس لدى الأمير بتونس بكتابة ولفعل خير يرشد
كان المجير ولا يضن بجاهه إن ما أتاه للشّفاعة قاصد
إن رامه ملجأ لكشف ملمة ألفاه يسرع كشفها ويمهد
(كان العليم في علمه متفننا) بل هو في جمع المعارف مفرد
قد كان ذا أدب بديع نثره ونظامه در يزين منضد
وسما على أقرانه في عصره ليس له مثل يرى ويشاهد
فٱسترحم المولى إليه كي يرى في رحمة من ربه يتغمّد
أيّام مولده الشّريف فأرّخن حقا إلى الجنّات سار محمّد

الطوير القيرواني

حياته

إنّ هذا الأديب – وهو عبد اللّطيف بن أحمد الطوير القيرواني– محظوظا إذ ترجم له أكثر المؤرِّخين التونسيِّين ويرجع هذا علاوة على مكانته الأدبيَّة إلى أنَّه تبوَّأ المناصب الشرعيَّة العالية في القيروان وتسنَّم ذروتها، ثمَّ هو كان من المتَّصلين بأمراء عصره، كلٌّ ذلك هيَّأ له الشهرة.

فمجال البحث فيه رحب لا من الناحية الأدبيَّة التي برع فيها فحسب، بل من النَّاحية التاريخيَّة كذلك.

وهو من أدباء القيروان في الحقبة التي قاست فيها القيروان الشّدائد، ومع ذلك لم تخمد فيها الحركة الأدبيَّة نسبيًّا، فكان من زمرة أدبائها وعلمائها.

يذكر الشَّيخ ابن أبي الضِّياف[1] أنَّه نشأ بالقيروان في بيت علم ومجد، ويذكر السنوسي في "مجمع الدواوين" كما سيأتي أنَّه من مواليدها، ومثل ذلك جاء في "عنوان الأريب"[2] للشَّيخ محمَّد النَّيفر "ولد بالقيروان وبها نشأ في بيت علم أصيل، ورياض مجد أثيل".

وكان تعلُّمه أوَّلا بالقيروان، ولم يذكر مؤرِّخوه على من تلقَّى غير السُّوسي، ولعلَّ ذلك يرجع إلى أنَّه لم يكن يذكر من شيوخه غير السُّوسي لاعتزازه بكونه من شيوخه، أمَّا بقيَّة من أخذ عنهم فإنَّه لم يذكرهم لكونهم من المغمورين، وهذه عادة في الكثير من العلماء أنَّهم لا يلتفتون إلى الشُّيوخ الذين لم يصادفهم الحظُّ أن يشتهروا، أو كانت بضاعتهم في العلم قليلة، وما ذلك إلاَّ أنفة من الانتساب إليهم، وبذلك طويت حياة التعلُّم لكثير من العلماء لهذا السَّبب، ولو ذُكِروا بما يستحقُّون لكان في ذلك بيان للحياة الدراسيَّة.

---

1 الإتحاف 17/7.

2 عنوان الأريب 546/1-548.

والشَّيخ السُّوسي الذي أفرده بالذِّكر الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف هو أحد الوافدين على تونس من المغرب ونأتي ببعض التعريف به حيث أنّي أعدُّه من رجال اللقاح العلمي بين تونس والمغرب، وهو، الشَّيخ عبيد الله بن محمَّد السُّوسي أصله من سوس وجال لطلب العلم فطلبه بمراكش وفاس، ثمَّ كانت له رحلة إلى الشرق وتلقَّى في الأزهر على رجاله ومن أشهرهم الشَّيخ علي الصعيدي صاحب المؤلَّفات العديدة في الفقه المالكي المتوفَّى سنة 1189هـ، وأخذ بجربة عن الشَّيخ إبراهيم الجمني[1] (-1134هـ).

وتوفِّي الشَّيخ السُّوسي سنة 1179هـ وكان أخذ الطوير عنه حين كان بالقيروان، وقد كان تدريس الشَّيخ السُّوسي بها أوَّلا في زاوية الشَّيخ سعيد الوحيشي، ثمَّ ٱنتقل إلى التَّدريس بالمدرسة التي أنشأها الأمير حسين بن علي، فيكون أخذه عنه في مدَّة الأمير حسين بن علي، لأنَّ الشَّيخ السُّوسي ٱنتقل إلى تونس في مدَّة علي باشا.

ثمَّ أخذ الطوير بتونس عن علمائها ومنهم الشَّيخ أبو محمَّد حسين التُّرجمان، وهو الشَّيخ أبو محمَّد حسين بن مصطفى التُّرجمان.

له كنَّاش يعتبر مجموعة علميَّة، وقد كانت له صداقة بالأديب محمَّد الدّرناوي الذي ترجم له فيما سبق وفيه يقول واصفا له بأنَّه شيخ النُّحاة:

إن قيل من شيخ النحاة وحبرهم ورئيسهم حقًّا على الإطلاق
أو من به الخضراء جرَّت ذيلها وسمت بحضرته على الآفاق
فأجبت ذاك التُّرجمان حسين من رقي العلاء وحاز قصب سباق

وتوفِّي الشَّيخ التُّرجمان في حدود سنة 1194هـ.

هذا ما أمكن الوقوف عليه في حياته التي قضاها في التعلُّم بين القيروان وتونس.

وذكر الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف أنَّه كان إذا أتى إلى تونس يحضر مجلس الباشا أبي الحسن علي باي بن حسين باي، ويسامره مع أهل سمره.

---

1 إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الجمني، الفقيه الزَّاهد. له "شرح على مختصر خليل" لم يكمل. (تراجم المؤلفين التونسيين 56/2).

وهو من المادحين له، وقد نال عنده حظوة عظيمة، فهو من الأدباء الذين كان ظهورهم في دولة علي بن حسين باي والمتقدِّمين في تلك الفترة.

وقد شهد له بالتقدُّم الأدبي مؤرِّخوه مثل الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف والشَّيخ محمَّد النَّيفر في "عنوان الأريب"[1]، إذ يصفه هذا الأخير بأنَّه "كانت له مشاركة في سائر العلوم وخصوصا العلوم الأدبيَّة فقد كانت له فيها قريحة وقَّادة، وتفوُّق به أصبحت صعابها منقادة، وله شعر فائق جيِّد الحوك سهل الطرائق".

وهذه الشَّهادة من صاحب العنوان تعطي الباحث دليلا على التفوُّق الممتاز للشَّيخ الطوير، والإجادة الأدبيَّة والمكانة الشعريَّة.

ترجمته للسنوسي

وقد ترجم له ترجمة أدبيَّة صاحب "مجمع الدَّواوين" ننقلها لأنَّها تعطينا صورة من حياة المترجَم، ورغم ٱلتزام السَّجع في هذه التَّرجمة فإنَّها تشير إلى الكثير من حياته: "محمَّد عبد اللَّطيف الطوير: شاعر جليل ونحرير أصيل تحلَّى بمفاخر عديدة، وآراء سديدة إلى أن نال حظوة مع ثاني بني الحسين، نزل من المكارم مترلة الإنسان من العين بما له من المشاركة في الفنون لا سيَّما وقد غاص على درِّ الآداب المكنون، فتحلَّى بمحاضرات رائقة ومفاكهات بمثله لائقة.

ولد بمدينة القيروان وتربَّى في عزِّ بيته الرَّفيع الشَّأن، وبذل جهده في نيل المعارف إلى أن تحلَّى بأعزِّ المطارف، حيث أخذ عن جلَّة من شيوخ القيروان، في ذلك الأوان، كالعالم الربَّاني الشَّيخ سيدي عبد الله السُّوسي حيث كان بها نزيلا.

ثمَّ آب إلى الحضرة عندما ٱشتدَّ الحصار على القيروان من الباشا فنال بها حظًّا جميلا وأخذ عن جلَّة شيوخها ذوي الفضل والعرفان كالعمدة الشَّيخ أبي محمَّد حسين التُّرجمان.

---

1 عنوان الأريب 546/1.

وأقرأ بعد ذلك فأجاد وعدَّ بالحاضرة من خواصِّ الأفراد.

ومازال يتردَّد على بلاده ويتعهَّد مدفن آبائه وأجداده، إلى أن أشخصت إليه الحسَّاد لما رأوه له مع الأمير من مزيد الإقبال مع كثرة التِّرداد فـأوعزوا بإطعامه ما أوقعه في حمامه، بحيث أنَّه ٱختلَّ أيَّاما وكان وقتئذ متحيِّزا ببلده مقاما، فأدركه بها الحِمام فدفن بالجناح الأخضر مع أولئك الأعلام.

على أنَّه قد أبدع في الإنشاءات وأحسن ما شاء في تلك التوشيَّات، وقد أثبت من نظمه ونثره ما عثرت عليه، ممَّا ٱنتهى الحسن إليه".

ويقصد السنوسي بثاني الحسين علي باشا ٱبن حسين بن علي إذ تـولَّى الملك بعد أخيه محمَّد الرَّشيد.

أدمج الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف في ترجمة الطوير فقرة تتعلَّق بحياته ضمَّنها أنَّ المترجَم كان إذا أتى إلى تونس من القيروان يحضر مجلس الباشـا علـي الحسيني وهي فقرة إذا أردنا أن نمرَّ عليها مرًّا عابرا لم تأخذ أهمِّيتها وإذا أردنا أن نقف عندها وقفة تأمُّل تعطينا أنَّ هذا التسامر الذي كان يحضره الطوير يرتبط بالتَّاريخ المتَّصل بحياة المترجَم، كما أنَّه يؤدِّي إلى حقيقة في حياتـه، وسنتناول النَّاحية الأولى مرجئين النَّاحية الثَّانية إلى فرصة أخرى مناسبة.

أمَّا النَّاحية الأولى فإنَّ ٱتِّصال المترجَم بالأمير علي بن حسين ليس ٱتِّصال ودٍّ فحسب، بل ٱتِّصال مركَّز على ما قامت به القيروان في الفتنة الـشَّعواء التي نشبت بين الأمير حسين بن علي وٱبن أخيه علي باشا فإنَّها فتنة دامت سنين طوالا، وٱمتحنت فيها البلاد التونسيَّة امتحانا شديدا حيث انقسمت البلاد قسمين قسما يناصر الأمير العمَّ المتربِّع على أريكة الملـك، وقـسما يناصر المناهض له ٱبن أخيه.

ومن البلدان التي أظهرت وفاء إلى الأمير الأوَّل حسين بن علي القيروان، ووفاؤها هذا تكلَّف عليها غاليا حيث أقام أهلها سنوات محـافظين علـى أميرهم الذي أقام بين أظهرهم من سنة 1148هـ إلى سنة 1159هـ، وهو والد الأمير الذي يسامره، وفي تلك المـدَّة قاسـت الـشَّدائد إذ قـصدها

وحاصرها يونس بن علي باشا سنة 1149هـ وأقام على حصارها أحد عشر شهرا نفد فيها الصَّبر، وٱشتدَّ الخناق عليها، وكادت تنهار المقاومة لولا الثبات والاستماتة لانْهار الحصار، وتمكَّن علي باشا من عمِّه.

وبعد هذا الحصار أعاد الكرَّة يونس باي سنة 1151هـ فحاصرها تسعة أشهر، ولكنَّه رجع خائبا.

ثمَّ عزم على حصارها مرَّة أخرى وأحكم الحصار إلى أن تمكَّن منها هذه المرَّة بَثَلْمِ سورها فدخلها سنة 1153هـ وقتل عمَّ أبيه وعاث في القيروان فسادا بتخريب سورها وترويع أهلها، والانتقام من وجهائها حتَّى أنَّ أباه شنق نحو الأربعين منهم في يوم واحد ظلما وعدوانا كما قال الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف[1].

إنَّ هذا الموقف الباسل الذي وقفته القيروان مع والد الأمير المذكور علي باشا الحسيني من المواقف التي لا تنسى، وبالطَّبع حين عادت الدَّولة إلى ٱبني الحسين بن علي أن يذكر أحد أبنائه علي باشا هذا الموقف ويجازي أحد أبنائها بالإكرام إكراما لأهلها حيث لم يسلموا أميرهم مع طول المدَّة ومقاساة شدائد الحصار، ثمَّ إنَّهم لم يخونوا في موقفهم إذ لم تسقط القيروان إلاَّ بعد تخريب سورها ودخولها عنوة من قبل يونس باي.

فهذا الموقف من الأسباب التي جعلت الطوير يأخذ مكانة سامية عند أمير عصره، ويكون من مسامريه حين يأتي إلى تونس، فيضمُّه مجلس الأمير مع من يضمُّ من الوزراء وأرباب الدَّولة.

وهذا الموقف الصَّامد من القيروان، والثبات الطويل مع الأمير حسين بن علي ٱستغلَّه الطوير في شعره الذي مدح به الأمير المذكور بصورة خاصَّة تثير الحماس حيث ركَّز هذا التَّذكير على إصابة الحرم، وما نالهنَّ من تشريد بعد حياة التَّرف والصِّيانة.

---

1 الاتحاف 114/2.

وفي هذا التَّذكير يقول من قصيدة يمدح بها الأمير المذكور حين تغلُّبه على جبل وسلات، وفرار المعتصم به إسماعيل بن يونس بن علي باشا وكان ذلك سنة 1175هـ:[1]

(والقـيروان) دهتـها أيُّ داهيـة وهم مع (الأصل) لا خانوا ولا زالوا
(سـنين خمـسا) أقـاموا في حياطتـه وما لهم عنه تحويـل وإبـدالُ
طوى الطَّوى زمرا منهم وأزعج أقـ ـساما إلى البَـيْنِ أخطـار وأهـوالُ
حتَّى (قضى نحبه) فـيهم فـدبَّ لهـم من المكاره حيَّـات وأصـلالُ
وبدَّدت شملهم في كُـلِّ ناحيـة أيدي الخطوب فلا أهـل ولا مـالُ
خلت مساكنها أقـوت سواكنهـا فأهلها في فـلاة الأرض أرسـالُ
فيء الهجيرة يكـوي في جلـودهـم كأنَّهم في ظلال الأمن ما قالـوا
تجرَّعوا مرر البلوى وكـان لهـم من الأمان وخفض العـيش سلسالُ
فكم من الخدر والأستار قـد بـرزت (خريدة) كاعب هيفـاء مكسـالُ
تحكـي الغزالـة لألاء وقامتهـا لها على الغصن تعجـاب وتميـالُ
كـالظَّبي جيـدا وألحاظـا فمقلتـها مكحولة ما لها ميـل وكحَّـالُ
مقصورة الطَّرف كانت في مقاصـرها وطرفها بعـد في البيـداءِ جـوَّالُ
عن أعين الإنس قد كانـت محجبـة فـصار يلحظهـا وحـش وأورالُ
للشَّمس ضاحية أضحت وكـان لهـا في الخدر من كلل الأسـتار أظـلالُ
تستَّرت بليالـي الـشّعر إذ سُـلبَتْ أثوابها فعليهـا الـشَّعْرُ أَسـدالُ
تبكي على الصَّخر كالخنساء حين بكت صخرا أخاهـا ولا عـمٌّ ولا خـالُ
إن بان حرَّاسـها عَنْهـا فحَارِسها في البيد طَرْف سـريعُ الفَتـك نبَّـالُ
وسادها الصَّخر من بعد الحريـر عـدا وفرشها بعـده تـرب وأرمـالُ
فـالعين هَاميـةٌ والرِّجـلُ داميـةٌ والقلب فيـه حـزَازاتٌ وأشْعـالُ
والخصرُ يُنْهضَها طَـوْرًا فيُقْعدُهَـا عن خطوها من كثيف الرِّدف أثقـالُ
عجبتُ للشَّمسِ لم تُكسفْ وقد طَلَعتْ من الخـدُورِ شمـوسُ الأرضِ تختـالُ

---

1 ديوان الطوير القيرواني، ص 72-73.

إنَّ هذه القطعة التي ذكرها الطوير في ممدوحه نجدها قد ٱنبنت على وصف الخريدة – وهي اللؤلؤة لم تثقب، وتطلق على العذراء – وما لاقته بعد الخدر والصِّيانة، وما ذاقته من تيهٍ حين الفرار من جيش يونس بن علي باشا.

وهذا محلُّ تساؤل وهو أنَّ الشَّاعر كان عليه أن يصف ما لقيه بذاته دون أن يصف ما لقيته العذراء ليكون ذلك أدعى في التَّأثير على ممدوحه وٱستدرار إحسانه لأنَّه نفسه هو المصاب.

وجوابا عن ذلك نرجع إلى أمرين:

الأوَّل: هو أنَّ المترجَم لم يحضر ذلك الحصار فإنَّه حين ٱشتدَّ حصار القيروان بارحها المترجَم كما ذكره الشَّيخ السنوسي في "مجمع الدَّواوين" وفي تلك المبارحة حين قصد الحضرة التونسيَّة تلقَّى بها عن أعلامها كما أسلفنا.

فمن لباقة المترجَم حين وصف ما دهى القيروان أبرزه في صورة تمسُّ بالشَّرف وهي أنَّ المخدَّرات صرن هائمات حتَّى لا ينتقد عليه بأنَّه كيف يشكو من شيء لم يسلَّط عليه.

وبهذا نعلم أنَّ وصفه لم يكن مصوِّرا لما لاقاه أهل القيروان، وما أصيبوا به، بل هو إلى الخيال أقرب منه إلى الحقيقة إذ لم يكن شاهد عيان كما ذكره بعضهم، بل هو حاك من سمع لأنَّه خرج من القيروان قبل أن تصيبها النَّكبة التي سلَّطها عليها يونس بن علي باشا.

الثَّاني: أنَّه أراد أن يقتفي أثر ٱبن شرف الذي رثى القيروان حين خرابها الذي ذكره صاحب المعالم[1] ومن أبيات ٱبن شرف:

بعد خطوب خطبت مُهجتي   وكان وَشْكُ البَيْن إمهارها
ذي كبد أفلاذُها حولها   وقسَّمتِ الغُربةُ أعشارَها

1 معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان الذي صنَّفه أبو زيد الدبَّاغ (-696هـ) وأكمله أبو الفضل بن ناجي التنوخي(-869هـ)، صحَّحه وعلَّق عليه الأستاذ إبراهيم شبوح 15/1، مكتبة الخانجي، مصر،1968.

وظائفه ومكانته

جمع الطوير بين الأدب والتبحُّر في الفقه، ودعاه إلى هذا أنَّه تسنَّم الخطط الشرعيَّة في القيروان، وهي لا تزال بلاد فقه رغم الكوارث ورغم الحوادث المتتالية من تخريب سورها وترويع أهلها.

ومعنى تخريب السُّور ليس كما نفهمه اليوم من أنَّه مجرَّد نقض جدران حول بلدة، بل معناه تعرية البلدة من وسائل الحفظ والصِّيانة لأنَّ الأسوار كانت في تلك الأيَّام عبارة عن حياطة وصيانة للمدينة فإذا أزيلت أسوارها هجم عليها البدو وكدَّروا راحة أهلها، ووراء ذلك ما وراءه من أنَّ أهلها يصبحون في مقام لا يطاق معه المكث.

والقيروان مع كلِّ ذلك ٱستطاعت أن تحافظ على بعض تراثها ومن ذلك الفقه، فمن تولَّى بها الخطط الشرعيَّة آن ذاك إذا لم يكن مزوَّدا بفقه كذَّبته شواهد الامتحان.

وقد تولَّى الطوير بها القضاء، وقد كان بالقيروان مجلس شرعيٌّ مثل أكثر العواصم التونسيَّة، مثل سوسة والمنستير، وصفاقس والأعراض والكاف وباجة والجريد وقفصة، والقضاء ضمن مجلس كان يتطلَّب التفقُّه حتَّى لا تبدو العورات أمام فقهاء متصدِّرين لمثل ذلك.

ثمَّ بعد القضاء تولَّى رئاسة المجلس الشرعيِّ بها وهي من أكبر الخطط العلميَّة في تونس.

وكما دلَّنا ذلك على مكانته الفقهيَّة كذلك شهد بعلمه صاحب "إتحاف أهل الزَّمان"[1] إذ وصفه بأنَّه كان عالما فقيها صدرا ذكيًّا.

وقد وقفت على كنَّاش الشَّيخ الشاذلي بن المؤدِّب جدِّ عائلة الشَّيخ بلحسن شيخ مشائخ المغارة الشاذليَّة ضمَّنه فتاوى فقهيَّة صدَّرها بفتوى الشَّيخ الطوير.

---

1 الاتحاف 17/7.

ولندرك قيمة هذا التّصدير نترجم للشّيخ الشاذلي بن المؤدّب، وهو الشّيخ محمّد الشاذلي بن عمر بن علي المؤدّب الشريف.

وقد تلقّى المذكور عن أعلام عصره الشّيخ حسن الشريف (-1234هـ) والشّيخ الطّاهر بن مسعود صاحب "شرح السمرقنديّة" (-1234هـ) والشّيخ صالح الكوّاش (-1218هـ) والشّيخ أحمد بن الخوجة (-1241هـ) والشّيخ أحمد بوخريص (-1240هـ).

وتولّى الشّيخ الشاذلي بن المؤدّب القضاء بتونس والإفتاء والتّدريس بجامع الزّيتونة والإمامة به، والإمامة بجامع باب الجزيرة ومشيخة المغارة الشاذليّة، وكان حين يخطب من إنشائه.

وقد وصفه الشّيخ السنوسي بأنّه عالم فاضل خيّر فصيح تقيٌّ بالله متلبّس بأخلاق الصّالحين محبٌّ لهم عزيز النّفس ملازم للتّدريس.

وكما حلاّه الشّيخ السنوسي بما تقدّم حلاّه قبله الشّيخ ابن أبي الضّياف في "الإتحاف" بأنّه كان رحمه الله خيّرا عفيفا نقيًّا فاضلا، نقيُّ العرض حسن الأخلاق، فقيها عالما، فصيحا حديد الفكر، ذا وقار وسكينة، وتواضع على رفعة مكينة، ما شئت من محاضرة عزيزة الأسلوب تأخذ بمجامع القلوب.

وقد توفّي الشّيخ ابن المؤدّب سنة 1263هـ ودفن بالبيت الذي على يسار الدّاخل لبيت الذّكر من المغارة الشاذليّة عليه رحمة الله، وسنُّه ثلاث وسبعون سنة لأنّه ولد سنة 1190هـ.

وهذا القاضي المفتي العالم الفاضل يصدّر في طالعة المسائل الفقهيّة التي دوّنها في كنّاشه بفتوى الطوير ونذكر بعضا منها نموذجا من إنشاء المترجم العلمي.

جاء في الكنّاش المذكور بعد الفاتحة: "وبعد، فهذه صورة فتاوى صدرت من بعض أهل العلم نوّرهم الله تعالى في رسم حبس دار بسبخة باب الجزيرة قال فيه محبسه على ولديه محمّد وسليمة، وعلى من عسى أن يتزايد له في بقيّة عمره على فرض الإرث بينهم فيه، ثمّ على أعقاب الموجود من أولاده،

ومن عسى أن يوجد وأعقابهم، ثمَّ على أعقابهم، وأعقاب أعقابهم ما تناسلوا وٱمتدَّت فروعهم في الإسلام إلى آخر ما ذكره ونقله عن النصِّ المذكور".

وبعد نقله للنصِّ المذكور نقل نصَّ الفتيا التي صدرت عن المترجَم الشَّيخ الطوير، وممَّا جاء فيها:

"والجواب على ذلك والله الموفِّق للصَّواب أنَّ الأمر إذا كان كما ذكره السَّائل فإنَّ ٱبن محمَّد المذكور يختصُّ بالحبس المذكور عن أولاد أولاد أخواته المذكورات على مقتضى نصِّ المحبِّس الواجب ٱتِّباعه كنصِّ الشَّارع.

ووجه ذلك أنَّه رتَّب ٱستحقاق حُبُسه فجعله أوَّلا على الموجود من أولاده، وهو محمَّد وسليمة، ومن عسى أن يوجد له، ثمَّ على أعقاب من ذُكِر، وأعقابهم، ثمَّ على أعقابهم وأعقاب أعقابهم، إلى أن قال فإذا ٱنقرض العقِب عن آخره، أو لم يكن عقب رجعت الدَّار المذكورة على الذريَّة من أودلاه وذرِّيتهم، وذريَّة ذريَّتهم الخ.

وقد تقرر أنَّ لفظ الذريَّة يشمل أولاد البنات بٱتِّفاق كما في "العَقد المنظَّم" للقاضي ٱبن سلمون، ومثله في "الاتقان والإحكام على تحفة الحكَّام" للشَّيخ ميَّارة، وفي "الشَّامل"، وأمَّا لفظ الذرية فيدخل فيه ولد البنات على الأصحِّ.

وأمَّا لفظ العقب على الجملة فالصِّيغ المذكورة فيها مختلفة، ويختلف الحكم بدخول أولاد البنات وعدمه على حسب ٱختلافهما، والمفهوم من ترتيب المحبس المذكور بين الأعقاب والذريَّة مغايرة ما صدق عليه أحدهما لما صدق عليه الآخر فيحمل الأعقاب وأعقاب الأعقاب على ما عدا أولاد البنات".

والمترجم في هذه الفتوى يحرِّر النُّصوص ويعتمد على "العقد المنظَّم" لابن سلمون، وعلى شرح ميَّارة على "العاصميَّة"، وعلى "ٱلتزامات" الحطَّاب، وعلى "الحاوي للفتاوي" للبرزلي، وعلى الشَّيخ خليل وشرحه لعبد الباقي الزرقاني.

ومن تحرِّيه أنَّه لَمّا توقَّف في كلام الزرقاني ذكر ذلك حيث يقول "التوقُّفي في ذلك عسى أن يكتب عليه من يشفي الغليل"، فهذا منه أمانة علميَّة.

وقد آعتمد فتواه عصريَّة وبلديَّة الشَّيخ محمَّد بوراس الهذلي (-1189هـ) ويختم بوراس فتواه بهذه الفقرة "وجواب الشَّيخ المفتي صحيح"، وكان الشَّيخ بوراس مفتيا بالقيروان.

وكذلك صحَّح فتوى المترجَم الشَّيخ محمَّد بن حسين الهدَّة المفتي بسوسة المتوفَّى سنة 1197هـ لا سنة تسع وتسعين كما في "شجرة النُّور الزكيَّة".

وذكر الشَّيخ الهدَّة في طالعة الجواب تنويها بالمترجَم الشَّيخ الطوير وهو "وبعد فقد وقفت على رسم الحبس وعلى جواب الشَّيخ المفتي، وقد أنبأنا عن ذكاء قريحته، وقوَّة فطنته، عذب لفظا، ورق معنى".

وما أفتى به المترجَم آعتمده من قضاة تونس أربعة وهم الشَّيخ مصطفى الطرودي (-1173هـ) وعلي بن عمر أفندي كان حيًّا سنة 1172هـ ونصر بن عثمان قاضي باردو، والشَّيخ إبراهيم المزَّاج الأندلسي ثمّ التُّونسي (-1175هـ).

وقد وقفت على حكم إبراهيم المزاج المذكور آعتمد فتوى الطوير مع غيرها من الفتاوي المؤيِّدة، وجاء فيه "الحمد لله حكمت بصحَّة الشَّيخ القاضي الحنفي من عدم مشاركة أولاد البنات المذكورات لخالهم".

ويختمه بقوله "حكما تامًّا وألزمت العمل به، وكتبه أفقر فقير وأحوج محتاج عبده قاضي الجماعة بتونس إبراهيم المزاج"

مزاحمة الورغي

عاش الطوير عصرا كان فيه الأدباء متبارين في مدح الأمراء، وكانت المناسبات التي تدعو إلى قول الشِّعر سوقا يتبارى فيها الشُّعراء، ويستعدُّون لذلك آستعدادا أدبيًّا، وهذه المناسبات بعضها من التَّافه الذي لا يعبأ به،

وبعضها وإن كان عند بعض الأدباء العصريِّين ملحقا بالأوَّل يرى فيه المتعمِّق مناسبة طيِّبة لإنشاد الشِّعر.

ومن المناسبات التَّافهة التي أفاض فيها الشُّعراء، ومنهم الطوير ختان بعض أبناء الأمراء، فإنَّ الشُّعراء في هذه المناسبة لم يتركوا إفاضة القـــول بإنـــشاد الكثير من الشِّعر على تفاهة الموضوع.

أمَّا المناسبات الأخرى فهي مثل إخماد بعض الثَّورات النَّاجمة عن تنافس الأمراء على الملك فإخماد الثَّورة وإن كان فيه تقطيع أوصال وتخريب ديـــار وإزهاق أرواح فإنَّه قد كفَّ الشَّغب، وكفى الأمَّة الحرب الـــسِّجال، لأنَّ الفتنة مهما كان نوعها لا تأتي إلاَّ بالوبال على الشَّعب المنقسم على نفسه، فالشُّعراء وإن أظهروا الفرح بالغلبة -وهي في الحقيقة ليست غلبة- كان في جمع الكلمة ما يعفي عن ذلك التغالي، وإبداء النكاية التي لا تكـــون إلاَّ في الأعداء.

وقد شارك في الحالين هذا الأديب الفقيه، وكان يرمي من وراء ذلك إلى مزاحمة شاعر فحل وهو محمَّد الورغي كما أشار إلى ذلك آبن أبي الضِّياف في تاريخه، ولم يدع هذا المؤرِّخ النقَّاده هذه المناسبة تمرُّ دون إبـــداء رأي في هذه المزاحمة -وإن كان تاريخه موضوعا للسياسة دون الأدب- فذكر مـــا يفيد أنَّ المترجَم دون الورغي لأنَّه ذكر "أنَّ له أمداحا رائقة رام أن يـــزاحم بها إمام البلاغة الكاتب أبا عبد الله محمَّد الورغي"[1].

وصدور هذا من آبن أبي الضِّياف ليس من إلقاء الكلام بدون أن يكون له ما وراءه، بل يقصد أنَّ الورغي هو الإمام.

وإذا أحببنا أن نضع الشَّاعرين في الميزان قاطعين النَّظر عمَّا قاله المـــؤرِّخ النقَّادة نأتي ببعض ما لهما من الشِّعر الذي قيل في مناسبة واحدة، وننظر في قول كل منهما بمنظار النقد حتَّى نخرج برأي غير متأثِّر بعامل خارجي إلاَّ بما يبديه للنَّقد في شعريهما.

---

1 الإتحاف 17/7.

ونقتصر هنا على ما ٱقتطفه الحاج حمُّودة بن عبد العزيز في تاريخه الباشي من قصيدتين للطوير والورغي في حوادث جمَّال، وكان ٱبن عبد العزيز ٱقتطف القطعتين من شعريهما ليظهر السِّباق بين المتزاحمين، فإنَّه حريص على النَّقد تصريحا وتلويحا.

ٱبتداء ٱبن عبد العزيز بقطعة الطوير فذكر ما يأتي:

"ومن قول الفقيه القاضي المشاور الأديب أبي محمَّد عبد اللَّطيف الطوير القيرواني يذكر ما أصاب أهل جمَّال في شقاقهم، وشقِّهم العصا وعفو مولانا عنهم[1]:

لأجمَّل الله جمَّالا لقد نزلت (بهم) من الخلف آجالٌ وأوجالُ
شقُّوا العَصَا وتَمَادَوْا في ضَلالَتِهم فَحلَّ سَاحَتَهُم خَطْبٌ وأَهوالُ
لقد بالأربعاء حاط (الخميس) بهم كما أحاط بساق الرِّجل خلخَالُ
فبعضهم من شعوب ذاق كأس رَدًى وبعضهم في عابَ الأرض قَدْ سَالُوا
(فأصبحوا لا تُرَى إلاَّ مَسَاكنَهُم) ونسوةٌ ومساكينُ وأطفالُ
ساق الشِّقاقَ إليهم كلَّ دَاهيَة فما الذي صنع البَاغُونَ (ما نالوا)
أوليتَهُم منك عفوًا عن جرائمهم إذ كُنت تعلم أنَّ القوم جهَّالُ
لازِلْتَ بِالعَفْوِ بعد (الظَّفْرِ) متسمًا فالعفوُ ليس له مذمومةٌ حالُ".

وثنَّى بالورغي:

"وقال الفقيه الأديب الكاتب أبو عبد الله محمَّد بن أحمد الورغي يذكر يومَهم[2]:

أَكْذَبَ الحَسنُ بجمَّال وَقَدْ فَتَحَ كَانَ مَشْهُودًا كَيَوْمِ الجمَلِ
الحَيْنَ لَهَا إذْ فَتَحَتْ فَغَدَتْ بٱرْتكَاب الخُلْف بَابَ الزَّلَلِ
مِنْ جَهْلِهَا الفَاحش مِنْ بَابَ الإعْرَاب لبَاب البَدَلِ
(كَيْفَ تُخْطِي مَنْ تَعَدَّى طَوْرَهُ صَرْعَةٌ يَهْوَى لَهَا فِي التُّلَلِ)

---

1 الكتاب الباشي 93/1.

2 المرجع السابق 114/1.

فَمَضَى السّيفُ بِهِمْ فِي غُلّة   وٱشْتَفَى مِنْ دَمِهِمْ بالعَلَلِ
فاذْكُرِ الأيَّامَ فِي النّاسِ تَجِدْ   يَوْمَهُمْ هَذَا كَيَوْمِ الظُّلَلِ"

وقبل أن ننظر في متانة الأسلوب نأتي على ما هو منقود فيهما إن كان هناك ما ينقد من المؤاخذات.

جاء في أوَّل قطعة الطوير عودُ الضَّمير على البلد بٱعتبار أهلها حيث قال: (لقد نزلت بِهم) مع أنَّه قال أوَّلاً: (لاجمَّل الله جمَّالا) فصدر البيت حديث عن البلدة، ثمَّ لَّما أراد أن يعيد الضَّمير تحدَّث عن أهلها في العَجُزِ والأبيات الموالية.

ويمكن أن يعود الضَّمير على الفرق في قوله:

عاثَت بأنحاءِ إفريقيَّةٍ فِرقٌ   طال الزَّمانُ وما عن طبعهم مالوا[1]

لكن يكون الفصل بما جاء في البيت الموالي لهذا حجر عثرة في ٱتِّساق المعنى وترابُطه.

وكذلك من المؤاخذات حذفه للعاطف في قوله: (ما نالوا) مع أنَّ المتقدِّم على قوله هذا ٱستفهام وهو قوله: (فما الذي صنع الباغون)، والذي يتطلَّبه المقام الاتِّصال للتماثل بين الجملتين في الاستفهام.

وهناك أمر ثالث في قوله: (لازلت بالعفو بعد الظفر متَّسما) حيث سكَّن فاء الظفر مع أنَّها مفتوحة لأنَّه مصدر ظفِر مكسور الفاء وهي عين الكلمة، وما كان كذلك يكون مصدره فعلا بالتَّحريك مثل فرِح فرَحا، والظَّاهر أنَّ العاميَّة جرت على لسانه لأنَّ اللِّسان التُّونسي الدَّارج يستثقل تحريك عين الكلمة فيسكِّنها مثل الفرح فإنَّنا لا ننطق به محرَّكا بل ننطق به ساكنا.

ولا متمسَّك في أنَّه ضرورة شعريَّة لأنَّه له مندوحة عن ذلك، والضرورة ما لا مندوحة عنه كما هو مذهب سيبويه، إذ له أن يقول هكذا:

لازلتَ بالعفو بعد النَّصر متَّسما

1الكتاب الباشي 92/1.

وإذا ما رجعنا إلى أبيات الورغي لا نجد فيها مؤاخـذات كمؤاخـذات أبيات الطوير.

ويتَّضح من وجود المؤاخذات في أبيات الطوير دون أبيات الـورغي أنَّ الثَّاني له تمكُّن في العربيَّة والشِّعر، فهذه الموازنة في خصوص أبياهمـا هـذه تقتضي تقدُّم الورغي.

وحين ننتقل إلى متانة الأسلوب ودسامة المعنى في هذه الأبيات نجـد أنَّ الورغي يحكم له الذَّوق بأنَّ أسلوبه أمتن، كما يتَّضح ذلك مـن عـرض أبياهما على محكِّ النَّظر.

هذا من حيث متانة الأسلوب، أمَّا من حيث دسامة المعنى فالطوير نجده أطنب في بيان ما ساق الشِّقاق لأهل جمَّال في ستَّة أبيات، ونراه يكرِّر المعنى الواحد ثلاث مرَّات إذ يقول:

لا جمَّـل الله جمَّـالا لقـد نزلـت بِهم من الخلـف آجـال وأوجـالُ

ويقول:

شقُّوا العـصا وتمـادوا في ضَـلالتهم فحـلَّ سـاحتَهم خطـبٌ وأهـوالُ

ويقول:

ساق الشِّقاق إليهم كلَّ داهية

فالمعنى في أبياته الثلاثة واحد وهو أنَّ الشِّقاق وبمعناه الخلاف أدَّى بهـم إلى حُتوفهم، وأنزل بهم الدَّواهي ولو تتبَّعنا القطعة المنقولة ودقَّقنا النَّظر نرى أنَّ المعنى وهو مغبَّة الشِّقاق ٱستحوذت على قطعته.

غير أنَّه في تصرُّفه في المعنى المذكور قد تلطَّف فلم يكرِّره بصورة واحدة بل تفنَّن في التَّعبير وتنوَّع في التَّصوير، وأتى بالتَّحسين اللَّفظي مثل التَّـوهيم في قوله (لقد حاط الخميس بهم)، فالخميس يطلق بإطلاقات منـها (يـوم الخميس) الذي هو اليوم السَّابع من الأسبوع وكلامه هنا يوهم أنَّه هو المراد لأنَّه ذكر الخميس بعد الأربعاء إذ يقول: (بالأربعاء لقد حاط الخميس بهم)، مع أنَّه ليس مرادا بل المراد بالخميس الجيش لأنَّه خمسُ فرقٍ فالمعنى أنَّ إحاطة

الجيش بهم كانت بالأربعاء، والتَّوهيم وإن كان من المغالطة إلاَّ أنَّه فيه من الاستملاح عدَّه علماء البلاغة من المحسِّنات البديعيَّة، وفيه يقول صفيُّ الدِّين الحلِّي[1]:

حتَّى إذ أصدرُوا والخيلُ صائمةٌ   من بعد ما صلَّت الأسيافُ في القممِ

فذكر الصِّيام من الخيل يوهم السَّامع أنَّ قوله (صلت الأسياف) من الصَّلاَة والمراد غير ذلك، إذ المراد أنَّه من الصَّليل، هو صوتُ الحديد.

بينما الورغي في ٱنتقاض جمَّال لم يورِّ في حلقة واحدة، بل تصرَّف في (صرعة يهوى لها في التِّلل)، معان متعدِّدة،ومن رائع معانيه بيته الحكيم الذي أجاد فيه الحكمة:

كيف تخطي من تعدَّى طوره

فهذا البيت حكمة بالغة تفيد أنَّ المرء إذا تجاوز طورَه فأنَّ الصَّرعة لا تخطئه.

ثمَّ إنَّ الموازنة بين قطعتيهما وإن قضت بتقديم الورغي على المترجَم لاهضم حقُّ هذا الآخر في خصوص ما وقعت الموازنة فيه، فإنَّه وإن فاقه الورغي لم يقصر في الإجادة و لم يكن ضالعا في أبياته هذه، فإنَّها أبيات فيها من الحسن والتفنُّن ما يؤهِّله لأن يكون من زمرة الشُّعراء المجيدين لسلاسة نظمه وبراعة تصويره للظَّفر الذي ناله الأمير على أهل جمَّال.

وهناك ٱنتقاد يشترك فيه الشَّاعران وهو أنَّهما كان عليهما طيُّ آثار هذا الانتصار لأنَّه في الحقيقة نكاية في إخوان وإثارة أحقاد، وهذا عيب الشُّعراء فإنَّهم وإن طرقوا مثل هذا الموضوع كان الواجب يدعوهم أن يطرقوه لا بالصُّورة التي تصوِّر أنَّ هناك عدوًّا قُهر، وهذا العدوُّ نال جزاءه، فالواجب يدعوهم أن يعرفوا المنتقضين أنَّهم في وضع ينافي الأخويَّة ويقضي على

1 عبد العزيز بن سرايا، الحلِّي(صفي الدِّين)، أديب، شاعر. من آثاره ديوان شعر كبير، بديعية سمَّاها "الكافية البديعية"...الخ. توفِّي سنة 752هـ/1351م.(معجم المؤلفين247/5).

الروابط الدينيَّة والوطنيَّة، وإن يظهروا التأسُّف على ما حلَّ بأولئك المنهزمين.

والشَّاعران الورغي والطوير وإن آشتركا في عدم تفهُّم الموقف، وما يتطلَّبه المقام فإنَّ الورغي كان أقسى على أهل جمَّال وأشدَّ شماتة بهم، وأبعد عن العطف عليهم.

ولم أجد مساغا في نفسي لبيته القصي عن تفهُّم الرَّابطة الإنسانيَّة، فضلا عن الرَّابطة الإسلاميَّة والوطنيَّة ذلك البيت الذي يصوِّر آرتواء السَّيف وشفاءه من دم أهل جمَّال[1]:

فمضى السَّيف بهم في غلَّة ... وآشتفى من دمهم بالعلل

وإنَّا إذا حكمنا بالتقدُّم للورغي بالنِّسبة للقطعتين الخاصَّتين بما قيل في جمَّال، فإنَّا إذا رجعنا إلى أصل القطعتين وهما القصيدتان اللَّتان قيلتا في فتح وسلات[2] نرى أنَّ الكفَّة تميل مع الطوير، فإنَّنا عندما ننظر أوَّل أبيات كلٍّ من القصيدتين نرى أنَّ التفوُّق يكون للطوير.

وها نحن نذكر ما نختاره من كلٍّ منهما حتَّى نرى الوزن الأدبيَّ لكلٍّ منهما في هذا الاختيار[3].

فالطوير يفتتح قصيدته بهذا الافتتاح المتين:

فتحٌ ونصرٌ وإسعادٌ وإقبالُ ... لمن له خضَعَت صيدٌ وأقيالُ
ومن له همَّةٌ شمَّاء قد سحبت ... لها على الفلك الدوَّار أذيالُ
ومن سريرتُه طابت وسِيرتُه الـ ... ـغرَّاء سارتَ بها في المُلك أمثالُ
عليٌّ بن حسين من له فخر ... على الملوك وإعظامٌ وإجلالُ
أقام للحقِّ أركانا مشيَّدة ... إذ لم تلُح لرسوم الحقِّ أطلالُ

1 الكتاب الباشي115/1.
2 لمَّا ثار علي باشا سنة 1140هـ/1728م على عمِّه حسين بن علي تركي فرَّ مع آبنه يونس إلى جبل وسلات من ولاية القيروان الذي دخل طاعته. (الإتحاف، ثورة علي باشا، ص106-116)
3 الكتاب الباشي 90/1-92 وديوان الطوير ص66.

وبعد إفاضته في أوصاف المدح على ممدوحه يأتي علــى مــا ينكــره المنتقضون من أهل وسلات فلا يجد شيئا إلاَّ أنَّ نكرانهم منصبٌّ على الحلم والعفو والإنصاف والإفضال، وأنَّ دولته عديمة المثال:

ما أنكــروا منــه إلاَّ أنَّ شيمتَــــــه   حلمٌ وعفــوٌ وإنــصافٌ وإفــضــالُ
ما أنكــروا منــه إلاَّ أنَّ دولتــــه   غرَّاء ليس لهــا في المُلــك أمثـــالُ

وإذا ٱنتقلنا إلى الورغي في قصيدته في هذا الموضوع لا نجد الرَّوعة الــتي عند الطوير عنده، إذ الطوير يفتتح بذلك الطَّالع الرَّائع المخبر بــأنَّ الفــتح والنَّصر ومعهما الإسعاد والإقبال كلٌّ ذلك للملك الذي خضعت له الملوك، ويمتدُّ النَّفس بالمترجم فينساق شعره في الكمالات الجمَّة التي منها أنَّه مأمون العوائل في أبيات عذبة تملأ النَّفس روعة حتَّى يتخيَّل القارئ أنَّــه النُّخبــة المختارة المتأهِّلة للمسك بزمام الأمور، وأمَّا الورغي فإنَّه يفتــتح قــصيدته بحاجة المِدح لحلو الغزل، وما يطلبه العاشق من معشوقه[1]:

حاجــةُ المِــدحِ لِحلْــو الغــــزَلِ   حاجــةُ الــصبِّ لأولى القُبــــلِ
مــا علــى مانعهــا لــو سمحــت   نفسُه يومًــا بهــا مــن ثقــــلِ
مُنيـــةٌ مــاطلني الوقـــتُ بهـــا   مَطــلُ غـــيلان برجــعِ الطَّـــللِ
أكتفـــي فيهـــا بوعـــد كَــاذب   أشغل البــالَ بـــه عـــن عــــذلي
يَقْنَـــعِ المَحْـــرُومُ بالـــدُّون كمـــاً   يقنع الأعمـــى بـــأدنَى الحَــــولِ

شتَّان بين أوائل القصيدتين، فالمترجَم يحلِّق في أجواء ذلك التَّصوير الرَّائع لممدوحه، بينما الورغي يبحث عن حاجة المدح إلى الغزل.

فمزاحمة الطوير للورغي مزاحمة هو أهل لها وحقيق بها في هذا الــسِّباق الشِّعري، وإن كان للورغي مجالات أخرى بوَّأته الإمامة والزَّعامة الشرعيَّة في عصره.

---

1 الكتاب الباشي 110/1.

الحلبة الشعريَّة

نعود مرَّة أخرى إلى هذه الحلبة التي قدَّمنا طرفا عنها في ترجمة الدرناوي وهي حلبة الختان لأبناء الأمراء في إمارة علي بن حسين سنة 1178هـ، ونتناولها من ناحية أخرى هي ناحية المقارنة بين الطوير وبين بعض أولئك الشُّعراء الذين أنشدوا فيها، وبالأخصِّ مع الورغي فإنَّ قصيديهما متقاربان في المواضيع التي ٱنبنى عليها قصيداهما.

ولولا أنَّ هذا الختان كان مباراة شعريَّة ساهم فيها المترجَم لما تعرَّضت له، ومساهمته مساهمة أدبيَّة، ولهذا طوى صفحة هذا الختان صاحب "إتحاف أهل الزَّمان"، فلم يذكره في ترجمة علي باي الذي ختن ولديه وولدي أخيه لأنَّه ليس من الأمور التي تؤرَّخ، لكن الحاج حمُّودة بن عبد العزيز أطنب في تاريخه[1] في هذا الختان لأنَّه جمع ما قيل فيه على عادته من الاعتناء بالمدح.

وعلى كلٍّ فلكلٍّ وجهة ٱختصَّ بها في التَّاريخ فٱبن عبد العزيز وإن ٱعتنى بهذا الختان الذي ليس من القضايا التاريخيَّة فإنَّه قد حفظ لنا ناحية أدبيَّة تهمُّ الباحث الأدبي لا من الناحية التاريخيَّة بل من الناحية الأدبيَّة، وهي التي نتناولها في هذا الفصل، وصاحب "الإتحاف" له قضايا أخرى تاريخيَّة هامَّة هي ميدانه.

إنَّ المبرَّزين في هذه الحلبة ثلاثة من الشُّعراء هم المترجَم والورغي والغراب، وإن كان الدَّرناوي كما قدَّمنا ساهم مساهمة ما في هذه الحلبة إلاَّ أنَّ هؤلاء الثلاثة لهم التقدُّم، وبالأخصِّ المترجَم والورغي فإنَّهما كانا السَّابقين على كلٍّ من أنشد في هذه المناسبة حتَّى الغراب.

إنَّ التشابه بين هذين المتسابقين في هذه الحلبة في المعاني يكاد يكون بإيحاء من أحدهما للآخر، وفي الحقيقة إنَّما كان ذلك للتَّقارب في التَّفكير فمبنى القصيدتين في معانيهما على أمور منها:

---

1 الكتاب الباشي، ص 138- 164.

الفرح بالختان وسُموِّه وجماله، وهذا المعنى قد أطال فيه المترجَم، وكان أكثر إبرازا له من الورغي وأوفَى لحقِّه منه[1]:

[الوافر]

وفي أوجِ السَّعادة والمعالي ترقَّى نيِّرَانِ ونيِّرَانِ

ويقصد بالنيِّرين أوَّلا ابني الأمير الممدوح وهما سليمان وأخوه حمُّودة الذي ورث ملك أبيه وبالنيِّرين ثانيا ابني أخيه محمَّد وإسماعيل.

قضى سعدُ السعودِ حقوقَ فرضٍ مؤكّدة بمَسنُونِ الختانِ
ختان ابنَي علي باشا مع ابنَي أخيه المُرْتقَي غُرَفَ الجنانَ
ختانٌ شعشعَ الأفاقَ نورا وأشرق من سَنَاهُ الخَافقَانَ
ختانٌ ألْبَسَ الدُّنْيَا جَمَالا وحُسنًا من طرائفه الحِسَانَ
ختانٌ هرجَ العلياءَ ما إن يقاس به بَهاءُ المهرجانَ
جنيْنا الطيِّبات فما فقدنا سوَى المحظورِ من بنت الدَّنانَ
وطاردنا اللَّذائذَ في حماه طِرَادَ الخيلِ في يوم الرِّهانَ
فصيَّرت الخريفَ لنا ربيعًا بختنٍ في ربيع جاء (ثاني)
لو أنَّ البدر أمْكَنَه نزولٌ إليه لجَاءَ يَسْعَى للتَّهَاني
تودُّ الشُّهبُ لو رُقِمَتْ فكانت بسائطَ للموائدِ والخِوانِ

وهذا المعنى في القصيدتين كان الطوير أتقن له فجاء تصويرا لهذا الحفل الختاني وما دار فيه من الطيِّبات وما فيه من لذائذ حتَّى أنَّ الرَّبيع الزَّاهي قد حلَّ في الخريف، وأنَّ هذه الأبيات في روعة المهرجان الختاني قويَّة رائعة بينما أبيات الورغي اقتضب فيها الكلام اقتضابا ولم يصوِّره كما صوَّره المترجَم، ومال الورغي إلى معنى آخر وهو إخفاء هذا الإعذار جريا على السنَّة الواردة في ذلك، وبذلك كانت أبيات الطوير أقوى في هذا المعنى وأمكن.

والمعنى الثَّاني الذي طرقاه وهو الختان كان الورغي في استخراج المعنى أقعد من الطوير وأحسن تفنُّنا حيث تعجَّب من الخاتن كيف تناولت كفَّاه

1ديوان الطوير ص80

بدورا، وأخذت من تلك البدور جزء لو يقاس بملك القياصرة لتقاصر الملك عن ذلك الجزء المأخوذ، ويتمادى في هذا المعنى في أبيات محبوكة النَّسج في معان لطيفة، وهذا المعنى سبكه في أبياته التي يقول في أوَّلها[1]:

مـا للمـزيِّن فيـه كيـف تَنَاوَلْـتَ كفـاهُ في فلـكِ البَهَـاءِ بُـدُورَا

إلى أن يقول:

لـولا الخليـل لعاقـه عـن أخـذهِ حربٌ يـشيب لهـا الوليـدُ صـغيرًا

وكان الطوير في طرقه لهذا المعنى عاديًّا في أبياته، غير لبق في طرقه له[2]:

أيـا ختـان مـا أقـساك قلبًـا وما أقـصاك عـن سمـةِ الحنـانِ
رويـدا وٱتَّئـد وٱرفـق تمهَّـل فـشحذك للحديـد لقـد شـجاني
وأثبـتَ الخَنـان لكـلِّ قـلب ثبـات الخـوفِ في قلـب الجبـانِ
وقـد غـادرت أوجهنـا ٱرتياعـاً كـان صـبغتَ بلـون الزَّعفـرانِ
عهـدنا أنَّـك الأدنى مجـلا فكيـف ظهـرت في أعلـى مكـانِ

ويستمرُّ في أبياته، وأبياته هذه لا تفيد إلاَّ أنَّ الخاتن كان قاسي القلب فيطلب منه التمهُّل، ويأتي هنا بمفردات ثلاث، وإذا ضممنا إليها الرِّفق كانت أربعة مترادفات، ثمَّ شتم الخاتن بأنَّه معروف بكون مكانه أدنى محلٍّ، فكيف صار مع الكواكب، ويستفهم عن وصوله إلى الأقمار، ومع أنَّ أبياته هذه فيها إساءة لا مبرِّر لها ولا داعي إليها بعيدة كلَّ البعد عن ٱستخراج الورغي المعنى اللَّطيف من هذا الأمر العادي وهو الختان.

ويفترق الشَّاعران في تناول يدي الخاتن الأقمار، فالورغي يستفهم كيف تناولت كفَّا الخاتن هذه البدور، ويستفهم بعد ذلك كيف لم يتَّق هذه النُّجوم الثَّواقب التي تذكي عليه سعير الحرب لأنَّ المختونين أبناء ملك وقطع

1 الكتاب الباشي 139/1.
2 المرجع السَّابق 144/1-145.

جزء منهم لا يكون أمرا سهلا، بل هو من أصعب الصّعب وأبعد عن الحصول.

ثمّ إنّه يجيب نفسه عن الاستفهامين بأنّ الذي أباح للخاتن ذلك هو السنّة الخليليّة الإبراهيميّة التي أقرّها الإسلام، ولولا ذلك لما ٱجترأ الخاتن على أخذ ذلك الجزء من بشرة أولئك الأشبال.

أمّا الطوير فإنّه يهجم على الخاتن بأنّه قاسي القلب، ثمّ يذكر أنّه منحطٌّ فكيف ٱعتلى مع الأقمار، وكيف مدّ كفّه إلى أولئك الأشبال ويعيد هذا المعنى.

وهذه الحلَبة التي جرى فيها الشّاعران أظهرت مقدرة كلّ واحد منهما لأنّها حلبة ليست ثريّة المعنى، بل هي في جفاف، فإذا ما تناولها الشّاعر كتناول الورغي بٱستنباط معان لطيفة مقبولة دلّ ذلك على شاعريّة وخيال واسع، أو ٱطّلاع أدبيٍّ عميق، وإذا تناولها الشّاعر بالمعاني المستعملة في مطروق الكلام العادي، بل بالقول اللاّذع كالطوير دلّ على أنّ الخيال الشعريّ غير متوفّر لدى الشّاعر، وبهذا الافتراق تبين المقدرة الشعريّة والتمكّن منها أو ٱنعدام الخيال الخصب أو الشاعريّة المنغلقة.

وندرك من هذه الحلَبة أنّ الورغي يجري في رهانه غير كادٍّ في الإنشاد لأنّ شاعريّته متدفّقة، أمّا الطوير فإنّه يتناول المعنى الواحد ويكثر له من التعابير بما يزيد على المعنى، ثمّ إنّه لا يتخيّل ما يتخيّله الورغي، وربّما يظهر كأنّه في صعيد من الأرض، ويدلّك لذلك إكثاره من المترادفات كما قدّمنا في معنى (تمهّل) أو طرقه لمعان لا يخف موقعها على الذّوق كما في قوله (وأثبت الحنان في كلّ قلب)، وقوله (عهدنا أنّك الأدنى محلاًّ).

فهذه الحلبة وإن كانت في هذا المعنى الخاصّ البعيد عن إنشاد الشّعر أثارت القرائح وبعثت الخيال حتّى يبرز هذه المعاني المنتزعة من مناسبة غير مثيرة.

والمعنى الثّالث الذي توارد عليه الشّاعران هو أنّ الأمير علي بن حسين لمّا ختن الأمراء الأربعة ٱلتمس تلك المناسبة لتقديم أفعال البرّ كما قال ٱبن عبد

العزيز: "ولم يحتفل مولانا أعزَّه الله في ختانهم بأكثر من إفاضة الصَّدقات وتعميم الإحسان، فختن من أولاد الفقراء المستورين زهاء خمسمائة صبيٍّ، ورسم لكلِّ واحد منهم أن يُعطى كسوة تليق بحاله من الجوخ وغيره ودراهم للنَّفقة ورسم أن تجهَّز طائفة من الأبكار المستورات اليتامى وغيرهنَّ بجهازهنَّ اللاَّئق بهنَّ إلى أزواجهنَّ. ونظر في أهل السُّجون فأطلق منهم خلقا كثيرا، وقضى عن المدينين من ديونهم".

أراد الشَّاعر أنَّ كلاًّ من الورغي والمترجَم تسجيل هذه المأثرة في شعره، وهي مأثرة حقيقيَّة بالتَّسجيل والإشادة لما نال أولئك المحتاجين من نوال جزل بالنِّسبة للمختونين والأبكار، ولما ٱستفاد منه المساجين من إطلاق السَّراح، ولما تناول المدينين من خلاص ديونهم.

فالورغي عبَّر عن هذه المأثرة بأبيات قليلة العدد، فأجمل البرَّ الذي أفاضه الأمير المذكور ولم يذكر أنواعه ولم يفصِّل أقسامه، فقال:

وأضفتَ لذات الإله لهذه فبذلتَ ... أُمما أفضت لها النَّوال نميرَا
في تحسين بزَّة جمعهم ... ما لا يعزُّ على الملوك غزيرَا
وبلغتَ في إبلاغ خيرِك للورى ... حتَّى ملأتَ من السُّرور قبورَا

وأشار الورغي بقوله (وأضفت لذات الإله لهذه) إلى أمر آخر وهو صلة الأمير لرحمه، حيث ختن ٱبنيه مع ٱبني أخيه بدون تفرقة بينهم وفي ذلك مواصلة وٱمتداد لما بين الأخوين من الرَّابطة الأخويَّة، والصِّلة الرحميَّة:

فوصلت رحمك رأفة وأقمتها ... أعلى مقامٍ في الجنان كبيرا

ويعني بالقبور التي ملأها الممدوح بالسُّرور قبري أخيه وأبيه لأنَّ في مساواته بين ٱبنيه وٱبن أخيه إدخالا للسُّرور على روح أخيه ومواصلته لأخيه ترضي أباهما لأنَّه كان في سعيه الحربيِّ وإقصائه قبل ذلك لابن أخيه يمهِّد لهما المستقبل ويسعى في وضع الإمارة بين أيديهما، فإذا ما تظافرا على الإخاء الذي يمكِّنهما من الإمارة كان أبوهما قريرَ العين في قبره لأنَّ ما أراده لهما قد تحقَّق في صفاء وهناء.

وتناول المترجَم ما تناوله مزاحمه الورغي ببسط لأنواع هذه المبرَّة مفصِّلا لها واحدة فواحدة، فإذا ما وقفت على أبياته شعرتَ بأنَّك تقرأ تلك الفقرة التي فصَّل فيها ٱبن عبد العزيز هذه المبرَّة[1]:

جعلتَ محلّه ختن اليتامـــــى فكــم   وأهلَ العجــز عـــن دَرْك الأمانـــي
مـــئينَ قـــد طهَّـــرت منهـــــم   طهورًا مـــن ريـــاء وٱمتنـــــان
كسوتَ جميعَهم وأنلـــتَ مـــالاً   جُزيـــت بـــه المنـــازلَ في الجنـــانَ
وأطلقـــتَ الأولى في الـــسِّجن حتَّـــى   تحمَّلـــت القـــضاء عـــن المُـــدانَ
وللصَّدقات قـــد أجريـــت بحـــرًا   مـــن البيـــضاء والـــذَّهب المُـــصانَ
فعمَّمت الـــسُّرور بِهـــا وكـــانت   إليـــك مـــن المكـــارِه كالجُنَـــانَ

وفي المقايسة بينهما في طرْق هذا المعنى يحقُّ أن ننظر مثل نظر القاضـي الجرجاني[2] في الوساطة بين المتنبِّي وخصومه حـين وازن بـين أبيـات أبي الطِّيب، وعبد الصمد بن المعذل[3] في وصف الحمَّى.

(وأنت إذا قِست أبيات أبي الطيِّب بِها – أي بأبيات ٱبن المعذل – على قصرها... تبيَّنت الفاضل من المفضول).

ونحن إذا وازنَّا بين المترجَم والورغي نتبيَّن الفاضل مـن المفـضول في الموازنة بينهما، ويتَّضح بأنَّ ما قاله الورغي على قِصرِه يبيُّن فضله، وهـذا يدركه من كان من أهل البصرِ بالنَّقد لأنَّه ألمَّ بالمعَنى الذي ألمَّ به المتـرجَم بأحسن تعبير، فإنَّ الأخير وإن فصَّل المبرَّات بعناوينها لم يسبك المعـنى بمـا

1 الكتاب الباشي 147/1 وديوان الطوير ص 84.

2 أبو الحسن علي بن عبد العزيز بن الحسن الجرجاني المشهور بالقاضي، قاض من علماء الأدب، كثير الرحلات، تولّى قضاء جرجان. من كتبه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" وتهذيب التاريخ" وديوان شعر. توفي سنة 392هـ/1002م. (الأعلام 114/5)

3 عبد الصمد بن المعذَّل هو من شعراء الدَّولة العبَّاسية ولد ونشأ بالبصرة. توفّي سنة 240هـ/ 854م. (الوسطة بين المتنبي وخصومه: القاضي الجرجاني، ص117، دار إحياء الكتب العربيَّة، ط1، مصر، 1945.)

يناسب القالب الشعريَّ، بل بما يتلاءم مع التَّاريخ الذي تذكر فيه الحوادث بعناوينها دون أن يكون هناك ٱختراع لمعنى مستنبط من المقصود بالعبارة.

والمعنى الذي ٱستنبطه الورغي وٱنتزعه هو إدخال السُّرور على أخ الممدوح وأبيه، وربط ذلك بالمواصلة الحاصلة بين الأخوين الحيِّ والميِّت.

وعلى كلٍّ فالشَّاعران لم يقصِّرا، وكلاهما في أدائه للمعنى محسن ومصيب، وإن كان هناك تفاوت نسبيٌّ بينهما.

وطرق الشَّاعران معنى آخر هو أسمى ما تناولته القصيدتان، وهو التفرُّس بنجابة هؤلاء الأمراء المختونين، وما يخبئه لهم المستقبل من مجد وسيادة، وأبدت الفراسة ما ذكر لهم لجدهم وعدم خشيتهم من مقصِّ الخاتن إذ تبادروا إلى الخاتن غير هيَّابين ولا وجلين.

وتسامى هذا المعنى على باقي معاني القصيدين لأنَّ المقصود منهما هو مدح أولئك الصِّبية، ولا يكون مدحهم إلاَّ بالتفرُّس لهم بالمجد والنجابة، إذ هم في سنٍّ لم تظهر لهم أعمال فيها.

وبجانب هذا المعنى معنى آخر وهو مدح الأمير المتربِّع على أريكة الملك، لكنَّ هذا المدح ثانويٌّ بالنِّسبة للمقصود بالذَّات، وهنا يفترق الشَّاعران، فالورغي يبرز في الأوَّل ويجيد إجادة ظاهرة، وأمَّا المعنى الثَّاني الذي هو مدح الأمير فالمترجَم يطنب فيه ويعطيه ما يناسبه وزيادة.

وسنقتصر على المقابلة بين الشَّاعرين في المعنى المقصود بالذَّات لأنَّه أولى بهذه المقابلة لشدَّة مساسه بروح القصيدتين وٱرتباطه بهما الارتباط المتين، ونقتطف ممَّا قاله الورغي هذه النتفة[1]:

فالآن حين توصَّلوا لمَنازل ... قطعوا لها منذ الولاد وُعُورَا
وتطاولت خطَطُ الإمارة نحوَهمُ ... ولهم أعددت رتبةً وسريرَا
فالخيلُ مُصَغْيةٌ لهم آذانُها ... تَبْغِي بهم جهة النَّجاح عبورَا
مرحت لهذا النَّوب في أشطانِها ... مرحًا وسوَّت للظُّهور ظهورَا

1 الكتاب الباشي 1/141-142.

ومعاقد التِّيجان قـد عُقِـدت لهـم	وبهـم تفـاخُرِ غيبـة وحـضـوراَ
ومن البنـود تطلُّـع لِمَـسيرهـم	حتَّى تـسير مـع القَتَـام نُـسـوراَ
مَا فردُهُم لما ٱختـبرت بواحـد	بل هـو ألـفٌ أو يزيـد كثيـراَ

ويقابل هذا المعنى من قصيدة المترجَم قوله[1]:

وفي سـلكِ الرِّجـال لهـم نظـامٌ	بأعـذاري فعـذري في بيانـي
وسـوف يـرون أقيـالاً ملوكـا	لهـم شـأن عظـيمٌ أي شـأن
يقـصر قيـصرٌ عنـهم وكـسرى	كذا خاقان مـع عبـد المـدانَ
لقـد ظهـرت شـهامتهم صـغارا	وما خـبرُ المخبـر كالعيـانَ
فمـذ رأوا المقـصَّ تبـادروه	وزاحـمَ أولُ الـشِّبليـن ثانـيَ

وإذا وضعت هذا الانتقاء من أبيات الورغي فضلا عمَّا أتى به في كـلِّ أبياته الطَّويلة النَّفس في المعنى المذكور ووازنت بينه وبين أبيـات المتـرجَم خرجت بحكم جازم.

ونوضِّح هذا الحكم الجازم بأنَّ العرض المتقدِّم لأبيات الورغي مع أبيات المترجَم هو عرض يرينا إلى مدى بعيد أنَّ هناك تفنُّنا شعريًّا من الأوَّل بـرَّزه على مزاحمه حيث عرف كيف يتلطَّف في مدح هؤلاء الصِّبية، ويبرز فراسته فيهم ببداعة ولباقة وقوَّة معنى، إذ تخلَّص أوَّلا إلى مدحهم ببيتين من عيـون الشِّعر تخلُّصا مقبولا، وهو أنَّهم توصَّلوا للمنازل السامية، وقطعوا لها الوعور منذ ولادتهم، وهذا المعنى مهَّد له تمهيدا بديعا سنأتي عليـه قريبـا، وهـذا التخلُّص من التخلُّصات البديعة حيث ٱنتقل من مدح الأمير إلى مـدحهم بألطف أسلوب، ثمَّ هو نوع آخر غير المتعارف عند الكثير من الـشُّعراء، إذ هو ٱنتقال من مدح إلى مدح، وذاك ٱنتقال من تغزُّل إلى مدح.

وهذا الانتقال اللَّطيف مع تمهيده أفادنا أنَّ هذا الأمير كم له من جني بعد يومه الأغر المبارك سيجنيه نضيرا من هذا الغراس، ويعني الأمراء الـصبية إذ أنَّهم الآن قد توصَّلوا للمنازل الرَّفيعة، وقطعوا لها منذ ولادتهم وعورا:

1 ديوان الطوير ص 82.

كم بعدَ يومك ذا المبارك من جني فالآن تجنيه من هذا الغراس نضيرًا
حين توصَّلوا لمنازل قطعوا لها منذ الولاد وعورًا

وأمَّا المترجَم الطوير فإنَّه في مدحه للأمراء الصِّبية سلك مسلكا آخر – وهو وإن كان مقبولا – دون ما أتى به الورغي حيث أنَّ المترجَم كعادته أفاض في مخاطبة الخاتن، وأطنب في ذلك أيَّما إطناب، وجعل ذلك تمهيدا لمدحهم، فخاطب الخاتن بأنَّه ٱستخرج الزَّهر من الكمائم بختنه لهم، وبأنَّه أبرز من حلي السِّيادة عقائقه المصونة، فالنَّقص الذي حصل لهم بالختان عين التَّكميل، فسلكهم هذا الختان في عقد الرِّجال:

وزهر للعلا ٱستخرجتَه من كمائمه ولستَ له بجاني
وحلي سيادة أبرزت منه عقائقه المصونَة في الصوانِ
فنقصي عينُ تكميلي لأنِّي شعار الدِّين أصبح في ختاني
وفي سلك الرِّجال لهم نظامٌ بأعذاري، فعذري في بياني

وبعد هذا التخلُّص من الشَّاعرين في قصيدتيهما يتفرَّعان في مسلكين في مدح الأمراء الصِّغار.

فالورغي كما رأيت يجعل خطط الإمارة متطاولة إليهم ومتطلِّعة لتفتح زهرهم، وقد أعدَّت لهم الأسرة والرُّتب العالية، وكذلك الخيل التي كانت مركوب الملوك هي في تلهُّف لركوبهم حتَّى أنَّ آذانها مصغية إليهم، وهي تمرح في أشطانها، أي حبالها التي تُربط بها، وقد سوَّت ظهورها لظهورهم عليها، وكذلك تيجان الملك معاقدها معقودة لهم، وهي بهم مفاخرة في الغيبة والحضور.

ويستمرُّ في ٱبتداعه لمثل هذه المعاني إبداعا فائقا، وما ٱقتطفناه سابقا يمثِّل لك أنَّ الصُّورة التي أتى بها الورغي تصوِّر المستقبل الزَّاهر الذي تُهيِّئه الأقدار لهم حيث أنَّ لوازم الملك في ٱنتظارهم لأنَّهم أهل لها، وهم أربابها.

وأمَّا المترجَم فقد صار في مدحهم بإطناب إلاَّ أنَّه سلك مسلكا آخر حيث تفاعل لهم أيضا بالمستقبل الزَّاهر، لكن لم يبرز معانيه بالصُّورة التي

أبرزها الورغي لأنّه ذكر أنّهم سوف تراهم النّاس من الأقيال، والملوك الذين لهم شأن وأيُّ شأن حتّى أنّ قيصر يقصر عن شأوهم، وكذلك كسرى ملك الفرس وخاقان التُّرك، وعبد المدان من ملوك العرب مقصرون هم أيضا.

ولكن أين ما صوّره الورغي من ذلك التطلّع من خصائص الإمـــارة في ذلك الأسلوب الرّائق من هذه المعاني العاديّة التي أتى بها المترجَم، لأنّ كلّ ما قاله لا يخرج عن التّعبير المألوف الذي يقال في هذه المناسبة.

وكما كان للشّاعرين في ذلك الميدان الذي ٱشتركا فيه ســباق، لهمـــا سباق آخر في معنى غير ما تقدّم، وسنوجز فيه لأنّنا نرى أنّ المعنى الحقيقـــي بالتّبريز هو المتقدّم كما أسلفا، وهذا المعنى هو مدح الأمير الذي ختَن الأمراء وأجرى المبرّات في ذلك الختان، وفي الحقيقة هو المحرِّك الأصلي لهذا المـــدح، وما مدح الأبناء إلاّ توصُّل إليه.

وفي هذا المعنى كان للمترجَم تبريز على مزاحمة الورغي لأنّ المترجَم أشاد في مدح هذا الأمير متخلِّصا إلى مدحه بالتّهنئة بهذا الختان، وقد أطال النّفس مادحا، وأتى بأوصاف المكارم، وأضافها وأفاضها على ممدوحه، فبعـــد أن هنّاه ومدحه بجمال الذّات نسب إليه كلّ مكرمة في الدِّين، وأظهر نظافـــة عرضه، وبيّن ترفُّعه عن هوى الغواني.

ونزّهه عن ٱستماع الأغاني، وبرّأه من معاقرة الرّاح لأنّ هذا الممـــدوح أراد لنفسه غير هذا من ٱستماع ومعاقرة، ووقوع في شرك الهوى، إذا أراد لنفسه الأمور العظام في مقارعة الأهوال، وحلّ العقال، إلى غير ذلك مـــن المعاني التي طرقها هذا الشّاعر[1]:

[الوافر]

أمـــير المـــؤمنين سَمَـــوْتَ فخــــــرا ودام لك الهنـــاءُ مـــعَ الأمَـــــــاني

لِيَهْنِـــكَ سُـــنَّةٌ للـــدِّين قَامَـــــــتْ دعائِمُها لهـــا الإســـعَاد بانـــــــي[2]

1 الكتاب الباشي 146/1 وديوان الطوير ص 83.
2 الشِّفاء في التّعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض.

لـــيَهْنِ الدَّولـــة الغـــرَّاءَ خَتَـــــنٌ به القمـــران في ســعد القـــــران
لك الفخـــرُ الـــذي يَعْلُـــو الثُّرَيَّـــا ويقصُر عـــن مـــداه الفَرْقَـــدَانَ
وذات تَبْهَـــرُ الأبـــصارَ حـــسنًـــا مُكَمَّلَةً بـــأخلاق حـــســـــانَ
ولـــوعٌ بالـــشِّفاء[1] وبالبخــــاري وذكـــرِ الله جـــلَّ وبالقـــــرآنَ
وبالفقـــه الـــذي اَسـتخرجت منـــه معاني لـــيس يُـــدْركها مُعَانـــــي[2]
نظيـــفُ العـــرض أروع عبقريّـــا هَصُورًا ذا تـــأنٍّ لا توانــــــــي[3]
فلـــم يَسْتَـــصْبِ قلبــك ذو دلالٍ يحاكي طلعـةَ القَمَـر الزَّيـــــانِ

وأمَّا الورغي فإنَّه لم يجر لهذا الشوط إلاَّ قليلا، وبذلك جرى فيه المترجَم فكان سباقه بائنا.

ويختمان قصيدتيهما بما تختم به القصائد عادة، وهنا كلٌّ واحد منهما قد اَختار معنى ختم به قصيدته، فالورغي اَختار مدح خريدته إلاَّ أنَّه اَحتاط فنبَّه الممدوح من نقد الحسدة وطمأن باله الممدوح نقادة[4].

يَا سيِّدًا ظَهَـــرَتْ طلائـــع ودِّه فسعى لها ساعي المَـديح سفيــــرَا
هذي بُنَيَّةُ خـــاطر أَهْدَيْتُهـــــا شرحَت إليك من الـوداد ضَميــــرَا
تَحظى فَيَقْصُرُ يومُهـــا بحديثهـــا وتكون في غَلَس الظَّـلام سَميــــرَا
قَصرَتْ عليك ملابسًا مـــنَ غزْلهـــا لَكنْ تَخَافَ إذا نظـــرت قـــصُـــورَا
ولربَّ بعض شُـــوَيْعِرٍ يرَنـــو لهـــا شزَرًا ويُكْثِرُ في الخـــلاء زئيــــرَا

إلى أن يقول:

لكـــن تركـــتُ حديثَـــه وأراحـــني علمي بكونِـك بالـصَّحيح خـبيرًا

والطَّريق التي سلكها المترجَم هي أنَّه لم يغال في مدح قصيدته وأعـــرض عن الحسدة[5]:

1 الشِّفاء في التَّعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض.
2 جاء بالديوان "مُعان".
3 ما جاء بالديوان "لا توان".
4 الكتاب الباشي 143/1.
5 الديوان ص 86.

[الوافر]

أيا مَلكٌ رَقي فلكَ المعَالي ... وحلَّ بفكره عُقَد المعاني
زففتَ إليكَ للأعذار عذرًا ... لها العذرِ المبين بما عراني
وما ألبستها حلَلَ المعَاني ... ولا حلل البديع ولا البيان
مخلَّدة بمدحك فهي تحكي ... لغانيةٍ تبختر في الزَّيانِ

الرُّوح الدينيَّة

تسود الرُّوح الدينيَّة شعر الطوير، وتظفر بها في ثنايا شعره متفرِّقة، ويرجع وجود الرُّوح الدينيَّة في شعره إلى أنَّه نشأ نشأة دينيَّة، وتلقَّى تعليمه على الطَّريقة التي تؤهِّل المتعلِّم لأن يكون من ذوي المعرفة بالعلوم المذكورة وهو ما سهَّل له تسنُّم الخطط الشرعيَّة في القيروان.

والتَّعليم له تأثير فكريٌّ فعَّال، وبالطَّبع أن يكون شعره مشربا بذلك تمشِّيا مع الطَّابع الذي نشأ عليه، وٱتِّباعا للطَّريقة التي نما في ظلالها، وهناك عامل آخر يرجع إلى البيئة التي تربَّى فيها فإنَّ المترجم كما نقلنا في بداية هذه الدِّراسة عن ٱبن أبي الضِّياف نشأ في بيت علم أصيل ورياض مجد أثيل.

ويقصد المؤرِّخون ببيت العلم في تلك الحقبة البيت الذي يكون أهله من علماء الشَّريعة، قد تخرَّجوا في علومها وتروُّوا من كتبها لأنَّ التَّعليم كلَّه كان مصروفا لذلك.

فهذه البيئة التي نشأ فيها — وهي متأصِّلة في تلقِّي العلوم الشرعيَّة — ٱصطبغ بها، إذ تربَّى في أحضانها وترعرع بين ذويها فنشأ على العقيدة، فإذا ما نظم كانت منبثَّة في شعره، فكلَّما جرت المناسبة إلى التَّعريج على ناحية دينيَّة ٱنصرف إليها وسار فيها وقد ٱختلف ٱنتقاله إلى النَّاحية الدينيَّة بصور شتَّى تظهر في شعره حسبما يبدو ممَّا ننقله منها موضِّحين ذلك الاختلاف.

ومن قصائده التي ظهرت فيها هذه الرُّوح قصيدته التي أنشدها في الحلبة الشعريَّة بمناسبة الختان الذي أقامه الأمير علي بن حسين كما تقدَّم ذكره.

وبرزت الرُّوح الدينيَّة في قصيدته المذكورة، برزت أوَّلا في مدحه للأمير المذكور، فوصفه بأنَّه جمع الدِّين والدُّنيا، إذ ذكر بعد نسبة الفخر إليه أنَّه من العلماء الصُّلحاء الذين لهم ملكة فقهيَّة تبرز المعاني الدَّقيقة كما جاء في الأبيات التي نقلناها سابقا، وممَّا جاء فيها[1]:

ولوعٌ بالشِّفاء وبالبخاري   وذكر الله جلَّ وبالقرآن
وبالفقه الذي ٱستخرجتَ منه   مَعَاني ليس يُدْرِكها مُعاني

فهذه الأوصاف التي وصف بها الأمير هي من أوصاف أهل الدِّين العلماء الذين يشتغلون بتلاوة القرآن المجيد، وسرد كتب الحديث الشَّريف ومنها البخاري، وبالعناية بالتعرُّف على الجانب النبويِّ وذلك بتلاوة الشِّفا، ثمَّ وصفه بالولع بالفقه والبراعة فيه، وبرزت الرُّوح الدينيَّة في الدُّعاء للأمير المذكور، إذ توسَّل بذات الله جلَّ وعلا مع صفاته وأوصافه تعالى وأسمائه، وتوجَّه بحقِّ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم، ذي المعجزات الباهرات وذكر منها ٱنشقاق القمر ونصرته بريح الصَّبا وتوفيره الطَّعام القليل وٱحتلاب الشَّاة التي لا تدرُّ لبنا، وتسبيح الحصى في كفِّه الكريمة إلى غير ذلك، توسَّل وتوجَّه لأن يحفظ الله الأمير من كلِّ سوء وأن يسدِّده وأن يطيل عمره وأن ينيله الخيرات وأن يصون أبناءه وٱبني أخيه، أمَّا أبناؤه فهم سليمان وحمُّودة ومحمَّد المأمون وعثمان، وأمَّا ٱبنا أخيه فمحمود وإسماعيل[2]:

بذاتك مع صفاتك يا إلهي   صفات المعنويَّة والمعاني
وأوصاف الجلالِ وكلِّ وصفٍ   يُنزَّه أن يُقاس بكلِّ فاني
وكلِّ ٱسمٍ عَلمْنَاه وما لمْ   قديم ليس يُحصرُ بالزَّمانِ
وحقِّ محمَّدٍ خير البَرايا   شفيعِ الخلقِ من إنسٍ وجانِ
من ٱبتهجت به الأكوان نورًا   وأشرقَ من سناه النيِّرانِ
له القمرُ المُنيرُ ٱنْشَقَّ قَطْعًا   على نصفين شُوهد بالعيانِ

1 الكتاب الباشي 146/1.
2 المرجع السابق 147/1-148 وديوان الطوير ص 85.

ومن ريحِ الصَّبا نَصَرَتْهُ حتَّى كَفَتْهُ عن المُهنَّد والسِّنان
ومن صار اليسيرُ به كثيرًا وفَاقُ المدُّ مملوءَ الجفان
بضرعِ الشَّاة مرَّ الكفُّ منه على يبسٍ فجادت باللِّبان
وسبَّحت الحصَى في الرَّاحِ منهُ وكلَّمَه الجمَادُ بلا لسان
وخاطَبَهُ الذِّراعُ بأنَّه قدْ حَوَى سُمًّا بقَصْد الامتحان
وعينَ قتادة قد ردَّ لمَّا بخدٍّ منه سَالت كَالجُمان
إليه شكا البَعيرُ بلا ٱمتراء وفي شكواه أفصحَ بالبيان
وحنَّ الجذعُ لمَّا نَاءَ عنْهُ كما باحَ المتيَّمُ بٱفْتتان
وجاءت نحوَه الأشجارُ تَسْعى وظُلِّلَ في الهَجيرَة بالغَمان
وبالرُّسل الكرامِ وكلِّ ملك له عند الإلهَ عَظيمُ شأْنَ
وحقِّ الآل والأصْحَاب طُرًّا لُيُوثَ الحَرْب في يوم الطِّعان
وحقِّ الصَّالحين بكلِّ قُطْر وجملة أولياءَ القيروان
أميرَ المؤمنين ٱحْفَظْهُ ممَّا يسوء وكُن له في كلِّ آن
وَسدِّده لما قد كان فيه صلاح الخلقِ من قاصٍ ودان
أَطلْ عُمرًا له في الخير وٱختم له بمنال خيرات حسان
وصُنْ أنجالَه النُّجباء ممَّا يُنغِّصُ من حوادثَ أو هوانَ
(سليمانَ) الرِّضا سَلِّمْ وسخِّرْ إليه الخلق من إنْسٍ وجان
أنل (حمُّوده) باشا المرتضى ما يَوَدُّ لهُ أبوه من الأَماني
وكن (لمحمَّد المأمون) ممَّا يحاذر من صروف وٱمتهان
و(عثمانَ) السَّرِيِّ أدم عُلاه بحقِّ الذِّكر والسَّبع المثاني
و(محمود وإسماعيل) حصِّن مَقَامَهُمَا المُرَفَّعَ بالقرآن
أعِذْ كمالَهم من كلِّ نقصٍ ومن عينِ الوَدُود أو المعان

إنَّ هذه القطعة هي في الحقيقة قصيدة، ووجودها في هذا القصيد بهذه الإفاضة يدلُّ دلالة واضحة على التشبُّع بالرُّوح الدينيَّة وسريانها في شعره سريانا ظاهرا، إذ أخذُها هذا المكان الفسيح من قصيدة في موضوع خاصٍّ

يرينا أنَّ النَّفَس الدينيَّ منبثٌّ في شعره لامتزاج نفسه به، فلو أنَّه أخلى شعره منه كان في نظره خاليا من ركن هو من أهمِّ الأركان للبناء الشعريِّ.

ثمَّ إنَّ هذا الأسلوب الذي طرقه الشَّاعر في آخر قصيدته من الأسلوب العادي في الدُّعاء للأمراء الذي يكون بالتوسُّلات لكونهم من ذوي الاعتقاد.

وقد خصَّ صلحاء القيروان لكونها بلده قبل كلِّ شيء، ثمَّ لما ٱمتازت به من ضمِّها لنخبة من العلماء والصلحاء.

ونجد هذه الرُّوح الدينيَّة منبثَّة في قصيدة أخرى له، وهي التي قالها في فتح وسلات كما تقدَّمت الإشارة إليه.

وهذه القصيدة من معلَّقاته، إذ تبلغ أبياتها 134 بيتا، وقد طرق فيها معاني دعا إليها ما يسمُّونه بفتح وسلات الذي هو في الحقيقة أحد الويلات، فوصف ممدوحه بالأوصاف الكريمة الجليلة، وممَّا وصفه به منها أنَّه من الذَّاكرين الله جلَّ جلاله، الذين تجول خواطرهم في الله تعالى[1]:

[البسيط]

لــــه لـــسانٌ بِـــذِكْرِ اللهِ عـــوَّدَهُ   وخَـــاطرٌ في جـــلال الله جـــوَّال

ودعاه إلى أن يصفه بهذا الوصف علاوة على الرُّوح الدينيَّة في شاعرنا أنَّ الأمير المذكور حقيقة كان من الذين يذكرون الله تعالى لأنَّه ليس كالأمراء الذين ينشؤون في طراوة العيش، فلا يحسُّون بضرورة الالتجاء إلى الله لأنَّه نشأ في شدَّة من الحياة أيَّام ٱنتزاع الملك من أبيه وٱنصرافه إلى ٱبن عمِّه الباشا علي، فهو وأخوه قد عاشا في ٱغتراب حين كانا فارِّين إلى الجزائر، فكانا يريان مُلك أبيهم يتمتَّع به المغتصب، وهما يقاسيان الغربة، وكانت تصل إليهما الأخبار بفتك الباشا بالأنصار، فكان الملجأ الذي يلجئان إليه هو الإنابة إلى الله تعالى، فحين عاد الملك كان هذا الممدوح بالخصوص على جانب من التَّقوى خشية الهزيمة وعود الدائرة عليه.

1 الكتاب الباشي 92/1 والديوان ص 67.

لكن إبراز هذا المعنى بكثرة – وهو ذكر الله – يدلّ على أنّ الشّاعر ذو روح دينيّة، فهو يُكبِر في ممدوحه هذه الظّاهرة وهي ذكر الله تعالى، فعنده أنّه من الأمور التي ينبغي الاعتناء بها، وإن كان ذكر الله من صفات المسلم النّاشيء على الطّاعة، فالمدح به من المدح بالأمر الضّروري غير أنّ الشّاعر يرى أنّ الذّكر ينبغي أن ينظر إليه بغير النّظرة هذه، وهي أنّه أمر ضروريٌّ لا يمدح عليه، بل يراه ممّا يجب أن يمدح عليه صاحبه وينوّه به في صفاته.

وقد ظهرت النّاحية الدينيّة في شاعرنا في هذه القصيدة مختلفة عمّا هي في القصيدة السّابقة، فلم يطل النّفس في ناحية خاصّة، بل كان يعرّج على الجانب الدينيّ تعريجا يتصرّف فيه تصرّف من يحسن القول، وإن كان في بعض النُّقط منتقدا عليه إلاّ أنّ هذا الانتقاد ليس منصبًّا على الصُّورة التي ظهرت فيها الرُّوح الدينيّة وإنّما الانتقاد لتناقض بين الدِّين وما ذكره من أحداث.

وجرَّ التّعريج على المعنى الدينيِّ ردُّه على أعداء الأمير الذين قالوا أنّ هذا الأمير وحيد، فردَّ عليهم بأنّه ليس وحيدا لأنّ الله ناصره وسوف يجعل له من أبنائه أعضادا:

قالوا: (وحيد) فقلنا: "الله ناصره وسوف يعضُدُه بالله أنجالُ"[1]

وإنّما قال الأعداء إنّه وحيد لأنّ الباشا عدوُّ بيت ممدوحه كان يعتضد بأبنائه، وبالأخصِّ ٱبنه يونس الذي قتل عمَّه حسينا بعد حصار القيروان، والممدوح كان يصارع أعداءه بأعضاده دون أبنائه فنبزوه بالوحدة فتصدّى شاعرنا لدحض كلامهم بأنّ الله معه وسيجعل له في المستقبل من أبنائه أعضادا.

وعرَّج كذلك على معنى دينيٍّ لمناسبة أخرى وهي مناسبة لها قيمتها، وهي أنّ الممدوح يخشى الله فلم يقتحم على أهل وسلات معقلهم خشية أن تباح لهؤلاء المعتصمين به نساؤهم وأطفالهم، ولذلك سلّم الأمر لله تعالى

---

1 الكتاب الباشي 95/1 والديوان ص 69.

فأبقاهم على عصيانهم و لم يهاجمهم لأنَّ الأمور مؤقَّتة بأوقاتها، ثمَّ قال بعد ذلك: لكنَّه حاصرهم وقاتلهم بالجوع، وقد أطنب في تأثير الجوع فيهم حتَّى ألجأهم إلى النُّزول من معقلهم وتوغَّل في هذا المعنى فأظهر الشَّماتة بهؤلاء المحاصرين حيث تبدَّد شملهم وأصبح العدد العديد منهم فريسة للسِّباع تقطع أوصالهم وتأكل لحومهم[1]:

[البسيط]

يخشى الإله ويخشى أن تُباحَ لَهم ... يومَ الكريهة نسوانٌ وأطفالُ
فسلَّم الأمر للمَولى وأهملَهم[2] ... إذ للأُمُور مواقيتٌ وآجالُ
بالحَصر قابلَهم بالجوع قاتلَهم ... والجوعُ للجَمع مُجتاحٌ ومقتالُ
دعا أبا مَالك فٱحتلَّ ساحتَهُمْ ... لأنَّه لقِوى الأقوامِ حلَّالُ

في تاج العروس[3]: "ومن المجاز ٱعتراه أبو مالك وهو كنية الجوع، قال الشَّاعر:

أبو مالك يعتادنا في الظَّهائر ... يجيء فيلقى رحلَه عند عامر"

ومن أبو مالك دبَّت سُلافَتُهُ ... فيه تقطَّعُ أمعاءٍ وأوصالُ
إذا تخلَّل جُثمانًا وهي خَللاً ... وليس ينفعه قَبضٌ وإسهالُ

إنَّ هذا البيت الأخير على غاية من سخافة المعنى، إذ معناه أنَّ من أصابه الجوع وهى جسمه فليس ينفعه جريان البطن أو إمساكه، ويا ليت الشَّاعر ٱستغنى عن هذا البيت السَّخيف وكفى أسماعنا من تلقِّي الإسهالَ والقبضَ.

وتطرَّق في هذه القصيدة إلى معنى ٱعتقاديٍّ وهو أنَّ حسن النيَّة يتغلَّب على الحيل، ويكفي صاحبه مؤنة التحيُّل، فلهذا ٱستعان ممدوحه بحسن نيَّته حتَّى نزل الخارجون المعتصمون بمعقلهم فأصبحوا في قبضته، وسيقت رؤوسهم إليه، وهذا المعنى تتمَّة للمعنى السَّابق[4]:

---

1 الكتاب الباشي 96/1 والديوان ص 70

2 جاءت في الديوان أمهلهم.

3 تاج العروس، باب العين فصل الخاء، 310/5.

4 الكتاب الباشي 96/1-97 والديوان ص 70.

يا أيُّها المَلكُ المَــأْمُونُ نيَّتكُـــــم تغتالُ من بـــشباك المكـــر يحتـــالُ
تخيَّلوا الشُمَّ من وسْـــلاتَ تَعـــصمُهُمْ وكيف يَعْصُم ممَّا َحُـــمَّ أجبـــالُ
وٱصـــعدوا في ذُراهـــا ثمَّ أرهقَهُـــم إلى النَّوازل والأخطـــار إنـــــزالُ
زهاءُ ستِّمئين للـــرَّدى نزلـــوا والحيفُ للحتف دعَّـــاءٌ ونَـــزَّالُ
فَعُصْبَةٌ هامُها بالقُضْب قـــد قـــضبت وسيقَ منـــها إلى عليـــاكَ أحمـــالُ
جُسُومُها لسباعِ الوحشِ قـــد تُركـــت ولائمًا فعليهـــا الطَّـــير تنهـــالُ
وزمرةٌ في شِبَاكِ البغي قـــد عَلقَـــت فساقَها، ولهـــا في الـــسّوق أكبـــالُ

تركَّزت الرُّوح الدينيَّة في شعره آخر القصيدة المتحدَّث عنها في الإشادة بعفو الممدوح وعدله، فهو مخصوص من بين الملوك حتَّى الأوَّل منهم، فإنَّـــه متمتِّع دونهم بالعفو والعدل والحلم، فقد أعطاه الله ما لم يعط أحدا غيره.

وتركَّزت في التَّذكير بنعم الله على هذا الممدوح حتَّى أنَّه تمكَّـــن مـــن التغلُّب على أعدائه الثَّائرين الذين أعدُّوا الجحافل، وٱستعدُّوا للغلبة، وحصل له ذلك بإعانة من الله.

وفي الإطناب في مدحه حيث غلب العفو على الانتقام، وأعرض عن قول القائلين النَّاصحين الذين يرون العفو من الخور لأنَّه ينبئ عن الضُّعف.

ولم يقصِّر شاعرنا بالتَّذكير الدينيِّ إذ أشار إلى ثناء الله جلَّ وعلا في كتابه الكريم على العافي حيث عدَّ الله تعالى العفو أقرب للتَّقوى، وأعدَّ الثَّـــواب الجزيل للمتَّقين، وفي ضمنهم من كظم الغيظ، ومن عفا عن النَّاس، حيـــث قال تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[1] ، وقال تعالى: ﴿وَالكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾[2].

وكما نبَّه على ثناء القرآن على العفو نبَّه على ما جاء في الحديث مـــن قوله صلَّى الله عليه وسلَّم: "الرَّاحمون يرحمهم الرَّحمان تبارك وتعالى، ٱرحموا من في الأرض يرحمكم من في السَّماء".

1 سورة البقرة، الآية 237.
2 سورة آل عمران، الآية 134.

وهذا الحديث أخرجه أبو داود والتِّرمذي وغيرهما، وهو حديث له صفة التَّسلسل بالأوليَّة أي أنَّه أوَّل حديث يتلقَّاه الرَّاوي عمَّن يروي عنه.

ثمَّ إنَّ ما ذكره المترجم من إعراض الأمير عن قول الذين كانوا يرون العفو ضعفا يدلُّ على أنَّ في بلاط الأمير فريقين أحدهما لا يرى إلاَّ الانتقام لأنَّ فيه حسم الدَّاء، والآخر يميل إلى العفو ومنهم المترجَم الذي جعل خاتمة قصيدته في العفو لأنَّ الخواتم هي التي تبقى في الأذهان.

وعزَّز هذا الأمير عفوه بعفو آخر، وهو أنَّه في ٱنتهاء حصار وسلات حصلت له منقبة نوَّه بها التَّنويه اللاَّئق المؤرِّخ التُّونسي الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف، وتتمثَّل هذه المنقبة في أنَّ الأمير المذكور بعد فرار إسماعيل حفيد الباشا ونزول أهل وسلات على حكم الأمير جيء له بخريطة مملوءة بالمكاتيب التي دارت بين الباشا وشيعته فأمر بإحراقها ذاكرا أنَّ الاطِّلاع عليها يؤدِّي لأحد أمرين: إمَّا عقاب الذين كاتبوه، وفي ذلك ٱنتقام، والعفو من شيم الكرام، وإمَّا الإغضاء عمَّا صنعوه وفي ذلك تجرئة لهم على إعادة الكرَّة ثمَّ إنَّ النَّفس تبقى ناظرة إليهم بعين الانتقام فالأحسن والأليق أن تعدم هذه المكاتيب حتَّى تطوى صفحة القضيَّة[1].

هذا ما صنعه وقاله الأمير المذكور كما حكاه المؤرِّخ ٱبن أبي الضِّياف ثمَّ ذكر المؤرِّخ المذكور أنَّ هذا الصَّنيع كان سببا في ميل القلوب لصاحب هذه المنقبة، وزوال المرض الذي بها.

ورأى المؤرِّخ المذكور أنَّ هذا الصَّنيع "من حزم صانعه وحلمه، وبُعْدِ غوره في السِّياسة، والتضلَّع بأخلاق الرئاسة، والتحبُّب إلى النَّاس".

وعدَّه من الصَّنائع القليلة في المغرب لأنَّها "لا تصدر إلاَّ ممَّن غلب هواه وقليل ما هم".

ثمَّ إنَّ شاعرنا ذيَّل المدح على العفو والتَّحريض عليه بحمد الله المنفرد بالتفضُّل على ممدوحه الذي وفَّقه لهذه المنقبة فلم تنله مأثمة بسبب خروج

---

1 الإتحاف 164/2.

هؤلاء البغاة مع حفيد الباشا حتَّى أنَّ ما نالهم لم يكن بغيا وعدوانا لأنَّهم بغُوا وٱعتدوا، وقد جرُّوه لأنفسهم.

وجاء بكلِّ هذا في القالب الشعريِّ السَّائغ[1].

[البسيط]

جلَّ المهيمنُ من أحكامه خفيف ... عن أن يُحيطَ بها الأذهانُ والبالُ
وأنتَ أعطاك ما لم يعطه أحدًا ... من الملوك الأولَى في مجْدهم غَالَوا
حلْمٌ وعَدْلٌ وعفوٌ بعد مَقدرة ... وعفّةٌ وسعادات وإقبالُ
هُم بالجحَافلِ قد صَالوا وقد غُلبوا ... وأنت بالله غلاَّبُ وصوَّالُ
ويمنعون أَوداَّهُم رغائبهم ... وأنت في الله للأعداء بذَّالُ
والنَّاس يبغون منك البطش مُنتقمًا ... وأنت في العفو رغَّاب وميَّالُ
الجَورَ رامُوا وقالوا عندكم خورٌ ... وأنت تَتْركُ ما راموا وما قالوا
الله أثنى على العافي وأنتَ لمَا ... أثنى المهيمنُ قفَّاءٌ وفعَّالُ
والرَّاحمون لمن في الأرض يرحمهم ... من في السَّماء بذا قد صحَّ أنقالُ
حاشاك حاشاك أن تُثْني عقوبتَهم ... فحَسبُهم من عقاب الله مَا نَالوا
العفوُ شيمتُكم والحلمُ حلْيتُكم ... والخيرُ بغيتُكم والقَومُ جهَّالُ
وأنت في الأرض ظلُّ اللهَ منبسطٌ ... على الأنام لكم بالعدل أظلالُ
والحمد لله لا فضلٌ عليك سوَى ... لله، فهو له مَنٌّ وأفضَالُ
والحمد لله ما نَالَتْك مأثَمةٌ ... منهم فهم حاولوا بغيا، وهم صالوا
هم الذين جَنَوْا، هم الذين جَلَوْا ... وللشِّقاق بهمْ بدءٌ وإكمالُ
والله يُوليك تأييدًا فأنت إلى ... عباده بعظيم النُّصح لم تالُو
أسنى الصَّلاة مقامًا والسَّلام على ... خَير الأنام يليه الصَّحبُ والآلُ

وإذا نظرنا بعد المدح البالغ لكفو الأمير علي بن حسين إلى ما يقوله النقَّادة التَّاريخي ٱبن أبي الضِّياف نجده في مدح هذه المنقبة في العفو وعدِّها من النوادر في المغرب كما تقدَّم لكنَّه ٱنتقدها من ناحية أخرى.

---

1 الكتاب الباشي 1/101-102 والديوان ص 74.

وقبل أن نذكر نقد ٱبن أبي الضِّياف نتساءل لماذا خصَّ المغـرب بعـدم العفو دون المشرق مع أنَّ شدَّة الانتقام غير خاصَّة بالمغرب، فما صنعه الأمير المذكور بمكاتيب شيعة إسماعيل بن يونس إن كانت نادرة من نوادار الـدَّهر فهي كذلك في المغرب والمشرق سواء.

وأمَّا نقده فإنَّه قد أخذ على الأمير المذكور إخلاءه لجبل وسلات مـن أهله، وتشريدهم في القرى والبلدان[1].

وبنى ٱنتقاده هذا على ناحية ٱقتصاديَّة، وهي أنَّ الإخلاء أعـدم الـبلاد مزارع وأشجارا وهي نظرة ٱقتصاديَّة لها بالغ الأهميَّة.

ويرى الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف أنَّه كان يمكن للأمير المذكور أن يقطـع شغب أهل وسلات بتكليف أهله تسهيل الطَّريق حتَّى يتمكَّن الجند منـه، وبذلك يزول ٱعتصامهم به أو بتكليفهم بناء قلعة تكون تركيزا للقوَّة.

وما أبداه الشَّيخ ٱبن أبي الضِّياف خفي على شاعرنا حتَّى مدح الأمـير المذكور على تشريدٍ أهل وسلات[2]:

جلُوا حفـاةً عـراةً مـن مـساكنِهِمْ   لمَّا جَنَـوْا ولهُـمْ في البَيْـدِ وَلْـوَالُ

داعية العفو

نسجِّل للمترجَم منقبة جلَّى، وهي أنَّه كان من الشقِّ الذي يـدعو إلى الحلم في بلاط الأمير ممدوحه، وكنَّا أشرنا إليه إجمالا، والآن نفصِّلْه حتَّـى نعلم أنَّ الدَّعوة إلى الخير لم تنقطع في الأزمنة الحالكة، وكي يتبيَّن ما صنعه المترجَم في أثناء تلك الفتن التي دارت بين أفراد من العائلة المالكة، وما قام به من صنيع يذكره له التَّاريخ، لأنَّه كان يعيش في عصر خربت فيـه الـذمم وٱنقادت بزمام المنافع وأصبحت أسيرها، وقد كانت له في هـذا الـصَّدد مواقف مشكورة إمَّا في مجلس الأمير، وإمَّا في شعره.

---

1 الإتحاف 164/2.

2 الكتاب الباشي 98/1.

فممَّا أبداه من موقف محمود في مجلس الأمير ما حكاه عنه ٱبـــن عبـــد العزيز في تاريخه، ونحن نفصِّل القول فيما دار في هذا المجلس حتَّى نرى سمو ما كان يدور في بعض تلك المجالس المنعقدة بإشراف بعض الأمراء من بحوث علميَّة وأخلاقيَّة.

ذكر ٱبن عبد العزيز في فصل الحلم الأمير علي بن حسين وكظمه الغيظ وعفوه أنَّه حضر ذات ليلة مجلس الأمير المذكور، وكان فيه القاضي منصور المنزلي قاضي باردو فتحدث الأمير عن نفسه فقال:

"أنا لا أغضب والحمد لله"، فصدر عن القاضي منصور المنزلي قوله: "من ٱستغضب ولم يغضب؟" فأثَّر ذلك في نفس الأمير فقال له: "أيَّها الشَّيخ أنا حمار لأنَّ المقولة المذكورة نصُّها كما في الإحياء: من ٱستغضِب ولم يغضَب فهو حمارٌ".

وٱستنطق الأمير الحاضرين في هذه المقالة فأنقذ المترجَم الطوير الموقف في حنكة وإرشاد، فذكر أنَّ الوارد عن النَّبي صلَّى الله عليه وسلَّم مَـــا ذكـــره قاضي باردو إذ أجاب من قال: "يا رسول الله مُرني بعمل وأقلل"، فقال له "لاتغضب" ثمَّ أعاد عليه، فقال له "لا تغضب".[1]

وما ذكره المترجَم هو حديث صحيح رواه الأئمَّة، ومن رواه منهم الإمام أحمد في مسنده والحافظ البخاري في صحيحه، والتِّرمذي في جامعه، وكلُّهم رووه عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهذا الحديث يفيد أنَّ الإنسان مـــأمور بأن لا يفعل ما يأمره به الغضب، فلا يحمله ذلك على الإنكاء بغيره، وحتَّى إذا ما أدركه الغضب تنسى نفسه عمَّا يأمره به، وغفر لمن أساء إليه كما قال تعالى ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾[2].

1 صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، 2267/5.
2 سورة الشورى، الآية 42.

والسَّائل للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم أن يوصيه موجزا فأجابه بترك الغضب هو جارية ٱبن قدامة السَّعدي.

وفي الحقيقة أنَّ الغضب يجمع الشرَّ كلَّه، فلذلك نَهى النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم عنه وأكَّد في ذلك، فما ردَّ به قاضي باردو مخالف للنصِّ الشرعيِّ.

وإنقاذ المترجَم الموقف بهذا الحديث علاوة على إصابة المرمى والدَّلالة على الاطِّلاع على الحديث الصَّحيح فيه إشارة لطيفة للأمير حتَّى لا ينتقم من قاضي باردو لما صدر عنه، وهي أنَّه لا يغضب عليه كما أمر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم، فهو في آن واحد كان رادًّا على قاضي باردو ومحسنا إليه غاية الإحسان، وما أتى به هو الأليق في ذلك المقام لأنَّ الأمراء إذا لم يقع إرشادهم إلى عدم الغضب بدعوتهم إلى الحكم بدرت منهم البوادر السيِّئة الحاملة على الانتقام، وٱنتقامهم ليس له حدٌّ لأنَّهم يتصرَّفون بإطلاق، وإذا ما قارنَّا بين ما تكلَّم به الطوير في هذا المجلس، وما تكلَّم به ٱبن عبد العزيز من تحرير ما ورد في قول القائل من ٱستغضب و لم يغضب فهو حمار، من أنَّه ليس حديثا، وإنَّما هو من قول الشَّافعي كما ذكره الغزالي وليس هو على إطلاقه بل المقصود منه فقدان الحميَّة، وعدم الغيرة على الحرم، نجد أنَّ الطوير قد أراد أن يحقِّق ما قاله الأمير عن نفسه فلا يغضب رغم خشونة قول قاضي باردو، وبذلك يطابق الفعل القول.

ثمَّ إنَّ ما أشار إليه ٱبن عبد العزيز هو إجمال ما بسطه الغزالي في كتابه "الإحياء" في فصل بيان حقيقة الغضب، حيث ذكر أنَّ النَّاس في القوَّة الغضبيَّة على ثلاث درجات، وهي التَّفريط والإفراط والاعتدال.[1]

وحقَّق الإمام الغزالي أنَّ ما قاله الشَّافعي إنَّما هو في التَّفريط، وهو فقدان القوَّة الغضبيَّة حتَّى يؤدِّي ذلك إلى فقدان الحميَّة فيصبح المرء فاقدا لروح الدِّفاع عن الذِّمار وخاليا من أسباب الكرامة والأنفة.

1 بيان إحياء الدين 9/92-96.

وكان ٱبن عبد العزيز أراد أن يكون وسطا بين قاضي باردو وبين الطوير فالأوَّل ينتقد على من لم يغضب، والثَّاني يذهب إلى حدٍّ بعيد في نفي الغضب، فهو يريد الاعتدال بين التَّفريط في الحميَّة والتهوُّر في الغضب، معتمدا ما أشار إليه الغزالي في إحيائه.

وهذا الموقف من المترجَم يزيدنا إكبارا له لأنَّه يجب أن يزيد في غرس روح محبَّة العفو في نفس الأمير حيث أيَّد ما في نفسه بالحديث المتقدِّم.

ثمَّ إنَّ ما ذهب إليه تحقيق لوصيَّة النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم فإنَّه عليه الصَّلاة والسَّلام قد حذَّر من الغضب، وهذا هو واجب العالم العامل إذا جالس الأمراء أن ينبِّههم إلى إمساك عواطفهم في مواطن هيجان القوَّة النفسيَّة.

وأمَّا مواقف المترجَم الشعريَّة في الدَّعوة إلى العفو والإشادة بخُلق ممدوحه في الحلم فقد تقدَّم بعض منه في تحليل الرُّوح الدينيَّة في شعره، وليس موقفه الشعريُّ مقصورا على ما تقدَّم بل ٱلتزم ذلك في كثير من قصائده حتَّى كان هذا الموقف من خصائصها.

ومن ذلك ما أنشده ضمن قصيدته التي هنَّأه فيها بعيد الإضحى[1]:

[الخفيف]

مأمنُ الخائفِ المروعِ ويخشا ... ه لدى الحرب كلُّ شاكي السِّلاحِ

العديمُ النَّظير عفوًا وحلمًا ... والعطوف الصَّفوح لا في السِّفاحِ

يقتل الماكرَ المخادعَ بالعفـ ... ـو وبالصَّفح لا ببيض الصِّفاحِ

ليس يرضيه أن تكون أعاديـ ... ـه بوجه الصَّعيد مثل الأضاحي

بل يرضيه منهُم الجزمُ بالسِّلم ... ورفعِ الأذى وخفضِ الجناحِ

كلُّ هذا تنزُّهٌ عن دماء ... سفكُها بالصِّفاح غير مباحِ

نالَ منه الأنامُ نيلَ الأماني ... وأمانَ الأشباحِ والأرواحِ

---

1 الديوان ص 36.

ولا يبعد أنَّه يقصد بقوله (ليس يرضيه، البيت) التَّعريض بما فعله المنصور الموحِّدي مع أهل قفصة، فإنَّه جلس بمجلسه بعد فتحها وأمر بالأسرى المثقَّفين بذبحهم، وكان الأعمى الفهمي حاضرا فطلب أن يسمح له بشخص منهم يتولَّى ذبحه فلمَّا أضجع له طلب يسيرا من الملح والصَّعتر كما تفعله العامَّة بالضَّحايا.

قال التجاني في رحلته "فأضحك بهذا الفعل المبكي جميع من حضر"،[1] فلعلَّ الطوير آسفه ما وقع بحضرة المنصور الموحِّدي فأكبر ما صنعه ممدوحه من العفو، حتَّى أنَّه لم يضحِّ بهم كما ضحَّى المنصور بأسراه، وعلى كلٍّ سواء قصد المعنى التَّاريخي أو لم يقصده فإنَّه أصاب في الردِّ على تلك الحادثة المضحكة المبكية لما فيها من تهاون بالأرواح البشريَّة.

في ختم البخاري

جرت سنَّة حميدة في تونس وهي أن يختم بدروس خاصَّة المعتنون بالحديث من كتاب الجامع الصَّحيح للبخاري كلَّ سنة، ويكون الختم في شهر رمضان إمَّا بمسجد أو مدرسة.

ويسبق تلك الدُّروس قراءة البخاري رواية وقد يكون دراية، ويوم الختم يلقي القارئ للبخاري دروسا في باب من أبوابه يحتفل به غاية الاحتفال، ويحضره الكثير من أهل العلم وغيرهم، وتجري المناقشات حول الموضوع وتدور البحوث في ذلك الدَّرس ويقام في كلِّ يوم من النِّصف الأخير من رمضان درس بعد صلاة العصر، وكان ذلك رياضة دينيَّة للكثير.

ونشأت هذه السنَّة بناء على أنَّ القارئ يقرأ البخاري بٱسترسال كما تقدَّم إمَّا طوال السَّنة وإمَّا في رجب وشعبان خاصَّة، ولكن بعد ذلك ٱقتصر أهل الأختام على إلقاء الدَّرس خاصَّة دون الاسترسال في قراءة البخاري.

---

1 رحلة التجاني، ص138.

وهذه الدُّروس كانت بمثابة محاضرات علميَّة دينيَّة، وعوض أن تكون في قاعات كانت إمَّا في المساجد العامَّة أو مساجد المدارس حتَّى أنَّ بعضها يحضره الأمراء وبالأخصِّ جامع الزَّيتونة.

وقد خصَّ ٱبن أبي دينار الحديث عن تعظيم أهل الحضرة تونس تختم البخاري بفصل خاصٍّ، وهو الفصل الرَّابع من الخاتمة الذي ختم به الكتاب، وذكر أنَّ والده أبا القاسم ألَّف في ذلك تصنيفا سمَّاه "تأهب الرَّاوي الفصيح لفتح الجامع الصحيح".

وذكر بن أبي دينار في مؤنسه أوَّل الفصل المذكور ما يأتي "ولهم — أي أهل الحضرة تونس — ٱهتمام عظيم، يحتفل الشَّيخ لذلك اليوم غاية الاحتفال، ولهم أماكن معلومة، وأيَّام معدودة بحيث يكون يوم في المسجد الفلاني عند الشَّيخ فلان، فتهرع النَّاس إلى محلِّه، وتوقد الشُّموع، وتسرج القناديل، ويبخَّر المكان بأنواع الطِّيب".

وهذه العادة التي كانت تجري في المساجد وبعض المدارس تجري في بعض القصور أو البيوت، وممَّن له مواظبة على ذلك كلَّ سنة الأمير علي باي تبعا لما كان عليه أبوه من ختم البخاري كلَّ سنة على صورة ذكرها ٱبن عبد العزيز في تاريخه.

وكان الشُّعراء ينشدون بمناسبة ختم البخاري في قصره قصائد، ومن هؤلاء المنشدين ٱختار ٱبن عبد العزيز جماعة، وهم الورغي والطوير وسميَّة وللأخير ثلاثة إنشادات بين قصيد ومقطعة، والمترجَم على عادته قصيدته أطول من شعر صاحبيه فبينما قصيدة الورغي تبلغ (19) بيتا بلغت قصيدة الطوير (48) بيتا وسميَّة على عادته لا يطيل.

وقصيدة المترجَم وإن كانت من النَّاحية الشعريَّة دون قصيدة الورغي فهي ذات مزايا تاريخيَّة من ذلك أنَّه بعد أن مدح حديث المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم في أبيات تسعة تعرَّض لكتاب البخاري وما ٱختصَّ به من أنَّ

تراجمه فيها فقه الحديث، وما جرى به عمل أهل تونس من قراءة البخـــاري في الجدب طلبا للغيث.

وكذلك أشار إلى الاحتفال بختمه وما كان عليه الأمير المذكور من إدامة ختمه كلَّ عام، وأنَّه يقرأ أسفارا، وذلك بأن يجزَّأ الكتاب أجزاء عدَّة، وحين يراد ختمه في جلسة واحدة، يعطى كلَّ واحد من الحاضرين جزءا يتلو فيه، وبذلك يتمُّ الختم في تلك الجلسة، وهذا كما هو معروف في ختم القرآن، أو يُختم البخاري على الصُّورة التي ذكرها ٱبن عبد العزيز كما سيأتي.

وقصيدة المترجَم التي قالها في هذه المناسبة لسنا نرى أهي في السَّنة الـــتي أنشد فيها سميَّة إحدى قصائده، وهي سنة 1175هـــ أو هي في غيرها، لأنَّ المترجَم لا يذكر التَّاريخ في آخر قصائده بخلاف سميَّة فإنَّ له عناية بالتَّاريخ.

ثمَّ إنَّ المترجَم خصَّص نصف القصيدة بمدح الأمير المذكور، وجـــرى في مدحه على عادته من وصف ممدوحه بالرِّفق بالرعيَّة والحنان والعفو، ثمَّ يطيل في الدُّعاءِ للممدوح مع التوسُّل، وذلك بأن يقبل الله صيامه، وأن يعتقه من النَّار، وأن يسبل عليه ستره بمثل ما تدعو به العامَّة، وهنا يخرج عن دائـــرة الشِّعر، ويصبح ناظما لما يدعو به الدَّاعون للأمراء، ولو قايس الواقف علـــى شعره، وعلى شعر سميَّة في الدُّعاء عند ختم القصيد لوجد سميَّة يمثِّل الشاعريَّة بخلاف المترجَم.

ولهذا ٱخترت من شعره في هذه المناسبة نصف القـــصيد الأوَّل حيـــث ٱختصَّ بهذا الموضوع، مع أنَّه لا تكرار فيه كما في المدح حيث يلـــوك مـــا يقوله في قصائده المدحيَّة، ولا إسفاف فيه كما في الدُّعاء الذي أطال فيه بما تقدَّم.

وهذا المختار من القصيدة المذكورة[1]:

---

1 الكتاب الباشي 215/1، والديوان ص 56.

[الوافر]

حديثُ المصطفى المختارِ نورٌ ... به يهدَى وتنشرحُ الصُّدورُ
إذا نرويه يروينا فنحيا ... وتكتسبُ المحامدُ والأجورُ
لقارئه ومُقرئه قصورٌ ... إذا وصفَ اللِّسان له قصورُ
يزيدُ تأنُّسًا ويزيل وحشًا ... إذا بالوحش أظلمت القبورُ
يسكِّن روعةً وينيل أمنًا ... إذا بالخوف أفئدةٌ تطيرُ
ويُوردُ كوثرًا للحوض عذبًا ... إذا كان القيامة والنشورُ
يحيطُ عن النُّفوس إذا دهتها ... ملمَّات وينْجَبرُ الكسيرُ
ويحميها من الأغيار طرًّا ... كما يحمي عن الحرمِ الغيورُ
وفيه صنَّف الفضلاء كتبًا ... بها حقًّا تزيَّنت العصورُ
خصوصًا جامع السُّنن البخاري ... إمام السنَّة العلم الكبيرُ
فقد جُمعَت بجامعه مزايا ... لها قد أذعنَ الجمُّ الغفيرُ
تراجمه تَترجمُ عن معانٍ ... يحارُ لفهمها الحبرُ الكبيرُ
وأبوابٌ بداخلها قصورٌ ... مشيَّدةٌ وولدانٌ وحورُ
فآثار الرَّسول بها تجلَّى ... كواكبٌ أو شموسٌ أو بدورُ
إذا في الجدب والإمحال يروي ... تصوَّب للورى المطرُ الغزيرُ
ومهما شدَّة نزلت بقومٍ ... فإن قرؤوه تنكشف الشُّرورُ
به من كلِّ ما مرضٍ شفاءٌ ... وموعظة تَلين لها الصُّخورُ
به اهتبل الورى غربًا وشرقًا ... وقلقل بالرِّكاب له المسيرُ
وساد بنفعه أمراء سادوا ... خصوصًا منهم المولى الأميرُ
أبو الحسن الرضا الباشا علي ... هو ابن حسين الملك الشَّهيرُ
أدام على قراءته فأضحت ... عليه حلى محاسنها تدورُ
تروي من روايته مليًّا ... كما يروي الصَّدى الماء النَّميرُ
تسنَّم من دراسته مقامًا ... تخرُّ لبعده الشعري العبورُ
مجالسه يزيِّنها البخاري ... فتشرف لا الجواهر والحريرُ
وأسفار له تجلَّى بها لا ... معتقه يطوف بها المديرُ
ووصل ختامه في كلِّ عامٍ ... به قد هام لا الرَّشأ الغريرُ

والصُّورة التي ذكرها ابن عبد العزيز في تاريخه لرواية البخاري، هي أن يروي البخاري إمام الخمس، ويحضره من العلماء من تكون نوبته تلك

اللَّيلة، ويكون ذلك بحضرة الأمير وختم البخاري يكون في كلِّ عـــام ليلـــة سبع وعشرين من رمضان، وحين الختم يشرع في أخرى، والأقرب أنَّه أشار إلى هذه الصُّورة من الختم.

تحليل وٱنتقاء

ٱنحصر أدب الطوير فيما قاله في الأمير علي باي الثَّاني إلاَّ القليل النَّـــادر الذي لا يعدُّ فإنَّه كان في غيره، والمدح وإن كان ديدن الشُّعراء المتقدِّمين لم يلتزموه ٱلتزاما لا يخرجون عنه، فهذه دواوين الشُّعراء المشتهرين بالمـــدح لم تخل من غيره، فكانت أغراضها متنوِّعة، ورغم قلَّتها بالنِّسبة للمدح هي تحتلُّ مكانا لائقا.

أمَّا الطوير فالمدح ٱستحوذ على شعره وأنساه غيره، فلهذا ما دار بحثنا إلاَّ في هذه الدَّائرة الخاصَّة، وكما ٱستحوذ المدح على شعره ٱستحوذ على أكثر نشره الأدبي، وقبل أن نبحث في رسالة له وجَّه بها إلى ممدوحه نذكر سبب ٱنصرافه الكلِّي إلى المدح.

يبدو أنَّ سبب ذلك يرجع إلى أنَّ المترجَم لم يكن الأدب عنوانه الخاصَّ، ولا صناعته الأصليَّة، بل كان من العلماء الطَّامحين إلى الوظائف الـــشرعيَّة، وفعلا وصل إلى مآربه وتولَّى الخطط الشرعيَّة، فتولَّى القضاء بمدينة القيروان إلى أن وصل إلى أعلى خطة شرعيَّة وهي رئاسة الفتوى هناك، فالأدب عنده ليس غاية وإنَّما هو وسيلة لإرضاء طموحه والتقرُّب إلى الأمير حتَّى يتمكَّن من وظيفته السَّامية التي وصل إليها ويطول بقاؤه فيها، ثمَّ ليكون بالنِّـــسبة لبقيَّة أعضاء مجلسه الشرعيِّ نافذ الكلمة مهاب الجانب غير مطموع في النَّيل منه.

وليس الأدب عنده وسيلة إلى الوظيفة فحسب، بل وسيلة إلى غايـــات أخرى منها نيل العطايا من الفضَّة والذَّهب فهو عنده مطيَّـــة مـــن المطايـــا يركبها لأيِّ غرض أراده، فداعي الأدب عنده مقصور على ما يرمي إليه فلا

يقرض الشِّعر لبواعث نفسيَّة ولا يكتب النَّثر لدوافع مرموقة بل يقرض وينثر حسبما تكيِّفه مطامحه، وبالطَّبع أن تضيق الوجهة وتتَّجه إلى مقصد واحد.

ويبرز حبُّه الاستفادة من أدبه أنَّه في رسالته الآتية يذكر أنَّ حضرة الأمير قد ٱتَّخذها أصحاب الأوطار أوطانا، فيغدون خماصا ويروحون بطانا، فحين يأتون إلى حضرته يأتون جياعا وحين يرجعون منها يرجعون شباعا.

فهذا لسان حال ناطق بأنَّ ما ينثره وما يقرضه من الشِّعر إنَّما كلُّ ذلك لهذه الغاية وهي الاستفادة من النَّوال وتحسين الحال.

ثمَّ لم يكتف بما تقدَّم بل ورَّى بٱسمه الطوير فبيَّن أنَّه لا غرابة أن خفق جناح الطوير لهذه الحضرة، ولأيِّ شيء خفقانه لها في هذه الغاية.

وترمي في هذه الرِّسالة من التَّلويح إلى التَّصريح بأنَّها حضرة يانعة بالذَّهب والفضَّة حين يقول: "وربيع حضرة مولانا دائم الأيَّام وروضتها زاهرة الأزهار يانعة الثِّمار باللُّجين والنظار"، وأعاد ذلك مرَّة أخرى، "ومن مؤانسته... نستفيد منها الأدب... والفضَّة والذَّهب".

وهذه الرِّسالة أرسلها من القيروان، في أواخر شهر رمضان متشوِّقا إلى مجالس الأمير التي كانت تدور فيها الطرائف الرَّشيقة، ويتبادل فيها الفكاهة، ويجتمع فيها علماء تونس مسامرين ومذاكرين في المسائل العلميَّة يحلُّون عويصها ويبدون غرائبها.

وقد ٱبتدأها بتحليات للممدوح أطال فيها قرابة صفحتين، والمهمُّ منها ما عبَّر به عن تطلُّعه لتلك اللَّيالي السحريَّة، وختمها بالتَّهنئة بعيد الفطر، وضمَّنها نثرا وشعرا، ومن نثره فيها[1]:

"سيدي: الأطيار إنَّما يُطربها الرَّبيع، ووشيُه الرَّائق البديع فتزهى بأزهاره وتستعذب زلال أنهاره وتخطب على منابر أغصانه وتتفنَّن بأنواع من السَّجع على أفنانه وتصحُّ بنسيمه المعتل ويصلح حالها المختلُّ، مع أنَّ أيَّامه ربع العام وربيع حضرة مولانا دائم الأيَّام، وروضتها زاهرة الأزهار يانعة الثِّمار

1 الديوان ص 93-97، والكتاب الباشي 1/249-251.

باللُّجين والنضار، فتترنَّم فيها أطيار العلوم والآثار، وتسمع فيهـا الألحـان بفصيح الأخبار، لا برنَّات الأوتار، وتتمايل فيها أغصان الأقلام، في أكـف الأعلام بنسمات الأفهام، وتدار فيها سلاف العلوم، لا سلافة بنت الكروم، وفيها بلوغ الأمل، والشِّفاء الشَّافي من العلل، قد آتَّخذها طيـور الأوطـار أوطانا، تغدو لها خماصا وتروح بطانا، فلا بدع أن خفق (الطوير) لها الجناح إذ لم يرتكب في ذلك الجُناح، فهو ما خفق جوانحه، حتَّى ملأ الشَّوق إليها حشاشته وجوانحه، سيَّما وقد تذكر ما سلف له في الحضرة مـن اللَّيـالي الأنيقة، وما شملته من الطَّرائف الرَّشيقة، والمعاني الرَّقيقة، والأوقات البهيَّـة، والأفواه الشهيَّة، والفكاهة المستعذبة، والسَّمر بالأحاديث المطربة، المستغربة، مع جلَّة أعلام، وجهابذة كرام، والجميع من إشراق محيَّا سـيِّدنا -أدام الله عُلاه- بين أنوار، ومن مؤانسته ومواساته في روضـة ذات أزهـار، تـارة تستفيد منها الأدب، والأنس والطَّرب، والفضَّة والذَّهب، وأخرى تهتـدي بنبراس ذكائه إلى صوب الصَّواب، ويرشدنا إلى ما خفى على الألباب مـن معاني الخطاب، وأسرار الكتاب، فيسبح في بحره بغواص الأنظار، فيستخرج جواهر الدُّر المختار، ويصطاد شوارد العلوم، من مكامن المنطوق والمفهوم، ويفحم ببداهته المجادل والمسائل، عن مغلقات المعاني وعويصات المـسائل، فإذا سنح للعبد ذكر تلك اللَّيالي والأيَّام، وما خول فيها من المنح العظـام، والأيادي الجسام، حيث أفاضت بأحد راحتاه فأطار جناحه، وكساه ريشا، فأكسبه آنتعاشا، فلم يفقره فقره ولا آبتزَّه بازُه أو صـقرُه، هـزَّه للإلمـام بالحضرة العليَّة التَّوق، وكاد أن يطير به الله طائر الشَّوق، إلاَّ أنَّه ربَّما توهَّم سآمة التِّرداد، إن هو أجرى النَّفس على المعتاد لأنَّ من واصل الزيارة يمـلُّ، ومن أكثر التِّرداد أضناه الملل، فيحجم عن الإقدام على القدوم، وإن كـان شائقا، ويتحمَّل أعباء التصبُّر وإن كان التبريح له سائقا.

هذا وإنَّ شهر الصَّوم قد زمَّت منه رحال الارتحال، وعيد الفطر قد واجه الحضرة بالاستقبال، رافلا في حلل السَّعادة واليمن والإقبال، مهنِّئا لكم بمـا

أسلفتم في رمضان من ذخائر الأعمال، مبشّرا لكم بنيل المراد وبلوغ الآمال، باسم الثّغر مبتهج المحيّا، متكفّلا لكم بعـود مـسرّاته ودوام المحيّـا، والله المسؤول، أن يبلغكم غاية المأمول، وأن يصاحبكم فيه بالإسـعاد، ويجعلـه عليكم من أسعد الأعياد، وأن يحييكم لأمثاله وأمثال أمثاله، إلى أبعد غاية، في حفظ من الله وهناء وأمن ورعاية، وأن يصون من الأسـواء أنجـالكم، ويبلغكم من خيري الدُّنيا والآخرة آمالكم.

ولما أعوز العبد أن يعمل للقدوم القدم آستناب عند القرطاس والقلم".

وذيَّل ما نثره في رسالته بقصيدة هي من عيون قصائده التي أنـشدها في الأمير ممدوحه، وهي وإن كانت في الغرض المذكور فإنَّها عبَّرت أوَّلا عـن وصف اللّيالي التي يحييها الأمير بتلاوة الكتب الحديثيَّة، وقد جاءت معنيَّـة بأعيانها في هذه القصيدة مع ما يتلى في بعضها، وما يدور فيها، وهذه اللّيالي المشار إليها هي ليلة الأربعاء وليلة الخميس وليلة الأحد.

وقد خصَّت كلَّ ليلة بسمر خاص، فليلة الأربعاء المصدَّر بها في الـذكر للّيالي الثّلاث مخصوصة بتلاوة كتاب "الشّفا بتعريف حقـوق المـصطفى" للقاضي أبي الفضل عياض[1]، وأمَّا بقيَّة اللّيالي فلم يعيِّن ما يسمر به فيهـا، وهي لا تخرج عمَّا ذكره المترجَم من الخوض في المسائل العلميَّـة، وإبـداء النُّكت الدَّقيقة، وقصيد المباحث الطريفة.

وقد أجاد شاعرنا في حنينه إلى هذه اللّيالي المعقودة بقصر الإمارة بتونس، حيث أنَّه بالقيروان وفي وصف ما أعادته له الذّكرى حين كان يخشى مجلس الأمير ممَّا يدلُّ على تطلُّع ورغبة شديدة في حضور ذلك النَّادي الأمـيري، وكيف لا تكون رغبته شديدة صادقة، وتعبيره مفصحا عن نفسيَّة هادفة إلى أن يكون ضمن أولئك الأعلام الذين يجمعهم مجلس الأمير، وفي كلِّ ذلـك

1 عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل ، عالم المغرب، إمام أهل الحديث في وقته. تولّى قضاء سبتة وغرناطة. توفّي بمرّاكش سنة 544هـ/1149م. من تصانيفه "الشّفاء بتعريف حقوق المصطفى" و"شرح صحيح مسلم. (الأعلام 282/5).

تشريف له، وكيف لا تشتاق نفسه إليه، وهو مجلس يحوي زيادة على المنعشات العلميَّة الأكل الشهيَّ، والصِّلات الوفيرة التي يزوَّد بها في مقابلة ما تكبَّده من مشقَّة السَّفر، والمترجَم كما لم يخل نثره من التَّعريج على طلب الصِّلة المقدَّمة إليه من ممدوحه، كذلك لم تخل هذه القصيدة من ذلك.

وعبَّرت قصيدته هذه ثانيا عن شعور بالعزَّة حيث علَّل عدم حضوره بعض هذه المجالس بأنَّه لم يدع إليها ولو بالتَّلميح حيث لم يجر ذكره فيها حين غيابه، فهو منسيٌّ.

ورفعا لما يظنُّ به من جفاء وقطيعة للمجالس الأميريَّة ذكر أنَّه لو جرى ذكره فيها لأتى قبل أن يدعى إليها، واستدلَّ على ذلك بما سلف له حيث بلغه أنَّه جرى ذكره في ليلة من ليالي السَّمر في مجلس الأمير فركب في غدها من القيروان إلى العاصمة للحضور بين يدي الأمير.

ويفيد ما عبَّر عنه من نسيان ذكره عند الأمير أنَّ مترلته عنده لم تكن مترلة متمكِّنة في النَّفس، بل هي منحطَّة عن ذلك بدرجات، وهذا ما شعر به المترجَم، فلذلك تجنَّب الحضور حتَّى لا تؤدِّي كثرة التِّرداد إلى الملل منه.

ونستفيد من خلال هذا أنَّ المترجَم ربَّما كان في حضوره يطلب من الأمير أشياء ثقلت عليه وربَّما كان له إدلال بموقف أهل القيروان مع أبيه، فنفرت منه نفس ممدوحه بعض النُّفور، وما نبع به شعره من إحساس بالنُّفور منه كان له تأثير على نفسه كما سنوضِّحه حين التعرُّض لوفاته، وأفاض في المدح بعد الغرضين المتقدِّمين وقد دار في مدحه في معان قريبة من معانيه التي جاءت في قصائده الأخرى من وصفه لممدوحه بمحبَّة المباحثات العلميَّة وإيثارها على الملذَّات، وقدَّم لذلك وصفه بثقوب الذِّهن حتَّى أنَّه يسهِّل صعاب المسائل، ويحلُّ المشاكل.

وأطنب في مدح الحلم المتَّصف به هذا الأمير وردَّ على المشيرين عليه بالصَّلابة واستدلَّ على ذلك بالحديث الذي رواه الرَّافعي عن علي كرَّم الله وجهه: "عفو الملوك أبقى للملك".

وختم قصيدته بالتّهنئة بعيد الفطر وقد تلطّف فيما ذكره ضمن معاني التّهنئة من أنّ هذا العيد الذي يعرف بالعيد الصّغير أتى يحيي الأكبر وهو الأمير.

وهذه القصيدة المتقدِّمة على قصائده الأخرى مأخوذ عليها بعض مؤاخذات منها قوله:

[الكامل]

وألثم يدا تروي البخاري دائما ومن النّدى تروي الأنام الكوثرَا

حيث نسب الرِّواية إلى اليد وهي لا تكون إلاّ للِّسان، أمّا اليد فهي حمّالة للكتاب، واللِّسان يروي منه.

كما أنّ هناك مؤاخذة أخرى على قوله:

واغمض جفونك إن لمحت جبينه وحذار من كفّيه عشرا أبْحُرَا

في العجُز حيث حذر من بحور كفّيه، مع أنّ بحور الكفِّ تفيض العطاء لا تتّقى لأنّها تغرق، ثمّ إنّ هناك مؤاخذة أخرى بحسب العربيَّة.

وهذه القصيدة من طوال قصائده فمن عيونها[1]:

أدِّ السلام إلى الأمير معطّرا في طيب ريّاه يَفُوقُ العَنْبَرَا
أَقِر السَّلام عليه كلَّ عشيَّة وإذا سَنَا الإصباحَ أقبل مُسْفِرَا
بل كلَّ حين خصَّه بتحيَّةً من كلِّ طيب أعمَّ وأعطرَا
يَحْكِي شذَاها طِيبَ أخلاقٍ لهُ إذ لست عنها بالعَبِير معبِّرَا

(ليالي السَّمر)

واخصُصْ ليالي الأربعاء جَميعَهَا بمزيد تسليم عميم أعطرَا
فيها شَفَيْنَا بالشِّفاء غَليلَنَا وعَليل صدر للشِّفاء تصدَّرَا
أن يكتَحلَ أعمى البصيرة من سَنى أنوارَه في الحين يَرْجعْ مُبْصرَا
وكذا ليالِ للخميس فحيِّها وليالِي الأحد الأنيقَة منظرَا
هذي الثَّلاثُ لها فؤاديَ شيِّقٌ لم يألُها قلبي العميدَ تَذَكُّرَا

1 التاريخ الباشي 251/1 والديوان ص 51.

فمتى ثنيتُ لها عنان تَذَكُّري — يومًا تفسَّح مترلي وتعطَّرَا
لكنَّ قلبي ما تذكَّرَ أنسَهَا — إلاَّ تأجَّج شوقُه وتسعَّرَا
لم أنس أُنسًا بالأمير خلالَها — نَجْني به زَهْرَ المسَرَّةِ أزهرَا

(لماذا أتخلَّف عنها)

إن كان شخصي قد نَأَى فالقلبُ لا — يَنْفَكُّ في تلك المحَاضِر مُحْضَرَا
لو أنَّ ذكري للقُدُوم بهاجري — لأَجَبْتُ من قبل الدُّعاء مشمِّرَا
إذ قد ذُكِرتُ بليلة فركبت في — غدها من أرض القيروان مبكِّرَا
أحييتها كَمواسمِ الأَعياد لَمَّا — كان يومُ لقَاهُ عيدًا أكبرَا
من يغشَ حضرته العليَّة يَنْثَنِي — عِلْمًا ونَبلاً مُوقَّرًا ومُوفَّرَا

(من فوائد ذلك السَّمر)

فيها كواكبُ بالذَّكاء توقَّدَت — ما بينها قمرٌ يُزيحُ معسكرَا
يُهدي إلى أَسْمَاعنا وعُقُولنا — وأُنوفنَا أدبًا ونَشْرًا أعطرَا
والعَلمَ والنُّكتَ الدَّقيقةَ والحَبَا — والأنسَ والأكلَ الشهيَّ مع القِرَى
يُلقى له صَعبُ المسَائل مُشكلاً — فيردُّه سهلَ المنال مفسَّرَا

(التَّهنئة بالفطر)

يا كَوْكَبَ الأمراء بل يَا شَمْسَهم — لا نال نقصانٌ سَنَاك الأَبهرَا
وَافَاك بعد الصَّوم عيدٌ عائدٌ — لك من إلَهكَ بالسُّرُور مُوفَّرَا
يسعى لحَضْرَتك بوجه نَيِّر — كيما يُحيى منك وجهًا أَنورَا
ومقبِّلاً لَيمين يُمْنكَ نَاشقًا — منْ طيب ريَّاك العَبير الأعطرَا
وأتى إليكَ مهنِّئًا مستبشرًا — وبعَوْده لك بالهَنَاء مبشِّرَا
لا غَرْوَ أن وافى يُحيِّي مَجْدَكُم — أنَّ الصَّغير أتى يُحيِّي الأكبرَا

أعذب شعره

يرى ابن عبد العزيز أنَّ أعذب شعر الطوير المتناهي في الحسن والرَّوعة القصيدة البائيَّة التي مدح بها علي بن الحسين، وسننتقي منها عيونَها.

وإذا نظرنا إلى هذه القصيدة نجدها بحقٍّ من أعذب شعر المترجَم وأحسنه فما حكم به هذا الحكم صادف الواقع، ويمتاز ما صدَّر به القصيدة هذه من تغزُّل رقيق لا تكلُّف فيه في جملتها على بقيَّتها، فهي تجري علـى اللِّسان كالماء العذب الزُّلال، وهي مع خلوِّها من الابتكار للمعاني لطيفة عذبة.

وأظنُّ أنَّ ٱبن عبد العزيز قدَّمها على سائر شعر المترجَم لما تضمَّنته مـن التغزُّل الذي ٱفتتحها به لأنَّه يستعذب الشِّعر الغزلي، وتهشُّ نفسه إليه وترتاح.

ومن الإنصاف أن نبيِّن أنَّ هذه القصيدة المختارة كانت مقبولـة لـدى نفوس المتذوِّقين حتَّى كانت زينة القصائد وخريدة الفرائد بين شعر صاحبها لا لمجرَّد التغزُّل بل هي رقيقة فيه وجزلة في مدحها ومتينة في أسلوبها فهي في جملتها بل في جميعها سليمة من المآخذ كما وقع في بعض شعره من غيرهـا مع تمكُّن القافية، وسلاسة التَّعبير.

والظَّاهر أنَّ المترجَم أطلق لشاعريَّته العنان فسالت القريحـة بطبيعتـها، فخرجت هذه القصيدة خلوة من التكلُّف الصِّناعي بالبديع الذي يراه الكثير، وحتَّى المترجَم زينة القول، وحلية الشِّعر، وضرورة حتميَّة فيـه، لا تنقـاد البلاغة إلاَّ به ولا يستساغ الشِّعر بدونه، فهذه القصيدة في شعر المترجَم من الشِّعر المطبوع الذي هو الأصل فإنَّ الطَّبع الخالي من التكلُّف جار على سنن البداهة وهو الذي تميل إليه الطِّباع، وتستسيغه الأذواق، ولو أنَّ شاعرنا صنع الكثير من شعره كما صنع هنا في هذه القصيدة لتقدَّم على شعراء عـصره بالإطلاق، وإنَّما التكلُّف هو الذي قعد به، وبأضرابه من الشُّعراء المتأخِّرين حتَّى كان شعرهم ثقيلا على الأسماع، تنفر منه الطِّباع وتتجافاه النُّفـوس، وربَّما في بعض الأحايين يؤدِّي صنيعهم إلى التَّعقيد.

وحكمنا على فريدته هذه ليس على إطلاقه من أنَّها خالية من التكلُّـف بل ما بالطَّبع لا يتخلَّف، فإنَّه في قليل منها سرى طبعه على ما تعوَّد كمـا يبدو للنَّاظر.

وهذه القصيدة كما ذكر ٱبن عبد العزيز عارض بها قصيدة الوزير الكاتب أبي العبَّاس أحمد الأصرم[1] في الرويِّ والقافية، وكلتاهما في مدح الأمير علي باي.

ويبدو من صنيع ٱبن عبد العزيز أنَّه يفضِّل قصيدة الطوير على قصيدة الأصرم حيث أنَّه عدَّ الأولى من أعذب شعر الشَّاعر وأحسنه بينما سكت عن الثَّانية، وإنَّما ٱكتفى في تقديمها بمدح صاحبها ووصفه بأنَّه من الوزراء الكتَّاب وهذا من تخلُّصه البديع، حيث أنَّ العبَّاس أبا العبَّاس الأصرم كان ذا مكانة في الدَّولة، وإغضابه يجرُّ إليه المتاعب والمصاعب لأنَّ عداوة ذوي النُّفوذ غير محمودة المغبَّة.

والوقوف على القصيدتين يحكم بأنَّ شاعرنا كان مجلِّيا في ميدانه وإن كان للوزير الأصرم فضيلة السَّبق، لكن قد يفوق الفرق أصله، والسرُّ في تفوُّق الطوير ما قدَّمناه من إرسال القريحة على سجيَّتها، بخلاف صاحب مضارعتها فإنَّه لم يخلها من الصَّنعة المتكلِّفة، وخريدة الطوير بناها على أساسين التغزُّل والمدح، وهذا تغزُّله الذي صدَّر به، وأفاض على القصيدة بهجة ورقَّة[2].

[الخفيف]

مَن لِصَبٍّ في الحبِّ قضَّى شبابه ... وٱحتسى خمرةَ الصِّبا والصَّبابه
لبسَ السُّهد في الغيَاهب حتَّى ... مزَّق الصُّبح للدُّجى جلبَابه
ذاب جثمَانُه فلم تترك الأَشْواقُ ... إلاَّ عظامَه وإهابَه
صاده ساحرُ الجفون غريرٌ ... خامرَ القلب منه حبٌّ حُبابه
شادنٌ ما رمى إلى القلبَ من عيـ ... ـنيه سهمُ المنون إلاَّ أصابه
قَدْ علاَها من السِّقَام فتورٌ ... وهي للفتك في الحشا وثَّابه
هو لَدْنُ القوامِ صعبٌ تَدانيه ... ومرُّ الجفاء، حُلوُ الدَّعَابه

---

1 الكتاب الباشي ص348.

2 المرجع السَّابق 1/345-348 والديوان ص 31.

أخجل البَــدْر إذا طَــلَّ عليـــــــه فأرانا من الــسَّحاب ٱنتقــابــــــه
وجنى الطَّرفُ ورد خدَّيــه غــضًّــا فرمى في فــؤاده تــشَّــابــــــه
غَارَ منه غُــصنُ وورد فهــــــذا ذا[1] ذبول وذاك أَبــدى ٱضطرابـــه
لام فيه معنِّــف فَعَدَدْنَــــــــا لومَه في الهوى طــنينَ ذُبابــــه
ثمَّ لجَّ العذُول يهــذِر في اللَّـــــو م فقلنا: "شرّ أهــرّ كلابــــــــه"
وتراءى الرَّقيــب يرقــب في البــــد ر فأرخى عليه ليــلَ الذؤَابــــه
أرسل الفرع حيَّــةً فهــي تــسعــى ومن اللّــدغِ عقربًــا دبَّابــــــه
لسعًا قلبي المعنَّــى فلــم تبــــــ ـــق له في الحياة غــيرُ صبابـــــه
خفتُ أن يأتي الهيــامُ علــى النَّفـــ ـــس كما صرّع الهَــوَى أَرْبَابــــه

ولَمَّا أراد التخلُّص إلى المدح بعد هذه الأبيات التي ٱفتتح بها مدحه مهَّد له بأربعة أبيات ضمَّنها طلب الشِّفاء من ريق محبوبه وٱستفهامه عن إباحة قتله، ثمَّ حذَّر من الثَّأر لأنَّ مليكه علي بن حسين سيأخذ بثأره بغير حرب:

قلــت في ريقــك الــشِّفاءُ إذا مــا رشَــف العَاشــقُ اللَّــديغ رُضَــابَه
قـــال لي أنَّ ريقـــي لَمــــُدامٌ مــسكرٌ لــست أستبيح شــرابَه
قلــت لِــم قَــتْلَتِي أبحــتَ وقلبــي قــد تَحلَّلــت حَرْبــه وٱستــلابَه
ودمُ الوجنتين يــشهد إن أنكـــرتَ في الفتــك عنــد قاضــي الــصَّبابــه
وَمَليكـــي علـــيُّ بـــن حُــسَيْــنٍ يأخذ الثَّأرَ لي بغــير حــرابَــــه

وأمَّا المدح فننتقي منه بعض عيونه:

ملــكٌ يقــنصُ الأوابــد في البيــد ويُــردي مــن الهــواء عُقَــابَه
حلب الدَّهْرَ أَشــطرًا ومــضى فَــوق مَطَــاه وذاق شُــهَدًا وَصــابَه
يــؤثر الــسِّلم جَانحًــا فــإذا مــا مَاجَ بحــرُ الهيجــاء خــاضَ عُبابــه
بطريـــر لـــدن القـــوام وعــضْب صَارِم الشَّفرتين ماضــي الذبــابــه
لأثلمـــهُ إذا ٱزدهـــى حــين يُجْلَــى فنجيعُ القرومِ كَــانَ خَــضَــابَــه
يغلـــب الجحفـــل العظـــيم بتــدبيرِ مـــبينٍ ونيَّــــــةٍ غلاَّبـــــه

---

1 في الكتاب الباشي ذو.

ينقذ المُستَجيرَ من برثن الهلك وليثُ الخُطُوب أَنْشَب نابَه
وإذا أمَّه عليلُ اللَّيالي أبرأت راحةٌ لـه أَوْصابَه
يخلق الأمر ثمَّ يبدي ومَهْما يلتبس مَازَ قشْرَه ولُبَابَه
يكشف الغامضَ العويصَ فما أعضلَ أمرٌ إلاَّ وفَتَح بابَه
طبعُه الحلمُ والرَّزانةُ والعفَّة والعفو لا الجفَا والخلاَبَه
قام في جامع اللَّيالي خطيبا ثمَّ قد حلَّ دُونَهم مِحْرابَه

براعة مطالعه

يمتاز المترجَم بإجادة طوالعه الشعريَّة التي يستهلُّها بما ينبئ مطالعه الذي أنشدت من أجله القصيدة، ومع هذا الإنباء يجيد حبك البيت بالمقطود يعطي لطالع القصيدة روعة وجمالا في خفَّة وقع على الأسماع.

ولا يبعد أنَّه تأثَّر بآبن الخطيب الأندلسي الذي له في الإشعار بالمقصود ما بلغ غاية الجودة، وكان في الإفادة منتهى الرَّوعة، مع القوَّة والجزالة.

ومن ذلك ما جاء في القصيدة التي مدح بها السُّلطان أبا عبد الله النَّصري لَّما طلب ملكه بالأندلس، وآسترجعه من مغتصبه:

الحقُّ يعلو والأباطل تسفلُ والحقَّ عن أحكامه لا يُسألُ

وهذا طالع القصيدة التي سمَّاها "الفتح الغريب في فتح القريب".

وكذلك المترجَم إذا أنشد في الفتح آستهلَّ شعره بما ينبئ بل يصرِّح بالغرض الذي صيغت له القصيدة، كقوله في فتح جبل وسلات، بعدما آعتصم به الشَّاغبون:

[البسيط]

فتحٌ ونصرٌ وإسعادٌ وإقبالُ لمن له خضعت صيد وأقيال

وعدم التَّوطئة في القصيدة والدُّخول فيما يريده الشَّاعر من طالع القصيدة هو طريقة للشُّعراء ذكرها آبن رشيق في "العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده"[1]

1 العمدة في محاسن الشِّعر ونقده 231/1.

"ومن الشُّعراء من لا يجعل لكلامه بسطا من النَّسيب، بل يهجم على ما يريده مكافحة ويتناوله مصافحة، وذلك عندهم هو الوثب".

وذكر بعد ذلك ٱبن رشيق أنَّ الذي أبطل سـنَّة النَّسيب في الطوالع للقصائد المدحيَّة، ودعا إلى ترك ذلك هو أبو نوَّاس بقوله:

لا تبكي ليلى ولا تطـرب إلى دعـد   وٱشرب على الوردِ من حمراء كـالورد

وجعل ٱبن رشيق قطع القصيدة من النَّسيب يتركها كالخطبة التي لا تبدأ بحمد الله فتسمَّى البتراء.

وهذا رأي لابن رشيق لا يوافق عليه لأنَّ ٱستهلال القصيدة بما يدلُّ على المقصود له وقعه في النُّفوس، وهو أشدُّ وقعا من النَّسيب الذي يراه لزاما في أوَّل القصائد المدحيَّة.

وقد أحسن المترجَم في سلوك هذه الطَّريقة التي لم يرتضها ٱبن رشيق فإنَّه لو صنع في التَّهنئة بالفتح كما يحبُّ ٱبن رشيق لخالف ما يطلبه المقام من الجديَّة.

ويصنع المرتجم مثل صنيعه في الفتح في التَّهنئة بغيره إذ يأتي بما يدلُّ على المقصود كالتَّهنئة التي أنشدها في ختان الأمراء:

سـعودك بالمـسرَّة والتَّهـاني   مجـدَّدة علـى مـرِّ الزَّمـان

ونظير ما تقدَّم ما جاء في التَّهنئة بعيد الأضحى، فإنَّه صرَّح بالتَّهنئة بالعيد سالكا لذلك من أوَّلِ خطوة لشعره:

لاح سـعد الـسُّعود بـالأفراح   والتَّهـاني بيـوم عيـد الأضـاحي

وكذا يسلك هذا المسلك في التَّهنئة بعيد الفطر:

بـشارات وأفـراح ونـور   بعيـد دائـم معـه الـسُّرور

ويذهب هذا المذهب حين يهنِّئ بختم البخاري الجامع الصَّحيح لحديثه صلَّى الله عليه وسلَّم، فيستهلُّ قصيدته بأنَّ حديثه صلَّى الله عليه وسلَّم نور به الهداية وبه ٱنشراح الصُّدور:

حـديث المـصطفى المختـار نـور   بـه يهـدى وتنـشرح الـصُّدور

وكذلك يصنع في شعر المراسلة فيصدره بأداء السَّلام كما في قصيدته التي أرسلها من القيروان تشوُّقا لمجالس الأمير التي تجنَّب حضورها مخافة الملل منه:

أدِّ السَّلام إلى الأمير معطَّرا في طيب ريَّاه يفوق العنبرا

ثمَّ إنَّ المترجَم ربَّما تجنَّب النَّسيب في المدح، وولج إلى المقصود في طوالعه لأنَّه كان من ذوي الخطط الشرعيَّة وهي تتطلَّب من أصحابها أن يكون لهم تصاون وترفُّع عمَّا لا يليق بالخطَّة، ولهذا قلَّ وندر أن يمدح الأمراء أرباب الخطط الشرعيَّة، إلاَّ في النَّادر، وإذا ما مدحوا ٱتَّخذوا مسلكا خاصًّا يصون شعرهم عن النَّسيب، لأنَّه لا يليق بالشّيب والعلماء أن يتغزَّلوا كما يتغزَّل المستهترون من الشُّعراء الذين لا يبالون بما يقولون، وإنَّما همُّهم جودة الشِّعر وخفَّته على النُّفوس.

ولهذا ٱختار هذه الطَّريقة مخالفا لرأي ٱبن رشيق وأضرابه من الذين لا يرون معدلا عنها.

فبلديه يحمل عليها وهو يرتضيها للفرق بينهما فهو كما قدَّمنا، وأمَّا ٱبن رشيق فأديب صرف، وذو عراقة في الأدب، ومن المحافظين على النِّظام الأدبيِّ العريق، فلا يحيدون عنه.

ويمكن أن نضمَّ سببا آخر لهذه الطَّريقة التي سلكها في مطالعه، وهو أنَّ الشُّعراء من التُّونسيِّين في عصره قد تأثَّروا بأبي الطِّيب المتنبِّي، وهم في تأثُّرهم مختلفون كما سنوضِّحه في مناسبة أخرى تتعلَّق بغير هذا الشَّاعر من معاصريه، وأبو الطِّيب قلَّ أن يميل إلى النَّسيب والتَّصريح الذي سلكه المترجَم قد عابه أحد الكاتبين من أصحاب البديعيَّات، وهو ٱبن حجَّة الحموي في كتابه "خزانة الأدب وغاية الأرب"، حيث ينفي عن مثل صنيع المترجَم من التَّصريح براعة الاستهلال، لأنَّ هذه البراعة لا تتمُّ إلاَّ إذا كان هناك في الأوَّل براعة، وحسن مخلص، وحسن ختام، وإذا كان مطلع القصيدة مبنيًّا على التَّصريح بالمدح أو غيره لم يبق لحسن التخلُّص محلٌّ ولا موضع.

ولهذا عاب ٱبن حجَّة على ٱبن جابر[1] في بديعيته عجز مطلعه في قصيدته التي صاغها مدحا للجانب النَّبوي الشَّريف:

وٱنثر له المدح وٱنشر طيِّب الكلم

ومع هذا كلِّه من ٱنتقاد ٱبن رشيق، ونفي ٱبن حجَّة لبراعة الاستهلال عن التَّصريح فإنَّ مطالع الطوير لها قيمتها، وهي من عيون شعره لأنَّه يحتفل في الطَّالع ويجعله عنوانا لقصائده ينبئ عن أغراضه، ويوضِّح مسالكه، فهو ٱستهلال عنواني، ويكفيه تدعيما أنَّ ٱبن جابر سلكه.

ثمَّ إنَّ التَّصريح كيف يكون عيبا إذا لطَّفه الشَّاعر، ولا ضير في عدم اللُّجوء إلى المخلص.

وكما للطوير براعة في مطالعه له خطوات بعد المطلع في أبيات يأتي بها بعد ذلك تكون ملتحمة به، مبنيَّة عليه، تجري منه في ٱنسجام[2]:

[الخفيف]

لاح سعدُ السُّعود بالأفــــراح	والتَّهاني بيوم عيــد الأضاحــي
والمسرَّات واجهت بوجــــوه	نيِّرات مستبــشرات صبــاحِ
ورياضُ الحبور تزهر بالنُّــــوً	ر عليها بلابلُ الانــشــراحِ
وطيور الإقبال تهتــف بالتَّبــــ	ــشير في كلِّ غـــدوةٍ ورواحِ
وتجلَّت عرائس الأنــس والبِــشـــ	ــر عليها ملابس الأفــراحِ

صلته بالغراب

كانت صلة الطوير بأدباء عصره صلة ودٍّ وإخاء، فلم تكن له مع هؤلاء نقائض كما كانت بين الغراب وسميَّة، ونتج عن هذه الرَّابطة الأدبيَّة بينه

1 محمَّد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي، الهواري، المالكي، ويعرف بشمس الدِّين بن جابر. عالم، أديب، من آثاره: "شرح ألفيَّة ٱبن مالك" ، بديعية سمَّاها "الحلَّة السيرا في مدح خير الورى". توفِّي سنة 780هـ/1378م. (معجم المؤلفين 294/8)

2 الديوان ص 36.

وبين بعض أولئك الأدباء آثار أدبيَّة، فالأدباء في تواصلهم وتقاطعهم تكون لهم آثار أدبيَّة، فالأديب منتج في كلتي الحالتين التَّواصل والتَّقاطع.

فقد أولع الغراب بالتَّورية بٱسم المترجَم في القافية، ولمَّا كان ٱسمه مصغَّرا ٱحتاج الغراب أن تكون قوافيه مصغَّرة كما سيأتي، وهذا نظير ما وقع لابن حجَّة في مدح قاضي القضاة شمس الدِّين النُّويري، فإنَّه أنشد في مدحه قصيدة مصغَّرة الكلمات لا في القافية فحسب، بل كلُّ الأسماء فيها مصغَّرة، وجاء في مطلعها:

طريفي من ليـيلات الهجـير مقيريح الجفين من السُّهير

ولو كبَّرنا هذا الطَّالع ونثرنا نظمه لكان هكذا (طرفي من ليل الهجر مقرَّح الجفن من السَّهر).

ويستمرُّ ٱبن حجَّة في هذه القصيدة المصغَّرة:

بعيد غزيلي وجوير قلبي دُميعي في وجيناتي جويري
بديوي تريكي المحيَّا غويب عن عويشقه الحضير

وهذه القصيدة المصغَّرة قد أعجب بها صاحبها إعجابا فائقا إذ ذيَّلها بما يفيد ذلك:

"و لم أستطرد إلى غالب أبيات هذه القصيدة إلاَّ لغرابة أسلوبها، فإنَّني لم أزل أجذب القلوب إلى تحبيب تصغيرها، ومغازلة عيون أغزالها، إلى أن أبدر بدر مخلِّصها في أفق توريته".[1]

والتخلُّص المشار إليه هو هذا:

شعيرك من أضل عويشقه هدينا في الظّليمة بالنُّوير

ورغم هذا الإعجاب من صاحبها فإنَّ الخرَّاط[2] (-1251هـ) في "زهر الرَّبيع" حسبما وقفت عليه في القطعة التي أطلعني عليها الأستاذ الفاضل

1 الخزانة، ص 158 – 159.

2 أبو إسحاق إبراهيم ٱبن الشيخ أحمد الخرَّاط الصفاقسي. ٱشتهر شعره. له تأليف في الأدب سمَّاه "زهر الربيع". (عنوان الأريب2/705)

إبراهيم شبُّوح[1] جوزي خيرا ٱنتقد قصيدة ٱبن حجَّة في تخلُّصها، ورأى أنَّ تخلُّص الغراب مع تخلُّصه في مدح الطوير يفوقان ما أعجب به ٱبن حجَّة، فإنَّ كليهما الغراب والخرَّاط مدحا المترجَم، وهو مصغَّر الاسم، فلا بدَّ أن تكون القافية مصغَّرة حتَّى تأتي التَّورية بٱسمه لكنَّهما لم يلتزما ما ٱلتزمه ٱبن حجَّة من التَّصغير في الأسماء كما صنع هذا الأخير، ولذلك كانت أبياتهما أخفُّ من قصيدة ٱبن حجَّة.

وفيما يلي نورد ٱنتقاده مع الأبيات التي أرسلها الغراب إلى الطوير:

"وأين هذا – أي تخلُّص ٱبن حجَّة – من تخلُّص الشَّيخ البارع أبي الحسن علي الغراب الصَّفاقسي المحلَّى بديباج التَّورية في الأبيات التي كتب بها لنادرة الدَّهر وفريد العصر البارع في النَّظم والنَّثر، الشَّيخ المفتي عبد اللَّطيف الطوير القيرواني.

وهي:

ما نبَّه الشَّوق طير دوح غنَّى ولا بارق الغوير
لكن مثاني الثَّناء لمَّا سمعت رنَّت على (الطوير)

ومثل هذا ما كتب به للشَّيخ المذكور:

يذكِّرني سنا برق الغوير ومعاصمها وبسّام الثُّغير
ويحييني تنشُّق كلِّ روض لما بالخدِّ منها من زهير

ومنها متخلِّصا بالتَّورية:

وقائلة على من بات قلب أراه منك خفَّاقا كطير
ألذُّ الحبِّ في سكَّان ربع ألذُّ العشق في حور الخدير
ألذُّ العيش حين تجسُّ عودا وتشدو بالثَّناء على (الطوير)

فإن قلت:

ٱعتراضك على الشَّيخ ٱبن حجَّة في ركاكة ما أتى به من الألفاظ المصغَّرة قافية لقصيدته مشترك الإلزام لأنَّك والشَّيخ عليًّا أتيتما بهذه القافية.

1 إبراهيم شبوح، مؤرِّخ، مؤلِّف، محقق من أهمِّ ما حقَّق "معالم أهل الإيمان" للدبَّاغ والتانوخي وكتاب "العبر" لابن خلدون.

قلت:

الحقُّ يظهر من معنى ومن كلم، فالجمال لا يخفى فإنَّ الشَّيخ ٱبن حجَّة سامحه الله أتى بقصيدته كلِّها مصغَّرة قافية وغير قافية، ولم يتأنَّق في القــوافي المقبولة وأتى بها كلَّها على نمط قوله:

طريفـــي مـــن ليـــيلات الهجـــير مقيريـــح الجفـــين مـــن الـــسّهير

فهذا وإن كان له عذر في تصغير القافية لمناسبة ٱسم ممدوحه، فلا عذر له في تصغير ما سواها، حتَّى تمجَّه الأسماع وتنفر منه الطِّباع.

والشَّيخ عبد اللَّطيف الطوير المورى به في كلام الشَّيخ البارع، وكلامي كان رحمه الله طود وقار، وروضة يانعة الأزهار، تجلَّت بفتاويه ظلمة الجهل، وٱزدهرت المهارق، وتحلَّت بدرر آدابه لبات المغارب والمشارق فهو في علم القريض روض زاهر أريض، وفي بديع المنثور، درٌّ منتطق على النُّحور".

إنَّ في هذا الانتقاد تحاملا لأنَّ ٱبن حجَّة أراد بقصيدته المصغَّرة أن يحدث شيئا جديدا في الأدب، وهو ٱلتزام التَّصغير، وبالطَّبع أنَّ الالتزام لا يخلو من تكلُّف، وكما هو موجود في قصيدة ٱبن حجَّة هو موجود في أبياتهما.

وإذ رجعنا إلى القصيدة المصغَّرة وتأمَّلنا منها فإنَّنا نجد فيها بعض الطرافة النسبيَّة.

وعلى كلٍّ فإنَّ ٱبن حجَّة هو الذي فتح لهما الباب حتَّى ورَّيـــا بٱســـم المترجَم كما ورَّى هو بٱسم النُّويري.

وبهذه المناسبة نوضِّح أنَّ ٱسمه الذي ٱشتهرت به عائلته هـــو الطـــوير – بضم الطَّاء وإسكان الواو وفتح الياء مخفَّفة – كما جاء في شـــعر الغـــراب مرَّتين، وبهذا نعلم أنَّ تشديد الياء، وإن كان هو الصَّحيح عربيَّة لكن الأسماء تغيَّر على حسب ما يجري على الألسنة ويشتهر.

كما مدح الغراب الطوير كذلك مدح الطوير الغراب، فهما يتقارضان المدح، وقد أشرت إلى ذلك في ترجمة الغراب.

وفي ظنِّي أنَّ التَّراسل بينهما لم يكن مقصورا على الرِّسالتين الـــدَّائرتين بينهما اللَّتين سبق نشرهما بل هما في التَّراسل متَّصلان، ويدلُّ ذلـــك مـــا في

رسالة الطوير من إشارة إلى الصِّلة بينهما، وإنَّما ٱنقطعت لمدَّة ما شأن الأصدقاء المتراسلين الذين تلهيهم الأشغال فتنقطع الكتابة ثمّ تعود الحال إلى مجراها الطَّبيعي.

وجمعا لأدب الطوير ننشر رسالته التي كاتب بها صديقه مصحَّحة على نسختين أُولاهما "مجمع الدَّواوين" للسنوسي حيث أتى بهذه الرِّسالة في ترجمة الطوير.

وثانيتهما نسخة من ديوان الغراب في حوز كاتبه، وهي مجموعة من شعر الغراب على ترتيب وٱختيار غير الموجود في المكتبة الوطنيَّة.

و لم يقع في هذه النُّسخة التَّصريح بٱسم الطوير، وإنَّما جاء ما نصُّه:

"وقد أتاه مكتوب من بعض الأدباء".

وإنَّما وقع التَّصريح بأنَّ الذي كاتب الغراب هو الطوير في "مجمع الدَّواوين" إذ أتى فيه:

"وقال أيضا مكاتبا الشَّيخ أبا الحسن الغراب بما نصُّه":

وهذه الرِّسالة جمعت بين النَّثر والنَّظم على العادة في الرَّسائل التي تكون متبادلة بين شاعرين، فإنَّ الشَّاعر إذا خاطبه شاعر نظما أجابه بمثل ذلك لكن يقدِّم النَّظم بنثر، ويقدِّم في النَّثر جمل فيها تحلية للمرسل إليه ممَّا لايسعه النَّظم، وهذه التحلية يتغالى فيها، فهنا مثلا تحتلُّ أكثر من نصف الرِّسالة النثريَّة.

وممَّا ٱشتهر في عصر المترجَم القرن الثَّاني عشر الهجري ٱلتزام السَّجع بلقب المرسل إليه كلَّف ذلك ما كلَّف الكاتب، فإن لم يأت بسجعة كان ذلك نقصا منه في الإنشاء، ولقب الغراب ليس من الألقاب التي تحمل الكاتب على التكلُّف بل في الأمر سعة، فلذلك مهَّد الطوير للقب الغراب بثلاث سجعات متمكِّنة غير نابية عن السَّمع.

هذا ما تحتلُّه الفقرة الأولى، أمَّا الفقرة الثَّانية فهي إخبار عن السَّبب الباعث له لإرسال القطعة الشعريَّة التي راسل بها الغراب، فإنَّ المرسل إليه كان أرسل إليه بقطعة شعريَّة حرَّكت منه القريحة، وبعثتها على النَّظم.

وفي هذه الفقرة التّنبيه على أنّ الأبيات من بحر الخفيف لنكتة لا تخفى.

وقد ذهب بي الظنُّ أوّلا إلى أنّ ذلك ناشئ عن طلب الغراب منه شيئا فأخبره أنّه خفيف الحال، ثمّ بدا لي بشيء آخر وهو أنّ الخفيف إشارة إلى خفّة أبياته، والآن يظهر لي أنّه كنّى بالبحر الخفيف عن خفّة روح الشّاعر المرسل إليه، وهو الغراب.

وهذه الرِّسالة التي كاتبه بها: "من توغّل في أسباب الفصاحة وأفانينها وترقّى في معارف الآداب وقوانينها حتّى جبل على طبعه إنشاء النّظم والنّثر دون اكتساب، وتقلّب في فنون الآداب وتمكّن من علمي المعاني والإعراب، مولانا الشّيخ أبو الحسن (أبا الحسن) الغراب، فلا نزال في هذا الفنِّ فارس ميدان، وممارس فصاحة (في "مجمع الدّواوين": فلاحة) وبيان، بمحمّد وآله الأطهار وصحابته الأخيار.

وبعد فإنّ قطعتك الرّائقة البهيّة، البرّاقة الشهيّة، حرّكتني أن أقول في الحال وإن كنت من الفصاحة والبلاغة خال (في "مجمع الدّواوين" قال، ولو قال وإنّي من الفصاحة والبلاغة خال لسلمت له السّجعة) أبياتا من بحر الخفيف لنكتة لا تخفى على مثلك اللّطيف، فقلت موريا، وإياك معنيًّا (وسبق لي تصحيحها بقولي وإياك عانيا) وذاك لأنّ معنيًّا معنا محزن لك، أو مكلّف لك ما يشق وكلاهما ينافي المقصود هنا بخلاف ما صوّبته به فإنّه من عني بكذا إذا قصده وأراده)[1]:

[الخفيف]

يا بليغًا أتى قريضك يهمي	غبَّ شوق بوبلِ أنس لهائمِ
ذكّرتني[2] وما نسينا ولكن	ربّما أكّد الرُّقى بالتّمائمِ
قطعة تذعَن الأنام إليها	وهي مسكٌ[5] يفوق مسكَ اللّطائمِ
سألوني عن[3] الذي أنتَ فيه	تنهج المدحَ قلتُ قولَ ملائمِ
قد كفانا[4] عن الأوادم طرًّا	اسم طيرٍ معلّم لابن آدمِ

1 الديوان ص 75.
2 جاءت في الديوان "ذكّرتنا".
3 في الديوان "سألوني من الذي"
4 في الديوان "قد كفاني".
5 في الديوان العجز جاء كما يلي: "ولسان يفوق مسك اللطائم".

وقد أجاب الغراب عن هذه بنثر ونظم، وشطَّر في نظمه أبيات الطوير، وقد تقدَّم نشر رسالة الغراب أثناء ترجمته.

وجواب الغراب معبِّر عن تقدير المترجَم في قيمته الأدبيَّة، وهو حـــريٌّ بذلك مع ما توفَّر فيه من معارف فقهيَّة بوَّأته لتلك الخطط الشرعيَّة حتَّـــى تسنَّم ذراها، ونال أقصى ما تنيله الثَّقافة في مسراها، إبَّان عصره، وصـــدَّر الغراب رسالته بهذه التَّحلية:

"من كشفت لطائف البلاغة له عن شموس محيَّاها، وأرشـــفته معـــارف البراعة من كؤوس حميَّاها".

وتدلُّ هذه الصِّلة التي بينه وبين الغراب دون الصِّلة بينه وبين أدباء بلـــده على ما كان شائعا في ذلك العصر من أنَّ النَّابه يغمط حظُّه بين أهله وذويه، ومن يعيش بين ظهرانيهم.

ولم تنقطع الصِّلة بينه وبين أهل بلده فقط، بل كانت هناك عداوة قائمة بينه وبينهم، وقد أشار إلى ذلك الشَّيخ السنوسي في ترجمته الـــتي نقلناهـــا سابقا.

وكذلك في رسالة الغراب إشارة إلى أعاديه، وأنَّهم كثرة حيث يقـــول "لا برحت ألوية الأدب كقلوب أعدائه خافقة"، وجرَّ إليه هـــذه العـــداوة مكانته عند الأمير علي باي، وربَّما إعجابه، ووظيفته السَّامية.

مقارنة

لم يقتصر شعره على المطوَّلات من القصائد مثل التي أتينا ببعضها ممَّا هو في مدح الأمير علي بن حسين، بل له بعض نتف ومقتطعات منها ما هو في المدح على غرار مطوَّلاته، ومنها ما هو في غير ذلك.

ومن نتفه ما أنشده في قهوة البنِّ التي ولع بها النَّاس في عصره، وتفنَّنـــوا في وصفها، وقد ٱستعاضوا بوصفها عن وصف القهوة التي هي الخمرة.

وتناول الشُّعراء لقهوة البنِّ لم يكن على منوال تناول الخمرة، لأنَّ تناول الخمرة كان على أنَّها للَّهو والمجون، وأمَّا قهوة البنِّ فمن حيث وصفها وصفا

مجرَّدا عن اللَّهو والعبث، وإذ قد تجرَّدت عن ذلك طلبوا لها نكتا أخرى حتَّى لا يكون الشِّعر خاليا من الطَّرافة.

ومن النُّكت المفاضة على وصف قهوة البنِّ ما جاء به المترجَم في نتفته الآتية من وصف القهوة في سوادها مع ظرفها السَّاطع البياض بٱجتماع السَّواد للَّيل والبياض للنَّهار، فكان تقديم القهوة في ظرفها كتقديم اللَّيل والنَّهار معا[1]:

وقهوة لونُها حكَى غسقًا ... وكأسها بالضِّياء قد سطعا
جاء بها صاحبٌ لنا فكأن ... أهدى لنا اللَّيل والنَّهار معا

وإذا قايسنا بيتيه ببيتي الشَّيخ محمَّد ماضور في القهوة وهما:

حبشيَّة جاءتك من يمن ... شهيَّة تختال في الصِّين
سخينة المسِّ لها مرشف ... يشفي صدى قلبك في الحين

نجد أنَّ بيتي الطوير يشتملان على معنى مبتكر لطيف وهو جعل سواد القهوة في بياض الظَّرف حين تقدَّم للضَّيف كتقديم وإهداء اللَّيل والنَّهار، بينما ماضور ٱقتصر على ما هو معروف في القهوة الممتازة من كونها يمنيَّة، وهي شهيَّة المرشف مقدَّمة في آنية صينيَّة، سخينة عند مسِّها، ومرشفها يشفي صدى القلب، فبيتاه خاليان من التَّشبيه الذي أتى به الطوير، بينما أتى بكلِّ أوصاف القهوة الممتازة اليمنيَّة.

فنظرة الشَّاعرين مختلفة، فماضور أراد أن يأتي بكلِّ أوصافها الظَّاهرة، بينما الطوير ٱقتصر على وصف القهوة في فنجانها، وما يوحيه ذلك إلى المخيَّلة من التَّشبيه المنتزع من هذه الهيأة الجامعة بين متضادَّين.

وكما جرى إلى السَّبق في هذه المقارنة جرى في مقارنة أخرى مع معاصر له وهو الورغي في تاريخ بناء قنطرة أسَّسها الأمير علي بن حسين على وادي مليان المنصوبة على الطَّريق الرئيسيَّة للجهات القبليَّة من البلاد التونسيَّة.

---

1 الديوان ص 62.

فأرَّخها الطوير بقوله[1]:

[المجتث]

ٱنظـــــر فخامـــــة مبنـــــــــى	قـــــد تمَّ حـــسنًا ومعـــــنى
عـــلا بمليـــان[2] يزهـــــــــو	علـــى القنـــــاطر حُـــسْنا
نجْـــلُ الأمـــير حُـــسَيـــــن	بنـــــاه رفقًـــــا وأمنـــــــا
فـــٱرفق بـــــه وأنلـــــــــهُ	مـــــولاي مـــــا يتمنَّـــــى
يهنيـــــه ســـــعيٌ جَميـــــــلٌ	لغـــــيره مـــــا تـــــسنَّـــى
يـــــا عـــــابرَ الجـــسرِ يمـــشـــي	مـــــن فوقـــــه مطمئنَّـــــا
للمنــــــــــــــشِـــئ أدع وأرِّخ	(علــــــي باشـــــا يهنَّـــــــا)

وأرَّخها الورغي منشدا:

[الرجز]

ٱنظـــــر لجـــسر يتجلَّـــــــى	بكـــــلِّ صـــنع أجمـــــــــل
يزهـــــو بـــــه مليـــــان عـــــن	مجـــــــردة ويعتلـــــــــــي
ومـــــن معـــــاني ٱسميهمـــــا	يظهـــــر فـــــضـــــل الأوَّل
وٱزداد فــــــــضلا إذ دنـــــا	لمـــن بـــنى بالمنـــــــــزل
نجْـــل حـــسين مـــن نحـــا	منحـــــى الهـــــــداة الأوَّل
بلِّغـــــه خالقــــــــــــــه	مـــــا يبتغـــي مـــن أمـــــل
وبٱسمـــــــــــه أرَّختـــــــــــه	(زكـــا بــه الباشـــا علــــــي)

وأعطى لأبيات المترجَم فخامة معنى أنَّها من بحر المجتثِّ وهو على السَّمع لذيذ ذو جزالة، بخلاف أبيات الورغي فإنَّها من العروض الثَّانية لبحر الرَّجز، وهي مجزوءة صحيحة، وبحر الرَّجز التَّام منه والمجزوء من أسهل البحور حتَّى قرب من النَّثر، ومن أجل ذلك لا تجد فيه تلك الرنَّة الموسيقيَّة التي تجدها في بعض البحور مثل المجتثِّ.

1 الديوان ص 88.
2 جاء في الديوان "علا بمليان".

ولروعة هذا البحر ٱختاره بعض الشُّعراء الممتازين بالشِّعر الرَّقيق الرَّائــع كالعبَّاس بن الأحنف[1] في قوله:

يــــــا ربّ ردَّ علينــــــــا   مــــن كــــان أنــــسا وزينــــا
مــــن لا نــــسرُّ بعــــيش   حتَّــــى يكــــون لديــــــنا

فالذّوق الممتاز يدرك الفرق بين البحرين وبالأخصِّ إذا أفــاض عليــه الشَّاعر من بلاغته ورقّته ما يزيده خفَّة على الأسماع وتأثيرا على النَّفس.

ثمَّ إذا قطعنا النَّظر عن البحر وتأثيره على الشِّعر نجد أنَّ طالع الطوير تهتزُّ لسماعه إذ الطوير قد أعطى للمبنى فخامة في صدر قطعته:

ٱنظر فخامة المبنى

وأما الورغي فإنَّك لا تحسُّ بجمال المبنى إلاَّ إذا قرأت البيت كلّــه، ثمَّ إنَّ بيته في أسلوبه دون أسلوب صاحبنا، ومع هذا فبيت الأخير أعمر من بيت الأوَّل لأنَّه كما أفاد فيه بفخامة المبنى أفاد أيضا شيئا آخر في قوله: قــد تمَّ حسًّا ومعنى.

فهذا معنى جديد نقله لبيته في العجز، يبدو لي أنَّه لو أبدل تمَّ بفاق لكان بيته يحلِّق في الأجواء أكثر من تحليقه بالتَّمام.

ثمَّ إنَّ الورغي مدح الوادي أكثر من مدحه للبناء، لأنَّه جعل وادي مليان يزهو على وادي مجردة، ولم يسلك الطوير هذا المسلك بل جعل البناء يعلو على غيره فقوله في صميم المقصود بخلاف الورغي فقد عــدل إلى مــدح الوادي ولا دخل للأمير فيه، ومع هذا التفوُّق لصاحبنا فإنَّ الورغي في تاريخ البناء وهو سنة 1180هـ كان أرشق منه.

---

1 العبَّاس بن الأحنف بن الأسود بن طلحة الحنفي، اليمامي(أبو الفضل). شاعر. من آثاره: ديوان شعر. توفي سنة 192هـ/808م. (معجم المؤلفين59/5)

* وفاة الطوير: جاء بالإتحاف 17/7 "ولم يزل معظّما مكرّما إلى أن توفّاه الله سنة 1199هـ/1785م".

سمية القيرواني

حظّ الأديب

هذا الأديب معاصر للطوير وبلديه، وقد شاركه في النَّظم في المناسبات التي نظم فيها مثل فتح وسلات -كما يسمُّونه- وختان الأمراء، وٱنفرد عنه بمناسبات أخرى.

وهو مغمور في ترجمته مع أنَّه كان من الأدباء الذين ساهموا في مناسبات عدَّة، وفوق ذلك كان من رجال الدَّولة الحسينيَّة فلم يترجم له إلاَّ صاحب "مجمع الدَّواوين التونسيَّة"، أو صاحب "عنوان الأريب"، وترجمته في العنوان هذا لا تزيد على سطر، ذكر فيها أنَّه كان حيًّا سنة 1172هـ ثمَّ ذكر قطعتين له.

وما ذكر في حقِّ هذا الأديب لا يفي ببعض ما يجب له كأديب من الأدباء المشاركين في النَّهضة الأدبيَّة في عصرهم مشاركة هي المتعارفة في تلك العصور التي تكتفي من الأديب أن يظهر في السُّوق الأدبيَّة وهي السُّوق الظَّاهرة في بلاط الأمراء.

حظُّه القلَّة عند هذين المؤرِّخين أمَّا عند غيرهما فالإهمال فإذا ما رجعنا "للمنتخب المدرسي"[1] نجده قد أهمله كما أهمل زميله الطوير مع أنَّهما حريَّان بالذِّكر، فإهمالهما إهمال لجانب أدبيٍّ لا ينبغي إهماله، ثمَّ إنَّهما في عصرهما من أدباء جهة خدمت الأدب العربيَّ في إفريقيَّة خدمة لا ينساها التَّاريخ، وهي القيروان.

وبهذه المناسبة أبدي حسرة من الكتَّاب الذين يكتبون على الأدباء فيقتصرون على أشهر المشاهير ففي عصر هذا الأديب لا يذكر إلاَّ الورغي والغراب وٱبن عبد العزيز وفي عصر قريب لا يذكر إلاَّ قبادو وفي عصرنا إلاَّ

---

1 لحسن حسني عبد الوهَّاب.

الشَّابي مع أنَّنا إذا بحثنا في كلِّ العصور المذكورة نجد بجانبهم أدباء لهم ضلع في النَّهضة الأدبيَّة.

وعسى أن يتنبّه الكاتبون فلا يغمطوا حقَّ الأدباء الذين لم تساعفهم الشُّهرة الواسعة، و لم تَلك ذكرهم الألسن.

وفَّقنا الله جميعا لإبراز أدبنا في أكثر أدبائه وإظهاره بالمظهر اللاَّئق حتَّى نؤدِّي ما يتطلَّبه أدبنا.

لكن بدأت الآن حركة مباركة غير مقتصرة على أقلِّ القليل، بل تتوسَّع يوما فيوما، وتشمل أكثر فأكثر نتمنَّى أن تستوعب أدباءنا كلَّهم وتعطيهم ما يفرضه الأدب لأربابه دون انحياز لشقٍّ دون شقٍّ فإنَّ وشائج الأدب فوق النَّزعات والطَّرائق الأدبيَّة.

ترجمة السَّنوسي له

لم يهمل هذا الأديب المؤرِّخ التُّونسي الشَّيخ محمَّد بن عثمان السَّنوسي (-1318هـ) فذكره في كتابه "مجمع الدَّواوين التونسيَّة" بما ننقله الشَّيخ أبو العبَّاس أحمد سميَّة:

"كاتب أبرع، ونحرير يلمع، أبدع في الإنشاء وحسن بما نمَّق ووشى، حتَّى حمل لواء الشُّعراء، وتسربل ملابس الكبراء، فرقي إلى دست الكتابة، وأبرز من خدورها كتابه، وما فتئ ينظم المحاسن عقودا ويقلِّد بفرائدها جيودا إلى أن طار صيت شعره في الآفاق، وتحلَّت بمحاسنه الملوك في الأعناق، فأبدى تلك المدائح تخجل الألباب، وتستظهر من معانيها بالعجب العجاب، بيد أنَّ له يد (بدا) في سرعة التَّاريخ وبذلك رقي عن معاصريه إلى أعلى الشَّماريخ، فكان لا يعوزه نظم التَّاريخ في عامَّة قصائده اللَّطيفة، مع ما يحتوي عليه من المعاني الظَّريفة، على أنَّه لا يطيل رشا الأمداح، ويديرها أعذب من كؤوس الراح". ثمَّ شرع في جمع شعره.

وقد ٱعتمد الشّيخ السّنوسي في هذه التّرجمة أنّه من الكتّاب على الوزير حمُّودة ابن عبد العزيز حيث ذكر أنّه كان من الكتّاب إذ يقول:

"وقال الكاتب أبو العبّاس أحمد سميَّة القيرواني".

ومن عادة ٱبن عبد العزيز في تحليته أنّه يذكر من ينقل شعره في تاريخه بتحلية هي في الحقيقة ترجمة لمن ذكر تتّضح منها متزلته، وتعرف منها وظائفه، فسميَّة لمّا كان من كتّاب الدّولة الحسينيَّة حلاّه بالكاتب، والطوير لمّا كان قاضيا حلاّه بالقضاء، فقال:

"ومن قول الفقيه القاضي المشاور الأديب أبي محمَّد عبد اللّطيف الطوير القيرواني"

ويبدي في التّحلية متزلة من نقل شعره مثل الغراب الذي يقول فيه:

"وقال الأديب البارع علي الغراب الصّفاقسي".

و لم يحلِّ سميَّة بالأديب إلاّ عندما ذكر قطعته المنظومة في خروج علي باي في محلّته الشتائيَّة أو عند ذكر نظمه في مدح الأمير المذكور عند ختم البخاري، أو عند ذكر عيديَّة له.

و لم يصفه ولو مرَّة واحدة بالبارع كما ٱلتزم ذلك في كثير من تحلية أبي الحسن الغراب، ونستفيد من إعراضه عن تحلية سميَّة بالبارع كما حلّى الغراب أنَّه يراه دون الغراب فهو عنده أديب لم يصل إلى درجة البراعة كالغراب.

وترجمة السّنوسي محتواها ثلاثة أمور:

الأوّل أنّه كان كاتبا وٱعتمد في ذلك على ٱبن عبد العزيز كما تقدَّم.

الثّاني أنَّ له براعة في التّاريخ وٱستفاد ذلك ممَّا ذكره ٱبن عبد العزيز من مقطعات وقصائد للمترجَم لأنَّه قلَّ أن يخلو نظمه من التّاريخ كما يبدو ممَّا أثبت من شعره.

الثّالث أنّه لا يطيل في نظمه، وهذا كذلك يستفاد من شعره المنقول في تاريخ ٱبن عبد العزيز.

فالتَّرجمة في الحقيقة لمَّا لم يقف كاتبها السَّنوسي على شيء من تاريخ سميَّة تصيَّد ترجمة له من تاريخ ٱبن عبد العزيز، وهو مشكور على ذلك حيث عرَّف بجوانب من شعره قد تخفى على بعض النَّاظرين.

ناحية من شعره

كانت صلة سميَّة مع غير الأدباء من أهل العلم قائمة على المودَّة والصَّداقة، وهذا ليس بالغريب لأنَّ الأديب لا يتزاحم مع غير الأدباء لفقدان المنافسة القائمة بين أهل الأدب، وبالأخصِّ في تلك العصور التي كان فيها حظُّ الأديب منقوصا بل غير موجود لأنَّ المتَّسع الحيوي للأدب كان يدور في منطقة ضيِّقة، وحلقة مفرغة.

وقد تكون الدَّواعي للتَّقاطع غير هذا ممَّا سنبيِّنه فيما يأتي.

وقد أنشد سميَّة في بعض أهل عصره من غير الأدباء، فلم يقتصر في أدبه على مدح أمير عصره، بل كان له بجانب ذلك أنظام خارجة عن تلك الأمداح، ولكنَّها بالنِّسبة إليها قليلة، وهذا شأن الأدباء في العصور التي لا يجد فيها الأدب متنفَّسا إلاَّ من جهات لا تكاد تعدُّ، وشعره القليل سلم من النَّيل من المنشد فيهم.

وهذه النَّاحية من الأديب في غير مدح الإمارة لا تخلو من فائدة لأنَّها تبيِّن بعض نواحي في الأديب لولاها لما عرفت.

من ذلك أنَّ أديبنا كان مفتونا بشعر شاعر من أبرز أدباء العرب، وهو المتنبِّي، وأمره في الافتتان بأبي الطيِّب كبقيَّة أهل عصره كما بيَّنت ذلك في بعض الفصول السَّالفة، فالمتنبِّي ملك على أدباء تونس في القرنين الثَّاني عشر والثَّالث عشر مناهجهم، فٱستحوذ عليها ٱستحواذا تامًّا، وتأثيره عليهم مختلف كما سنوضِّحه.

ويوضِّح لنا ٱفتتان سميَّة بالمتنبِّي أبيات أرسل بها إلى الشَّيخ أحمد بن متيشة:

يـــا مـــن لـــه طـــار لبِّـــــي وحبُّــــه حـــــلَّ قلبــــــي
وعــــدت إنـــسان عينــــي بـــــأن يــــرى المتنبِّــــي
فهــــا هـــــو الآن يرجـــــو بــــه ٱنتزاهـــا بقربــــي
يا أحمد العصر حــــــاشا كم أن تضيـــــــع حبِّــــي

وهذه الأبيات ٱستنجاز وعد من الشَّيخ ابن متيشة في إعارة ديـوان أبي الطِّيب المتنبِّي، والذي يبدو أنَّه وعده به و لم ينجز الوعد.

وفي هذه الأبيات وعيد لابن متيشة إن لم ينجز الوعـد ويعطيـه هـذا الدِّيوان حيث هدَّده بأنَّه إذا لم يعطه ديوان المتنبِّي أضاع حبّه، ووراء ضياع الحبِّ ما وراءه من الهجو المقذع لأنَّ عداوة الأدباء لها آثارها، ولا يقـدم عليها إلاَّ من لا يأبه لعرضه أن ينال، أمَّا من يخاف على عرضه فإنَّه يضنُّ به ولا يجعله عرضة للثَّلب والقدح.

فهذه الأبيات التي يتطاول فيها صاحبها على صديق له، يعبِّر عنه بأنَّـه أحمد العصر، ومع ذلك يقول له أحاشيك أن تتهاون بهـذا الإخـلاف لأنَّ وراءه ما ينتظرك من لسان شاعر وجد مقالا للقدح فٱنـهال ٱنـهيال السَّيل، فهذه الأبيات تعبِّر عن تعلُّق شديد بأبي الطِّيب المتنبِّي، ولو لا أنَّـه كان مدرسة الأدباء في ذلك العصر لما تجرَّأ هذه الجرأة على صديق له شـحَّ بكتابه خشية من الإعارة التي هي في الحقيقة سبب الإغـارة، فالكتـب إذا أعيرت ذهبت من يد أربابها.

ومن شعره في هذه النَّاحية الخاصَّة ما رثى به أحد مشائخ الإسلام وهو يوسف درغوث، وهذا الرِّثاء يدلُّ على أنَّ شاعرنا كانت صلته بالعـائلات التونسيَّة العلميَّة صلة ٱتِّصال، ومشاركة في الأفراح والأتراح، فهذا المرثـيّ وهو يوسف درغوث ينتمي إلى عائلة علميَّة كان ثالث ثلاثة مـن رجالهـا الذين تولَّوا مشيخة الإسلام في تونس فقد تولاَّها أبوه عبد الكبير، وجـدُّه سميّه.

وقد تقلَّد الخطَّة العلميَّة، وهي الفتيا يوم وفاة والده عبد الكبير فإنَّ الأمير حسين بن علي تركي قلَّده إيَّاها مع خطابة الجامع اليوسفي.

وهذه مرثيَّته:

لله رمس ضم (يوسف) عصره ... فغدا به كالبدر في غسق الظَّلام
حاز المحاسن في الحياة وبعدها ... رقى المنابر في جلال وٱحتشام
ما جاءه لمحلِّه ذو حاجة ... إلاَّ وشاهد في محيَّاه ٱبتسام
فإذا سمعت ثناءه من مادح ... لا تعجبنَّ هو (دَرُّ غَوث) من كرام
أجلى صدا الفتيا بحدَّة ذهنه ... فتبهرجت بجماله بين الأنام
وكسا علاه حلة من بهجة ... محرابه والمنبر العالي المقام
فسل المهمين يكسه حلل الرضا ... ويهب له الخيرات من دار السَّلام
وبحقه قل إن سئلت مؤرِّخا ... هذا الهمام ٱبن الإمام ٱبن الإمام

وكانت وفاة يوسف درغوث سنة 1156هـ.

وللمترجَم في هذه المرثيَّة ٱختراع عجيب، وتصرُّف بديع في لقب المرثيّ وهو درغوث، والمعروف فيه أنَّه بفتح الدَّال والرَّاء المخفَّفة، والمشهور على الألسنة أنَّه بسكون الرَّاء، والغين مضمومة لكنَّه هنا يقرأ دَرُّ بفتح الدَّال لكن الرَّاء مضمومة ومشدَّدة، والغوث بفتح الغين، والدر بالظَّبط المتقدِّم كثرة اللَّبن وكثرة الخير، ومنه قولهم: "لله دَرُّه"، والغوث الاسم من الإغاثة، والمعنى الذي يقصده الشَّاعر أنَّه كثرة الإغاثة، ووصفه بذلك لأنَّه كما في البيت السَّابق على هذا البيت أنَّه إذا جاءه ذو الحاجة رأى في وجهه الابتيسام.

ومرثيَّته هذه لم يتغال فيها شأن الكثير من الذين يرثون فإنَّهم يسرفون في المدح، وتمثيل الحسرة تمثيلا يخرج عن حدِّ المعقول، فسلك الحقيقة وذكر له ما هو واقع من رقي المنابر لأنَّه أخذ خطَّة الخطابة في الجامع اليوسفي الذي يتولاَّه غالبا من يتقلَّد مشيخة الإسلام وقد تولَّى الخطابة فيه بإثر وفاة والده سنة 1233هـ.

وذكر أنَّه أجلى صدأ الفتيا بحدَّة ذهنه وهذا شيء كان معروفا بـــه، لأنَّ المرثي لم يتصدَّر للإقراء، بل ٱشتهر بمعرفة النَّوازل، وهو مـــا يعبِّـــر عنـــه بالنَّوازلي، ووصفه بأنَّه معين ذوي الحاجات على قضاء حوائجهم، وكذلك في التَّاريخ جاء بما هو واقع، وهو أنَّه من سلالة علميَّة توارث أهلوها العلم إذ قال:

هذا الهمام ٱبن الإمام ٱبن الإمام

ويدلُّ صنيعه في شعره هذا أنَّه يقتصد في شعره فلا يسفُّ إسفاف من لا يزن كلامه، فيلقي به من غير نظر إلى واقع وغيره.

ونستفيد من إمساك لسانه عن الغلوِّ أنَّه كان يعتـــزُّ بنفـــسه فيتحـــرَّى الحقائق، ويقتصد ٱقتصاد من يعرف وزن الكلام، وما يجرُّه إليه.

ويا ليته ٱلتزم هذا في كلِّ شعره، فلم يسف حين يمدح الأمير علي بـــن حسين فيذمُّ أعداءه، ويتمنَّى لأعداء ممدوحه الهلاك والانقراض، كما في قوله الذي تفاءل في تاريخه بهلاك أهل جبل وسلات حيث يقول:

بـــشرى أبـــا الحـــسن الرضـــى هنـــاء جانبـــك الرّفيـــــــع
ولـــك الهنـــا إذ أرَّخـــــو (وســـلات يهلـــك في ربيـــع)

(1174)

وهذا التَّفاوت سببه كون المترجَم في شعره الذي يمدح به لأجل الصِّلات قيَّدته الأطماع وفي شعره السَّليم من الأطماع كان مالكُ زمام نفسه.

من تقاريضه

سار المترجَم على سنَّته مع العلماء، مع أديب من أدباء عصره فلم يراسله فحسب بل مدح بعض شعره، وهو الأديب الوزير الكاتب أحمد الأصرم[1]، وهي قصيدته التي مدح بها أمير عصره:

1 أحمد الأصرم، نسبهم في قبائل الفتح من اليمنية، خرج هو وأخوه مع أولاد الباي حسين بن علي إلى الجزائر ورجع معها وتقلّبوا في الخطط العالية. مشهور الذكر في الفضل والأدب و"التّاريخ الباشي" مشحون بأشعاره. تولى رئاسة القلم والإنشاء. (الإتحاف 51/7 وعنوان الأريب 530/1).

يـــا رعـــي الله للرَّبيـــع شـــبابه إذا شـــاب البطـــاح زهـــر تـــشابه

وهي القصيدة التي عارضها الطوير وتقدَّم ذلك في ترجمة الطوير، وسميَّة لم يخل مدحه للوزير الأصرم من التَّعريض بالغراب صراحة، ومن التَّعـريض بالطوير تلميحا، أمَّا تعريضه بالغراب فسيأتي فيما نأخذه من هذه القـصيدة التقريضية، وأمَّا تعريضه بالطوير فيبدو من تقريظه لقصيدة الأصـرم الـتي عارضها الطوير حيث هي ضرَّة قصيدة الطوير.

وهذا تقريض سميَّة:

درر هـــذه بـــدت أو دراري أم ريـــاض زهـــت بقطـــر الـــسَّحابه
أم بـــدور ســـطت بـــازي ســـناها فأطـــارت مـــن الظَّـــلام (غرابـــه)
أم شمـــوس تـــلألأت في المعالـــي فأزالـــت عـــن العيـــون ضبابـــه
أم عـــبير مـــن العنـــابر أهـــدى نفحة تـــذهب العنـــا والكآبـــة
أم خـــدود بفجرهـــا تتجلَّـــى في سما الحـــسن تحـــت ليـــل الذؤابـــه
أم لئـــال تنظَّمـــت في عقـــود منحـــوى بهـــا البـــها والمهابـــة
أم نظـــام الـــذكي نهـــر المعانـــي (أحمد) الأذكيـــاء فخـــر الكتابـــة
هو بحـــر فـــإن بـــدا منـــه در بـــارع في جمالـــه لا غرابـــه
لا يـــلام القـــريض إن تـــاه فخـــرا سيفه (أصـــرم) كـــبير النَّجابـــه
كيف لا وهو في (على) المعلـــى ملك كلُّ مـــن رآه أهابـــه

إنَّ أبياته هذه هي مدح للوزير الكاتب، ولكنَّها تعريض ينبئ بما ينطوي عليه الشَّاعر من نفسيَّة انتقاديَّة ذات لسان كالمقراض يقرض من يتعرَّض له. فهذا بيته الثَّاني حملة على الغراب حيث جعل سنى الأصرم كالبازي يـنقضُّ على الغراب فيطير، ولا نظنُّ أنَّ الممدوح في نفسه شيء على الغراب أراد أن يتناوله سميَّة بالقدح حتَّى يشفي ما بنفسه لأنَّ منزلة الأصرم منزلـة عاليـة، فالغراب يتحاماه، ولا يمكن أن يتعرَّض له بقدح لأنَّ منزلة الوزارة في عصور الملك المطلق النَّيل منها من أسباب الرَّدى فكيف يتجـرَّأ الغـراب عليـه، والرُّوح السَّائدة في تلك الأيَّام هي روح الخوف والمداراة، ثمَّ إنَّ التَّـزاحم

الموجب للتّراشق والنّقد مفقود بينهما، فالأصرم له أسبقيّة إعانة للرّشيد وأخيه نشرها التّاريخ، وليس للغراب شيء منها.

وإنّما الأمر أنّ سميّة جرى بينه وبين الغراب مهاترات سنوضّحها فيما يأتي هي التي ساقته إلى أن يحطّ منه في تقريضه، ويلتمسها فرصة للتّعريض به.

وحبُّ النّقد أوقعه في النّقد فإنّ الغراب ليس من طيور اللّيل حتّى إذا سطا عليه بازي السنى أطاره مثل البوم الذي هو من طيور اللّيل، لكن نلتمس له مخرجا بأنّ من الغربان ما يترك أخلاق فصيلته ويتشبّه بالبوم فيقال له غراب اللّيل حكاه الجاحظ[1] وسمع بعض الثّقات يقول هذا الغراب يشاهد كثيرا في اللّيل، فهو من القلّة حتّى شكّ في وجوده، ولذلك أسندت رؤيته إلى بعض الثّقات وإن كان سميّة ٱطّلع على ما ذكره الجاحظ وقصده ٱنقلب النّقد، وصار إطراء لأنّه إغراق في القدح حيث لم يجعله غرابا كالغربان بل جعله أعرق في الشُّؤم وهو غراب اللّيل الذي لم يكتف بما منح بل جعل نفسه جامعا شؤمين شؤم أصله، وشؤم البوم، فمن شبّه به كان في الدّركات.

تقريض الكنّاش

ولمّا أتمّ حسونة التُّرجمان[2] كنّاشه قرضه المترجَم، وتأليف الكنّاش ٱشتهر في هذا العصر وهو تأليف يجمع فيه مؤلّفه ما يعثر عليه من غرائب المسائل دون ترتيب على أبواب، وإنّما هي مسائل فرائد يجمعها الجامع حسبما يعنّ له حين المطالعة.

---

1 عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، اللّيثي، أبو عثمان، الشّهير بالجاحظ. كبير أئمة الأدب من المعتزلة. له تصانيف كثيرة منها: "الحيوان"، "البيان والتبيين" والبخلاء". ولد بالبصرة وتوفّي والكتاب على صدره سنة 255هـ/869م. (الأعلام 239/5).

2 أبو محمَّد حسونة بن مصطفى التُّرجمان. عالم جليل، تولى القضاء في عهد علي باي وتوفّي عقب عزله سنة 1194هـ (مسامرات الظّريف 17/3).

ومن الغريب أنَّ مثل هذا العمل يخصُّ بالمدح مع أنَّه من البساطة بمكان لعدم تكليفه كاتبه شيئا إلاَّ مجرَّد النَّقل دون تحرير أو ترتيب، فالتَّأليف يتطلَّب من صاحبه مجهودا خاصًّا حتَّى ولو كان في المسائل المعروفة فلا بدَّ أن تبرز فيه شخصيَّة الكاتب، أمَّا الكنَّاش فلا شخصيَّة فيه لكاتبه، وإنَّما هو مسائل مأخوذة حسبما عنَّ له.

ومع فقدان الشخصيَّة فيه كان له وزن، وٱعتبر من الأعمال ذات القيمة، ويدلُّ هذا على ضعف حركة التَّأليف فلو كانت هناك تآليف كثيرة لما ظهرت أيَّة قيمة للكنَّاش لفقدان التَّعادل بينهما، بل للفرق الواضح للتَّأليف عليه.

ومع هذا وجد هذا الكنَّاش من شاعريَّة المترجَم ما قرضه به أوَّلا وثانيا.

تقريضه الأوَّل

تقريضه هذا كان في ذي الحجَّة سنة 1156هـ:

حاوي حسونة لما	يسبق بصنع أهله
في دفتر للبرايا	أبدى فنون الأجلّه
فمن تأمَّل فيه	خير ثمار الأدلَّه
وحاز في النَّاس عزا	لم تعتريه المذلَّه
لا غرو فيه إذا ما	سما سموَّ الأهلَّه
فالعلم أرخى عليه	من الجلالة حلّه
في حجَّة أرِّخوه	(كنَّاشه ما أجلّه)

يستخرج من هذا التَّاريخ السَّنة المذكورة إذ الكاف عشرون، والنُّون خمسون، والألف واحد، والشِّين ألف، والهاء خمسة، والميم أربعون، والألف واحد، والهمزة واحد، والجيم ثلاثة، واللام ثلاثون، والهاء أربعة، ومجموع هذه الأعداد يتحصَّل منه 1156.

وقد جاء صدر البيت الأوَّل هكذا:

حاوي حسن لم

كما في هامش "مجمع الدَّواوين التونسيَّة"، وهو غير مستقيم الوزن ثمَّ إنَّ صاحب الحاوي أي الكنَّاش ٱسمه ليس حسنا، وإنَّما هو حسونة، وقد أقمته كما أثبته ريثما أقف على نسخة أخرى تصحِّح هذا التَّحريف.

وجاء عجز البيت الثَّالث غير مرتبط مع الصَّدر فلعلَّه يكون صوابه كما يأتي:

فمن تأمَّل فيـــــــــــه حوى ثمار الأدلَّـــــــــــه

وجاء عجز البيت الرَّابع:

لم تعتريه المذلَّة

بإثبات ياء الفعل المعتلِّ مع الجزم بلم، ولست أدري أذلك من النَّاسخ، أم ذلك من الشَّاعر نفسه، وإذا كان منه فلعلَّه كان ٱعتمادا علـــى الـــضَّرورة الشعريَّة، إذ منها إجراء المعتلِّ المجزوم مجرى الصَّحيح كما في قول الشَّاعر:

ألم يأتيك والأنباء تنمي

ٱنظر "الضَّرائر"[1].

لكن هذا وإن ساغ ضرورة فهو ضرورة قبيحة.

تقريضه الثَّاني

كما قرضه في المحرَّم من السَّنة الموالية:

نعم الصّنيع أتى بـــه حـــسن الرّضـــى لذوي النّهى أهل الفـــصاحة والنّجـــاد
جمع المسائل في ســـلوك عجائـــب فتفرَّدت بين المسائل والرَّشـــــــاد
لَّما نظـــرت إلى بـــديع جمالـــــه عفّت الرّقاد ولـــذَّ لي طعـــم الـــسّهاد
أجلى الإفـــادة للـــورى فلأجـــل ذا بمحرّم أرَّخت (كنَّاش أفـــــاد)

---

1 الضَّرائر وما يسوغ للشَّاعر دون النَّاثر، باب إجراء المعتل المجزوم مجرى الصَّحيح، ص174. تأليف محمود الألوسي. (المطبعة السَّلفية القاهرة/134).

والألوس هو محمود بن عبد الله بن شهاب الدِّين محمود الألوسي الحسيني. مؤرخ، عالم بالأدب والدِّين ومن الدعاة إلى الإصلاح له عدَّ مؤلفات منها "بلوغ الأرب في أحوال العرب" وفتح المنان" توفِّي سنة 1342هـ/1924م. (الأعلام 49/8).

وهذا التّاريخ أقصر من المتقدِّم، وهو مثله في أكثر حروفه ولم يزد عليه إلاّ الفاء، وهي ثمانون فجملة ما يتحصَّل من مجموع الأعداد 1157.

التّهنئة بالعام الجديد

كان شاعرنا سميَّة لا يغفل المناسبات المارَّة سواء كانت من المناسبات العامَّة كالأعياد، أو الخاصَّة كالختان أو ختم البخاري، فينشد فيها حسبما تأتّى له، وبذلك كان بعض ما ينشده مقطعات بل دون المقطعات، ويبدو أنَّ ذلك خوف منه على أن لا يكون منشدا في كلِّ مناسبة، ولا يبعد أنَّه في بعض إنشاداته يرتجل لأنَّ منها ما لا يتجاوز البيتين، وليس من قيمة شاعر مثله أن يأتي حاملا لورقة الإنشاد وليس فيها إلاَّ بيتان كما سنذكره من إنشاداته التي هي مأثورة عنه.

ومن المناسبات العامَّة التي أنشد فيها المترجَم حلول رأس العام الجديد، وبالطَّبع إنَّه العام الهجري، وهذا يدلُّنا على أنَّ رأس السَّنة الهجريَّة كان يحتفل به كما يحتفل ببقيَّة الأعياد الأخرى إلاَّ أنَّه ٱحتفال دون بقيَّة الاحتفالات بتونس، إذ لم يأت له ذكر كالاحتفال بيوم المولد الشَّريف.

غير أنَّ اليوم العاشر من المحرّم يحتفل به في تونس ٱحتفالا يتأنَّق النَّاس فيه، ويظهرون في تلقِّيه حفاوة وٱبتهاجا، حتَّى أنَّ الأسواق كانت تأخذ فيه الزِّينة البالغة.

وكان هذا الاحتفال باليوم العاشر من المحرَّم، وهو يوم عاشوراء منذ القدم، وقد حدَّثنا عنه أحد رجال القرن الحادي عشر، وهو ٱبن أبي دينار في كتابه "المؤنس في أخبار إفريقيَّة وتونس" فذكر أنَّ التونسيِّين يحتفلون به غاية الاحتفال، وينفقون فيه الأموال الوافرة، وأنَّه يخصُّونه بأكل لحم الدَّجاج[1].

1 المؤنس ص 306.

وممَّا يدلُّ على الاحتفال برأس السَّنة الهجريَّة ما يصنع بسبب هذه المناسبة من الأطعمة الخاصَّة وقد أنشد سميَّة تهنئة بعام هجري جديد:

وافاك عـــام الـــيمن بالبركــــــات والسَّعد ســـاعد والزَّمـــان مـــوات

والوقت مبتـــسم المحيّـــا مـــشـــرق بسنا الهنا صـــاف مـــن الـــشُّبهـــات

بك كلّ أرض ســـرت فـــوق تراهـــا سعدت وأنـــت ســـعدت بالأوقـــات

يا من ترفع قـــدره وسمـــا علـــــى كلّ الملـــوك بـــأرفع الدَّرجـــــات

يا من له سند قـــويٌّ في العلـــــى عن والـــد يرويـــه خيـــــــر رواة

أقبل إلى ما تـــشتهي مـــن حاجـــة فيؤمّـــك الإقبـــال بالحاجــــــات

الله أودع فيك نـــور فراســـــــة فتكاد تخبرنا بمـــــــا هـــو آت

أصبحت في وجـــه الفـــضائل غـــرّة يجلو ســـناها غيهـــب الظُّلمـــــات

أبقـــاك ربُّـــك للأنـــام مؤيّـــــدا وحماك إكرامـــا مـــن النَّكبـــــات

ما أنشد النُّجباء قـــول مـــــؤرِّخ (أسعد بعام هلَّ بالبركـــــــــات)

وهذا التَّاريخ للعام الذي هنَّأ به الأمير علي بن حسين من بدائع التَّاريخ، إذ لا يبدو عليه التكلُّف المصطنع الذي نجده في الكثير من التَّواريخ.

وتحليل هذا التَّاريخ أنَّ قوله (أسعد) الهمزة بواحد، والسِّين بثلاثمائة على طريقة المغاربة، والعين بسبعين والدَّال بأربعة.

وقوله (بعام) الباء باثنين، والعين بسبعين والألف بواحد، والميم بأربعين.

وقوله (هل) الهاء بخمسة، واللاَّم بثلاثين.

وقوله (بالبركات) الباء بأثنين والألف بواحد واللاَّم بـــثلاثين، والبـــاء بأثنين، والرَّاء بمائتين، والألف بواحد، والكاف بعشرين، والتَّاء بأربعمائة.

فجملة قوله (أسعد بعام هلَّ بالبركات) (1179) فهذا العام هو المهنَّأ به.

وله تاريخ آخر أبدع فيه مثل ذلك الإبداع، و لم يكن فيه حاكيا لما تقدَّم بل متفنِّن، وهو ما جاء في القصيدة الآتية هنَّأ بها الأمير المذكور:

فتحت عليك بما تشاء بـــلا عنـــــا بمفاتيح الإقبال أبـــواب للهنـــــــــا

فوَّضت للأقدار أمـــرك كلَّمـــــــا أمَّلته تلقـــاه ســـهلا ليِّنـــــــــــا

ناديت سعدك والزَّمـــان مـــساعـــــد فأجاب: سل ما شـــئته فلـــه أنـــــا

أجرى الكلام على لسانك طيبه ولنشر طيب ثناك أجرى الألسنا
وملوك عرب العالمين وعجمها أفواهها صارت لذكرك مسكنا
إن كانت الأمراء بدرا أو ذكا فعلي باشا آبن الحسين هو السنا
نهر من المعروف يغرف من نأى من فيضه المعروف، أحرى من دنا
لو حلَّ في ماء أجاج طبعه لحلا، وفي حجر لأضحى لينا
لو مرَّ بالأشجار وهي عرية لكسا بأوراق شذاه الأغصنا
تتنشّق الأمراء طيب ثنائه فكأنَّه لهم الشِّفاء من الضّنى
وأكابر العلماء تشهد أنَّه بيد الذَّكاء من العلوم تمكّنا
أبدت له الأيَّام وهي سنيّة أبسناه في أفق الهنا شمس المنى
وهواتف الإقبال في عليائه تشدو: نجا من بالإله تحصّنا
لك يا أبا الحسن السُّرور، وللعدى حزن فليس له دوا إلاَّ الفنا
لَمَّا أتى العام الجديد تجدَّدت حلل الهناء بها بقيت مزيّنا
فلذاك قلت مبشِّرا ومؤرِّخا (عام السعود أتى فلاح لك الهنا)

قبل أن نتعرّض للتَّاريخ نأتي على بعض مآخذ على هذه القصيدة، كان على المترجم أن يتجنَّبها، من ذلك أنَّه آستعمل عرية (لو مرَّ بالأشجار وهي عرية) بمعنى أنَّ الغصون من الأشجار قد خلعت من أوراقها، والمعروف أنَّ آسم الفاعل من عري بكسر الرَّاء إذا كان للمؤنِّث إمَّا عارية، أو عريانة، أمَّا العرية فهي الرِّيح الباردة، أو النَّخلة يعريها صاحبها غيره ليأكل ثمرها.

ويمكن أن يجاب عنه بتكلُّف أنَّ العرية تطلق على النَّخلة التي أكل ما عليها، وهو وإن تحمَّلناه على تكلُّف فيه ما يأباه الذَّوق.

وكذلك البيت الذي قبل الأخير وهو قوله:

لَمَّا أتى العام الجديد تجدَّدت حلل الهناء، بها بقيت مزيّنا

معنى هذا البيت حين جاء العام الجديد تجدَّدت حلل الهناء، ثمَّ دعا له بأنَّه يبقى بها مزيّنا أي متحلّيا بها، والنَّقد موجَّه إلى قوله (بها بقيت مزيّنا)، فإنَّه يردُّ عليه ما أورده آبن عبد العزيز في باشيه من أنَّ قوله يا مزيّن في عجزه من قصيدة أخرى:

(أمسى عدوّك يا مزيّن خائبا)

من الألفاظ العاميَّة السَّافلة[1] التي لا ينبغي أن تقع في خطاب الملوك، ولا في مدائحهم، ولا سيَّما إن كسرت الباء، لكن كسر الباء هنا لا يتَّجه إليه اللِّسان لأنَّه لا يمكن.

هذا والقصيدة فيها مبالغات غير مقبولة فكأنَّه لم يجد ما يمدح به الأمير فعرَّج على هذه المبالغات التي ملأ بها قصيدته.

ولكن يعفى على هذه المآخذ كلّها أنَّ التَّاريخ الذي جاء به في آخر القصيدة مقبول سائغ لدى ذوي الأذواق الأدبيَّة وهو قوله:

"عام السعود أتى، فلاح لك الهنا"

وجملة هذا التَّاريخ 1180 وهو العام المهنَّأ به.

وله تاريخ أنشده تهنئة بعام جديد، وهو العام الذي أنشد فيه قصيدته السَّابقة التائيَّة وجاء هذا التَّاريخ ضمن بيتين.

ولست أدري هل هما من قصيدة أخرى أنشدها كما أنشد القصيدة المتقدِّمة، وإنَّما وقع الاقتصار عليهما أو أنَّه أنشد هذين البيتين فقط ٱرتجالا كما تقدَّم من أنَّه يبعد أن يأتي بهما هكذا مفردين.

والبيتان خصَّهما بمدحه بالحلم، وكأنَّه تمَّم بهما قصيدته التائيَّة التي خلت من ذكر حلم الأمير الممدوح، فكأنَّ المترجَم ٱنتقدت عليه قصيدته حيث أخلاها من ذكر أبرز صفات الأمير علي بن حسين، وهي صفة الحلم التي أشاد بذكرها غيره مثل الطوير، والكثير من الشُّعراء الذين مدحوه، فإنَّهم قد أطنبوا في وصفه بالحلم، ولعلَّ ذلك أوقع في نفس هذا الأمير.

وبيتاه هما هذان:

يا مفردا جمع الكمال وماله ... في الحلم من أهل الزَّمان مشارك

قد أقبل العام السَّعيد فأرِّخوا ... (عام عليك -كما تريد- مبارك)

[1] الكتاب الباشي ص 107.

ولم يكتف في وصفه بالحلم حتَّى جعل حلمه حلما ممتازا لا يشاركه فيه غيره، فكلٌّ من اتَّصف بهذه الصِّفة لا يبلغ مدَّه ولا نصيفه.

ولعلَّ هذين البيتين أنشدهما كما أنشد أبو تمَّام بيتيه لمَّا ٱنتقد عليه في قصيدته السينيَّة.

ولو أردنا حلّ النَّظم ونثره لكان هذا التَّاريخ هكذا (عام مبارك عليك كما تريد)، وهو كما ترى يكاد يكون من الكلام العاديّ الذي نهنّئ به في معتاد الكلام بدون زيادة ولا نقص، فهو منتزع ممَّا يدور على الألسنة والغرابة فيه والطَّرافة أنَّه نزَّله على العام المؤرَّخ.

ونوضِّح هذا التَّاريخ بأنَّ قوله (عام) العين بسبيعن والألف بواحد، والميم بأربعين.

وقوله (عليك) العين بسبعين، واللاَّم بثلاثين، والباء بعشرة، والكاف بعشرين.

وقوله (كما) الكاف بعشرين، والميم بأربعين، والألف بواحد.

وقوله (تريد) التَّاء بأربعمائة، والرَّاء بمائتين، والياء بعشرة، والدَّال بأربعة.

وقوله (مبارك) الميم بأربعين، والباء باثنين، والألف بواحد، والرَّاء بمائتين، والكاف بعشرين.

فجملة التَّاريخ في قوله (عام عليك كما تريد مبارك) (1179).

وهو عين التَّاريخ المتقدِّم:

ما أنشد النّجباء قول مؤرّخ (أسعد بعام هلَّ بالبركات)

يدلُّ قولاه تاريخا على براعة فائقة، وٱقتدار كامل على ٱستخراج التَّواريخ المسبوكة في إعجاز أبياته دون أن تكون نابية، أو ثقيلة على السَّمع كما في التَّاريخين المتقدِّمين فالسَّنة واحدة وهي (1179هـ) ومع ذلك أتى لها بتاريخين غير متماثلين، بل كلُّ تاريخ منها مختلف في كلماته إلاَّ كلمة (عام) التي كرَّرها من أجل أن يفيد أنَّ كلاًّ من التَّاريخين إنَّما هو للعام الجديد، إذ كلمات التَّاريخ الأوَّل أسعد وهلَّ، وبالبركات، وكلمات التَّاريخ

الثَّاني عليك وكما تريد، ومبارك، وإنَّما الحروف التي في التَّاريخ الأوَّل هي في التَّاريخ الثَّاني إلاَّ باختلاف بسيط.

وإذا ٱسترسلنا في الاستنتاج في سبب إنشاد هذين البيتين نذكر أنَّه ربَّما أنشدهما بعد قصيدته حين وقعت المذاكرة في تاريخه، فأراد أن يظهر المقدرة التامَّة في التَّاريخ، فأتى بهذا التَّاريخ الثَّاني لكي يقرَّ له السَّامعون بالمقدرة التامَّة على ٱستخراج التَّاريخ، ثمَّ نظمه في سلاسة.

وأنشد في عام آخر قصيدة:

أوقات دهرك في سرور صافية ... والعام أقبل بالهنا والعافية
نتجت مقاصدك الَّتي أملتها ... ومقاصد الأعداء أضحت بالية
الآن جاء السَّعد والنَّحس ٱنتفى ... لو تطلب الدُّنيا لجاءت حافية
فالنَّصر ممتثل لجيشك طائع ... يعصي البغاة ذوي النُّفوس الغاوية
مهما ٱتَّجهت لما أردت تلألأت ... شمس السَّلامة في سماء سامية
لم تسمع إلاَّ ما يسرُّ، ولا ترى ... إلاَّ الذي يرضي، ونفسك زاهية
لك كلُّ يوم يا علي مسرَّة ... ولكلِّ باغ من جيوشك غازية
قرَّت بعين الأمن عينك فرحة ... وغدت عيون ذوي الخيانة باكية
عمرت منازلك العليَّة بالهنا ... ومنازل السُّفهاء عادت خالية
ما همَّ خاطرك النقي بحاجة ... إلاَّ وتأتي بٱعتنائك شافية
لَّما أتى عام الهنا أرَّخته ... (عام تجلَّى في سماء العافيه)

وهذه القصيدة كما يبدو من تاريخها من أوَّل قصائده التي هنَّأ بها الأمير علي بن حسين بالعام حيث أنَّ تاريخها يصادف ثاني عام جلس فيه على أريكة الملك وهو عام 1174هـ، إذ هو قد ورث العرش من أخيه في سنة 1172هـ.

وبيان تاريخها أنَّ قوله (عام) العين بسبعين والألف بواحد، والميم بأربعين.

وقوله (تجلَّى) التَّاء بأربعمائة، والجيم بثلاثة، واللاَّم بثلاثين وألف بواحد.

وقوله (في) الفاء بثمانين والياء بعشرة.

وقوله (سماء) السِّين بثلاثمائة، والميم بأربعين، والألف بواحد، والهمزة كذلك.

وقوله (العافية) الألف بواحد، واللاَّم بثلاثين، والعين بسبعين، والألف بواحد، والفاء بثمانين، والياء بعشرة، والهاء بخمسة، وإنَّما حسبت تاء آخر العافية هاء بٱعتبار النُّطق بها في القافية لأنَّها لا ينطق بها تاء، وإنَّما ينطق بها هاء ومثل هذا تجلَّى بحسب الحرف الأخير ألفا وإن كانت الألف المقصورة ترسم على صورة الياء.

وهذه القصيدة وإن سلم له التَّاريخ فإنَّ عليها مآخذ منها قوله:

لو تطلب الدّنيا لجاءت حافية

فإنَّ هذا التَّعبير وهو مجيء الدُّنيا حافية من التَّعابير العاميَّة المبتذلة مع أنَّه له مندوحة عن هذا التَّعبير في تعبير آخر سليم وهو إبدال حافية بساعية، أي أنَّ الدُّنيا تأتي إليه قاصدة إيَّاه، وهي تجري إليه.

وكذلك في البيت الذي قبل هذا البيت فإنَّه قابل النّتج لمقاصد الممدوح بأنَّ مقاصد أعدائه بالية، بل الذي يقابل النّتج هو العقم، ولو أبدل نتجت بقوله بقيت لكانت المقابلة مقبولة، ونتج في هذا البيت يقرأ بالبناء للنَّائب وتجوز قراءته بالبناء للفاعل.

ٱنتقاد وإعجاب

إنَّ القصيدة السَّابقة التي جاء في تاريخها (تجلَّى)، قد أثارت ٱنتقاد المؤرِّخ النَّقادة حمُّودة بن عبد العزيز حيث ذكر أنَّ ههنا نكتة، وهي أنَّه هل العبرة في حساب التَّاريخ بالحروف المنطوقة أو المكتوبة.

فإن كانت العبرة بالمكتوبة فينبغي أن تحسب ألف (تجلَّى) بعشرة لأنَّها تكتب ياء فلا يتمُّ له التَّاريخ.

ولنا في هذه المسألة كلام لعلَّنا نذكره فيما يأتي إن شاء الله تعالى.

يبدو من ٱنتقاد ٱبن عبد العزيز أنّه متردِّد في ٱنتقاده حيث أحال تحرير المسألة على الوعد بأنّه له في هذه المسألة كلام لعلّه يذكره فيما يأتي، ولم يوف بما وعد به.

لكن إذا رجعنا إلى شاعر له التجلّي والبراعة في هذا الميدان من أهل المشرق، وهو السيِّد علي أفندي الدَّرويش[1] صاحب الدِّيوان المشهور "الإشعار بحميد الأشعار" نجده لا يعتبر الألف المقصورة إلاَّ بعشرة من ذلك قوله من بديعيّة في مدح حضرة المصطفى صلَّى الله عليه وسلَّم:

أرجو قبولك نظما في مؤرّخه (أهدى) على ثناء شافع الأمم

حيث تجمع من (أهدى) عشرون لأنَّ الهمزة بواحد، والهاء بخمسة، والألف المقصورة بعشرة.

وله من أخرى في مدح الوزير كامل باشا ومؤرِّخا سنة 1261هـ:

وزير جلّ كامل خير عدل (رقى) في أحسن شرف الممالك

فهذا البيت يستخرج منه تاريخان من الصَّدر، ومن العجز وقد حسب (رقى) بثلاثمائة وعشرة من الأعوام، إذ الرَّاء بمائتين، والقاف بمائة، والألف المقصورة بعشرة.

وهذا يدلُّ على ٱعتبار الحروف المكتوبة لا المنطوقة، وهو ما يميل لترجيحه ٱبن عبد العزيز.

ثمَّ إن سلَّمنا أنَّ الاعتبار بالنُّطق لا بالكتابة يلزم على هذا أن يعتبر سميَّة لام تجلَّى بلامين لأنَّها مضعّفة جريا على السُّنن الذي ٱتّبعه في الألف المقصورة، وهو لم يعتبرها إلاَّ لاما واحدة ٱعتمادا على الكتابة.

---

1 علي بن حسن بن إبراهيم الأنكوري المصري، المعروف بالدَّرويش. شاعر، أديب، شاعر الخديوي عبّاس. له ديوان شعر: "الإشعار بحميد الأشعار" و"الدَّرج والدَّرك". توفِّي سنة 1270هـ/1853م. (الأعلام 85/5).

وهذا يعدّ منه من قبيـــل التَّضارب حيث اُعتبـــر في الـــلاَّم الكتابـــة، واُعتبر في الألف المقصورة النُّطق.

وهذا الانتقاد لا يتوجَّه على قوله (العافيه) لأنَّ آخر الكلمة يكتب هاء، وينطق به كذلك فقد توافق النُّطق والكتابة.

وهذه المسألة تحتاج إلى بسط ليس هذا محلّه إذ يحتاج إلى بحث خـــاصّ ربَّما تكون لنا عودة إليه حتَّى تأخذ هذه المسألة حظَّها من التَّحرير.

وإذا كان هذا الانتقاد وجيها ومتمكّنا فإنَّ ذلك لا يمنعنـــا أن نبـــدي إعجابنا بتاريخه، وإن كان منتقدا فإنَّه إذا نظر إليه من حيث سلاسة ألفاظه بدا في غاية السَّلاسة، وإذا قيس هذا التَّاريخ بتواريخ السيِّد علي الـــدَّرويش الذي يعدُّ من أبرز رجال التَّاريخ الشِّعري فاقه في كثير من تواريخه، ويكفي نموذجا ما جئنا به من التَّاريخين المتقدِّمين.

ويزيدنا إعجابا وإكبارا بتواريخه أنَّ السَّنة المذكورة التي هنَّأ الأمير بهـــا بالقصيدة المتقدِّمة، وهي سنة 1274هـــ قد أتى لها بثلاثة تواريخ أخرى نأتي عليها تدليلا على براعة المترجَم في التَّاريخ الشِّعري، وأنَّه من المبرّزين في هذا الميدان.

وإنَّما أكثر من التَّاريخ لهذه السَّنة لأنَّها سنة أخرج فيها علي بن حسين محلّة أولى في شهر ربيع الأوَّل للتَّضييق على أهل وسلات وحصارهم.

وأخرج محلّة أخرى في ربيع الثَّاني للغرض المذكور تشديدا على أهله.

ولَّما رجعت المحلَّتان اتَّصل حصار العرب للجبل محدقين بـــه، وكانـــت المناوشات تجري بين الجانبين وهنَّأ المترجَم الأمير المذكور بالسَّنة المتقدِّمـــة بالقصيدة السَّالف ذكرها.

كما هنَّأه بقصيدة أخرى ذامًّا فيها أهل وسلات:

يـــا أيّهـــا الملـــك الـــــذي ... في النّـــاس بـــالحلم ٱشتهـــــر
مـــن كـــلّ ســـوء أنـــت فـــي ... أمـــن وجيـــشك منتـــصـــر
معـــك الألـــه فكـــلّ مـــا ... تبغـــي ييـــسّره القـــــدر
حرســـتك عـــين الحفـــظ في ... حـــال الإقامـــة والـــسَّفـــر
وحمتـــك أجنحـــة التّقـــى ... ويـــد العفـــاف مـــن الـــضَّـــرر
والعفـــو زادك همَّـــة ... وعلـــى الملـــوك بـــك ٱفتخـــر
مـــا يفلـــح البـــاغي ولا ... يحظـــى بخير مـــن عقـــر
وســـلات خـــاب رجـــاؤه ... وحـــوى المذلّـــة فٱحتقـــر
مـــا رام يرمـــي سهمـــه ... إلاّ وينقطـــع الوتـــر
مـــا جـــاء يجـــني قـــصـــده ... إلاّ وســـاعده ٱنكـــســـر
غـــاب النّهـــى عـــن أهلـــه ... إلاّ هلاكهـــم ظهـــر
بـــالخوف جـــلّ كلامهـــم ... أيـــن المفـــرُّ أيـــن المفـــر
مـــزج الفـــساد صـــنيعهم ... ونظـــام شملـــهم انتثـــر
ونفـــاقهم ســـاق البـــلا ... لهـــم ليبلـــي مـــن غـــدر
يـــا مـــن تفـــرَّد بالحجـــى ... وبفـــضله شـــهد البـــشـــر
ٱجعـــل عـــداتك عبـــرة ... بـــين الـــورى لمـــن ٱعتبـــر
وضـــع المحـــبّ ذخيـــرة ... لـــك، ذو المحبّـــة يدَّخـــر
كـــن مـــن محبِّـــك آمنـــا ... ومـــن العـــدوّ علـــى حـــذر
لـــك يـــا علـــي مؤرِّخـــا ... (نـــصر تجلّـــى في صفـــر)

وجملة هذا التّاريخ 1274هـ، ويشفع هذا التّاريخ في بعض المآخذ على هذه القصيدة، والإنصاف يدعونا أن نذكر أنَّ بعض أبياتها بديعة الحكمة مثل قوله كن من محبّك البيت.

وله تاريخ آخر لهذه السَّنة جاء فألاً بالنَّصر، لكن هذا التّاريخ وإن كان مقبولا من النّاحية الأدبيَّة فهو لا يقبل ٱجتماعيًّا لأنَّ فيه إثارة للحفائظ بين الإخوان الذين تربط بينهم كلُّ الرّوابط ولولا أنّنا في معرض أدبيّ لما أسـغنا لأنفسنا ذكر مثل هذا:

بـــشرى أبـــا الحـــسن الرّضـــا   بهنـــاء جانبـــك الرفـــيع
ولك الهنا إذ أرَّخـــــوا   (وسلات يهلك في ربيـــع)

وله تاريخ ذكر ٱبن عبد العزيز أنَّ فيه تورية حسنة وهو قوله:

أمير الورى إن شاء ربُّـك مـا تـشا   يجيئك سهلا عن قريـب بـلا تعـب
فنعتك نادى يـا علـي مؤرّخـا   (يلاقيك نصر في محرم مع رجـب)

والتَّورية التي يقصدها ٱبن عبد العزيز هي في قوله يا علي حيث يتبادر أنَّه ٱسم الممدوح مع أنَّ المورَّى عنه كونه نعتا له من العلوِّ.

قيمة شعره

لَّما تغلَّب أبناء الأمير حسين بن علي على ٱبن عمِّهم علي باشا في سنة 1169هـ فرَّ حفيد علي باشا، وهو إسماعيل بن يونس إلى طرابلس، ثمَّ فرَّ منها ودخل الجنوب التُّونسي، وٱنتصر أوَّلا بأهل جمَّال فحاربهم الحاج علي بن عبد العزيز الذي أناط بعهدته الأمير علي بن حسين محاربة أهل جمَّال إلى أن تمكَّن من جمَّال بعد خروج الأمير الثَّائر إسماعيل بن يونس منها، وكان ٱنتهاء ثورة جمَّال في غرَّة ذي الحجَّة سنة 1172هـ.

ثمَّ تحصَّن الأمير الثَّائر بجبل وسلات فكانت الحرب سجالا بين الأمير الثَّائر، وبين محلاَّت الأمير علي بن حسين، فكان سميَّة يتفاءل في تواريخه بهزيمة وسلات، والأمير المتحصِّن به، وتواريخه في هذا المعنى كثيرة، وتفنَّن في بعضها، وتناولت الكثير من شعره، وقد تقدَّم بعض من ذلك.

ومن الغريب أنَّه ركَّز البعض من شعره على هذه النَّاحية تزلُّفا للأمير المذكور لأنَّ ثورة إسماعيل بن يونس ٱستمرَّت مدَّة، والأمير مشغول البال بها خوفا من أن تندلع نارها فتعمَّ المملكة، وتكون العاقبة مثل عاقبة علي باشا لأنَّ إجابة النَّاعقين بالفتنة سهلة في تلك العصور إذ النِّفاق ناجم، والظُّلم من العمَّال يثير النُّفوس، فٱستغلَّ سميَّة هذه الفتنة، وأبدى براعته التاريخيَّة فيها توصُّلا لما يطمح إليه من ٱنتظامه في سلك كتَّاب الدَّولة، إذ هي مطمح

الأنظار في تلك العصور لانحصار وظائف أبناء البلاد فيها أو الخطط الشرعيَّة.

وبسبب انصراف مهجته إلى التَّواريخ انحطَّ شعره عن غيره من الشُّعراء الذين شاركوه في هذه النَّاحية، والسَّبب في هذا هو التكلُّف الذي يدعو إليه التَّاريخ لأنَّ عادة الشُّعراء الذين يلتزمون التَّواريخ الشعريَّة أنَّهم ينظمون أوَّلا نصف بيت تاريخا للغرض الذي يقصدونه، ثمَّ يبنون عليه بقيَّة القصيدة، فيكونون مضطرِّين لأن تكون القصيدة على غرار ذلك التَّاريخ قافية وبحرا، وبالطَّبع إنَّ الالتزام في الشِّعر دون إرسال القريحة على سجيَّتها يضطرُّ الشَّاعر أن يتكلَّف بسبب ذلك التقيُّد، ومن هنا كان شعر سميَّة في انتهاء ثورة وسلات دون غيره من الشُّعراء المشاركين له في الغرض.

ومن الشُّعراء الذين ساهموا الورغي والغراب والطوير وكلٌّ هؤلاء قد ساهم في الإنشاد فالورغي والطوير قد أنشدا في ذلك معلَّقة، وأمَّا الغراب فإنَّه أنشأ رسالة في ذلك.

ومعلَّقتا الورغي والطوير إذا وضعتا في الميزان مع ما أنشده سميَّة كان التفوُّق لقصيدتي المذكورين على المترجَم، وقد قدَّمنا عن قصيدة الطوير ما يبرز بعض محاسنها التي يكون بها التفوُّق.

وقد أدرك هذا المعنى المترجَم فلذلك أكثر من الإنشاد في التغلُّب على جبل وسلات تداركا لعدم الإطالة والإجادة.

ولو أخذنا بعض من قصيدة الطوير المتقدِّمة مع قصيدة من قصائد سميَّة وهي قصيدته الرائيَّة التي نأتي عليها، ثمَّ نوازنها مع ذلك البعض فإنَّنا ندرك القيمة الشعريَّة في هذه الحلبة التي أركض فيها الشَّاعران خيل شعريهما لمن:[1]

هناء سنا الإقبال فيه يباشر ... ومن نخوة للنَّصر فيه البشائر
تبسَّم وجه الدَّهر بعد عبوسه ... ووجه علي بالبشاشة زاهر
مليك له في نخوة الملك بهجة ... وذكر له في سائر الأرض سائر

1 الكتاب الباشي 1/105-106.

تساعده الأقدار في كـلِّ مـا يـشـا فيقمع من عاداه والـربُّ قـادر
أيخشى ونصر الله يرعـى جيوشـه ويحظى بما شا من لـه الله ناصـر
أتاه بشير الخير يومـا فأصبحـت عليه لآلي البشر، وهـي نواضـر
وأحشاؤه فيها ريـاض مـسـرَّة وأحشاء أهل البغي فيهـا خناجـر
طغوا وبغوا والآن قـد آن حتفهـم وما الله عنهم غافل فهـو حاضـر
رمتهم على الأرض المنيَّـة بغتـة فعافتهم للخبث حتَّـى المقابـر
وألبست الأحيا يد الـسّبي ذلَّـة فأبغضهم باد رآهـم وحاضـر
فقل لذوي العصيان: هـذا جـزاؤكم جنيتم ومن يجني له الـدَّهر زاجـر
فللخير فعل ابن الحـسين محـرّك ومنطقه الـدري للكـسر جابـر
فيا ويح من عـاداه لم يلـق نهـضة يعيش مهانا وهو للخفـض عائـر
إذا حلَّ بطن الأرض قلـت مؤرّخـا (فدارت على أحيا الأعـادي الـدَّوائر)

هذه القصيدة التي بين أيدينا فيها ممَّا يتناوله النَّقد الشَّيء الكثير، وقبل أن نتعرَّض لبعض ما فيها من هنّات نوازن بين أبيات منها وهي الأبيات الأولى وما جاء من شعر الطوير في أوَّل معلَّقته الذي سما فيه جزالة وإبراعا:

فتح ونصر وإسـعاد وإقبـال لمن له خضعت صـيد وأقيـال[1]
ومن له همَّة شمَّاء قـد سحبـت لها على الفلـك الـدّوَّار أذيـال
ومن سريرته طابت وسـيرته الـ ـغرَّاء سارت بهـا في الملـك أمثـال
سهل السَّجايا نظيف العـرض صـيِّنه عذب المـوارد فيَّـاض ومنهـال
جمٌّ الفضائل مأمون الغوائـل محـ ـمود الفعائل معطـاء ومفـضال
صبح السِّيادة وضَّـاح بغرَّتـه إذا ضفا لدياجي الخطـب سربـال

فهذه الأبيات أين منها أبيات المترجَم، وبالأخصِّ الطَّالع لهذه القـصيدة فإنَّه إذا قيس بطالع المترجَم ظهر البون الشَّاسع بينهما، بربِّـك أيُّ معـنى مقبول لطالع سميَّة إذا حلَّ إذ معناه (هنا يباشر فيه سناء الإقبال، ومن نخـوة النَّصر فيه البشائر)، وأمَّا طالع الطوير فحلّه – وإن كان لا يحتاج إلى حلٍّ –

1 التاريخ الباشي 90/1.

(الفتح والنَّصر والإسعاد والإقبال للذي خضعت لـه الصَّيد والأقيال)، والصَّيد جمع الأصيد وهو الملك لا يلتفت من زهوه يمينا وشمالا، والأقيال جمع قَيل – بفتح القاف – وهو الملك، وهذا الطَّالع كما ترى فيه روعة وبراعة تشير إلى الغرض الذي أنشدت فيه القصيدة.

وإذا تدرَّجنا مع القصيدتين فالبيت الثَّاني للطوير:

ومن له همَّة شمَّاء قد سحبت لها على الفلك الدوَّار أذيال

بعد أن ذكر أنَّ ممدوحه خضعت له الصّيد الأقيال ذكر فيه كيف أنَّ الممدوح له همَّة أذيالها مسحوبة على الفلك الدوَّار، فلم يكتف بأنَّ همّته ٱعتلت على الفلك الدوَّار، بل ٱعتلت أذيالها عليه، وفي هذا من وصف الممدوح بعلوِّ الهمَّة ما هو في ذروة بلاغيَّة.

والبيت الثَّاني لسميَّة (إنَّ وجه الدَّهر تبسَّم بعد العبوسة، ووجه الممدوح زاهر بالبشاشة)، وأين هذا من ذاك.

وننتقل بعد هذه الموازنة العابرة إلى مؤاخذات على قصيدة المترجَم فإنَّ عجز البيت الرَّابع وهو:

فيقمع من عاداه والربُّ قادر

فيه تميم لا ٱرتباط بينه وبين الجملة قبله إذ هي تفيد أنَّ ممدوحه يقمع أعداءه، والتَّميم الربُّ قادر، فقدرة الربِّ جلَّ وعلا لا نزاع فيها والإخبار عنها لو مهَّد له لكان له وقع في النُّفوس، أمَّا الانتقال الفجائي فلا وقع له، وربَّما كان في هذا الانتقال ٱنتقاد آخر زيادة على ما ذكر، وهو أنَّ هذا التَّميم يفهم منه أنَّه تهديد للممدوح الذي قمع أعداءه فالله قادر عليه، وهذا وإن كان لا يلوح إلاَّ أنَّه قد ينصرف إليه الذِّهن بغضِّ الطَّرف عن الصَّدر.

جاء له بيت في قصيدته الرائيَّة لو راجع الشَّاعر فيه نفسه لرآه من الأبيات التي يستحي منها لأنَّه لا يخاطب به عامة النَّاس فضلا عن أمير ممدوح له إلمام بالأدب، وقريحة تميِّز بين الرديء والجيِّد، وهو قوله:

وأحشاؤه فيها رياض مسرَّة وأحشاء أهل البغي فيها خناجر

لا يليق أن يقول أحشاء الأمير فيها رياض مسرَّة، ولو قابل ذلك بقوله: (وأحشاء أهل البغي فيها خناجر)، لأنَّ الحشى كما هو معلوم ما في البطن كلّه من كبد وطحال وكرش وما تبعه، وهذا لا يقبل أن يقال فيه رياض مسرَّة لأنَّه مجمع الخبائث من الإنسان، ويا ليته عبَّر بالضَّمير لسلم من هذه الشَّناعة.

ثمَّ إنَّ مقابلة أحشاء الممدوح بأحشاء أهل البغي فيها سوء أدب أيضا لما في هذه المقابلة من السَّماجة الثَّقيلة على السَّمع، النَّافر منها الطَّبع.

وله بيت آخر بعد هذا البيت هو مثل قوله السَّابق، (فيقمع من عاداه والربُّ قادر) وهو قوله:

طغوا وبغوا والآن قد آن حتفهم وما الله عنهم غافل فهو حاضر

فهذا التَّميم الذي في العجز وهو (فهوَ حاضر)، تكرار مع قوله (وما الله عنهم غافل)، إذ عدم غفلته جلَّ وعلا لحضوره ومعيَّته مع كلِّ شيء.

وتتميمه هذا يناسب الأنظام التوحيديَّة لا القصائد المدحيَّة التي لها تعبير خاصٌّ غير التَّعابير التي أتى بها الشَّاعر لأنَّ لكلِّ مقام مقالا يناسبه، ويتماشى مع الذَّوق المطلوب فيه، أمَّا إرسال الكلام على عواهنه دون تقدير لمقام ممَّا يتحاشاه الشَّاعر البليغ.

وإذا ٱسترسلنا في نظرنا لأبيات هذه القصيدة تعثَّرنا فيها في بيت آخر وهو قوله:

فللخير فعل ٱبن الحسين محرّك ومنطقه الدّري للكسر جابر

الذي فيه ما ينبو عنه السَّمع وهو لفظ (محرّك) الذي لم نره مستعملا في أبيات البلغاء، وإذا لم نعتبر ذلك فهذا اللَّفظ لا يفيد المعنى الذي يرمي إليه الشَّاعر، وهو أنّه فعَّال للخير لأنَّ تحريك الخير لا يلزم منه فعله، وإنَّما يستفاد من قوله المذكور أنَّه يثير الخير كالدَّال على الخير.

وربَّما يقصد به شيئا آخر، وهو أنَّ ٱبن الحسين ينتج عن أفعاله الخير، وكما ترى ٱستفادة هذا المعنى غير واضحة في البيت.

وتاريخه الذي ختم به قصيدته هذه نبيِّن ما يفيده من التَّاريخ، ثمَّ نبدي ما يؤخذ عليه من انتقاد: وتاريخه هو:

(فدارت على أحيا الأعادي الدَّوائر)

وتاريخه هذا يتضمَّن خمس كلمات (فدارت) وجملة أعداد حروفها(685)، و(على) وجملة أعدادها (101)، و(أحيا) وجملة أعدادها(20)، و(الأعادي) وجملة أعدادها(127)، و(الدَّوائر) وجملة أعدادها (243)، وجملة هذا التَّاريخ(1176).

وتاريخه المختتم به قصيدته إذا أخذ بقطع النَّظر عن الصَّدر المشير إلى التَّاريخ لا مؤاخذة عليه لأنَّه أفاد أنَّ الدَّائرة قد دارت على الأعادي.

أمَّا إذا نظرنا إليه مع الصَّدر الذي فيه الإشارة التاريخيَّة نجده فيه ٱحتمال أنَّه ليس تاريخا لحيٍّ، وإنَّما هو تاريخ لميِّت إذ هو كما يأتي:

إذا حلَّ بطن الأرض قال مؤرِّخا ... فدارت على أحيا الأعادي الدَّوائر

فالمفهوم من البيت إذا ٱنفرد عن أخيه أنَّه إذا حلَّ في بطن الأرض دارت على أعاديه الدَّوائر، لكن هذا المعنى يزول بالرُّجوع إلى البيت قبله:

فيا ويح من عاداه لم يلق نهضة ... يعيش مهانا وهو للخفض عائر

فحينئذ يعود الضَّمير في (حل) على من عاداه لا على ممدوحه كما يستفاد إذا ٱنفرد بيت التَّاريخ.

والبيت الذي قبل الأخير منقود من جهة العربيَّة حيث ٱستعمل (عائر) بمعنى مستعير وليس ذلك موجود في العربيَّة فالعائر – إذا كانت عينه واوا – يكون بمعنى ما أعلَّ العين، والقذى، والرَّمد، والسَّهم لا يدري من رماه، وكذلك الحجارة لا يدري من رماها، وكذلك إذا كانت عينه ياء فإنَّه ٱسم فاعل لعار ومعانيه لا يصلح واحد منها.

فقصيدته التي وضعناها على محكِّ النَّقد لم يسلم له أكثر أبياتها كما وضَّحناه، ثمَّ إنَّ السَّالم منها على قلَّته ليس بذاك من حيث القيمة الأدبيَّة.

وإذا رأينا ما تناوله الانتقاد للقصيدة المذكورة نحكم بأنَّ ما قاله ٱبن عبد العزيز في باشيه على إجماله من أنَّ له مقطوعة صالحة دون غيرها هو حكم صحيح.

فٱبن عبد العزيز لم يتناول شعر سميَّة بالنَّقد ولكنَّه حكم كما تقدَّم بـأنَّ الصَّالح من شعره قليل حيث خصَّ الانسجام بقطعة من شعره دون غيرها، وهي القطعة الآتية:

والقطعة التي أشار إليها ٱبن عبد العزيز هي قوله في الغرض السَّابق أي ثورة جبل وسلات الذي تحصَّن به إسماعيل بن يونس:

وسْلات أضحى للبلاء مصاحبا   وعليه قد صبَّ الإله مصائبا[1]
والبغي مزَّق ساكنيه كأنَّه   جوٌّ يمزَّق بالرِّياح سحائبا
أمهلتهم وبَعثت سَيْفَ سياسة   فيهم فأظهَرَ في النُّحور عجائبا
فخليلهم بعد الصَّفا عاداهمً   ووَدُودُهُم للعَيْبِ أصبح هاربا
دم يا أبا الحسن الرِّضا في زينة   وٱحلُم على من جاء نحوك تائبا
زانت بك الدنيا فقُلتُ مؤرِّخا   أمسى عدُوُّك يا مُزَيِّنُ خائبا

وها نحن ننقل ٱنتقاد هذه المقطوعة لابن عبد العزيز من حيث التَّاريخ أمَّا المقطوعة كلّها فقد قرَّظها، ورأى أنَّها من صالح شعره، وإليك ما قاله:

"وهذه المقطوعة صالحة من شعره، سهلة الألفاظ منسجمة إلاَّ أنَّ قوله في التَّاريخ (يا مزين) من الألفاظ العاميَّة السَّافلة التي لا ينبغي أن تقع في خطاب الملوك، ولا في مدائحهم، -ولا سيَّما إن كانت الرِّواية عنه بكسر الياء-.

هذا مع ما ٱقتداره على التَّاريخ وتفرُّده فيه بالانسجام والسُّهولة وعدم الحشو، والتكلُّف، والمناسبة للمقصود، وٱختصاصه فيه بالبديهة"[2].

وقد كرَّر سميَّة ٱستعمال لفظ مزيّن في شعره وقد قدَّمنا ٱنتقاده في محلّه، وأشرنا إلى ٱنتقاد ٱبن عبد العزيز.

---

1 الكتاب الباشي 106/1-107.

2 المرجع السَّابق.

وهو ٱنتقاد متَّجه مع إنصاف للمترجَم حيث ٱنتقده في خصوص هـذا التَّاريخ مع الإقرار له بأنَّه من ذوي الإجادة في التَّواريخ.

إبداعه التَّاريخي

ٱمتاز المترجَم بنوع من البديع كما ٱتَّضح، وهو التَّاريخ الشِّعريّ الـذي أولع به المتأخِّرون كثيرا، وتفنَّنوا فيه تفنُّنا كبيرا، وأتوا بالمبدع الطَّريف، وإن كان هذا اللَّون الأدبي لا يروق الذين تحرَّروا من التأنُّق اللَّفظي، فهو لون من الأدب قد ٱمتزج بأدبنا وطلي به حقبة ليست بالقصيرة، بل هي حقبة مـن حياتنا الأدبيَّة طويلة، فلا بدَّ من التَّعرض لها، والعناية بها، وإلاَّ أضعنا علـى أنفسنا جزءا كبيرا من أدبنا الذي لنا فيه أياد مشكورة ومآثر نفتخر بها.

والتَّاريخ الشِّعري الذي هو عبارة عن كلمة أو كلمات تبنى بناء خاصًّا يقصد منه الإشارة بالحروف إلى تاريخ ما من تهنئة، أو وفاة أو غير ذلـك ليس من الفنون السَّهلة كما يظنُّه البعض بل عويص شاقٌّ فإذا ما برع فيـه شاعر دلَّ ذلك على أنَّه من ذوي القريحة الوقَّادة.

ولذلك كان الشُّعراء في هذه النَّاحية متفاوتين، فبعضهم يأتي به متكلِّفـا حتَّى أنَّه يأتي بكلمات مهملة لا معنى لها أو لها معنى بعيد كلَّ البعد. والذين هم أرقى من هؤلاء يأتون بكلمات لها معنى إلاَّ أنَّ معناها لا يناسب الغرض الذي من أجله أنشد الشِّعر تمام المناسبة، ومن أجل ذلك ٱختلفت المقـدرة، فبعضهم أجاد، وبعضهم كبا به الجواد.

ومن الذين لم يكب بهم الجواد، وتفوَّقوا في هذه النَّاحية سميَّة القـيرواني فإنَّه كان من المبدعين كما ظهر بصورة بارزة ممَّا ٱنتقينا له، والبارع في هذا قليل نادر، لهذا ٱعترف له بفضله ٱبن عبد العزيز كما قدَّمنا.

ومن شحِّ ٱبن عبد العزيز عليه أنَّ تقريظه له في هذه النَّاحية لم يأت به إلاَّ بإثر ٱنتقاده عليه، فلولا هذه المناسبة لما ٱعترف بأنَّه من المقتدرين البـارعين السَّالمين من التكلُّف في التَّاريخ والمجيدين فيه.

فهذه النَّاحية الشَّاهد بها شعره قد ٱعترف له بها من ذكره لمناسبات في تاريخه، أو من ترجم له لأنَّها ظاهرة التفوُّق فيه.

ونريد أن نقف عند هذه النُّقطة في تاريخ المترجَم حيث مدحه بذلك صاحب التَّاريخ الباشي، وٱقتصر على ذلك دون أن يتجاوزه إلى مدح شعره مطلقا، بينما نجد صاحب "مجمع الدَّواوين التونسيَّة" الشَّيخ السَّنوسي قد تجاوز ذلك إلى تقريظ شعره بدون ٱستثناء.

حيث قال أوَّلا:

(فأبدى تلك المدائح تخجل الألباب، وتستظهر من معانيها بالعجب العجاب).

ثمَّ مدح تواريخه:

(بيد أنَّ له يدا في سرعة التَّاريخ، وبذلك رقي عن معاصريه إلى أعلى الشَّماريخ)[1].

فهذه النُّقطة التي وقفنا عندها تلجئنا إلى أن ننظر نظرة صادقة أيُّ الرَّجلين المصيب المقتصر على مدحه بخصوص التَّاريخ، أو الذي أطلق المدح؟ لاشكَّ أنَّنا أجبنا عن هذا التَّساؤل في كلمة سابقة، حيث بيَّنا فيها أنَّ شعره قد كان دون شعر غيره بسبب أنَّه يبنيه على التَّاريخ وفي ذلك تكلُّف ظاهر.

فالبراعة المشهود له بِها في التَّاريخ الشِّعري ثمَّ بالبداهة والارتجال في ذلك، هي محلُّ ٱتِّفاق بين ٱبن عبد العزيز والسَّنوسي، ثمَّ إنَّ شعره يحقِّق ذلك فهي قضيَّة مسلَّمة، وأمَّا وراء ذلك فالحقُّ مع ٱبن عبد العزيز دون السَّنوسي.

ونحبُّ أن نبحث بعد ذلك في التَّأثير الذي جعله يغرم بالنَّاحية المذكورة حتَّى فاق الأقران، وكسب الرِّهان. فمن القريب أن يكون التَّأثير عليه بذلك راجعا إلى عالم شاعر من رجالات الشَّام الذي أظهر التَّاريخ المستعمل في الشِّعر ضمن علم البديع، فأبداه نافلة جديدة في أنواع البديع، ذلك العلم

---

1 يراجع ما جاء في مطلع ترجمته.

الذي شغف به المتأخِّرون، وآخترعوا فيه آختراعات كثيرة، فكــان ميــدانا للاختراع.

وهذا العالم الشَّاعر هو الشَّيخ عبد الغني النَّابلسي[1] (-1143هـ) الــذي هو من أشهر رجال القرن الثَّاني عشر، قرن المترجَم، ثمَّ إنَّ غــرام الــشُّعراء بالتَّاريخ الشِّعري في هذه الحقبة ساق قريحة سميَّة إلى الولوع به، والإغــراق فيه.

ويبدو غرام المترجَم به في كونه لا تكاد تخلو قصيدة له، أو قطعة مــن شعره من التَّاريخ في آخرها، فكلٌّ منتقياته توضِّح أنَّه يرى من تمام البراعــة والإبداع أن يختم شعره بتاريخ غير مقتصر على حال دون حــال، بينمــا الشُّعراء غيره خصُّوا ذلك بمجالات خاصَّة.

وتدليلا على هذه البراعة نذكر أنَّه قرظ كنَّاشــا لحــسُّونة التُّرجمــان بتقريظين، وقد أتى في كلٍّ منهما بتاريخ لسنتين متواليتين، ومع أنَّ هــذين التَّقريظين من أوَّل شعره فالتَّاريخان لا تكلُّف فيهما، وهما علاوة على ذلك صريحان في أنَّ التَّاريخ لتقريظ الكنَّاش.

فقد أنشد في مدحه أوَّلا في ذي الحجَّة من آخر عام 1156هـــ وأرَّخ ذلك، ثمَّ لمَّا مدحه ثانيا في مفتتح السَّنة الموالية، وهي سنة 1157هـ في المحرَّم أرَّخ ذلك.

وقد سجَّل كلَّ ذلك في بيتيه الأخيرين مفيدا للشَّهر والسَّنة، أمَّا الــشَّهر ففي الصَّدر، وأمَّا السَّنة ففي العجز مستعملا في ذلك تــاريخ الكلمــات، فالتَّاريخ الأوَّل هو قوله (كنَّاشه ما أجلَّه)، والتَّاريخ الثَّاني (كنَّاش أفاد)".

آستعمل في التَّاريخين لفظ (كنَّاش) الذي مجموع أعداده (1071) لكنَّه في التَّاريخ الأوَّل أضافه إلى هاء الضَّمير. فصار مجموع أعداده (1076) لأنَّ الهاء بخمسة.

---

1 عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النَّابلسي. شاعر، عالم بالدِّين والأدب، متصوِّف. له مصنَّفات كثيرة منها: "الحضرة الأنسية في الرِّحلة القدسية"، "نفحات الأزهار على نسمات الأشجار" و"ديوان الحقائق". (الأعلام 158/4).

ولمغايرة التَّاريخين أتى مع الأوَّل بقوله (ما أجلَّه)، ومع الثَّاني (أفاد)، فإذا أضيف ما أجلَّه إلى قوله كنَّاشه كان المجموع (1156) لأنَّ مجموع عدد ما أجلَّه (80). وإذا أضيف أفاد إلى كنَّاش كان المجموع (1157) لأنَّ مجموع عدد أفاد (86).

وهذا التفنُّن منه بديع في بابه، إذ يتلاعب بالألفاظ ويتصرَّف فيها ذلك التصرُّف الذي يدلُّ على قريحة شعريَّة في التَّاريخ ممتازة نادرة المثال.

ولا ننكر أنَّ هذا العمل المتفنِّن فيه ليس له أيَّة قيمة، ولا طرافة من حيث المعنى فلولا الكساء اللَّفظي لكان غير ملتفت إليه، وإنَّما هذا الكساء اللَّفظي له قيمته، ثمَّ إنَّ زيادة تحليلنا لتاريخيه الشعريَّين تجسِّم ما وصف به من الإبداع في ٱستعمال التَّاريخ في الشِّعر في جمل مختلفة حسبما يراه.

وسترى الكثير من هذا في تواريخه العديدة التي أتى بها في قصائده العيديَّة.

أتت قصائده التي أنشدها في الأعياد متضمِّنة تاريخ العيد الذي أنشدت فيه، وفي هذا ما يحفظ تاريخ إنشاداته، ويضبطها حسب سنيّ الإنشاد، وتعطينا التَّواريخ التي أتى بها جانبا من حياته، فنستطيع بسبب ذلك أن نعرف المدد التي أنشد فيها، ومتى ٱنتهى من تقديم قصائده لأمير عصره، وهذه الإضاءة على حياته ترينا ما خفي علينا، حيث أنَّ هذا الشَّاعر لم يجد الحظَّ الكافي عند مؤرِّخيه.

فما أغفله المؤرِّخون تكفَّل به شعره فكانت كلُّ قصيدة تتضمَّن تسجيلا تاريخيّا لأدبه، وأثر التَّسجيل في أدب الأديب يصوِّر حياته وتدرُّجها.

والشَّاعر وإن لم يقصد تسجيل هذا الجانب من حياته، وإنَّما جاء عفويًّا لكن كانت فائدته جزيلة لمن يؤرِّخ الأدب، ويحبُّ الوقوف على الجزئيَّات.

ثمَّ إنَّ هذه التَّواريخ تتجاوز فائدتها حياة الشَّاعر إذ تعطينا سنيّ الإنشاد بالنِّسبة للاحتفالات الأدبيَّة المقامة في قصور الأمراء بمناسبة العيد، أو غير ذلك، وهي ٱحتفالات لم يعتن بها المؤرِّخون الاعتناء الكافي حتَّى تبرز مع سائر الأحداث في صعيد واحد، إذ شأنهم أنَّهم حين يؤرِّخون الثَّورات فيطنبون ويسهبون، ويفصِّلون حوادثها بأيَّامها وشهورها وأعوامها، وأمَّا

غيرها من الحوادث فنسي منسيٌّ، وحتَّى إذا ما تعرَّضوا لهـا كـان ذلـك التعرُّض تعرُّضا خاطفا.

ولولا أنَّ بعض الشُّعراء ضمَّنوا من ذلك شيئا في شعرهم مع الإشـارة التاريخيَّة لكان قسم هامٌّ من تاريخنا ضائعا.

فالوفيات لولا التَّواريخ الشعريَّة لضاع الكثير من وفيات الأعلام، فٱلتزام الشُّعراء التَّاريخ في المراثي كان بمثابة الخزينة الحافظة لبعض الأشياء إلى وقت الحاجة إليها.

ومن تواريخ المترجَم العيديَّة ما ختم به قصيدته الرائيَّة، وهـي بحسـب تاريخها تكون في سنة واحدة مع بعض أبياته وقطعه التي صبَّ فيها كـأس هجائه على أهل وسلات مثل قوله (نصر تجلَّى في صفر)، وقوله (وسـلات يهلك في ربيع)، وهي سنة (1174هـ) كما تقدَّم.

وكما تفاءل للأمير علي ٱبن الأمير حسين بٱنتهاء ثورة جبل وسـلات هنَّأه بعيد نحر هذه السَّنة.

وقصيدته هذه من القصائد الفائقة البارعة لخفَّتها وسلاستها وٱنسجامها:

هنيئا أيُّها الملـك المعلـى ... بعيـد فيـه إشـراق ونـور
أتاك مبشِّرا بـداوم مـلك ... عليه حمايـة المـولى تـدور
يصاحبك الهنا زمنـا طويـلا ... وتنـتج في مـصالحك الأمـور
جلست على منـصتك ٱبتهاجـا ... كأنَّك فوقهـا قمـر منيـر
إذا ما لاح وجهك مثـل شمـس ... تغيب بحـسن طلعتـك البـدور
فعيد العيد أنت، ومـن تعـادي ... تعـاد بـه المواسـم والدُّهـور
فمن كٱبن الحسين أبـان حـسنا ... بـه الأعـوام تحـسن والـشُّهـور
له في الـسنِّ المـداح روض ... نضير، وهو لـيس لـه نظيـر
فقبَّلت العلـى يـده وقـالت ... يد قبلتـها فيهـا بحـور
تزاحمت الـشّفاه عليـه حتَّـى ... غـدت بـاللّثم تفتخـر الثّغـور
علوُّك يا علـي طويـل بـاع ... وباع سـواك في العليـا قـصيـر
سـرور العيـد طـاب فأرّخـوه ... (بعيد النَّحر طـاب لـك الـسّرور)

والتَّاريخ الذي ختم به هذه القصيدة قد سلم من التكلُّف، فلو أردنا نثره لكان هكذا (طاب لك السُّرور بعيد النَّحر).

فهو تاريخ سالم لا خدش فيه، وتفصيله بحسب الكلمات (بعيـــد) 86، و(النَّحر) 289، و(طاب) 12، و(لك) 50، و(السُّرور) 737، ومجموع أعداد هذه الكلمات هي السَّنة المتقدِّمة (1174).

وبمقايسة هذا التَّاريخ للتَّواريخ المتقدِّمة، وبما سلف يتَّضح أنَّ ملكتـــه في الشِّعر التَّاريخي ملكة نادرة فهي تستطيع أن تأتي بتواريخ متقاربة في الألفاظ كما تقدّم سابقا، وفي إمكانها أن تأتي بها لسنة واحدة كما هنا بجمل مختلفة في معانيها وفي ألفاظها.

وهي كما ترى كلّ عجز منها من الأعجاز المتضمِّنة للتَّـــاريخ عجـــز مستقلٌّ تامُّ المعنى في ألفاظ مساوية له فلا يمكن أن تنقص من كلماتها شيئا إذ لا حشو فيها، ثمّ وراء ذلك كلُّ تاريخ منها ينبئك بالمعنى المقصود من تهنئة بعيد أو غيره.

وأبياته هذه لا نكران أنَّها خلو من المعاني الشعريَّة المخترعة التي يكون بها السَّبق بين الشُّعراء لكنَّها صور زينيَّة لموكب العيد في تلك العصور حيث أنَّ أهمَّ ما فيه هو جلوس الأمير على الكرسي التَّخت والوفود مقبلـــة فوجـــا ففوجا تقبِّل يده.

فالواقع قد صوَّره في أبياته، فليس في مواكب العيد صورة غير هـــذه إلاَّ وصف غرفة القصر التي جرى فيها الموكب فلو أنَّه أضاف إلى ذلك وصف الغرفة لكان تصويره غاية الإبداع في تجسيم الموكب.

ومع أنَّ القصيدة المتقدِّمة من فائق شعره لم تخل من ٱنتقاد على قوله:

جلـــست علـــى منـــصَّتك ٱبتـــهاجا كأنَّـــك فوقهـــا قمـــر منيـــــــــر

حيث عبَّر عن الأريكة التي يجلس عليها الأمراء بالمنصَّة مع أنَّ الأخـــيرة خاصَّة بالعروس حسبما جاءت به اللُّغة:

(المنصَّة بالكسر الكرسيُّ ترفع عليه العروس في جلائها لتُرى من بين النِّساء)

وهذه المادَّة تفيد الرِّفعة والظُّهور لكن خاصَّة بما تقدَّم، وإذا تتبَّعنا ٱستعمال المنصَّة نرى أنَّ ٱستعمالها في غير جلاء العروس يكون للافتضاح، يقال فلان على المنصَّة أي ٱفتضح وشهر.

وفي إمكان الشَّاعر أن يأتي عوض المنصَّة بالأريكة التي هي السَّرير المزيَّن مع سلامة الوزن وبدون تغيير يذكر فيقول:

جلست على الأريكة في ٱبتهاج كأنَّك فوقها قمر منير

وإذا قابلنا التَّاريخ الذي أنتجه فكر سميَّة بتاريخ لسنة أخرى من قصيدة للغراب بان الفرق الشَّاسع بين التَّاريخين، وهذا التَّاريخ الذي للغراب جاء في قصيدته التي يقول في مطلعها[1]:

يا مليكا أثنت عليك الأيادي عاد كلٌّ بها كقس الأيادي

وهذا بيت التَّاريخ وبيت قبله:

بل بك العيد والأنام تُهنَّا كلَّ يوم بالأمن والإسعاد

قائلا كلُّ واحد لك أرِّخ (بك ذا العيد أبرك الأعياد)

والتَّاريخ المشار إليه في بيت الغراب هو عام (1178).

فأين الخفَّة والسُّهولة والإشارة إلى المقصود الموجودة في تاريخ سميَّة منها في تاريخ الغراب.

ثمَّ إنَّ الصَّدر الذي يشير إلى التَّاريخ عند الغراب فيه إساءة أدب مع الممدوح حيث يذكر أنَّ كلَّ واحد يأمر الممدوح بأن يؤرِّخ بأنَّ العيد به أبرك الأعياد.

1 ديوان الغراب ص 69. ولكن عجز البيت قبل الأخير جاء مغايرا كالآتي "كل يوم باليُمن والإسعاد".

محمد الرشيد *

بيته

هذا الأمير محمَّد الرَّشيد هو أحد أفراد البيت المالك في تـــونس، وٱبـــن مؤسِّس العائلة التي حكمت تونس من سنة 1117هـــ إلى سنة 1376هــــ فقد دام ملك هذه العائلة بتونس 259 سنة.

أسَّس الملك أبوه حسين بن علي في تونس في السَّنة المتقدِّمة، وقد كانت توليته الإمارة بتونس حين أسر الأمير قبله من قبل الجزائريِّين، وهو إبـــراهيم الشَّريف فوقعت بيعته من أهل الحلِّ والعقد من العلماء ورؤســـاء الجنـــد. وأصل والد مؤسِّس العائلة من جزيرة كريت وٱستمرَّت أيَّامه إلى أن قتلـــه ٱبن أخيه علي باشا (–1153هـــ).

حياته

ولد هذا الأمير سنة 1122هـــ ولمَّا بلغ الخامسة عشرة من عمره أسند إليه والده سفر الأمحال[1] وبسبب ولايته هذه أنف الأمير علي باشا ٱبن أخ الأمير حسين ٱبن علي من تقديمه لسفر الأمحال، وأعلن ثورته التي أدَّت إلى مقتـــل والد محمَّد الرَّشيد.

ولمَّا ٱستبدَّ بإمارة تونس علي باشا وٱستقلَّ بها بعد مقتـــل عمِّـــه ســـنة 1153هـــ فرَّ محمَّد الرَّشيد مع أخيه علي باي ومن معهما إلى الجزائر ومكث بها مدَّة ٱستيلاء ٱبن عمِّه على تونس. وكان خلال إقامته بالجزائر يحاول مع أخيه علي باي ٱسترجاع ملكه من ٱبن عمِّه بواسطة أمراء الجزائر إلى أن تمَّ

---

* نشرت هذه الدراسة في مجلَّة المنهل، السَّنة 38، المجلَّد 33، الجزء 7، رجب 1392هـــ/ سبتمبر 1972م.

1 الأمحال ج محلة، وهي في الأصل مقر القوم ولكنَّها تستعمل في العرف التُّونسي بمعنى الحملة التي يجعل لها الأمير، وفي الغالب أن يكون وليَّ العهد، بقصد تمهيد أحوال المملكة وجمع الضَّرائب.

له خروج حملة من الجزائر أمر بها داي الجزائر تحت إمرة حسن العشي أمير قسنطينة وكان ذلك سنة 1169هـ وفي خاتمة هذه السَّنة قتل الباشا علي باي وتسلَّم الملك ٱبن عمِّه محمَّد الرَّشيد وأخوه علي باي.

ولَّما تسلَّما ملك أبيهما عاملا أهل تونس بالحسنى بغضِّ الطَّرف عمَّا وقع لهما مدَّة تغرّبهما بالجزائر من شيعة علي باشا.

وتقدَّم للإمارة محمَّد الرَّشيد وكان يؤازره أخوه علي باي، لأنَّ محمَّدا الرَّشيد آلت إليه الإمارة وهو منهوك البدن بالمرض.

و لم تطل أيَّامه في الإمارة فوفاه الأجل ليلة الاثنين رابع عشر جمادى الثَّانية سنة 1172هـ.

الأمير الأديب

كان هذا الأمير أديبا ومشاركا مشاركة علميَّة أهَّلته لأن يقول الشِّعر، وأن يكون من الذين أرسوا قواعد النَّهضة الأدبيَّة في تونس.

ويرجع ذلك بالدَّرجة الأولى إلى أنَّ النَّاس لَّما رأوا فيه محبَّته للعلم والأدب دعاهم ذلك لأن يقبلوا على المعارف والآداب تأسِّيا به ورغبة في الظُّهور بما كانت سوقه رائجة في تلك الأيَّام.

ثمَّ إنَّه أعزَّ أهل العلم وعاملهم معاملة ممتازة وآثرهم على سائر رجال دولته، ومكَّنهم من مجالسه وخصَّهم بمزايا لم يخصَّ بها غيرهم، فكان ذلك مدعاة للإقبال على المعرفة من أجل هذه الامتيازات.

وقد حدَّثنا الوزير الشَّيخ أحمد بن أبي الضِّياف عن محبَّة هذا الأمير للعلماء وحسن معاملته لهم، وتوقيرهم من قبله بما أتى عليه.

وله في العلماء محبَّة وتعظيم يجالسهم ويباسطهم ويحنُّ إلى مسامرتهم، ويستدعي أهل المجلس الشَّرعي[1] وغيرهم من العلماء للضِّيافة في بستانه في

1 المجلس الشَّرعي هو مجلس يتركَّب من مجلسين: المجلس المالكي والمجلس الحنفي ويرأس كلٌّ منهما رئيس. وقد كان هذا المجلس هيأة عليا قضائيَّة، ثمَّ هو محلُّ الحلِّ والعقد في الدَّولة التونسيَّة بمثابة المحكمة القضائيَّة العليا، وقد ألغي في أوائل عهد الاستقلال.

منُّوبة[1] ويحتفل لإكرامهم ويدور معهم خلال الشَّجر ممتزجا بهم ٱمتزاج الأصحاب ويطيل معهم السَّمر ومهما دعته نفسه إلى ٱستعمال دخان السبسي يقوم لبيت آخر فثقل ذلك عليهم فقالوا له: "نطلب أن تستعمل الدخان في موضعك على عادتك ومن الألفة عدم الكلفة، و لم يرد في تحريمه نصٌّ شرعيٌّ وفي المشرق يستعملون ذلك حتَّى في المساجد لاسيما ونحن في بستان".

فقال لهم: "نعلم ذلك وفي عادة مغربنا أنَّ ٱستعماله ينافي التَّعظيم[2] ولكلِّ قوم عادتهم وأخشى إن فعلت ذلك بمحضركم في بستان، يفعله من يأتي بعدي مع مثلكم في باردو".[3]

و لم يفعل ذلك مدَّة حياته و لم يزل هذا دأب الملوك مع أهل المجلس الشَّرعي لوقتنا هذا إجلالا للعلم والشَّريعة.

ويرجع تكوينه الأدبي إلى غربته في الجزائر فإنَّه مرَّت به أيَّام جعلته يائسا من العودة إلى ملكه خصوصا بعد فشل الحملة الأولى على تونس من الجزائر سنة 1159هـ، فٱتخذ بستانا بالجزائر وجعله ناديا أدبيًّا وٱشتغل بالمطالعة والمذاكرة والمسامرة وكان معه في غربته عالمان جليلان هما أبو عبد الله محمَّد الشَّافعي الباجي وكاتبه أحمد الأصرم القيرواني وكانا يشتغلان[4] ببيت العلم و التوثيق

بيت العلم والتَّوثيق

أصبح هذا البستان مجمعا أدبيًّا يؤمُّه العلماء والأدباء، ويتناشدون فيه المقطعات الأدبيَّة ويتسامرون فيه.

---

1 منُّوبة ضاحية من ضواحي تونس مشهورة ببساتينها.

2 كان المجلس الشَّرعي لا يقدَّم على أهله أحد وأهله محلُّ تعظيم.

3 بادرو كان مسكن الأمير والعائلة المالكة ولا تزال الإمارة باقية إلى اليوم.

4 محمَّد الشَّافعي هو شارح ميميَّة مخدومه محمَّد الرَّشيد. وأمَّا أحمد الأصرم فقد كان رئيس الكتَّاب بتونس، وتوفِّي قريبًا من رجوع ولدي حسين بن علي سنة 1159هـ.

ومن أحداثه الأدبيَّة أنَّه أحدث فيه فوارة فأنشد فيها قوله:

فوراة بعثـت حبابـا طالعـــــا نحـو الـدراري فٱنثنـت بجمـان
وتـدير قوسـا مـنحن[1] في بركـة لـصفائها خيـل الـسماء ٱثنـان

وفيها يقول بعضهم:

لك الله مـن فـوارة دام حـسنهـا ولا عطلت من رائق سلـسل الراقـي
كان الزلال العـذب منـها وحولـه شفاء شج تزجيه هينمـة الراقـي

وقال فيها مفتي الجزائر في عصره لمَّا وقف على ما قيل فيها من أبيات:

ولله روض مـشرق جـاده الحيـا على طرف حيث المقـام بـه سـاق
كأنَّ بـه الأنبـوب يـزعج مـاءه قضيب من البلور قـام علـى سـاق

فهذه الحياة الأدبيَّة التي عاشها في الغربة حين البأس أنطقت لسانه بالشِّعر وبعثت فيه روحا أدبيَّة.

شعره

لا يستطيع أن يحكم الواقف على شعره حكما مطلقا كغيره من شعراء عصره، لأنَّ القرن الثَّاني عشر وما قبله ضعفت فيه الملكات الأدبيَّة والنَّاهون في الشِّعر أقلُّ من القليل، فلذا يتحتَّم أن يكون الحكم منظورا فيه إلى العصر، والبراعة إنَّما هي نسبيَّة لا تقاس بما كان عليه الشِّعر في عصوره الذهبيَّة.

فلذا سننظر في شعر محمَّد الرَّشيد بالنِّسبة لعصره خاصَّة وسيكون الحكم طبقا لذلك العصر حتَّى لا نخرج عن المقياس العصري.

إنَّ شعره بالنِّسبة لعصره هو شعر من الدَّرجة الوسطى ليس فيه ٱبتكار وجزالة مثل المتقدِّمين في عصره كالورغي والغراب بل هو دون ذلك.

ثمَّ إذا نظرنا إليه من حيث الكمِّ نراه من الشُّعراء المقلِّين مثل ٱبن عبد العزيز، وإن كان هذا الأخير أمتن شعرا وأوفر معنى وأقرب إلى الشِّعر الفحل من غيره.

1 الصَّواب: منحنيا، وإنَّما ٱرتكب هذا اللَّحن لأجل الضَّرورة الشعريَّة.

وأهمُّ شعره هو ما كان في النَّواحي الجدِّيَّة مثل تشوُّقه إلى الحرمين أو التشكِّي من دهره والابتهال إلى الله في إزالة ما حلَّ به من ضيم من ٱبن علي باشا.

ولذلك كان من عيون شعره قصيدتان هما الميميَّة والقافيَّة وهما من أطول شعره وأمتنه.

وجملة القول أنَّه لم يغفل كذلك غير النَّاحيتين المتقدِّمتين إلاَّ أنَّه في غيرهما لم يسلك مسلكه فيهما.

وديوانه تبلغ صفحاته 94 في القالب الربعي، ثمَّ إنَّ نسخ ديوانه مختلفة في التَّرتيب وكذلك في بعضها زيادة عمَّا في غيرها.

الحنين إلى الحرمين

أتى في كثير من شعره اللُّجوء إلى الله والدُّعاء بإعادة الأيَّام السَّالفة ومن ذلك أنَّه نظم قصيدة ميميَّة ضمَّنها شوقه إلى الحرمين الشَّريفين مكَّة والمدينة.

وٱستهلَّ هذه القصيدة بنثر ضمَّنه أنَّ الذي ألجأه إلى الشِّعر هي الحال التي هو عليها وتطلُّعه إلى عود ملك أبيه الذي ٱستلبه منهم ٱبن عمِّه.

وهذا ما جاء لها استهلالاً:

"نحمدك حمد من ابتلي فصبر، ونشكرك شكر من أناب وٱدَّكر، ونصلِّي ونسلِّم على الرَّسول الأنور، المبعوث إلى الأسود والأحمر وعلى آله وأصحابه الذين شادوا الدِّين، وشقّوا جيوب الغيِّ على المعتدين صلاة وسلاما مصحوبين بالتَّأييد، إلى يوم الوعد والوعيد، فإنِّي وإن كنت قصير الباع، قليل المتاع، فقد ألجأتني مساورة الغموم ومسامرة الهموم أن أشغل عن الضَّجر نفسي وأستجلب بشيء من النَّظم أنسي... فقلت قصيدة ميميَّة وأبياتا أتشوَّق فيها للحرمين الشَّريفين وأنتشق ريح الأحبَّة عن بين، تقبَّل الله عملي ودعائي، وأفعم بالبرِّ والتَّقوى وعائي".

وقد سمَّى هذه القصيدة: "تحريك السَّواكن إلى أشرف الأماكن".

ويذكر في أوّلها تشوُّقه إلى مكَّة المكرَّمة ذاكرا الكثير من الأماكن التي هي من أبرز أماكنها:

هل زورة تشفي فـــؤاد متيـــــم يا أهـــل مكّــة والحطــيم وزمـــزم
أو حظوة بالجزع والخيـــف الـــذي ما خلتــه حينـــا تجافـــاه فمـــي
إنّي أنا وبذي الحليفــة مـــوردي وببانـــة الجرعـــاء ثمّ مخيَّمـــي
أو بالحجون وذي طوى لـــك هجعـــة حيث الهوى عـــذب لذيـــذ المطعـــم
يا هل لطرفي نحوهم مـــن نجعـــة ولطـــرفي الأرق ٱنتـــشاء النَّـــوم
ومتى أواصل وخد ســيري في كـــدا حـــتى أرى الآمـــال ذات تبـــسّم
فعساي أرمي من مـــنى جمراتـــها وأبرد الجمرات مـــن قلـــب ضـــم
يا بارقا قـــد لاح لي مـــن بـــارق بالله صـــافحني بكـــفّ مـــسلـــم
وإذا عبير الرند فـــاح وأذخـــر فهلمّ لي ريـــح الـــصّبا بتنـــسّـــم
بالله أدِّ تحيَّتـــي يـــا نـــسمـــة لأهيـــل ودّي مـــن محـــب مغـــرم
وإذا مررت علـــى ربى أمّ القـــرى أبلغ لهم شـــوقي وفـــرط تتيّمـــي
ما إن يطيب العيـــش لي حتَّـــى أرى وبحومـــة التنعـــيم صـــفو تنعّـــم
من لي بأن أحتلّ بطـــن تهامـــة فيروق حالي بـــاطراح المـــأثم

ويقول في التَّشوُّق إلى طيبة المشرّفة:

ولطالمـــا ٱشـــتاق الفـــؤاد لطيبـــة شوق العليـــل إلى الـــدَّواء المحكـــم
كـــم برهـــة قـــضيتهـــا في لوعـــة ذا عبرة تـــهمى ولكـــن بالـــدم
ولكم ليـــال بـــتّ أرعـــى زهرهـــا والفكر ســـال والحـــشا في مـــأتم
مـــا إن قطعـــت ســـوادها وبياضـــها إلا بـــصبر طعمـــه كالعلقـــم

ويذكر أنَّ الذي حال دونه ودون الوصول إلى الحرمين الشَّريفين هو ٱبن عمِّه المستبدِّ بالملك علي باشا والمنتزع إمارة تونس من والده، وينـــسب إلى ٱبن عمِّه المذكور كلّ المخازي من الظُّلم وعدم الرَّأفة على الخلق:

شط المـــزار وبيننـــا حـــال العـــدى يا بغـــيتي ومحـــلّ ودّي الأقـــدم
ليـــتمَّ لي التِّرحـــال نحـــوك آمنـــا كيد العـــدّو الظّـــالم المتظلّـــم
فجميـــع خلـــق الله أفجعهـــم بأنـــواع البوائـــق والعـــذاب المـــؤلم
ما بـــات مـــن ذنـــب علـــى نـــدم ولم يقلع وأكّـــد فعلـــه بتـــصمّـــم

ثمَّ يصف أبناء الأمير المستبدِّ بأنَّهم مثله في الخنا:

وبنوه ما فاقوه إلا في الخنا — وتسابقوا ركضا لنهب الدّرهم
قوم تجمّعت المخازي فيهم — ففعالهم لا ترتضى من مسلم
لن يفلحوا أبدا لئام أجمعوا — وتواطؤوا عن فعل كل مُحرَّم
حاشاك يا جبّار يا قهّار يا — ذا البطش أن ترضى فعال مذمّم
ويلي لهم ولحزبهم ولنسلهم — ولمن غدا لهم جميعا ينتمي
وٱجعلهم هدف البلايا عاجلا — ترميهم نوب الزّمان بأسهم

وقد ٱعتنى شيخه محمَّد الشَّافعي بن القاضي بهذه القصيدة وشرحها شرحا حافلا أشبع فيه القول وملأه بالفوائد، وٱستطرد فيه الحوادث التاريخيَّة حتَّى أصبح معلمة أدبيَّة تاريخيَّة، وهو مصدر الكثير من الذين يكتبون عن الأدب التُّونسي في القرن الحادي عشر وحتَّى قبل ذلك.

ولو تنصرف الهمَّة لطبع هذا الكتاب لكان من الآثار التونسيَّة الجليلة المفعمة بالفوائد.

وقد سمَّى هذا الشَّرح: "إظهار النّكات من خبايا المحرّكات"، أي المحرّكات السَّواكن إلى أشرف الأماكن كما تقدَّم ويقع هذا الشَّرح في قرابة ثمانمائة صفحة من القالب الكبير بخطٍّ دقيق.

وفي خزانة كاتبه نسخة فريدة جيِّدة الخطِّ تغلب عليها الصحَّة.

وقد قرّظ هذه القصيدة شارحها محمَّد الشَّافعي بلقاضي بأبيات منها:

أنظام درّ، أم نظام دراري — وشذور نظم أو شذور نضار
وسقيط طل فوق أزهار الرُّبى — أم سقط زند بالحشاشة وارى
أم عقد غانية أرانا نظمه — درر العقول وجوهر الأفكار
يا ليت شعري كيف ينظم جوهر — جلّت فوائده عن المقدار
حلل ولا الدّيباج تحكي نسجها — أعديل نسج الشِّعر نسج نضار
ما الزَّهر حسنا والأزهار نفحة — والرّاح مغن والقراح الجاري
منها بأحلب للقلوب إذا بدت — تهفو بذائع عرفها المعطار

كالغادة الحسناء أخلت[1] خدرها وبدت بدو الشّمس للأبصار
فتّانة بصباحة وفصاحة سحبت على سحبان ذيل فخار
شرفت بمدح محمَّد وبطيبة وبمكَّة والبيت ذي الأستار
يا أيُّها الملك الذي شطّت به أيدي النّوى ونأى عن الأبصار
لو كان دهر منصفا لما عثرت (لقال إجلالا لعا لعثار)

القافيَّة

وبجانب هذه الميميَّة لمحمَّد الرَّشيد الحسيني قافيَّة قريبة في منهجها للقصيدة المتقدِّمة إذ هي تطَّلع إلى الإمارة ورجاء من الله أن يحقِّق له الرُّجوع إلى ملكه حتَّى يحقِّق أماني في تونس، منها إجراء نهر بها ويعني بذلك نهر مجردة حتَّى تكون تونس كالقاهرة.

وقد صدَّر هذه القصيدة بقوله:

"الحمد لله الذي حرس الأرواح في الأشباح، والشُّكر لمن حفظها من عواصف الرِّياح، والصَّلاة والسَّلام على سيِّدنا محمَّد هادي الأمَّة، ومجلي الغمَّة، بنوره الوضَّاح وعلى آله الأبرار وصحابته الأخيار صلاة وسلاما يتعاقبان بتعاقب الغدوِّ والرَّواح.

وبعد، فيقول عبيد ربِّه، الرَّاجي منه غفران ذنبه، محمَّد باي أمير المؤمنين آبن المرحوم برحمة الصَّمد العليِّ، أمير المؤمنين حسين بن علي، لازالت سحب الغفران على ضريحهم هامية، ودرجاتهم في أعلى الجنَّات سامية، لمَّا لفظتني لهوات الفتن، ولعبت بي صوالج الكروب والمحن، فألقتني بقطر الجزائر، وصار القلب في الانقلاب حائر[2] قذف العقل الجامد والفكر الخامد قصيدة من غير قصد، وآندفق بدمي عن فَصْد، ممَّا آعتراه من لواعج الاحتراق وتباريح الفؤاد بزواعج الفراق.

---

1 في الأصل حلّت بمعنى تركت وهو استعمال عامّي

2 الصَّواب حائرا.

أشكر الله فيها على ما فرَّط من النِّعم، وأشكوه حوادث الدَّهر وبوائق النِّقم.

هذا وإنِّي ما فهت بنظم ولا نثر، ودون النُّفوس سقطات وعثر، لكن حسن الظنِّ بالكرام، والطَّمع السَّاري في الأنام، هو الذي جرَّأني على كتبها وأغراني حيث عرضت بنفسي وبها، إذ قلت:

أمولاي إنَّ النَّفس لمَّا تعوَّدت جميلك راحت بالفواضل تنطق
إذا كان فضل الناس يشكر لازما ففضلك ربّي منه أولى وأخلق
مننت علينا بالإمارة مرشدا فدان إلينا مغرب ومشرق
وألهمتنا رشدا طريق صوابنا بعلم شريف زاننا منه منطق
أقمنا بقدر الجهد قائم شرعنا (فترشيش)[1] أضحى علمها يتدفق
وجرَّت ذيول الفخر عن نظرائها فما الشام يحكيها وما هي جلق
كذاك عراق عرقت منه غرة وأمسى سدير مبكتا وخورنق
فما في جميع الأرض مصر يفوقها وليت لها نيلا عليها محلّق
لئن ردَّني ربِّي إليها بفضله لأجري لها نهرا كما النّيل يدفق
(أتونس) بعد العزِّ نالتك وحشة فسحِّي دموعا بل دما يترقرق
ويا أهلها كم قد بلغتم من المنى وأيّامكم الأعياد والأمن مطلق
وخولكم برًّا وحسن سياسة أمير حليم بالرعيَّة مرفق
لهفت على تلك الدِّيار ويا لها قصور بها حور وفرش تنمَّق
أبى الله أن تعفى ديار أعزَّة وتدرس آثار المعالي وتمحق
وكم نعمة أسبغتها لي جمَّة فأمست قلوب الحاسدين تمزَّق"

ثمَّ يحمل على ٱبن عمِّه علي باشا وٱبنه يونس:

فخذ لي بثأري من عدوِّي فإنَّه كفور ظلوم في معاصيه موبق
عليّ علا رمحا ويونس صارما هما -وأبي-قمران-والفرخ أسبق
أبوه أبي في الفحش إلا كبيرة كذا الابن يروي عن أبيه ويخرق

---

1 ترشيش - بفتح التاء - قال في معجم البلدان هو ٱسم مدينة تونس التي بإفريقيَّة وهو ٱسمها بالروميَّة. (376/2).

عليـــك بـــه اللّهـــم في قتلـــــــه أبي   وعمّي أرجو أن يلاقي ما لقــــــوا

وهذه القصيدة اعتنى بها عالم من علماء تونس الأجلة وهو الشيخ صالح الكوّاش[1] وهذا الشرح يعّد مفقودا إلاّ النصف الثاني فــإنّ خزانـــة الوالـــد المرحوم محمّد الصادق النّيفر(-1356هـــ) تحتفظ به وهو من أندر النـــوادر، وهو شرح حفيل كشرح الشّافعي.

---

1 الشّيخ صالح الكوّاش آخر أعلام تونس الأفذاذ جمع إلى العلم الصّلابة في الحقّ، وكان مشتهرا بالتّحرير. توفّي سنة 1218هـ

الفهارس

فهرس الآيات القرآنية

الصفحة

فهرس الأحاديث النبويّة

نصّ الحديث	الصفحة
- اعرف وكاءها وعقاصها...	423
- ما من مسلم يبيت طاهرا فيتعار من الليل...	456
- أشقى الولاة من شقيت به رعيّته...	468
- الرّاحمون يرحمهم الله تبارك وتعالى...	222، 590
- قال يا رسول الله مرني... فقال له، لا تغضب...	594
- إنّ المؤمن يجاهد بسيفه ولسانه ويده...	133

فهرس الأعلام

أ

ب

ت

ث

ج

د

ذ

ر

غ

ف

ق

ن

فهرس الأماكن

أ

ب

ت

فهرس القوافي

قافية الألف

قافية الباء

قافية الزاي

قافية السين

قافية الشّين

قافية الصاد

قافية ضاد

قافية الطاء

فهرس المصادر والمراجع

- أبو تمام الطائي حياته وحياة شعره: البهبيتي (نجيب محمد)، القـــاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1945.

- إتحاف أهل الزّمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان: ابن أبي ضياف (أحمد)، تونس، كتابة الدولة للشؤون الثقافيّة والأخبار،1963.

- إحياء علوم الدين: الغزالي (أبو حامد)، استنبول، دار تمل، 1986.

- أزهار الرياض في أخبار عياض: المقري (أحمد بن محمد)، تحقيق عبـــد السلام هراس وسعيد أحمد أعراب، المغـــرب، صـــندوق إحيـــاء التـــراث الإسلامي، 1400هـ/1980م.

- الأعلام: الزركلـــي (خـــير الـــدين)، ط.5، بـــيروت، دار العلـــم للملايين،1980.

- الأنيس المطرب فيمن لقيه مؤلّفه من أدباء المغرب: الشريف العلمـــي (أبوعبد الله محمد بن الطيّب)، فاس، المطبعة الفاسيّة، 1305هـ.

- الأوراق: الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى)، ط.أولى، مصر، مطبعـــة الصّاوي، 1934.

- تحفة الأدب في ميزان أشعار العرب: أبو شنب (محمد)، ط. 2، الجزائر 1928.

- تكميل الصلحاء والعلماء لمعالم الإيمان في أولياء القـــيروان: الكنـــاني (محمد بن صالح عيسى)، تونس، المكتبة العتيقة، 1970.

- تراجم المؤلّفين التونسيين: محفوظ (محمـــد)، ط. أولى، بـــيروت، دار الغرب الإسلامي، 1982..

- تاج العروس من شرح القاموس: الزبيدي (محمد مرتضى)، القـــاهرة، المطبعة الخيرية، 1307هـــ.
- الجواهر السَّنية في شعراء الدّيار التونسيّة: بيرم الرابع (محمد)، تحقيـــق الهادي حمودة الغُزّي، ط.أولى، تونس، المكتبة العتيقة، 1973.
- جنّة الولدان في الحسان من الغلمان: الحجازي (شـــهاب الـــدين)، ط.أولى، مصر، مطبعة السعادة، 1326هـــ/1908م.
- الحلل السندسيّة في الأخبار التونسيّة: الوزير السّراج (محمد بن محمد)، تحقيق محمد الحبيب هيلة، ط.أولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1985.
- خزانة الأدب وغاية الأرب: ابن حجّة الحموي (أبو بكر علي)، ط. أولى، مصر، المطبعة الخيريّة، 1304هـــ.
- ديوان أبي الطيّب المتنبّي: تصحيح عبد الوهّاب عزّام، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنّشر، 1363هـــ/1944م.
- ديوان أبي نواس: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، القاهرة، مطبعة مصر، 1953.
- ديوان علي الغراب الصفاقسي شعره ونثره: تحقيق وتقديم محمد الهادي الطاهر المطوي وعمر بن سالم، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1973.
- ديوان عبد اللّطيف الطوير القيرواني: جمع وتحقيق أحمـــد الطـــويلي، ليبيا- تونس، الدار العربيّة للكتاب، ، 1981.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني (أحمد بـــن علي)، ط. أولى، الهند، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1348هـــ.
- ذيل بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان: خوجة (حسين)، تحقيق الطاهر المعموري، ليبيا، تونس، الدار العربيّة للكتاب، (د.ت).
- رحلة التجاني: التجاني (أبو محمد عبد الله)، تونس، المطبعة الرّسميـــة، 1378هـــ/1958م.

- رحلة العبدري، المسمّاة الرحلة المغربيّة: العبدري (أبو عبد الله محمد)، تحقيق محمد الفاسي، الرّباط، وزارة الدولة المكلّفة بالشؤون الثقافيّة والتعليم الأصلي، 1968.
- سلك الدّرر في أعيان القرن الثاني عشر: المرادي (محمد خليل)، القاهرة، مطبعة بولاق، 1301هـ.
- شجرة النّور الزكيّة في طبقات المالكيّة: مخلوف (محمد بن محمد)، دار الفكر، (د.ت).
- صحيح البخاري: البخاري (إسماعيل)، شرح مصطفى ديب البغا، ط.3، بيروت، دار ابن كثير، دار اليمامة، 1307هـ/1987م.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: السخاوي (محمد بن عبد الرحمان)، مكتبة القدسي، القاهرة، 1353هـ.
- الضّرائر وما يسوغ للشّاعر دون النّاثر: الآلوسي (السيد محمود شكري)، شرح محمد بهجة الأثري، القاهرة،المطبعة السّلفية، 1341هـ.
- عنوان الأريب عمّا نشأ بالبلاد التونسيّة من عالم أديب: النّيفر (محمد)، ط. أولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996.
- العمدة في محاسن الشّعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيرواني (أبو علي الحسن)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط. 2، مصر، مطبعة السعادة، 1374هـ/1955م.
- فوات الوفيات: ابن شاكر (محمد)، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، (د.ت).
- القاموس المحيط: الفيروزابادي (محمد بن يعقوب)، مصر، المطبعة الميمنيّة، 1319هـ.
- الكتاب الباشي: ابن عبد العزيز (حمودة بن محمد)، تحقيق محمد ماضور، تونس، الدار التونسيّة للنشر، 1970.

- كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة (مصطفى بن عبد الله)، استنبول، وكالة المعارف الجليلة، 1360هـ/1941م.
- لسان العرب: ابن منظور، دار المعارف، (د.ت).
- المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس: ابن أبي دينار (أبو عبد الله محمد)، تحقيق وتعليق محمد شمّام، ط.3، تونس، المكتبة العتيقة، 1387هـ.
- مجمل تاريخ الأدب التونسي: عبد الوهاب (حسن حسني)، تونس، مكتبة المنار، 1968.
- معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان: ابن ناجي (أبو القاسم بن عيسى)، تحقيق محمد ماضور ومحمد الأحمدي أبو النّور، تونس، المكتبة العتيقة، (د.ت).
- معجم البلدان: الحموي (ياقوت)، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، ط. أولى، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1410هـ/1990م.
- المعجم الوسيط: القاهرة، مطبعة مصر، 1961.
- معجم المؤلّفين: كحّالة (عمر رضا)، دمشق، مطبعة الترقّي، 1380هـ/1960م.
- مسامرات الظّريف: السنوسي (أبو عبد الله محمد بن عثمان) تحقيق وتعليق الشيخ محمد الشاذلي النّيفر، ط. أولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1994.
- المستظرف من أخبار الجواري: السيوطي (جلال الدين)، تحقيق صلاح الدين المنجد، ط.أولى، بيروت، دار الكتاب الجديد،1963.
- مفاتح النّصر في التعريف بعلماء العصر: العياضي (محمد المختار)، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، فصلة من النّشرة العلمية للكلية الزيتونيّة، عدد4، سنة 1976-1977.
- المنتخب المدرسي من الأدب التّونسي: عبد الوهّاب (حسن حسني)، ط.2 ، القاهرة، المطبعة الأميرية، 1944.

- نفح الطّيب من غصن الأندلس الرّطيب: المقري (أحمد بن محمد)، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، 1388هـ/1968م.
- نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار: مقديش (محمود)، تحقيق علي الزواري، محمد محفوظ، ط. أولى، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.
- هديّة العارفين: البغدادي (إسماعيل باشا)، استنبول، وكالة المعارف الجليلة، 1951.
- وفيات الأعيان: ابن خلّكان (أحمد بن محمد)، تحقيق إحسان عبّاس، بيروت، دار صادر، (د.ت).
- الوساطة بين المتنبّي وخصومه: الجرجاني (علي بن عبد العزيز)، ط. أولى، مصر، دار إحياء الكتب العربيّة، 1945.

فهرس الموضوعات

الملاحق

تاريخ صدور أدباء سالفون في الملحق الثقافي لجريدة العمل

1. محمد الشافعي بن القاضي (8 حلقات)

الحلقة (1): 1968-02-02

الحلقة (8): 1968-03-22

2. أحمد العصفوري

الحلقة (1): 1968-03-29

الحلقة (2): 1968-04-05

الحلقة (3): 1968-04-12

3. إبراهيم العصفوري (5 حلقات)

الحلقة (1): 1968-04-19

الحلقة (5): 1968-05-17

4. محمد المختار العياضي (5 حلقات)

الحلقة (1): 1968-05-24

الحلقة (5): 1968-06-28

5. عبد القادر السلوي (5 حلقات)

الحلقة (1): 1968-08-02

الحلقة (5): 23-08-1968

6. محمد ماضور الأندلسي (6 حلقات)

الحلقة (1): 06-09-1968

الحلقة (6): 11-10-1968

7. محمد الملا (3 حلقات)

الحلقة (1): 18-10-1968

الحلقة (3): 01-11-1968

8. ابن سعيد الحجري (10 حلقات)

الحلقة (1): 08-11-1968

الحلقة (10): 07-02-1969

من هنا أصبح الملحق الثقافي لجريدة العمل في شكل كرّاس مستقلّ، أرقامه وصفحاته مستقلّة.

9. حمودة بن عبد العزيز (23 حلقة)

الحلقة (1): الملحق عدد1 بتاريخ 14-03-1969

الحلقة (23): الملحق عدد 25 بتاريخ 05-11-1969

10. أبو الحسن الغراب (24 حلقة)

الحلقة (1): الملحق عدد 26 بتاريخ 12-11-1969

الحلقة (24): الملحق عدد 55 بتاريخ 10-04-1970

11. محمد سعادة (18 حلقة)

الحلقة (1): الملحق عدد 56 بتاريخ 17-04-1970

الحلقة (18): الملحق عدد 76 بتاريخ 04-09-1970

12. محمد الدرناوي (21 حلقة)

الحلقة (1): الملحق عدد 77 بتاريخ 11-09-1970

الحلقة (21): الملحق عدد 105 بتاريخ 02-04-1971

13. الطوير القيرواني (20 حلقة)

الحلقة (1): الملحق عدد 106 بتاريخ 16-04-1971

الحلقة (20): الملحق عدد 133 بتاريخ 29-10-1971

14. سميّة القيرواني (10 حلقات)

الحلقة (1): الملحق عدد 142 بتاريخ 31-12-1971

الحلقة (1): الملحق عدد 166 بتاريخ 23-06-1972

تصوير الأدب للحياة

أردت في بحثي هذا أن آخذ صورة للأدب التُّونسي في القرن الثاني عشر للهجرة، وأن تكون العاطفةُ التُّونسيَّة وعقليَّتُها متمثِّلة فيها. وإبـــراز تلـــك الصُّورة ليس قريب التَّناول لأنّ الشِّعر لم يكن مرآة للعواطف بصورة بارزة، ولم يكن مرسى للعقل.

وإنّما كان الشِّعر ملهاة لأدباء استطابوا الحياة لتمكُّـــهم منـــها لتـــوفُّر الأسباب وإقبال الدنيا. أو كان وسيلة للتقرُّب من أرباب السُّلطان لأخـــذ الجوائز أو تبوُّء المناصب أو لمكافأة الأساتذة بإظهار مكانتهم العلميَّة.

وأمّا خوالج النَّفس ومنطويات الضَّمير فشيء مبعثر في قصائد عابرة تجيش بها نفس شاعر في مرَّة واحدة، أو أبيات تندسّ بين غيرها أبت نفس الشَّاعر إلاّ أن تتطلّع في تلك القصيدة اليتيمة، أو تتسرَّب في أثناء القصيدة المبتغـــاة للنَّوال والمال أو المنصب والجاه.

حتَّى الحبّ الذي تراه والتغزُّل ليسا بحقيقيَّين لأنَّ الشُّعراء حبّهم محصور فيما يدرّ عليهم أمَّا أهل العشق بحقّ فصنف آخر غير هؤلاء، ميـــدان غـــير ميدان الشِّعر، فمن ميادينهم الغناء الشعبي المتلاشي لقلّته وعدم الاعتناء به.

ومن الميادين احتساء الطاس، والتذرّع بذرائع الوسطاء. على أنَّ هـــذه العاطفة لم تندثر من الأدب ولم يعف أثرها، ففي بعض القطعات مختلجات ضميريَّة ونتاج الفكر، فيما يدخل فيه الفكر، وأيّ شيء لا يدخل الفكر فيه تضاءل ولم تعثر عليه في الأدب، وليس السَّبب الجمود وإنَّما الفكر وُضـــع على الرفِّ، ولعدم فسح المجال له بسبب أنَّ نزوات الفكر لا يمكن التغلُّـــب عليها إذا أطلق له العنان، فالشَّاعر منهم يخاف نفسه ويتَّهم حـــسَّه ويـــودّ السَّلامة.

فالفكر في انطلاقه يجب أن يتناول كلّ شيء، وليس كلّ شـــيء إذ ذاك ممكن التَّناول في ظرف انصراف القوى السلطانيَّة منصرفه لأن تحيط سلطاها

بنفوذ تخنع له الحياة، وترتعد الفرائص عند سماعه، وتجف القلوب لهول سلطانه.

مُلَّ المُقَام فَكَمْ أُعَاشِر أُمَّةً أَمَرتْ بغَيْر صَلاحِها أمراؤُها
ظَلمُوا الرعيَّة واستجازُوا كَيْدهَا فعدَوْا مَصالحها وهم أُجَراؤُها

وصوَّر أبو العلاء المعرِّي من ملاله المقام بسبب الأمراء الطّغاة المتجاوزين المصالح، والعادين في نفوذهم وقيامهم بمهامِّهم بالغلو في عدو المصالح، والإسراف في الطّغيان.

وحاولت أن أقع فيها على ما يسمَّى باسم ذلك العصر ما فيه من تسجيل له –وسمّه بما شئت– والقصد أن تجد شعرا مبنيًّا على وقائع من عصره.

والظفر بالعصر في الأدب أيسر لأنَّ المواضيع المحدودة في التلهّي وفي المدح هي ذلك العصر، فهو فَوَّارة تتدفّق بالماء حولها الأوتار ترنّ في حديقة غنَّاء جمعت من الثمار ألوانا وما هو على غرار ذلك.

والامتداح بألوانه من امتداح شريف، وامتداح مسفّ هو صورة العصر –بالنسبة إلى غير أهله– مع قليل من تمثيل لما يدور في ذلك الوقت من شكوى، وإخوانيّات، وتوسّلات، وهجاء، وفخر، لكون العصر قد تسرّب إلى الشّعر.

فمن المستحيل أن لا يكون العصر منبثّا بين ثنايا الشِّعر، وإن كان تقليديّا، إذ في ذلك التَّقليد تَبْرزُ من الشَّاعر بعضُ نفسيَّته، وتُبْرِزُ مَعَهُ مُحيطَه.

فالانفكاك بين ما يعيشه الإنسان وبين محيطه لا يمكن بصورة من الصور، وما نجده هو المحيط، وما تَطْلبه أكثر من ذلك في أمَّة فقدت المقوِّمات وهي في استقلالها للكابوس المفروض من سلاطين بني حفص، وللثورات المنبعثة من النّهب والخيانة من القبائل.

وزادت في التَّدنِّي بعد الاستيلاء الإسباني، ثمّ التركي المنصب على الإنقاذ من الإسبان وعلى المحافظة على ما أنقذ كما هو عليه بإلقاء مقاليد الأمور بيد عسكريّين جمعت بينهم المهنة العسكريَّة ففيهم الإكريتي والكرسي وصنوف الأمم، فهي مجموعة أمميَّة دعاها أن تكون مجموعةً أمميَّةً الدُّخول في الجنديَّة والانتسابُ إليها لا حبّا في الجهاد كما عليه المسلمون الأوّلون، وإنّما حبّا في الارتزاق والكسب الهنيِّ بدون كدح وإعمال فكر.

ما طلع به الشِّعر من تلك الحقبة هو البضاعة المقدّمة منه للتَّكوين الضَّيق في سياسته واقتصاده واجتماعه، والنَّماذج من ذلك بين أيدينا في حكومات رسخت فيها تلك الصورة من صور ماضي التأخّر.

ومن شأن الحوادث إذا نزلت بأحد أن يلتمس لها المخارج من حياته وما تفيضه عليه من إمكانيَّات فيغوص فيها مستفيضا منها تلك الإمكانيَّات حتَّ يفوز بالظَّفر.

والغوص في أسباب الحياة متنوِّع عند الأمم، فالرَّاقية منها تطرق باب العقل والحكمة ليتدفّق السيل الفكري بما يجود به، وعند غيرها في شجاعتها وإقدامها على الأخطار وغاراتها وحيلها القتاليَّة.

وتبدّل النِّظام الحياتي في عصور التأخّر إلى الفزع بالكليَّة كلِّها إلى الأمير إمّا لاستدرار المال، وإمّا للضرب على أيدي الأعداء، فالرَّجل العاديّ يقول:"نطلع لسيدنا ونشكيلا" والشَّاعر وهو الورغي يقول:

ومَنْ مِثْلُهُ يُدْعَى لِكَشْفِ مُلِمَّة إذا قال واغوثاه أهْلُ المصَائب

أتظنّ أنّ الرأي العامّ آنذاك مجموعة يفكّر في حلّ مشاكلها بما تُحَلّ به المشاكل وبما يجتاز العراقيل.

كان للرأي العامّ تفكير خاصّ، وكان له نظر خاصّ في المشاكل فهو يوكلها إلى من تلقى إليهم مقاليد الأمور.

وعبارة من قلَّدناه أمورنا عبارة تُنبِئ عن أنَّ النُّخبة كانت ترى أنَّ أمورها لم تتقلَّدها بنفسها، وإنَّما هي بيد من يتولَّى السُّلطة.

وكثيرا ما سمعنا من الخطباء على المنابر يدعون بحرارة أن ينصر المولى جلّ جلاله من يُقلَّد أمورنا.

ففي استسماح النُّفوس لألسنتها أن تعتبر وأن تدعو بأنَّها تخلَّت عن أمورها وتقلَّدها غيرها وهو أمير العصر كما يقولون. فالتَّفكير الشَّائع هو أنَّ حلاَّل الأزمات وأنَّ مصير الثَّرى هو صاحب السُّلطان فلذلك اتَّجهت القرائح الشِّعرية، وارتبطت بكلِّيتها إلى مدح الأمراء، والكيل لهم بالمكيال الأوفى غير مبالين بالحقيقة فينسبون إليهم العدل وهم أبعد النَّاس منه، ولا يشمُّون له رائحة. ويدَّعون لهم من الأعمال ما تعجز عنه الأمم بجملتها، فنسبوا لهم خوارق العادات.

ويدَّعون لهم المكارم دانيها وقاصيها فلم يفتهم شيء منها، وبلغوا بمكارهم آفاق السَّماء العليا، فشهدت النُّجوم بأفلاكها بأنَّهم في تسخير الأكوان من دراهما.

فأيّ مترله فاتته صهوتها أو رتبة لم يكن فيها له خبب
سَلْ طالع الأفق عن مرمى مواطئه تدري منازله الآفاق والشّهب

فالمدح بما انطوى عليه من أكاذيب وتزلّف، وبما كان فيه من ادّعاءات تفنَّن فيها الشعراء، أضرَّت كثيرا أو قليلا، وكانت هي السَّبب في تأخُّر العقليَّة أم لم تكن، يتحتَّم دراسة ذلك الأدب لنفهم العصر وما نبت فيه من نفسيَّة وعقليَّة.

تمخَّض العصر السَّالف عن بقايا العصور السَّابقة له، فاجتمعت فيه أمثلة مشوَّهة لحقائق من التَّكوين الصحيح، فانقلبت فيها الدَّوافع إلى مخدِّرات، والشّعور إلى تحجَّر.

وتبلور فيه عدم الإحساس بالضَّعة فضلا عن تقبّل الأوضاع السياسيَّة الشاذَّة المبنيَّة على شهوات الأمراء، تجد النفسيَّة في ذلك العصر مستهترة بعزَّتها فتعترف بانحطاطها قيمة عن غيرها وتعبِّر عن ذلك ويجري على

ألسنتها كما يقول المثل المتعارف في عدم التَّساوي قسمة "تركي مع ولــد عربي".

ومن خلال هذه الدِّراسات نقف على موطن الدَّاء في تــأخُّر العقليَّــة والاستسلام لمن كان صاحب النُّفوذ، ونسبة كلّ شيء إليه حتَّى أنَّه تتجرَّد الأمَّة من حولها وقوّتها وتدَّعي غير محسَّة بأدنى وخز في قــرارة نفــسها أنَّ مقاليدها وزمامها —وفي ذلك مشاكلها ومطامحها- قد تخلَّت عنها وألقت بها إلى متولِّي الأمر يصنع ما يشاء لاعتقادها في خوارق قدرته، فيأخذه النّفــوذ ويتمكَّن من ناصية كلّ أمر فالمعقود عنده محلول، والمشكل عنده بــسيط، والمعدوم عنده موجود.

طريقتان: التقريظ والتقريض

ثار في نفسي موضوع من الأهمّية بمكان، وهو أنّ العربيّة نجد فيها كلمة واحدة بمعنى واحد ترسم برسمين مختلفين وذلك في كلمات متعدّدة، فتجد أحد الكاتبين يرسمها حسب رسم اختاره منهما، والآخر يكتبها حسب رسم آخر مخالف لما اختاره غيره، لأنّ اختياره غير اختيار غيره، وهذا يشتّت النّاظر، ويوقع البلبلة في الفكر.

والذي أثار هذا في نفسي أنّي اخترت أخيرا كتابة التقريض هكذا بالضاد الساقطة في بعض حلقات أدباء سالفين وهي الحلقة الثالثة من سميّة القيرواني، وقبل خروجها منشورة لكن بعد طبعها بدا لي أنّي ربّما اخترت غير المختار، فرجعت إلى مذكّراتي فرأيت أنّ التّاريخ الباشي جاء فيه وللكاتب أحمد سميّة —بالضاد الساقطة— لقصيدة الأصرم ج 1 ص 351، وهو الذي جعلني أختار الضاد على الظاء المشالة لأنّ الكتاب لأحد كتّابنا النّبهاء البارعين وهو الشيخ حمودة بن عبد العزيز، وهو هو، ثمّ إنّ الكتاب بتحقيق أخينا الشيخ محمد ماضور وهو من الكتّاب أيضا.

ولأطمئنّ رجعت إلى عنوان الأريب لأرى الشّيخ المرحوم محمد النّيفر صاحبه كيف يكتب مقرضا فوجدته يكتبه بالضاد كما في الجزء الثّاني ص 31، ونصّه:

ومن شعره مقرضا قصيدة مخدومه محرّكات السّواكن، والعنوان مطبوع على نسخة بخطّه ومصحّحة من طرف محقّقين منهم شيخنا علي النّيفر ابنه.

والمتقدّمون من التّونسيّين الكثير منهم على هذه الطريقة، و لم أقف إلاّ على القليل الذي يكتبه بالظاء المشالة.

وكان اعتمادي فوق كلّ شيء على ذلك الاختيار في الكتابة بالضاد على أحد كتب اللّغة، وهو أقرب الموارد الذي هو عمدة في اللّغة بعد كتب المتقدّمين، وفيه قرضته كقرظته وهو قد سوّى بينهما، وعلى هذا الغرار كتب اللّغة الأخرى مثل المنجد.

وإذا رجعنا إلى كتب اللّغة التي للمتقدّمين مثل القاموس نجده يقول: والتقريض المدح، والذمّ ج 2 ص 354.

فالتقريض والتقريظ كلاهما للمدح، وهو ما أشار إليه الزبيدي في تاج العروس:

والتقريض مثل التقريظ.

ولزيادة التحرير رجعت إلى المطالع النّصريّة للشيخ الهوريني لأرى كيف يكتبه فوجدته حين أثبت بعض ما مدح به كتابه في أوّله كتب ما يأتي تقريظات للأفاضل الأزهريّة على كتاب المطالع النّصريّة، والشيخ الهوريني أحد الذين يعتمد عليهم في التّصحيح، وهو وإن لم يصرّح باختياره، فما أثبته كذلك في أوّل كتابه بذلك الرّسم دليلا على اختياره.

وقد احترت لّما رأيت ذلك، ولو أنّي استقبلت من أمري ما استدبرت لكتبته كما جاء في المطالع النّصريّة تبعا له، وهو الذي كنت أميل إليه.

فإزاء التّردّد هذا خطر ببالي أنّ مثل هذا ينبغي أن يحتاط له، فتذكر القواميس ما يختار اعتمادا على كتابة بعض المحقّقين، أو ما يقرّره المجمع اللّغوي قطعا لتلك البلبلة والتّردّد من الأذهان.

وهذه الطريقة خير من التي اختارها أصحاب المعجم الوسيط لمجمع اللّغة العربيّة بالقاهرة من حذف الرّسمين، والاقتصار على أحدهما لأنّ هذه الطريقة ليست موفية بكلّ ما جاء في العربيّة، وهذا ما جعل الكثير يؤثرون على الوسيط أقرب الموارد لأنّهم يرون فيه المحافظة الكلّية حين التّفسير اللّغوي على ما لسّلف.

فهذه اللّفظة التي أثارت في هذا أنتج البحث أنّ المتقدّمين عندنا في تونس يكتبون التقريض بالضاد وأمّا المتأخّرون فقد طغت عليهم موجـه المـشرق فكتبوه بالظاء.

وحين ألتمس للطريقة المشرقيّة دليلا أرى أنّها اعتمدت على ما جـرى عليه العمل من الاقتصار على أحد الرّسمين، وهو الذي أوحى بالاقتصار في اللّغة على أنّ التّقريظ بمعنى المدح إنّما هو بالمشالة خاصّة مع إهمال الرّسـم الآخر.

وهو ما اختاره أصحاب المعجم الوسيط، ولا نزاع فيما اختاره الشيخ نصر الهوريني، وسلكه أصحاب المعجم الوسيط، وإنّما النّزاع في الأسلوب، وهو حذف بعض الاستعمالات، وفي ذلك بتر لغوي، فلو وقع ذكـر مـا جاءت به اللّغةمع أنّه ينصّ على المختار لأي وجه كان لجريـان العمـل أو غيره.

فلو سلكت هذه الطريقة لكانت بردا وسلاما ولدعت إلى اعتماد كتب أصحابها، ولغطّت على غيرها من الكتب مهما كان التّنميق، ومهما كـان التّحسين، ولأصبحت المرجع الوحيد اطمئنانا إليها.

وهذه الرغبة في المحافظة دعا إليها أنّ اللّغة العربيّة لغو محافظة، وذلك من أسبا بقائها على أصالتها، وهي متجدّدة نامية، وهذا من غرائب الجمع حيث سار في قرن واحد الأصالة، والتّجدّد من غير أن يطغى أحدهما على الآخر.

بين المشرق والمغرب:

وهذا الاختلاف بين المشرق والمغرب في بعض حروف من العربيّة ليس مدعاة إلى الاختلاف في كلّ شيء بل هو في حدود خاصّـة، جـرّ إليـه الاختلاف في النّظرة والاختيار، وهذا الشأن البشري فإنّ البشر مهما كانوا في وئام لا بدّ أن يكون لبعض دون آخر شخـصيّة ممتـازة، وإلاّ ذابـت الشخصيّة من النّاس.

ومن هنا وجد الاختلاف بين طريقة المشارقة وطريقة المغاربة في أمر أساسي، وهو الأبجدية فإنّ الطريقة المشرقيّة المنتشرة اليوم تخالفها الطريقة المغربيّة في التّرتيب.

وهذا الاختلاف ليس من أوّل الحروف بل يبدأ من حرف السين إذ يأتي بعد حرف الزاي الطاء بيناما في التّرتيب المشرقي يأتي حرف السّين.

والطريقة المغربيّة كانت متعارفة إلى عهد قريب في الكتاتيب القرآنيّة لأنّها مأخوذة بالتلقّي، فلمّا تأسّست المدارس اعتمدت فيما اعتمدت عليه كتب التّعليم، والكثرة الوفيرة من المشرق تلاشت الطريقة المغربيّة وأصبحت منسيّة حتّى أنّ الكثير لا يعرف عنها شيئا.

ولكن من الخير أن تتّحد الطّريقة المشرقيّة والمغربيّة، وأن يؤخذ بما هو أولى وأشهر.

والشخصيّة يمكن إبرازها في غير ذلك من ترتيب حروف واختيار رسم على آخر، وإنّما في أوجه الثقافة المختلفة لأنّ هذه الأوجه اليوم تعدّدت وتنوّعت ففيها ميدان فسيح.[1]

1 نشر في العمل الثقافي الجمعة 11 فيفري 1972.

التاريخ[*] بحساب الجُمَّل[1]

رأيت في العدد الذي وصلني من مجلّة المنهل الغرّاء بتاريخ شوّال من سنة 1395 في بريد القارئ، رسالة كتبها الأستاذ عبد الكريم الخميسي الملحق الإعلامي بسفارة الجمهورية العربيّة اليمنيّة بجدّة تعليقا على ما كتبه في "شذرات الذّهب" الأستاذ الجليل والشّاعر الفحل أحمد بن إبراهيم الغزاوي حول التّاريخ بكلمات يؤتى بها تاريخا مخصوصا يستخرج من الحروف بحساب الجمل، وقد استشهد الأستاذ الغزاوي على ذلك بقول الشّاعر محمود الحفاوي مؤرّخا سنة نزول السّيل على المسجد الحرام حتّى حاذى الحجر.

سيل عظيم ما رؤي مثله تاريخه: الماء حاذى الحجر

فذكر الأستاذ الخميسي أنّ بعض شعراء اليمن وهو الشّاعر عبد الكريم إبراهيم الأمير أنشأ قصيدة تتجاوز الأربعين بيتا في كلّ بيت أربعة تواريخ... ولّما رأيت ذلك أحببت أن أساهم في هذا الموضوع حيث أنّ لشاعر تونسي قصيدة عجيبة في كثرة تواريخها، فأنبّه على ما في هذه القصيدة من تواريخ عدّة مقدّما على ذلك نبذة في نشأة التّاريخ حسب هذه الطريقة، وبعض فوائد تتعلّق بهذا البحث.

ابتداع التاريخ بحروف

ابتدع الشّعراء المتأخّرون نوعا بديعا طريفا، وهو أن يأتوا بكلمة أو كلمات يستخرج من حروفها بحساب الجمل عدد يكون المستخرج عددا للسّنة المطلوب تاريخها.

---

* نشر بمجلّة المنهل السنة 42، المجلّد 38، الجزء 5، جمادى الأولى 1396هـ/مايو 1976

1 هذه العجالة مهداة إلى الشّاعر الفحل أحمد بن إبراهيم الغزاوي تعليقا على ما جاء في شذراته.

وعدّ هذا النّوع من البديع لم يسبق إليه إلاّ الشّيخ عبد الغني النابلسي (1050-1143) في بديعيّته.

وهذا ما جاء في بديعيّته الثانية كما هو في نسخة الديوان الكبير، والبدر المشرق المنير، وريحان الرياحين، في تجلّيات الحقّ المبين، على جميع أنواع الصّيغ والتّلاوين، من نسخة في خزانة كاتبه عليها إجازة بخطّ صاحب الدّيوان الشّيخ النابلسي المذكور لتلميذه محمد بن الحاج محمد:

وقلت للربع لما الفكر أرّخها يا ربع قد تمّ مدحي سيّد الأمم

ومطلع هذه البديعية:

يا منزل الركب بين البان والعلم من سفح كاظمة حييت بالديم

وقد ذكر الشّيخ عبد الهادي نجا الأبياري (1305) في كتابه (النّجم الثاقب في المحاكمة بين البرجيس والجوائب)[1] نقلا عن الشّيخ البكري الصديقي أنّ الشيخ عبد الغني النابلسي هو أوّل من ذكر التّاريخ بالطريقة المذكورة في بديعيّته ولكنّه لم يذكر البيت الذي أشار به إلى عدّ التّاريخ من أنواع البديع.

ويؤيّد ما ذكره أنّي لم أقف على بديعية سابقة ذكرت هذا النّوع ضمن ما حكته من أنواع البديع كما سلف وهذه البديعيّة النابلسيّة شرحها ناظمها بشرح سمّاه نفحات الأزهار على نسمات الأسحار.

ولكن هذه البديعية لم يذكر فيها اسم النّوع البديعي، وإنّما يمثّل له فقط. وإنّما التزم ذلك في بديعيّة أخرى سمّاها مليح البديع، في مديح الشّفيع.

---

1 (برجيس باريس، أنيس الجليس) جريدة أنشأها باللّغتين العربيّة والفرنسيّة الكونت رشيد – بالتصغير- الدحداح في باريس سنة (1858) والبرجيس نجم هو المشتري.

والجوائب صحيفة أسبوعيّة أنشأها أحمد فارس الشدياق في الأستانة سنة (1278-1860)، والنّجم الثّاقب في المحاكمة المذكورة للأبياري طبع على الحجر سنة 1380.

وهذه البديعيّة لم يشرحها كما نصّ عن ذلك في كتابه الديوان الكبير وجاء ذكر هذا النّوع في قوله:

بمدحك ارتفعت أقدارنا شرفا والمدح قد (أرّخوه) جال العظم

ولتمييز اسم النّوع البديعي يكتب اسمه بالأحمر وبقيّة البيت بالأسود.

هل الاعتبار بالمرسوم أو المنطوق؟

ونقل صاحب النّجم الثّاقب عن الشّيخ محمد البكري الصديقي نقلا عن النابلسي:

هل تحسب الحروف المرسومة أو المنطوق بها ؟ قال الشّيخ عبد الغني النابلسي: لم أر من تكلّم على ذلك من أصله وينبغي حساب الحروف المنطوق بها لا المرسومة كلفظ فتى ويخشى ممّا يكتب بالياء ويقرأ بالألف لأنّ كلمات التّاريخ إنّما جعلت لتقرأ وتحسب باعتبار أنّ حروف هذا اللّفظ دالّة بالحساب على السنة المقصودة، ولا دخل في الكتابة الحرف المحسوب وإلاّ توقّف حساب التّاريخ على كتابته، كما لا يبعد على صاحب الذّوق السّليم، مع أنّي استعملت كلا الأمرين في بعض تواريخ اقتضت ذلك. وقال البكري الصديقي ذلك، والأصحّ أن تحسب الحروف المرسومة، وقال الأبياري في النّجم: جوّز كلا من الأمرين من غير ترجيح الخير الرملي في فتاويه لّما سئل عن هاء التّأنيث نحو رحمة ومائة هل تعدّ في عمل التّاريخ هاء فتحسب بخمسة، أو تاء فتحسب بأربعمائة، فذكر النّصوص عن السّيوطي وأئمّة القراءات وغيرهم أنّها تحسب خمسة.

ثمّ قال آخرا: إنّ هذا بحسب الاصطلاح فلا مانع من العمل بكلّ، وعقّب الأبياري على هذا بقوله:

ومن هنا يعلم حكم ما توقّف فيه بعضهم من الحروف المزيدة خطّا كواو عمرو، هل تحسب أو تلغى، ومثل ذلك الهمزة التي ينطق بها همزة وترسم واوا، أو ياء على اختلاف أحوالها من رفع أو نصب أو جرّ، هلك فرعون

وملؤُه، وبان خطؤه، وفي ملئه، وكذا نحو قائل ونائل، ويلائم، والياء المتطرّفة سواء كانت حقيقة أم صورة بأن كانت بدلا عن همزة كتــبرى وبــارى ويستبري أم بدلا عن ألف مقصورة في مثل رمى ويخشى وحتّى وعلى، وإلى وبلى فيجوز في جميع ذلك النّظر إلى اللّفظ فتحسب بواحد في جميــع مــا ذكر، والنّظر إلى الخطّ فتحسب الواو بستّة والياء بعشرة ولو على المعتمد في الياء المذكورة من أنّها لا تنقط نظرا لصورتها.

وكذا واو أوخي مصغّرا على القول بلزوم الواو فيه فرقا بينه وبين أخي المكبّر، وأمّا على القول بعدم لزوم الواو فيه فظاهر أنّها لا تحسب كمــا لا تحسب واو عمرو فيما لا تلزم زيادتها فيه كالقافية.

وبهذه المناسبة نذكر انتقاد العلاّمة الوزير أبي محمد حمودة بن عبد العزيز التّونسي (-1202) لسمّية القيرواني في تهنئته للأمير علي بن حسين ملــك تونس سنة (1174):

لّمــا أتــى عــام الهــــنا أرّخــــته عــام تجلّــى فــي سمــاء العــــافيه

العبرة في حساب التّاريخ

هل العبرة في حساب التّاريخ بالحروف المنطوقة أو المكتوبة، فإن كانت العبرة بالمكتوبة ينبغي أن تحسب ألف (تجلّى) بعشرة لأنّها تكتب ياء فلا يتمّ له التّاريخ[1].

فانتقاد الوزير ابن عبد العزيز على سمّية غير وجيه لأنّ الذي حرّره الشّيخ النابلسي واختاره كما تقدّم هو اعتبار الحروف المنطوقة دون المرســومة، ثمّ إنّه أجاز الوجهين.

1 التّاريخ الباشي 86/1.

سمّية القيرواني

وسمّية هذا هو أبو العبّاس أحمد سمّية القيرواني وقد ذكره الشّيخ محمد النّيفر في كتابه (عنوان الأريب عمّن نشأ بإفريقيّة من عالم أديب[1].

وكان حيّا سنة (1183) كما استفدت من تاريخ بعض قصائده حيث أنّي لم أقف على تاريخ وفاته.

وأبو العبّاس سمّية هذا له براعة في التّواريخ حيث يأتي بها مدقّقة مع وضوح المعنى وبلاغته وقد ذكر منها جملة وافرة الوزير ابن عبد العزيز في تاريخه الباشي من ذلك قوله في الأمير علي باشا الثّاني:

يا أيّها الملك المطاع ومن له ملك بأفوه المعالي ضاحك
فاهنأ بعيد جاء في تاريخه: عيد أتى بالسّعد وهو مبارك

ومن ذلك قوله مهنّئا له بسنة جديدة:

أبقاك ربّك للأنام مؤيّدا وحماك -إكراما- من النّكبات
ما أنشد النّجباء قول مؤرّخ: أسعد بعام حلّ بالبركات

ومحاسنه جمّة ومنها قوله في أهل وسلات[2] لمّا ثاروا على الأمير المذكور، وأنشده شعره الذي جاء في التاريخ أثناء حرب الأمير لهم:

بشرى أبا الحسن الرضا هناء جانبك الرّفيع
ولك الهنا إذ أرّخوا: (وسلات يهلك في ربيع)

وله مهنّئا بختان ابنيه وابني أخيه:

ملوك يد الأمن تختنهم بيمين فأرّخ (ختان الملوك)

وذلك أنّ الخاء من (ختان الملوك) بستمائة والتاء بأربعمائة، والألف بواحد، والنون بخمسين، والألف بواحد واللام بثلاثين، والواو بستّة، والكاف بعشرين.

وجملة ذلك (1178) وهي سنة الختان.

---

1 عنوان الأريب 52/2. وقد كتبت فيه بحثا مطوّلا وهو المنشور في هذا الكتاب ص *********.

2 جبل بوسط القطر التّونسي وضبط (وسلات) أنّه بكسر الواو وسكون السّين وفتح اللام الممدودة.

تاريخ وفاة البرزنجي

ومن غريب التّواريخ ما حدث في المدينة المنوّرة فإنّه لمّا توفّي الشّيخ جعفر بن حسن البرزنجي مفتي الشّافعيّة بها سنة (1177) رؤي بعد وفاته بأيّام فقيل له في ماذا تدور؟ فقال:

(في جنّة الفردوس يعلو منزلي)

وكان الذي رأى الشّيخ عبد القادر بن خليل كدك (1189)[1] فإنّه لمّا نظم القصيدة في رثائه رآه مناما فسأله كما تقدّم فأجابه بما ذكر فلمّا انتبه وجده شطر بيت فحسبه بحساب الجمّل، فإذا هو تاريخ وفاته فأدمجه في القصيدة.

وهذا على أنّ التاء من جنّة بأربعمائة، وفي ذلك خلاف كما تقدّم.

وكون الرائي هو الشّاعر نفسه على ما ذكره الشّيخ دحلان[2] في كتابه (أسنى المراتب).

وما ذكره حفيده للبنت الشيخ جعفر بن إسماعيل البرزنجي أنّ الرائي غير الشّاعر المذكور[3].

سلطانيّة قبادو

وقد أبدع وفاق الأقران في هذا الميدان، الشّاعر التّونسي أبو الثّناء محمود قابادو (-1280) فإنّه نظم قصيدة عصماء يمدح بها الخليفة السّلطان عبد المجيد الثاني وهي في هذا المعنى فريدة.

---

1 ترجم له في سلك الدّرر 56/3 وما جاء فيه من أنّه توّفي بالمدينة فغلط كما ذكره الكتّاني في فهرس الفهارس حيث نقل عن مرتضى الزبيدي أنّه توفّي بنابلس.

2 أسنى المراتب ص 41.

3 في شرح مولد جدّه (الكوكب الأنور) ص438.

وهذه القصيدة كان يظنّ أنّها تلاشت كما ذكر ذلك الـــشّيخ محمـــد السّنوسي (-1318) الذي جمع ديوان قابادو في جزئين وطبعه وهـــذا مـــا ذكره:

والقصيدة السلطانيّة تشتمل على غرائب الطرد والعكس ووجوه التّواريخ التي لا تدخل تحت حصر وقد كتب عليها في بيان وجوهها نحو كرّاس غير أنّي لم أظفر منها إلاّ بقوله:

وساق من القصيدة المستخرجة ثلاثة أبيات[1]، ولمّا اطّلع علـــى الـــديوان الكونت رشيد الدحداح في باريس كتب إلى الشّيخ السّنوسي جامع الديوان رسالة يخبره فيها بأنّ القصيدة وبعض حواشيها هي تحت يده بخطّ النّـــاظم الشيخ قابادو أعطاهما له الشّيخ المذكور حين كان الدحداح بتونس في بعض زياراته لها ثمّ نشر القصيدة الأمّ والقصيدة الأخرى المستخرجة منها وبعـــض الحواشي التي نقلها من مسودّة الشّرح لناظمها نفسه في كتابـــه (قمطـــرة طوامير) المطبوع في باريس سنة (1880) وإليك ما قالـــه في حـــقّ هـــذه القصيدة: قال:

فهذه الأعجوبة السنيّة التي لا تكاد تكون إنسيّة، هي ملكي وفي حوزتي أهدانيها مؤلّفها بعد رجوعها إليه من الأستانة وقال لي إنّه لم يمكّن أحدا من نسخها وعليها له شرح وجيز لبيان وجه وجوه استخراج التّـــواريخ منـــها فبمقتضاه يخرج (74440) أربعة وسبعون ألفا، وأربعمائة، وأربعـــون مـــن التّواريخ.

وقد نقلت بعض الحواشي من تسويد أعارني إيّاه غير كامل قال فيه: أنّه يخرج من البيت الواحد في خويصة نفسه (13827) تاريخا غير مـــا يخـــرج بالوجه السّالف، وأنّه يخرج من كامل القصيدة ألوف ألوف ألوف ألـــوف ألوف الألوف مكرّرة الإضافة خمس مرّات، وأنّه يزيد عدد التّواريخ الـــتي فيها على ما يحصل من تضعيف رقعة الشطرنج.

---

1 الجزء الثاني من ديوان قابادو ص 85.

فسبحان الله الذي قسم رحمته بين أهل الأرض ورفع بعضهم درجـــات فوق بعض،[1] وهذا مطلع القصيدة:

(خَيْرُ حَام) مجـــد (مجـــير) العبيـــد حاط خيرا مجـــرى لـــــ (عبـــد المجيـــد)

حاطه (عن عثار) جعد (برجـــف) منتج (حجد) عرف ربق الـــ (ـــــعهود)

ويستخرج من هذين البيتين بيت واحد وهو:

خـــير حـــام مجـــير عبـــد المجيـــد عـــن عثـــار برجـــف حجـــد عهـــود

وهكذا القصيدة يستخرج من كلّ بيتين بيت.

وقد اعتنى رشيد الدحداح بالقصيدتين من حيث بيان المعنى أوّلا، ثمّ من ناحية استخراج تلك التّواريخ فإنّه نقل بيان استخراجها ثانيا وجعل لذلك ذيلا للقصيدتين الأمّ والمولّدة منها.

قصيدة البخاري المصري

وقد أشار إلى قصيدة قريبة من هذه، الشّيخ عبد الهادي نجا الأبياري في (النّجم النّاقب) وقد أحرز قصبات السّبق في صناعته من أبناء العصر صاحبنا الأديب الأريب اللوذعي الألمعي الشّيخ مصطفى سلامة البخـــاري فـــضمّن البيت والبيتين الآلاف المؤلّفة من التّواريخ في الحادثة الواحدة.

وشرح كيفيّة ذلك في مطبوع منشور، ثمّ لخّص محصّله[2].

ولواطّلع الأبياري على قصيدة أبي الثناء قابادو، التّونسي، لأشار إليهـــا، لأنّها أعجوبة كادت تكون غير إنسيّة كما قال الدحداح.

---

1 قمطرة طوامير، من طمر وحبير، والطمر الثّوب البالي، والحبير الثّوب الموشّى الجديد، قال مؤلّفه الطّمر إشارة إلى قصيدة البغدادي، والحبير إشارة إلى قصيدة قابادو، وانظر قصيدة قابادو، فيه ص 46.

2 النّجم الثّاقب ص 41.